2020
7.1.2020

رواية

أسنان بيضاء

زيدي سميث

ترجمة أسامة إسبر

زادي سميث

أسنان بيضاء

ترجمة: أسامة إسبر

أسنان بيضاء

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

أسنان بيضاء

تأليف: زادي سميث
ترجمة: أسامة إسبر
تحرير أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-37-976-8

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
White Teeth
Copyright © Zadie Smith 2016

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

"إن ما مضى مقدمة".

مسرحية العاصفة لشكسبير، الفصل الثاني، المشهد الأول

آرشي

1945، 1974

لسببٍ ما يصعب فهمه تبدو جميع التفاهات مهمة اليوم، وحين تقول عن أمر إنه "لا شيء يعلق به" فإن هذا يبدو كتجديف. لن نعرف أبداً (كيف يمكن أن أعبر عن الأمر؟) أياً من أفعالنا وأياً من حالات كسلنا لن تعلق بها أشياء إلى الأبد.

"حيث تخشى الملائكة أن تخطو"، إي. م. فورستر

1

الزواج الثاني الغريب لآرشي جونز

في صباح باكر، في وقت متأخر من القرن، في كريكلوود، برودواي، في الساعة السادسة وسبع وعشرين دقيقة، وفي اليوم الأول من كانون الثاني\يناير 1975، كان ألفرد أرشيبالد جونز يرتدي بذلة من القماش القطني المضلّع ويجلس في سيارة كافالير مسكيتيير إستيت مليئة بالدخان ووجهه مسند على عجلة القيادة، آملًا أن الحُكم لن يكون ثقيلًا عليه. بفك مرتخٍ، ويدين متباعدتين على الجانبين كمثل ملاكٍ ساقط، كان مستندًا إلى الأمام على وجهه، وفي كل قبضة مضغوطة يحمل شيئًا: في اليسرى أوسمة خدمته العسكرية، وفي اليمنى عَقْد زواجه، ذلك أنه قرر أن يأخذ أخطاءه معه. ضوءٌ صغير أخضر لمع في عينيه أشار إلى منعطف إلى اليمين قرّر ألا يسلكه أبدًا. رضخ للأمر، واستعدَّ له. رمى قطعة نقد في الجو وصمم على التقيد بالنتيجة المترتبة على ذلك. كان هذا انتحارًا مبنيًا على قرار. وفي الحقيقة كان قرار العام الجديد.

لكن حتى بعد أن صار تنفسه متقطعًا وأطفأ أضواء سيارته، كان آرشي واعيًا أن كريكلوود برودواي سيبدو خيارًا غريبًا لأول شخص سيشاهد شكله المنهار من خلال زجاج السيارة الأمامي، وللشرطي الذي سيكتب تقريرًا عن الحادثة، وللصحفي المحلي الذي سيُستدعى كي يخطّ خمسين كلمة، وللقريب التالي الذي

سيقرأ الكلمات. ولم يكن كريكلوود المحصور بين مجمّع سينما اسمنتي كبير في طرف وتقاطع ضخم في الطرف الآخر مكانًا ملائمًا. لم يكن مكانًا يأتي إليه شخص كي يموت، بل يعبر فيه كي يذهب إلى أمكنة أخرى على الطريق إي 41. لكن آرشي جونز لم يرغب بالموت في أرض غابية جميلة وبعيدة أو على حافة جرف مهدب بنبات الخلنج الرقيق. إن الطريقة التي رأى بها آرشي الأمور هي أن الريفيين يجب أن يموتوا في الريف وأبناء المدن يجب أن يموتوا في المدن. وكان هذا ملائمًا فحسب. وينبغي أن يكون الأمر في الموت كما كان في الحياة. وكان مفهومًا أن أرشيبالد يجب أن يموت في هذا الشارع المديني الكريه حيث انتهى به المطاف للعيش وحيدًا في سن السابعة والأربعين في شقة تتألف من غرفة نوم واحدة تقع فوق دكان مهجور لبيع رقائق البطاطا والسمك. ولم يكن من النوع الذي يقوم بخطط متقنة ككتابة رسائل انتحار ووضع تعليمات الجنازة، ولم يكن من النمط الذي يقوم بأي شيء بارع. وكان كل ما أراده هو القليل من الصمت، والقليل من الهدوء كي يستطيع التركيز. وأراد للأمر أن يكون تامًا وهادئًا بشكل كامل، كما لو داخل حجرة اعتراف فارغة، في اللحظة التي تطرأ في الدماغ بين التفكير والكلام. وأراد أن يفعل ذلك قبل أن تفتح الحوانيت أبوابها.

في الأعلى، حلّق سربٌ من الطيور الضارة من مجثم ما غير مرئي وانقض وبدا كأنه يصفر فوق سقف سيارة آرشي ثم قام، في اللحظة الأخيرة، بانعطافة مؤثرة، متحركًا مع بعضه برشاقة رمية كرة وحط على محل حسين إسماعيل المشهور ببيع اللحم الحلال. كان آرشي قد اجتاز شوطًا كبيرًا في ما فعله بحيث لم يستطع أن يصدر ضجة كبيرة حوله، وابتسم في سريرته ابتسامة وديّة وهو يراقب الطيور تُودعُ حمولتها ملطّخة الجدران البيضاء باللون الأرجواني. وشاهدها تمد رؤوسها محدقة فوق مزراب حسين اسماعيل، وتراقب الدم ينزف من الحيوانات المذبوحة: الدجاج والأبقار والخراف المعلقة على خطافات كمعاطف في أنحاء الحانوت. تلك الحيوانات سيئة الحظ. وكانت تلك الطيور تعرف غريزيًا سيئي الحظ، وهكذا تركت آرشي. وبالرغم من أنه لم يعرف عن الأمر وفيما كان أنبوب

مكنسة الهوفر الذي يتوضع على مقعد الركاب يضخ من العوادم في رئتيه، كان محظوظًا في ذلك الصباح. وكان الغطاء الأكثر رقة لِلْحَظّ فوقه كندى طازج. وبينما كان ينزلق داخل وخارج وعيه، فإن موقع الكواكب وموسيقى الأفلاك ورفرفة الجناحين الشفافين للفراشة المرقطة في أفريقيا الوسطى وعددًا كبيرًا من الأشياء الأخرى التي تجعل الأمور السيئة تحدث قرروا أن الوقت قد حان لمنح آرشي فرصة ثانية. فقد اتُخِذَ قرارٌ في مكان ما، ونوعًا ما، من قِبل أحد ما، بأنه يجب أن يعيش.

*****

يملك محلَّ حسين اسماعيل رجلٌ يُدعى مو حسين اسماعيل، وهو رجل ضخم الجثة كالثور بشعر يرتفع وينخفض في خصلة ثم يبدو كتسريحة ذيل البطة. واعتقد مو أن المرء يجب أن يذهب إلى لبّ المسألة حين يتعلق الأمر بالحمام: وهو ليس الذرق بل الحمامة نفسها. وكان شعار مو: **ليس الذرق هو الذرق، إن الحمامة هي الذرق**. وهكذا بدأ صباح اليوم الذي شرع فيه آرشي بالانتحار ككل صباح في محل حسين اسماعيل، وكان مو يريح بطنه الضخم على حافة النافذة، مائلًا إلى الأمام ويلوّح بساطور في محاولة لإيقاف تساقط اللون الأرجواني الغزير.

"اخرجوا من هنا! ابتعدوا، أيها الأوغاد الصانعون للخراء! نعم، ستٌّ منها!"

كان الأمر كما يحدث في لعبة الكريكيت، لعبة الرجل الإنكليزي التي عدّلها المُهاجر، ورقم ستة هو العدد الأكبر من الحمامات التي يمكن أن تنال منها بضربة واحدة.

صاح مو[1] مناديًا إلى الشارع ورافعًا الساطور الدموي إلى الأعلى بشعور بالانتصار: "فارين! جاء دورك في التسديد. هل أنت مستعد يا ولدي؟"

تحته على الرصيف وقف فارين، وهو فتى هندوسي مفرط الوزن يؤدي عملًا تطوعيًا لخدمة الجماعة بسبب قضية أساءت فيها المدرسة المجاورة الحكم، وكان ينظر إلى الأعلى كنقطة كبيرة وبليدة دون أن يبدو عليه كأنه فهم سؤال مو.

وكان عمل فارين هو أن يصارع متسلقًا سلمًا ويجمع قطع خراء الحمام الملتصقة في كيس ثم يربطه ويضعه في الصناديق في الجهة الأخرى من الشارع.

صاح أحد موظفي مو من المطبخ، لاكزًا فارين في مؤخرته بمكنسة كفاصلة بين كل كلمة وأخرى: "هيا - أيها - السمين- ارفع - مؤخرتك - الهندوسية - الغانيشية [2]- وانهض - أيها الفتى- الفيل - وأحضرْ - بعضًا - من مادة - ذلك - الحمام - المهروس- معك".

مسح مو العرق عن جبينه ونخر ونظر فوق كريكلوود شاملًا بنظرته كراسي الذراعين المطروحة وقطع السجاد والقاعات الخارجية للسكارى المحليين ومحلات آلات البيع الذاتي والملاعق المتسخة بالدهون وعربات الأجرة المغطاة كلها بخراء الحمام. واعتقد مو أنه في أحد الأيام سيمتلك سكان كريكلوود سببًا كي يشكروه على مجزرته اليومية، وذات يوم لن يكون أي رجل أو امرأة أو طفل في هذه الحارة مضطرًا إلى مزج مقدار من المنظف مع أربعة مقادير من الخل لتنظيف الخراء الذي يتساقط على العالم. وردد بوقار: إن الذزق ليس هو الذرق، إن الحمام هو الذزق. وكان مو الرجل الوحيد في الجماعة الذي يفهم الأمور، ويشعر باسترخاء شديد حيال هذا، استرخاء من النوع الذي تمنحه ممارسة رياضة الزن، ويمتلك نية حسنة تجاه كل الناس، وكان هذا هو شعوره إلى أن لمح سيارة آرشي.

"أرشد".

خرج من الحانوت شخص نحيل بدا مخادعًا له شارب كمقود دراجة ويرتدي ملابس مصطبغة بأربع درجات من اللون البني والدم يخضب راحتي يديه.

كبح مو نفسه بصعوبة، طعن بإصبعه في اتجاه السيارة: "أرشد، يا ولدي، سأطلب منك مرة واحدة فقط".

"نعم، يا أبي"، قال أرشد، منتقلًا من قدم إلى أخرى.

"ما هذا بحق الجحيم؟ ما الذي يفعله هذا هنا؟ تأتيني البضاعة في السادسة والنصف. يصلني إلى هنا خمسة عشر ثورًا مذبوحًا في السادسة والنصف. يجب أن أضعهم في الخلف. وهذا عملي، كما ترى؟ هناك لحم قادم. وهكذا، أنا

متضايق..." بدت على مو نظرة تشوش بريئة. "لأنني اعتقدت أنه أُشير إلى هذا بوضوح: منطقة لتوصيل بضاعة". أشار إلى صندوق خشبي قديم كتب عليه لا يُسْمح بركن أية سيارة في أي يوم.

"حسنًا؟"

"لا أعرف يا أبي".

"أنت ولدي يا أرشد. أنا لا أوظفك أنت كي لا تعرف. أوظفه هو كي لا يعرف". مد يده من النافذة وصفع فارين، الذي كان يتمسك بمزراب خطر كبهلوان يسير على حبل، موجهًا ضربة إلى قفا رأسه وكان الصبي على وشك أن يسقط من مكانه. "أوظفك كي تعرف الأمور، كي تحلل المعلومات وتنتبه إلى التعليمات، كي تُضيء الظلمة الشاسعة لعالم الخالق غير القابل للتفسير".

"أبي؟"

"اعرفْ ما الذي يفعله هناك وتخلّصْ منه".

اختفى مو من النافذة. بعد دقيقة عاد أرشد بتفسير: "أبي".

قفز رأس مو عائدًا من النافذة كوقواق ماكر من ساعة سويسرية.

"إنه يخنق نفسه يا أبي".

"ماذا؟"

هز أرشد كتفيه: "صحت به من خلف نافذة السيارة طالبًا منه الذهاب فقال أنا أخنق نفسي، أُغربْ من هنا!"

قال مو وهو ينزل الدرج: "لا أحد يخنق نفسه باستنشاق الغاز في أملاكي، نحن لا نملك رخصة".

حالما وصل إلى الشارع، تقدم مو من سيارة آرشي، أزال المناشف التي تغلق الفجوة في نافذة السائق، ودفعها إلى الأسفل خمس بوصات بقوة ووحشية كالثور. "هل تسمع هذا يا سيد؟ لا نملك رخصة من أجل من يريدون الانتحار هنا. هذا المكان حلال، كوشر [3]، أتفهم؟ إذا كنت ستموت هنا يا صديقي يجب أن تصطبغ بالدم بشكل كامل أولًا".

سحب آرشي رأسه عن عجلة القيادة وفي اللحظة بين التركيز على الجسم المتعرق للشخص الذي يشبه إلفيس [4] ببشرة سمراء وإدراكه أنه لا يزال حيًا، حدث له نوع من التجلي. خطر لآرشي أنه للمرة الأولى منذ مولده قالت الحياة له نعم، وليس مجرد نعم بسيطة أو يمكن - أن - تواصل - أيضًا - بما -أنك- بدأت، بل كان هذا تأكيدًا في غاية الوضوح. فقد أرادت الحياة آرشي، انتشلته بغيرة من بين فكّيْ الموت، واستعادته إلى صدرها. وعلى الرغم من أنه ليس واحدًا من عيناتها الأفضل، إلا أن الحياة أرادت آرشي وآرشي أراد الحياة، وفاجأه هذا كثيرًا.

كالمسعور أنزل زجاج نافذتيه ولهث من أجل الأوكسجين من أعماق رئتيه ثم وهو وسط هذه الحالة شكر مو بغزارة، والدموع تتدفق على خديه، ويداه تتمسكان بمئزره.

قال اللحام، محررًا نفسه من أصابع آرشي ونافضًا كي ينظف نفسه: "حسنًا، حسنًا، اذهب الآن. لدي لحم قادم. أعمل في عمل النزف وليس في الاستشارة. تريد شارع لونيلي. هذا زقاق كريكلوود".

وانطلق آرشي مبتعدًا عن الرصيف وهو لا يزال يغمغم معبرًا عن شكره وانعطف إلى اليمين.

*****

حاول آرشي جونز الانتحار لأن زوجته أوفيليا، وهي إيطالية لها عينان بنفسجيتان وشارب خفيف جدًا، طلقته مؤخرًا. لكنه لم يمض صباح يوم رأس السنة في خنق نفسه بأنبوب مكنسة الهوفر الكهربائية لأنه كان يحبها. كان السبب هو أنه عاش معها طويلًا ولم يحبها. وكان زواج آرشي مثل شراء زوج من الأحذية وأخذهما إلى البيت واكتشاف أنهما لا يناسبان قياس قدميك، لكنك تتحمل لبسهما من أجل المظاهر، ثم فجأة وبعد ثلاثين سنة حمل الحذاءُ نفسه وسار مغادرًا المنزل. لقد غادرتْ. وها قد مر ثلاثون عامًا على الأمر.

وبقدر ما يتذكر، بدأ جيدًا تمامًا مثل الجميع. ففي الربيع الأول من عام

1946 خرج من ظلمة الحرب ودخل إلى مقهى فلورنسي، حيث خدمته نادلة بدت في الحقيقة كالشمس: أوفيليا دياجيلو، ذات الثياب الصفراء، والتي أوحت بالدفء، وبوعد بالجنس حين قدمت له الكابتشينو ذا الرغوة. ودخلا في علاقة غرامية وعلى أعينهما غِمامة كغمامة الفرس. ولم تكن من النوع الذي يعرف أن النساء لا يبقين أبدًا، كضوء النهار، في حياة آرشي، وأنه في دخيلائه لا يحبهن ولا يثق بهن، ولا يستطيع أن يحبهن إلا إذا كانت حولهن هالة. ولم يخبر أحدٌ آرشي أنه في شجرة عائلة دياجيلو هناك عمتان مصابتان بالهستريا وعَمٌّ يتحدث مع الباذنجان وابن عمّ يرتدي ثيابه بالمقلوب. وهكذا تزوجا وعادا إلى إنكلترة حيث أدركت خطأها بسرعة مما سبب لها الجنون وحُزمتْ الهالة ووُضعت في العلية كي يعلوها الغبار مع بقية الأشياء الأخرى التي لا قيمة لها وأجهزة المطبخ المعطلة التي وعد آرشي بأن يصلحها في يوم من الأيام. ومن بين تلك الأشياء مكنسة كهربائية من نوع هوفر.

*****

في صباح عطلة عيد الإهداء [5]، قبل ستة أيام من ركنه لسيارته أمام محل مو للحم الحلال، عاد آرشي إلى منزلهما المنعزل في هيندون كي يبحث عن مكنسة الهوفر الكهربائية. وكانت تلك رحلته الرابعة إلى العلية في أيام كثيرة، بعد أن خرج من تفاصيل الزواج التافهة وانتقل إلى شقته الجديدة، وكانت مكنسة الهوفر من بين آخر الأشياء التي استعادها، وعلى الرغم من أنها معطلة ودميمة للغاية فقد كانت من بين الأشياء التي تطالب بها بسبب توترك الشديد لأنك فقدت بيتك. وهذا ما يعنيه الطلاق: استرداد الأشياء التي لم تعد تريدها من الناس الذين لم تعد تحبهم.

قالت الخادمة الأسبانية على الباب، سانتا ماريا أو ماريا سانتا، أو شيء من هذا القبيل: "ها أنت ثانية، سيد جونز، ماذا الآن؟ مغسلة المطبخ، يا سيدي؟"

قال آرشي بتجهم: "الهوفر، المكنسة الكهربائية".

نظرت إليه بسرعة وبصقت على ممسحة الأرجل على بعد إنشات من حذائه: "أهلا، يا سيد".

صار المكان ملاذًا للأشخاص الذين يكرهونه. بصرف النظر عن الخادمة، كان عليه أن يجادل أقرباء أوفيليا الإيطاليين، والممرضة المسؤولة عن صحتها العقلية، والمرأة التابعة للمجلس، وبالطبع أوفيليا نفسها التي يعثر عليها في قلب مشفى المجانين هذا وهي تكور جسدها كجنين على الصوفا وتصدر أصواتًا كالجؤار في زجاجة بيلي [6]. ولم يستغرق الأمر منه إلا ساعة وربعًا كي يدخل عبر خطوط الأعداء، ومن أجل ماذا؟ مكنسة هوفر معطلة، مطروحة منذ شهور لأنها مصممة كي تقوم بعكس هدف أي مكنسة أخرى: بصق الغبار إلى الخارج بدلًا من شفطه إلى الداخل.

تبعته الخادمة إلى درج العلية، مسلحة بنوع من سوائل التنظيف وعلقت: "سيد جونز، لماذا تأتي إلى هنا إذا كان هذا يجعلك غير سعيد؟ كن عاقلًا. ما الذي تريده من هذه؟ إنها معطلة، أنت لست بحاجة إليها. أترى؟ أترى؟" وصلتها بالمأخذ الكهربائي فلم تعمل. نزعها آرشي من المأخذ بصمت ولف السلك حولها. سيستعيدها حتى ولو كانت معطلة، سيستعيد كل الأشياء المعطلة. سيصلح كل ما هو معطل في هذا المنزل، فقط ليؤكد أنه مفيد ولو في شيء واحد.

طاردته سانتا نازلة الدرج وهي تقول: "أنت لا تنفع لأي شيء! زوجتك فقدت عقلها، وهذا كل ما تستطيع فعله!"

ضم آرشي الهوفر إلى صدره وأخذها إلى غرفة الجلوس المكتظة وأخرج صندوق أدواته أمام أزواج عديدة من الأعين المستهجنة وبدأ العمل عليها.

قالت إحدى الجدات الإيطاليات الأكثر صخبًا والتي ترتدي لفاعات كبيرة وفيها شامات أقل: "انظروا إليه، إنه يأخذ كل شيء. لقد أخذ عقلها، أخذ الخلاط، أخذ الستريو القديم، أخذ كل شيء عدا ألواح الأرضية.

هل تفهمون؟[7]؟ هذا مقرف..."

هزت المرأة التابعة للمجلس، التي تشبه قطة بشعر طويل مبلّل حتى الجلد، رأسها النحيل موافقة: "هذا مقرف، لا حاجة كي تخبريني. هذا مقرف... وبشكل طبيعي، نُترك نحن هنا كي نحل المشكلة، إن ما يجري هنا سرقة يجب أن..."

وتقاطع هذا مع ما قالته المرضة: "بوسعها أن تمكث هنا لوحدها، هل تستطيع... بعد أن ذهب، المسكينة... تحتاج إلى منزل ملائم، تحتاج..."

أنا هنا، شعر آرشي بأنه يجب أن يقول هذا، أنا هنا كما تعرفون، أنا هنا، وهذا الخلاط ملك لي.

لكن آرشي لم يكن شخصًا مجابهًا. أصغى إليهم جميعًا لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى، صامتًا فيما كان يجرب الهوفر وهي تشفط بعض مزق الصحيفة إلى أن تغلب عليه إحساس بأن الحياة حقيبة ظهر ضخمة، ثقيلة إلى حد رهيب بحيث أنه على الرغم من أنها تعني فقدان كل شيء، كان من الأسهل بكثير ترك كل الأمتعة هنا على جانب الطريق والسير في العتمة. لا تحتاج إلى الخلاط، أيها الفتى آرشي، لا تحتاج إلى الهوفر. إن هذا الغرض حمل ثقيل. أنزل حقيبة الظهر فحسب، يا آرشي، وانضم إلى المخيمين السعداء في السماء. هل كان هذا خطأ؟ بالنسبة لآرشي: أصوات زوجة سابقة، وأقرباء زوجة سابقة في أذن واحدة، ومكنسة مهمهمة في أخرى، بدا فقط كأن النهاية وشيكة ومحتمة. لم تكن هناك مشكلة شخصية مع الله أو أي كان. شعر كأنها مثل نهاية العالم فقط. وكان يحتاج إلى شيء أقوى من الويسكي الرخيص، والرقائق الرخيصة وعلبة تافهة من الكواليتي ستريت (استهلك سابقًا كل العلب التي بنكهة الفريز) لتبرير دخول سنة أخرى.

أصلح الهوفر بصبر، وكنس غرفة الجلوس بتصميم غريب، مدخلًا الخطم في الزوايا الأكثر صعوبة. وبوقار قذف قطعة نقدية في الجو (النقش هو الحياة والطرة هي الموت) ولم يشعر بأي شيء خاص حين وجد نفسه يحدق بالأسد الراقص. وبهدوء فصل أنبوب الهوفر ووضعه في الحقيبة وغادر المنزل بلا رجعة.

لكن الموت ليس خدعة سهلة، ولا يمكن أن يوضع الانتحار على قائمة الأشياء

التي يجب أن تُفعل بين تنظيف مقلاة الشواء وموازنة رِجل الصوفا بآجرة. إنه القرار بألا تفعل، بأن تنتهي، وقبلة منفوخة على النسيان. وبصرف النظر عن ما يقوله أي شخص، إن الانتحار يحتاج إلى شجاعة. إنه للأبطال والشهداء، وللأشخاص المغرورين بشكل حقيقي. ولم يكن آرشي من هذه الطينة. كان رجلًا يمكن أن تحسب أهميته في الخطة الأكبر للأشياء بنسب مألوفة:

حصاة: شاطئ

قطرة مطر: محيط

إبرة: كومة قش.

وهكذا لبضعة أيام تجاهل قرار قطعة النقد وساق السيارة ومعه أنبوب الهوفر فقط. وفي الليل نظر عبر الزجاج الأمامي إلى السماء الشاحبة المدلهمة وأدرك حجمه في الكون، شاعرًا بمعنى أن يكون صغيرًا وبلا جذور. وفكّر بالفراغ الذي يمكن أن يحدثه في العالم إذا اختفى، وبدا قابلًا للإهمال، صغيرًا جدًا بحيث لا يمكن حسابه. وبدد المزيد من الدقائق متسائلًا إن كانت كلمة "هوفر" قد أصبحت اسمًا عامًا للمكانس الكهربائية، أو كما قال آخرون، مجرد اسم ماركة، وطيلة كل ذلك الوقت استلقى أنبوب الهوفر كمثل قضيب كبير مترهل في المقعد الخلفي، ساخرًا من خوفه الهادئ، ضاحكًا من خطواته التي كخطوات الحمامة وهو يقترب من الجلاد، ساخرًا من عجزه عن التصميم.

ثم في التاسع والعشرين من كانون الأول\ديسمبر ذهب لزيارة صديقه القديم صمد مياه إقبال. ربما كان صديقًا كريهًا، لكنه لا يزال أقدم صديق لديه، وهو بنغالي مُسلم قاتَل إلى جانبه حين وجبَ القتال، والذي ذكره بتلك الحرب، تلك الحرب التي ذكّرت بعض الناس بلحم الخنزير المدهن والجرابات التي يُرسم عليها، لكنها ذكرت آرشي بصوت الطلقات وألعاب الورق ومذاق الكحول الأجنبي الحاد.

قال صمد بنبرته الدافئة والصادقة: "آرشي، يا صديقي العزيز. يجب أن تنسى كل مشاكل الزوجة تلك. جرب حياة جديدة. هذا ما تحتاج إليه. الآن، هذا

يكفي: سأضع ما يعادل شلناتك [8] الخمسة وأزيد عليك بخمسٍ".

كانا يجلسان في مكانهما الجديد، مطعم أوكونيل بول هاوس، يلعبان البوكر بثلاث أيدي فحسب، يدين لآرشي وواحدة لصمد، كون يد صمد اليمنى مهشمة، رمادية الجلد وثابتة، وميتة تمامًا مما منع جريان الدم فيها. وكان المكان الذي جلسا فيه، حيث يلتقيان كل مساء لتناول العشاء، نصف مقهى، ونصف وكر للقمار، وتملكه عائلة عراقية، أصيب كثير من أعضائها بمرض جلدي خطير.

"انظرْ إلي. إن زواجي من ألسانا أسعد حياتي، أتفهم؟ فتح لي احتمالات جديدة. إنها صغيرة جدًا، وحيوية جدًا، كنفَس من الهواء النقي. هل أتيت إلي من أجل المشورة؟ إليك بها: لا تعش هذه الحياة القديمة، إنها مريضة يا أرشيبالد. لا تنفعك. لا فائدة منها على الإطلاق".

نظر إليه صمد بمودة كبيرة، شاعرًا بعطف كبير على آرشي. قاطعتْ صداقتهما من أيام الحرب ثلاثون سنة من الانفصال عبر القارات، ولكن في ربيع 1973 جاء صمد إلى إنكلترة، وكان رجلًا متوسط العمر، يسعى إلى حياة جديدة لعروسه الجديدة التي في العشرين من عمرها، ألسانا بيجوم الصغيرة جدًا ذات الوجه الذي يشبه البدر والعينين الذكيتين. وفي نوبة حنين، ولأنه الرجل الوحيد الذي يعرفه في هذه الجزيرة الصغيرة، بحث صمد عن آرشي وانتقل إلى المنطقة نفسها في لندن. وببطء لكن بقوة أعيد قدح شرارة نوع من صداقة بين الرجلين.

قال صمد وهو يضع الملكات الرابحات فوق بعضها: "أنت تلعب بشكل سيّئ". ضربها بإبهام يده اليسرى بحركة رشيقة واحدة، وجعلها تسقط في شكل مروحة.

قال آرشي راميًا الأوراق: "أنا عجوز، أنا عجوز. من ستقبل الزواج بي الآن؟ كان من الصعب أن تقتنع بي امرأة في المقام الأول".

"هذا هراء يا أرشيبالد. فأنت لم تلتق بعد بالمرأة الملائمة. هذه الأوفيليا. يا آرشي، ليست ملائمة. ومما فهمته منك إنها لا تنتمي حتى إلى هذا الزمن".

قال هذا مشيرًا إلى جنون أوفيليا الذي قادها إلى الاعتقاد لوقت طويل بأنها وصيفة محب الفن كوزيمو دي ميديتشي [9] من القرن الخامس عشر.

"وُلدت، لكنها تعيش في الوقت الخطأ، وهذا ليس يومها وربما ليست ألفيّتها. لقد فاجأت الحياة الحديثة تلك المرأة واحتقرتها. فقدت عقلها. أُنهكت. وأنت؟ اخترت الحياة الخطأ في ذلك المرحاض ويجب أن تستعيدها. فضلًا عن ذلك، لم تباركك بالأطفال... ما نفع الحياة بدون أطفال يا آرشي؟ لكن هناك فرصًا ثانية، نعم، هناك فرص ثانية في الحياة. صدقني، أعرف". ثم أضاف وهو يلتقط قطعة العشرة بنسات بطرف يده المعطلة: "كان عليك ألا تتزوجها من البداية".

اعتقد آرشي أنه إدراك متأخر لعين. من السهل جدًا أن يعرف المرء بالأمر بعد فوات الأوان.

أخيرًا، بعد يومين من نقاشهما، باكرًا في صباح يوم رأس السنة، وصل الألم إلى مستوى واخز بحيث لم يعد آرشي قادرًا على التقيد بنصيحة صمد. وقرر بدلًا من ذلك أن ينتحر، وأن ينهي حياته، ويحرر نفسه من طريق الحياة الذي سلكه وقاده إلى عدد من المنعطفات الخاطئة عميقًا في البرية وأخيرًا اختفى بشكل كامل وابتلعت الطيور مجراه المؤلف من فتات الخبز.

*****

حالما بدأت السيارة تمتلئ بالغاز جرّب الفلاش باك الإجباري لحياته حتى الآن وتبين أنها تجربة مشاهد قصيرة وغير سارة، قيمة المتعة فيها منخفضة، معادل ميتافيزيقي لخطاب الملكة أثناء افتتاح جلسةٍ برلمانية جديدة. طفولة بليدة، وزواج سيّئ، ووظيفة بطريق مسدود (الثالوث الكلاسيكي) ومرت كل تلك الأمور بسرعة وصمت وبحوار قليل، دونما اختلاف عن ما كانت عليه في المرة الأولى. ولم يكن آرشي شديد الإيمان بالقدر، ولكنه حين فكر بالأمر تبين له أن قدرًا مسبقًا اختار له حياته كهدية عيد ميلاد من شركة، باكرًا وكما هي كمثل جميع الأشخاص الآخرين.

نشبت الحرب، بالطبع. والتحق بها في عامها الأخير ولم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره، لكن هذا لم يكن مهمًا لأنه لم يخدم على الخطوط

الأولى، لا شيء من هذا القبيل. ولم يمتلك هو وصمد (العجوز سام، الفتى سامي) إلا بضع حكايات كي يروياها. انتبهوا! حتى آرشي أُصيب بشظية في ساقه ويمكن لأي شخص يهمه الأمر أن يراها، لكن لم يفعل ذلك أحد. ولم يرغب أحد بالتحدث عن الأمر. كانت كمثل قدم مشوهة أو شامة مشوهة، كمثل شعر الأنف الذي يشيح الناس أبصارهم عنه. لو سأل أحد ما آرشي: ما الذي فعلته في الحياة إذًا؟ أو ما هي أهم ذكرى لديك؟ ليساعده الله إذا ذكر الحرب، فقد كانت الأعين تحدق، والأصابع تنقر، ويعرض الجميع شراء دورة الشراب الثانية، ذلك أنه لم يرغب أحد في الحقيقة بأن يعرف.

في صيف 1955 ذهب آرشي إلى شارع فليت بحذائه ذي البوز المدبب، باحثًا عن عمل كمراسل حربي. قابله شخص بدا مدعيًا له شارب نحيل وصوت منخفض قال: هل لديك أي تجربة، يا سيد جونز؟ وشرح آرشي وكان كل ما ذكره عن صمد، وعن دبابته التي من نوع تشرشل. ثم انحنى ذاك المدعي فوق الطاولة بخيلائه وببذلته وقال: نريد شيئًا ما غير أنك قاتلت في الحرب يا سيد جونز. إن تجربة الحرب لا تهمنا في الحقيقة.

وهكذا كان الأمر: لم يكن. ولم تكن الحرب تهمّهم في 1955، وخفّت أهميتها أكثر الآن في 1974. لا شيء فعله إذًا يهم الآن. إن ما تعلمه من مهارات صار في اللغة الحديثة غير ذي صلة ولم يعد توصيله مجديًا.

هل هناك شيء آخر يا سيد جونز؟

بالطبع لم يكن هناك أي شيء آخر لعين، فقد عرقله النظام التعليمي البريطاني بازدراء. لكنه لا يزال يمتلك مهارة إضفاء مظهر أنيق أو جميل على الأشياء، وهكذا انتهى به الأمر إلى العمل في مورغانو هيرو، عشرين سنة قابلة للزيادة في شركة طباعة في أيوستون رود، مصممًا الطريقة التي يجب أن تُطوى بها الأشياء كلها: الظروف والبريد المباشر والبروشورات والمنشورات، وربما لم يكن هذا إنجازًا كبيرًا، لكنك ستجد الأشياء تحتاج إلى طيات، ويجب أن تتداخل وإلا فإن الحياة ستكون قطعة ورق عريضة تخفق في الريح وفي أسفل الشارع وتضيع منها

الأقسام المهمة. ولا يعني هذا أن آرشي امتلك الكثير من الوقت للصحف الكبيرة. إذا لم يكن طيّها بالشكل الملائم مهمًا بالنسبة لهم فلماذا يزعج نفسه بقراءتها (هذا ما أراد أن يعرفه؟)

ماذا أيضًا؟ حسنًا، لم يكن طي الورق الشيء الوحيد الذي فعله آرشي طوال الوقت. فقد اشترك مرة في سباق الدراجات. وما أحبه آرشي في سباق الدراجات هو الطريقة التي تُواصل فيها الدوران. ويمنحك الدوران المتواصل فرصة بعد أخرى كي تتحسن قليلًا في الأمر، وكي تقوم بدورة أسرع، وأن تنفذها بشكل صحيح، لكن آرشي لم يتحسن أبدًا. ولم يستطع في أية محاولة أن يتجاوز 62.8 ثانية، وهذا توقيت جيد، ومعيار عالمي. ولثلاث سنوات لم يكن يسجل إلا 62,8 ثانية في كل دورة. واعتاد سائقو الدراجات الآخرون أن يأخذوا استراحات ويراقبوه يفعلها. وكانوا يسندون دراجاتهم على السطح المائل ويوقتون له بالعقرب الثاني لساعات يدهم. وكان يجتاز المسافة في 62.8 ثانية كل مرة. وكان هذا النوع من عدم القدرة على التحسن نادرًا جدًا في الحقيقة، كان هذا النوع من الاستمرارية إعجازيًا، بطريقة ما.

أحب آرشي سباق الدراجات، وواظب على ممارسته بشكل جيد، وقد زوده بالذكرى الوحيدة العظيمة التي يمتلكها. ففي 1948 شارك آرشي جونز في الألعاب الأولمبية في لندن، وقد حصل على المرتبة الثالثة عشرة مع طبيب نسائي سويدي يدعى هورست إبلجوفتس. ولسوء الحظ حَذفت هذه الحقيقة من سجلات الألعاب الأولمبية سكرتيرة مهملة عادت في صباح أحد الأيام بعد استراحة القهوة وقد شغل ذهنها أمر آخر فسقط اسمه سهوًا وهي تنسخ قائمة على قطعة ورق أخرى. ألصقت السيدة بوستريتي اسم آرشي على ذراع الصوفا ونسيته. وكان دليله الوحيد على حصول الحدث هو الرسائل الدورية التي تلقاها مع مرور الأعوام من إبلجوفتس. رسائل مثل:

عزيزي أرشيبالد

أضمّن صورة لزوجتي الطيبة ولي في حديقتنا أمام موقع بناء غير ظريف. ورغم أنها يمكن ألا تبدو كأركاديا إلا أنني أبني هنا مضمارًا بسيطًا للسباق، ليس مثل الذي تسابقت أنا وأنت فيه، لكنه يلبي حاجتي. سيكون أصغر بكثير، للأطفال الذين لم نرزق بهم بعد. أراهم يدوسون على الدواسات حوله في أحلامي وأستيقظ بابتسامة مجيدة على وجهي! حالما يكتمل، يجب أن تزورنا، من أجدر منك بأن يعقّد المضمار الذي يملكه منافسك الجدّي؟

هورست إبلجوفتس.

كانت البطاقة البريدية متوضعة على لوحة قيادة السيارة في ذلك اليوم الذي أوشك فيه على الموت.

عزيزي أرشيبالد

28 كانون الأول 1974

كان القرار الذي اتخذته يوم رأس السنة إن شئت أن تعرف هو أن أتعلم العزف على القيثارة. في نهاية اليوم، أدركت أنني رغم تقدمي في السن ما أزال قادرًا على تعلم مهارات جديدة. ألا تشعر بذلك؟ إنها آلة ثقيلة إذا وضعها المرء على كتفه، لكن صوتها ملائكي وتعتقد زوجتي أنها تجعلني رقيق الشعور. وهذا كل ما تستطيع قوله عن هوسي القديم بركوب الدراجة. لكن ركوب الدراجة لا يمكن أن يفهمه إلا الكبار مثلك، يا آرشي، وبالطبع كاتب هذه الرسالة القصيرة، منافسك القديم.

هورست إبلجوفتس

لم يلتق بهورست منذ السباق، لكنه تذكره بمودة كرجل ضخم ذي شعر أشقر محمرّ ونمش برتقالي ومنخرين غير متجاورين جيدًا، يلبس كمنغمس بالملذات عالمي وبدا ضخمًا جدًا على دراجته. وبعد السباق جعل هورست آرشي يسكر سكرة رهيبة وأحضر عاهرتين من سوهو يبدو أنهما تعرفان هورست ("أقوم برحلات عمل إلى عاصمتكم الجميلة، يا أرشيبالد"، شرح له هورست). كانت آخر مرة شاهد فيها آرشي هورست هي حين لمح دون قصد مؤخرته الضخمة القرنفلية تعلو وتسفل في الغرفة المجاورة للشاليه الأولمبي. وفي صباح اليوم التالي، كانت رسالته الأولى من مراسلاته الضخمة تنتظره على الطاولة الأمامية:

عزيزي أرشيبالد

في واحة من العمل والتنافس تشكل النساء في الحقيقة وجبة طيبة، منعشة وسهلة، ألا توافق؟ أخشى أنني يجب أن أغادر باكرًا كي ألحق بالطائرة لأمر ضروري، لكنني أحثك يا أرشي: لا تكن غريبًا. أفكر بنا الآن كرجلين قريبين كنهايتنا. إن كل من يقول إن الرقم 13 منحوس هو أكثر حماقة من صديقك.

هورست إيلجوفتس

ملاحظة: من فضلك تأكد من وصول داريا وميلاني بأمان إلى البيت.

كانت داريا التي من نصيبه نحيلة بشكل مريع، وأضلاعها مثل أقفاص سرطان البحر وليس لها صدر يمكن التحدث عنه، لكنها من النوع الرائع: لطيفة وناعمة في قبلاتها وبرسغين مزدوجي المفاصل أحبت أن تظهرهما في قفاز طويل من الحرير. تكلفك أربعة كوبونات ألبسة على الأقل. "أحبك"، تذكر آرشي الكلمة

بيأس، وهي تستبدل القفاز وترتدي جواربها. استدارت، وابتسمت. وبالرغم من أنها محترفة، انتابه إحساس بأنها أحبته أيضًا. وربما كان يجب أن يغادر معها آنذاك ويهرب إلى التلال. لكن هذا بدا مستحيلًا في ذلك الوقت، فقد كان منخرطًا جدًا، وماذا عن زوجته الشابة الحامل (حمل هستيري متخيل، كما تبين، نتوء كبير مليء بالشعر الساخن). أضف إلى ذلك ساقه المشوهة وقلّة التلال.

والغريب أن داريا كانت آخر نبض من الفكر عبر في ذهن آرشي تمامًا قبل أن يفقد وعيه. عبرت في ذهنه فكرة عن عاهرة التقى بها مرة منذ عشرين سنة. وكانت داريا وابتسامتها هما ما جعله يُغْرق مئزر مو بدموع المتعة حين أنقذ اللحام حياته. تصورها في ذهنه: امرأة جميلة في غرفة بنظرة مغوية، وتذكر أنه ندم أنه لم يقع في الإغواء. ولو سنحت له الفرصة ثانية لرغب بها وبقضاء وقت إضافي معها وليس فقط بالفرصة الثانية بل بالتالية وما بعد التالية وبوقت العالم كله.

فيما بعد في الصباح نفسه دار آرشي في دوار السويس كوتاج ثماني دورات بسيارته، ورأسه خارج النافذة بينما ضرب تيار من الهواء الأسنان في مؤخرة فمه كجورب الريح[10]. وفكر: ماذا أيضًا! إذًا هذا ما يشعر به المرء حين يُنقذ شخص تافهٌ حياته. وبدا الأمر كما لو أنه مُنِحَ حزمة كبيرة من الوقت. وقاد السيارة عابرًا شقته وإشارات (هندون 3) ضاحكًا كمجنون. وعند إشارة المرور قذف في الجو قطعة نقدية قيمتها عشرة بنسات وابتسم حين أكدت النتيجة أن القدر يشده نحو حياة أخرى كمثل كلب بمقود على زاوية. إن الرجال يتمسكون بعاداتهم القديمة في هجر العائلة والماضي الأمر الذي لا تستطيع النساء عادة فعله، ويحررون أنفسهم من العلاقات كما لو أنهم ينتزعون لحية مزيفة ويتسللون بترو عائدين إلى المجتمع وقد تغيروا، وصاروا غير قابلين للمعرفة. وبهذه الطريقة سيبزغ آرشي جديد. وحين ضبطناه متلبسًا دون أن يتوقع ذلك كان ذهنه يدور منشغلًا بين التفكير بالماضي والتفكير بالمستقبل[11]. كان في نوع من المزاج الحائر بين ربما هذا أو ربما ذاك. وحين اقترب من طريق فرعي أبطأ وفحص وجهه غير المميز في مرآة الباب واختار عشوائيًا طريقًا

لم يسلكه من قبل، شارعًا سكنيًا يقود إلى مكان يدعى كوينز بارك. قال لنفسه: انطلق أيها الفتى آرشي، انطلق مباشرة في هذا الطريق [12] وأستحلفك بالله ألا تنظر إلى الخلف!

*****

سمع تيم وستلي (المعروف باسم ميرلين) في النهاية الرنين الملح لجرس الباب فنهض عن أرض المطبخ وخاض عبر محيط من الأجساد المستلقية وفتح الباب كي يلتقي وجهًا لوجه مع رجل متوسط العمر يلبس من رأسه إلى أخمص قدميه بذلة من القماش المضلع، وفي راحة يده المفتوحة قطعة نقدية بقيمة عشرة بنسات. وكما قال ميرلين فيما بعد حين روى الحادثة فإن القماش المضلع مجهد للنظر في الأوقات كلها ويرتديه كل من جباة الضرائب ومن يعملون في تأجير البيوت وكذلك أساتذة التاريخ الذين لديهم بقع إضافية من الجلد على الكوعين. وفي اليوم الأول من السنة الجديدة يفاجئك بمظهره الذي هو عبارة عن كتلة من المشاعر السلبية.

رمشت عينا ميرلين في الردهة على الرجل الذي في القماش المضلع الذي وقف على عتبة بابه مضاء بشعاع الشتاء: "ما المسألة يا رجل؟ موسوعات أو مسائل تتعلق بالله؟"

لاحظ آرشي أن الفتى يمتلك طريقة مثيرة للأعصاب في التشديد على كلمات معينة من خلال تحريك رأسه في حركة دائرية عريضة من الكتف اليمنى إلى اليسرى ثم حين تكتمل الدائرة يهز رأسه عدة مرات.

"لأنه إذا كنت تبيع موسوعات فإن لدينا ما يكفي منها، وأعني الخاصة بالمعلومات... وإذا كانت مسائل تتعلق بالله، فلقد أتيتَ إلى المكان الخطأ. نحن في مكان مريح، هنا. هل تفهم كلامي؟" اختتم ميرلين وقد هزّ رأسه وهمّ ليغلق الباب.

هز آرشي رأسه، ابتسم وبقي حيث هو.

سأله ميرلين ويده على مقبض الباب: "هل أنت على ما يرام؟ هل هناك شيء أستطيع أن أفعله لك؟ هل؟"

قال آرشي: "لقد رأيتُ لافتتك".

فرَقَعَ ميرلين مفصلًا وبدا مستمتعًا: "تلك اللافتة؟" أحنى رأسه وتبع تحديقة آرشي. شرشف السرير الأبيض يتدلى من نافذة عليا وكُتب عليه في حروف ملونة بألوان قوس قزح: مرحبًا بكم في حفلة "نهاية العالم" 1975.

هز ميرلين كتفيه: "نعم، آسف، كأنها لم تحدث، وربما كان هذا مخيبًا للأمل أو نعمة" - أضاف بشكل ودي - "هذا يعتمد على وجهة نظرك".

قال آرشي بهيام: "نعمة. أصلية مائة بالمائة، نعمة".

سأل ميرلين بعد أن تراجعَ خطوة عن العتبة خشية أن يكون الرجل عنيفًا أو مُصابًا بفصام الشخصية: "هل أحببتَ اللافتة إذًا؟ إن دخولك في مشهد من هذا القبيل هو نوع من التنكيت أكثر من أي شيء آخر".

قال آرشي وهو لا يزال يبتسم بابتهاج كرجل مجنون: "يمكنك القول إنها لفتت نظري، وأثارت إعجابي فحسب بينما كنت أقود السيارة باحثًا عن مكان ما كي أتناول كأسًا ليلة رأس السنة، كأسًا آخر يزيل الصداع، فقد كان صباحي صعبًا. قذفتُ قطعة نقدية فحسب وفكرت: لماذا لا؟"

بدا ميرلين مرتبكًا من المنعطف الذي اتخذته المحادثة: "انتهت الحفلة، يا رجل. فضلًا عن ذلك، أعتقد أنك كبير في السن قليلًا... إذا فهمتَ ما أعنيه..."

لم يعد ميرلين لبقًا، لكنه كان تحت الداكشيكي (ثوب ملون) وفي الجوهر فتى جيدًا من الطبقة الوسطى، يتأصل فيه احترام كبار السن.

أردف بعد وقفة صعبة: "أعني أن الحشد هنا يصغرك سنًا وقد لا تكون معتادًا على هذا النوع من المشهد الجماعي المشاعي".

لكن آرشي ردد بخبث أغنية لدايلان ومط عنقه من وراء الباب: "كنت أكبر سنًا آنذاك، لكنني أصغر من هذا الآن".

أخذ ميرلين سيجارة من وراء أذنه وأشعلها وعبس: "انظر يا رجل... لا

أستطيع أن أدخلك من الشارع مباشرة. أعني قد تكون من الشرطة أو غريب الأطوار، يمكن أن..."

لكن شيئًا ما يتعلق بوجه آرشي الكبير والبريء والمترقب على نحو عذب ذكّر تيم بما كان والده، كاهن سنيربروك، يقوله عن الإحسان المسيحي كل أحد من منبره: "آه يا للجحيم. إنه يوم رأس السنة، اللعنة، من الأفضل أن تدخل".

تخطى آرشي ميرلين وسار إلى ردهة طويلة تؤدي إلى أربع غرف مفتوحة الأبواب، ودرج يقود إلى طابق آخر، وحديقة في نهاية كل هذا. تناثر حطام من كل الأنواع حيواني ومعدني ومن الخضار على الأرض، وامتدت كتلة كبيرة من الشراشف يستلقي تحتها أشخاص نائمون من طرف الردهة إلى الطرف الآخر. كان بحرًا أحمر ينشقُّ على مضض كلما خطا آرشي خطوة إلى الأمام. وفي داخل الغرف، في زوايا معينة، يمكن مشاهدة تبادل السوائل الجسدية: التقبيل والرضاعة والمضاجعة والتقيؤ، كل الأشياء التي قرأعنها آرشي في ملحق الأحد وعن ما يمكن العثور عليه في تجمّعات مشابهة. وفكر للحظة بفكرة دخول المعترك مضيعًا نفسه بين الأجساد (يمتلك كل هذا الوقت الجديد، الكثير منه يقطر من بين أصابعه)، لكنه قرر أن الشراب القوي هو الأفضل وعبَر الردهة إلى أن وصل إلى الطرف الثاني من المنزل وخرج إلى الحديقة الباردة حيث اختار البعض من الذين لم يعثروا على مكان في المنزل الدافئ المكوث هناك. ثم اتجه إلى طاولة الحديقة وهو يفكر بتناول كأس من الويسكي مع التونيك حيث بان شيءٌ على شكل زجاجة جاك دانيلز كسراب في صحراء من زجاجات النبيذ الفارغة.

"هل تمانعان أن...؟"

شخصان أسودان، وفتاة صينية بدون حمالة صدر، وامرأة بيضاء ترتدي سترة كانوا يجلسون دائريًا على كراسي مطبخ خشبية، يلعبون الريمية (الشدة). وفي اللحظة التي مد فيها آرشي يده إلى زجاجة الويسكي، هزت المرأة البيضاء رأسها وقامت بحركة تدل على إطفاء سيجارة.

"أخشى أن يكون فيها بحر من التبغ يا عزيزي. لقد أطفأ أحد الأوغاد

سيجارته في ويسكي من النوع المقبول تمامًا. هناك بعض شراب البيبي شام وشراب آخر لا يرحم".

ابتسم آرشي بامتنان من أجل التحذير والعرض اللطيف. جلس وصب لنفسه كأسًا كبيرًا من ليبفراوميلش بدلًا من ذلك.

تناول آرشي الكثير من الكؤوس فيما بعد، ولم يستطع تذكر وقت في حياته لم يعرف فيه كليف وليو، ووان سي وبيترونيا بشكل حميمي. بظهره مدارًا وبقطعة من الفحم كان يستطيع أن يرسم كل حبة مغضنة من القشعريرة حول حلمتي وان سي، وكل شعرة ضالة سقطت على وجه بيترونيا حين تحدثت. وفي الحادية عشرة صباحًا أحبهم جميعًا جدًا، وكانوا الأولاد الذين لم يرزق بهم أبدًا. بالمقابل، قالوا له إنه يملك روحًا فريدة بالنسبة لشخص في عمره. ووافق الجميع على أن طاقة كارما إيجابية على نحو قوي تدور في آرشي وحوله، وكانت قوية جدًا بما يكفي كي تحث لحامًا على أن ينزل نافذة سيارة في اللحظة الحاسمة. وتبين أن آرشي كان الرجل الأول فوق الأربعين الذي سبق أن دُعي للانضمام إلى الجماعة، ودار حديث لبعض الوقت حول الحاجة لحضور جنسي لأشخاص أكبر في السن لإشباع بعض النساء الأكثر حبًا للمغامرة. وقال آرشي: "عظيم، رائع. سيكون هذا أنا، إذًا". شعر بأنه قريب جدًا منهم بحيث أنه ارتبك حوالي الظهيرة حين ساءت العلاقة بينهم فجأة فوجد نفسه وقد أصابه الصداع غارقًا حتى ركبتيه في جدال حول الحرب العالمية الثانية وكل شيء.

"لا أعرف حتى كيف دخلنا في هذا"، قالت وان سي التي تغطت أخيرًا تمامًا حين قرروا الدخول، وكان رداء آرشي يتدلى على كتفيها الصغيرين.

صرخ كليف: "لنتوقف عن الخوض في هذا الحديث. هذه مشكلة جيله كله، يعتقدون أنهم يستطيعون أن يطرحوا موضوع الحرب كنوع من..."

كان آرشي ممتنًا حين قام ليو بمقاطعة كليف وحرف الجدل عن الموضوع الأصلي، والذي بدأه آرشي (ملاحظة غير حكيمة منذ ثلاثة أرباع الساعة عن كيف أن الخدمة العسكرية ساهمت في بناء شخصية شاب) ثم ندم على الفور حين

اقتضى الأمر أن يدافع عن نفسه في فواصل منتظمة. حين تحرر في النهاية من هذا الإلزام، جلس على الدرج، تاركًا الشجار يتواصل في الأعلى بينما وضع رأسه بين يديه.

يا للعار! يريد أن يكون جزءًا من هذه الجماعة. لو أنه لعب أوراقه جيدًا بدلًا من أن يبدأ بإثارة مشكلة لربما حصل على حب مجاني وصدور عارية في كل أنحاء المنزل، وربما على جزء من الحديقة كي يزرع الخضار الطازجة. ولوهلة (في حوالي الساعة الثانية صباحًا، حين كان يخبر وان سي عن طفولته) بدا كما لو أن حياته الجديدة ستكون رائعة، ومن الآن فصاعدًا سيقول دومًا الشيء الصحيح في الوقت المناسب، والناس سيحبونه في أي مكان يحل فيه. وقال آرشي لنفسه وهو يفكر بالخطأ الذي ارتكب: **ليس هذا خطأ أحد. إنه خطئي أنا فحسب.** لكنه تساءل فيما إذا كان لا يوجد نموذج أعلى لهذا. ربما سيكون هناك دومًا رجال يتفوهون بالشيء الصحيح في الوقت المناسب، الذين يخطون إلى الأمام مثل الممثل اليوناني الأول ثيسبيس تمامًا في اللحظة الملائمة في التاريخ، ثم سيكون هناك رجال مثل آرشي جونز، هم هناك لإكمال العدد. أو، ما هو أسوأ، الذين تُمنح لهم فرصتهم الأكبر فقط كي يأتوا في اللحظة المناسبة تمامًا ويموتوا هناك على خشبة المسرح أمام أعين الجميع.

كانت الحادثة كلها ستبدو غير مقبولة، وكذلك اليوم المؤسف، لو لم يحدث شيء ما قاد إلى تحول آرشي جونز في جميع التفاصيل التي يمكن أن يتحول فيها المرء، وليس بسبب أي جهد بذله هو، بل بسبب التصادم العرضي العشوائي التام لشخص مع شخص آخر. حدث شيء ما . كان ذلك الحادث هو كلارا بودن.

لكن لنقدم وصفًا لها في البداية: كانت كلارا بودن جميلة بكل المعاني باستثناء المعنى الكلاسيكي ربما لكونها زنجية. وكلارا بودن رائعة وفارعة الطول ولون بشرتها قاتم كالأبنوس، شعرها مضفر كحدوة الحصان ينتصب حين تشعر بأنها محظوظة، وينخفض حين لا تكون. وفي هذه اللحظة كان منتصبًا، ومن الصعب معرفة إن كان هذا مهمًا.

لم تكن بحاجة إلى حمالة صدر فقد كانت مستقلة حتى عن الجاذبية، وترتدي قميصًا بحمالة عنق توقف تحت صدرها، وتحته كشفت عن سرة جميلة تحتها جينز أصفر ضيق جدًا في نهايته حذاء بكعب عال برباط مصنوع من جلد الظباء، ودخلت تخطو نازلة الدرج إليهم كنوع من الرؤيا، كما بدت لآرشي حين التفت كي يراقبها، كحصان أصيل يقف على قائمتيه.

في الأفلام وما شابهها من العادي أن يكون الشخص مدهشًا بحيث حين ينزل الدرج يصمت الحشد، هكذا فهم آرشي المسألة لكنه لم ير ذلك في الحياة أبدًا. هذا حدث مع كلارا بودن. نزلت الدرج في حركة بطيئة، محاطة بضوء شفقي داكن. ولم تكن أجمل ما رأته عينه فحسب بل ولّدت لديه شعورًا بالراحة أكثر من أية امرأة أخرى سبق أن التقى بها. ولم يكن جمالها سلعة باردة حادة، بل فاحت منها رائحة التعفن والأنوثة كصرة من ملابسك المفضلة. وعلى الرغم من أنها لم تكن متناسقة جسديًا: الساقان والذراعان تحدثا لهجتين مختلفتين قليلًا عن لهجة جهازها العصبي المركزي، وحتى سلوكها الذي كسلوك رجل عصابة بدا لآرشي رشيقًا بشكل استثنائي. كانت ترتدي أنوثتها بسهولة كامرأة أكبر في السن ودون ارتباك كما لو أنها مِحفظة وهذا ما لم تستطع القيام به الفتيات اللواتي التقى بهن آرشي في الماضي اللائي لم يعرفن كيف يمسكن بالمحفظة وأين يعلقنها أو يضعنها.

قالت بلكنة كاريبية مرحة ذكرت آرشي بلاعب الكريكيت الجامايكي ذاك: "ابتهج يا فتى، يمكن ألا تحدث أبدًا".

"أعتقد أنها حدثت مسبقًا".

آرشي الذي أسقط لتوه من فمه سيجارة كانت حرقت نفسها حتى النهاية بأية حال، شاهد كلارا تدوسها بسرعة حافية القدمين. خصته بابتسامة عريضة كشفت ربما نقصها الوحيد. لم يكن لديها سن واحد في فكها العلوي.

"يا رجل... لقد خُلعت". لثغت حين رأت دهشته.

"لكنني أعتقد أنه حين ينتهي العالم فإن الله لن يهمه إذا لم تكن لدي

أسنان"، ضحكت بنعومة.

"آرشي جونز"، قال آرشي مقدمًا لها سيجارة مارلبورو.

صفرت دون قصد وهي تبتسم وتتنفس في الدخان: "كلارا، آرشي جونز، تبدو تمامًا كما أشعر. هل كان كليف والآخرون يتحدثون بغباء معك؟ كليف هل كنت تلعب مع هذا المسكين؟"

ابتسم كليف. كانت ذكرى آرشي قد اختفت مع تأثيرات النبيذ، وواصل حيث ترك، متهمًا ليو بإساءة فهم الفرق بين السياسة والتضحية الجسدية.

قال آرشي، بلا فائدة أمام وجهها الرائع: "آه كلا...ما من شيء جدي. مجرد خلاف بسيط في الرأي فقط، هذا كل شيء، نمتلك أنا وكليف وجهتي نظر مختلفتين حول بعض الأمور. فجوة الجيل، كما أظن".

صفعته كلارا على يده: "اسكت، لستَ متقدمًا في السن. أبدو أكبر منك".

قال آرشي: "أنا كبير بما يكفي". ثم فقط لأنه شعر برغبة بأن يقول لها: "لن تصدقيني، كنت على وشك الموت اليوم".

رفعت كلارا حاجبًا: "لا تقل هذا. حسنًا، تعال وانضم إلى النادي. هناك الكثير منا هذا الصباح. يا لها من حفلة غريبة"، قالت وهي تلمس بذراعها بسرعة وخفة بقعته الصلعاء. "تبدو في حالة جيدة جدًا بالنسبة لشخص اقترب إلى هذا الحد من بوابة القديس بيتر. هل تريد بعض النصيحة؟"

هز آرشي رأسه بقوة. كان دومًا يريد النصيحة، ويهوى الآراء الأخرى بشدة. لهذا لم يذهب إلى أي مكان دون قطعة نقدية بقيمة عشرة بنسات.

"اذهبْ إلى المنزل وأرحْ نفسك قليلًا. وفي الصباح سيكون العالم جديدًا.

كل مرة يا رجل... هذه الحياة سهلة".

أي منزل؟ فكر آرشي. لقد فلت من صنارة حياته القديمة، ودخل إلى أرض مجهولة.

كررت كلارا رابتة على ظهره: "يا رجل...هذه الحياة ليست سهلة!"

أطلقتْ صفرة أخرى وضحكة حزينة وإذا لم يكن قد جن فعلًا فإنه قد لمح نظرتها التي كانت تقول: "تعال إلى هنا"، وكانت مشابهة لنظرة داريا، ومصطبغة

ببعض الحزن وخيبة الأمل، كما لو أنه لم تكن لديها خيارات أخرى كثيرة. كانت كلارا في التاسعة عشرة وأرشيبالد في السابعة والأربعين.

بعد ستة أسابيع تزوجا.

2

آلام نمو الأسنان

لم ينتزع آرشي كلارا بودن من فراغ، وحان الوقت كي يقول الناس الحقيقة حول النساء الجميلات. فهن لا يتوهجن على الأدراج ولا يهبطن، كما كان مفترضًا مرة، من علٍ، وثمة أجنحة مثبتة إليهن. كانت كلارا، التي لها جذور من مكان ما، تحديدًا من لامبث (وتنحدر من جامايكا)، دميمة قبل أن تصبح جميلة ومرتبطة من خلال اتفاقية مراهقة ضمنية مع ريان توبس. وقبل أن يكون هناك كلارا وآرشي كان هناك كلارا وريان. وما من مهرب من ريان توبس. وتمامًا كما يحتاج أي مؤرخ جيد إلى معرفة طموحات هتلر النابليونية في الشرق من أجل أن يفهم تردده في غزو البريطانيين في الغرب، كان ريان توبس ضروريًا لأي فهم لماذا فعلت كلارا ما فعلته. وكان ريان جوهريًا. وكان هناك كلارا وريان لمدة ثمانية أشهر قبل أن ينجذب آرشي وكلارا لبعضهما من الطرفين المتقابلين للدرج. وكان من الممكن ألا تلجأ كلارا إلى ذراعي آرشي جونز لو لم تكن تهرول بأقصى ما تستطيع من السرعة هاربةً من ريان توبس.

كان المسكين ريان توبس كتلة من الخصائص الجسدية سيئة الحظ. فقد كان نحيلًا جدًا وطويلًا جدًا وأصهب الشعر ومسطح القدمين ومليئًا بالنمش إلى حد أن جلده أكثر ندرة من نمشه. وتخيل ريان نفسه شخصًا يتبع الموضة إلى

حد ما. وكان يرتدي بذلات رمادية كبيرة عليه لها قبات ضيقة سوداء، وينتعل بوط تشيلسي رغم أن موضته لم تعد دارجة. وبينما اكتشفت بقية العالم متع جهاز الموسيقى الإلكترونية أقسم ريان يمين الولاء لرجال صغار بغيتارات كبيرة: فرق الروك مثل "الكينكس" و"السمول فيسيز" و"الهو". وكان ريان توبس يركب دراجة فيسبا جي إس خضراء ويلمّعها مرتين في اليوم بحفاض طفل ويغطيها بدرع واق مصنوع خصيصًا من الحديد المتغضن، ولم تكن دراجة الفيسبا مجرد وسيلة نقل بل إيديولوجيا وعائلة وعشيقة ودَخَلَ كل هذا في نموذج واحد من هندسة أواخر الأربعينيات.

كان لريان توبس بضعة أصدقاء كما يمكن أن يتوقع المرء.

كانت كلارا بودن طويلة وناتئة الأسنان، ومن أعضاء شهود يهوه، وشاهدت في ريان روحًا لطيفة. ومن خلال عملية رصد أنثوية مألوفة عرفتْ كل ما يمكن معرفته عن ريان توبس قبل أن يتحدثا بوقت طويل. عرفت الأساسيات: المدرسة نفسها (مدرسة سانت جود، لامبث)، الطول نفسه (73 بوصة). وعرفت أنه مثلها ليس إيرلنديًا ولا كاثوليكيًا رومانيًا، مما جعلهما جزيرتين تعومان مطوقتين بالمحيط الكاثوليكي لمدرسة سينت جود، وقد سجلا في المدرسة بسبب مصادفة الرمز البريدي، وازدراهما كلٌّ من الأساتذة والطلاب. وعرفت اسم دراجته، وقرأت ما كُتب في أعلى تسجيلاته وهي تنتأ من حافة حقيبته. وعرفت حتى أمورًا عنه لم يعرفها: مثلًا، عرفت أنه آخر رجل على الأرض. وكان في كل مدرسة واحد، وفي مدرسة سينت جود، كما على مقاعد دراسة أخرى، الفتيات هن من يخترن هذا الاسم وينشرنه لكن مع بعض التنويعات بالطبع:

السيد الذي لا يأتيك بمليون جنيه.

السيد الذي ليس لإنقاذ حياة أمي.

السيد الذي ليس من أجل السلم العالمي.

تقيدت فتيات مدرسة سينت جود، بشكل عام، بالصيغة المجربة والمختبرة. وعلى الرغم من أن ريان لم يكن يطّلع على المحادثات في غرف تبديل الإناث في

المدرسة، فقد كانت كلارا تعرف كيف نُوقشَ موضوع عواطفها، لأنها استرقت السمع وعرفت طبيعته حين ركزت على الأمر، بين تعرق حمالات الصدر الخاصة بالتدريب والنفض الحاد للمناشف المبللة.

"يا يسوع، أنت لا تصغين. أنا أقول إذا كان آخر رجل على الأرض".

"لن أفعل".

"آه، هراء ستفعلين".

"لكن استمعي، إن العالم النازف كله قُصف بقنبلة، مثل اليابان، صحيح؟ وكل الرجال الوسيمين، الذين مثل رجلك نيكي ليرد ماتوا، حُرقوا كلهم وتحولوا إلى رقاقات هشة، ولم يتبق إلا ريان توبس وحفنة من الصراصير".

"بالنسبة لي أفضّل النوم مع الصراصير".

لم يكن يضاهي افتقار ريان للشعبية في مدرسة سينت جود سوى افتقار كلارا لها. ففي يومها الأول في المدرسة شرحت لها أمها أنها ستدخل عرين الشيطان، وملأت حقيبتها المدرسية بمائتي نسخة من مجلة شهود يهوه "برج المراقبة"، وأرشدتها كي تذهب وتقوم بعمل الله. أسبوعًا تلو آخر كانت كلارا تمشي بتثاقل في المدرسة، رأسها منحن إلى الأرض، توزع المجلات متمتمة: "لا أحد ينقذكم إلا يهوه"، وفي مدرسة حيث بثرة مفرطة الالتهاب يمكن أن تؤدي إلى نبذك وإرسالك إلى كوفنتري [14]، إن محاولة مبشرة زنجية طولها ستة أقدام وترتدي جوارب طويلة لتحويل ستمائة كاثوليكي إلى كنيسة شهود يهوه تؤدي إلى عزلك اجتماعيًا كما لو أنك مصاب بالجذام.

كان ريان بحمرة جذر الشمندر وكلارا سوداء كبوطكَ. وكان نمش ريان يغطي كامل وجهه وكان بوسع كلارا أن تبحر في تفاحة بسنها الأمامي قبل أن يقترب لسانها منها في أي مكان. ولن يسامحهما حتى الكاثوليك على ذلك (يمنح الكاثوليك الصفح بالنسبة نفسها التي يقدم فيها السياسيون الوعود والعاهرات أجسادهن) ولن يقدر على التدخل حتى القديس جود [15]، الذي عانى في القرن الأول من رعاية قضايا ميؤوس منها بسبب تشابه في اللفظ بين جود ويهوذا.

في الساعة الخامسة من كل يوم، وبينما تجلس كلارا في منزلها مركزة على رسالة الأناجيل أو تؤلف منشورًا تشجب فيه الممارسة الوثنية لنقل الدم، يمر ريان توبس راكبًا دراجته قرب نافذتها المفتوحة في طريقه إلى المنزل. وكانت غرفة جلوس عائلة بودن تحت مستوى الشارع ولها قضبان على النافذة، وهكذا كانت المناظر كلها جزئية. وكانت تشاهد الأقدام والعجلات وعوادم السيارات. وكانت هذه اللمحات الضئيلة غالبًا ما تشي بحالة، حيث يستطيع نسيج الدانتيل المنسول وجواربه المرتوقة وحقيبته المنخفضة والمتأرجحة التي شهدت أيامًا أفضل أن يثيروا في خيالها الحي الكثير من الشفقة. لكن لا شيء أثر بها بعمق أكثر من التحديق بعوادم دراجة ريان وهي تختفي. ولأنها لم تعرف ماذا تسمي القرقرة السرية التي شعرت بها في جوفها في تلك المناسبات، دعتها كلارا روح الله، وانتابها إحساس ما بأنها ستنقذ الوثني ريان توبس. ونوث كلارا أن تقرّب هذا الفتى منها، وتجعله آمنًا من الإغواء الذي يهاجمنا من جميع الجهات، وتجهزه ليوم خلاصه. (ألم يكن هناك في مكان ما، أدنى من جوفها، في مكان ما في المنطقة السفلية لما لا يُذكر، ألم يكن هناك أمل نصف مدرك بأن ريان توبس يمكن أن ينقذها؟)

لو حدث وشاهدت هورتينس بودن ابنتها تجلس قرب النافذة المقضبة بتوق غامض وهي تصغي إلى قرقرة محرك الدراجة النارية العابرة بينما النسيم يقلب صفحات الكتاب المقدس الجديد، لربتت على رأسها من الأعلى وذكرتها أنه في يوم القيامة لن يجلس في محكمة الرب سوى مائة وأربعة وأربعين ألفًا من شهود يهوه. وبين عدد المختارين لا يوجد مكان لغير المختارين ولأشخاص يعبرون على الدراجات النارية.

"لكن ماذا لو أنقذنا..."

قالت هورتينس بنخرة: "إن بعض الناس ارتكبوا كومة من الذنوب وتأخر الوقت بالنسبة لهم كي يشاهدوا يهوه. إن الاقتراب من يهوه يقتضي جهدًا. يقتضي التفاني والإخلاص. "مبارك كل من هو نقي القلب لأنهم وحدهم يرون الله".

(متى 5:8). أليس هذا صحيحًا يا داركوس؟"

كان داركوس بودن، والد كلارا، عجوزًا على شفا الموت تفوح رائحته ويسيل لعابه وهو مدفون في كرسي ذي ذراعين موبوء ببَقّ الفراش، لم يُشاهده أحد يبرحه حتى إلى المرحاض الخارجي بفضل القسطرة. جاء داركوس إلى إنكلترة منذ 14 سنة وأمضى الفترة كلها في الزاوية البعيدة لغرفة الجلوس يشاهد التلفاز. وكانت النية الأصلية هي أن يأتي إلى بريطانيا ويكسب ما يكفي من النقود ليسهّل قدوم كلٍّ من كلارا وهورتينس كي يستقروا معًا. لكن مرضًا غامضًا أنهك داركوس بودن لدى وصوله، ولم يستطع أي طبيب العثور على أعراض جسدية له، لكنه تجلى في سبات يصعب تصديقه ولا بد من الاعتراف أنه ولّدَ في داركوس ولعًا استمر طيلة الحياة بالإعالة الحكومية، وكرسي الذراعين والتلفزيون البريطاني. وفي سنة 1972 قررت هورتينس التي أغضبها الانتظار لمدة 14 عامًا أن تقوم بالزيارة أخيرًا معتمدة على نفسها. وكان الاعتماد على النفس مزية متأصلة فيها. ووصلت إلى عتبة الباب مع كلارا التي كانت في السابعة عشرة، وحطمت الباب بغضب (وهكذا وصلت الأسطورة إلى سينت إليزابيث) وعنّفتْهُ بطريقة لم يشهدها من قبل في حياته كلها. وذكر البعض أن هذا الهجوم استمر أربع ساعات، وأردف البعض الآخر أنها اقتطفت كل أسفار التوراة من الذاكرة واستمر الأمر نهارًا كاملًا وليلة كاملة. وما هو مؤكد هو أنه في نهاية كل هذا هبط داركوس إلى القاع في تجاويف كرسيه، ونظر بحزن إلى التلفزيون الذي تربطه به علاقة تفاهم وتعاطف غير معقدة وكثير من العاطفة البريئة، وشقت دمعة طريقها خارج قناتها واستقرت في جرف تحت عينه. ثم تفوه بكلمة واحدة فقط: همف[16]!

كانت "همف" هي كل ما قاله داركوس أو ما سيقوله فيما بعد. اسألْ داركوس عن أي شيء، تحققْ منه حول أي موضوع في أية ساعة من النهار والليل، استجوبه، ثرثر معه، توسّلْ إليه، أعلنْ حبك له، اتهمه أو أعلن براءته وسيمنحك جوابًا واحدًا فقط.

" أليس هذا صحيحًا يا داركوس؟"

"همف".

قالت هورتينس عائدة إلى كلارا بعد أن تلقت موافقة داركوس: "يجب ألا تزعجي نفسك بروح ذلك الفتى الشاب، كم مرة يجب أن أقول لك، لا وقت لديك للفتيان".

ذلك أن الوقت كان ينفد في منزل بودن. كان هذا عام 1974 وهورتينس تحضر لنهاية العالم التي علّمتها في سجل يوميات المنزل، بحرص وبقلم حبر أزرق: 1 كانون الثاني 1975. ولم يكن هذا اضطرابًا عقليًا خاصًا بعائلة بودن. فقد كان هناك ثمانية ملايين من شهود يهوه ينتظرون معها. وكانت هورتينس في رفقة حشد كبير ولو أنها غريبة الأطوار. واستلمت هورتينس رسالة شخصية (كسكرتيرة لفرع قاعات الملكوت في لامبث)، مع توقيع منسوخ من وليام ج. رانجفورث من أضخم قاعة ملكوت في الولايات المتحدة، بروكلن، يؤكد فيها الموعد. وتم تأكيد نهاية العالم رسميًا مع ترويسة مطلية بماء الذهب وتعاملت هورتينس مع المسألة من خلال وضعها في إطار جذاب من خشب الماهوغاني على مفرش في مكان بارز فوق التلفزيون بين تمثال زجاجي صغير لسندريلا في طريقها إلى حفلة الرقص وغطاء إبريق شاي طُرزت عليه الوصايا العشر. وسألتْ داركوس إن كان يعتقد أنها تبدو جميلة فهَمْهم قائلًا: همف!.

كانت نهاية العالم وشيكة. ولم يكن هذا مثل الخطأين اللذين ارتُكبا في 1914 و1925 كما أكد فرع لامبث من كنيسة شهود يهوه. ووعدوا بأن أحشاء المذنبين ستُلف حول جذوع الأشجار، وفي هذه المرة ستبدو للعيان. انتظروا طويلًا أنهار الدم كي تجري في القنوات في الهاي رود، والآن سيُرْوى ظمؤهم. لقد حان الوقت. وكان هذا هو الموعد الصحيح، والموعد الوحيد، وجميع المواعيد التي قُدمت في الماضي ناجمة عن بعض الحسابات الخاطئة: نسي أحدهم أن يجمع، نسي أحدهم أن يطرح، ونسي أحدهم أن يتابع. لكن الآن حان الوقت. التوقيت الحقيقي هو 10 كانون الثاني\يناير 1975.

كانت هورتينس سعيدة لسماع هذا. ففي صباح اليوم الأول من سنة 1925 بكت كطفلة حين استيقظت وشاهدت الحياة اليومية مستمرة والحافلات

والقطارات تسير بانتظام بدلًا من البرد والكبريت. كان بلا طائل، إذًا، ذلك التقلب في الليلة السابقة وانتظار:

رؤية الجيران الذين رفضوا الإصغاء إلى تحذيراتنا عالقين في نار حارة ومريعة تنزع جلودهم عن عظامهم وتذوّب أعينهم في محاجرها وتحرق الأطفال الذين يرضعون من أثداء أمهاتهم... وهكذا سيموت كثير من جيرانكم في ذلك اليوم بحيث أن أجسادهم إذا صُفّ بعضها إلى جانب بعض ستمتد ثلاثمائة مرة حول الأرض وعلى بقاياها المرمدة سيسير الشهود الحقيقيون للرب إلى جانبه.

-الكلاريون بيل، العدد 245

خاب أملها وشعرت بالمرارة لكنها شفيت من جراح 1925، وكانت هورتينس مستعدة مرة ثانية كي يتم إقناعها بأن القيامة، تمامًا كما شرح المقدس والمعصوم السيد رانجفورث، كانت وشيكة. ولا يزال وعد جيل 1914 قائمًا: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَمْضِي هذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هذَا كُلُّهُ.(متى 24:34). الذين كانوا أحياء في 1914 سيعيشون كي يشاهدوا معركة الهرمجدون [17] لأنهم وُعدوا بها. وهورتينس المولودة في 1907 كانت تكبر في السن الآن، وتعبت وأبناء جيلها يموتون كالذباب. بدا 1975 كأنه فرصة أخيرة.

ألم يكرّس مئتا شخص من أفضل مفكري الكنيسة عشرين عامًا من عمرهم لدراسة التوراة، ألم يُجْمعوا على هذا الموعد؟ ألم يقرؤوا بين السطور في سفر دانيال، ويدرسوا المعنى الخفي في سفر الرؤيا، ويحددوا على نحو صحيح موعد الحروب الآسيوية (كوريا وفيتنام) كالفترة التي ذكرها الملاك، (في زمان، وزمانين، ونصف زمان؟) وكانت هورتينس مقتنعة بأن هذه علامة العلامات. وكانت هذه

الأيام الأخيرة. بقي ثمانية أشهر على نهاية العالم. ولم يكن الوقت كافيًا، يجب أن تُصنع لافتات، وتُكتب مقالات ("هل سيصفح الرب عن المستمنين؟"، وكان هناك عتبات يجب أن تُوطَأ، وأجراس يجب أن تُرن. وهناك داركوس الذي يجب التفكير به، الذي لا يستطيع السير إلى البراد دون مساعدة، فكيف سيشق طريقه إلى مملكة الرب؟ وكلارا يجب أن تُسَاعد، لا وقت للفتيات، ولريان توبس وللتهرب ولقلق المراهقة. ذلك أن كلارا لم تكن مثل المراهقات الأخريات. إنها طفلة الرب، الطفلة المعجزة لهورتينس. وكانت هورتينس في الثامنة والأربعين حين سمعت صوت الرب وهي تنزع أحشاء سمكة في صباح أحد الأيام في خليج مونيغو، 1955. رمت سمكة المارلن مباشرة واستقلت الترام الكهربائي إلى المنزل، واستسلمت لنشاطها الأقل تفضيلًا من أجل أن تحمل بالطفل الذي طلبه. لماذا انتظر الرب طويلًا هكذا؟ لأن الرب أراد أن يظهر لهورتينس معجزة. ذلك أن هورتينس نفسها كانت طفلة معجزة، وُلدت أثناء زلزال كينغستون الأسطوري سنة 1907، وحين كان جميع الآخرين منشغلين بالموت كانت المعجزات تحدث في العائلة. نظرت هورتينس إلى المسألة بهذه الطريقة: إذا كان يمكن أن تأتي إلى هذا العالم أثناء زلزال، حين كانت أجزاء من خليج مونيغو تنزلق في البحر، والنيران تتقدم من الجبال، إذًا لا أحد لا يمتلك أعذارًا حول أي شيء. أحبت أن تقول: "كوني وُلدتُ في أصعب جزء فإن كل المشاكل تهون بعد هذا". وهكذا الآن بما أن كلارا هنا، وهي كبيرة بما يكفي كي تساعدها في التحدث مع الناس والإدارة وكتابة الكلمات وجميع الأعمال المختلفة لكنيسة شهود يهوه، فمن الأفضل أن تقوم بهذا. لا وقت للفتيان. لقد بدأ عمل هذه الطفلة. ولم تقبل هورتينس (التي وُلدت بينما كانت جامايكا تتقوّض) حصول الرؤيا النبوئية قبل عيد ميلاد المرء التاسع عشر كأي عذر للتأخر.

وكان الغريب في الأمر أن كلارا التقت في النهاية بريان توبس وجهًا لوجه، ربما بسبب نزوع يهوه الموثق جيدًا للتحرك بطريقة غامضة، ومن خلال أداء عمل الرب. وأُرسِلَ مجموعة شباب "قاعة السماء" في لامبث للتحدث مع الناس على

الأبواب في صباح يوم أحد، كي "يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ" (متى 46-31:25).

وكلارا التي تمقت الشهود الشبان بربطات أعناقهم السيئة وأصواتهم المنطوقة بنعومة انطلقت لوحدها مع حقيبتها الوحيدة كي تقرع الأجراس في كريتون رود. وعلى الأبواب القليلة الأولى شاهدت الوجوه المطلية المعتادة: نساء ظريفات يبعدنها بلباقة قدر الإمكان، حريصات على ألا تقترب كثيرًا، خائفات من أن يصبن بالدّين كأنه عدوى. ووصلت إلى الجزء الأفقر في الشارع حيث صار رد الفعل أكثر عدوانية، وأتت الصيحات من النوافذ أو من خلف أبواب مغلقة.

"إذا كان هؤلاء شهود يهوه الدمويون فليغربوا من هنا".

أو بشكل أكثر تخيلًا: "آسف، يا حبي، ألا تعرفين ما هو اليوم؟ إنه الأحد، أليس كذلك؟ أنا مرهق. أمضيتُ الأسبوع كله في خلق الأرض والمحيطات. إنه يوم راحتي".

في المنزل رقم 75 أمضت ساعة مع طفل في سن الرابعة عشرة نابغة في الفيزياء يدعى كلون أراد أن يثبت فكريًا عدم وجود الله وهو ينظر من تحت تنورتها إلى الأعلى. ثم رنت باب المنزل رقم 87 وفتح ريان توبس.

"نعم؟"

وقف هناك بعظَمَته ذات الشعر الأحمر وقبته السوداء الضيقة وشفتيه المزمومتين بعدوانية.

"أنا...أنا..."

حاولت يائسة أن تنسى الثياب التي ترتديها وهي قميص أبيض بياقة مزركشة، وتنورة طويلة إلى الركبة مربعة النقش ونطاق كتب عليه بفخر ترنيمة مسيحية: "أنا أقرب يا ربي إليك".

قال ريان ساحبًا سحبة قوية من سيجارة على وشك الانطفاء: "هل تريدين شيئًا ما؟"

جربت كلارا ابتسامتها العريضة ذات السن الناتئ وواصلت القيادة الذاتية: "صباح الخير يا سيد. أنا من "قاعة السماء" في لامبيث، حيث نحن، شهود يهوه،

ننتظر أن يأتي الرب وينعم علينا بحضوره المقدس مرة أخرى، كما فعل بشكل وجيز، لكن محزن وغير مرئي، في عام أبينا، 1914 . نعتقد أنه حين يأتي سيُحضر معه النيران الثلاثية المضاعفة للجحيم في الهرمجدون، في ذلك اليوم حين سيُنقذ قلة من المختارين فحسب. هل أنت مهتم..."

"ماذا؟"

حاولت كلارا التي أوشكت على البكاء بسبب شعورها بالخجل الشديد مرة ثانية: "هل أنت مهتم بتعاليم يهوه؟"

"أنت ماذا؟"

"يهوه، بتعاليم الرب. كما ترى إنه كالدرج". كان ملاذ كلارا الأخير هو دومًا استعارة أمها عن الدرجات المقدسة. "أرى أنك تنزل وثمة درجة مفقودة. أقول لك فحسب: انتبه إلى خطواتك. أريد فقط أن أشاطرك الفردوس. أنا لا أريد أن أراك تكسر قدميك".

اتكأ ريان توبس على إطار الباب ونظر إليها لوقت طويل عبر الشراريب الحمراء. شعرت كلارا كأنها تنغلق على نفسها كمثل تلسكوب، وبأنها ستختفي كليًا خلال لحظات.

"لدي بعض المواد للقراءة كي تقرأها"، لعبت بقفل الحقيبة، دفعت الغالق بإبهامها لكنها أهملت إمساك الجانب الآخر من الحقيبة فسقطت خمسون نسخة من مجلة "برج المراقبة" على العتبة. "آه!"

قال ريان ببطء: "اسمك كلارا. أنت من مدرستي، أليس كذلك؟"

قالت كلارا سعيدة أنه تذكر اسمها بحيث أنها نسيت الألم: "نعم، سينت جود".

"أعرف اسمها".

احمرت كلارا كما يحمرّ الزنوج ونظرت إلى الأرض.

قال ريان ملتقطًا شيئًا ما خلسة من أنفه وقاذفًا له في إناء الزهور: "إن قضايا القديسين يائسة، نوعًا ما. كلهم ينتمون إلى الجيش الجمهوري الإيرلندي".

فحص ريان قامة كلارا الطويلة مرة أخرى وأمضى برهة طويلة من الوقت يحدق في ثدييها الكبيرين، ومخطط حلمتيهما المرتفعتين الواضح عبر البوليستر الأبيض.

قال أخيرًا خافضًا نظرته كي يفحص الركبة النازفة: "من الأفضل أن تدخلي وتضمدي الجرح".

عصر ذلك اليوم أصدر فراش ريان قرقرات خفيفة تواصلت فترة أطول مما يمكن أن يتوقعه المرء من فتاة مسيحية وربح الشيطان جولة أخرى بسهولة في لعبة بوكر الرّب. شُدّت الأشياء ودُفعت وسُحبت. وفي الوقت الذي رن فيه جرس الانصراف من المدرسة يوم الإثنين كان ريان توبس وكلارا بودن (كثيرًا بسبب مقتهما المشترك للمدرسة) في شبه علاقة غرامية، كما أفادت عبارات مدرسة القديس جود: كانا يتعاملان بعضهما مع بعض. هل كان هذا كل شيء تخيلته كلارا في ابتكارها التعرقي الخاص بالمراهقة؟

حسنًا، تبين أن "التعامل معه" تألف من ثلاثة أوقات تسلية رئيسية (حسب الأولوية): الإعجاب بدراجة ريان، الإعجاب بتسجيلات ريان، والإعجاب بريان. لكن على الرغم من أن هناك فتيات أخريات يمكن أن يعترضن على مواعيد تجري في مرآب ريان وتتألف بشكل كامل من مراقبته ينظر إلى محرك الدراجة ويمدح تعقيداته، لم يكن هناك شيء أكثر إثارة بالنسبة لكلارا. سرعان ما أدركت أن ريان رجل قليل الكلام، وكان هذا مؤلمًا، وأن المحادثات النادرة التي يجريها لا تهم سواه: آماله ومخاوفه (وكلها تتعلق بالدراجة) واعتقاده الخاص أنه هو ودراجته لن يعمّرا طويلًا. ولسبب ما، كان ريان مقتنعًا بشعار الخمسينيات عن الاكتهال: "عش بسرعة ومت شابًا"، وعلى الرغم من أن دراجته لا تقطع أكثر من 22 ميلًا في الساعة على منحدر فإنّه أحب أن يحذر كلارا بنبرة جدية بأن لا تنخرط معه كثيرًا لأنه لن يعيش لفترة طويلة، سيموت باكرًا وفي انفجار. وتخيلت نفسها تحمل ريان النازف بين ذراعيها وتسمعه في النهاية يعلن حبه الذي لا يموت، ورأت نفسها كأرملة عصرية ترتدي على مدار السنة كنزة بقبة سوداء ضيقة وتطلب أن تُعزف مقطوعة "غروب واترلو" [18] في جنازته. لكن إخلاص كلارا غير القابل للتفسير

لريان توبس لم يعرف حدودًا. تجاوز مظهره السيّئ وشخصيته المملة وعاداته الشخصية القبيحة. وجوهريًا، تجاوز ريان، ذلك أنه مهما ادعت هورتينس فقد كانت كلارا فتاة مراهقة كأي فتاة أخرى، وموضوع هيامها إكسسوار للهيام نفسه فحسب، ومن خلال كبحه الطويل كان ذلك الهيام يؤكد الآن نفسه بإلحاح بركاني. وفي الأشهر التالية تغيّر تفكير كلارا، وتغيرت ملابسها، وتغيرت مشيتها، وتغيرت روحها. وكانت الفتيات في جميع أنحاء العالم يسمين هذا التغير دوني أوسموند [19] أو مايكل جاكسون أو البي سيتي رولرز [20] لكن كلارا اختارت أن تسمّيه ريان توبس.

لم يكن هناك مواعيد بالمعنى العادي. لا أزهار ولا مطاعم ولا أفلام أو حفلات. وبين فترة وأخرى، حين تكون هناك حاجة لمزيد من الماريجوانا كان ريان يأخذها لزيارة بناء مهجور حيث سعر الثمن [21]، أي ثلاث غرامات ونصف من الماريجوانا، رخيص والناس مخدرون جدًا بحيث لا يتعرفون على ملامحك. وهناك يتمدد ريان في أرجوحة شبكية وبعد عدة سجائر ماريجوانا ينتقل من المقطع الأحادي المعتاد لديه إلى حالة عدم الاستجابة. أما كلارا التي لا تدخن، فتجلس عند قدميه، معبرة عن إعجابها به، ومحاولة مواكبة المحادثة العامة التي حولها، ولم تكن لديها حكايات ترويها كالآخرين، ليس كميرلين وكليف وليو وبيترونيا، ووان سي والآخرين. لا حكايات عن رحلات حبوب الهلوسة، وعن وحشية الشرطة أو السير في ساحة ترافالجار. لكن كلارا صنعت أصدقاء. وكانت فتاة واسعة الحيلة، واستخدمت ما لديها كي تسلي وترهب أنماطًا متنوعة من الهِبيّين والبلهاء والشاذين والغرائبيين متحدثة عن نوع مختلف من التطرف، وحكايات عن نار الجحيم والإدانة، وعن حب الشيطان للفضلات وولعه بسلخ الجلد وبمقل عيون حمراء محترقة ومخيفة، وسلخ الأعضاء، وكل الخطط المتقنة للوسيفر ذلك الأكثر تميزًا بين الملائكة الساقطين، والتي وُضعت للأول من الكانون الثاني 1975.

بدأ الشيء الذي يُدعى ريان توبس يدفع على نحو طبيعي نهاية العالم أكثر

وأكثر إلى الغرف الخلفية لوعي كلارا. وهكذا فإن أمورًا أخرى كثيرة كانت تقدم نفسها لها، الكثير من الأشياء الجديدة في الحياة. شعرت أنها كأحد المباركين الآن، هنا في لامبث. وكلما ازداد شعورها بأنها مباركة أكثر على الأرض، قل تحويل أفكارها إلى السماء. وفي النهاية، حصل الحدث الملحمي للانفصال الطويل الذي لم تتوقعه كلارا. ثمة كثيرون غير مباركين. ومن بين ثمانية مليون من شهود يهوه، هناك مائة وأربعة وأربعون ألفًا فقط يستطيعون الانضمام للمسيح في السماء. إن النساء الجيدات والرجال الجيدين بما يكفي سيكسبون الجنة على الأرض (وهذه الجائزة الملفقة ليست سيئة لو فكرنا بالأمور كلها) لكن هذا يستثني بضعة ملايين فشلوا في تحصيل الدرجة بالإضافة إلى الوثنيين واليهود والكاثوليك والمسلمين ورجال الغابات الفقراء في الأمازون الذين بكت عليهم كلارا حين كانت طفلة وكثيرين غير منقذين. وتباهى شهود يهوه بغياب الجحيم في لاهوتهم: إن العقوبة هي التعذيب، التعذيب غير القابل للتخيل في اليوم الأخير، ثم القبر. لكن بالنسبة لكلارا، بدا هذا أسوأ: فكرة حشد كبير يمتع نفسه في الفردوس الأرضي، بينما المعذبون وجماجم الموتى يتوضعون فقط تحت الطبقة العليا للتربة.

تقف في الجانب الآخر الحشود الهائلة من البشر على الكوكب، الذين هم غير مطلعين على تعاليم مجلة "برج المراقبة" (والبعض ليس لديهم صندوق بريد)، وغير قادرين على الاتصال ب "قاعة الملكوت" في لامبيث وعلى تلقي مواد قراءة مساعدة حول الطريق إلى الخلاص. وفي الجانب الآخر هورتينس، بشعرها الملفوف كله في لفافات حديدية، تتقلب تحت أغطيتها، وتنتظر بسعادة أمطار الكبريت كي تتساقط على المذنبين، وخاصة النساء في المنزل رقم 53. وحاولت هورتينس أن تشرح: "الذين ماتوا بدون أن يعرفوا الرب سيُبْعثون ويحظون بفرصة أخرى". لكن بالنسبة لكلارا، كانت لا تزال المعادلة غير منصفة والكتب مشوشة، ومن الصعب تحقيق الإيمان، ومن السهل فقدانه. وصارت أكثر ترددًا في ترك أثر ركبتيها في المخدات الحمراء "لقاعة الملكوت". وتوقفت عن ارتداء الأوشحة وحمل اللافتات أو توزيع المنشورات. ولم تخبر أحدًا عن درجات السلم

المفقودة، واكتشفت المخدرات، ونسيت الدَرَج وصارت تستقل المصعد.

في 1 تشرين الأول 1974 عوقبت بالحجز. حُجزت لمدة 45 دقيقة بعد المدرسة (لأنها قالت في درس موسيقى إن روجر دالتري [22] موسيقي أعظم من جوهان سيباستيان باخ)، ونتيجة لهذا تأخرت كلارا عن موعدها في الساعة الرابعة مع ريان في زاوية شارع لينان. كان البرد قارسًا والظلام يخيم في الوقت الذي خرجت فيه، ركضت عبر أكوام من أوراق الخريف المتعفنة، فتشت شارع لينان طولًا وعرضًا لكنها لم تعثر له على أثر. اقتربت من الباب الأمامي لمنزلها بمقت، مقدمة للرب حشدًا من العقود الصامتة (لن أمارس الجنس أبدًا، ولن أدخن سيجارة ماريجوانا أخرى، لن أرتدي تنورة أخرى لفوق الركبة) فقط إذا أكد لها أن ريان توبس لم يقرع جرس باب أمها باحثًا عن مأوى من الريح.

"كلارا، ادخلي عن البرد".

كان هذا هو الصوت الذي تستخدمه هورتينس متعمدة حين يكون لديها رفقة (تعويض مفرط لكل الحروف الساكنة) الصوت الذي تستخدمه لراعي الكنيسة وللنساء البيضاوات.

أغلقت كلارا الباب الأمامي خلفها وسارت مرعوبةً عبر غرفة الجلوس، عابرة صورة المسيح ثلاثية الأبعاد والمؤطرة والتي يبكي فيها (ثم لا يبكي)، وإلى المطبخ.

"يا إلهي، تبدو كشيء جرّته قطة؟"

"إمممم" [23]، قال ريان، الذي كان يلتهم بسعادة صحنًا من من الآكي والسمك المملح [24] مالئًا فمه في الجانب الآخر من طاولة المطبخ الصغيرة.

تلعثمت كلارا وكان سنها الناتئ يحفر أشكالًا على شفتها السفلى: "ما الذي تفعله هنا؟"

صاحت هورتينس منتصرة تقريبًا: "هل تعتقدين أنه يمكنك أن تخفي أصدقاءك عني إلى الأبد؟ كان الفتى يشعر بالبرد فأدخلته، تبادلنا حديثًا ظريفًا، أليس كذلك أيها الشاب؟"

"نعم يا سيدة بودن".

قالت هورتينس متوهجة بطريقة لم ترها كلارا أبدًا من قبل: "حسنًا، لا تبدين مصدومة كثيرًا. تعتقدين أنني كنت سآكله أو شيئًا من هذا القبيل، ماذا يا ريان؟"

"نعم، صحيح"، قال ريان بتكلف. وبدأ ريان توبس وأم كلارا يضحكان معًا.

هل هناك شيء من المحتمل أن يخطف الوهج من العلاقة أكثر مما حين يبني العاشق علاقة مرحة مع أم العشيقة؟ ومع اشتداد عتمة الليالي وقصرها وبعد أن صار من الصعب التقاط ريان من بين الحشد الذي يخرج من بوابات المدرسة كل يوم في الثالثة والنصف، كانت كلارا تسير مكتئبة المسافة الطويلة إلى المنزل فقط كي تعثر على عشيقها مرة أخرى في المطبخ، يثرثر بسعادة مع هورتينس، وهو يلتهم مؤونة مسكن بودن من الآكي والسمك المملح ولحم البقر المجفف، والفروج مع الأرز والبازلاء و كعكة الجنجر وبوظة جوز الهند.

كانت المحادثات، التي تبدو حيوية بينما تدير كلارا المفتاح في الباب تصمت دومًا حين تقترب من المطبخ. وكمثل طفلين عالقين في الخارج، يصبحان متجهمين ومرتبكين ويختلق ريان عذرًا ويرحل. وكانت هناك أيضًا نظرة، كما لاحظت، بدآ يخصانها بها، نظرة شفقة، واستعلاء، وليس هذا فحسب، بل شرعا يعلقان على ثيابها، التي صارت أكثر شبابًا وتضج بالألوان، وريان، ما الذي حدث لريان؟ تخلص من القبة الضيقة الخاصة به، وصار يتجنبها في المدرسة واشترى ربطة عنق.

كانت كلارا بالطبع آخر من يعلم كأم مدمن على المخدرات أو جار قاتل متسلسل. كانت مرة تعرف كل شيء عن ريان (قبل أن يعرفها ريان) وكانت خبيرة بريان. لكن ذلك اقتصر الآن على سماع الفتيات الإيرلنديات يؤكدن أن ريان توبس وكلارا بودن لا يتعاملان مع بعضهما، آه، كلا، ليس بعد الآن.

لو أدركت كلارا ما يحدث، لما سمحت لنفسها بتصديقه. فقد قررت أن تنسى المناسبة التي رأت فيها ريان جالسًا إلى طاولة المطبخ محاطًا بالمنشورات وهورتينس تجمعها بسرعة وتجرفها إلى جيب مئزرها. لاحقًا في ذلك الشهر، حين أقنعت كلارا

ريان غير السعيد أن يمارس معها الحب دون حماس في مرحاض العجزة حدقت بعينين نصف مغمضتين فشاهدت ما لم تكن تريد رؤيته، لكنه كان هناك. حين انحنى على المغسلة، لمحت تحت سترته لمعانًا فضيًا، ولم يكن وجهه مرئيًا بشكل كامل في الضوء الخافت (لا يمكن أن يكون صليبًا لكنه كان)، كان لمعان صليب فضي صغير.

لا يمكن أن تحدث، لكنها تحدث، هكذا يصف الناس المعجزة. ونوعًا ما التقت نقائض هورتينس وريان في نهاياتها المنطقية، والتقى حبهما المتبادل لألم وموت الآخرين كنقاط المنظور في جو مرضي ما. فجأة دخل المُنقَذ وغير المنقذ بشكل إعجازي في دائرة متكاملة. هورتينس وريان يحاولان الآن إنقاذها.

"اركبي الدراجة".

كانت كلارا قد خرجت لتوها من المدرسة في أوائل المساء حين توقفت دراجة ريان عند قدميها.

"كلارا اصعدي إلى الدراجة".

"اذهب واطلب من أمي إن كانت ترغب بالركوب على الدراجة".

قال ريان مقدمًا الخوذة الاحتياطية للدراجة: "من فضلك، هذا مهم. أريد أن أتحدث معك. لم يتبق الكثير من الوقت".

انفجرت كلارا، وهي تهتز بفظاظة على كعبيها: "لماذا؟ هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟"

تمتم ريان: "أنا وأنت، كلانا. المكان الصحيح كما آمل".

"كلا"،

"أرجوك يا كلارا".

"كلا".

"من فضلك. هذا مهم. إنها مسألة حياة أو موت".

"يا رجل... حسنًا. لكنني لن أعتمر هذا الشيء"، أعادت الخوذة وركبت منفرجة الساقين على الدراجة، "لن أخرب شعري".

ساق بها ريان عبر لندن ثم إلى هامبستيد هيث، وقمة بارليامنت هيل. ثم

وهو ينظر بحذر من تلك القمة إلى الضوء البرتقالي الشاحب للمدينة، وبلغة لم تكن له، عبّر عن قضيته. وكان مفادها: لم يتبق إلا شهر لنهاية العالم.

"والأمر هو أنه هي وأنا، نحن فقط..."

"نحن!"

تمتم ريان: "أمك، أمك وأنا، نحن قلقان عليك. لن ينجو كثيرون في الأيام الأخيرة. تعاشرين رفقة سيئة يا كلارا..."

قالت كلارا وهي تهزّ رأسها وتمصّ سنّها: "يا رجل لا أؤمن بهذا العمل. كانوا أصدقاءك".

"كلا، كلا، لم يكونوا. لم يعودوا. الماريجوانا، الماريجوانا ضارة. وكل ذلك الرهط، وان سي وبيترونيا".

"إنهما صديقتان لي".

"لسْن فتيات جيدات يا كلارا. يجب أن يكن مع عائلاتهن وألا يرتدين بهذه الطريقة ويقمن بما يقمن به من أمور مع أولئك الرجال في ذلك المنزل. أنت نفسك يجب ألا تفعلي هذا، وارتداء الملابس مثل، مثل، مثل..."

"مثل ماذا؟"

قال ريان والكلمة تنفجر منه كما لو أن التلفظ بها يريحه: "كعاهرة! كامرأة خليعة".

"آه يا فتى. لقد سمعتُ كل شيء. خذني إلى المنزل يا رجل".

قال ريان هازًا رأسه لنفسه، وذراعه ممدودة وتشير فوق لندن من تشيسويك إلى آرشواي: "سينالون ما يستحقونه، لا يزال لديك متسع من الوقت. مع من تريدين أن تكوني يا كلارا؟ مع من تريدين أن تكوني؟ مع المائة وأربعة وأربعين ألفًا في الفردوس، تحكمين مع يسوع، أم تريدين أن تكوني واحدًا من الحشد الكبير، تعيشين في فردوس أرضي، والذي لا بأس به لكن... أم هل ستكونين أحد الذين سيُعاقبون، ويموتون؟ أنا فقط أفصل الخراف عن الجداء يا كلارا، الخراف عن الجداء. هذا من (إنجيل متى). وأعتقد أنك خروف أليس كذلك؟"

أكدت كلارا وهي تعود إلى الدراجة وتجلس على المقعد الخلفي: "دعني أقول لك شيئًا . أنا عنزة. أحب أن أكون عنزة، وأفضل أن أُطهى في الأمطار الكبريتية مع صديقاتي على أن أجلس في الفردوس، ضجرة حتى البكاء مع داركوس وأمي ومعك".

قال ريان بوقار، مرتديًا خوذته: "يجب ألا تقولي هذا يا كلارا، فعلًا أتمنى لو أنك لم تقولي هذا. من أجلك. يستطيع أن يسمعنا".

"وأنا متعبة من سماعك. خذني إلى البيت".

صاح مستديرًا إلى الخلف، صارخًا فوق صوت العادم وهما يصعدان ثم يهبطان التلة على الدراجة: "إنها الحقيقة! إنه يستطيع سماعنا! يستطيع أن يرى كل شيء. إنه يراقبنا".

صاحت كلارا، وهما يجبران حشدًا من اليهود الحسيديين على الركض في جميع الجهات: "انتبه إلى طريقك، انتبه إلى الطريق".

يقول: "فقط القلة، فقط القلة. سيواجهون كلهم ذلك، هذا ما يقوله في سفر التثنية [25]، سيواجه الجميع ما هو قادم وفقط القلة..."

وفيما كان ريان توبس يواصل تقديم تفسيراته التوراتية المنورة صدمت دراجته الفيسبا شجرة بلوط عمرها 400 سنة. انتصرت الطبيعة على افتراضات الهندسة. عاشت الشجرة، وانقذف ريان في جهة وكلارا في الجهة الأخرى.

إن مبادئ الديانة المسيحية وقانون "سود" [26]، المعروف أيضًا باسم قانون مورفي، هي نفسها: إن كل ما يحدث لي، هو لي. وهكذا إذا رمى شخصٌ قطعة توست وسقطت على الطرف الذي عليه زبدة، فإن هذا الحدث التعيس يُفَسَّر كبرهان على حقيقة وجودية حول الحظ السيّئ: إن قطعة التوست سقطت بهذه الطريقة كي تبرهن لك فحسب، أيها السيد تعيس الحظ، أن هناك قوة معرفة في الكون وهي الحظ السيّئ، وهي ليست عشوائية. ولا يمكن أبدًا أن تسقط على الجانب الصحيح، كما تقول الحجة، لأن هذا هو قانون سود. باختصار، إن قانون سود يُطبق عليك كي يبرهن لك أنه هنا. لكن بخلاف الجاذبية إنه قانون لا يوجد مهما حدث، فحين تسقط قطعة التوست على الجانب الأيمن، يختفي

قانون سود على نحو غامض. وعلى نحو مشابه، حين سقطت كلارا وانخلع سن من أسنان فكها العلوي بينما لم يُصَب ريان بخدش عرف ريان أن السبب هو أن الله اختاره من بين المختارين بينما اختار كلارا من بين غير المختارين. ليس لأن واحدًا كان يرتدي خوذة والآخر لم يكن. ولو حدث الأمر بعكس ذلك، لو أن الجاذبية خلعت أسنان ريان وتركتها تتدحرج من تلة بريمروز ككرات ثلج بالغة الصغر بلون المينا، حسنًا... يمكن أن تراهن بحياتك أن الله في ذهن ريان قام بفعل خفيّ.

وكما حدث، كانت هذه آخر إشارة يحتاج إليها ريان. وحين اقترب مساء رأس السنة، كان هناك في غرفة الجلوس، يجلس وسط دائرة من الشموع، ويصلي بحماس من أجل روح كلارا بينما شخ داركوس في أنبوب قسطرته وشاهد لعبة الجيل على قناة البي بي سي الأولى. كلارا، في غضون ذلك، ارتدت بنطلونًا أصفر ضيقًا وقميصًا أحمر مفتوحًا عند العنق وذهبت إلى حفلة اقترحت موضوعها وساعدت في كتابة اللافتة وعلقتها من النافذة ودخنت ورقصت مع بقيتهم وشعرت بأنها، دون وقار مفرط، حسناء الحفلة. لكن وبحلول منتصف الليل الحتمي وانقضائه دون مجيء خيالة القيامة، عانت كلارا من كآبة مفاجئة. ذلك أن تخليص المرء لنفسه من الإيمان هو كمثل غلي مياه البحر للحصول على الملح، يحصل المرء على شيء ويفقد شيئًا آخر. وعلى الرغم من أن أصدقاءها ميرلين ووانسي وآخرين ربتوا على ظهرها وهنّؤوها على التخلص من أحلام الهلاك والخلاص الحماسية تلك، ندبت كلارا بهدوء اللمسة الأكثر دفئًا التي انتظرتها طيلة تسعة عشر عامًا، الضمة الدبية الشاملة للمخلص، الواحد الذي يمثل الألفا والأوميغا، والبداية والنهاية، الرجل الذي كان سيأخذها بعيدًا عن كل هذا، من واقع الحياة البليد في شقة طابق أرضي في لامبث. ماذا سيحدث الآن لكلارا؟ سيعثر ريان على هوس آخر، وكل ما يحتاجه داركوس هو الانتقال إلى قناة أخرى، بالنسبة لهورتينس موعد آخر سيتجسد ماديًا بالطبع، مع المزيد من المنشورات، ودومًا المزيد من الإيمان. لكن كلارا لم تكن مثل هورتينس.

لكن راسبًا بقي على الرغم من تبخّر إيمان كلارا، لا تزال ترغب بمنقذ، وتتمنى الرجل الذي ينقلها ويختارها من بين الأخريات بحيث: "سيمشون في ثياب معي لأنهم مستحقون" (سفر الرؤيا 3:4).

ربما كان الأمر غير القابل للشرح هو أنه حين التقت كلارا بودن بآرشي جونز عند قاع أحد الأدراج في الصباح التالي شاهدت فيه أكثر من كونه مجرد رجل متوسط العمر بدين وقصير وأبيض في بدلة سيئة التفصيل. شاهدتْ كلارا آرشي بالعينين الرماديتين الخضراوين للخسارة. كان عالمها قد اختفى لتوه وتلاشى الإيمان الذي عاشتْه كمَدّ مُنحسر وصار آرشي، تمامًا بالمصادفة، الرجل الذي في المزحة: آخر رجل على الأرض.

3

عائلتان

"ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم، فليتزوجوا. لأن التزوج أصلح من التحرّق"، رسالة كورنثوس الأولى، الإصحاح السابع، 9.

نصيحة جيدة. بالطبع. تقول رسالة كورنثوس أيضًا: "فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي نَامُوسِ مُوسَى: "لاَ تَكُمَّ ثَوْرًا دَارِسًا"، فافهمْ.

في شباط 1975 هجرت كلارا الكنيسة وكل حرفيتها التوراتية وذهبت إلى أرشيبالد جونز، لكنها لم تكن قد أصبحت ملحدة حرة تستطيع الضحك قرب المذابح أو ترفض بشكل كامل تعاليم القديس بولس. ولم يكن القول الفصل التالي مشكلة (لم يكن لديها ثور، وهكذا استُثنيت). لكن الزواج سبب لها الأرق في كثير من الليالي. هل كان أفضل لها أن تتزوج؟ حتى لو كان الرجل وثنيًا؟ ما من طريقة لتعرف هذا. تعيش بدون دعائم الآن، بدون شِباك أمان، وأمها مقلقة أكثر من الله. وقد عارضت هورتينس العلاقة بشكل وحشي على أرضيات اللون وليس العمر وحين سمعت بها قامت على الفور بنبذ وطرد ابنتها عن عتبة الباب.

لا تزال كلارا تشعر أن أمها تفضل في أعماقها أن تتزوج رجلًا غير ملائم بدلًا من أن تعيش معه في خطيئة، وهكذا توسلت لآرشي على الفور أن يأخذها بعيدًا عن لامبث بقدر ما يستطيع رجل يمتلك وسائله: المغرب، بلجيكا، إيطاليا. شابك

آرشي يده بيدها وهز رأسه وهمس كلمات عذبة فارغة عارفًا بشكل كامل أن أبعد نقطة سيذهب إليها رجل بإمكانياته هي منزل من طابقين اشتراه مؤخرًا وخاضع لرهن ثقيل في ولسدن جرين. لكنه شعر أنه لا حاجة لذكر هذا، ليس الآن في حرارة اللحظة. ولكنه سيوصل إليها المعلومة بشكل لطيف.

بعد ثلاثة أشهر أسرّ بالأمر بلطف لكلارا وانتقلا إلى ذلك المنزل. صعد آرشي السلم لاعنًا وغير قادر على الرؤية، منحنيًا تحت وزن علبة تستطيع كلارا أن تحمل اثنتين أو ثلاثًا منها بدون جهد، واستراحت كلارا، مديرة عينيها في شعاع شمس أيار الدافئ، محاولة أن تفهم وضعها. نزعت ثيابها كلها باستثناء صدار بنفسجي واتكأت على بوابتها الأمامية. أي نوع من الأمكنة كان هذا؟ كان هذا هو الأمر، كما ترى، لا تستطيع التأكد. وهي تسافر في مقعد الركاب الأمامي لشاحنة النقل، شاهدت منطقة الطريق السريع وكانت دميمة وفقيرة ومألوفة (رغم أنه لم يكن هناك قاعات ملكوت أو كنائس أسقفية)، لكن عند منعطف زاوية تكشفت الطرق فجأة عن خضرة وأشجار بلوط جميلة وصارت المنازل أكبر وأوسع وأكثر بعدًا عن بعضها، وشاهدت الحدائق والمكتبات. ثم فجأة تلاشت الأشجار وعاد المشهد إلى مواقف الحافلات كما لو برنّة جرس منتصف ليل، وكانت هذه إشارة أطاعتها المنازل أيضًا محولة نفسها إلى مساكن أصغر بدون أدراج انتصبت متباعدة مقابل أروقة تسوّق مهجورة، تلك الصفوف الخاصة من المؤسسات التي تتضمن، دون استثناء: بار ساندويش متوقف عن العمل لا يزال يعلن عن الفطور، صانع أقفال غير مهتم بتسويق الزخارف (صناعة مفاتيح هنا). وصالون شعر أحادي الجنس مغلق باستمرار، الحامل الفخور لتورية لا يُعبّر عنها (قصات شعر أنيقة، فوائد إضافية، العرض متاح الآن لكنه سينتهي بسرعة).

كانت الرحلة بالسيارة كاليانصيب وهي تنظر طول الطريق دون أن تعرف إن كان المرء سيستقر في حياة بين الأشجار أو في وسط الخراء. ثم أخيرًا أبطأت الشاحنة أمام منزل، منزل جيد في مكان ما في منتصف الطريق بين الأشجار والخراء. وشعرت كلارا بمد من الامتنان يجري فيها. وكان البيت جيدًا، لا كما

توقعت لكنه لم يكن سيئًا كما خشيت، له حديقتان صغيرتان في الأمام والخلف، وفيه ممسحة للأرجل وجرس ومرحاض في الداخل. ولم تدفع ثمنًا مرتفعًا، لم تدفع إلا الحب، الحب فقط. ومهما قالت رسالة كورنثوس الأولى فإن الحب ليس شيئًا من الصعب أن تخسره، خاصة إذا كنت لا تشعر به. وهي لم تحب آرشي، لكنها اتخذت قرارها من اللحظة الأولى على الدرج بأن تكرس حياتها له إذا أخذها بعيدًا. والآن بعد أن فعل هذا، وعلى الرغم أنه لم يأخذها إلى المغرب أو بلجيكا أو إيطاليا، فإن هذا المكان جيد، لم يكن الأرض الموعودة، لكنه أفضل من أي مكان سبق أن ذهبت إليه.

أدركت كلارا أن أرشيبالد جونز ليس بطلًا رومانسيًا. وكانت الأشهر الثلاثة التي أمضتها في غرفة قذرة تفوح منها الروائح في كريكلوود كافية كي تكشف لها هذا. آه، ربما هو عاطفي، وساحر أحيانًا، ويستطيع أن يصفر لحنًا صافيًا وواضحًا أول شيء في الصباح، ويسوق بهدوء وبمسؤولية وهو طباخ ممتاز ومدهش لكنه يخلو من الرومانسية والهيام. وشعرت كلارا بأنه إذا كانت المرأة مقيدة برجل عادي كهذا ينبغي أن يكرس نفسه بشكل كامل لها ولجمالها وشبابها، وهذا أقل ما يفعله كي يعوض الأمور. لكن ليس آرشي. فبعد شهر من زواجهما امتلك تلك النظرة البراقة التي يقوم بها الرجال حين ينظرون عبرك. عاد إلى عزوبيته: تناول الشراب مع صمد إقبال، والعشاء مع صمد إقبال، وفطور الأحد مع صمد إقبال، وكان يقضي جميع أوقات الفراغ مع الرجل في المكان التعيس، مطعم أوكونيل. حاولتْ أن تكون عقلانية فسألتْهُ: لماذا لا تتواجد هنا أبدًا؟ لماذا تمضي الكثير من الوقت مع الهندي؟ فيربت على ظهرها ويقبلها على خدها ويمسك معطفه ويضع قدمه خارج الباب ودومًا يتفوه بالجواب القديم نفسه: أنا وصمد نتحدث كثيرًا عن الماضي. لم تستطع أن تجادل هذا. كانا يعودان في حديثهما إلى وقت سبقَ ولادتها.

ليس أرشيبالد جونز فارس أحلام إذًا، لا أهداف ولا آمال ولا طموحات لديه. وكانت المتع الأعظم لهذا الرجل هي الفطور الإنكليزي وشراب الدي آي واي.

وكان رجلًا بليدًا وعجوزًا لكنه جيد... كان طيبًا. ولا يعني كونه شخصًا جيدًا أنه يمكن أن يضيء حياتها، لكنها رأت فيه شيئًا ما حين رأته في المرة الأولى على الدرج بشكل مباشر وبالطريقة نفسها التي تستطيع أن تشير بها إلى ثمرة مانغو جيدة في كشك في بريكستون دون أن تلمس قشرتها.

كانت هذه هي الأفكار التي تمسكت بها كلارا وهي تتكئ على بوابة حديقتها، بعد ثلاثة أشهر من زفافها وهي تراقب بصمت كيف تغضّن جبين زوجها وقصر كمثل أكورديون، وكيف تدلت معدته كبطن امرأة حامل فوق حزامه، وبياض بشرته، وزرقة شرايينه، وكيف كان يرفع بنطلونه إلى الأعلى، وحبليْ اللحم اللذين يظهران في حلق المرء (كما يقولون في جامايكا) حين تقترب نهايته.

تجهمت كلارا. لم تلاحظ هذه المصائب في الزفاف. لماذا لم تفعل؟ كان يبتسم ويرتدي ياقة ضيقة بيضاء، لكن كلا، لم تكن الأمور هكذا، لم تكن تبحث عنها آنذاك، هذا ما كان الأمر عليه. أمضت كلارا معظم يوم زفافها وهي تنظر إلى قدميها. كان يومًا حارًا في الرابع عشر من شباط، حارًا بشكل غير عادي، وكان هناك انتظار لأن العالم أرادها أن تتزوج في ذلك اليوم في مكتب تسجيل في لودجيت هيل. تذكرت كلارا أنها نزعت الكعبين البنيين الصغيرين اللذين ترتديهما ووضعت قدميها العاريتين على الأرض الباردة، عازمة أن تبقيهما مزروعتين على جانبي شق مظلم في الآجر، وهو فعل توازن أسندت إليه عشوائيًا سعادتها المستقبلية.

مسح آرشي في غضون ذلك بعض العرق عن شفته العليا ولعن شعاع شمس مثابرًا سبب دلفًا من المياه المالحة داخل بنطاله. اختار لزواجه الثاني بذلة موهير بياقة بيضاء وبرهنت الاثنتان أنهما إشكاليتان. وحثت الحرارة جداول من العرق نبعت من كل أنحاء جسمه، متخللة الياقة إلى البذلة ومصدرة رائحة كريهة كرائحة كلب مبلل. وكانت كلارا كالقطة، ترتدي فستانًا صوفيًا بنيًا وطويلًا وطقمًا كاملًا من الأسنان المزيفة. الفستان بلا ظهر، والأسنان بيضاء، والتأثير الإجمالي ماكر. كانت كالفهد في فستان مسائي، ولم يكن واضحًا للعين المجردة أين يتوقف الصوف وأين يبدأ جلد كلارا. واستجابت كقطة لشعاع الشمس

الغباري الذي يمر عبر نافذة عالية إلى الزوجين المنتظرين. أدفأت ظهرها العاري فيه، وبدت تقريبًا كأنها تنكشف للعيان. حتى أمين السجل، الذي رأى كل شيء (نساء كالحصان يتزوجن رجالًا كابن عرس) أبدى استهجانه لهذا الزواج الذي كان غير عادي أكثر من غيره وهما يقتربان من مكتبه. قطة وكلب.

"مرحبًا، يا أب"، قال آرشي.

"إنه أمين سجل يا أرشيبالد، أنت أيها العجوز الهزيل، وليس كاهنًا كاثوليكيًا"، قال صديقه صمد مياه إقبال، الذي استُدعِيَ مع زوجته ألسانا من منفى غرفة ضيوف الزفاف كي يشهدا على العقد.

"حسنًا. بالطبع. آسف. أعصابي متوترة".

قال أمين السجل الغاضب: "هل نبدأ؟ لدينا الكثير منكم كي نتعامل معهم اليوم".

كان هذا وبعض الأشياء القليلة الأخرى هو ما شكّل طقس الزفاف. قُدِّم قلم إلى آرشي وكتب اسمه (ألفرد أرشيبالد جونز)، الجنسية (بريطاني) والعمر (47). متريثًا قليلًا فوق المربع المكتوب عليه "المهنة"، قرر وضع "إعلانات": (نشرات مطبوعة)". ثم وقّع. كتبت كلارا اسمها (كلارا إفيجينا بودن)، الجنسية (جامايكية) والعمر (19). وحين لم تعثر على فراغ يعكس مهنتها ذهبت مباشرة إلى الخط المنقط الحاسم، مررت قلمها عليه وانتصبت ثانية، وكتبت كلمة جونز، ولم تكن كلمة جونز كأي كلمة أخرى أمامها.

ثم خرجا إلى الدرجات ورفع النسيم قصاصات ورقية مستعملة غمرت الزوجين الجديدين، وقابلت كلارا ضيوف زفافها الوحيدين رسميًا للمرة الأولى، وهما هنديان يرتديان ثيابًا حريرية بنفسجية. صمد إقبال، وهو رجل طويل وأنيق بأسنان شديدة البياض ويد معطّلة، والذي واصل التربيت على ظهرها باليد التي تعمل.

كرر مرة بعد أخرى: "كانت هذه فكرتي، كما تعرفون، كان هذا الزواج فكرتي. أعرف العجوز منذ، متى؟"

"منذ 1945 يا صمد".

"هذا ما أحاول قوله لزوجتك الجميلة، منذ 1945. إذا كنت تعرف رجلًا هذه الفترة الطويلة، وقاتلت إلى جانبه، تكون مهمتك أن تجعله سعيدًا. وهو لم يكن سعيدًا. كان الأمر عكس ذلك تمامًا إلى أن ظهرت. كان يتمرغ في كومة خراء، وأعتذر عن هذا التعبير. والشكر لله أنها أُرسلت الآن، هناك مكان واحد فقط للمجانين، وهو مع آخرين من أمثالهم"، قال صمد فاقدًا للطاقة والحماس في منتصف الجملة ذلك أنه كان من الواضح أن كلارا لا تعرف شيئًا عن ما يتحدث عنه. "على أي حال لا حاجة كي أواصل... فكرتي، أنت تعرفين كل هذا".

ثم كانت هناك زوجته ألسانا الصغيرة ومشدودة الشفتين وبدا كأن كلارا لم تعجبها نوعًا ما (بالرغم من أنها أكبر منها ببضع سنوات)، قالت فقط: "آه نعم، يا سيدة جونز"، أو: "آه كلا، يا سيدة جونز"، مما وتّر كلارا، وجعلها تشعر بأنها مرغمة على ارتداء حذائها من جديد.

شعر آرشي بالحزن على كلارا لأن هذا لم يكن حفلًا كبيرًا. لكن لا يوجد أحد آخر كي يدعوه. رفض جميع الأقرباء والأصدقاء دعوة الزفاف، البعض باقتضاب، والبعض الآخر برعب، واعتقد آخرون أن الصمت هو الخيار الأفضل، وأمضوا الأسبوع الماضي وهم يَخطون بمثابرة فوق ظروف الرسائل البريدية ويتجنبون الرد على الهاتف. وكان الشخص الوحيد الذي تمنى لهما الخير هو إبلجوفتس الذي لم يُدع ولم يُبلَّغ عن المناسبة، لكن الذي وصلت منه في الصباح وبشكل غريب رسالة:

14 شباط 1975

عزيزي أرشيبالد

عادة هناك شيء يتعلق بحفلات الزفاف يُحرض عدوَّ الإنسانية في داخلي على الخروج. لكنني اليوم حاولت أن أنقذ حوضًا من أزهار البيتونيا من الانقراض، شعرت بدفء مهم من فكرة ارتباط رجل بامرأة في زواج

يستمر طيلة الحياة. من اللافت حقًا أننا نحن البشر نقوم بعمل عظيم كهذا، ألا تظن؟ لكن كي أكون جديًا للحظة: كما تعرف، أنا رجل مهنته هي النظر عميقًا داخل "المرأة"، وكعالم نفس، أُعْلمها بأن صحتها جيدة جدًا أو بخلاف ذلك. وأشعر يا صديقي (إذا وسّعنا الاستعارة) أنك استقصيت زوجتك بطريقة كهذه روحيًا وذهنيًا ووجدت أنها لا تفتقر لأي من التفاصيل، وإذا كان الأمر كذلك فلا يسعني إلا أن أقدم التهاني القلبية لمنافسي الجدّي.

هورست إبلجوفتس

أية ذكريات أخرى لليوم يمكن أن تجعله فريدًا وتخرجه من الأيام ال 335 الأخرى التي صنعت عام 1975 ؟ تذكرت كلارا شابًا زنجيًا وقف فوق صندوق تفاح متعرقًا في بذلة سوداء وبدأ يتوسل أخوته وشقيقاته، سيدة عجوز مشردة تُخرج قرنفلة من الصندوق كي تشكلها في شعرها. لكن حينها انتهى كل شيء، ونُسيت السندويتشات المغلفة بالبلاستيك التي أعدتها كلارا وبقيت كي تفسد في قاع الكيس، وغيمت السماء، وحين ساروا فوق الهضبة إلى بار كينغ لود، عابرين شبان شارع فليت الساخرين الذين يحملون شراب يوم السبت، اكتشفوا أن آرشي استلم مخالفة ركن مرورية.

وهكذا أمضت كلارا الساعات الثلاثة الأولى من حياتها الزوجية في مخفر شرطة تشيسايد، حاملة حذاءها في يدها، مراقبةً منقذها يجادل بشكل لا يلين مفتش المواصلات الذي لم يفهم تأويل آرشي الحاذق لقوانين ركن السيارات يوم الأحد.

"كلارا، كلارا، يا حبي..."

كان آرشي يصارع عابرًا لها إلى الباب الأمامي، وقد حجبته جزئيًا طاولة قهوة.

"ستزورنا عائلة إقبال الليلة، وأريد أن أرتب البيت، فهلّا ابتعدت عن طريقي".

سألته كلار بصبر، ولو أنها كانت لا تزال في حلم يقظة: "هل تريد مساعدة؟ أستطيع أن أرفع شيئًا ما إذا..."

"كلا، كلا، كلا، كلا، أستطيع القيام بالأمر".

مدت كلارا يدها كي تمسك جانبًا من الطاولة: "دعني فقط..."

صارع آرشي كي يدفع الإطار الضيق، محاولًا أن يمسك الساقين والغطاء الزجاجي للطاولة القابل للإزاحة.

"إنه عمل رجل، يا حبي".

رفعت كلارا كرسي ذراعين ضخمًا بسهولة مثيرة للحسد وأحضرته إلى حيث انهار آرشي لاهثًا من أجل نَفَس على درجات الصالة: "لا توجد مشكلة، إذا احتجت إلى المساعدة، اطلبْها فحسب".

"نعم، نعم، نعم"، هزها باستياء، كما لو أنه يضرب ذبابة.

"أنا قادر تمامًا، كما تعرفين".

"أعرف هذا".

"هذا عمل رجل".

"نعم، أفهم ذلك، لا أعني...".

"انظري يا كلارا يا حبيبتي، فقط ابتعدي عن طريقي وسأقوم بالعمل، اتفقنا؟"

راقبته كلارا يشمر عن ساعديه ببعض التصميم، ويحمل طاولة القهوة مرة أخرى.

"إذا كنت فعلًا تريدين مساعدتي يا حبيبتي، بوسعك البدء بإحضار بعض ملابسك. يعلم الله أن هناك منها ما يكفي لإغراق سفينة حربية. لا أعرف كيف سنرتبها في مكان صغير كهذا".

"قلتَ من قبل إننا نستطيع التخلص من بعضها إذا ارتأيت أن هذا أفضل".

"لا يعود هذا لي الآن، لا يعود لي، أليس كذلك؟ أعني، هل هو؟ وماذا عن علاقة المعاطف؟"

كان هذا هو الرجل: غير قادر أبدًا على اتخاذ قرار، وغير قادر على تبني موقف.

"قلتَ سابقًا: إذا لم تحبيه أعيدي ذلك الشيء. اشتريته لأنني اعتقدت أنك تحبه".

أجاب آرشي، حذرًا الآن بما أنها رفعت صوتها: "حسنًا، يا حبي، إنها نقودي، سيكون ظريفًا على الأقل لو طلبتِ رأيي".

"يا رجل! إنها علاقة معاطف. إن لونها أحمر فحسب. والأحمر أحمر أحمر. ما المشكلة مع الأحمر فجأة؟"

رد عليها آرشي مرغمًا على خفض صوته حتى صار همسًا خشنًا (سلاح صوتيّ مفضل في الترسانة الزوجية: ليس أمام الجيران والأطفال): أنا أحاول فحسب أن أرفع النبرة في المنزل قليلًا. هذه حارة جميلة، وحياة جديدة كما تعرفين. اسمعي، لنتوقف عن الجدل. لنقذف قطعة نقدية: إن أتت نقشًا نحتفظ به ونرميه إن أتت طرة..."

إن العشاق الحقيقيين يتشاجرون وبعد ثانية يتعانقون أما العشاق المخضرمون أكثر فيصعدون الدرج إلى الغرفة التالية قبل أن يلينوا ويعودوا. وإذا كانت علاقة على شفا الانهيار ستجد أحد الشريكين على بعد شارعين أو بلدين إلى الشرق قبل أن يشده شيء ما أو مسؤولية ما أو ذكرى ما أو شدة يد طفل أو وتر قلب ويغريه كي يقطع تذكرة رحلة العودة الطويلة إلى نصفه الآخر. وعلى مقياس ريختر هذا قامت كلارا إذًا بأصغر الدمدمات. استدارت نحو البوابة، وسارت خطوتين فقط وتوقفت.

أردف آرشي دون أن يبدو عليه أي استياء: "نقش! سنحتفظ به. أترين؟ لم يكن هذا صعبًا".

"لا أريد أن أجادلك"، استدارت كي تواجهه، بعد أن اتخذت قرارًا صامتًا متجددًا أن تتذكر أنها مدينة له.

"قلتَ إن عائلة إقبال قادمة للعشاء. كنت أفكر فقط... إذا كانوا يريدون أن أطبخ لهم بعض الكري، أعني أستطيع أن أطبخ الكري، لكن نوعي الخاص

من الكري".

رد آرشي باستياء وقد شعر أن الاقتراح أهانه: "كرمى لله، ليسوا من ذلك النوع من الهنود. إن سام سيتناول اللحم المشوي يوم الأحد كأي شخص آخر. وهو يقدم الأكل الهندي طوال الوقت، لا يريد أن يأكله".

"كنت أتساءل فحسب".

"إذًا لا تتساءلي من فضلك يا كلارا".

قبلها قبلة كلها حنان على الجبين انحنت من أجلها قليلًا إلى الأسفل.

"أعرف صمد منذ سنوات، وزوجته من النوع الهادئ. ليسوا عائلة ملكية، كما تعلمين. ليسوا ذلك النوع من الهنود"، كرَّر وهز رأسه، منزعجًا من مشكلة، من إحساس ما معقد لم يستطيع أن يفهمه بشكل كامل.

*****

إن صمد وألسانا إقبال اللذين لم يكونا من ذلك النوع من الهنود (كما لم تكن كلارا في ذهن آرشي من ذلك النوع من الزنوج) لم يكونا في الحقيقة هنديين بل بنغلاديشيين، ويعيشان على بعد أربع بنايات في الطرف الخطأ من طريق ولسدن السريع. استغرقهم الأمر معهم سنة للوصول إلى هناك، سنة من العمل المجهد للقيام بالانتقال ذي الزخم من الجانب الخطأ في وايتشابل إلى الجانب الخطأ في ولسدن، سنة من العمل المجهد فوق آلة سنجر للخياطة تتوضع في المطبخ، تخيط فيها معًا قطعًا من البلاستيك الأسود لحانوت يدعى دومينيشين في سوهو (وكانت كثيرة الليالي التي تمسك بها ألسانا بقطعة من الملابس صنعتها لتوها، متبعة نموذجًا أُعطي لها، وتتساءل ما هو). ولقد أحنى صمد رأسه تعبيرًا عن الاحترام لسنة كاملة ممسكًا بقلم الرصاص في يده اليسرى مصغيًا إلى اللفظ المروع للبريطانيين والأسبان والأميركيين والفرنسيين والأستراليين وهم يطلبون أطباقهم المختلفة.

جو باي إلو ساج، من فضلك [27].

تشكين جيل لفريب سي ويف، فانكس[28].

كان يعمل من السادسة مساء إلى الثالثة صباحًا، ثم يمضي كل يومه نائمًا، إلى أن يصبح ضوء النهار نادرًا كالبخشيش الجيد. وفكر صمد: ما الفائدة من أن يدفع جانبًا قطعتين من السكاكر منكّهتين بالنعنع ووصْلًا كي يلتقط 15 بنسًا، القطع النقدية نفسها التي سترميها في بركة من أجل أن تتمنى أمنية؟ لكن قبل أن تتجسد الفكرة المخالفة للقانون في وضع الخمسة عشر بنسًا في منديل يده بشكل غير محتشم يصل إليه موكهول، أردشير موكهول، الذي يدير مطعم البالاس والذي تخطو قامته النحيلة في المطعم، بعين كريمة على الزبائن وأخرى مراقبة دومًا للموظفين.

كانت له طريقة مقيتة ومتملقة في التحدث: "صاااماااد! هل قبّلْتَ المؤخرة اللازمة هذا المساء، يا ابن العم؟"

كانت تجمع كلًا من صمد وأردشير قرابة بعيدة، وكان صمد أكبر بست سنوات. بمتعة كبيرة فتح أردشير الرسالة في كانون الثاني الماضي وعرف أن ابن عمه الأكبر والأذكى والأكثر أناقة يواجه صعوبة في العثور على عمل في إنكلترة وهل يمكن...

أجاب صمد رافعًا راحة كفه: "خمسة عشر بنسًا يا ابن العم".

أردف أردشير وشفتاه اللتان كسمكة ميتة تتمددان في ابتسامة نحيلة كالخيط: "حسنًا، إن أي قليل يساعد، أي قليل يساعد، ضعه في إناء البول".

كان إناء البول من النوع الفولاذي، لونه أسود ويتوضع على قاعدة خارج مراحيض الموظفين وفيه يُجمع كل البخشيش ثم يُقتَسم في نهاية الليل. وكان هذا ظلمًا كبيرًا بالنسبة لنادل أصغر ومبهرج وحسن المظهر مثل شيفا الذي كان الهندوسيَّ الوحيد بين الموظفين، وكانت هذه ميزة لمهارته كنادل، والتي انتصرت على الفروق الدينية. وكان بوسع شيفا أن يجمع 4 جنيهات بخشيش في مساء واحد لو أن المطلقة البيضاء الصيّاحة في الزاوية كانت وحيدة بما يكفي ووجّه رموشه الطويلة نحوها بشكل عاطفي. وكان يستطيع أن يجمع النقود أيضًا من

المخرجين ذوي الياقات والمنتجين (كان مطعم البالاس يتوضع وسط أرض لندن المسرحية وكانت تلك الأيام لا تزال أيام مسرح الكتّاب، والفتيان الجميلين ودراما حوض المطبخ [29]، وكان الرواد يُطْرون الفتى، ويراقبون مؤخرته وهي تهتز بإثارة وهو يسير إلى البار ويعود منه، ويقسمون لو أن أي شخص أعد رواية "رحلة إلى الهند" [30] للمسرح فإنه يمكن أن يلعب أي دور يدغدغ مخيلته. بالنسبة لشيفا، إذًا، كان نظام إناء البول مجرد سرقة نهارية وإهانة لمقدراته التي لا يمكن تحديها كنادل. لكن بالنسبة لرجل كصمد، في أواخر أربعيناته، وحتى للذين يكبرونه سنًا، كمحمد ذي الشعر الشائب (عم والد أو والدة أردشير)، الذي كان في الثمانين أو أكثر، ولديه تغضنات عميقة تبدو في طرفي فمه حيث كان يبتسم حين كان شابًا، بالنسبة لرجال كهؤلاء لا يمكن الشكوى من نظام إناء البول. وكان الانتماء إلى الجمعية أكثر عقلانية من وضع خمسة عشر سنتًا في الجيب والمجازفة بالقبض عليك، وحرمانك من البقشيش لمدة أسبوع.

وحين يقوم شيفا بتسليم خمسة جنيهات في نهاية الليل وإسقاطها في إناء البول يدمدم: "أنتم جميعًا تركبون على ظهري! تعيشون من عرق جبيني! لينزل أحد هؤلاء الفاشلين عن ظهري. كانت هذه الخمسة لي والآن هي ستُقسم ب 65 مليون طريقة ملعونة كهبة لهؤلاء الخاسرين! ما هذا: شيوعية؟"

كان البقية يتجنبون تحديقته ويشغلون أنفسهم بهدوء بأشياء أخرى، إلى أن قال صمد في مساء أحد الأيام، مساء الخمسة عشر سنتًا: "اخرس يا فتى"، بهدوء، تقريبًا بصوت أضعف من نَفَسه.

قفز شيفا إلى حيث كان يقف صمد ويسحق العدس في إناء من أجل "الدال" [31] غدًا: "أنت! أنت أسوؤهم! أنت أسوأ نادل لعين سبق أن رأيته! لا تستطيع الحصول على بخشيش إذا عبست في وجه أولئك الأوغاد. سمعتكَ تحاول التحدث مع الزبون عن علم الأحياء والسياسة، قدِّم الطعام فقط يا أبله، أنت نادل ولست مايكل باركنسون [32]. هل سمعتك تقول دلهي؟" (وضع شيفا مئزره على ذراعه وبدأ يتخذ وضعيات في المطبخ. كان مقلدًا مثيرًا للشفقة)

"كنتُ هناك، كما تعرف، في جامعة دلهي، كانت رائعة، نعم، قاتلتَ في الحرب من أجل إنكلترة، نعم ، نعم، نعم، مبهج، رائع". دار في المطبخ حانيًا رأسه وفاركًا بشكل متكرر كمثل فرقة الروك أورياه هيب [33]، منحنيًا وراكعًا لكبير الطباخين، وللعجوز الذي يرتب قطعًا كبيرة من اللحم في مخزن التبريد، وللفتى الشاب الذي يفرك الجانب السفلي من الفرن. وقال بما بدا شفقة بلا نهاية: "صمد، صمد..."، ثم توقف فجأة، نزع المئزر ولفه حول خصره: "أنت رجل صغير حزين".

نظر محمد إلى الأعلى وهو يفرك الإناء وهز رأسه مرة بعد أخرى. وقال دون أن يوجه كلامه لأي شخص محدد: "هؤلاء الشبان، أي نوع من الحديث؟ أي نوع من الحديث؟ ماذا حدث للاحترام؟ أي نوع من الكلام هذا؟"

قال شيفا، موجهًا مغرفة ناحيته: "اخرس أيضًا، أيها الأحمق العجوز. أنت لست أبي".

"ابن العام الثاني لعم أمك"، صدر صوتٌ في الخلفية.

قال شيفا: "مثل بيضاتي، كل هذا مثل بيضاتي".

أمسك المسحة وكان متجهًا إلى المرحاض حين توقف قرب صمد ووضع المقبض على بعد إنشات من فم صمد.

قال ساخرًا ثم مجسدًا الترييل البطيء لأردشير: "قبّلها، من يعرف يا ابن العم يمكن أن تحصل على علاوة!"

وكان هذا ما يحدث معظم الليالي: سوء معاملة من شيفا وآخرين، وازدراء من أردشير، ولم يكن يرى ألسانا أبدًا، ولم ير الشمس أبدًا، يمسك خمسة عشر بنسًا ثم يفلتهم، راغبًا بلهفة أن يرفع لافتة يكتب عليها:

> **أنا لستُ نادلًا. كنت طالبًا وعالمًا وجنديًا، زوجتي تُدعى ألسانا، ونعيش في شرق لندن لكن نحب أن ننتقل إلى الشمال. أنا مسلم لكن الله تخلى عني لأنني هجرته، أنا لست متأكدًا، لدي صديق اسمه آرشي وآخرون. أنا في التاسعة والأربعين لكن النساء ما زلن يلتفتن في الشارع أحيانًا.**

وبما أنه لم توجد لافتة كهذه، تَولَّد لديه بدل ذلك إلحاح وحاجة للتحدث مع الجميع، ومثل **الملاح القديم** [34]، كان يشرح باستمرار، ويريد باستمرار أن يعاود تأكيد شيء ما، أي شيء. ألم يكن هذا مهمًا؟ ثم جاءه تحطم القلب وخيبة الأمل حين اكتشف أن إحناء المرء لرأسه، ووضعية قلمه المستعدة، كانا مهمين جدًا، وكان مهمًا أن تكون نادلًا جيدًا، وأن تصغي حين يقول أحدهم:

شرائح لحم خروف ورز. مع رقائق بطاطا. شكرًا.

ثم يرنّ خمسة عشر بنسًا في الصحن، وتقول: شكرًا لك يا سيد. شكرًا جزيلًا.

*****

في يوم الثلاثاء بعد زفاف آرشي انتظر صمد إلى أن غادر الجميع، طوى بنطلونه الأبيض واسع الساقين (المصنوع من قماش غطاء الطاولة نفسه) إلى مربع متقن، ثم صعد الدرج إلى مكتب أردشير لأنه كان يريد أن يطلب منه شيئًا.

"ابن العم!" قال أردشير، بتجهم ودي حين رأى جسم صمد يدور بحذر حول الباب. كان يعرف أن صمد جاء كي يستعلم عن زيادة الراتب، وأراد من ابن عمه أن يشعر أنه فكر على الأقل بالقضية باهتمام قبل أن يرفض.

"تفضّل، يا ابن العم".

"مساء الخير، أردشير موكهول"، قال صمد وهو يدخل إلى الغرفة.

رد عليه أردشير بمودة: "اجلس، اجلس. لا داعي للشكليات الآن، هل هناك داع؟"

كان صمد سعيدًا أن الأمر هكذا. كرر الكلام نفسه، استغرق لحظة كي ينظر نظرة إعجاب لا بد منها في أنحاء الغرفة ذات اللون الذهبي المبهر وإلى سجادتها ثلاثية الأبعاد والطبقات، وأثاثها الذي تتدرج ألوانه بين الأصفر والأخضر. ويجب على المرء أن يعجب بإحساس أردشير بالعمل. فقد تبنى الفكرة البسيطة لمطعم هندي (غرفة صغيرة، أغطية طاولات قرنفلية، موسيقى صاخبة، ورق جدران كريه، وجبات ليس لها أي وجود في الهند، وحمالة مرق التوابل) وقام بتوسيعها. لم يحسّن أي شيء، بل قدم القمامة القديمة نفسها، لكنه كان مطعمًا أكبر في

بناء أكبر في الزاوية السياحية الأكبر في لندن، وهي حي ليستر. يجب أن تعجب به، بالرجل الذي يجلس الآن كجرادة غير ضارة، جسمه النحيل الذي يشبه الحشرة غارق في كرسي جلدي أسود ويتكئ على المكتب مبتسمًا كطفيلي متنكر كفاعل خير.

"ما الذي أستطيع فعله لك يا ابن العم؟"

أخذ صمد نفسًا. كانت المسألة هذه...

لمعت عينا أردشير إلى الأعلى قليلًا بينما شرح صمد موقفه. ساقاه النحيلتان ارتعشتا تحت المكتب، وفي أصابعه كان يلعب بمشبك ورق إلى أن بدا مثل حرف ألف. ألف لأردشير. كانت المسألة... ماذا كانت المسألة؟ كان المنزل هو المسألة. كان صمد ينتقل من شرق لندن (حيث لا يستطيع المرء أن يربي الأطفال، بالفعل لا يستطيع المرء، هذا إذا كان المرء لا يريدهم أن يتعرضوا للأذى الجسدي، وقد وافق على ذلك)، من شرق لندن حيث تنتشر عصابات حزب الجبهة الوطنية [35] الفاشي الإجرامية إلى شمال لندن، شمال غربها، حيث الأمور أكثر ... أكثر ليبرالية.

هل كان دوره في التحدث؟

أكد له أردشير، مسيطرًا على تعابير وجهه: "يا ابن العم... يجب أن تفهم... ليست وظيفتي شراء المنازل لجميع الموظفين لدي، سواء كان ابن عم أم لم يكن... أنا أدفع أجرًا، يا ابن العم... هذا هو العمل في هذه البلاد".

هز أردشير كتفيه وهو يتحدث كما لو أنه يريد أن يوحي أنه لا يوافق بقوة على "العمل في هذه البلاد"، لكن ها هي الأمور. لقد أجْبره الإنكليز، كما قالت نظرته، على أن يجمع كمية كبيرة من النقود.

"أنت تسيّئ فهمي يا أردشير. لدي الرعبون من أجل البيت، إنه منزلنا الآن، لقد انتقلنا..."

كيف حدث وأمّن هذا المبلغ، لا بد أنه جعل زوجته تعمل كعبدة، كما اعتقد أردشير، ساحبًا مشبك ورق آخر من درج سفلي.

"أحتاج فقط إلى زيادة صغيرة في الأجر تساعدني على تمويل الانتقال، لجعل الأمور أكثر سهولة حين نستقر. وألسانا، حسنًا، هي حامل".

حامل. صعب. استدعت الحالة دبلوماسية متطرفة.

"لا تسئ فهمي يا صمد، كلانا ذكي وصريح وأعتقد أنني أستطيع التحدث دون مواربة... أعرف أنك لست نادلًا لعينًا" (همسَ الشتيمة وابتسم بشكل متسامح بعدها، كما لو أنها شيء مترفع خاص جمعهما بشكل أكثر حميمية معًا) "أتفهّم موقفك... بالطبع أتفهم... لكن يجب أن تتفهم موقفي... إذا منحتُ علاوات لجميع الأقارب الذين أوظفهم سأتجول مثل السيد غاندي بدون إناء كي أبول فيه. سأتبول في ضوء القمر. مثال: في هذه اللحظة ذلك المبذّر صهري إلفيس السمين، حسين إسماعيل..."

"اللحام".

"طلب اللحام أن أرفع السعر الذي أدفعه مقابل لحمه النتن! ويقول لي نحن قريبان يا أردشير. وأقول له يا محمد هذا بيع بالمفرق..."

جاء دور صمد كي يعبر عن ضجره. فكر بزوجته ألسانا التي لم تكن وديعة كما افترض حين تزوجها، والتي يجب أن ينقل إليها الأخبار السيئة، ألسانا الميالة إلى لحظات، وحتى نوبات (نعم نوبات، لم تكن كلمة قوية) الغضب. اعتقد أبناء العم والعمات والأخوة أن هذه علامة سيئة، وتضايقوا من احتمال وجود "اضطراب عقلي سابق" في عائلة ألسانا، وتعاطفوا معه بالطريقة التي تتعاطف بها مع رجل اشترى سيارة مسروقة ساقت أميالًا أكثر مما ظن في البداية. وافترض صمد نظرًا لسذاجته وبساطته أن امرأة صغيرة مثلها ستكون سهلة. لكن ألسانا لم تكن... كلا، لم تكن سهلة. وافترض أن هذه هي طريقة النساء الشابات في هذه الأيام. وقد شاهد في الثلاثاء الماضي في عين عروس آرشي... شيئًا يشي أيضًا بأنها ليست سهلة، كانت هذه الطريقة الجديدة لتلك النساء.

وصل أردشير إلى نهاية كلامه الذي شعر أنه صيغ بشكل دقيق وجلس راضيًا، ووضع حرف الميم الذي صنعه لموكهول إلى جانب حرف الألف الخاص بأردشير

الذي في حضنه.

قال صمد: "شكرًا يا سيد. شكرًا جزيلًا".

في ذلك المساء حدث شجار عنيف. رمت ألسانا آلة الخياطة مع الشورت الضيق المرصع الذي كانت تعمل عليه على الأرض.

"لا فائدة! أخبرني يا صمد مياه، ما الفائدة من الانتقال إلى هنا، إن المنزل جميل، جميل جدًا، لكن أين الطعام؟"

"إنه جميل جدًا ولدينا أصدقاء هنا".

خبطت بقبضتها الصغيرة على طاولة المطبخ، فتطاير الملح والفلفل واصطدما بشكل مشهدي ببعضهما البعض في الجو وقالت: "من هم؟ لا أعرفهم! أنت تخوض حربًا قديمة منسية مع أحد الرجال الإنكليز... متزوج من امرأة سوداء! من هم الأصدقاء؟ هل هؤلاء هم الأشخاص الذين سيكبر ابني معهم؟ أطفالهم أنصاف زنوج وأنصاف بيض؟ لكن قل لي" (صاحت، عائدة إلى موضوعها المفضل) "أين طعامنا؟". فتحت بطريقة مسرحية جميع خزن المطبخ: "أين هو؟ هل نأكل الصحون؟" حطّمتْ صحنين على الأرض. ربتت على معدتها كي تشير إلى طفلها الذي لم يولد وأشارت إلى القطع: "إنه جائع؟"

إن صمد الذي كانت له طبيعة ميلودرامية حين ينفعل، اندفع إلى البراد وأخرج جبلًا من اللحوم كوّمه في وسط الغرفة. قال إن أمه كانت تعمل في الليل كي تحضر اللحوم للعائلة، ولم تنفق مال المنزل، كما تفعل ألسانا، بل كانت تحضر الوجبات واللبن والمعكرونة المعلبة.

قرصته ألسانا بشدة من معدته.

"صمد إقبال التقليدي! لماذا لا أقعي في الشارع فوق دلو وأغسل الثياب؟ في الحقيقة، ماذا عن ثيابي؟ هل هي صالحة للأكل؟ "

وبينما كان صمد يمسك ببطنه المتألم، قامت في المطبخ بنزع كل ما ترتديه وأضافته إلى كومة لحم الخروف المجمد، القطع الإضافية من المطعم. ووقفت عارية أمامه للحظة. كانت التلة الصغيرة لحملها مرئية، ثم ارتدت معطفًا بنيًا

طويلًا وغادرت المنزل.

اعتقدت أن جميع الأمور تشبه بعضها وهي تغلق الباب بعنف خلفها. كان صحيحًا أن المنطقة جميلة، لم تستطع إنكار ذلك وهي تندفع نحو الطريق السريع، متجنبة الأشجار حيث سابقًا، في وايت تشابل، كانت تتجنب الفرشات المرمية والمشردين. ولم تستطع إنكار أن هذه المنطقة ستكون جيدة للطفل. وكان لدى ألسانا إيمان عميق بأن العيش قرب الأمكنة الخضراء مفيد أخلاقيًا للصغار، وهناك إلى يمينها حديقة جلادستون، وهي أفق واسع من الخضرة سُمي على اسم رئيس الوزراء الليبرالي. (كانت ألسانا من عائلة بنغالية محترمة وقد قرأت تاريخها الإنكليزي، لكن انظروا إليها الآن، لو كانوا يستطيعون أن يروا أية أعماق...!). في التراث الليبرالي كانت حديقة دون أسيجة، على عكس حديقة كوينز الأكثر غنى (حديقة فكتوريا)، بسورها الحديدي المدبب. ولم تكن ولسدن جميلة كحديقة كوينز، لكنها منطقة جيدة. لا أحد ينكر ذلك. ليست مثل وايت تشابل، حيث ذلك المجنون إينوك [36] أو شخص آخر ألقى خطابًا أجبرهم على الدخول إلى القبو بينما كسر الأطفال النوافذ بأبواطهم المكسوة بالفولاذ. كلام فارغ كمثل الخطاب الذي تحدث عن أنهار من الدم. إنها الآن حبلى وتحتاج إلى بعض الطمأنينة والهدوء. وعلى الرغم من أن المسألة هي نفسها هنا بطريقة ما فقد كان الجميع ينظرون إليها بشكل غريب، هذه المرأة الهندية الصغيرة تسير على الطريق السريع في معطف واق من المطر، شعرها الغزير يتطاير في كل الجهات. قرأتْ اللافتات الجديدة وغير المألوفة وهي تمر: **كباب مالي، السيد تشيونجس، محل راج، مخابز مالكوفيتش**. كانت ذكية. فهمت ما يعنيه كل هذا. ليبراليون؟ ثرثرة مدنٍ فارغة لا تعني أي شيء! لم يكن هناك من هو ليبرالي أكثر من الآخر في أي مكان وبأية طريقة. إن الوضع هنا في ولسدن هو أنه لا يوجد ما يكفي من أي شيء من أجل معارضة أي شيء آخر وإجبار الناس على الركض إلى الأقبية بينما تُحطم النوافذ.

"إن المسألة هي البقاء على قيد الحياة"، هذا ما استنتجتْهُ بصوتٍ مرتفع (تحدثتْ مع جنينها، أحبت أن تمنحه فكرة عاقلة واحدة في اليوم)، جاعلة الجرس

فوق محل أحذية كريزي يرن حين فتحت الباب. كانت ابنة أخيها نينا تعمل في محل عتيق الطراز لتصليح الأحذية، تثبت كعوبًا طويلة مدببة على الأحذية.

نادتها نينا بالبنغالية: "ألسانا، تبدين كبراز الكلب. ما هذا المعطف المريع؟"

أجابت ألسانا بالإنكليزية: "لا شأن لك بهذا. إنه ما هو عليه. جئت كي أحضر حذاء زوجي وليس كي أثرثر مع ابنة الأخ التي جلبت لنا العار".

كانت نينا معتادة على هذا، والآن بعد أن انتقلت ألسانا إلى ولسدن سيكون هناك الكثير منه. كان هذا النوع من الكلام يأتي في جمل طويلة مثل: "لم تجلبي لنا سوى العار... أو ابنة أخي، الجالبة للعار... ولكن لأن ألسانا لم تعد تملك الوقت أو الطاقة كي تستدعي الصدمة الضرورية في كل مرة اختصرت الأمر وسمّتها "ابنة الأخ التي جلبت لنا العار"، وهي تسمية تخدم جميع الأهداف ولخصت الشعور العام.

"شاهدي هذه النعال؟" قالت نينا، دافعة خصلة من شعر ناصيتها المصبوغ عن عينها، ثم تناولت حذاء صمد عن رف وقدمت لألسانا بطاقة صغيرة زرقاء. "كان مهترئًا، يا خالتي ألسي، كان عليّ أن أعيد إصلاحه من القاعدة! ما الذي يفعله به؟ يشارك في سباقات الماراتون؟"

أجابت ألسانا بخشونة: "يعمل". ثم أضافت: "ويصلي"، ذلك أنها تحب أن تظهر للناس احترامها لزوجها، وبالإضافة إلى ذلك إنها في الحقيقة تقليدية جدًا ومتدينة جدًا، ولا تفتقر إلى أي شيء عدا الإيمان. "ولا تقولي خالتي. أنا أكبر منك بعامين". وضعتْ ألسانا الحذاء في حقيبة بلاستيكية واستدارت كي تغادر.

ردت نينا عليها وهي تضحك بخفة: "اعتقدت أن المرء يصلي على ركبتيه".

قالت ألسانا وهي تمرُّ تحت الجرس الذي رن مرة أخرى: "كلا الأمرين، كلاهما، في النوم واليقظة والمشي، لسنا أبدًا خارج بصر الخالق".

نادتها نينا: "كيف هو المنزل الجديد إذًا؟"

لكنها كانت قد خرجت، هزت نينا رأسها وتنهدت وهي تراقب خالتها الشابة تختفي على الطريق كرصاصة بنية صغيرة. اعتقدت نينا أن ألسانا شابة

وكبيرة في الوقت نفسه. وتصرفت بحكمة في معطفها الطويل والرصين، لكن يعتريك إحساس...

جاء صوت من غرفة الخزن: "يا آنسة! هناك أحذية تحتاج إلى انتباهك".

أجابت نينا: "اهدئي".

عند زاوية الطريق ظهرت ألسانا خلف مكتب البريد ونزعت صندلها المؤلم وانتعلت حذاء صمد. كان هناك شيء غريب في ألسانا، كانت صغيرة لكن قدميها كبيرتان، وحين تنظر إليها تشعر غريزيًا أن لديها المزيد من النمو الذي يجب أن يتم. وفي ثوان لفت شعرها في كعكة مُتْقنة، وشدت معطفها بإحكام أكبر حولها كي تحمي نفسها من الريح، ثم انطلقت عابرة المكتبة على طريق أخضر طويل لم تسلكه من قبل. وخاطبت انتفاخ بطنها مرة أخرى: "إن البقاء هو كل شيء يا إقبال الصغير. البقاء".

في منتصف الطريق، عبرت الشارع، وفي نيتها أن تنعطف يسارًا وتدور عائدة إلى الطريق السريع. لكنها حين اقتربت من شاحنة كبيرة مفتوحة من الخلف ونظرت بحسد إلى الأثاث المكوم فيها ميزت السيدة السوداء التي كانت تتكئ على سياج الحديقة ناظرةً بشرود إلى الجو نحو المكتبة (كانت قد تجردت من نصف ملابسها، وأبقت صدارًا بنفسجيًا متوهجًا فحسب، وهو تقريبًا لباس داخلي) كما لو أن مستقبلها يكمن في تلك الجهة. وقبل أن تتمكن من العبور كي تتجنبها، وجدت ألسانا نفسها مكتشفة.

صاحت كلارا ملوحة لها: "سيدة إقبال".

"سيدة جونز".

ارتبكت المرأتان بشكل مؤقت مما كانتا تلبسانه لكنهما استعادتا الثقة وهما تنظران إلى بعضهما.

"والآن، أليس هذا غريبًا يا آرشي؟" قالت كلارا، مالئة كل حروفها الساكنة. كانت سابقًا قد فقدت لكنتها قليلًا وأحبت أن تعمل عليها كلما سنحت لها الفرصة.

"ماذا؟ ماذا؟" قال آرشي الذي كان في الردهة منهكًا من خزانة كتب.

"كنا نتحدث عنك فحسب، أنتم قادمون إلى العشاء الليلة، أليس كذلك؟"

اعتقدت ألسانا وهي تبتسم لكلارا أن الزنوج عمومًا ودودون مضيفة هذه الحقيقة بشكل لا واع إلى الإيجابيات القليلة في قائمة الفتاة السوداء ذات السلبيات الكثيرة. وفي كل أقلية تكرهها تحب ألسانا أن تستثني عيّنة وتُصْفح عنها روحيًا. ففي وايت تشابل هناك الكثير من الشخصيات المخلصة مثل السيد فان الاختصاصي في معالجة الأقدام، والسيد سيغال، النجار اليهودي، وروزي، المرأة الدومينيكانية التي تظهر باستمرار (وكان هذا يغيظ ألسانا ويسرها) في محاولة متواصلة كي تحولها إلى مؤمنة بالكنيسة البروتستانتية السبتية، كنيسة اليوم السابع [37]، لقد منحت ألسانا كل هؤلاء المحظوظين مهلتها الذهبية واستقرأت هذا من جلودهم بشكل سحري كنمور هندية.

"نعم، أخبرني صمد عن ذلك"، أكدت ألسانا بالرغم من أن صمد لم يفعل.

توهجت كلارا: "نعم... جيدا!"

خيم الصمت. لم تعرف أي منهما ماذا تقول. نظرت كلتاهما إلى الأسفل.

قالت كلارا: "إن هذا الحذاء يبدو مريحًا بالفعل".

"نعم، نعم. أمشي كثيرًا، كما ترين. وبهذا..." ربتت على بطنها.

قالت كلارا مندهشة: "أنت حامل؟ أيها الطفل، أنت صغير جدًا بحيث لا أستطيع رؤيتك".

احمرّتْ كلارا في اللحظة التي تحدثتْ فيها، وكانت دومًا تعود إلى المحكية وتدغم الكلمات حين تُثار أو يسرّها شيء ما. ابتسمت ألسانا بمودة فحسب، غير متأكدة ماذا قالت.

"لا أعرف"، قالت كلارا، مسيطرة على نفسها أكثر.

ردت ألسانا بمرح قسري: "عزيزتي، ألا يسرّ زوجانا لبعضهما بكل شيء؟"

لكن حالما قالت هذا، استقر وزن الاحتمال الآخر في دماغ الفتاتين الزوجتين: أن زوجيهما يخبران بعضهما كل شيء، وأنهما هما اللتان لا يُقال لهما أي شيء.

4

ثلاثة على الطريق

كان آرشي في العمل حين سمع الأنباء، وقد مر على حمل كلارا شهران ونصف.

"لست حاملًا، يا حبيبتي!"

"أنا حامل".

"لستِ".

"أنا حامل، وسألتُ الطبيب كيف سيبدو، سيكون نصفه أسود ونصفه الآخر أبيض. ويمكن أن يحدث أي شيء، هناك أيضًا احتمال بأن تكون له عينان زرقاوان. هل يمكنك تخيل هذا؟"

لم يستطع آرشي تخيل الأمر. لم يستطع تخيل أي قطعة منه ستتقاتل في تجمع الجينات مع قطعة من كلارا وتفوز. لكن عن أي احتمال سيتمخض الأمر؟ اندفع خارجًا من المكتب إلى يوستون رود كي يشتري صندوق سيجار. وبعد عشرين دقيقة تبختر عائدًا إلى مورغانو هيرو مع علبة ضخمة من الحلويات الهندية وبدأ يتجول في الغرفة.

"نويل، تناول قطعة حلوى، هذه جيدة".

نظر نويل، وكيل المكتب داخل العلبة المدهنة مشتبهًا: "ما المناسبة...؟"

خبطه آرشي على الظهر: "سأُرزق بطفل عيناه زرقاوان، هل تصدق ذلك؟ أنا

أحتفل! تستطيع الحصول على 14 نوعًا من الدال، لكنك لا تستطيع الحصول على سيجار لعين في يوستون رود أبدًا. هيا يا نويل، ماذا عن هذه؟"

رفع آرشي واحدة نصف بيضاء ونصف قرنفلية برائحة غير مستحبة.

"يا سيد جونز، هذه ... لكن في الحقيقة لا أحب هذا... "تصرف نويل كأنه عائد إلى تصنيفه. "من الأفضل أن أواصل..."

"آه، هيا يا نويل، سأرزق بطفل. أنا في السابعة والأربعين وسأرزق بطفل صغير. هذا يستحق الاحتفال، أليس كذلك؟ هيا... لن تعرف حتى تجرب. كلْ منها قليلًا فحسب".

"إن الأطعمة الباكستانية ليست دومًا ... حصلت على القليل من شيء مضحك... "

ربت نويل على معدته وبدا يائسًا، وعلى الرغم من أن عمله في البريد المباشر فقد كان يكره أن يتم التحدث إليه بشكل مباشر وأحب أن يكون الوسيط في مورغان هيرو وأن يمرر المكالمات مخبرًا شخصًا ما قاله شخص آخر وموجهًا الرسائل.

"إلى الجحيم يا نويل... هذه حلويات فحسب. أنا فقط أحاول أن أحتفل يا صديقي. ألا تأكلون أنتم الهِبيّون الحلويات أو شيئًا ما؟"

كان شعر نويل دومًا أطول بقليل من شعر أي شخص آخر، وقد اشترى مرة عود بخور كي يشعله في غرفة القهوة. كان المكتب صغيرًا، وهناك القليل للتحدث عنه، وهكذا فإن هذين الأمرين جعلا نويل الثاني فقط بعد جانيس جوبلين [38]، تمامًا كما كان آرشي جيسي أوينز [39] الأبيض لأنه حصل على المرتبة الثالثة عشرة في الألعاب الأولمبية منذ 27 سنة، وكان لجاري الذي يعمل في قسم المحاسبة جدة فرنسية وينفخ دخان السجائر من أنفه وهكذا فقد كان موريس شيفالييه [40]، أما إلموت زميل آرشي وهو طاو ورق فقد كان آينشتاين لأنه يستطيع حل ثلثي الكلمات المتقاطعة في مجلة التايمز.

بدا نويل متألمًا: "آرشي... هل وصلتك رسالتي من السيد هيرو عن الطيات

في...؟"

تنهد آرشي. "الخاصة ببطاقات حساب رعاية الأمومة. نعم، يا نويل، طلبتُ من إلموت أن يزيل الثقوب.

بدا نويل ممتنًا. "حسنًا، تهانينا على ... سأعمل على..." عاد نويل إلى مكتبه.

غادر آرشي كي يقدم الحلوى لمورين موظفة الاستقبال التي كان لها ساقان جميلتان بالنسبة لامرأة في سنها، ساقان مشدودتان بإحكام كالنقانق في جلودها، وكانت تظهر له دومًا بعض الرغبة.

"مورين، يا حبي، سأصبح أبًا".

"حقًا، يا حبي؟ آه أنا مسرورة. فتاة أم..."

"من المبكر معرفة ذلك. عينان زرقاوان، بالرغم من ذلك!" قال آرشي، الذي مرت هاتان العينان إليه من احتمال جيني نادر إلى حقيقة صلبة. "هل ستعتبرينني السبب! هل ستصدقين ذلك؟"

قالت مورين، متحدثة ببطء بحيث يمكن أن تعثر على طريقة لصياغة العبارة: "هل قلت عينين زرقاوين، يا آرشي يا حبيبي؟ أنا لا أقصد السخرية... ولكن أليست زوجتك ملونة؟"

هز آرشي رأسه متسائلًا: "أعرف! أنا وهي لدينا طفل، الجينات تختلط، والعينان الزرقاوان! معجزة الطبيعة!"

"آه، نعم، معجزة"، قالت مورين بشكل مقتضب، ظانة أن تلك كانت كلمة لبقة.

"تناولي قطعة حلوى؟"

بدت مورين مترددة. ربتت على فخذيها القرنفليين المغلفين في الجوارب الضيقة البيضاء: "آه، يا حبيبي آرشي، لا أستطيع. يذهب مباشرة إلى الساقين والردفين، أليس كذلك؟ ولا أحد منا يزداد شبابًا، أليس كذلك؟ لا أحد منا يستطيع أن يعيد عقرب الساعة إلى الخلف. لكنني أتمنى أن أعرف كيف تفعل جوان ريفرز [41] هذا!"

ضحكت مورين لوقت طويل وكانت ضحكتها التي تشكل علامة تجارية في مورغان هيرو حادة وصاخبة، لكن فمها كان مفتوحًا قليلًا فحسب، لأن مورين تخاف بشكل رهيب من التجاعيد التي يسببها الضحك.

نكزت قطعة حلوى بظفرٍ شكاك أحمر اللون: "حلويات هندية، أليس كذلك؟"

أجاب آرشي بابتسامة رجالية: "نعم يا مورين، حارة وحلوة في الوقت نفسه. قليلًا مثلك".

"آه يا آرشي، أنت خفيف الظل"، أردفت مورين بحزن، ذلك أنها لطالما اشتهتْ آرشي قليلًا ولكن ليس أبدًا أكثر من ذلك بسبب طريقته الغريبة والتي هي التحدث دومًا مع الكاريبيين والباكستانيين كما لو أنه لا يلاحظ ذلك ولأنه ذهب وتزوج امرأة ولم يعتقد أن لونها يستحق الذكر إلى أن حان وقت حفلة العشاء حين بدت سوداء كأي شيء واختنقت مورين تقريبًا من صحن الجمبري الذي كانت تأكل منه.

انحنت مورين فوق مكتبها كي ترد على هاتف: "لا أعتقد أنني سأفعل، يا آرشي يا حبيبي..."

"متّعي نفسك. لا تعرفين ما الذي تحرمين نفسك منه".

ابتسمت مورين بطريقة مرضية ورفعت السماعة: "نعم، يا سيد هيرو، إنه هنا، اكتشف لتوه أنه سيصبح أبًا... نعم، له عينان زرقاوان، على ما يبدو... نعم هذا ما قاله، شيء ما يتعلق بالجينات، على ما أفترض... آه حسنًا... سأخبره، سأرسله... آه، شكرًا لك، يا سيد هيرو، أنت لطيف جدًا". مدت مورين أظافرها الطويلة على السماعة وتحدثت بهمس مسرحي مع آرشي: "حبيبي أرشيبالد، يريد السيد هيرو أن يقابلك، والأمر ملحّ كما يقول. كنت فتى شقيًا أو شيئًا من هذا القبيل؟"

قال آرشي وهو متجه إلى المصعد: "يجب أن أقول هكذا".

كان مكتوبًا على الباب:

كيلفن هيرو

مدير الشركة

مورغان هيرو

مختصون في البريد المباشر

كانت تهدف إلى التخويف لكن آرشي استجاب بلطف، وقرع الباب بخفة شديدة ثم بقوة فكاد يقع أرضًا حين فتح كيلفن هيرو كي يدخله في ثيابه القطنية السميكة والثقيلة [42].

"آرشي"، قال كيلفن هيرو، كاشفًا صفًا مزدوجًا من الأسنان البيضاء اللؤلؤية التي تدين كثيرًا لطب أسنان مكلف جدًا أكثر مما تدين إلى تنظيف منتظم للأسنان. "آرشي. آرشي. آرشي. آرشي".

"سيد هيرو"، أجاب آرشي.

"أنت تحيرني يا آرشي"، أردف هيرو.

"سيد هيرو"، ردد آرشي.

"اجلس هناك يا آرشي"، قال السيد هيرو.

"أنت على حق يا سيد هيرو"، رد آرشي.

مسح كيلفن خيطًا من العرق المتسخ من حول قبة قميصه، وقلبَ قلمه الباركر الفضي عدة مرات بيده وأخذ سلسلة من الأنفاس العميقة: "حسنًا، إن الأمر شديد الحساسية... لكنني لم أعتبر نفسي أبدًا مؤمنًا بالأعراق، يا آرشي..."

"سيد هيرو".

صار وجه آرشي عبارة عن عينين محدقتين. أنت لا تريد لتلكما العينين الواسعتين أن تحدقا بك حين تتحدث عن أمر حساس. كانتا كبيرتين، كعيني طفل أو عيني فقمة صغيرة، وفيهما ملامح البراءة: إن النظر إلى آرشي جونز هو كالنظر إلى شخص يتوقع ضربة بالهراوة على رأسه في أية لحظة.

اختار كيلفن اتجاهًا أخف: "دعني أعبر عن الأمر بطريقة أخرى. عادة، حين أواجه موقفًا حساسًا من هذا النوع، فإنني أتشاور معك كما تعلم فلطالما قضيتُ معك وقتًا طويلًا يا آرشي. أنا أحترمك. أنت لست مدعيًا. لم تكن هكذا أبدًا، لكنك...".

"قوي"، أنهى آرشي، لأنه يعرف خطابه.

ابتسم كيلفن وارتسم على وجهه شقٌّ كبير جاء وذهب بالعنف المفاجئ لرجل سمين يتقدم عبر أبواب متأرجحة: "صحيح، أنت قوي، والناس يثقون بك يا آرشي. أعرف أن أمورك تتحسن قليلًا، والرجْل المصابة تسبب لك بعض المشاكل لكن حين سينتقل هذا العمل إلى مالكٍ آخر، سأُبقي عليك يا آرشي لأنني أستطيع أن أرى مباشرة أن الناس يثقون بك. لهذا حافظت على عملك في البريد فترة طويلة. أنا أثق بك، يا آرشي لأنك تسير، كما اعتدت أن أقول، في المسار الصحيح".

"سيد هيرو؟"

هز كيلفن كتفيه: "كان بوسعي الكذب عليك يا آرشي، وأن أخبرك أننا ارتكبنا خطأ في الحجز وأنه لا يوجد مكان لك، وكان يمكن أن أعثر على كذبة محبوكة جيدًا، لكنك ذكي يا آرشي. ستتصل بالمطعم، أنت لست قردًا أفريقيًا، يا آرشي، تمتلك عقلًا، لقد جمعت اثنين واثنين..."

"وكان الحاصل أربعة لديك".

"وكان الحاصل أربعة لديك، بالضبط، يا آرشي. كان الحاصل أربعة. هل تفهم ما الذي أقوله لك، يا آرشي؟" قال السيد هيرو.

"كلا يا سيد هيرو"، أجاب آرشي.

تأهب كيلفن للدخول إلى صلب الموضوع: "كان عشاء الشركة الشهر الماضي مربكًا يا آرشي. لم يكن جيدًا. والآن هناك هذا العمل السنوي القادم مع شركتنا الشقيقة من سندرلاند، سيكون هناك حوالي ثلاثين منا، لن تكون حفلة مترفة، كما تعرف، الكري والبيرة وبعض الرقص... كما أقول، لا يعني هذا أنني عنصري، يا آرشي..."

"عنصري..."

"سأبصق على إينوك باول ذاك. لكن لديه فكرة صائبة، أليس كذلك؟ وهنا لب الموضوع، يصل الأمر إلى نقطة، هي نقطة التشبع، ويبدأ الناس بالشعور بعدم الارتياح... كما ترى، كل ما كان يقوله..."

"من؟"

"باول، يا آرشي، باول، حاول أن تتابعني، كل ما كان يقوله هو أنه طفح الكيل بعد نقطة معينة، أليس كذلك؟ أعني أن الجو في يوستون يشبه الجو في دلهي كل صباح اثنين. وثمة بعض الأشخاص هنا يا آرشي، ولا أضمن نفسي، يشعرون أن موقفك غريب قليلًا".

"غريب؟"

"ألا ترى أن الزوجات لا يحببن الأمر لأنهن، لنواجه الأمر... إنها جميلة جدًا ولها ساقان خلابتان، يا آرشي، أهنئك على الساقين، أما الرجال، حسنًا، فهم لا يحبون ذلك لأنهم قد لا يرغبون برؤية بعض الآخرين حين يجلسون في عشاء شركة مع زوجاتهن خاصة أنها كما تعلم ... لا يعرفون ماذا يفعلون بهذا إطلاقًا".

"من؟"

"ماذا؟"

"عم تتحدث يا سيد هيرو؟"

"اسمع يا آرشي"، أردف كيلفن، والعرق يتصبب منه بغزارة، وكان هذا كريهًا بالنسبة لرجل لديه هذه الكمية من شعر الصدر، "خذ هذه"، دفع كيلفن رزمة من قسائم الوجبات المجانية عبر الطاولة. "لقد بقيتْ من ذلك السحب، أتذكر، من أجل البيافرانيين(43)؟"

"آه كلا، لقد ربحتُ منه قفاز فرن. يا سيد هيرو، لا حاجة لذلك".

"خذها يا آرشي. هذه قسائم بقيمة خمسين جنيهًا، يمكنك صرفها في أكثر من خمسة آلاف محل لبيع الطعام في البلاد. خذها. تناول بعض الوجبات على حسابي".

لمس آرشي القسائم كما لو أنها الكثير من الأوراق المالية من فئة الخمسين

جنيهًا. فكر كيلفن للحظة أنه شاهد دموع السعادة في عينيه.

"حسنًا، لا أعرف ماذا أقول. هناك مكان أذهب إليه، بشكل منتظم، إذا قبلها ستكون أموري ممتازة لوقت طويل. هذا كثير جدًا".

رفع كيلفن منديلًا إلى جبهته: "هذا ليس شيئًا يذكر يا آرشي، من فضلك"

أومأ آرشي نحو الباب: "يا سيد هيرو، هل أستطيع... أريد أن أتصل ببعض الأشخاص، كي أخبرهم عن الطفل... إذا كنا قد انتهينا هنا".

هز كيلفن رأسه مرتاحًا. رفع آرشي نفسه عن مقعده. كان قد وصل لتوه إلى مقبض الباب حين انتزع كيلفن قلمه الباركر ثانية وقال: "آه يا آرشي، هناك شيء آخر... ذلك العشاء مع فريق سندرلاند...تحدثت مع مورين وأعتقد أننا يجب أن نختزل الأرقام...أجرينا قرعة على الأسماء لم يفز اسمك بها. لكنني أفترض أنك لن تفتقد للكثير، آه؟ إن هذه الأمور مضجرة دومًا".

"أنت مصيب يا سيد هيرو"، قال آرشي وذهنه في مكان آخر، داعيًا الله أن يكون مطعم أوكونيل يقبل قسائم الطعام، مبتسمًا لنفسه متخيلًا رد فعل صمد حين يحصل على ما قيمته خمسين جنيهًا من القسائم المجانية.

*****

حملت السيدة جونز بسرعة بعد السيدة إقبال، وكانت كلارا تعمل في دوام جزئي كمشرفة على مجموعة شباب كلبرن التي بدت كتشكيلة من فرقة شبان موسيقا الجذور والسكا [44] الجامايكية المؤلفة من 15 شابًا بقصة شعر أفرو ستة إنشات وبدلات أديداس رياضية وربطات عنق بنية وأحزمة ومظلات واقية من الشمس وملونة، وكانت ألسانا تحضر صف النساء ما قبل الولادة في الطريق السريع لكلبرن في الجوار، وبسبب الحمل وكونهما جارتين فإن المرأتين بدأتا تلتقيان أكثر. كانتا مترددتين في البداية، إذ حدثت بضعة مواعيد غداء متفرقة بينهما، وتناولتا القهوة معًا أحيانًا، لكن ما بدأ كفعل انتشار دفاعي في المؤخرة ضد صداقة زوجيهما تطور حالًا. قبلتا تغيّب الزوجين ولقاءاتهما الاجتماعية

معًا وكان وقت الفراغ الناجم عن هذا ممتعًا، وامتلكتا وقت للنزهات والرحلات وللنقاش والواجبات الشخصية، وللأفلام الفرنسية القديمة حيث كانت تصرخ ألسانا وتغطي عينيها حين يحدث تعرٍّ ("أطفئوا هذا! لا نريد أن نشاهد العضو الذكري!)" وتحصل كلارا على لمحة حول كيف يعيش النصف الآخر: النصف الذي يعيش علاقات رومانسية والهيام ومتعة الحياة، النصف الآخر الذي يمارس الجنس، الحياة التي كان من المحتمل أن تكون من نصيبها لو لم تقف في قمة أحد الأدراج في يوم رائع بينما أرشيبالد ينتظر في الأسفل.

ثم حين تضخم حملهما ولم تعد مقاعد السينما قادرة على استيعابهما، بدأت المرأتان تلتقيان من أجل الغداء في حديقة كلبرن، غالبًا مع ابنة الأخ الجالبة للعار، والثلاثة يضغطن أنفسهن في مقعد واسع حيث تضع ألسانا ترمسًا من الشاي بلا حليب وبالليمون في يد كلارا. ونزعت عدة طيات من لفافة بلاستيكية كي تكشف متعة اليوم الخاصة: كرات تشبه العجين فاتحة للشهية، حلويات هندية قابلة للتفتّت ملونة، ومعجّنات رقيقة محشوة بلحم بقر حار، وسلطة مع البصل، قائلة لكلارا: "كلي، املئي بطنك يا سخيفة! إنه هناك، يتحرك في بطنك، منتظرًا قائمة الطعام. يا امرأة، لا تعذبيه! تريدين أن تجوّعي البطن الكبير؟" ذلك أنه على الرغم من المظاهر هناك ستة أشخاص على المقعد (ثلاثة أحياء، ثلاثة قادمون) فتاة لكلارا، ولدان لألسانا.

أكدت ألسانا: "لا أحد يشكو، لنوضح هذا. إن الأطفال بركة، كلما كثروا ازداد مرحهم. لكنني أريد أن أخبرك أنه حين أدرتُ رأسي وشاهدت ذلك الشيء الفوق... نسيت اسمه..."

"الأمواج فوق الصوتية"، صحّحتْ لها كلارا، بفم مليء بالأرز.

"نعم، كنت على وشك الإصابة بنوبة قلبية قاتلة! اثنان! إننا نوفر الغذاء لواحد بمشقة".

ضحكت كلارا وقالت إنها تستطيع تخيل وجه صمد حين شاهد الأمر.

قالت ألسانا موبخة ودافعة قدمها الضخمة تحت طيات ساريها: "كلا، يا

عزيزتي، لم ير أي شيء. لم يكن هناك. أنا لا أسمح له برؤية أشياء كهذه. للمرأة خصوصيات، يجب ألا ينخرط الزوج في العمل الجسدي، في أعضاء السيدة..."

ابنة الأخ المسببة للعار، التي كانت تجلس بينهما، مصت أسنانها.

"إلى الجحيم يا آلسي، يجب أن ينخرط في أعضائك في وقت ما، أم هل هذا هو الحمل اللعين الذي بلا دنس؟"

خاطبت ألسانا كلارا بطريقة إنكليزية متكبرة: "كبيرة جدًا بحيث يجب ألا تكون وقحة وصغيرة جدًا بحيث أنها لا تعرف أفضل من هذا".

ثم برد فعل يحدث حين يتشاطر اثنان التجربة وضعت كل من كلارا وألسانا يديهما على بطنيهما المنتفخين.

قالت نينا كي تخلص نفسها: "حسنًا... هل فكرتما بالأسماء؟ أية أفكار؟"

كانت ألسانا مصممة: "مينا ومالانا، إذا كانتا فتاتين. أما إذا كانا ولدين فماجد وميلات. أحرف الميم جيدة وقوية. مهاتما، محمد، وذلك المضحك السيد موركامب [45]، أحد الممثلين الكوميديين من الثنائي موركامب ووايس، إن حرف الميم حرف تستطيعين أن تثقي به".

لكن كلارا كانت أشد حذرًا، لأن التسمية بدت لها مسؤولية مخيفة، ومهمة إلهية لشخص فان. "لو كانت فتاة، سأختار اسم آيري. يعني باللهجة العامية أن كل شيء على ما يرام، ظريف ومسالم، كما تعرفان؟"

شعرت ألسانا بالرعب قبل أن تنتهي الجملة: "حسنًا؟ هل هذا اسم طفلة؟ يمكن أن تسميها أيضًا "هل يحب السيد بعض الخبز الرقيق مع هذا؟" أو "لدينا طقس جيد".

"وآرشي يحب اسم سارة. حسنًا، لا يوجد الكثير الذي يمكن أن تختلفي حوله في اسم سارة ولا يجلب هذا الاسم الكثير من السعادة أيضًا. أتساءل إن كان الاسم مناسبًا لزوجة إبراهيم..."

صحّحت لها ألسانا بدافعٍ من الغريزة أكثر مما هو بسبب الاطلاع على القرآن: "لقد أنجب إبراهيم الأولاد في عمر ناهز المائة سنة، بعون من الله".

ثم علّقت نينا ضجرة من المنعطف الذي سلكته المحادثة: "حسنًا أنا أحب اسم آيري. إنه مثير ومختلف".

أحبت ألسانا الاسم وقالت رابتة على ركبة كلارا: "وما الذي يعرفه أرشيبالد عن الإثارة أو الاختلاف. لو كنت مكانك يا عزيزتي لاخترتُ سارة وأنهيت الأمر. أحيانًا يجب عليك أن تتركي الرجال يحصلون على الأمر بطريقتهم. أي شيء مقابل القليل: كيف تقولين هذا في الإنكليزية؟ مقابل القليل" (وضعت إصبعها على شفتين مزمومتين بشدة، كحارس على الباب) "اسكتي".

لكن ردًا على ذلك استخدمت ابنة الأخ الجالبة للعار لكنة ثقيلة، ورمشتْ بعينيها، ولفّت لفاعها الخاص بالجامعة حول رأسها كالبردة: "آه نعم يا خالتي، نعم، المرأة الهندية الصغيرة الخاضعة. إنك لا تتحدثين معه، بل يتحدث عنك، تصرخان وتتصايحان لكن لا يوجد تواصل. وفي النهاية يفوز لأنه يفعل ما يشاء حين يشاء. ولا تعرفين حتى أين هو، وماذا يفعل، وماذا يشعر معظم الوقت. إنه عام 1975 يا آلسي. لا تستطيعين القيام بعلاقات كهذه بعد الآن. ليس الأمر كما في الوطن. يجب أن يكون هناك تواصل بين الرجال والنساء في الغرب، يجب أن يصغوا لبعضهم بعضًا وإلا..." حاكت نينا سحابة صغيرة تشبه الفطر تنفجر في يدها.

قالت ألسانا بشكل متكلف، وهي تغمض عينيها وتهز رأسها: "هذا كلام فارغ، أنت من لا يصغي، أقسم بالله أنني أمنح دومًا بشكل جيد كما آخذ لكنك تفترضين أنني أكترث بما يفعله. تفترضين أنني أريد أن أعرف، والحقيقة هي أنه كي يستمر الزواج لا تحتاجين إلى كل هذا الحديث والحديث والحديث، أن تقولي: أنا هذا، وأنا في الحقيقة هكذا، كما في الأوراق، كل هذا الوحي، خاصة حين يكون زوجك كبيرًا في السن، وحين يكون مليئًا بالتجاعيد ويتداعى، لا تحتاجين إلى معرفة ما هو لزج تحت السرير وما الذي يصلصلُ في الخزانة".

عبست نينا، ولم تستطع كلارا أن تثير اعتراضًا جديًا، وقدمت الأرز مرة أخرى.

قالت ألسانا بعد وقفة، طاوية ذراعيها المنمشتين تحت ثدييها، مسرورة من أنها تحدثت مطولًا في موضوع قريب من ثدييها الباهرين: "فضلًا عن ذلك، إذا كنت من عائلة مثل عائلاتنا يجب أن تتعلمي ذلك الصمت، ما لا يُقال هو الوصفة للحياة العائلية".

ذلك أن النساء الثلاث نشأن في عائلات دينية متشددة، في منازل يتجلى الله فيها في كل وجبة، ويتسلل إلى جميع ألعاب الطفولة، ويجلس في وضعية اللوتس (مريحًا قدميه على فخذيه) تحت أغطية الفراش ومعه مشعل كي يفحص أنه لا يحدث أي شيء غير ملائم.

قالت نينا بسخرية: "دعيني أوضح الأمر. أنت تقولين إن حقنة جيدة من القمع تبقي الزواج صحيًا".

غضبت ألسانا كما لو أن أحدًا ما ضغط على الزر: "إن القمع كلمة سخيفة لا معنى لها. أنا أتحدث فقط عن الحس السليم. من هو زوجي؟ ومن هو زوجك؟" - قالت مشيرة إلى كلار: "لقد وُلدا قبلنا بخمسة وعشرين عامًا. من هما؟ ما الذي يقدران على فعله؟ أي دم على يديهما؟ أي لاصق ذي رائحة في مناطقهما الخاصة؟ من يعرف؟" رفعت يديها إلى الأعلى مطلقة الأسئلة في جو كلبرن غير الصحي، مطيرة سربًا من العصافير معها.

"ما لا تفهمينه، يا ابنة الأخ الجالبة للعار، ما لا يفهمه أحد من جيلك..."

هنا طفح الكيل مع نينا ولم تستطع إيقاف خروج قطعة من البصل من فمها بسبب قوة اعتراضها. "جيلي؟ اللعنة، أنت أكبر مني بعامين يا آلسي".

لكن ألسانا واصلت دون اكتراث محاكية سكينًا تقطع عبر لسان ابنة أخت العار الفاحش: "... أليس هذا ما يريد الجميع رؤيته في أعضاء الجميع المتعرقة والسرية".

توسلت نينا رافعة صوتها لأن ما أرادت أن تناقشه في الحقيقة هو الحاجز بينهما، زواج ألسانا المرتب: "لكن يا خالتي، كيف تستطيعين تحمل الحياة مع شخص لم تواعديه من قبل؟"

ردت على ذلك بغمزة مسببة للغضب، ذلك أن ألسانا تحب أن تظهر دومًا مرحة في اللحظة نفسها التي يصبح فيها محاورها مستاء وغاضبًا: "لأنه الخيار الأسهل حتى الآن أيتها الآنسة العارفة لكل شيء، ولأن حواء لم تعرف كيف كان يبدو آدم نجح الأمر بينهما. دعيني أشرح لك، نعم تزوجت من صمد إقبال في المساء نفسه من اليوم نفسه الذي التقيت به فيه. نعم، لم أكن أعرفه، لكنني أحببته جيدًا بما يكفي. التقينا في غرفة الفطور في يوم من أيام دلهي تصاعد فيه البخار من الحرارة وقد هوّى لي بمجلة التايمز. اعتقدتُ أن له وجهًا جميلًا، وصوتًا عذبًا، وأن مؤخرته مرتفعة، وشكله جميل بالنسبة لرجل في سنه، جميل جدًا. الآن، كلما ازدادت معرفتي به خف حبي له. وهكذا أنت ترين نحن أفضل بالطريقة التي نحن فيها".

خبطت نينا بقدمها على الأرض معبرة عن سخطها من هذا المنطق الأعوج.

"بالإضافة إلى ذلك، لن أعرفه جيدًا أبدًا. إن إخراج أي شيء من زوجي هو كمثل محاولة عصر الماء حين تتحجرين".

ضحكت نينا رغمًا عن نفسها: "هل تقصدين عصر الماء من الحجر؟".

"نعم، نعم. هل تعتقدين أنني غبية إلى هذا الحد. لكنني حكيمة حيال أمور كالرجال، أقول لك-" استعدت ألسانا كي تلقي ملخصها كما رأت منذ سنوات كثيرة المحامين الشبان في دلهي بتسريحات شعرهم الجانبية الملساء يفعلون: "إن الرجال هم آخر لغز. إن الله سهل بالمقارنة معهم. الآن، كفانا فلسفة، هل تريدون السمبوسك؟" نزعت غطاء إناء بلاستيكي وجلست وبدت سمينة وجميلة وراضية عن استنتاجها.

قالت نينا لخالتها وهي تشعل سيجارة: "من العار أن تحصلي عليهم، أعني الأولاد. من العار أن تنجبي أولادًا".

"ما الذي تقصدينه؟"

كانت هذه هي كلارا، صاحبة السر (خبأت سرًا عن ألسانا وآرشي) وهو مكتبة نينا التي تعير الكتب والتي من خلالها قرأت خلال عدة شهور كتاب جرير "خصاء

الأنثى [46]"، وكتاب جونغ "الخوف من الطيران [47]" و"الجنس الثاني [48]"، وكل ذلك في محاولة مرية، من قبل نينا، كي تخلص كلارا من "وعيها المزيف".

"ما عنيته هو أنني أعتقد أن الرجال تسببوا بما يكفي من الفوضى في هذا القرن. وهناك ما يكفي من الرجال في العالم. لو عرفت أنني كنت سأُرزق بولد" توقفت كي تحضّر صديقتيها اللتين تحملان وعيًا زائفًا عن هذا المفهوم الجديد - "لفكرتُ جديًا بالإجهاض".

صرختْ ألسانا، ووضعت يدًا على إحدى أذنيها والأخرى على أذن كلارا، ثم كانت على وشك الاختناق من قطعة باذنجان. ولسبب ما اعتبرت كلارا بشكل متزامن الملاحظة مضحكة، مضحكة بشكل هستيري ويائس، وجلست ابنة الأخ الجالبة للعار بين الاثنتين، مرتبكة، بينما كانت المرأتان اللتان يشبه شكلهما البيضة تنحنيان فوق بعضهما، واحدة من الضحك الأخرى من الرعب والاختناق.

"هل أنتما على ما يرام أيتها السيدتان؟"

كان هذا صوت سول جوزيفويكس، العجوز الذي يتولى حراسة الحديقة (على الرغم من أنه سُرح من وظيفته كحارس منذ وقت طويل بسبب تخفيضات المجلس البلدي للميزانية)، وهكذا وقف سول جوزيفويكس أمامهم مستعدًا كما دومًا لتقديم المساعدة.

قالت ألسانا متمالكة نفسها: "سنحترق كلنا في جهنم يا سيد جوزيفويكس، لو اعتبرت هذا صحيحًا".

دوّرت ابنة أخت العار عينيها: "تحدثي عن نفسك".

لكن ألسانا كانت أسرع من أي قناص حين يتعلق الأمر بالرد: "أفعل، أفعل، أشكر الله أنه رتب الأمور بهذه الطريقة".

قال سول وهو ينحني لهما بأناقة: "مرحبًا يا نينا، مرحبًا يا سيدة جونز، هل أنتما متأكدتان أنكم على ما يرام؟ يا سيدة جونز؟"

لم تستطع كلارا منع الدموع من الخروج من زاوية عينيها، ولم تستطع أن توضح في تلك اللحظة إن كان هذا بكاء أم ضحكًا.

"أنا بخير... بخير، آسفون على إزعاجك يا سيد جوزيفويكس، أنا بخير فعلًا".

قالت ألسانا: "لا أرى ما هو المضحك جدًا. هل قتل الأبرياء مضحك؟"

"ليس بحسب تجربتي يا سيدة إقبال، كلا"، أجاب جوزيفويكس، بالطريقة الهادئة التي قال بها كل شيء مقدمًا منديله إلى كلارا. كما يفعل التاريخ بشكل محرج ودون تحذير، وكاحمرار الخجل، لجأت النساء الثلاث إلى الصمت مندهشات مما يمكن أن تكونه تجربة حارس حديقة سابقًا.

"حسنًا، طالما أنكن بخير يا سيدات، سأواصل طريقي"، قال سول مشيرًا أن كلارا تستطيع الاحتفاظ بالمنديل واعتمر من جديد القبعة التي نزعها بالطريقة التقليدية، وانحنى انحناءته القصيرة والأنيقة مرة أخرى، وانطلق على مهل، بعكس اتجاه الساعة في أنحاء الحديقة.

حالما صار سول خارج مدى السمع: "حسنًا، يا خالتي ألسي، أعتذر، أعتذر... اللعنة، ما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟"

قالت ألسانا، وبدا صوتها كأنه خسر المعركة، وصار ضعيفًا: "آه، كل شيء، لقد أوضح الكون اللعين كله في قشرة جوز[49]. لم أعد أفهم أي شيء بعد الآن، وأنا أبدأ لتوي. هل تفهمان؟"

تنهدت، دون أن تنتظر جوابًا، ودون أن تنظر إلى نينا، بل ركزت نظرها على الطريق، على شكل سول المحدودب الذي بدأ يختفي وهو ينعطف ويخرج من بين أشجار الطقسوس: "ربما كنت على حق حيال صمد... حيال أمور كثيرة. ربما لا يوجد رجال جيدون، بما فيه الاثنان اللذان في بطني... وربما لا أتحدث بما يكفي مع رجلي، وربما تزوجت من غريب. يمكنك أن تتبيني الحقيقة بشكل أفضل مني. ما الذي أعرفه... أنا الفتاة الريفية الحافية... والتي لم تذهب إلى الجامعات أبدًا".

قالت نينا متأثرة بكلمات ألسانا وشاعرة بالاستياء: "آه يا ألسي، تعرفين أنني لا أعني هذا".

ردت ألسانا وعلى وجهها ما يشبه الابتسامة: "لكنني لا أستطيع أن أبقى قلقة طوال الوقت من الحقيقة، عليَّ أن أقلق من الحقيقة التي يمكن أن يُعاش معها، وهذا هو الفرق بين فقدانك لعقلك وشرب البحر المالح أو ابتلاع ما تأتي به السيول. إن ابنة الأخ الجالبة للعار تؤمن بالعلاج من خلال الحديث. تحدثي تحدثي تحدثي وستكون الأمور أفضل. كوني صادقة، شقّي قلبك وافتحيه وانشري المادة الحمراء. لكن الماضي مصنوع مما هو أكثر من الكلمات يا عزيزتي. لقد تزوجنا رجلين عجوزين، كما ترين؟ هذان الانتفاخان"- ربتت ألسانا على كليهما - "سيكون لهما دومًا أبوان بسيقان طويلة كالذباب، بساق في الحاضر وأخرى في الماضي. لا كلام سيغير هذا، ستكون جذورهما متشابكة دومًا، والجذور يتم حفرها، انظري فحسب في حديقتي، ثمة طيور تأكل الكزبرة كل يوم..."

حالما وصل إلى البوابة البعيدة التفت سول جوزيفويكس حوله كي يلوّح بيده، ولوحت له النساء الثلاث. شعرتْ كلارا قليلًا بأنها تؤدي دورًا مسرحيًا وهي ترفع منديلها الأبيض فوق رأسها، كما لو أنها ترى شخصًا منطلقًا في رحلة قطار عابرًا حدود بلدين.

سألت نينا، محاولة أن تبدد سحابة ضيقٍ ظللت نوعًا ما نزهتهم: "كيف التقيا؟ أعني السيد جونز وصمد مياه؟"

أرجعت ألسانا رأسها إلى الخلف، بإيماءة رفض: "آه، في الحرب. ذهبا إلى هناك كي يقتلا بعض الأوغاد الفقراء الذين لم يستحقوا ذلك. وما الذي حصلا عليه مقابل ذلك الإزعاج؟ حصل صمد مياه على يد مكسورة والثاني على رجل مضحكة، بعض الفائدة، بعض الفائدة، من كل هذا".

قالت كلارا بهدوء، مشيرة إلى مكان في فخذها: "في ساق آرشي اليمنى قطعة من المعدن على ما أظن لكنه لا يخبرني أي شيء عنها".

قالت ألسانا: "آه، من يكترث! أثق بكريشنا النشال ذي الأيدي العديدة ولا أصدق كلمة واحدة يتفوه بها هذان الرجلان".

لكن كلارا تعتز بصورة آرشي الجندي الشاب، خاصة حين يكون العجوز

المترهل الذي يعمل في البريد المباشر فوقها. "آه، هيا الآن... لا نعرف ماذا..."

بصقت ألسانا على العشب: "أكاذيب خرائية! لو كانا بطلين، فأين رموز بطولتهما؟ أين إنجازاتهما؟ للأبطال إنجازات، وتستطيعين التعرف عليهم على بعد عشرة أميال. لم أر أبدًا وسامًا... ولا صورة". أصدرت ألسانا صوتًا مزعجًا في مؤخرة حنجرتها، في إشارة لعدم التصديق: "وهكذا فكِّري بالأمر، كلا، يا عزيزتي، هناك إنجازات، فكري بالأمر فحسب. انظري إلى ما تبقى. لصمد يد واحدة، يقول إنه يريد العثور على الله لكن الحقيقة هي أن الله تركه، وقد مضى على وجوده في مطعم الكري سنتان، يقدم لحم الماعز القاسي للبيض الذين لا يعرفون أفضل منه، وأرشيبالد، دقق في الأمر..."

توقفت ألسانا كي تفكر إن كان بوسعها التعبير عما يجول في ذهنها دون أن تسبب إهانة أو ألمًا غير ضروري لكلارا لكن عينيْ كلارا كانتا مغمضتين وتفكر بالأمر بتمعن، كفتاة تنظر إلى عجوز عن قرب، ثم أنهت جملة ألسانا ببداية ابتسامة انتشرت على وجهها.

"... يطوي الورق كي يكسب رزقه، يا يسوع!"

5

القنوات الجذرية لأسنان ألفرد أرشيبالد جونز وصمد مياه إقبال

كانت ممتازة تلك النصيحة لألسانا بأن تفكر بالأمور بعمق، وأن تنظر إليها مباشرة في العينين، بتحديقة ثابتة وصادقة، وتفحص الأمر بدقة وتذهب إلى ما خلف قلبه وإلى نواته وإلى ما وراء النواة وإلى الجذر، ولكن المسألة هي كم تريد أن تعرف من الماضي؟ كم سيفيدها الرجوع إلى الوراء؟ كمثل السؤال الأميركي القديم: ما الذي تريده، هل تريدني أن أدفع دمًا؟ على الأرجح ما هو مطلوب أكثر من الدم: محادثات مهموسة جانبًا ومنسية وأوسمة وصور وقوائم وشهادات وأوراق مصفرة تحمل الأثر الضعيف لتواريخ باللون البني، إلى الوراء، إلى الخلف، إلى الخلف. حسنًا، إذًا. ستعود إلى آرشي، حين كان نظيفًا ومتوردًا ولامعًا وحين بدا كبيرًا بما يكفي في سن السابعة عشرة كي يخدع الرجال من المجلس الطبي بأقلام رصاصهم وشريط قياسهم، ستعود إلى صمد الأكبر بعامين واللون الدافئ للخبز المخبوز في الفرن، إلى اليوم الذي عُيِّنا فيه لأول مرة معًا، صمد مياه إقبال (الصف 2، هنا الآن، يا جندي) وألفرد أرشيبالد جونز (تحرّك، تحرك، تحرك) في اليوم الذي نسي فيه المبدأ الأكثر جوهرية لآداب السلوك الإنكليزية. "حدِّق". كانا يقفان جنبًا إلى جنب في مسار طيني أسود على أرض روسية يعتمران قبعتين مثلثّي الشكل ومتشابهتين تتوضعان على رأسيهما كمركبين ورقيين، ويرتديان

بذلتين عسكريتين متشابهتين تسببان الحكة، أصابع أقدامهما التي يقرصها الجليد محشورة في أبواط سوداء لطخها الوحل. لم يستطع آرشي مقاومة التحديق، وتحمّل صمد ذلك منتظرًا أن يمر الأمر، وبعد أسبوع من المعاناة من الحرارة والاختناق في دبابتهما التي تخلو من الهواء وخاضعًا لتحديقة آرشي التي لا تلين، تحمّل بقدر ما سبق أن تحمل رأسه الحامي أي شيء.

"صديقي، ما الذي تجده مثيرًا فيَّ بحيث يجعلك دومًا في حالة سرور دائمة؟"

قال آرشي، متضايقًا، ذلك أنه لم يكن شخصًا يتبادل محادثات خاصة أثناء العمل العسكري: "أنت ماذا؟ لا أحد، أعني، لا شيء، أعني، حسنًا، ما الذي تعنيه؟"

تحدث كلاهما همسًا، لأنهما لم يكونا وحدهما، كان هناك جنديان ونقيب في دبابتهم التي من نوع تشرشل وعدد طاقمها خمسة وفي طريقها عبر أثينا إلى سالونيك. كان الأول من نيسان 1945. آرشي جونز سائق الدبابة، وصمد عامل اللاسلكي، وكات روي ماكنتوش سائق ثان، وويل جونسون رامي المدفع يجلس معصورًا على الصندوق، وتوماس دكنسون سميث يجلس على الكرسي المرفوع قليلًا الذي على الرغم من أنه ضغط رأسه على السقف فإنه لم ينزله بسبب كبريائه بعد أن رُفّع حديثًا إلى رتبة نقيب. لم ير أي منهم إلا بعضهم لمدة ثلاثة أسابيع.

"أعني من المرجح أن نبقى عالقين هنا لمدة عامين آخرين".

فرقع صوت عبر اللاسلكي وصمد الذي لم يرغب بأن يُرى كمهمل لواجباته أجابه بسرعة وفعالية.

"و؟" سأل آرشي، بعد أن قدم صمد إحداثياتهم.

"ويوجد فقط ذلك الكثير من التحديق الواضح. هل تقوم ببعض البحث في مشغلات اللاسلكي أم أنت فقط هائم بمؤخرتي؟"

أنهى نقيبهم دكنسون سميث المحادثة على الفور. كان هائمًا بمؤخرة صمد (لكن ليس فقط بها بل أيضًا بعقله وبذراعيه النحيلتين والعضليتين اللتين لا

يمكن أن تُفهما إلا حين تعانقان حبيبًا، وأيضًا بعينيه الجميلتين بلونهما الأخضر الخفيف أو البني).

"إقبال! وأنت يا جونز، انتبها! هل تريان أحدًا آخر هنا يثرثر على هواه؟"

"كنت أقوم باعتراض فقط يا سيدي. من الصعب يا سيدي على الرجل أن يركز على فوكس تروت إفز وزيبرا زد[50] ثم نقاطه وخطوطه الفاصلة حين يكون معه كلب يتابع كل حركاته بعينيه اللتين تشبهان عيني كلب يا سيدي. في البنغال سيفترض المرء أن عينين كهاتين تنتميان إلى رجل مليء ب..."

"اخرس يا سلطان، أيها الشاذ"، قال روي، الذي كان يكره صمد وطرقه المفتعلة كعامل لاسلكي.

صاح دكنسون سميث: "كفى يا ماكنتوش، لا توقف السلطان، أكمل يا سلطان".

كي يتجنب الإيحاء المحتمل بأنه منحاز لصمد قام النقيب دكنسون سميث بلومه والتشجيع على استخدام كلمة سلطان، لكنه لم يتفوه أبدًا بالكلمة بالطريقة الصحيحة، فقد كانت تأتي دومًا ناعمة جدًا ومشابهة للغة صمد المترفة وتؤدي دومًا إلى كراهية روي والذكور الثمانين الآخرين الذين تحت قيادته المباشرة لدكنسون سميث، ويسخرون منه، كاشفين علنًا عن عدم احترامهم ويشعرون بالغثيان من طرقه الغريبة المتكلفة كقائد. آرشي الذي كان مستجدًا في فوج هجوم المهندسين الملكيين الأول اكتشف هذا مؤخرًا.

أضاف روي كإيماءة لبقة: "طلبتُ منه لتوي أن يخرس، وسيخرس إذا عرف مصلحته، هذا السلطان الهندي ابن الحرام. بالطبع لا أقصد التقليل من احترامك يا سيدي".

كان دكنسون سميث يعرف أنه في أفواج ودبابات أخرى لا يُسمح بأن يرد الأشخاص على رؤسائهم أو أن يتحدثوا. حتى إيماءة روي اللبقة كانت إشارة على فشل دكنسون سميث. وفي تلك الدبابات الأخرى، الشيرمانز والتشرشل والماتيلداس التي تنتشر وسط دمار أوربا كالصراصير، لم تكن المسألة مسألة احترام

أو عدم احترام، كانت فقط طاعة وفي حال عدم طاعة الأوامر تُفرض العقوبة.

قال صمد: "سلطان... سلطان...هل تعرف، لا اعتراض لدي على التسمية، يا سيد ماكنتوش، لو كانت صحيحة على الأقل، لكنها ليست صحيحة تاريخيًا، وليست صحيحة بالمعنى الجغرافي. أنا متأكد أنني شرحت لك أنني من البنغال. إن كلمة سلطان تشير إلى رجال معينين في بلاد العرب، على بعد مئات الأميال إلى الغرب من البنغال. أن تدعوني سلطانًا صحيح، من ناحية الأميال، هل تفهم، كما لو أنني أناديك باسم جيري الهوني [51] السمين وابن الحرام".

"ناديتك باسم سلطان وسأناديك ثانية، فهمت؟"

"آه يا سيد ماكنتوش. هل من المعقد جدًا، هل من المستحيل أن أتقاتل أنا وأنت، ونحن عالقان في هذه الآلة البريطانية، كمواطنين بريطانيين؟"

نزع ويل جونسون، الذي كان بسيطًا نوعًا ما، قبعته كما يفعل دومًا حين يتفوه أحد ما بكلمة "بريطاني".

"ما الذي ينويه الشاذ جنسيًا؟"، سأل ماكنتوش، معدلًا كرشه.

أكد صمد: "لا شيء، أخشى أنني لست بصدد أي شيء، كنت أتحدث فقط، أتحدث، محاولًا أن أقوم بمحادثة عادية كما يقولون، أن أجعل الجندي جونز هنا يوقف عملية التحديق، أن يتوقف عن التحديق بي بعينيه الجاحظتين، فقط هذا، وهذا فحسب...وقد فشلت في الأمرين على ما يبدو".

بدا مجروحًا بشكل حقيقي، وشعر آرشي بالرغبة المفاجئة التي لا تمت للجندي بأن يزيل الألم، لكن الوقت والمكان لم يكونا مناسبين.

قال دكنسون سميث: "حسنًا. كفى، كلكم، افحصوا الخريطة".

فحص آرشي الخريطة.

كانت رحلتهم طويلة ومتعبة، ونادرًا ما قاطعها أي عمل. كانت دبابة آرشي مختصة ببناء الجسور، وتنتمي إلى الفرق المتخصصة وغير مرتبطة بالتزامات في المقاطعات الإنكليزية أو بنوع من الأسلحة، لكنها تقدم الخدمة للجيش من بلاد إلى أخرى، تستعيد أجهزة مخربة، وتبني الجسور كمعابر للمعركة، وتشق طرقًا

حيث تكون الطرق مدمرة. ولم يكن عملهم القتال في الحرب بقدر ما كان التأكد من أنها أُنجزت بسلاسة. وفي الوقت الذي انضم فيه آرشي إلى الصراع، كان واضحًا أن القرارات القاسية الدموية سيتخذها سلاح الجو، وليس فَرْق الثلاثين (سم) في العرض بين قذيفة ألمانية خارقة للدروع وأخرى إنكليزية. إن الحرب الحقيقية، التي تُركَّع فيها المدن، ولها نتائج مهلكة من حيث الحجم والدمار والتأثير في السكان، تجري على بعد أميال كثيرة فوق رأس آرشي. في غضون ذلك، على الأرض، كان لدبابتهم الاستطلاعية المصفحة والثقيلة مهمة أبسط وهي تجنب الحرب الأهلية في الجبال، الحرب داخل الحرب بين المقاومة اليسارية في اليونان وجيش التحرير الشعبي اليوناني، وأن يشقوا طريقهم عبر أعداد من القتلى بأعين لامعة، و"الشباب المهدور"، للتأكد من أن طرق الاتصالات التي تمتد من أحد طرفي الجحيم إلى الطرف الآخر سالكة بشكل كامل.

قال آرشي: "إن مصنع الذخائر المقصوف على بعد عشرين ميلًا إلى الجنوب الغربي يا سيدي. يجب أن نجمع ما نقدر عليه يا سيدي. نقلَ إليَّ الجندي إقبال في الساعة 16، 47 رسالة لاسلكية مفادها أن المنطقة، بقدر ما يمكن أن يُرى من الجو، يا سيدي، غير محتلة".

قال صمد بهدوء: "هذه ليست حربًا".

بعد أسبوعين، وبينما كان آرشي يفحص طريقهم إلى صوفيا، قال صمد دون أن يوجه كلامه لشخص محدد: "يجب ألا أكون هنا".

وكالعادة تجاهله آرشي بشكل أكثر وحشية وقوة على الرغم من أنه رغب بأن يصغي نوعًا ما.

"أعني، أنا متعلم. أنا مدرب. يجب أن أكون محلقًا مع القوة الملكية المجوقلة، أقصف من الأعلى. أنا ضابط. لست ملازمًا، أو جنديًا هنديًا ما، ألبس صندلي في خدمة قاسية. إن والد جدي مانغال باندي..." - نظر حوله من أجل الاعتراف الذي يستحقه الاسم وحين لم يُقابل إلا بأوجه إنكليزية فارغة كالفطيرة، واصل - "كان بطل التمرد الهندي العظيم".

خيم صمت.

"تمرد عام 1857! كان هو من أطلق أول طلقة كريهة ملطخة بدهن الخنزير وأرسلها تدور إلى النسيان".

خيم صمت أطول وأكثر ثقلًا.

لعن صمد بينه وبين نفسه الذاكرة الضعيفة جدًا لدى الإنكليز بخصوص التاريخ، رفع خمسة أصابع ميتة، مطوية بإحكام من مكان استراحتها المعتاد على صدره وقال: "لولا هذه اليد المعطلة، هذه اليد الخرائية التي منحها لي الجيش الهندي الذي بلا فائدة بسبب مشاكلي، لضاهيت إنجازاته. ولماذا أنا مشلول؟ لأن الجيش الهندي يعرف عن تقبيل المؤخرات أكثر مما يعرف عن حرارة وتعرق المعركة! لا تذهب أبدًا إلى الهند، أيها الجندي جونز، يا صديقي العزيز، إنها مكان للحمقى ولمن هم أسوأ من الحمقى. هندوس وسيخ وبنجابيون حمقى. والآن هناك كل تلك التمتمة عن الاستقلال: امنحوا البنغال الاستقلال يا آرشي، هو ما أقوله، اتركوا الهند في السرير مع بريطانيا، إذا كان هذا ما تحبه".

سقط ذراعه إلى جانبه بالثقل الميت واستقر كمثل رجل عجوز بعد نوبة غضب. كان صمد يخاطب آرشي دومًا كما لو أنهما مرتبطان معًا في حلف ضد بقية من في الدبابة. وبصرف النظر عن كم عبّر آرشي عن رفضه له فقد خلقت تلك الأيام الأربعة من التحديق خيط علاقة حريريًا بين الرجلين كان صمد يشده كلما سنحت له الفرصة.

قال صمد: "أنت ترى يا جونز، كان الخطأ الحقيقي الذي ارتكبه نائب الملك هو منح السيخ مناصب في السلطة فقط لأنهم حققوا نجاحًا محدودًا مع الكفار السود في أفريقيا[52]. قال: نعم يا سيد رجل، بوجهك السمين المتعرق وشاربك الإنكليزي السخيف المزيف وعمامتك الموازنة على رأسك كخرية كبيرة، يمكن أن تصبح ضابطًا، وسنقوم بجعل الجيش هنديًا، اذهب، اذهب وقاتل في إيطاليا، أيها النقيب الخيال[53] بوجري، أيها الرقيب[54] بوجري، مع قواتي الإنكليزية القديمة والمهيبة! خطأ! ثم يأخذونني، أنا بطل رماة فرقة خيالة شمال البنغال التاسعة،

بطل سلك الطيران البنغالي، ويقولون: صمد مياه إقبال، صمد، سنخصك بشرف عظيم، ستقاتل في البر الأوربي الرئيسي ولن تجوع وتشرب بولك في مصر أو الملايو، كلا، ستقاتل الهُون حيث تعثر عليهم. على عتبة باب الجندي جونز، على عتبته. وهكذا ذهبت. وكانت إيطاليا المكان الذي ظننت أنني سأثبت فيه للجيش البريطاني أن رجال البنغال المسلمين يستطيعون القتال مثل أي سيخي، وبشكل أفضل وبقوة أكبر، وأنهم الأكثر تعلمًا ومن نسل عريق وخُلقوا كي يكونوا ضباطًا".

قال روي: "الضباط الهنود؟ هذا غير وارد".

واصل صمد: "في يومي الأول هنا دمرت ملجأ ألمانيًا من الجو كمثل نسر منقض".

قال روي: "هراء."

"في يومي التالي أطلقت النار من الجو على العدو حين كان يقترب من الخط القوطي[55]، داخلًا عبر ثغرة أرجنتا[56] دافعًا الحلفاء عبر وادي بو. وكان اللورد مونتباتن سيقوم بتهنئتي شخصيًا ويصافحني لكن هذا كله مُنع. هل تعلم ما حصل في يومي الأول أيها الجندي جونز؟ هل تعرف كيف شُللت في أوج شبابي؟"

قال آرشي بهدوء: "كلا".

"ابن حرام سيخي أيها الجندي جونز، ابن حرام سيخي، ابن حرام أحمق، انفجرت بندقيته وأصابني في رسغي. لكنني رفضت قطعه. كل جزء من جسمي يأتي من الله. وكل جزء سيعود إليه".

وهكذا انتهى الأمر بصمد في كتيبة غير معروفة متخصصة في بناء الجسور في جيش جلالته مع بقية الخاسرين، مع رجال مثل آرشي، ورجال مثل دكنسون سميث (الذي تضمن ملف حكومته عبارة خطيرة: شاذ جنسيًا)، مع حالات أخرى من منبوذي الحرب الذين أجريت جراحة مخية أمامية مثل ماكنتوش وجونسون الذين دعاهم روي بتعاطف: كتيبة الملعونين. وكان جزء كبير من مشكلة المظهر ناجمًا عن أن نقيب فوج الهجوم الأول دكنسون سميث لم يكن جنديًا أو قائدًا على الرغم من أن القيادة في جيناته. فقد انطلق ضد إرادة والده

تاركًا جامعته، وتحرر من عباءة والده وذهب كي يخوض حربًا كما فعل والده ووالد والده ووالد والد ووالده، وهكذا إلى ما لانهاية. وسلّم الشاب توماس نفسه لمصيره وانخرط في جهد منسق ومطول (أربع سنوات الآن) كي يضع اسمه في القائمة دائمة التوسع لآل دكنسون سميث المنقوشة على شاهدة قبر في قرية ليتل مارلو، كي يُدفن فوقهم كلهم في مقبرة العائلة التي كعلبة السردين المهيمنة بفخر على فناء الكنيسة التاريخي.

قُتلوا على يد الهون والووغز والتشينكز والسود والفروغز والأسكتلنديين والسبيكس والزولو والهنود (في الجنوب والشرق، والحمر أيضًا)، ومرة بالمصادفة ظنه أحد السويديين حيوان أكاب راكضًا أثناء رحلة صيد كبرى في نيروبي، وكان آل دكنسون سميث تاريخيًا لا يُروى ظمؤهم من رؤية دم أبنائهم مسفوحًا في تربة أجنبية. وفي المناسبات التي لا يكون فيها حرب كان آل دكنسون سميث يشغلون أنفسهم بالوضع الأيرلندي، وهو نوع من ملاذ عطلة للموت بالنسبة لهم وتواصل منذ عام 1600 ولم يظهر أية إشارة توقف. لكن الموت ليس خدعة سهلة. وعلى الرغم من أن لفرصة الارتماء أمام أي نوع من الأسلحة المهلكة جاذبية مغناطيسية للأسرة عبر العصور، فإن دكنسون سميث هذا لم ينجح في الأمر. وكان للمسكين توماس شبق من نوع مختلف للأرض الغرائبية أراد أن يعرفه ويغذيه ويتعلم منه ويحبه. وكان فاشلًا وساذجًا في لعبة الحرب.

كانت القصة الطويلة لكيفية انتقال صمد من قمة الإنجاز العسكري في سلك المقاتلين البنغاليين إلى الكتيبة الملعونة تُروى وتعاد روايتها لآرشي في نسخ مختلفة مرة في اليوم لمدة أسبوعين آخرين، سواء أصغى أم لم يصغ. وعلى الرغم من كونها مملة فقد كانت منارة إلى جانب حكايات الفشل الأخرى التي ملأت تلك الليالي الطويلة، وأبقت رجال الكتيبة الملعونة في حالتهم المفضلة من اليأس وانعدام الحافز. ومن القصص المبتذلة كان هناك الموت المأساوي لخطيبة روي، وهي حلاقة شعر انزلقت على دحروجة وكسرت عنقها على المغسلة، وعدم ذهاب آرشي إلى مدرسة كي يتعلم النحو لأن أمه لم تقدر على شراء بدلة، وأقرباء دكنسون

سميث الكثيرون المقتولون. أما لويل جونسون فلم يتحدث في النهار لكنه كان يئن وهو نائم، ووجهه يعبر بوضوح عن حالات بؤس أشد مما يمكن أن يتحقق المرء منه. وواصلت الكتيبة الملعونة هذا لبعض الوقت، كسيرك مسافر من الساخطين الذين يطوفون بلا هدف في أنحاء أوربا الشرقية، كمجانين وحمقى دون جمهور سوى بعضهم. وكانوا يؤدون ويتفرجون بالدور، إلى أن دخلت الدبابة أخيرًا في يوم لم يذكره التاريخ، ولم تبذل تلك الذكرى أي جهد للبقاء. كحجر ينغمر بالماء، أو كطقم أسنان ينحدر بصمت إلى قاع كأس. 6 أيار 1945.

في حوالي الساعة 18 في السادس من أيار 1945 انفجر شيء ما في الدبابة. لم يكون صوت قنبلة بل ضجيج كارثة هندسية، وفجأة توقفت الدبابة. كانوا في قرية بلغارية صغيرة تتاخم اليونان وتركيا ضجرتْ منها الحرب وغادرتْها، معيدةً الناس إلى الروتين المعتاد.

قال روي ملقيًا نظرة على العطل: "حسنًا، المحرك تعطل وانكسر أحد الجنازير. يجب أن نتصل ونطلب المساعدة ثم ننتظر إلى أن تصل. لا نستطيع فعل أي شيء".

سأل صمد: "ألن نبذل أي جهد كي نصلحه؟"

قال دكنسون سميث: "لا. الجندي ماكنتوش على حق. لا نستطيع أن نصلح هذا العطل بأية طريقة بالأجهزة التي معنا. علينا أن ننتظر هنا إلى أن تصل المساعدة".

"وكم سيستغرق هذا؟"

قال جونسون: "24 ساعة. نحن بعيدون جدًا عن الآخرين".

سأل صمد الذي يئس من نظافة روي الشخصية وكره أن يمضي مساء ساكنًا وقائظًا معه:

"هل مطلوب منا أن نبقى في العربة لمدة 24 ساعة يا نقيب سميث؟"

زأر روي: "نعم سنبقى فيها، هل تظن أنك في إجازة؟".

"كلا، كلا... لا أفهم لماذا لا نتجول قليلًا، لا معنى لبقائنا كلنا محتجزين

هنا. اذهب أنت وجونز، للاستطلاع، ثم يذهب المجندان ماكنتوش وجونسون وسأذهب حين تعودون".

وهكذا ذهب صمد وآرشي إلى القرية وأمضيا ثلاث ساعات يشربان السامبوكا ويصغيان لمالك المقهى يقص عليهما حكاية الغزو المصغّر لنازيَّيْن ظهرا في البلدة وأكلا كل مؤونته، ومارسا الجنس مع فتاتين سائبتين من القرية وأطلقا النار على رجل في رأسه لأنه لم يمنحهما الإرشادات إلى القرية التالية بالسرعة الكافية.

قال العجوز، هازًا رأسه: "لم يكن لديهما صبر على أي شيء". دفع صمد الفاتورة.

وهما يسيران عائدين قال آرشي: "لا يحتاجون إلى الكثير منهم كي يغزوا وينهبوا"، في محاولة للبدء بمحادثة.

قال صمد: "رجل قوي وآخر ضعيف في المستعمرة، أيها الجندي جونز".

حين عاد آرشي وصمد إلى الدبابة فوجئا بمقتل الجنديين ماكنتوش وجونسون والنقيب توماس دكنسون سميث. كان جونسون مخنوقًا بسلك لتقطيع الجبنة، بينما أُطلق النار على روي في ظهره. فُتح فك روي بالقوة وأزيلت حشواته الفضية. وكانت تتوضع في فمه كماشة كلسان حديدي. وبدا كأن دكنسون سميث حين توجه مهاجمه نحوه نجا من مصيره المكتوب له وأطلق النار على نفسه في الوجه. كان دكنسون الوحيد الذي مات بأيد إنكليزية.

*****

بينما كان آرشي وصمد يقيّمان الموقف بقدر استطاعتهما، كان اللواء [57] جوديل يجلس في بناء مدرسي صغير في مدينة ريمس. هزّ قلمه الستيلو مرة أو مرتين، ثم قاد الحبر في رقصة وقورة على طول الخط المنقط وكتب التاريخ باسمه: نهاية الحرب في أوربا. وحين أخذ الورقة رجل يقف عند كتفه رفع جوديل رأسه وقد أدهشه الإدراك الكامل للفعل. ومضى أسبوعان كاملان قبل أن يسمع آرشي أو صمد بالأمر.

كانت تلك أوقاتًا غريبة، غريبة بما يكفي لإقبال وجونز كي يعقدا أواصر صداقة. وفي ذلك اليوم، بينما كانت أوربا تحتفل، وقف صمد وآرشي على جانب طريق بلغاري، وكان صمد يمسك حفنة من الأسلاك، ولوحًا وغلافًا معدنيًا بقبضته السليمة.

قال صمد: "تعطل جهاز اللاسلكي ونحتاج إلى البدء من البداية. هذا عمل سيئ جدًا، يا جونز. سيّئ جدًا. فقدنا وسائل اتصالنا ونقلنا ودفاعنا. فقدنا قيادتنا. إن رجل حرب دون قائد عمل سيّئ جدًا بالفعل".

استدار آرشي عن صمد وتقيأ بعنف في دغل. ذلك أن الجندي ماكنتوش، على الرغم من كل كلامه الكبير، تبرز في سرواله عند بوابة القديس بطرس وأجبرت الرائحة نفسها على الدخول إلى رئتي آرشي فأثارت أعصابه وخوفه وأجبرته على تقيؤ فطوره.

كان صمد يعرف كيف يصلح اللاسلكي، يعرف النظرية، لكن آرشي يمتلك اليدين، وموهبة معينة حين يتعلق الأمر بالأسلاك والمسامير والصمغ. وحدث نوع مضحك من الصراع بين المعرفة والقدرة والعملية تواصل بينهما وهما يجمعان معًا القطع المعدنية الصغيرة التي يمكن أن تنقذهما.

"أعطني مفتاح (مقاوم) الثلاثة أوم".

احمر آرشي، غير عارف ما الذي يشير صمد إليه. تحركت يده في علبة الأسلاك والقطع وتشكيلة الأشياء الصغيرة. سعل صمد بوقار بينما كان إصبع آرشي الصغير يتقدم نحو الشيء الصحيح. كان مربكًا أن يقول هندي لإنكليزي ماذا يجب أن يفعل لكن هدوء الأمر ورجولته جعلهما يتجاوزان المسألة. في أثناء ذلك الوقت عرف آرشي القوة الحقيقية التي تنبعث من فعل المرء للأمور بنفسه، وكيف تسهّل الأمور، وتسمح للرجال بأن يتواصلوا. وكان هذا درسًا احتفظ به طيلة حياته.

"رجل جيد"، قال آرشي حين سلمه صمد قضيب اللحام، لكن حينها، وبعد أن اكتشف أن يدًا واحدة غير كافية للتحكم بالأسلاك أو لتثبيتها بلوح اللاسلكي،

أعاد الغرض إلى آرشي وأشار إليه أين يضعه.

قال آرشي مبتهجًا: "سننجز هذا بسرعة كبيرة".

"علكة! من فضلك يا سيد!"

في اليوم الرابع، بدأ حشد من أطفال القرية يتجمعون حول الدبابة، وقد جذبتهم جرائم القتل المروعة، وجاذبية صمد ذي العين الخضراء وعلكة آرشي الأميركية.

قال ولد بلون الكستناء وبوزن عصفور بإنكليزية حذرة: "يا جندي، من فضلك علكة، شكرًا".

مد آرشي يده إلى جيبه وسحب خمس قطع قرنفلية نحيلة. وزعها الفتى بطريقة مترفعة على أصدقائه الذين بدؤوا المضغ بصوت مرتفع وجحظت أعينهم من الجهد. ثم حين بدأت النكهة بالتلاشي وقفوا في تأمل صامت ووقور للمحسن عليهم. وبعد بضع لحظات أُرسل الفتى الهزيل نفسه كممثل للشعب مرة أخرى.

مد يده وقال: "يا سيد جندي، علكة من فضلك وشكرًا".

قال آرشي داخلًا في لغة إشارة متقنة: "لا يوجد، لم يعد معي علكة".

"من فضلك شكرًا، من فضلك شكرًا"، كرر الفتى بإلحاح.

قال صمد: "كرمى لله يجب أن نصلح اللاسلكي ونجعل هذا الشيء يتحرك. دعونا نعمل على هذا من فضلكم".

"علكة يا سيد، يا سيد جندي، علكة". صارت أنشودة، تقريبًا، خلط فيها الأطفال بضع كلمات تعلموها في أي ترتيب خطر في أذهانهم.

"من فضلكم؟" مد الفتى ذراعه بطريقة شاقة دفعته إلى الوقوف على رؤوس أصابعه.

فجأة فتح راحة كفه، ثم ابتسم بدلال، مجهزًا نفسه للمساومة. كان في يده المفتوحة أربع أوراق خضراء مجموعة كحفنة من العشب.

"دولارات يا سيد!"

"من أين جئت بهذا؟" سأله صمد، محاولًا أن ينتشلها منه لكن الفتى أرجع

يده. تحرك باستمرار من قدم إلى أخرى، الرقصة الشيطانية التي تعلمها الأطفال من الحرب، النسخة الأبسط لكونك متيقظًا.

"العلكة أولًا يا سيد".

"أخبرني من أين جئت بهذا. أحذرك ألا تلعب دور الأحمق معي".

أمسك صمد الفتى من قميصه عند الذراع. حاول أن يتحرر دون جدوى، وبدأ أصدقاء الفتى يهربون، هاجرين بطلهم الذي كان يغوص بسرعة.

"هل قتلت رجلًا من أجل هذا؟"

كان عِرقٌ في جبين صمد يقاتل بهيام كي يهرب من جلده. وكان يتمنى أن يدافع عن بلاد لم تكن بلاده وينتقم لقتل رجال لن يعترفوا به في شارع مدني. وكان آرشي منذهلًا، إنها بلاده، وكان بطريقته الصغيرة وباردة الدم والعادية إحدى الفقرات الجوهرية في عمودها الفقري، لكنه لم يستطيع أن يشعر بأي شيء مماثل من أجلها.

"كلا يا سيد، كلا، هذا له، له".

مد يده المتحررة وأشار إلى منزل ضخم مهجور توضَّع كمثل دجاجة سمينة جالسة في سكينة في الأفق.

صاح صمد: "هل قتل أحد ما من ذلك المنزل رجالنا؟"

صاح الفتى: "ماذا تقول يا سيد؟"

"من هناك؟"

"إنه طبيب. إنه هناك. لكنه مريض، لا يستطيع التحرك. الدكتور مريض".

أكد بضعة أطفال من الذين تبقوا الاسم بإثارة، الدكتور مريض، يا سيد، الدكتور مريض.

"ما مشكلته؟"

الفتى الذي استمتع الآن بالانتباه الذي خُص به قلد مسرحيًا رجلًا يبكي.

"إنكليزي؟ مثلنا؟ ألماني؟ فرنسي؟ بلغاري؟ يوناني؟"، أفلت صمد الفتى، متعبًا من الطاقة الموظفة في غير موضعها.

قال الفتى باستخفاف: "إنه ليس أحدًا. إنه الدكتور مريض فقط. علكة؟"

مرت بضعة أيام ولم تصل نجدة. وبدأ جهد مواصلة الحرب في قرية جميلة كهذه يستحوذ على انتباه كل من آرشي وصمد، وشيئًا فشيئًا شعرا بالمزيد من الاسترخاء والدخول في نوع من الحياة المدنية. وفي مساء كل يوم كانا يتعشيان في مقهى العجوز كوزان. وكان كل صحن من الحساء الذي معظمه ماء يكلف خمس سجائر وأي نوع من السمك يكلف وسامًا برونزيًا مرتبته منخفضة. وكان آرشي يرتدي إحدى بذلات دكنسون سميث، بعد أن تآكلت بذلته، ولهذا كان لديه بعض أوسمة الرجل الميت التي احتفظ بها كي يشتري بها أشياء ظريفة وضرورية: القهوة والصابون والشوكولاتة. ومقابل بعض لحم الخنزير منح آرشي بطاقة تأتي مع علبة التبغ عليها صورة الممثلة الأميركية دوروثي لامور كان يحشرها قرب مؤخرته في جيبه الخلفي منذ أن تطوع.

"تابع يا سام، نحن جميعًا نستخدمها كرموز، مثل قسائم الغذاء، ونستطيع معاودة شرائها حين نمتلك الوسيلة".

قال صمد دافعًا صحن لحن الخنزير جانبًا: "أنا مسلم وريتا هيوارث الخاصة بي تتركني فقط مع روحي".

قال آرشي وهو يلتهم قطعتيه كمجنون: "لماذا لا تأكله؟ عمل غريب، لو سألتني".

"لا آكله للسبب نفسه الذي هو أنك كرجل إنكليزي لن ترضي امرأة أبدًا بشكل حقيقي".

قال آرشي متوقفًا عن وليمته: "ما السبب؟"

فكر للحظة: "هذا في ثقافتنا يا صديقي. ربما أعمق. ربما في عظامنا".

بعد العشاء، كانا يتظاهران بتفتيش القرية عن القتلة، مندفعين عبر البلدة مفتشين البارات الثلاثة سيئة السمعة نفسها باحثين في غرف النوم الخلفية لمنازل النساء الجميلات لكنهما توقفا عن ذلك بعد مرور بعض الوقت وصارا يجلسان بدلًا من ذلك لتدخين سيجار رخيص خارج الدبابة، مستمتعين

بالغروب القرمزي ومتحدثين عن أعمالهما السابقة كفتى يبيع الصحف (آرشي) وطالب بيولوجيا (صمد). ناقشا دون قصد أفكارًا لم يفهمها آرشي بشكل كامل، وباح صمد بأسرار في الليل البارد لم يتفوه بها أبدًا بصوت مرتفع. ومرت بينهما حالات صمت طويلة ومريحة كتلك التي تمر بين النساء اللواتي يعرفن بعضهن لسنين. ونظرا إلى النجوم التي أضاءت بلادًا مجهولة، لكن لم يتعلق أي منهما بشكل خاص بالوطن. وباختصار، كان هذا نوع الصداقة الذي يدخل فيه إنكليزي في عطلة، والذي لا يستطيع أن يعقد أواصره إلا في عطلة، صداقة تخترق الطبقة واللون، وتتخذ أساسًا لها القرب الجسدي وتتواصل لأن الرجل الإنكليزي يفترض أن القرب الجسدي لن يستمر.

*****

مر أسبوع ونصف على إصلاح اللاسلكي ولم يأتهما جواب على إشارات النجدة التي أرسلاها قافزة في أمواج الهواء بحثًا عن آذان تسمعها. وعرفت القرية أن الحرب انتهت، لكنها لم تشعر بالميل لكشف الحقيقة للزائرين اللذين برهنت مقايضتهما اليومية أنها حيوية وداعمة للاقتصاد المحلي. وفي امتدادات الزمن الفارغ استطاع آرشي أن يرفع أقسامًا من الجنزير بعمود حديدي بينما استقصى صمد المشكلة. وعبر القارات، ظنت عائلتا الرجلين أنهما قُتلا.

"هل لديك امرأة هناك في مدينة برايتون؟" سأل صمد، واضعًا رأسه بين فكي الجنزير والدبابة.

لم يكن آرشي فتى جميل المنظر. سيبدو أنيقًا لو التقطتَ صورةً ووضعتَ إبهامك على الأنف والفم، لكنه بخلاف ذلك غير لافت مطلقًا. ستنجذب الفتيات إلى عينيه الكبيرتين الحزينتين كعيني المغني سيناترا [58] الزرقاوين، لكن سيتم تجنبه بسبب أنف بينح كروسبي [59] والأنف الذي ينتهي بانتفاخ لب بصلي طبيعي لدبليو. سي. فيلد [60].

قال بعدم اكتراث: "بعض منهن؟ تعرف، هنا وهناك. وأنت؟"

"لقد تم اختيار فتاة شابة لي، الآنسة بيجوم، ابنة السيد والسيدة بيجوم. الحموان، كما يُقال. يا إلهي، هما يحتلان مرتبة عالية في البنغال بحيث أن الحاكم اللورد نفسه يجلس منتظرًا بلهفة الملا كي يأتي حاملًا له دعوة عشاء منهما!"

ضحك صمد بصوت مرتفع لكن آرشي لم يفهم أية كلمة. كان وجهه جامدًا كالعادة كوجه

لاعب بوكر.

واصل صمد، بمعنويات متدهورة قليلًا: آه، إنهم من علية القوم، من سلالة جيدة... وهناك ميزة إضافية، ثمة ميل بين نسائهم عبر العصور لامتلاك أثداء كبيرة".

قام صمد بالمحاكاة الضرورية ثم ركز انتباهه على إعادة وضع كل سن من الدولاب الحديدي في موضعه المناسب.

قال آرشي: "ماذا أيضًا؟"

"عن ماذا؟"

"هل هم...؟" كرر آرشي المحاكاة، لكن هذه المرة بالمبالغة التشريحية التي تترك النساء المُتعقَّبات في الجو غير قادرات على الوقوف بانتصاب.

قال وهو يبتسم بحزن: "آه، لكن يجب أن أنتظر بعض الوقت، لسوء الحظ، إن عائلة بيجوم ليست لديها الآن طفلة أنثى من جيلي".

"هل تقول إن زوجتك لم تولد بعد؟"

"ما المشكلة في الأمر؟" سأل صمد، ساحبًا سيجارة من جيب آرشي العلوي. حك عود الثقاب على جانب الدبابة وأشعله. مسح آرشي العرق عن وجهه بيد مدهنة.

قال آرشي: "في المكان الذي جئتُ منه ينبغي أن يعرف الرجل الفتاة قبل أن يتزوجها".

- قال صمد: "في المكان الذي جئت منه من المعتاد أن تُغْلى الخضار إلى أن تتفتت. لا يعني هذا أنها فكرة جيدة".

كان مساؤهما الأخير في القرية مظلمًا وصامتًا بشكل كامل. فقد جعل الجو الرطب والحار التدخين غير ممتع، وهكذا نقر صمد وآرشي بأصابعهما على الدرجات الحجرية الباردة لكنيسة بسبب الافتقار لعمل آخر لليد. للحظة، في الغسق، نسي آرشي الحرب التي انتهت. صارت فعلًا ماضيًا.

وبينما كانا لا يزالان محرومين من الطمأنينة أثناء ليلة عدم المعرفة الأخيرة هذه، قرر صمد أن يدعم صداقته مع آرشي. وكان هذا يتم غالبًا من خلال تمرير معلومة واحدة: هفوة جنسية ما، سر عاطفي أو هيام غامض مخبأ منع التعرف على شخص جديد متحفظ التعبير عنه. لكن بالنسبة لصمد، لا شيء كان أقرب له، أو يمتلك معنى له أكثر من نسبه. كان طبيعيًا، إذًا، حين جلسا على الأرض المقدسة، أن يدور الحديث عم ما كان مقدسًا بالنسبة له. ولم تكن هناك ذكرى للدم الذي يجري في عروقه، وللأرض التي صبغها ذلك الدم على مر القرون، أقوى من قصة والد جده. وهكذا روى صمد لآرشي قصة مانغال باندي التي عمرها 100 سنة، المهملة جدًا والمتعفنة.

قال آرشي، بعد أن رُويتْ الحكاية، ومر القمر خلف الغيوم، وكان متأثرًا بشكل ملائم: "هل كان جدك؟ جدك الحقيقي، الذي من دمك؟"

"والد جدي".

"حسنًا، هذا مهم. هل تعرف، أذكره من المدرسة، أذكر تاريخ المستعمرات، والسيد جُوجز. وكان أصلع بعينين جاحظتين، وعجوزًا غبيًا وكريهًا، أعني السيد جوجز، لا جدك. تتلقى الرسالة، على الرغم من ذلك، حتى ولو كلف الأمر ضربة مسطرة على قفا يدك... لا يزال الناس في الأفواج يدعون بعضهم بانديز، كما تعلم، إذا كان الشخص متمردًا قليلًا... لم أفكر أبدًا من أين أتى... باندي كان المتمرد، ولم يحب الإنكليز، وأطلق أول رصاصة في العصيان. أتذكّر ذلك الآن، واضحًا كجرس. وكان هذا جدك!"

"والد جدي".

قال آرشي واضعًا يديه خلف رأسه ومتكئًا إلى الخلف كي ينظر إلى النجوم:

"حسنًا، حسنًا. هذا شيء مهم. أليس كذلك؟ أن يكون لديك القليل من التاريخ في دمك. أعتقد أن هذا يحفزك. أنا من عائلة جونز، كما تعرف. إنها مثل سميث، نحن لا أحد... اعتاد أبي أن يقول: نحن نفاية يا فتى، نفاية. لا يعني هذا أنني تضايقت كثيرًا أو اكترثت. كنت فخورًا. كنا عائلة إنكليزية جيدة وشريفة. لكن لديك بطلًا في عائلتك".

انتفخ صمد بالكبرياء: "نعم يا أرشيبالد، هذه هي الكلمة بالضبط، ولهذا يقوم الأكاديميون الإنكليز التافهون بالتقليل من أهميته لأنهم لا يستطيعون تحمل أن يمنحوا هنديًا ما يستحقه. لكنه بطل ومثال احتذيتُ به في جميع الأفعال التي قمتُ بها في هذه الحرب".

قال آرشي مفكرًا: "هذا صحيح، كما تعلم. لا يتحدثون بشكل جيد عن الهنود في الوطن، وأكيد أنهم لن يحبوا الأمر إن قلت إن هنديًا كان بطلًا... سينظر الجميع إليك بسخرية".

فجأة أمسك صمد يده. كانت حارة فاعتقد آرشي أنه مصاب بالحمى. لم يمسك رجلٌ أبدًا يده، كانت غريزته الأولى هي أن يتحرك أو يضربه أو شيء ما، لكنه فكر حينئذ أن ذلك حدث لأن الهنود عاطفيون، أليس كذلك؟ كل ذلك الطعام الحار وغيره من الأشياء الأخرى.

"من فضلك، افعل من أجلي هذا المعروف الكبير يا جونز. إذا حدث وسمعت أي شخص حين تعود إلى الوطن (إذا عدت، إذا عدنا إلى أوطاننا) إذا حدث وسمعتَ أي شخص يتحدث عن الشرق"- وهنا انخفض صوته قليلًا، وهيمنت عليه نبرة حزينة - "أجِّل إطلاق حكمك. وإذا قيل لك إنهم يفعلون هذا أو ذاك أو إن آراءهم هي هذه أجِّل حكمك إلى أن تصلك الحقائق لأن تلك الأرض التي يسمونها الهند لها ألف اسم ويسكنها الملايين، وإذا اعتقدتَ أنك عثرتَ على رجلين متشابهين في ذلك الحشد فأنت إذًا مخطئ، إنها فقط خدعة في ضوء القمر".

حرر صمد يده وفتش في جيبه، غامسًا إصبعه في راسب من الغبار الأبيض الذي حفظه هناك، ثم وضعه باحتشام في فمه. اتكأ على الجدار ورسم برؤوس

أصابعه على الحجر. كانت كنيسة تبشيرية صغيرة حُوِّلت إلى مستشفى ثم هُجرت بعد شهرين حين بدأ صوت القذائف يهز عتبات النوافذ. وكان صمد وآرشي ينامان هناك بسبب الفرشات الرقيقة والنوافذ الضخمة الشاهقة. وصار صمد مهتمًا أيضًا (بسبب الوحدة، قال لنفسه، وبسبب الكآبة) بمسحوق المورفين الذي يعثر عليه في الخزائن في البناء، كان كبيضات مخبأة في مسار عيد فصح إدماني. كلما ذهب آرشي كي يبول أو كي يجرب اللاسلكي مرة أخرى تجول صمد في أنحاء الكنيسة سارقًا الخزانات كمذنب يتحرك من كرسي اعتراف إلى آخر. ثم بعد أن يعثر على زجاجة خطيئته الصغيرة يستغل الفرصة كي يفرك القليل على لثته أو يدخن قليلًا بغليونه، ثم يتكئ على أرضية الطين النضيج الباردة ناظرا إلى التقوس الرائع لقبة الكنيسة. كانت هناك كلمات خطها منذ ثلاثمائة عام منشقون رفضوا أن يدفعوا ضريبة دَفْنٍ أثناء انتشار وباء الكوليرا، سجنهم في الكنيسة إقطاعي فاسد وتركهم يموتون هناك، لكن ليس قبل أن يغطوا الجدران كلها برسائل إلى العائلة، وقصائد وأقوال تحرض على العصيان الأبدي. أحب صمد القصة كثيرًا ولم تكن تدهشه إلا حين يُحْدث المورفين تأثيره، وحينها تنتعش أعصابه، وتدفع المعلومات، كل المعلومات المحتواة في الكون وتلك التي على الجدران، سداداتها فاتحة لها وتتدفق من خلالها كما تسري الكهرباء في سلكٍ أرضي، ثم ينفتح رأسه كأريكة يجلس عليها قليلًا ويراقب عالمه يمر. والليلة شعر صمد أن تفكيره صاف كما لو أن لسانه منطلق والعالم بيضة رخامية مصقولة. وشعر بقرابة مع المنشقين الموتى، كانوا أخوة باندي، وتبين لصمد في تلك الليلة أن جميع المتمردين أخوته، وتمنى لو يستطيع التحدث معهم عن الأثر الذي تركوه في العالم. هل كان كافيًا؟ وحين جاء الموت، هل كان حقًا كافيًا؟ هل كانوا راضين بالكلمات الألف التي تركوها خلفهم؟

قال آرشي ملاحقًا عينيْ صمد وملتقطًا انعكاس قبة الكنيسة فيهما: "سأخبرك شيئًا مقابل لا شيء. لو بقي لي فقط بضع ساعات، لن أمضيها في رسم الصور على السقف".

قال صمد الذي استاء لأن تأمله الممتع قُوطِعَ: "أخْبرني، أي تحدي كبير ستقوم به في الساعات السابقة لموتك؟ هل ستحل مبرهنة فيرما [60]*؟ هل ستتقن فلسفة أرسطو؟"

قال آرشي الذي جعله افتقاره للمعرفة والتجربة مفرط الاحتشام: "ماذا؟ من؟ كلا... سوف...كما تعرف، أمارس الجنس مع امرأة، تعرف...للمرة الأخيرة تلك".

ضحك صمد: "للمرة الأولى، هذا محتمل جدًا".

"آه، تابع، أنا جدي".

"حسنًا. وإذا لم يكن هناك سيدات في الجوار؟"

احمرّ لون آرشي كصندوق البريد، وكانت هذه نسخته الخاصة عن تدعيم الصداقة: "حسنًا، تستطيع دومًا أن تمارس العادة السرية كما يقول الجنود".

كرر صمد باحتقار: "ممارسة العادة السرية... وهذا هو الأمر؟ إن آخر شيء ستتمنى فعله قبل أن تخرج من مشاكل الحياة هذه هو ممارسة العادة السرية، وتحقيق رعشة الجماع".

آرشي، الذي جاء من برايتون، حيث لم يقل أحد أبدًا كلمة مثل رعشة الجماع، بدأ يتشنج باستياء هستيري.

"ما المضحك في الأمر؟ هل هناك شيء ما مضحك؟" سأل صمد مشعلًا سيجارة بشرود رغم الحرارة، وقد قاد المورفين ذهنه إلى مكان آخر.

بدأ آرشي بارتباك: "لا أحد، لا شيء".

كان صمد يستلقي، نصفه في الردهة ونصفه خارجها، ذراعاه مرفوعتان نحو السقف: "ألا تستطيع رؤية ذلك يا جونز؟ ألا تستطيع...ماذا تقصد؟ لم يكونوا يمارسون العادة السرية مخرجين المادة البيضاء، بل كانوا يبحثون عن شيء أكثر ديمومة بقليل".

قال آرشي: "بصراحة لا أستطيع رؤية الفرق. حين تموت تموت".

همس صمد بكآبة: "آه، كلا يا أرشيبالد، كلا. ينبغي ألا تؤمن بهذا. يجب

أن تعيش الحياة عارفًا بشكل كامل أن أفعالك تبقى. نحن كائنات النتيجة، يا أرشيبالد" - قال مشيرًا إلى جدران الكنيسة - "عرفوا ذلك، وعرف والد جدي ذلك، ويومًا ما سيعرف أولادنا ذلك".

"أولادنا"، ضحك آرشي، مسرورًا فحسب. بدا احتمال النسل بعيدًا جدًا.

"سيولد أطفالنا من أفعالنا، ستصبح حوادثنا أقدارهم. آه، ستبقى الأفعال. إنها مسألة بسيطة ما الذي ستفعله حين تواجه موقفًا صعبًا جدًا يا صديقي. حين تغني السيدة البدينة [62]، وحين تطبق الجدران، وتظلم السماء، وتصرّ الأرض، في هذه اللحظة ستعرّفنا أفعالنا، ولا يهم إن كان يراقبني الله أو يسوع أو بوذا، أو لا أحد. في الأيام الباردة يستطيع المرء أن يرى نفسه، وفي اليوم الحار لا يستطيع. وفي المناسبتين، يتنفس المرء".

قال آرشي بعد وقفة: "قبل أن أغادر فليكستو رأيت حقيبة الأدوات الجديدة الموجودة الآن والمؤلفة من قسمين وتستطيع وضع أشياء في كل قسم: مفتاح براغي، مطرقة، حتى مفتاح زجاجة. إنها مفيدة جدًا في بقعة ضيقة، كما أظن. أحب امتلاك حقيبة كهذه".

نظر صمد إلى آرشي للحظة ثم هز رأسه: "هيا، لندخل. أمرضني هذا الطعام البلغاري. أحتاج إلى بعض النوم".

قال آرشي وهو يساعده على النهوض: "تبدو شاحبًا".

قال صمد وهو يضحك لنفسه: "إنه من أجل ذنوبي ومع ذلك لقد أُذنب ضدي أكثر مما أذنبت".

"ماذا قلت؟"

حمل آرشي ثقل صمد على جانب وسار إلى الداخل.

قال صمد مستخدمًا لكنة إنكليزية: "أكلتُ شيئًا ما وهو على وشك أن يختلف معي".

عرف آرشي جيدًا أن صمد سرقَ المورفين من الخزانات لكنه استشفَّ أن صمد لا يُريده أن يعرف، وهكذا قال فحسب: "لنضعك في السرير"، ثم أخذ

صمد إلى الفرشة.

قال صمد مندفعًا نحو فرشته: "حين ينتهي كل هذا، سنلتقي ثانية في إنكلترة، اتفقنا؟"

"نعم"، قال آرشي محاولًا أن يتخيل نزهة على رصيف مرفأ برايتون مع صمد.

"لأنك رجل إنكليزي نادر أيها الجندي جونز، أعتبرك صديقًا لي".

لم يكن آرشي متأكدًا ماذا كان يعتبر صمد، لكنه ابتسم بلطف مبديًا المودة.

"ستتناول العشاء معي ومع زوجتي في عام 1975، حين نكون كبيرين بكرشين كبيرين ونحن نجلس على جبال أموالنا. سنلتقي في مكان ما".

آرشي، المشكك بالطعام الأجنبي، ابتسم بضعف.

"سنعرف بعضنا من خلال حياتينا".

وضع آرشي صمد على فرشته وأحضر لنفسه فرشة وناور واضعًا نفسه في وضعية النوم.

"تصبح على خير أيها الصديق"، قال صمد وثمة رضا صرف في صوته.

*****

في الصباح، وصل السيرك إلى البلدة. صمد، الذي أيقظه الصياح والضجيج صارع كي يرتدي بذلته ولف إحدى يديه على بندقيته. خرج إلى الفناء الذي غمرته الشمس فشاهدَ جنودًا روسًا في بذلاتهم البنية يقفزون فوق بعضهم كالضفادع، ويطلقون النار على علب صفيح يضعونها على رؤوس بعضهم ويقذفون السكاكين على حبات بطاطا مشكولة بعيدان، ولكل حبة بطاطا شارب أسود من الأغصان. بكل إعياء الكشف، انهار صمد على الدرجات الأمامية، تنهد وأراح يديه على ركبتيه، وجهه مدار إلى الأعلى نحو الحرارة. بعد لحظة خرج آرشي، بنطلونه لا يزال منخفضًا ويلوح ببندقيته، باحثًا عن العدو، وأطلق طلقة ذعر في الجو. تواصل السيرك، دون أن يلاحظ. شد صمد بتعب آرشي من بنطلونه وأومأ له

أن يجلس.

سأل آرشي بعينين دامعتين: "ما الذي يحدث؟"

"لا شيء. لا شيء يحدث مطلقًا. في الحقيقة، انتهى الأمر".

"لكن يمكن أن يكون هؤلاء هم الرجال الذين..."

"انظر إلى البطاطا يا جونز".

نظر آرشي بوحشية حوله: "ما علاقة البطاطا بالأمر؟"

"إنها بطاطا على شكل هتلر يا صديقي. إنهم مستبدون من الخضار. طغاة سابقون" - سحب العود. -"أترى الشارب الصغير؟ انتهى يا جونز. أحد ما أنهى لنا الأمر".

أمسك آرشي حبة البطاطا في يده.

"لقد فاتتنا الحرب الدموية كما لو أنها حافلة لم نلحق بها، يا جونز.."

صاح آرشي بروسيٍّ طويل وضامر يسدد إلى حبة بطاطا تجسد هتلر: "هل تتحدث الإنكليزية؟ منذ متى انتهت؟"

ضحك بتشكيك: "منذ أسبوعين، يا رفيق! يجب أن تذهب إلى اليابان إذا أردت المزيد!"

"كمثل حافلة"، ردد صمد، هازًا رأسه. تولّد فيه غضب عارم، وسدت الصفراء حنجرته. كان يجب أن تكون هذه الحرب فرصته، وتوقّع أن يعود إلى الوطن مكللًا بالمجد، ثم يعود إلى دلهي منتصرًا. متى ستسنح له فرصة ثانية؟ لن تحدث حروب كهذه، وكان الجميع يعرفون هذا. تساءل الجندي الذي تحدث مع آرشي، وكان يرتدي البذلة الصيفية للروس: القماش الرقيق، والياقة العالية، والقبعة كبيرة الحجم والعريضة. وكان يرتدي حزامًا حول خصر متين عكس إبزيمه ضوء الشمس وأطلق شعاعًا في وجه آرشي. وحين مر الوهج ركّز آرشي على وجه كبير منفتح فيه حول في العين اليسرى وله رأس من الشعر الرملي يتبعثر في عدة اتجاهات. كان مظهره مرحًا في صباح متألق، وحين تحدث الإنكليزية جاءت لكنته أميركية فصيحة تضرب أذنيك كالموج.

"انتهت الحرب منذ أسبوعين ولا تعرفان؟"

"لم يكن جهازنا اللاسلكي..."، تخلت جملة آرشي عن نفسها.

ابتسم الجندي ابتسامة عريضة وصافح يد كل منهما بقوة: "أهلًا بكما في زمن السلم يا سيدان! كنا نظن أن الروس أمة غير مطلعة جيدًا على المعلومات!" ضحك ضحكته الكبيرة ثانية موجهًا سؤاله إلى صمد: "والآن، أين بقيتكم؟"

"لا يوجد بقية لنا يا رفيق. بقية الرجال في دبابتنا قُتلوا ولا يوجد إشارة من كتيبتنا".

"أنتما لستما هنا من أجل أي هدف؟"

"كلا"، قال آرشي، فجأة شاعرًا بالخجل.

قال صمد شاعرًا بألم في معدته: "هدف، يا رفيق؟ لقد انتهت الحرب وهكذا نجد أنفسنا هنا تمامًا دون هدف" - ابتسم بتجهم وصافح الروسي بيده السليمة - "أنا داخل. الشمس قوية" - قال مغمضًا عينيه - "تؤذي عيني الصغيرتين. سعيد بمقابلتك".

"نعم، بالفعل"، قال الروسي، ملاحقًا صمد بعينيه إلى أن اختفى في خبايا الكنيسة. ثم حول انتباهه إلى آرشي.

"شخص غريب".

قال آرشي: "لماذا أنت هنا؟ سأل، متناولًا سيجارة ملفوفة باليد قدمها له الروسي. تبين أن الروسي والرجال السبعة الذين معه في طريقهم إلى بولونيا كي يحرروا معسكرات العمل التي يسمع عنها المرء أحيانًا بنبرة منخفضة جدًا. وتوقفوا هنا، إلى الغرب من توكات، كي يقبضوا على نازي.

قال آرشي بلطف: "لا يوجد أحد هنا يا صديقي، لا أحد إلا أنا والهندي وبعض الأشخاص والأطفال من القرية. وكل ما تبقى ماتوا أو هربوا".

"ماتوا أو هربوا... ماتوا أو هربوا. كلا، حسنًا، كنت سأفكر بالطريقة نفسها، لكن لدينا معلومات موثوقة من استخباراتكم السرية بأن ضابطًا عالي الرتبة يختبئ في المنزل الذي هناك". أشار إلى المنزل في الأفق.

قال آرشي على سبيل المزاح: "الطبيب؟ أخبرنا بعض الفتيان عنه، أعني أنه سيتبرز في سرواله من الخوف إذا عرف أنتم تلاحقونه، لكن أنا واثق إنه رجل مريض فحسب، لقد دعوه الدكتور مريض. ليس إنكليزيًا، أليس كذلك؟ خائن أو شخص ما؟"

"كلا، كلا، كلا، إنه الدكتور مارك-بيير بيريه، وهو شاب فرنسي عبقري ومتألق جدًا عمل في منشأة علمية للنازيين قبل بداية الحرب، في برنامج التعقيم، وفيما بعد في سياسة القتل الرحيم. مسائل ألمانية داخلية. كان أحد المخلصين جدًا".

قال آرشي راغبًا أن يعرف ما عناه كل هذا: "هه! ما الذي ستفعلونه؟"

"سنقبض عليه ونأخذه إلى بولونيا حيث ستتعامل معه السلطات".

قال آرشي، وكان لا يزال متأثرًا لكنه في الحقيقة لم يكن منتبهًا: "السلطات، ماذا تقول؟"

كان نطاق انتباه آرشي دومًا محدودًا، وقد حرفت انتباهه طريقة الروسي الغريبة في النظر في اتجاهين في الوقت نفسه.

"بما أننا تلقينا المعلومات من استخباراتكم السرية وبما أنك الضابط الأعلى رتبة هنا النقيب... النقيب..."

عين زجاجية. كانت عينًا زجاجية بعضلة خلفها لا تعمل.

"أخشى أنني لا أعرف اسمك أو رتبتك"، قال الروسي، ناظرًا إلى آرشي بالعين الوحيدة وإلى بعض اللبلاب الذي يتسلق باب الكنيسة بالعين الأخرى.

"من؟ أنا؟ جونز"، قال آرشي تابعًا ممر العين الدائر: الشجرة، البطاطا، آرشي، البطاطا.

"حسنا يا نقيب جونز، يشرفني إذا قدت الحملة عبر التل".

"نقيب- ماذا؟ ماذا قلت؟ كلا، لقد فهمت الأمر خطأ"، قال آرشي، هاربًا من القوة المغناطيسية للعين، ومعيدًا التركيز على نفسه، لابسًا بذلة دكنسون سميث اللامعة والمزرّرة.

"أنا لست..."

جاء صوت من خلفه: "يسرني أنا والملازم أن نتولى المسؤولية، حان الوقت كي ننخرط في قلب المسألة".

خرج صمد إلى الدرجات الأمامية بصمت كظل في بذلة أخرى من بذلات دكنسون سميث وبسيجارة متدلية بشكل عرضي من شفته السفلى كجملة محكمة وعميقة. كان دومًا فتى جميل المظهر، ويرتدي الأزرار اللامعة للسلطة. كان هذا فقط بارزًا، وفي ضوء النهار الحاد، وهو مؤطر عند باب الكنيسة، بدا شكله رائعًا.

قال صمد بالإيقاع الأنجلو-هندي الأكثر إبهاجًا: "ما عناه صديقي هو أنه ليس النقيب. النقيب صمد إقبال".

"الرفيق نيوكلاي - نيك- بيسوتسكي".

ضحك صمد والروسي معًا بصدق، تصافحا ثانية. أشعل صمد سيجارة.

"إنه ملازمي. أرشيبالد جونز. أعتذر إذا كان تصرفي غريبًا من قبل، لقد ضايقني الطعام. لننطلق هذا المساء، بعد أن يخيم الليل، ما رأيك يا ملازم؟"، قال صمد ناظرًا إلى آرشي بتوتر خاص مشفّر.

"نعم"، نطقها آرشي.

حك صمد عود كبريت بالجدار وأشعله ثم أشعل سيجارته وقال: "بالمناسبة يا رفيق، آمل ألا تتضايق من سؤالي: هل هذه عين زجاجية؟ إنها تبدو حقيقية تمامًا".

"نعم، اشتريتها في سان بطرسبرغ. لقد فقدت عيني في برلين، إنه شبه لا يُصدق، ألا تظن ذلك؟

أخرج الروسي الودود العين من محجرها ووضع اللؤلؤة اللزجة في راحة كفه كي يراها صمد وآرشي. حين بدأت الحرب، اعتقد آرشي أن جميع الفتيان يحتشدون حول بطاقة علبة سجائر كي ينظروا إلى ساقيْ الممثلة جرابل في الصورة، الآن انتهت الحرب والجميع يحتشدون حول عين مسكين ابن حرام. يا للعجب!

للحظة انزلقت العين إلى أعلى وأسفل كل طرف من يد الروسي، ثم توقفت في مركز خط حياته الطويل والمدهن ونظرتْ إلى الأعلى إلى الملازم آرشي والنقيب صمد بتحديقة لا ترمش.

*****

في ذلك المساء تذوّق الملازم جونز للمرة الأولى طعم الحرب الحقيقية. انطلق آرشي والروس الثمانية وجوزان، مالك المقهى، وابن أخيه بقيادة صمد في سيارتيْ جيب عسكريتين في مهمة إلى أعلى الهضبة للقبض على النازي. وكان الجنود الروس يتجرعون زجاجات السامبوكا إلى درجة أنه لم يذكر أي منهم السطور الأولى من نشيدهم الوطني، بينما باع جوزان قطع الدجاج المشوي للذي يدفع ثمنًا أعلى، ووقف صمد في قمة الجيب الأولى عاليًا كطائرة ورقية مغطى بالغبار الأبيض، ذراعاه تلوحان وتقطّعان الليل إلى نتف وشرائح، مصدرًا بصوت مرتفع تعليمات وكانت كتيبته ثملة جدًا بحيث لم تصغ إليه ولم يكن هو قادرًا على الاستيعاب.

جلس آرشي في مؤخرة الجيب الثانية هادئًا ورزينًا وخائفًا ومحترمًا لصديقه. لم يكن لآرشي بطل أبدًا: كان في الخامسة حين خرج والده كي يشتري علبة تبغ ولم يعد، مكررًا القصة المشهورة ذاتها، وبما أنه لم يكن قارئًا فإن الكتب الكثيرة المؤلفة كي تقدم للشبان أبطالًا بلهاء لم تأت إليه أبدًا: لم يعرف أبطالًا ولا قراصنة بعين واحدة، أو أنذالًا لا يخافون. لكنّ صمد، وهو يقف هناك بأزرار الضابط المتوهجة التي تلمع في ضوء القمر كقطع نقدية يرميها المرء في بئر ويتمنى أمنيات، وجّه لآرشي الذي في سن السابعة عشرة بشكل مباشر لكمة على الفك قالت: هناك رجل لا يوجد ممر في الحياة منحدر جدًا بالنسبة له، وهناك مجنون مجدف يقف في دبابة، وهناك صديق، بطل، في شكل لم يتوقعه آرشي أبدًا. وبعد أن قطعوا ثلاثة أرباع المسافة ضاق الطريق الخاص الذي كانت تسلكه سيارتا الجيب بشكل مفاجئ، مما أجبر السيارة على أن تتوقف فجأة وترمي النقيب البطل في شقلبة إلى الخلف فوق الجيب ومؤخرته في الجو.

قال ابن أخ جوزان، وهو يقضم عظم فروج، بهدوء فلسفي: "لم يأت أحد إلى هنا منذ وقت طويل جدًا، هذا..."- نظر إلى صمد الذي نزل إلى جواره وأشار إلى سيارة الجيب لتي جلسا فيها - "لا يمكن".

وهكذا جمع صمد كتيبته الجديدة المشلولة حوله وبدأ الجميع المسير إلى أعلى الجبل بحثًا عن حرب يستطيع في أحد الأيام أن يروي لحفيده عنها كما رُويت له مآثر والد جده. عرقلت تقدمهم كتل ترابية ضخمة سقطت من أجزاء من الهضبة بسبب اهتزازات القنابل السابقة وتوضعت في فواصل على طول الممر وبانت من كثير منها جذور أشجار ضعيفة ذبلت في الجو، ومن أجل المرور كان من الضروري بالنسبة لهم أن يقطعوها بحراب البواريد الروسية.

قال ابن أخ جوزان، وهو يندفع ثملًا عبر مجموعة من الجذور: "تبدو كالجحيم!، إن كل شيء يبدو كالجحيم".

قال جوزان الذي رشاه صمد ببوطين كي يغلق فمه حيال الترفيع المفاجئ لرتبة صديقيه: "المعذرة إنه يعبر عن مشاعره بقوة لأنه شاب. لكنها الحقيقة، لم تكن هذه حجتنا، يا ملازم جونز. ما الذي يجب أن نفعله بكل هذا؟" مسح دمعة، نصف ثمل، ونصف مغلوب بالعاطفة. "ما علاقتنا بالأمر؟ نحن المسالمين لا نريد أن نكون في الحرب! كانت هذه الهضبة جميلة في ما مضى! كان فيها أزهار وطيور تغرد، أتفهمون؟ نحن من الشرق. ما علاقة معارك الغرب بنا؟"

التفت آرشي إلى صمد غريزيًا، متوقعًا أحد خطاباته، لكن حتى قبل أن ينتهي جوزان، أسرع صمد فجأة وفي لحظة بدأ يركض مندفعًا أمام الروس الثملين الذين كانوا يتمايلون بحرابهم. كان سريعًا بحيث غاب في الحال عن البصر منعطفًا في زاوية غير مرئية ومختفيًا في الليل الذي ابتلعه. انفعل آرشي لبضع دقائق لكنه أفلت من قبضة ابن أخ جوزان التي لا ترحم (كان على وشك أن يروي حكاية عن عاهرة كوبية التقى بها في أمستردام) وبدأ الركض إلى حيث شاهد لآخر مرة التماع زر فضي، ودخل في منعطف آخر من المنعطفات الحادة التي يسلكها الممر الجبلي متى أحب.

"نقيب إك - بول، انتظر، نقيب إقبال".

ركض، مكررًا العبارة، ملوحًا بمشعله الذي لم يفعل شيئًا سوى إضاءة الأشجار المتشابكة في تجسيمات غريبة بشكل متزايد: هنا رجل، هناك امرأة على ركبتيها، هنا ثلاثة كلاب تعوي على القمر.. أمضى بعض الوقت هكذا، متعثرًا في الظلام.

"أشعل ضوءك يا نقيب إقبال، نقيب إقبال".

لا جواب.

"نقيب إك-بول".

قال له صوت قريب على يمينه: "لماذا تناديني هكذا، حين تعرف أنني لست هكذا؟"

"إك-بول؟" وحين سأل السؤال وقع ضوء آرشي عليه، جالسًا على صخرة، رأسه بين يديه.

"لماذا، أعني، لست في الحقيقة مجنونًا، أنت تعرف، أفترض أنك تعرف أنني في الحقيقة جندي في جيش جلالته؟"

"بالطبع. علينا أن نحافظ على الأمر، أليس كذلك؟ على غطائنا".

"غطاؤنا. يجب أن نحافظ عليه، بالرغم من ذلك. أليس كذلك؟ غطاؤنا".

"غطاؤنا؟ يا فتى". ابتسم صمد بطريقة فاجأت آرشي بأنها شريرة، وحين رفع رأسه كانت كلتا عينيه محمرتين وعلى شفا الإدماع. "ما الذي تفعله؟ هل تتصرف بسخافة؟"

"كلا، أنا... هل أنت على ما يرام يا سام؟ لا تبدو طبيعيًا".

كان صمد واعيًا قليلًا أنه لم يكن طبيعيًا. باكرًا في ذلك المساء وضع خطًا صغيرًا من المادة البيضاء داخل كل جفن من جفنيه وشحذ المورفين ذهنه كحد السكين وشقه فاتحًا له. ودخل في حالة عليا فاتنة وكاشفة لكن الأفكار التي عُبر عنها آنذاك تُركت كي تذوي في بركة من الكحول ودفعت صمد إلى قناة من الشر والأذى. لقد شاهد انعكاسه هذا المساء، وكان دميمًا. رأى أين كان: في حفلة وداع

لنهاية أوربا، وتاق للشرق. ونظر إلى يده المعطلة بزوائدها الخمس التي لا فائدة منها، وإلى جلده المحترق والذي صار بلون الشوكولاتة من الشمس، ورأى داخل دماغه الذي صار غبيًا من محادثة غبية، والدافع البليد للموت، وتاق للرجل الذي كانه مرة، واسع الاطلاع والأنيق، صمد مياه ذي البشرة الفاتحة، الغالي الذي كانت أمه تبقيه في الداخل كي تحميه من أشعة الشمس، وأرسلته إلى أفضل المدرّسين وكانت تدهنه بزيت الكتان مرتين في اليوم.

"سام؟ سام؟ لا تبدو على ما يرام، يا صمد. من فضلك، سيصلون إلى هنا بعد دقيقة... سام؟"

إن كراهية الذات تجعل الإنسان ينقلب ضد أول شخص يراه. وما ضايق صمد على نحو خاص هو أن هذا الشخص هو آرشي الذي نظر إليه باهتمام، وبمزيج من الخوف والغضب اللذين تداخلا في ذلك الوجه الذي لا شكل له والذي لم يكن جاهزًا كي يعبر عن العاطفة.

صاح بصوت لم يعرفه آرشي: "لا تناديني سام، لست أحد أصدقائك الإنكليز. اسمي هو صمد مياه إقبال. ليس سام ولا سامي، ولا صامويل لا سمح الله. إن اسمي هو صمد".

بدا آرشي مكتئبًا.

قال صمد، وقد صار فجأة شبه رسمي وراغبًا بأن يتجنب المشهد العاطفي: "حسنًا، على أي حال أنا سعيد أنك هنا لأنني أردتُ أن أخبرك أنني ثمل يا ملازم جونز، أنا كما تقول غير طبيعي. أنا ثمل جدًا".

وقف على قدميه، لكنه تعثر وعاد إلى صخرته مرة أخرى.

قال آرشي مهسهسًا بين أسنانه: "انهض. ما المشكلة معك؟"

"هذا صحيح. أنا ثمل جدًا لكنني كنت أفكر"، قال صمد، حاملًا مسدسه بيده السليمة.

"ضع هذا جانبًا".

"كنت أفكر بأنني ملعون، يا ملازم جونز. لا أرى أي مستقبل. أدرك أن هذا

يمكن أن يفاجئك (شفتى العليا، أخشى أنه ليس فيها التصلب المطلوب) لكن الحقيقة تبقى. أرى فقط..."

"ضع هذه جانبًا".

"لا أرى إلا السواد. أنا مشلول يا جونز"- قام المسدس برقصة مرحة في يده السليمة وهو يؤرجح نفسه من جانب إلى آخر - "وإيماني مشلول، هل تفهم؟ أنا غير مناسب لأي شيء الآن، حتى الله، كلّي القدرة في رحمته. ما الذي سأفعله، حين تنتهي هذه الحرب، هذه الحرب التي انتهت، ما الذي سأفعله؟ أعود إلى البنغال؟ أو إلى دلهي؟ من سيستقبل رجلًا إنكليزيًا كهذا هناك؟ يعدوننا بالاستقلال مقابل الرجال الذين كنا لكنها صفقة شيطانية. ما الذي يجب أن أفعله؟ أبقى هنا؟ أذهب إلى مكان آخر؟ أي مختبر يحتاج إلى رجل بيد واحدة؟ ما الذي أنا مناسب له؟"

"انظر، يا سام... أنت تستخف بنفسك؟"

سأل صمد، واقفًا، داس على حجر وتراجع إلى الخلف مصطدمًا بآرشي: "حقًا؟ وهل سيكون الأمر هكذا يا صديق؟ في بعد ظهر أحد الأيام رقيتك من جندي كسول إلى ملازم في الجيش البريطاني وهكذا تشكرني؟ أين أنت حين أحتاجك؟ جوزان!" - صاح بصاحب المقهى السمين الذي كان يصارع عند المنعطف في المؤخرة متعرقًا بغزارة - "جوزان، زميلي المسلم، بحق الله، هل هذا صحيح؟"

قال آرشي: "اخرس. هل تريد أن يسمعك الجميع؟ ضع هذا جانبًا".

رفع صمد ذراعه في الظلمة ولفه على عنق آرشي وهكذا صار المسدس ورأساهما مضغوطين معًا في عناق جماعي كريه.

"بماذا أنفع أنا يا جونز؟ إذا كنت سأضغط على هذا الزناد، ما الذي سأتركه خلفي؟ هنديًا، هنديًا إنكليزيًا مرتدًا برسغ ضعيف كلوطي وبدون أوسمة يمكن أن يشحنها معه إلى الوطن". أفلت آرشي وأمسك ياقته بدلًا من ذلك.

قال آرشي بعد أن أخرج ثلاثة أوسمة من حزامه ورماها عليه. خذ بعض

هذه: "كرمى لله، لدي أحمال منها".

"وماذا عن تلك المسألة الصغيرة؟ ألا تدرك أننا فارون؟ وفي الحقيقة هاربون؟ تمهَّل قليلًا يا صديقي وانظر إلينا. قُتل نقيبنا ونحن نرتدي بذلاته، ونقود الضباط، رجالًا أعلى منا في الرتبة، وكيف؟ بالخداع. ألا يجعل منا هذا فارين من العدالة؟"

"انتهت الحرب! أعني، بذلنا جهدًا كي نتصل بالبقية".

"هل فعلنا؟ يا آرشي يا صديقي، هل فعلنا؟ حقًا؟ أم جلسنا على مؤخرتينا، مختبئين في كنيسة بينما العالم يتداعى حولنا والرجال يموتون في الميادين؟"

تعاركا قليلًا حين حاول آرشي أن يأخذ المسدس منه وهاجمه صمد بقوة. وفي المسافة استطاع آرشي أن يشاهد بقية طاقمهم ذا الألوان المتنافرة ينعطف ككتلة رمادية كبيرة في ضوء الغسق تندفع من جانب إلى آخر، منشدة "ليديا، السيدة ذات الوشوم".

قال آرشي مفلتًا له: "انظر، أخفض صوتك. واهدأ".

"نحن محتالان، مرتدان في لباس أشخاص آخرين. هل قمنا بواجبنا، يا أرشيبالد؟ هل فعلنا؟ بكل صدق؟ لقد جررتك معي يا آرشي وأنا آسف على هذا. في الحقيقة هذا هو مصيري. كان هذا مكتوبًا لي منذ وقت طويل".

آه ليديا آه ليديا آه هل التقيت بليديا السيدة ذات الوشوم.

وضع صمد المسدس وهو شارد الذهن في فمه وحرّر الزناد.

قال آرشي: "إقبال أصْغ إليّ. حين كنا في تلك الدبابة مع النقيب ومع روي والبقية...".

آه ليديا ملكة الوشوم! على ظهرها تجري معركة واترلو...

"كنت دائمًا تتحدث عن كونك بطلًا وكل هذا، كمثل عم والدك، ماذا كان اسمه".

قربها حطام هسبيروس أيضًا...

أخرج صمد المسدس من فمه.

قال: "باندي، والد جدي". ثم وضع المسدس في فمه.

"وهذا هو الأمر، سنحت فرصة، وهي تحدق بك في الوجه. لا تريد أن تفوّت الحافلة ولن نفعل، ليس إذا فعلنا هذا بشكل ملائم. وهكذا لا تكن لعينًا وسخيفًا حيال الأمر".

وبفخر فوق الموج الأحمر والأبيض والأزرق.

"تستطيع تعلم الكثير من ليديا!"

"يا رفيق! ماذا باسم الله".

دون أن يلاحظا، ظهر الروسي الودود خلفهما وكان ينظر برعب إلى صمد الذي يضع مسدسه في فمه كمصاصة.

"كنت أنظفه"، قال صمد متلعثمًا، مضطربًا بشكل واضح، وأخرج المسدس من فمه.

شرح آرشي: "هكذا يفعلون في البنغال".

إن الحرب التي توقَّعَ الرجالُ الاثنا عشر العثور عليها في المنزل القديم الكبير على الهضبة، الحرب التي أرادها صمد مُخَلَّلة في إناء كي يسلّمها لأحفاده كذكرى من شبابه، لم تكن هناك. كان الدكتور مريض يشبه اسمه، يجلس على كرسي بذراعين أمام نار خشب يحترق منحنيًا ولافًا نفسه ببطانية. كان شاحبًا وفي غاية النحول ولا يرتدي بذلة بل قميصًا أبيض مفتوح العنق وبنطلونًا أسود اللون. وكان شابًا أيضًا لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، ولم يرتجف أو يقُم بأي احتجاج حين دخل الجميع والمسدسات ملقّمة. بدا الأمر كما لو أنهم دخلوا إلى منزل مزرعة فرنسي قائمين بالخطوة الخاطئة بالقدوم دون دعوة ومحضرين المسدسات إلى طاولة العشاء. وكانت الغرفة مضاءة بشكل كامل بمصابيح الغاز في علبها الصغيرة المصاغة على شكل امرأة، والضوء يرقص على الجدران مضيئًا مجموعة من ثماني لوحات رُسم فيها مشهد متواصل للريف البلغاري. وفي اللوحة الخامسة تعرّف صمد على كنيسته، وكانت صورة رملية الطلاء في الأفق. وكانت اللوحات موضوعة على مسافات متباعدة وتتوزع في الغرفة في شكل بانورامي،

دون إطار في محاولة مقززة كي تتبنى الأسلوب الحديث، وكانت هناك لوحة تاسعة قريبة جدًا من موقد موضوعة على مسند، ولا تزال رطبة. تم تسديد 12 مسدسًا إلى الرسام. وحين التفت الفنان الدكتور كي يواجههم، كان هناك ما بدا كدموع مصطبغة بالدم تتساقط على وجهه.

خطا صمد إلى الأمام. كان وقد وضع مسدسًا في فمه وقد منحه هذا شجاعة. تناول كمية كبيرة من المورفين، سقط في الفجوة التي يصنعها المورفين، وبقي على قيد الحياة. وفكر صمد حين اقترب من الدكتور: "لستَ أبدًا أكثر قوة إلا حين تنزل على الجانب الآخر من اليأس".

"هل أنت الدكتور بيريه؟" سأله، جاعلًا الرجل الفرنسي يجفل من اللفظ الذي أُضْفي عليه اللون الأنلجوساكسوني، مرسلًا المزيد من الدموع الدموية على خديه. أبقى صمد مسدسه موجهًا إليه.

"نعم أنا هو".

"ما هذا؟ الذي في عينيك؟" سأله صمد.

"أنا مصاب باعتلال الشبكية السكري يا سيد".

"ماذا؟" سأله صمد، وهو لا يزال يسدد المسدس، مصممًا ألا يقوض لحظة المجد هذه بجدل طبي غير بطولي.

"هذا يعني أنه حين أتناول الأنسولين أفرز الدم، يا صديقي. من خلال عيني، وهذه هوايتي" - أشار إلى اللوحات التي تحيط به - "ليس صعبًا جدًا. سيكون هناك عشر منها، منظر بزاوية 180 درجة. لكن يبدو أنكم أتيتم لإزعاجي" - تنهد ووقف- "هل ستقتلونني يا صديقي؟"

"أنا لست صديقك".

نظر إلى بذلة صمد وقال: "كلا، لا أفترض أنك صديقي. لكن هل تنوون قتلي؟ اعذرني إذا قلت إنك لا تبدو كبيرًا بما يكفي كي تسحق ذبابة، يا إلهي، أنت صغير جدًا كي تتقدم هكذا في الحياة، يا نقيب". غير صمد مكانه بشكل غير مريح، ملتقطًا نظرة الذعر على وجه آرشي في زاوية رؤيته. وضع صمد قدميه

بشكل منفرج أكثر ووقف بثبات.

"أنا آسف إن بدوت متُعِبًا حيال هذه النقطة... لكن هل تنوي إذًا قتلي؟"

بقي ذراع صمد هادئًا بشكل تام ومسدسه دون حراك. كان بوسعه قتله بدم بارد. ولم يحتج صمد إلى غطاء الظلمة أو عذر الحرب. كان بوسعه قتله وكلاهما عرف ذلك. الروسي، مشاهدًا النظرة في عين صمد، خطا إلى الأمام: "اعذرني يا نقيب".

بقي صمد صامتًا، مواجهًا الطبيب، وهكذا خطا الروسي إلى الأمام.

قال الروسي مخاطبًا الدكتور مريض: "ليست لدينا نية لهذه المسألة. لدينا أوامر بأخذك إلى بولونيا".

"وهل سيتم قتلي هناك؟"

"هذا ما ستقرره السلطات المختصة".

أمال الدكتور رأسه في زاوية وضيّق عينيه: "إنه فقط... شيء ما يحب الرجل أن يُقال له. من اللباقة على الأقل أن يقال له إن كان سيموت أو يُعفى عنه".

كرر الروسي: "هذا ما ستقرره السلطات المختصة".

سار صمد خلف الدكتور ووضع المسدس في قفا رأسه. "امش"، قال له.

"ستقرّر السلطات المختصة... أليس هذا وقت السلام أيها المتحضرون؟" قال الدكتور مريض، بينما كان الرجال الاثنا عشر الذين يسددون المسدسات إليه يقودونه خارج المنزل.

*****

فيما بعد في تلك الليلة، في سفح الهضبة، ترك أفراد المجموعة الدكتور مريض مصفّد اليدين في الجيب وذهبوا إلى المقهى.

"هل تلعبان البوكر؟" سأل نيكولاي المرح جدًا، مخاطبًا صمد وآرشي وهما يدخلان الغرفة.

قال آرشي: "أنا ألعب أي شيء".

"المسألة الأهم هي: هل ألعب جيدًا؟" قال صمد محتلًا مقعده بابتسامة ساخرة.

"وهل تلعب جيدًا، يا نقيب إقبال؟"

"كمثل معلم"، قال صمد، ملتقطًا الورق الذي فُتَّ له وفرده في يد واحدة.

قال نيكولاي ساكبًا بعض الساميوكا للجميع: "حسنًا، بما أن صديقنا إقبال واثق هكذا من الأفضل أن نبدأ نسبيًا بشيء صغير. سنبدأ بالسجائر ولنر إلى أين سيقودنا هذا".

قادتهم السجائر إلى الأوسمة، التي قادتهم إلى المسدسات، والتي قادتهم إلى أجهزة اللاسلكي، والتي قادتهم إلى سيارات الجيب. وبحلول منتصف الليل ربح صمد ثلاث سيارات جيب وسبعة مسدسات و14 ميدالية والأرض الملحقة بمنزل أخت جوزان وسند دين بأربعة أحصنة، وثلاث دجاجات وبطة.

قال نيكولاي بيسوتسكي، والذي صار قلقًا بعد أن كان وديًا وصريحًا: "صديقي، يجب أن تمنحنا فرصة كي نعيد ممتلكاتنا. لا نستطيع ترك الأمور كما هي".

"أريد الدكتور"، قال صمد، رافضًا أن يتبادل النظر مع عيني أرشيبالد جونز، الذي جلس فاغر الفم وثملًا على كرسيه.

"مقابل الأشياء التي ربحتها".

قال نيكولاي، مندهشًا، متكئًا إلى الخلف على كرسيه: "مقابل ماذا؟ ما الاستخدام الممكن ..."

"لي أسبابي الخاصة. أتمنى أن آخذه اليوم ولا يلاحقني أحد، وأن لا يتم الإبلاغ عن الحادثة".

نظر نيكولاي بيسوتسكي إلى يديه، نظر حول الطاولة، ثم إلى يديه مرة أخرى. ثم مد يديه إلى جيبه ورمى المفاتيح لصمد.

حالما صارا في الخارج، ركب صمد وآرشي الجيب التي فيها الدكتور مريض الذي كان نائمًا على لوحة القيادة، أدارا المحرك وانطلقا في الظلمة.

على بعد ثلاثين ميلًا من القرية، استيقظ الدكتور مريض على جدل بصوت منخفض بخصوص مستقبله الوشيك.

"لكن لماذا؟"، قال آرشي.

"لأن المشكلة، من وجهة نظري، هي أننا بحاجة إلى دم على أيدينا ككفارة. ألا ترى يا جونز؟ كنا نقوم بتصرف سخيف في هذه الحرب، أنت وأنا. ثمة شر كبير فشلنا في قتاله والآن تأخر الوقت كثيرًا باستثناء أنه لدينا هذه الفرصة. دعني أسألك: لماذا خيضت هذه الحرب؟"

"لا تتفوه بالهراء"، هدد آرشي، بدلًا من أن يجيب.

"كي نكون أحرارًا في المستقبل. وكان السؤال دومًا: أي نوع من العالم تريد لأولادك أن يكبروا فيه؟ ولم نفعل أي شيء، نحن على مفترق طرق أخلاقي".

قال آرشي وهو يتقدم إلى الدكتور مريض شبه الواعي: "انظر، لا أعرف إلى ماذا تهدف ولا أريد أن أعرف، سنقوم برمي هذا الشخص في أول ثكنة نعثر عليها، ثم نفترق أنا وأنت وهذا هو مفترق الطريق الوحيد الذي يهمني".

واصل صمد الحديث وهما يسرعان عبر أميال وأميال من الأراضي المنبسطة: "ما أدركته هو أن الأجيال تتحدث مع بعضها بعضًا يا جونز. إن الحياة ليست خطًا، وليست هذه قراءة لراحة الكف، إنها دائرة، ويتحدثون معنا. لهذا لا تستطيع أن تقرأ المصير، يجب أن تجربه". استطاع صمد أن يشعر أن المورفين يحضر المعلومات إليه ثانية، كل المعلومات في الكون وكل المعلومات التي على الجدران، في وحي واحد رائع.

أمسك صمد بالدكتور من قفا شعره وحنى رقبته فوق المقعد الخلفي: "هل تعرف من هذا الرجل يا جونز؟ أخبرني الروس أنه عالِمٌ، مثلي، لكن ما علمه؟ يختار من يجب أن يولد ومن يجب ألا يولد، يولّد الناس كأنهم دجاجات كثيرة، ويقضي عليهم إذا لم تكن المواصفات صحيحة. يريد أن يسيطر، وأن يُملي المستقبل. يبتغي سلالة من الرجال، سلالة من الرجال غير القابلين للتدمير، يعيشون الأيام الأخيرة على هذه الأرض. لكن هذا لا يمكن إنجازه في مخبر، يجب

أن ينجز بإيمان، ولا يمكن أن يُنجز إلا بإيمان! لا أحد ينقذ إلا الله! أنا لست متدينًا، لم أمتلك أبدًا القوة، لكنني لست أحمق كي أنكر الحقيقة".

قال آرشي، مثارًا من أنه سجل شيئًا ما على صمد: "لكنك قلت، أليس كذلك؟ قلت إنها ليست مشكلتك. على الهضبة، هذا ما قلته. إذًا، ماذا لو أن هذا الرجل يفعل... مهما كان ما يفعله، قلت إن هذه مشكلتنا، نحن في الغرب، هذا ما قلته".

كان صمد لا يزال يمسك بيده شعر الدكتور مريض ذي العينين الدامعتين بلون دموي اللتين تتدفقان كالنهر، والذي كان مكممًا الآن بلسانه.

"انتبه، أنت تخنقه"، قال آرشي.

صاح صمد في المشهد الطبيعي الذي لا يرجع الصدى: "وما المشكلة؟ إن رجالًا مثله يعتقدون أن الأعضاء الحية يجب أن تستجيب لتصميم. يعبدون علم الجسد، لكن ليس من منحه لنا! إنه نازي، بل من النوع الأسوأ من النازيين".

ألح آرشي، مصممًا على توضيح نقطته: "لكنك قلت، قلت إن هذا شيء لا يتعلق بك وإن هذه ليست حجتك. وإذا كان أحد في هذه الجيب لديه مشكلة كي يحلها مع جيري المجنون هنا..."

"فرنسي. إنه فرنسي".

"حسنًا. فرنسي. إذا كان أحد في هذه الجيب لديه مشكلة كي يحلها فعلى الأرجح سيكون أنا. كنا نقاتل من أجل إنكلترة. من أجل إنكلترة، أنت تعرف" - قال آرشي باحثًا في دماغه - "الديمقراطية وعشاءات يوم الأحد والمتنزهات والأرصفة البحرية والسجق والهريس والأشياء التي هي لنا، والتي ليست لك".

"بالضبط"، قال صمد.

" أنت ماذا؟"

"يجب أن تفعلها يا آرشي".

"يجب أن أفعل هذا".

قال صمد بضحكة كريهة في صوته، ولا يزال يمسك الدكتور من شعره عبر

المقعد الأمامي: "جونز، إن مصيرك يحدق في وجهك وأنت الآن هنا تمارس العادة السرية".

قال له آرشي، محاولًا أن يبقي عينًا على الطريق، بينما حنى صمد عنق الدكتور تقريبًا لنقطة الكسر: "اهدأ، اسمعْ، أنا لا أقول إنه لا يستحق الموت".

"إذًا افعلها. افعلها".

"لكن لماذا من المهم لك هكذا أن أفعلها؟ أنت تعرف، لم أقتل رجلًا أبدًا، ليس هكذا، ليس وجهًا لوجه. يجب ألا يموت الإنسان في سيارة... لا أستطيع فعل هذا".

"جونز، إنها فقط مسألة ما الذي ستفعله حين يصبح الموقف صعبًا. هذه مسألة تهمني كثيرًا. سمِّ هذه الليلة التطبيق العملي لإيمان اعتُنق منذ فترة طويلة. سمِّها ليلة التجريب، إذا شئت".

"لا أعرف عم تتحدث".

"أريد أن أعرف أي نوع من الرجال أنت يا جونز. أريد أن أعرف ماذا تقدر أن تفعل. هل أنت جبان يا جونز؟"

أوقف آرشي الجيب فجأة وبعنف.

"أنت تلح على الأمر".

واصل صمد: "لا تدافع عن أي شيء يا جونز، لا عن إيمان ولا عن سياسة ولا حتى عن بلادنا. كيف اجتاح قومك شعبي هو لغز. أنت صفر، أليس كذلك؟"

"ماذا؟"

"أنت أبله. ما الذي ستقوله لأولادك حين يسألون من أنت وماذا أنا؟ هل ستعرف؟ هل سيحدث وتعرف؟"

"ما الذي فيك مدهش جدا؟"

"أنا مسلم ورجل وابن مؤمن. سأنجو في الأيام الأخيرة".

"أنت ثمل لعين، وأنت مخدر. أنت مخدر الليلة، أليس كذلك؟"

كرر صمد، كما لو أنها أنشودة: "أنا مسلم ورجل وابن مؤمن. وسأنجو في

الأيام الأخيرة".

"وماذا يعني هذا؟" وفيما كان يصيح أمسك آرشي بالدكتور سيك وشدَّ وجهه المغطى بالدم نحوه إلى أن تلامس أنفاهما.

صاح آرشي: "أنت، أنت قادم معي".

"سأفعل، لكن يا سيد..." رفع الدكتور يديه المصفدتين.

فتحهما آرشي بالمفتاح الصدئ، أنزل الدكتور من سيارة الجيب وبدأ يسير مبتعدًا عن الطريق في الظلام والمسدس موجه إلى نقطة قاعدة قحف الدكتور مارك بيير بيريه.

"هل ستقتلني يا فتى؟" سأل الدكتور مريض فيما كانا يسيران.

قال آرشي: "يبدو أن الأمر هكذا، أليس كذلك؟"

"هل يمكن أن أتوسل من أجل حياتي."

قال آرشي، وهو يدفعه: "إذا شئت".

وهو جالس في الجيب، سمع صمد بعد خمس دقائق صوت طلقة. أجفله الصوت. صفع حشرة كانت تدور حول رسغه باحثة عن المزيد من اللحم كي تعضه وقتلها. وحين رفع رأسه شاهد أمامه آرشي عائدًا ينزف ويعرج بشكل سيّئ، كان مرئيًا، ثم لم يعد هكذا، كان يضيء ويعتم وهو يندفع داخل وخارج الأضواء الأمامية. بدا شابًا، وجعلت المصابيح شعره الأشقر شفافًا، وبدا وجهه الذي كالقمر كمثل وجه طفل كبير كان رأسه أول ما يدخل الحياة.

صمد

1984-1875

"امتحان الكريكيت: أي طرف يشجِّعون...؟ هل ما زلت تنظر إلى الخلف، إلى المكان الذي جئتَ منه، أم إلى حيث أنت؟"

نورمان تيبيت

6

إغواء صمد إقبال

أصيب صمد بعدوى الأطفال كما يصاب المرء بالمرض، وأنجب اثنين منهما راغبًا، راغبًا كما يرغب الرجال، لكنه لم يساوم على هذا الشيء الآخر، هذا الشيء الذي لا يخبرك عنه أحد، والذي هو معرفة الأطفال. سافر طوال أربعين سنة غريبة سعيدًا على الطريق السريع للحياة، لكنه لم يعرف أنه على طول الطريق تعيش طبقة فرعية من المجتمع في مراكز الرعاية التابعة لكل محطة خدمة، وهي تبكي وتشكو وتتقيأ، ولم يكن يعرف شيئًا عنها ولم يهمه الأمر. ثم فجأة، في أوائل الثمانينيات، صار مصابًا بعدوى الأطفال، أطفال كانوا أصدقاء لأطفاله، ثم لأصدقائهم، ثم أطفال في برامج الأطفال على تلفزيون الأطفال. وفي 1984، كان 30% من دائرته الاجتماعية والثقافية تحت سن التاسعة، وقاد هذا كله، بشكل محتم، إلى المنصب الذي وجد نفسه فيه الآن وهو عضويته في مجلس الأمناء والآباء والمعلمين.

وبعملية تناسق غريبة، كونه أبًا عضوًا في مجلس الأمناء، فقد عكس هذا بشكل كامل عملية صيرورته أبًا. ويبدأ الأمر بشكل بريء وعرضي بالظهور في معرض الربيع السنوي مليئًا بالحيوية والطاقة، وتساعد في بطاقات اليانصيب (لأن مدرّسة الموسيقا الجميلة ذات الشعر الأحمر تطلب منك ذلك) وتربح زجاجة

ويسكي (كانت عمليات سحب اليانصيب المدرسي مرتبة) وقبل أن تعرف أين أنت، تظهر في اجتماعات مجلس المدرسة الأسبوعية وتنظم الحفلات وتناقش الخطط لقسم الموسيقا الجديد، وتتبرع بالأموال لتجديد نوافير المياه، وتصبح متورطًا في المدرسة، ومنخرطًا فيها. عاجلًا أم آجلًا، ستتوقف عن إيصال أولادك إلى بوابات المدرسة. وتبدأ بالسير خلفهم إلى الداخل.

"أنزل يدك".

لن أنزلها".

"أنزلها، من فضلك".

"اتركني".

"صمد، لماذا أنت متلهف كي تخجلني؟ أنزلها".

"لدي رأي. لدي حق بالرأي. وأمتلك الحق بالتعبير عن رأيي".

"نعم، ولكن هل يجب أن تعبر عنه في معظم الأحيان؟"

كان هذا حديثًا مهموسًا بين صمد وألسانا إقبال، وهما يجلسان في مؤخرة اجتماع مجلس أمناء المدرسة في يوم الأربعاء في أوائل تموز\يوليو 1984، وألسانا تحاول أن تبذل ما في وسعها لإجبار يد صمد اليسرى المصممة كي تعود إلى جانبه.

"توقفي يا امرأة".

وضعت ألسانا يديها الصغيرتين على رسغه وحاولت القيام بعملية الحَرْق الصينية[63]: "صمد مياه، ألا تستطيع أن تفهم أنني أحاول فقط أن أنقذك من نفسك؟"

تواصلت المصارعة السرية، أما الرئيسة كاتي مينيفر، وهي مطلّقة بيضاء طويلة ونحيلة بشكل يخلو من الرشاقة، وتلبس بنطلون جينز ضيقًا، وشعرها مجعد بشكل مفرط وأسنانها ناتئة، فقد حاولت بيأس أن تتجنب عين صمد. لعنت بصمت السيدة هانسن، والسيدة السمينة التي خلفه تمامًا، والتي كانت تتحدث عن السوسة في بستان المدرسة، وتجعل من المستحيل بشكل غير مقصود التظاهر بأن يد صمد المرفوعة والملحة غير مرئية. عاجلًا أم آجلًا عليها

أن تجعله يتحدث. وفيما كانت السيدة هانسون تهز رأسها اختلست نظرة إلى محاضر الاجتماع التي تدونها السكرتيرة السيدة كيلناني بسرعة على يسارها. وأرادت أن تتأكد أنه لم يكن خيالها، وأنها لم تكن غير عادلة أو غير ديمقراطية أو عنصرية، وهذا أسوأ (لكنها قرأت "عمى الألوان" وهو منشور أصيل صادر عن "ائتلاف قوس قزح"، وأحرزت علامة جيدة في الاختبار الذاتي)، أرادت أن تتأكد أنها لم تكن عنصرية بطرق متأصلة بشكل عميق صاغها المجتمع بحيث أنها لم تنتبه إليها. لكن كلا، كلا، لم تكن مجنونة. أي مقتطف عشوائي يلقي الضوء على المشكلة:

1 - ترغب السيدة جانيت تروت بأن تبني المدرسة إطار تسلق ثانيًا في الملعب كي يستوعب عدد الطلاب الكبير الذين يستمتعون بإطار التسلق الحالي لكن لسوء الحظ فإن الازدحام الزائد يعرضهم للخطر. ويرغب زوج السيدة تروت، وهو المهندس هانوفر تروت، بأن يصمم ويشرف على بناء إطار كهذا دون أن تتحمل المدرسة أية نفقات.

2 - لا ترى الرئيسة أي اعتراض. الانتقال للتصويت على الاقتراح.

3 - يرغب السيد إقبال بمعرفة لماذا نظام التعليم الغربي يعلي أنشطة الجسد على أنشطة الذهن والروح.

4 - تتساءل الرئيسة إذا كان لهذا صلة بالموضوع.

5 - يطالب السيد إقبال بتأجيل التصويت إلى أن يستطيع تقديم ورقة تشرح الحجج الرئيسية بالتفصيل وتشدد على أن ولديه ماجد وميلات قاما بكل التمارين التي يحتاجان إليها كتمرين الوقوف على الرأس الذي يقوي العضلات ويرسل الدم كي يحفز القشرة الحسية في الدماغ.

6 - تسأل السيدة وول إن كان السيد إقبال يتوقع أن

تقوم ابنتها سوزان آن بتمارين وقوف إجبارية على الرأس.

7 - يستنتج السيد إقبال أنه نظرًا لأداء سوزان الأكاديمي ومشاكل الوزن، فإن تمرين الوقوف على الرأس يمكن أن يكون مرغوبًا.

"نعم، يا سيد إقبال؟"

أزاح صمد بعنف أصابع ألسانا التي أمسكت بقوة طية صدر سترته، ووقف دون ضرورة لذلك باحثًا في عدد من الأوراق التي يحملها في مشبك، أخرج تلك التي يريدها ورفعها أمامه.

"نعم، نعم. لدي اقتراح. لدي اقتراح".

سرى نوع من التذمر غير الواضح في مجموعة الأمناء، تبعته فترة قصيرة من تبديل المقاعد والحك ووضع الأقدام فوق بعضها، ورفس الحقائب وإعادة موضعة المعاطف على الكراسي.

"واحد آخر يا سيد إقبال؟"

"آه نعم، يا سيدة مينيفر".

"لقد قدمت 12 اقتراحًا هذا المساء. أعتقد أنه يمكن أن شخصًا آخر..."

"آه، إنه مهم جدًا بحيث لا يمكنني تأجيله، يا سيدة مينيفر، الآن، لو كان فقط..."

"سيدة مينيفر".

"اعذريني".

"إنها فقط ... إنها الآنسة مينيفر. طوال المساء كنت... وهو... بالفعل ليست سيدة، إنها آنسة، آنسة".

نظر صمد متسائلًا إلى كاتي مينيفير، ثم إلى أوراقه كما لو أنه يريد العثور على جواب هناك، ثم نظر إلى الرئيسة المحاصرة ثانية.

"أنا آسف؟ أنت لستِ متزوجة؟"

"الحقيقة أنا مطلّقة. أحافظ على الاسم".

"فهمت. تعازيّ لك يا آنسة مينيفير. الآن، المسألة، أنا..."

قالت كاتي، دافعة أصابعها عبر شعرها المتعب: "أنا آسفة، لست آنسة أيضًا، أنا آسفة، كنت متزوجة، وهكذا..."

إيلين كوركوران وجانين لانزرانو، وهما صديقتان من مجموعة عمل النساء، ابتسمتا دعمًا لكاتي. هزت إيلين رأسها كي تشير إلى أن كاتي يجب ألا تبكي (لأنك تفعلين جيدًا، حقًا جيدًا)، قالت جانين: "واصلي"، ورفعت لها إبهامها بشكل خفي.

"لا أشعر بالراحة في الحقيقة، أشعر فقط أن الوضع الزوجي يجب ألا يكون موضوعًا، ليست المسألة أنني أريد إحراجك يا سيد إقبال. أفضّل أن تناديني آنسة".

" سيدة-آنسة؟"

"آنسة".

قال صمد، بدافع من فضول صادق، متناسيًا حركات شفة كاتي مينيفر السفلية: "هذا نوع من الخلط اللغوي بين كلمتي سيدة وآنسة، شيء ما لوصف المرأة التي إما فقدت زوجها أو لا تملك احتمال عثور على آخر؟"

تذمرت ألسانا ووضعت رأسها بين يديها.

نظر صمد إلى حافظته، وضع خطًا تحت شيء بالقلم ثلاث مرات ثم التفت إلى مجلس أعضاء مجلس الأمناء والآباء والمعلمين مرة أخرى.

"مهرجان الحصاد".

حدث انتقال وحك ووضع لأرجل فوق أخرى وإعادة ارتداء للمعاطف.

قالت كاتي منيفير: "نعم يا سيد إقبال. ماذا عن مهرجان الحصاد؟"

"هذا ما أريد أن أعرفه بالضبط. ما هذا الشيء كله عن مهرجان الحصاد؟ ما هو؟ لماذا هو؟ ولماذا يجب أن يحتفل به ولداي؟"

تحركت المديرة السيدة أوينز، وهي امرأة أنيقة بوجه ناعم نصف مخبأ خلف قصة شعر أشقر متساوية تصل إلى فوق الكتفين وأومأت لكاتي مينيفر أنها ستعالج الأمر.

"يا سيد إقبال، ناقشنا مسألة الاحتفالات الدينية بشكل كامل في اجتماع الخريف. وكما أنا متأكدة من أنك تتذكر الأمر، إن المدرسة تعترف بعدد كبير متنوع من المناسبات الدينية والعلمانية: وبينها عيد الميلاد ورمضان ورأس السنة الصينية والديوالي [64] وعيد الغفران [65] وعيد الأنوار اليهودي، حانوكا [66] وعيد ميلاد هيلا سيلاسي ووفاة مارتن لوثر كينغ. إن مهرجان الحصاد هو جزء من التزام المدرسة المتواصل بالتنوع الديني يا سيد إقبال".

"أفهم. وهناك الكثير من المهرجانات الوثنية يا سيدة أوينز في مدرسة مانور".

"وثنية؟ أخشى أنني لا أفهم ".

"هذا بسيط جدًا. يحتوي التقويم المسيحي على 37 مناسبة دينية. 37. أما التقويم الإسلامي فيحتوي على تسع فقط، استُبعدت بسبب هذا التدفق الذي لا يُصدق للاحتفالات المسيحية. إن اقتراحي بسيط. لو أزلنا كل الاحتفالات الوثنية من التقويم المسيحي، سيكون هناك..."- توقف صمد كي ينظر إلى حافظة أوراقه - "عشرون يومًا مفرغًا بحيث أن الطلاب يستطيعون أن يحتفلوا فيهم بليلة القدر في كانون الأول، وعيد الفطر في كانون الثاني وعيد الأضحى في نيسان، مثلًا. والمهرجان الأول الذي يجب أن يُلغى، برأيي، هو مهرجان الحصاد هذا".

قالت السيدة أوينز بابتسامتها الظريفة والثابتة ومطلقة جملتها للحشد: "إن إزالة المهرجانات المسيحية عن وجه الأرض مسألة خارج سلطاني القضائي، وإلا سأزيل عشية عيد الميلاد وأريح نفسي من عمل كثير لملء الجرابات".

تجاهل صمد الضحك العام الذي سببه هذا وألح: "لكن هذا ما أرمي إليه. إن مهرجان الحصاد هذا ليس مسيحيًا، أين يقول الكتاب المقدس: يجب أن تسرق المواد الغذائية من خزائن والديك وتحضرها إلى مجلس الأمناء، وتجبر أمك على خبز رغيف خبز على شكل سمكة؟ هذه مُثُل وثنية. أخبريني أين يقول: يجب أن تأخذ علبة من أصابع السمك المثلجة إلى عجوز شمطاء تعيش في ويمبلي؟

إن السيدة أوينز، غير المعتادة على السخرية إلا إذا كانت عن تنوع الأساتذة،

تجهمت حين سمعت كلامًا كهذا: "هل نعيش في هري؟ وأفترض أنك تفعلين الأمر نفسه في منزلك الخاص!"

"أكيد، يا سيد إقبال، إن مظهر فعل الخير في مهرجان الحصاد هو ما يجعله جديرًا بالحفاظ عليه؟ إن حمل الطعام إلى كبار السن فكرة جديرة بالثناء، سواء كان لها سند في الكتاب المقدس أم لا. أكيد أنه لا شيء في الكتاب المقدس يوحي بأننا يجب أن نجلس لتناول وجبة ديك رومي يوم عيد الميلاد، لكن بعض الأشخاص يشجبونها على هذه الأرضيات. وصدقًا يا سيد إقبال نميل إلى التفكير بأن هذه الأمور تتعلق بالجماعة أكثر مما تتعلق بالدين".

قال صمد رافعًا صوته: "إن إله شخص هو جماعته".

"نعم، ... هل نصوت على الاقتراح؟"

نظرت السيدة أوينز بعصبية في الغرفة باحثة عن الأيدي.

"هل يؤيد أحد ذلك؟"

ضغط صمد على يد ألسانا، رفسته على كاحله. داس على إصبعها. عقصت كفله. لوى إصبعها الصغير إلى الخلف فرفعت على مضض ذراعها الأيمن بينما كانت تضربه بكوع يدها اليسرى بين ساقيه.

"شكرًا يا سيدة إقبال"، قالت السيد أوينز بينما كانت جانيس وإيلين تنظران إليها بالابتسامتين المثيرتين للشفقة والحزينتين اللتين احتفظتا بها للنساء المسلمات الخاضعات.

"كل هذا لصالح الاقتراح لإزالة مهرجان الحصاد من تقويم المدرسة..."

"على أساس جذوره الوثنية".

"على أساس جذوره الوثنية...اقتراحات. ارفعوا أيديكم".

فحصت السيد أوينز الغرفة. ارتفعت يد واحدة، هي يد أستاذة الموسيقى الجميلة ذات الشعر الأحمر بوبي بورت جونز، جاعلة أساورها الكثيرة تتدلى حتى رسغها. ثم رفع ماركوس وجويس تشالفين والزوجان الهِبيّان المكتهلان اللذان يرتديان زيًا شبه هندي أيديهم بتحدي. نظر صمد مباشرة إلى كلارا وآرشي اللتين

كانتا تجلسان بخجل في الجانب الآخر من الصالة، ويدين أخريين تحركتا ببطء فوق الحشد.

"كل هؤلاء معارضون؟"

"ارتفعت الأيدي الست وثلاثون المتبقية في الجو".

"لم ينجح الاقتراح".

قال صمد جالسًا من جديد: "أنا واثق من أن المعبد الشمسي لساحرات وعفاريت مدرسة جوبلنز سيسره هذا القرار".

بعد الاجتماع، حين خرج صمد من المرحاض، بعد أن أراح نفسه ببعض الصعوبة في المبولة الصغيرة، دنت منه أستاذة الموسيقا الجميلة ذات الشعر الأحمر في الممر.

"سيد إقبال".

"هممم".

مدت ذراعًا طويلة وشاحبة وخفيفة النمش: "اسمي بوبي بورت جونز. أدرّس ماجد وميلات الموسيقا والغناء".

مد صمد يده الشغالة بدل اليمنى الميتة التي نوت أن تصافحها.

"آه، آسفة".

"كلا، كلا ليست مؤلمة. لا تعمل فحسب".

"اه جيد! أعني، أنا سعيدة أنه لا يوجد ألم".

ستقولون إنها جميلة دون أن تبذلوا جهدًا. كانت في سن الثامنة والعشرين، أو ربما في الثانية والثلاثين. إنها نحيلة، لكنها ليست صلبة الجسد مطلقًا، ولها قفص صدري منحن كطفل، وثديان طويلان مسطحان منتفخان في قمتهما، تلبس قميصها الأبيض مفتوح العنق، وتنتعل حذاء رياضيًا من نوع ليفيز مهترئًا من الاستعمال. شعرها أحمر داكن مرفوع إلى الأعلى في ذيل فرس قذر، خصلات صغيرة منه تسقط على الرقبة. كانت منمشة وارتسمت على وجهها ابتسامة ظريفة جدًا، وبلهاء قليلًا.

"هل هناك شيء تريدين مناقشته عن التوأمين؟ مشكلة؟"

"كلا... إنهما رائعان. يواجه ماجد بعض الصعوبة، لكن نظرًا لعلاماته الجيدة أنا متأكدة من أن العزف على الناي لا يحتل أولوية على قائمته، وميلات لديه ميل قوي إلى الساكسفون. كلا، أردت فقط أن أقول إنني أظن أن وجهة نظرك جيدة" - قالت واضعة إبهامها على كتفها في اتجاه الصالة - "في الاجتماع. إن مهرجان الحصاد يبدو دومًا سخيفًا لي. أعني أنه إذا أردت أن تساعد الكبار في السن كي يصوتوا لحكومة مختلفة فإنك لا ترسل لهم علب معكرونة هاينز". ابتسمت له ثانية ولعبت بخصلة من الشعر خلف أذنها.

صمد الذي شعر بالإطراء نوعًا ما من الابتسامة الثانية امتص إلى الخلف بطنه الجميل على الرغم من أنه في السابعة والخمسين وقال: "إنه لعار كبير أن كثيرًا من الناس لا يوافقون. كنا أقلية هذا المساء".

همست كما لو أن هذا مرض غرائبيّ من المناطق الاستوائية: "تشالفن وزوجته يدعمانك، إنهما شخصان ظريفان جدًا، مفكران، إنه عالِم وهي تعمل حدائقية، لكن كلاهما عملي وغير مدع في الأمر. تحدثت معهما ويعتقدان أننا يجب أن نلاحق الأمر. وفي الحقيقة كنت أفكر أنه يمكن أن نجتمع في وقت ما في الأشهر القليلة القادمة ونعمل على اقتراح ثان من أجل اجتماع شهر أيلول، في وقت أقرب إلى الوقت الفعلي كي ننسق الأمر أكثر، وربما نطبع منشورات، أو نفعل شيئًا من هذا القبيل، أنا في الحقيقة مهتمة بالثقافة الهندية وأفكر بالمهرجانات التي ذكرتها. ستكون أكثر تنوعًا، ويمكن أن نربطها بالأعمال الفنية والموسيقا. يمكن أن تكون مثيرة فعلًا" - قالت بوبي بورت جونز، مثارة جدًا - "أعتقد أن هذا سيكون جيدًا للأطفال".

عرف صمد أن هذه المرأة لن يكون لها أي اهتمام جنسي به من أي نوع لكنه رغم ذلك نظر حوله إلى ألسانا وهو يهز مفاتيح سيارته بعصبية في جيبه، ولا يزال يشعر بشيء بارد على قلبه وكان يعرف أنه خشيته من ربه.

"أنا لست في الحقيقة من الهند"، قال صمد، بمزيد من الصبر

اللانهائي أكثر من الذي وظفه من قبل في المرات الكثيرة التي تطلبت منه أن يكرر هذه الجملة منذ انتقاله إلى إنكلترة.

بدت بوبي بورت جونز متفاجئة وخائبة الأمل: "ألستَ هنديًا؟"

"كلا، أنا من بنغلادش".

"باكستان سابقًا. وقبل ذلك، البنغال".

"آه، صحيح. من النوع نفسه تقريبًا".

"نعم، النوع نفسه".

خيّم صمت مزعج اكتشف فيه صمد أنه يشتهيها أكثر من أي امرأة سبق أن التقى بها في السنوات العشر الماضية. وما حدث هو أن الرغبة لم تزعج نفسها حتى بتفحّص الحالة، والتأكد من جاهزية الطرف الآخر، ذلك أنها قرعت الباب وتصرف صمد كأنه في بيته. شعر بالغثيان. ثم صار واعيًا أن وجهه ينتقل من الإثارة إلى الرعب في محاكاة ساخرة غرائبية لحركات ذهنه، وهو يروز بوبي بورت جونز وكل العواقب الجسدية والميتافيزيقية التي أوحت بها. يجب أن يتحدث قبل أن تسوء الأمور.

قال ضد إرادته، ذلك أن شيئًا أكثر وحشية من إرادته كان يقوم بالحديث الآن: "حسنًا، فكرة جيدة، إعادة جدولة الاقتراح، لو كان بوسعك توفير الوقت".

"حسنًا، نستطيع التحدث عن هذا. سأتصل بك لنتحدث عن الموضوع بعد بضعة أسابيع. نستطيع أن نلتقي ربما بعد الأوركسترا".

"هذا ممتاز".

"عظيم! اتفقنا، إذًا. إن ولديك رائعان فعلًا، غير عاديين. قلتُ هذا لتشالفن وزوجته، وانتبه ماركوس إلى الأمر وقال: "الولدان الهنديان، إذا كنت لا تمانعين كلامي، هما عادة أكثر..."

"أكثر؟"

"أكثر هدوءًا. سلوكهما جيد جدًا لكنهما خاضعان، لا أعرف... جدًا".

أجفل صمد في الداخل متخيلًا ألسانا تصغي إلى هذا.

"وماجد وميلات هما ... صاخبان جدًا".

حاول صمد أن يتحدث.

"ماجد يثير الإعجاب فكريًا بالنسبة لفتى في التاسعة من عمره، الجميع يقولون هذا. أعني أنه فعلًا لافت للنظر. يجب أن تكون فخورًا به. إنه مثل بالغ صغير. حتى ملابسه... لا أعتقد أنني أعرف فتى في التاسعة يلبس بهذه الطريقة الغريبة".

كان التوأمان يصران دائمًا على اختيار ملابسهما، لكن بينما يجبر ميلات ألسانا على شراء حذاء بأشرطة حمراء وثياب من تصميم "أوش- كوش بيجوش" وبنطلونات غريبة عليها رسومات في الداخل والخارج يرتدي ماجد في أي طقس بلوزة رمادية وقميصًا رماديًا وربطة عنق سوداء وينتعل حذاء أسود لامعًا وتتوضع نظارة "إن إتش إس" قدمها نظام الرعاية الصحية التابع للدولة فوق أنفه كمثل عامل مكتبة قزم. قالت له ألسانا وهي تدفعه إلى قسم الألوان الرئيسية للرعاية الأمومية: "أيها الرجل الصغير، ماذا عن الأزرق من أجل أمك؟ فقط واحد أزرق. هذا يناسب عينيك بشكل جميل، من أجل الماما يا ماجد. كيف لا يمكن أن يهمك الأزرق؟ إنه لون السماء".

"كلا يا ماما. إن السماء ليست زرقاء. إنها ضوء أبيض فحسب. الضوء الأبيض له كل أضواء قوس قزح وهو يتبعثر في عدد لا يُحصى من الجزيئات في السماء، ألوان الموجة القصيرة، الأزرق والبنفسجي، هما اللذان تشاهدينهما. إن السماء ليست في الحقيقة زرقاء. إنها تُدعى تَبعْثُر رالي [67]".

طفل غريب بذكاء بارد.

كررت بوبي بابتسامة كبيرة: "يجب أن تكون فخورًا، سأكون أنا كذلك".

قال صمد وهو يتنهد، ملتهيًا عن انتصابه بالتفكير الكريه بابنه الثاني (لمدة دقيقتين): "يحزنني أن ميلات لا يصلح لأي شيء".

نظرت بوبي بارتباك وخجل بسبب هذا: "كلا، كلا، لم أقصد هذا مطلقًا... أعني أن ماجد يخيفه في هذه المسألة، لكنه يتمتع بشخصية رائعة. أعني ليس

أكاديميًا جدًا فحسب. لكن الجميع يحبونه، إنه طفل جميل، أيضًا. بالطبع" - قالت مانحة له غمزة وتربيتة على الكتف - "جينات جيدة".

جينات جيدة؟ ما الذي عنته، جينات جيدة؟

قال آرشي الذي سار خلفهما رابتًا صمد بقوة على الظهر: "مرحبًا"، قال ثانية، مصافحًا بوبي تقريبًا بالطريقة الأرستقراطية الساخرة التي يستخدمها حين يلتقي بأشخاص متعلمين: "آرشي جونز. والد آيري".

" بوبي بورت جونز. أدرّس آيري..."

"الموسيقى، نعم، أعرف. إنها تتحدث عنك باستمرار. إنها خائبة الأمل قليلًا لأنها لم تنجح في اختبار الكمان الأول، ربما العام القادم؟ هيا بنا!" قال آرشي ناقلًا بصره من بوبي إلى صمد الذي كان يقف بعيدًا قليلًا عن الاثنين وكانت له نظرة غريبة، كما ظن آرشي، نظرة غريبة لعينة على وجهه: "هل قابلت إك-بول سيّئ السمعة! لقد بالغتَ في ذلك الاجتماع يا صمد؟ ألم يبالغ؟"

قالت بوبي بعذوبة: "آه لا أعرف. أعتقد أن السيد إقبال طرح نقاطًا مهمة بالفعل. أعجبني فعلًا الكثير مما قاله. أحب أن أكون مطلعة على كثير من الموضوعات. المحزن أنني مقتصرة على اختصاص واحد. هل أنت أستاذ من نوع ما يا سيد إقبال؟"

"كلا، كلا"، قال صمد، غاضبًا أنه لم يكن قادرًا على الكذب بسبب آرشي، وكانت كلمة "نادل" واقفة في حنجرته.

"كلا، الحقيقة هي أنني أعمل في مطعم. قمت ببعض الدراسات أيام الشباب، لكن الحرب جاءت و..." هز صمد كتفيه كنهاية للجملة، وراقب بقلق حين تحول وجه بوبي بورت جونز المنمش الضخم والأحمر والمرتبك إلى علامة استفهام.

"حرب؟" قالت، كما لو أنه قال كلمة لاسلكي أو صندوق موسيقى أو مرحاض. "الفوكلاند؟"

قال صمد بعدم اهتمام: "كلا، الحرب العالمية الثانية".

"آه يا سيد إقبال. لا يستطيع المرء أن يخمن أبدًا. لا بد أنك كنت دومًا شابًا هكذا".

قال آرشي مبتسمًا: "كانت هناك دبابات أكبر منا في السن يا حبي".

"حسنًا يا سيد إقبال، هذه مفاجأة! لكنهم يقولون إن التجاعيد أقل في الجلد الداكن، أليس كذلك؟"

قال صمد مجبرًا نفسه على تخيل جلدها الوردي المشدود مطويًا في طبقة بعد أخرى من الأدمات الخارجية الميتة: "هل يقولون؟ اعتقدت أن الأطفال هم الذين يبقون الرجل شابًا".

ضحكت بوبي وقد بدت متوردة وخجولة وواثقة من نفسها في الوقت نفسه وقالت: "هذا أيضًا، كما أعتقد. حسنًا! تبدو جيدًا جدًا في هذا. أنا متأكدة أنك قورنت بعمر الشريف من قبل يا سيد إقبال".

قال صمد، متوهجًا من المتعة: "كلا، كلا، كلا، كلا، إن المقارنة الوحيدة تكمن في حبنا المشترك للبريدج. كلا، كلا، كلا...". ثم أضاف: "وأنا صمد. نادني صمد، من فضلك".

قال آرشي الذي ألح دومًا على مناداة المدرّسات بآنسات: "سيكون عليك أن تناديه صمد أحيانًا يا آنسة. يجب أن نذهب. الزوجتان تنتظران في المدخل. العشاء، على ما يبدو".

"حسنًا، سررتُ بالحديث معكما"، قالت بوبي، مصافحة اليد الخطأ ثانية، واحمرّ حين مد لها اليسرى.

"نعم، وداعًا".

قال آرشي، دافعًا صمد خارج الباب وعبر المدخل المنحدر إلى البوابات الأمامية: "هيا، هيا، يا إلهي. إنها في متناول اليد ولا تستطيع الحصول عليها، تلك المرأة. جيد، جيد جدًا. يا عزيزي. كنت تحاول...وماذا كنت تعني بالحب المتبادل للبريدج. أعرفك منذ عقود ولم أرك أبدًا تلعب البريدج. إن لعبتك هي البوكر".

"اخرس يا أرشيبالد".

"كلا، كلا، يجب أن أقول هذا، قمت بعمل جيد جدًا، لكن هذا لا يشبهك يا صمد، بعد أن عثرت على الله ليس أنت من تلهيه شهوات الجسد".

صافح صمد يد آرشي حيث كانت تستقر على كتفه: "لماذا أنت سوقي هكذا بشكل لا يُعالج".

"لم أكن الذي..."

لكن صمد لم يكن يصغي، كان يلقي مسبقًا في ذهنه، مكررًا عبارتين إنكليزيتين حاول بصعوبة أن يصدقهما، كلمات تعلمها في تلك السنوات العشر الماضية في إنكلترة، كلمات كان يأمل أنها ربما ستحميه من الحرارة المقيتة داخل بنطلونه.

كل شيء طاهر للطاهرين. كل شيء طاهر للطاهرين. كل شيء طاهر للطاهرين.

لا تستطيع قول ما هو أكثر عدلًا من هذا. لا تستطيع قول ما هو أكثر عدلًا من هذا.. لا تستطيع قول ما هو أكثر عدلًا من هذا.

لكن لنعُد إلى الوراء قليلًا.

-1 كل شيء طاهر للطاهرين:

إن الجنس، وعلى الأقل إغواء الجنس، كان مشكلة لوقت طويل. وحين بدأت الخشية من الله تدب لأول مرة في عظام صمد، في حوالي عام 1976، تمامًا بعد زواجه من ألسانا ذات الكفين الصغيرتين والرسغين الضعيفين وغير المهتمة، سأل عالمًا كبيرًا في السن في الجامع في كرويدون إن كان مسموحًا للرجل أن ... بيده على...

وقبل أن يصل إلى منتصف الطريق في هذه المسرحية الحذرة مرر له الباحث العجوز بصمت منشورًا من كومة على الطاولة وجر إصبعه المتغضنة بقوة تحت النقطة رقم ثلاثة.

هناك تسعة أفعال تفسد الصيام:

-1 الأكل والشرب.

-2 الجماع.

-3 الاستمناء، الذي يعني الإساءة للذات التي ينتج عنها قذف.

-4 نسب أكاذيب إلى الله أو نبيه أو آله.

-5 ابتلاع غبار سميك.

-6الغمر الكامل للرأس في الماء.

-7البقاء في الجنابة أو الحيض أو النفاس حتى آذان صلاة الفجر.

-8 حقنة شرجية فيها سوائل.

-9 التقيؤ.

واستعلم صمد شاعرًا بالقرف: "وماذا يا حضرة العالم، إذا لم يكن صائمًا؟" بدا الباحث العجوز جديًا وقال: "سُئل ابن عمر عن المسألة وقيل إنه أجاب: "ما هو إلا أن يعرك أحدكم زبه حتى ينزل ماء. وإنما هو عصب تدلكه[68]".

تشجع صمد من هذا، لكن العالِم واصل: "على أي حال أجاب في رواية أخرى: إن نكاح النفس محرم".

بدأ صمد بخجل: "لكن ما هو الاعتقاد الصحيح؟ هل هو حلال أم حرام؟ هناك بعض من يقولون: "كل شيء طاهر للطاهرين. وإذا كان المرء صادقًا وقوي الإرادة، لا يمكن أن يؤذي هذا أحدًا أو يسيء إلى أحد...".

لكن العالِم ضحك من هذا: "ونعرف من هم. ليرحم الله الأنجليكانيين! صمد، حين ينتصب العضو الذكري لشخص، فإن ثلثي عقله يذهب" - قال العالم، هازًا رأسه - "وثلث دينه. هناك حديث للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو كالتالي: "قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي[69]".

"لكن أكيد... إذا كان الشخص نفسه طاهرًا، حينها ..."

"أرني الشخص الطاهر، يا صمد! أرني الفعل الطاهر! آه يا صمد مياه...

نصيحتي لك هي أن تبتعد عن اليد اليمنى".

بالطبع، إن صمد، كونه صمدًا، وظّف أفضل ما لديه من البراغماتية الغربية، وذهب إلى المنزل وأدى بقوة العمل بيده التي تعمل، مكررًا: كل شيء طاهر للطاهرين، كل شيء طاهر للطاهرين إلى أن قذف، وقد كان منيه لزجًا وشعر بالحزن والإحباط. وتواصل ذلك الطقس لحوالي خمس سنوات في غرفة النوم الصغيرة على سطح المنزل حيث كان ينام وحيدًا (كي لا يوقظ ألسانا) بعد أن يعود من المطعم في الثالثة صباحًا كل يوم بشكل سري وصامت لأن هذا (صدّقوا أم لا تصدّقوا) كان يعذبه، هذا الإخراج والارتعاش والتدليك والإراقة السرية والخوف من أنه ليس طاهرًا، ويبدو أن ربه كان يرسل له دومًا إشارات صغيرة، وتحذيرات صغيرة، ولعنات صغيرة: التهاب مجرى البول، 1976، حلم الخصي 1978، غطاء متسخ وعليه قشور اكتشفته ألسانا لكن عمة ألسانا الأكبر أساءت فهمه، 1979، إلى أن دخل في عام 1980 في أزمة وسمع صمد الله يزأر في أذنه كأمواج صدفة وبدا أن الوقت قد حان لعقد صفقة.

2- لا أستطيع قول ما هو أعدل من ذلك

كانت هذه هي الصفقة: في الأول من كانون الثاني 1980، كمثل نيويوركيّ يتّبع حِمية غذائية يتخلّى فيها عن الأجبان شرط أن يأكل الشوكولاتة، هجر صمد الاستمناء كي يستطيع أن يشرب. وكانت صفقة، فرضية عمل، أبرمها مع الله بصيغة ما. ومنذ ذلك اليوم استمتع صمد بطمأنينة روحية نسبية وبكثير من علب بيرة الغينيس المزبدة مع أرشيبالد جونز، وطوّر عادة تناول جرعته الأخيرة وهو ينظر إلى السماء كمسيحي ويفكر: أنا من حيث الجوهر رجل جيد، لا أمارس العادة السرية، تمهّل! لدي الشراب الغريب. لا أستطيع أن أقول ما هو أعدل من هذا...

لكن بالطبع كان في الدين الخطأ للتسويات والصفقات والمعاهدات والضعف ولا يستطيع قول ما هو أعدل من هذا. وكان يدعم الفريق الخطأ إذا كان ما يريده هو التقمص العاطفي والتنازلات، وإذا أراد التفسير العلمي، وإذا أراد أن

يُمنح استراحة. ولم يكن إلهه كمثل ذلك الشخص الساحر وذي اللحية البيضاء الذي يؤدي عمله بارتباك في الكنائس الأنجليكانية والمنهجية [70] أو الكاثوليكية. ولم يكن إلهه يمارس عمل منح الناس فرصًا. وفي اللحظة التي وضع فيها صمد عينيه على أستاذة الموسيقى الجميلة ذات الشعر الأحمر بوبي بورت جونز في شهر تموز عام 1984، عرف في النهاية حقيقة هذا، عرف أن إلهه ينتقم وأن اللعبة انتهت ورأى أن العقد انتُهك وأن شرط إنهاء العقد في النهاية لم يوجد وأن ذلك الإغواء رُمي بشكل مدبر وماكر في طريقه. باختصار، انتهت جميع الصفقات.

عاد الاستمناء بشكل جدي، وكان الشهران اللذان مرا بين مشاهدة أستاذة الموسيقا الجميلة ذات الشعر الأحمر لأول مرة ورؤيتها ثانية، أطول شهرين وأكثرهما لزوجةً ورائحة وخطيئة في حياة صمد. أينما كان، ومهما كان ما يفعله، يتولد في داخله إحساس مرافق مركز على تلك المرأة بالتحديد: "يسمع" لون شعرها في المسجد، و"يشم" لمسةَ يدها في قطار الأنفاق، و"يتذوق" ابتسامتها وهو يتجول في الشوارع ببراءة في طريقه إلى العمل وهذا بدوره قاد إلى معرفة جميع المراحيض العامة في لندن، وإلى نوع الاستمناء الذي يمكن أن يجده حتى فتى في سن الخامسة عشرة يعيش في شيتلاندز مفرطًا. وكانت راحته الوحيدة هي أنه فعل مثل روزفلت، وقام بإبرام صفقة جديدة: كان سيفوز، لكنه لن يأكل. عنى نوعًا ما أن يطهر نفسه من تنهدات وروائح بوبي بورت جونز، من ذنب الاستمناء، وعلى الرغم من أنه لم يكن موسم الصيام وكانت هذه أطول أيام العام، لم يدخل طعام فم صمد بين الشروق والغروب، ليس حتى لعابه بفضل مبصقة زجاجية. وبما أنه لم يكن هناك طعام في أحد الأطراف، ما جاء من الطرف الآخر كان نحيلًا جدًا وتافهًا وهزيلًا وشفافًا بحيث أن صمد استطاع تقريبًا أن يقنع نفسه أن الذنب خف وأنه في أحد الأيام الرائعة سيتمكن من أن يدلك عصَبَه بحيوية قدر ما يشاء وأنه لن يخرج أي شيء إلا الهواء.

لكن على الرغم من قوة الجوع الروحي والجسد والجنس واظب صمد على العمل اثنتي عشرة ساعة يوميًا في المطعم. والواقع أنه وجد أن المطعم هو المكان

الوحيد الذي يتحمل الوجود فيه. لم يكن يتحمل مشاهدة العائلة، ولا الذهاب إلى أوكونيل، ولم يتحمل أن يمنح آرشي الرضا كي يراه في هذه الحالة. وفي منتصف آب زاد ساعات عمله إلى أربع عشرة في اليوم، وكان هذا طقسيًا: يلتقط سلته من المناديل القرنفلية المصنوعة على شكل بجعة ويتبع أثر ورود شيفا البلاستيكية، وكان يهدئه ترتيب السكاكين والشوكات وتلميع الزجاج وإزالة لطخ الأصابع عن الصحون. وإذا كان مسلمًا سيئًا لا أحد يستطيع القول إن صمد لم يكن نادلًا ماهرًا. فقد اختار مهارةً وصقلها إلى درجة الكمال. فهنا على الأقل يستطيع أن يري الآخرين الممر الصحيح: كيف يموّه البصل المقلي القديم في صحن المقبلات (البهاجي)، وكيف يجعل عددًا قليلًا من القريدس يبدو كثيرًا، وكيف يشرح لأسترالي أنه لا يريد كمية الفلفل التي يعتقد أنه يريدها. وخارج أبواب مطعم البالاس كان مستمنيًا وزوجًا سيئًا وأبًا لامباليًا، متمتعًا بكل أخلاق الأنجليكانيين. لكن في داخل هذا المطعم، داخل الجدران الأربعة الخضراء والمزينة بزخارف صفراء، كان عبقريًا بيد وحدة.

"شيفا، ثمة زهرة مفقودة هنا".

كان قد مر أسبوعان على صفقة صمد الجديدة وفي بعد ظهر يوم جمعة عادي في البالاس، كان يقوم بالترتيب.

"لم تنتبه إلى هذا الإناء يا شيفا!".

وكان شيفا يتجول كي يفحص المزهرية الزبرجدية النحيلة كقلم رصاص على الطاولة رقم 19.

"وهناك بعض مخلل الليمون الطافي في صلصة المانغو في علبة الصلصة على الطاولة رقم 15".

"حقًا؟"، قال شيفا بجفاف. المسكين شيفا، هو في الثلاثين تقريبًا، ليس جميلًا، ولا يزال هنا. ولم يحقق أبدًا كل ما كان يصبو إليه. تذكر صمد بشكل غامض أنه ترك المطعم لوقت قصير في 1979 كي يؤسس شركة أمنية، لكن "لا أحد رغب بأن يستأجر حراسًا باكستانيين" وعاد، أقل عدوانية بقليل، وأكثر

يأسًا بقليل، كحصان مروّض.

"نعم يا شيفا. بكل صدق".

"وهذا ما جعلك مجنونًا، أليس كذلك؟"

"لن أذهب بعيدًا هكذا كي أقول مجنونًا، كلا.. هذا يزعجني".

قاطعه شيفا: "لأن شيئًا ما بدأ يشغلك مؤخرًا. لاحظنا كلنا هذا".

"كلنا؟"

"نحن. الفتيان. أمس كانت حبة ملح في المنديل، وفي أمس الأول لم تكن لوحة غاندي معلقة بشكل مستقيم. وفي الأسبوع الماضي كنت تتصرف مثل الفوهرر" - قال شيفا مشيرًا باتجاه أردشير - "كرجل مجنون. لا تبتسم ولا تأكل ودومًا تتدخل في شؤون الجميع. وحين لا يكون النادل الرئيسي موجودًا هذا يمنع الجميع من التركيز، كمثل كابتن فريق كرة قدم".

"أنا متأكد أنني لا أعرف إلى ماذا تشير"، قال صمد بشفتين مزمومتين، مناولًا له المزهرية.

"وأنا متأكد أنك تعرف"، قال شيفا بقصد التحريض معيدًا المزهرية الفارغة إلى الطاولة.

قال صمد، وقد صار مذعورًا، معيدًا له المزهرية: "إذا كان يهمني الأمر حيال شيء ما لا يوجد سبب لماذا يجب أن يقاطع عملي هنا، لا أتمنى الإساءة للآخرين".

أعاد شيفا المزهرية إلى الطاولة مرة أخرى: "إذًا هناك شيء ما. هيا، يا رجل... أعرف أننا لم نلتق دومًا وجهًا لوجه، لكن يجب أن نبقى معًا في هذا المكان. كم اشتغلنا معًا؟ صمد مياه؟"

نظر صمد إلى الأعلى فجأة إلى شيفا، وشاهد شيفا أنه كان يتعرق، أنه بدا دائخًا تقريبًا... "هناك... هناك شيء ما".

وضع شيفا يده على كتف صمد: "وهكذا لماذا لا نضع الورد اللعين ونذهب كي نطبخ لك كري، ستغرب الشمس بعد عشرين دقيقة. هيا، تستطيع أن تخبر شيفا عن الأمر. ليس لأنني أكترث، أتفهم، لكن يجب أن أعمل هنا أيضًا وأنت

تدفعني إلى الجنون يا صديقي".

إن صمد الذي تأثر على نحو غريب بهذا العرض غير اللبق لأذن مصغية وضع محارمه القرنقلية التي تشبه البجع وتبع شيفا إلى المطابخ.

"حيوان، خضار، معادن؟"

وقف شيفا على سطح منبسط للعمل في المطبخ وبدأ يقطع صدر دجاجة إلى مكعبات ويغمسها في طحين الذرة.

"اعذرني؟"

كرر شيفا بفقدان للصبر: "هل الأمر حيواني، نباتي، معدني؟ الشيء الذي يضايقك".

"حيواني بشكل رئيسي".

"أنثى؟"

جلس صمد على مقعد قريب ودلى رأسه.

سأل شيفا: "أنثى؟ الزوجة؟"

"إن العار والألم اللذين سينجمان عن هذه المسألة سيكونان من نصيب زوجتي، لكن لا ... ليست هي السبب".

حاكى شيفا حركة تشغيل الكاميرا، وغنى أغنية شارة برنامج "العقل المدبر (70)" ودخل في الموضوع:

"طائر آخر، هذا الموضوع من اختصاصي. شيفا باجواتي، لديك ثلاثون ثانية لمضاجعة نساء غير زوجتك. السؤال الأول: هل هذا صائب؟ الجواب: هذا يعتمد على... السؤال الثاني: هل سأذهب إلى النار؟ الجواب ..."

"يكفي. انْسَ الموضوع. من فضلك، انْس أنني ذكرتُ أيًا من هذا".

"هل تريد الباذنجان في هذا".

"كلا. الفليفلة الخضراء تكفي".

قال شيفا، راميًا فليفلة خضراء في الجو وممسكًا لها برأس السكين: "حسنًا، واحد دجاج بونا قادم. كم استمر الأمر إذًا؟"

"لم يحدث شيء. قابلتها مرة واحدة فقط. تعرفت عليها منذ مدة قصيرة".

"إذًا: ما الأذى؟ لمسة؟ قبلة؟"

"مصافحة فقط. إنها معلمة ابني".

قذف شيفا الفليفلة والبصل في الزيت: "لديك الفكرة الضالة الغريبة. إذًا ماذا؟"

نهض صمد: "إنها أكثر من فكرة ضالة يا شيفا. إن جسدي كله يتمرد، لا يمتثل لأوامري. لم أخضع أبدًا من قبل لإهانات جسدية كهذه. مثلًا: أقوم باستمرار..."

قال شيفا، مشيرًا بين ساقي صمد: "نعم، لاحظنا هذا أيضًا. لماذا لا تقوم بالاستمناء قبل المجيء إلى العمل؟"

"أفعل... أنا... لكن هذا لا يحدث فرقًا. بالإضافة إلى ذلك إن الله يمنع هذا".

مسح شيفا دمعة سببها البصل: "آه، يجب ألا تصبح متدينًا أبدًا يا صمد. هذا لا يناسبك. إن الشعور بالخطيئة ليس صحيا".

"ليست خطيئة، إنه الخوف. أنا في السابعة والخمسين يا شيفا. حين تصل إلى عمري، تصبح ... مهتمًا بإيمانك، يجب ألا تترك الأمور حتى وقت متأخر جدًا. أفسدتني إنكلترة، أشاهد هذا الآن: أولادي، زوجتي، أُفسدوا أيضًا. أعتقد أنه ربما عقدتُ الصداقات الخطأ. ربما كنت تافهًا. ربما اعتقدت أن الفكر أهم من الإيمان. والآن يبدو أن هذا الإغراء الأخير قد وُضع أمامي كي يعاقبني، أتفهم. شيفا، أنت تعرف عن النساء. ساعدني، كيف يمكن أن يكون هذا الشعور ممكنًا؟ تعرفت على المرأة منذ بضعة أشهر وتحدثت معها مرة واحدة فقط".

"كما قلت: أنت في السابعة والخمسين. أزمة منتصف العمر".

قال صمد باستياء: "منتصف العمر؟ ماذا يعني هذا؟ اللعنة يا شيفا، أنا لا أخطط كي أعيش مائة وأربعة عشر عامًا".

"هذه طريقة في الكلام. تقرأ عنها في المجلات هذه الأيام. حين يصل الشخص

إلى نقطة معينة في حياته يبدأ بالشعور بأنه يتقدم بالسن ويفقد جاذبيته... وأنت شاب كالفتاة التي تشعر بها، إذا فهمتَ قصدي".

"أنا على مفترق طرق أخلاقي في حياتي وأنت تتحدث الهراء معي".

قال شيفا، متحدثًا ببطء وبصبر: "يجب أن تعرف هذه الأمور يا صديقي، الأورجازم الأنثوي، نقطة جرافنبرج [71]، سرطان الخصيتين، توقف الدورة الشهرية. إن أزمة منتصف العمر هي واحدة من هذه الأشياء. هذه هي المعلومات التي يجب أن تكون متاحة للإنسان".

صاح صمد، واقفًا وماشيًا في المطبخ: "لكنني لا أرغب بمعلومات كهذه. هذه هي النقطة بالضبط! لا أرغب بأن أكون رجلًا حديثًا. أرغب بأن أعيش كما أردت دومًا. أرغب بالعودة إلى الشرق".

تمتم شيفا محركًا الفليلفة والبصل في المقلاة: "آه، حسنًا... نحن جميعًا نرغب، أليس كذلك؟ غادرتُ حين كنت في الثالثة من عمري. لم أجْن أي شيء من هذه البلاد. لكن من يملك ثمن بطاقة الطائرة؟ ومن يريد أن يعيش في كوخ مع 14 خادمًا على جدول الرواتب؟ من يعرف ما الذي سيتحول إليه شيفا باجواتي لو عاد إلى كلكتا؟ هل سيصبح ملكًا أم بيدقًا؟ ومن" - قال شيفا، وقد عاد إليه بعض جمال وجهه القديم - "من يستطيع أن ينزع الغرب منهم بعد أن يصبح في الداخل؟"

واصل صمد السير: ""كان يجب ألا آتي هنا أبدًا، ومن هنا تنبع مشكلتي. كان يجب ألا آتي بولديَّ إلى هنا أبدًا بعيدًا عن ذاكِري الله. ولسدن جرين! بطاقات اتصال في واجهات محلات الحلويات، جودي بلوم في المدرسة، الواقي على الرصيف، مهرجان الحصاد، الأستاذة المغوية!" - زأر صمد ملتقطًا الأشياء عشوائيًا - "شيفا، أخبرك بيني وبينك: إن صديقي العزيز، أرشيبالد جونز، هو كافرا الآن: أي نموذج أجسّد أنا لأولادي؟"

"اجلس يا إقبال. اهدأ. أصغ: تحتاج إلى امرأة ما فحسب. الناس يرغبون بالناس. وهذا يحدث من دلهي إلى دبتفورد، وهذه ليست نهاية العالم".

"أود لو أتيقن من هذا".

"متى ستشاهدها مرة ثانية؟"

"سنلتقي من أجل عمل يتعلق بالمدرسة... الأربعاء الأول من أيلول\سبتمبر".

"فهمت، هل هي هندوسية؟ مسلمة؟ ليست سيخية؟ هل هي؟"

قال صمد وصوته يتحطم: "هذا أسوأ ما في الأمر، إنها إنكليزية. بيضاء".

هز شيفا رأسه: "خرجتُ مع كثير من الطيور البيضاء يا صمد. مع الكثير منهن، أحيانًا نجح الأمر، وأحيانًا لم ينجح. خرجتُ مع فتاتين أميركيتين جميلتين. أحببت بجنون باريسية مذهلة الجمال. وأمضيت عامًا مع رومانية. لكن لم أقض الوقت أبدًا مع فتاة إنكليزية. لم ينجح الأمر أبدًا. أبدًا".

سأل صمد مهاجمًا ظفر إبهامه بأسنانه ومنتظرًا جوابًا مخيفًا ما، مرسومًا ما من الأعلى: "لماذا؟، لماذا لا يا شيفا باجواتي؟"

"الكثير من التاريخ. الكثير من التاريخ اللعين".

هذا كان جواب شيفا الغامض، وهو يضع دجاج البهونا في الصحن.

*****

الثامنة والنصف صباحًا، الأربعاء الأول من أيلول\سبتمبر 1984. كان صمد شارد الذهن نوعًا ما، سمع باب الراكب في سيارته الأوستن ميني ميترو يفتح ويغلق، بعيدًا جدًا في العالم الواقعي، واستدار إلى يساره كي يجد ميلات تسلق إلى جانبه، أو على الأقل شاهد شيئًا على شكل ميلات من العنق للأسفل، وكان هناك بدل الرأس تومرترونيك وهي لعبة كمبيوتر تبدو كمنظار. وعرف صمد من التجربة أن في الداخل سيارة حمراء صغيرة تظهر أن ابنه كان يسابق سيارة خضراء وأخرى صفراء على طريق ثلاثي الأبعاد.

وضع ميلات حقيبته الظهرية على المقعد البلاستيكي البني: "آه! مقعد بارد! مؤخرة متجمدة!"

"ميلات، أين ماجد وآيري؟"

"قادمان".

"قادمان بسرعة القطار أو بسرعة السلحفاة؟"

"اللعنة!"، صاح ميلات كرد فعل على حصار افتراضي هدد بإرسال سيارته الحمراء كي تدور في عالم النسيان.

"من فضلك يا ميلات. أوقف هذه".

"لا أستطيع. أحتاج إلى نقطة واحدة، آه، إلى اثنتين، سبع، ثلاث نقاط".

"ميلات يجب أن تبدأ بفهم الأرقام. كرر: عشرة آلاف، مئتان وثلاثة وسبعون".

"عشرة آلاف، مئتان وثلاثة وسبعون".

"أطفئها يا ميلات".

"لا أستطيع. سأموت. هل تريدني أن أموت يا أبي؟"

كان صمد يصغي، كان من الملحّ أن يصل إلى المدرسة قبل التاسعة إذا كان لهذه الرحلة أي هدف من أي نوع. في التاسعة، يجب أن تكون في الصف. في التاسعة ودقيقتين ستفتح السجل بتلك الأصابع الطويلة، وفي التاسعة وثلاث دقائق ستنقر بتلك الأظافر الطويلة المزينة بالأقمار على مكتب خشبي في مكان ما خارج البصر.

"أين هما؟ هل يريدان أن يتأخرا عن المدرسة؟"

"أوه".

"هل يتأخران دائمًا؟" سأل صمد، ذلك أن هذا لم يكن روتينه المعتاد، فقد كان الذهاب إلى المدرسة من عمل ألسانا أو كلارا. وقد فعل هذا كي يشاهد بورت جونز (رغم أن لقاءهما كان على بعد سبع ساعات وسبع وخمسين دقيقة فقط، على بعد سبع ساعات وخمس وستين دقيقة، سبع ساعات...) وتولى المسؤولية الأبوية الأكثر إزعاجًا. وأمضى وقتًا صعبًا في إقناع ألسانا أنه لا يوجد شيء خاص في هذه الرغبة المفاجئة للمشاركة بشكل كامل في إيصال سلالة آرشي إلى المدرسة:

"لكنك يا صمد لا ترجع إلى المنزل حتى الثالثة صباحًا، هل هناك سبب ما

للذهاب؟"

"أريد أن أرى ولديَّ! أريد أن أشاهد آيري. إنهما يكبران كل صباح، ولا أرى هذا أبدًا! لقد كبر ميلات إنشين".

"لكن ليس في الثامنة والنصف صباحًا. غريب جدًا بما يكفي أنه ينمو طيلة الوقت. الحمد لله. لا بد أنها معجزة من نوع ما. عن ماذا هذا؟ - نكزت ظفرها في نتوء بطنه - "بعض الخداع. أستطيع أن أشمه، كلسان معزاة متدل".

لا يوجد ما يضاهي أنف ألسانا في شم الخطيئة والخداع والخوف في بلدة برينت، ولا يقدر صمد أن يفعل شيئًا حيال المسألة. هل كانت تعرف؟ هل خمنت؟ نام صمد على كل هذه الهواجس طيلة الليل (حين لا يمارس العادة السرية) ثم كانت الشيء الأول الذي أحضره إلى سيارته مما جعله يصرّف غضبه على ولديه.

"أين هما بحق الجحيم؟"

"أجراس الجحيم".

"ميلات!"

قال ميلات وهو يقوم بالدورة الرابعة عشرة حاصلًا على خمس نقاط إضافية لأنه سبب احتراقًا لسيارة صفراء: "لقد شتمت، أنت تفعل هذا دومًا، وهكذا يفعل السيد جونز".

"حسنًا، لدينا رخصة شتم خاصة".

ميلات الذي لم يبن رأسه لم يحتج إلى وجه كي يعبر عن غضبه: "لا شيء مثل..."

تردد صمد قليلا في هذه النقطة، عارفًا أنه لا توجد متعة يمكن الحصول عليها في علم الجدل مع طفل عمره تسع سنوات: "حسنًا، حسنًا، حسنًا، لقد علقت. لا يوجد شيء مثل رخصة شتم. ميلات، أين الساكسفون الخاص بك؟ لديك أوركسترا اليوم".

"في الطبون"، قال ميلات، وصار صوته في الحال شكاكًا ومشمئزًا، فأيّ رجل لا يعرف أن الساكسفون يوضع في الطبون يوم الأحد هو متخلف اجتماعيًا: "لماذا توصلنا؟ السيد جونز يوصلنا أيام الإثنين. أنت لا تعرف أي شيء عن

إيصالنا إلى المدرسة أو أخذنا منها".

"أنا متأكد نوعًا ما أنني سأقوم بالأمر، شكرًا لك يا ميلات. لا يحتاج الأمر إلى عالم صواريخ، في النهاية. أين الاثنان؟" - صاح، مستخدمًا الزمور، غير معاق من قدرة ابنه الذي في التاسعة على معرفة الشذوذ في تصرفه - "وهل يمكن من فضلك أن تطفئ هذا الشيء اللعين!" أمسك صمد التوميترونيك وشده إلى أسفل حول عنق ميلات.

"قتلتني!" نظر ميلات من جديد إلى التوميترونيك مرعوبًا وفي الوقت المناسب كي يشهد بديل أناه الصغير الأحمر ينحرف إلى الحواجز ويختفي في عرض ضوئي كارثي من الشرارات الصفراء المنهمرة. "قتلتني فيما كنت أفوز".

أغمض صمد عينيه وأجبر بؤبؤيه على الدوران إلى أعلى ما يستطيع في رأسه، آملًا أن دماغه يمكن أن يؤثر عليهما ممارسًا إعماء للذات، ويحققه كما حصل للضحية الأخرى للفساد الغربي، أوديب. فكّر: أرغب بامرأة أخرى، أسب وآكل لحم الخنزير وأستمني بشكل منتظم وأشرب بيرة غينيس، أفضل صديق لي كافر وغير مؤمن. وأقول لنفسي إذا دلكته بتحريكه إلى أعلى وأسفل في الداخل دون أن أستخدم اليدين فإن هذا لا يُحسب. لكن آه هذا يُحسب، كل هذا يحسب على لوح حساب كبير للذي يحسب. ما الذي سيحدث في المحشر؟ كيف سأبرئ نفسي حين تقوم القيامة؟

فُتح باب وأُغلق وتلاه فتح باب آخر وإغلاقه. وصل ماجد وآيري. فتح صمد عينيه ونظر في مرآة الرؤية الخلفية. في المقعد الخلفي هناك ولدان كان ينتظرهما: كلاهما يرتدي نظارته الصغيرة، آيري بشعرها الكثيف الفوضوي (ليست طفلة جميلة: جيناتها مختلطة، أنف آرشي مع سن كلارا الناتئ بشكل كريه)، ماجد بشعره الأسود الكثيف المفروق في الوسط بطريقة غير مستساغة. وكان ماجد يحمل جهاز تسجيل، وآيري تحمل كمانًا. لكن خلف هذه التفاصيل الأساسية لم يكن كل شيء كما ينبغي. وإذا لم يكن مخطئًا كثيرًا، كان هناك خطأ في هذه السيارة، شيء ما يحدث. كان الطفلان يلبسان الأسود من الرأس إلى القدم،

وكلاهما يرتدي ربطة ذراع بيضاء رُسمت عليها رسومات تخلو من التناسق لسلال خضار، وكلاهما يحمل رزمة من أوراق الكتابة وقلم حبر مربوطًا حول عنقه بخيط.

"من فعل هذا لكما؟"

صمت.

"هل هي الماما؟ والسيد جونز؟"

صمت.

"ماجد! آيري! حُلا عقدتي لسانكما".

تواصلَ الصمت، صمت أطفال، يرغب به الراشدون بشكل يائس لكنه يبدو غريبًا حين يحصل في النهاية.

"ميلات، هل تعرف ما هذا؟"

قال ميلات: "مضجران، وذكيان فقط ومترفعان وأبلهان، اللورد ماجو والسيدة أجلي بو[72]".

التفت صمد في مقعد سيارته كي يواجه المنشقين: "هل يمكن أن أسألكما لماذا هذا؟"

أمسك ماجد قلمه وبيده الأنيقة الباردة كتب: "إذا أردت"، ثم مزق الورقة وسلمها لصمد.

"أقسمتما أن تلجآ إلى الصمت. أفهم. أنت أيضًا يا آيري؟ كنت أعتقد أنكما عاقلان جدًا بحيث لا تتورطان في هراء كهذا".

كتبت آيري لوهلة على أوراقها وقدمت الرسالة الرسمية: نحن نختبر بروس [73].

"تختبران بروس؟ ما هو بروس ولماذا تختبرونه؟ هل علمتك أمك هذه الكلمة؟"

بدت آيري كأنها ستندفع بالقوة الكاملة لشرحها لكن ماجد أشار لها أن تغلق فمها، انتشل قطعة الورق وشطب حرف السين الأول.

"آه، فهمت. احتجاج".

هز ماجد وآيري رأسيهما بجنون.

"حسنًا، هذا رائع بالفعل، وأفترض أن والدتيكما هندستا السيناريو كله؟ الأزياء؟ والمفكرتين؟"

صمت.

"أنتما مثل السجناء السياسيين... لا تمنحان أي شيء، حسنًا، هل يمكن أن يسأل المرء ما الذي تحتجان ضده؟"

أشار الولدان بإلحاح إلى الشارتين على ذراعيهما.

"خضار؟ أنتما تحتجان من أجل حقوق الخضار؟"

وضعت آيري يدًا فوق فمها كي توقف نفسها عن صراخ الجواب، بينما كتب ماجد بقلمه بسرعة: من أجل مهرجان الحصاد.

صاح صمد: "قلت لكما من قبل إنني لا أريدكما أن تشاركا في ذلك الهراء، لا علاقة لنا به يا ماجد. لماذا تحاول دومًا أنت تكون شخصًا ليس أنت؟"

كان هناك غضب متبادل وصامت حين تذكر كل منهما الحادثة المؤلمة التي أشير إليها. قبل بضعة أشهر، في عيد ميلاد ماجد التاسع، ظهر على الباب وبسلوك غريب مجموعة من الأولاد البيض الجميلي المنظر وسألوا عن مارك سميث.

قالت ألسانا منحنية إلى مستواهم بابتسامة لطيفة: "مارك؟ لا يوجد مارك هنا، لا يوجد إلا عائلة إقبال. جئتم إلى المنزل الخطأ".

لكن قبل أن تنهي الجملة اندفع ماجد إلى الباب، دافعًا أمه خارج البصر.

"مرحبًا".

"مرحبًا يا مارك".

"إلى نادي الشطرنج يا ماما".

قالت ألسانا، وهي على وشك البكاء من هذا التجاهل النهائي، واستخدام "ماما" بدلًا من "أمّا [74]": "نعم، يا مارك، لا تتأخر".

صاح صمد بماجد حين عاد إلى المنزل في ذلك المساء واندفع على الدرج كرصاصة كي يختبئ في غرفته: "لقد وهبتكَ اسمًا عظيمًا هو ماجد محفوظ

مرشد مبتسم إقبال وتريد أن تُدعى مارك سميث".

لكن هذا كان من أعراض مرض أكثر حدة فقط. فقد أراد ماجد في الحقيقة أن يكون في عائلة أخرى ما، أراد أن يمتلك القطط لا الصراصير، وأراد أن تعزف أمه موسيقا التشيلو، وليس صوت آلة الخياطة، أراد أن يكون لديهم عريشة من الأزهار تنمو في أحد جوانب المنزل بدلًا من الكومة المتنامية دومًا من قمامة بشر آخرين، وأراد بيانو في الصالون مكان الباب المحطم من سيارة ابن عمه خورشيد، وأراد أن يذهب ويقود الدراجة في العطل في فرنسا، وليس رحلات نهارية إلى بلاكبول كي يزور العمات، وأراد أن تكون أرضية غرفته خشبًا لامعًا وليس السجادة البرتقالية والخضراء الملفوفة والمتبقية من المطعم، وأراد أن يكون والده طبيبًا وليس خادمًا بيد واحدة، وفي هذا الشهر حول ماجد كل هذه الرغبات إلى رغبة كي ينضم إلى مهرجان الحصاد كما سيفعل مارك سميث.

لكن نريد أن نفعل هذا، أو سنتعرض للحجز. وقالت السيدة أوينز إنه تقليد.

تعكر مزاج صمد وصاح: "تقليد من؟" بينما بدأ ماجد الباكي يكتب بشكل مسعور. "اللعنة، أنت مسلم ولست شبح غابة! أخبرتك يا ماجد، أخبرتك الشرط الذي سيُسمح لك بموجبه أن تأتي معي إلى الحج. إذ كُتب لي أن ألمس الحجر الأسود قبل موتي سأفعل هذا وولدي الأكبر إلى جانبي".

كسر ماجد قلم الرصاص في المنتصف وكتب بالنصف الثاني غير المبري: هذا ليس عدلًا. لا أستطيع الذهاب إلى الحج. يجب أن أذهب إلى المدرسة. لا وقت عندي للذهاب إلى مكة. هذا ليس عدلًا!

"أهلًا بكم في القرن العشرين. ليس عادلًا. لم يكن عادلًا أبدًا".

نزع ماجد قطعة الورق التالية من المفكرة ورفعها أمام وجه والده. طلبتَ من والدها ألا يسمح لها بالذهاب.

لم يستطع صمد إنكار ذلك، ففي يوم الثلاثاء الماضي طلب من آرشي أن يتضامن معه ويُبقي آيري في المنزل في أسبوع المهرجان فحاول آرشي عرقلة الأمر

والمساومة خائفًا من غضب كلارا، لكن صمد أكد له: احتذي بمثالي يا أرشيبالد. من يلبس البنطلون في المنزل؟ فكر آرشي بألسانا، التي غالبًا ما تكون في ذاك البنطلون الحريري الجميل الضيق عند الكاحل، وصمد الذي يلبس بانتظام قطعة طويلة من القطن الرمادي المطرز، لونجي[75]، تُلف حول الخصر، من أجل جميع النوايا والأهداف. لكنه احتفظ بالفكرة لنفسه.

لن نتحدث إذا لم تسمح لنا بالذهاب، لن نتحدث أبدًا ثانية. حين نموت سيقول الجميع إنك أنت السبب. أنت أنت أنت.

عظيم، فكر صمد، المزيد من الدم والخطيئة اللزجة في يدي التي تعمل.

*****

لم يكن صمد يعرف أي شيء عن قيادة الأوركسترا، لكنه يعرف ماذا أحبَّ. وفي الحقيقة لم يكن هذا معقدًا جدًا، وخاصة الطريقة التي فعلتْ بها هذا، كان هناك بندول إيقاع بسيط 3\4 أحادي البعد رسمته في الجو بإصبعها السبابة، لكن آآآه أية متعة شعر بها وهو يراقبها تفعل ذلك، مديرة ظهرها له، قدمها العاري يرتفع، مع كل دقة ثالثة، منزلقًا خارج حذائها، بمؤخرتها الناتئة قليلًا، والمضغوطة في بنطلون الجينز في كل مرة تتقدم فيها إلى الأمام نحو عضو في الأوركسترا لا يؤدي الكريشندو جيدًا، أية متعة كانت هذه! أية رؤية! كان هذا كل ما في وسعه فعله كي يوقف نفسه عن الاندفاع إليها وحملها. أخافه مدى عجزه عن إزاحة عينيه عنها. لكن عليه أن يتعقّل فالأوركسترا بحاجة إليها، وربما لن ينجحوا من دونها في أداء هذا المقطع من "بحيرة البجع" (الذي ذكره أكثر ببطات تخوض في بقعة نفط). لكن كم يبدو تبديدًا رهيبًا، كمثل مراقبة طفل في حافلة يمسك دون تفكير صدر غريبة تجلس قربه، أي خسارة، أن يكون شيء بهذا الجمال تحت تصرف أولئك الصغار الذين لا يعرفون ماذا يفعلون به. في الثانية التي تذوّق فيها فكرته استعادها: صمد مياه... أكيد أنه رجل وصل إلى أسفل السافلين من يغار من طفل على صدر امرأة، من يغار من الشبان، من المستقبل....

ثم، ولم تكن هذه هي المرة الأولى في بعد الظهر ذاك، وبينما كانت بوبي بورت جونز ترفع نفسها من الحذاء مرة أخرى وتخضع البطات أخيرًا للكارثة الطبيعية، سأل نفسه: لماذا، بحق الله، أنا هنا؟ وجاء الجواب مرة أخرى بإلحاح التقيؤ: لأنني ببساطة لا أستطيع أن أكون في أي مكان آخر.

تيك، تيك، تيك. كان صمد شاكرًا لصوت العصا وهي تضرب منصب الأوراق، الذي قاطع أفكاره القريبة من البطاح.

"الآن، يا أطفال، توقفوا. اسكتوا. أبعدوا أفواهكم عن الآلات، الأقواس إلى الأسفل. إلى الأسفل يا أنيتا، تمامًا، على الأرض. شكرًا لكم. الآن: ربما لاحظتم أنه لدينا زائر اليوم". التفتت إليه وحاول بصعوبة أن يعثر على جزء منها كي يركز عليه، على بوصة ما لم تسخن دمه المضطرب. "هذا هو السيد إقبال، والد ماجد وميلات".

نهض صمد كأنه صدر له أمر عسكري للوقوف باستعداد، مغطيًا بعناية بمعطفه الطويل انتصاب عضوه، ولوح بارتباك، وجلس من جديد.

"قولوا مرحبًا يا سيد إقبال".

"مرحبًا يا سيد إكبول"، جاء صوت الكورس من الجميع ما عدا اثنين.

"الآن: ألا نرغب بأن نعزف الثلاثية أيضًا لأنه لدينا جمهور".

"نعم يا آنسة بورت جونز".

"وليس فقط السيد إقبال هو جمهورنا اليوم فحسب، بل هو جمهور خاص جدًا. لأنه بسبب السيد إقبال لن نعزف بحيرة البجع الأسبوع القادم بعد الآن".

قابل الإعلان زئير كبير، رافقه كورس ضال من أصوات الأبواق وضربات الطبل والصنج.

"حسنًا، حسنًا، يكفي. لم أتوقع موافقة ممتعة كهذه".

ابتسم صمد. إنها تمتلك حسَّ فكاهة إذًا، وهي ذكية، ذهنها حاد قليلًا، لكن لماذا يعتقد أنه كلما ازدادت أسباب ارتكاب الذنب، خفَّ قليلًا؟ كان يفكر كمسيحي ثانية، كان يقول: لا أستطيع قول ما هو أعدل من ذلك للخالق.

"ضعوا الآلات على الأرض. نعم أنت يا مارفن. شكرًا جزيلًا".

"ما الذي سنفعله إذًا بدلًا من ذلك يا آنسة؟"

بدأت بوبي بورت جونز، مرة ثانية بنصف الابتسامة الخجولة ونصف الجريئة نفسها التي لاحظها من قبل: "حسنًا... سنفعل شيئًا ما مثيرًا جدًا. في الأسبوع القادم أريد أن أحاول تجريب بعض الموسيقى الهندية".

عازف الصنج، الذي لا يعرف أي موقع سيشغل في تغيير جذري كهذا للنوع الموسيقي قرر أن يكون أول من يسخر من الخطة. "ما الذي تقصدينه تلك الموسيقا: إي ييييي آآآآآآآآآإيييي آآآآآ أووووو؟" قال مقدمًا عرضًا انطباعيًا يستحق الثناء عن الجهود التي توجد في بداية قطعة موسيقية هندوسية، أو في الغرفة الخلفية لمطعم هندي، مترافقة مع حركات الرأس. أطلق الصف ضحكة مدوية حين ردد قسم الآلات النحاسية صدى الهفوة الجماعية: إي ييييي آآآآآآآآآإيييي آآآآآ أووووو... ترافق هذا مع كمانات ساخرة صارخة ثقبت نصف سبات صمد العميق والإيروسي وأرسلت خياله إلى حديقة محاطة بالرخام حيث وجد نفسه يلبس الأبيض ويختبئ خلف شجرة كبيرة متجسسًا على بوبي بورت جونز التي ترتدي الساري ومنقطة الجبين وهي تدخل وتخرج دائرة حول بعض النوافير وتغازله، أحيانًا مرئية وأحيانًا لا.

بدأت بوبي بورت جونز، محاولة أن تفرض صوتها على الضجيج، ثم رفعته عدة درجات: "لا أظن، لا أظن أنه من الظريف جدًا أن-" وهناك انزلق صوتها عائدًا إلى المعتاد حين فهم الصف النبرة الغاضبة وهدأ- "لا أعتقد أنه من الظريف جدًا السخرية من ثقافة شخص آخر".

لم تكن الأوركسترا واعية أن هذا ما كانت تفعله، لكنهم كانوا يعرفون أن هذه هي الجريمة الأسوأ في كتاب قواعد مدرسة مانور، وهكذا نظر الجميع إلى أقدامهم.

"هل؟ هل؟ هل ستحبون إذا سخر أحد من الملكة؟"

صوفي، وهي طفلة في سن الثانية عشرة ومعاقة بشكل غامض مغطاة من

الرأس إلى أخمص القدمين بأدوات فرقة الروك الخاصة، حدقت من فوق زوج من النظارات ذات العدسات الدائرية وقالت: "لن أحب هذا يا آنسة".

"كلا، لن تحبيه، أليس كذلك؟"

"كلا يا آنسة".

"لأن فريدي ميركيري [76] من ثقافتك".

سمع صمد إشاعات انتشرت بين جميع خدم مطعم البالاس بأن شخصية ميركيري في الواقع هي فارسي فاتح البشرة يدعى فاروق، تذكره كبير الطباخين من المدرسة في بانشجاني، قرب بومباي. لكن من يرغب بأن يميّز؟ ولم يرغب صمد بأن يوقف بورت جونز الجميلة وهي تتدفق واحتفظ بالمعلومات لنفسه.

قالت الآنسة بورت جونز بوقار: "أحيانًا نجد موسيقى شعب آخر غريبة لأن ثقافته مختلفة عن ثقافتنا، لكن هذا لا يعني أنها ليست جيدة، أليس كذلك؟"

"كلا يا آنسة".

"ونستطيع أن نعرف عن بعضنا من خلال ثقافة بعضنا، أليس كذلك؟"

"نعم يا آنسة".

"مثلًا، ما الموسيقى التي تحبها يا ميلات؟"

فكر ميلات للحظة، وضع ساكسفونه إلى جانبه وبدأ يلعب به بأصابعه كغيتار: "ولدت كي أهرب، دا دا دا دااا! بروس سبرنجستين [77]، يا آنسة! دا دا دااا! حبيبتي، ولدنا..."

" لا شيء آخر؟ شيء تصغي إليه في المنزل، ربما؟"

خفض ميلات وجهه متضايقًا من أن جوابه لم يكن الجواب الصحيح. نظر إلى والده الذي كان يشير بشكل وحشي خلف المدرّسة محاولًا أن يوصل حركات الرأس واليدين المتشنجتين لرقصة بهاراتا ناتيام [78]، نوع الرقص الذي كانت تستمتع به ألسانا مرة قبل أن يثقل الحزن قلبها، ويقيد الأطفال يديها وقدميها.

غنى ميلات، بحنجرة ممتلئة، معتقدًا أنه التقط إشارة والده: "مثيرة! ليلة إثارة! مايكل جاكسون، يا آنسة، مايكل جاكسون!"

وضع صمد رأسه بين يديه. نظرت الآنسة بورت جونز بغرابة إلى الطفل الصغير الذي يقف على كرسي، وهو يدور ويمسك ما بين ساقيه أمامها. "حسنًا، شكرًا يا ميلات. شكرًا لمشاطرتنا... ذلك".

ابتسم ميلات. "لا يوجد مشكلة يا آنسة".

وبينما اصطف الطلاب كي يدفعوا عشرين بنسًا مقابل قطعتي بسكويت جافتين من نوع دايجست وكأسًا من عصير السكواش الذي لا طعم له، تبع صمد القدم الخفيفة لبوبي بورت جونز كوحش مفترس إلى حجرة الموسيقى، وهي غرفة صغيرة بلا نافذة ولا وسيلة للهرب ومليئة بالأدوات وخزانات الأرشفة التي تطفح بأوراق الموسيقى وعطر ظنه صمد عطرها لكن تبين أنه رائحة صادرة عن علب الكمانات الجلدية مختلطة مع الرائحة الطرية للأوتار المصنوعة من أحشاء الحيوانات.

"أهنا تعملين؟"، سألها صمد، مشيرًا إلى طاولة تحت جبل من الأوراق.

احمرت بوبي: "غرفة صغيرة، أليس كذلك؟ إن ميزانية الموسيقى تُخفَّض كل عام، وفي هذا العام لم يبق شيء كي يُخفض. وصلت الأمور إلى نقطة يضعون فيها الطاولات في الخزانات ويدعونها مكاتبَ. لولا مجلس لندن الكبرى لما وُجد هنا حتى طاولة".

قال صمد، فاحصًا الغرفة بلهفة من أجل بقعة يمكن أن يقف فيها وتكون هي في متناول ذراعيه: "واضح أنها غرفة صغيرة، يمكن للمرء أن يقول تقريبًا إنها خانقة".

"أعرف أنها كريهة، لكن ألن تجلس؟"

بحث صمد عن كرسي يمكن أنها تشير إليها.

أزاحت الأوراق والكتب والقمامة إلى الأرض بيد واحدة كاشفة عن كرسي سيّئ: "يا إلهي! أنا آسفة. إنه هنا. أنا صنعته لكنه آمن".

سألها صمد، باحثًا مرة أخرى عن أسباب جيدة كي يرتكب خطيئة سيئة: "هل أنت متفوقة في النجارة؟ حرفية ماهرة وموسيقية؟"

"كلا، كلا، كلا، حضرتُ بعض الدروس الليلية، ما من شيء خاص. صنعت

هذ الكرسي ومسند قدمين، لكن مسند القدمين انكسر، لستُ... لا أستطيع تذكّر نجار واحد".

"هناك دومًا يسوع".

"لكنني لا أستطيع أن أقول "أنا لست يسوع"...أعني هذا واضح أنني لست هو، لكن لأسباب أخرى".

جلس صمد على الكرسي المخلخل بينما جلست بوبي بورت جونز خلف مكتبها.

"تعنين أنك لست شخصًا جيدًا؟"

رأى صمد أنه أربكها بالوقار العرضي للسؤال، مررتْ أصابعها على أهدابها ولعبتْ بزر بلوزتها المصنوع من درع السلحفاة وضحكت وهي ترتجف: "أحب أن أفكر أنني لست سيئة بشكل كامل".

"وهذا كاف؟"

"حسنًا...أنا..."

بدأ صمد: "آه يا عزيزتي، أعتذر... لم أكن جديًا يا آنسة بورت جونز".

"حسنًا... لنقل أنني لست السيد تشيبنديل[79]، هذا سيعمل".

قال صمد بلطف، معتقدًا أن ساقيها أجمل بكثير من ساقيْ الملكة آن: "نعم، هذا سيعمل".

"والآن، أين كنا؟"

انحنى صمد قليلًا فوق المكتب، كي يواجهها: "أين كنا يا آنسة بورت جونز؟"

(استخدم عينيه، تذكر أن الناس كانوا يقولون إن عينيْ ذلك الفتى الجديد في دلهي، صمد مياه، يموت المرء من أجلهما).

"كنت أبحث - أبحث- عن ملاحظاتي- أين ملاحظاتي؟"

بدأت تبحث في فوضى مكتبها الكارثية، واتكأ صمد إلى الخلف على كرسيه، مستمتعًا قدر الإمكان من حقيقة أن أصابعها، إذا لم يكن مخطئًا، بدت مرتجفة. لو كانت هناك فقط لحظة، حينئذ فحسب! كان في السابعة والخمسين، مرت

عشر سنوات منذ أن سنحت له لحظة، لم يكن متأكدًا على الإطلاق أنه سيتعرف على لحظة إذا جاءت واحدة. قال لنفسه وهو يجفف وجهه بمنديل: أنت أيها العجوز، أيها الأحمق العجوز، غادرْ الآن، غادرْ قبل أن تغرق في ذنوبك المتضخمة (ذلك أنه كان يتعرق كخنزير)، غادر قبل أن يسوء الأمر أكثر من ذلك. لكن هل هذا ممكن؟ هل كان ممكنًا أنه في الشهر الماضي، الشهر الذي كان يدلّك فيه عصَبه ويقذف، ويصلي ويتوسل، عاقدًا صفقات ومفكرًا، مفكرًا دومًا بها، أنها كانت تفكر به؟

"آه! بينما كنت أبحث... أتذكر أن هناك شيئًا كنت أريد أن أطلبه منك".

نعم! قال الصوت المجسم الذي سكن في خصية صمد اليمنى. مهما كان السؤال فإن الجواب هو نعم نعم نعم. نعم سنمارس الجنس على هذه الطاولة نفسها، سنحترق من أجله، ونعم يا آنسة بورت جونز، نعم، الجواب هو بشكل محتم وأكيد نعم. لكن نوعًا ما، في الخارج حيث تواصلت المحادثة، في العالم العقلاني على بعد أربعة أقدام فوق كيس خصيتيه، تبين أن الجواب: "الأربعاء".

ضحكت بوبي: "كلا، لا أعني أي يوم هو، لا أبدو بهذا الغباء، أليس كذلك؟ كلا، عنيت أي يوم هو للمسلمين، فقد شاهدت ماجد يرتدي ثيابًا من نوع معين وحين سألته ما المناسبة لم يقل لي شيئًا. كنت متضايقة جدًا لاحتمال أنني قد أهنته بطريقة ما".

تجهم صمد. كان من المزعج له أن يتم تذكيره بأحد أولاده فيما هو يحسب الظل الدقيق وصلابة حلَمة استطاعت تأكيد نفسها عبر حمالة الصدر والقميص.

"ماجد؟ من فضلك لا تزعجي نفسك بماجد. أنا متأكد أنه لم يشعر بالإهانة".

قالت بوبي بابتهاج: "إذًا كنت مصيبة، هل هذا نوع من الصيام عن الكلام؟"

قال صمد مرتبكًا، غير راغب بأن يكشف مأزق أسرته: "... نعم، نعم، إنه رمز قرآني... تأكيد أن القيامة ستقوم وتفقدنا وعينا وتحبس ألسنتنا. وهكذا

فإن الابن الأكبر للعائلة يرتدي السواد ويحتقر الكلام... فترة... لبعض الوقت كعملية تطهير".

"يا إلهي! فهمت. هذا ساحر. وماجد هو الأكبر؟"

"بدقيقتين".

ابتسمت بوبي: "فقط عندئذ، إذًا".

"دقيقتان، أحدثتا كل الفرق"، قال صمد بصبر، لأنه كان يتحدث مع شخص لا يعرف إلى أين وصل تأثير فترات قصيرة من الوقت كهذه في تاريخ عائلة إقبال.

"وهل للعملية اسم؟"

"أمار دور بول لا غشي".

"ما الذي يعنيه هذا؟"

الترجمة الحرفية: أشعر بالضعف، ويعني، يا آنسة بورت جونز، أن كل شعرة مني تشعر بالضعف من رغبتي بتقبيلك.

قال صمد بصوت مرتفع، دون أن يفقد نبرته: "تعني عبادة الخالق القائمة على إغلاق الفم".

"الشعور بالضعف". قالت بوبي بورت جونز.

"بالفعل"، قال صمد مياه.

انحنت بوبي بورت جونز إلى الأمام على كرسيها: "لا أعرف... بالنسبة لي إنه فقط كمثل فعل السيطرة على الذات غير القابل للتصديق. ليس لدينا هذا في الغرب، الإحساس بالتضحية. أنا معجبة كثيرًا بالإحساس الذي يمتلكه قومك بالتقشف وبكبح الذات".

عند هذه النقطة رفس صمد الكرسي الذي تحته كمثل رجل يشنق نفسه، وقبّل الشفتين الثرثارتين لبوبي بورت جونز بشفتيه المحمومتين.

7

أضراس

سيكرر الأبناء الغربيون ذنوب الآباء الشرقيين، وغالبًا ما تأخذ وقتها وتُخزن في الجينات كالصلع أو سرطان الخصية، لكنها تحدث أحيانًا في اليوم نفسه، وأحيانًا في اللحظة نفسها. على الأقل، سيفسّر هذا كيف أنه بعد أسبوعين، أثناء المهرجان السلتيّ الذي يُدعى مهرجان الحصاد، كان صمد موجودًا، وضع القميص الوحيد الذي لم يلبسه أبدًا حين يذهب إلى المسجد (كل شيء طاهر للطاهرين) في كيس بلاستيكي، بحيث يمكن أن يبدل فيما بعد ويلتقي بالآنسة بوبي بورت جونز (الرابعة والنصف في هارلسدن كلوك) دون أن يثير الشبهة... بينما وضع ماجد وميلات (اللذان يمتلكان رأيًا مخالفًا) أربع علب من الحمص منتهية الصلاحية، وكيسًا من أنواع مختلفة من رقائق البطاطا وعددًا من التفاحات في حقيبتي ظهر (لا أستطيع قول ما هو أعدل من هذا)، تحضيرًا للقاء مع آيري (في الرابعة والنصف، عند شاحنة البوظة) كي يزوروا العجوز الذي اختير لهم، والذي سيقدمون له فعل الخير الوثني، وهو يدعى السيد جي. بي. هاملتون من كينسال رايس.

كان جميع المنخرطين في المسألة يجهلون خطوط مسارات قديمة تجري تحت هاتين الرحلتين، أو كي نعبر بلغة حديثة: هذه إعادة عرض. كنا هنا من قبل. ويشبه هذا مشاهدة التلفزيون في بومباي أو كينجستون أو دكا، ومشاهدة

المسرحيات الهزلية البريطانية نفسها المتقيأة إلى المستعمرات القديمة في دورة أبدية مملة، لأن المهاجرين يميلون دومًا على نحو خاص إلى التكرار، وهذا شيء يتعلق بتجربة الانتقال من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب أو من جزيرة إلى جزيرة. وحتى حين تصل أنت تظل تذهب وتأتي، وأطفالك يواصلون الذهاب والعودة. ولا يوجد مصطلح ملائم للتعبير عن هذا. إن مصطلح **الخطيئة الأصلية** يبدو قاسيًا، ربما مصطلح **الصدمة الأصلية** أفضل. إن الصدمة شيء ما يكرره المرء ويواصل تكراره، في النهاية، وهذه مأساة عائلة إقبال، أنهم لا يستطيعون إلا أن يعيدوا تمثيل الاندفاع الذي قاموا به مرة من أرض إلى أخرى، ومن دين إلى آخر، ومن وطن أم أسمر إلى الذراعين البيضاوين المنمشتين لبلد إمبريالي مهيمن. وسيستغرق الأمر بضع إعادات قبل أن ينتقلوا إلى اللحن التالي. وهذا ما يحدث بينما تخيط ألسانا بصوت مرتفع على آلتها السنجر الصاخبة، وتقوم بدرزة مزدوجة حول فراغ لباس مفتوح في منطقة ما بين الفخدين، متناسية الأب والولدين الذين يتحركون في المنزل ويحزمون الملابس والمؤن. إنها زيارة مكررة، اندفاع عبر القارات، إعادة عرض. لكن تحدث واحدة كل مرة، الآن، واحدة كل مرة...

*****

كيف يستعد الشبان الآن لمقابلة العجائز؟ بالطريقة نفسها التي يستعد بها العجائز للقاء مع الشبان، أي بتوقع منخفض لعقلانية الآخر، وبمعرفة أن الآخر سيواجه صعوبة في فهم ما يقولونه، أن الأمر سيتجاوزهم (ليس كثيرًا فوق الرأس بقدر ما هو بين الساقين) وبشعور أنهم يجب أن يحضروا معهم شيئًا ما يحبه الآخر، شيئًا ما مناسبًا، مثل بسكويت غاريبالدي.

قالت آيري حين سأل التوأمان عن خيارها، بينما كان الثلاثة يشقون طريقهم إلى جهتهم في الحافلة 52: "يحبونه، يحبون الزبيب الذي فيه. العجائز يحبون الزبيب".

قال ميلات، من تحت شرنقة التومترونيك: "لا أحد يحب الزبيب. عنب ميت، مقرف. من يريد أن يأكله؟"

ألحت إري، معيدة البسكويت إلى حقيبتها: "إن العجائز يرغبون به، وهو ليس ميتًا، في الواقع، بل مجفف".

"نعم، بعد موته".

"اخرس، يا ميلات. ماجد، قل له أن يخرس".

رفع ماجد نظارته إلى أعلى أنفه وغيّر الموضوع بشكل دبلوماسي: "ماذا أحضرت أيضًا؟"

مدت آيري يدها إلى حقيبتها: "جوزة هند".

"جوزة هند!"

قالت آيري، مزيحة الجوزة من متناول ميلات: "أضف لمعلوماتك أن العجائز يحبون جوز الهند. يستطيعون استخدام حليبه لشايهم".

ألحت آيري في وجه تعبير ميلات عن قرفه: "وأحضرتُ بعض الخبز الفرنسي القاسي وبعض قطع الجبن وتفاحًا".

قاطعها ميلات: "لقد أحضرنا تفاحًا يا زعيمة". تفوه بكلمة "زعيم" لسبب مجهول مخبأ في مفردات محكية شمال لندن، والتي تعني حمقاء ومؤخرة ومستمنيًا وخاسرًا.

"حسنًا، أحضرتُ تفاحات أكثر وأفضل، بالفعل، وبعض حبوب نعنع الكندال وبعض ثمار الآكي والسمك المملح".

"أكره الآكي والسمك المملح".

"من قال إنك كنت تأكلينه؟"

"لا أريد ذلك".

"حسنًا، لن تفعلي".

"حسنًا، لأنني لا أريد أن أفعل".

"حسنًا، لن أسمح لك حتى ولو أردت ذلك".

قال ميلات دون أن يحرك جهاز التوميترونيك الخاص به، ووصمها بكلمة عار، بالطريقة التقليدية، ممرّرًا راحة كفه على جبين آيري: "حسنًا، هذا جيد لأنني لا أريد. عار، عار في الدماغ".

"حسنًا، لا تقلق، لأنك في الحقيقة لن تحصل عليه".

"آه، حميَ الجو، تصاعد الخلاف"- صاح ماجد وهو يمرر راحة كفه - "لقد وُصمت بالعار يا رجل".

"حسنًا، لا أشعر بالعار في الواقع، أنت تشعر بالعار لأن هذا للسيد ج.بي. هاملتون..."

"محطتنا!" صاح ماجد ناهضًا على قدميه وضاغطًا على الجرس عدة مرات.

قال شخص كبير في السن يعيش على الإعانات لآخر: "إذا سألتني يجب أن يعودوا إلى بلدهـ......"

لكن هذه الجملة التي هي الأقدم في العالم اختنقت وسط ضجيج رنين الأجراس ودوس الأقدام وتدحرجت إلى تحت المقاعد مع العلكة.

"هذا معيب! معيب! نعرف اسمك"، قال ماجد. واندفع ثلاثتهم على درج الحافلة.

*****

تسلك الحافلة 52 طريقين، فمن ولسدن يستطيع أن يركبها المرء نحو الغرب كما فعل الأطفال، عبر كينسال رايس، إلى بورتوبيلو ونايتسبريدج، ويراقب الألوان الكثيرة تتحول إلى الألوان البيضاء المتوهجة للبلدة، أو يستطيع أن يستقلها من الشرق، كما فعل صمد، ولسدن، دوليس هيل، هارلسدين، ويراقب بمقت (إذا كان يخاف كصمد، إذا كان كل ما تعلمه من المدينة هو أن يعبر الطريق في مرأى رجال سود) كيف يذوي اللون الأبيض متحولًا إلى أصفر ثم إلى بني، ثم تدخل ساعة هارلسدين في مجال البصر منتصبة كمثل تمثال الملكة فكتوريا في كينجستون، حجرًا أسود محاطًا بالسواد.

فوجئ صمد، نعم فوجئ، أن المكان هو هارلسدين الذي همستْهُ له حين ضغط على يدها بعد القبلة، القبلة التي لا يزال يشعر بطعمها، وطلب أين يمكن أن يعثر عليها، بعيدًا عن هنا ("أولادي، زوجتي"، تمتم، بشكل غير متماسك)، متوقعًا إسلنجتون أو ربما ويست هامبستيد، أو على الأقل سويس كوتاج، وحصل بدلًا من ذلك على، "هارلسدين، أعيش في هارلسدين".

"عقارات ستوتبريدج؟" سألها صمد مذعورًا، بعينين مذهولتين من الطرق الإبداعية التي ابتدعها الله كي يعاقبه، متصورًا نفسه فوق عشيقته الجديدة وسكين رجل عصابات بطول أربع بوصات في ظهره.

"كلا، لكن ليس بعيدًا عن هنا. هل تريد أن نلتقي؟"

كان فم صمد المسلح الوحيد على الهضبة المعشبة في ذلك اليوم يقتل دماغه ويقسم لتولي السلطة في الوقت نفسه.

"نعم، اللعنة، نعم".

ثم قبّلها ثانية، محولًا شيئًا ما طاهرًا نسبيًا إلى شيء آخر، ممسكًا صدرها بيده اليسرى ومستمتعًا بأخذها لنفس عميق حين فعل هذا.

ثم قاما بتبادل قصير إلزامي يقوم به من يمارسون الغش كي يجعلهم يشعرون بأنهم أقل غشًا من الذين يمارسونه.

"في الحقيقة يجب ألا..."

"لست متأكدًا كيف هذا..."

"حسنًا يجب أن نلتقي على الأقل كي نناقش ما الذي..."

"بالفعل، ما حدث يجب أن يُناقش".

"زوجتي... أولادي..."

"لنمنح الأمر بعض الوقت... أسبوعين، الأربعاء؟ الرابعة والنصف؟ ساعة هارلسدين؟

كان بوسعه على الأقل في الفوضى الكريهة أن يهئ نفسه على هذا التوقيت، الرابعة والربع، في الوقت الذي صعد فيه إلى الحافلة، مما ترك خمس دقائق

للدخول إلى مرحاض مطعم مكدونالد (الذي له حراس سود على الباب، حراس سود لمنع السود) حيث نزع ملابس المطعم وارتدى بذلة زرقاء غامقة، بقبة مفتوحة عند العنق وقميصًا رماديًا، وضع في جيبه مشطًا كي يعالج شعره الكثيف ويحوله إلى شكل مطيع ما. وحين أشار عقرب الساعة إلى الرابعة وعشرين دقيقة، بقيت خمس دقائق كي يزور ابن عمه حكيم وزوجته زينات اللذين يديران حانوتًا يبيع كل شيء بجنيه ونصف (حوانيت تتاجر تحت الفرضية المزيفة بأنها لا تبيع أي مادة فوق هذا السعر لكن لدى الفحص الدقيق يتبين لك أن هذا هو الحد الأدنى للأسعار في المحل).

"صمد مياه، آه! تبدو أنيقًا جدًا اليوم، لا يمكن أن يكون هذا دون سبب".

كان لزينات فم كبير كنفق بلاكويل وكان صمد يعتمد عليه.

قال صمد، وقد بدا بشكل متعمد مخادعًا: "شكرًا يا زينات، بالنسبة للسبب... أنا غير متأكد ماذا أقول".

"صمد، إن فمي كالقبر، كل ما يقال لي يُدفن فيه".

كان كل ما يقال لزينات يضيء بشكل ثابت شبكة الهاتف ويحسن الهوائيات وموجات الراديو والأقمار الصناعية على طول الطريق، وتلتقطه في النهاية حضارات غريبة وهو يقفز مرتدًا عبر جو الكواكب البعيدة عن كوكبنا هذا.

"حسنًا، الحقيقة..."

"قسمًا بالله، تابعْ!" صاحت زينات، التي كانت الآن تقريبًا في الجانب الآخر من الكاونتر، وتستمتع كثيرًا بالثرثرة.

"إلى أين أنت ذاهب؟"

"حسنًا... سأزور رجلًا في بارك رويال بخصوص موضوع التأمين على الحياة. أريد أن تحظى ألسانا بعناية جيدة بعد موتي، لكن!" - قال هازًا إصبعًا للمحققة معه المتلألئة والمغطاة بالمجوهرات والتي تظلل عينيها بإفراط - "لا أريدها أن تعرف! إن أفكار الموت مقيتة لها يا زينات".

"هل سمعتَ هذا يا حكيم؟ إن بعض الرجال يقلقون على مستقبل

زوجاتهم! تابع طريقك، اخرج من هنا، لا أريد أن أؤخرك يا ابن العم. ولا تقلق" - نادت خلفه وبشكل متزامن مادة يدها إلى الهاتف بأظافرها الطويلة المجعدة - "لن أقول كلمة واحدة لإلسي".

بعد أن قدم العذر بقي ثلاث دقائق لصمد كي يفكر بما يحضره عجوزٌ لشابة، شيء ما رجل أسمر عجوز يحضره لفتاة بيضاء في تقاطع أربعة شوارع سوداء، شيء ما مناسب...

"جوزة هند؟"

حملت بوبي بورت جونز الثمرة المشعرة بين يديها ونظرت إلى صمد بابتسامة محتارة.

قال صمد بعصبية: "إنها شيء مشوش، فيها عصير كثمرة لكنها قاسية كالجوز، بنية وقديمة من الخارج لكنها بيضاء وطازجة من الداخل. لكن المزيج ليس سيئًا كما أظن. نستخدمه أحيانًا" - قال دون أن يعرف ما يقول - "في الكري".

ابتسمت بوبي ابتسامة رائعة أكدت كل الجمال الطبيعي لذلك الوجه، والتي كان فيها كما ظن صمد شيء ما أفضل وأطهر مما كانا يفعلانه.

"إنها جميلة"، قالت.

*****

في الشارع وعلى بعد خمس دقائق من العنوان الذي على أوراقهم المدرسية كانت آيري لا تزال تشعر باللسعة الحارة المزعجة للوصم بالعار وأرادت مجابهة ثانية.

"سأستولي على هذه" - قالت مشيرة إلى دراجة نارية قديمة مسندة إلى قناة كينسال رايس. "سأستولي على هذه وتلك"، مشيرة إلى دراجتيْ بي أم إكس قربها.

قفز ميلات وماجد إلى العمل. كانا يعرفان جيدًا ويحبان كلاهما ممارسة لعبة "الاستيلاء" على شيء ما، والتي بواسطتها يقوم المرء بمصادرة أشياء في الشارع ليست له كمثل مُستعمر وافد حديثًا.

"ماذا! صدقي أنني لا أريد أن أستولي على هذه الأشياء التافهة"، قال ميلات باللكنة الجامايكية التي يستخدمها كل الأطفال مهما كانت جنسيتهم للتعبير عن الازدراء. "سأصادر تلك، قال مشيرًا إلى سيارة إم جي حمراء لامعة صغيرة وجميلة على وشك الانعطاف. "وتلك بقوة"، صاح، مشيرًا قبل ماجد حين مرت إم دبليو بسرعة، و لم يعترض ماجد على ذلك.

آيري التي اكتأبت قليلًا من هذا المنعطف في مسار الأحداث نقلت عينيها عن الطريق إلى الأرض، حيث جاءها فجأة وميض إلهام.

"أستولي على هذا".

توقف ماجد وميلات ونظرا بجلال إلى الحذاء الرياضي الذي تمتلكه آيري الآن (وعليه علامة حمراء، وأخرى زرقاء، وجميل جدًا، كما نوه ميلات فيما بعد، مما يجعلك ترغب بقتل نفسك) على الرغم من أنه بدا للعين المجردة كأنه يمشي إلى كوينز بارك مثبتًا إلى قدمي فتى أسود طويل بشعر غير ممشط.

هز ميلات رأسه على مضض: "أحترم هذا. أتمنى لو أنني رأيته".

"أستولي على هذا"، قال ماجد فجأة، دافعًا إصبعه المتسخ على زجاج حانوت ما في اتجاه علبة أدوات كيماوية بطول أربعة أقدام عليها وجه شخصية تلفزيونية متقدم في السن على الواجهة. لمس الواجهة بإبهامه: "أووه! أستولي على هذا".

تبع ذلك صمت وجيز.

سأله ميلات مشككًا: ""تستولي على هذه؟ على مجموعة أدوات كيماوية؟"

وقبل أن يعرف ماجد المسكين أين هو، صفعه كفّان صفعة قاسية على جبينه، وقاما بالكثير من الفرك بالإضافة إلى ذلك. خصّ ماجد آيري بنظرة "حتى أنت يا بروتس" التي تعبر عن التوسل، عارفًا أن هذا بلا فائدة. لا يوجد صدق بين الذين هم في العاشرة.

"العار! العار! أعرف اسمك!"

أنَّ ماجد من حرارة الوصم بالعار: "السيد. ج. بي. هاملتون. لقد وصلنا. منزله هناك. إنه شارع هادئ، لا تستطيع أن تصدر كل هذه الضجة. إنه عجوز".

قال ميلات: "لكن إذا كان عجوزًا، سيكون مصابًا بالصمم. وإذا كنت هكذا لا تستطيع أن تسمع".

"الأمر لا يعمل هكذا. من الصعب على العجائز. لا تفهم".

قالت إري: "إنه على الأرجح عجوز إلى درجة أنه لا يستطيع إخراج الأشياء من الأكياس. يجب أن نخرجها ونحملها بأيدينا".

اتفقوا على هذا، واستغرقوا بعض الوقت في ترتيب كل الأطعمة في أيدي ومخابئ الجسد، كي يفاجئوا السيد جي. بي هاملتون بحجم عملهم الخيري حين يفتح الباب. وحين فتح السيد جي. بي. هاملتون الباب ورأى على العتبة ثلاثة أطفال سود يحملون مقذوفات متنوعة. كان عجوزًا كما تخيلوا لكنه أكثر طولًا ونظافة بكثير، فتحَ الباب قليلًا فقط، مبقيًا يده بسلسلة جبالها من الشرايين الزرقاء على القبضة، بينما نتأ رأسه خارج الإطار. ذكّر آيري بنسر مكتهل أنيق، عليه خصل شعر تشبه الريش تنتأ من طبلتيْ أذنيه، وكلفتي كميه وعنقه ويندفع رذاذ شعر أبيض على جبينه، أصابعه متشنجة ومحكمة كالمخالب، وكما يمكن أن يتوقع المرء من طائر إنكليزي مكتهل في بلاد العجائب كان يلبس ثيابًا جيدة مؤلفة من صدار جلدي وجاكيت تويد وساعة بسلسال ذهبي.

كان متلألئًا كالعقعق من التبعثر الأزرق في عينيه اللتين لم يعتمهما البياض والاحمرار المحيطان، وفي إصبع يده خاتم عليه أحرف اسمه، ويعلق أربعة أوسمة فضية تمامًا فوق قلبه، وينتأ من جيبه الصدري الطوق الفضي لعلبة سجائر دون فلتر.

جاء الصوت من الرجل الطائر، صوت حتى الأطفال شعروا أنه من طبقة أخرى، وحقبة أخرى: "من فضلكم، أطلب منكم الرحيل عن عتبة بابي. لا أملك نقودًا، وهكذا إن كانت نيتكم السرقة أو البيع فقد خاب أملكم".

خطا ماجد إلى الأمام محاولًا أن يضع نفسه في خط بصر العجوز، ذلك أن العين اليسرى، الزرقاء كتبعثر رالي، كانت تنظر خلفهم، بينما اليمنى مضغوطة تحت التجاعيد بحيث أنه لم يفتحها جيدًا. "سيد هاملتون، ألا تذكر؟ المدرسة

أرسلتنا، هذه..."

قال: "وداعًا الآن"، كما لو أنه يودع عمة كبيرة في السن ذاهبة في رحلة قطار، ثم مرة أخرى "وداعًا"، ومن خلال لوحين من الزجاج الرخيص الملطخ على الباب المغلق راقب الأطفال الشكل الطويل للسيد هاملتون، وكان ضبابيًا كما لو أنه من الحرارة، ويسير ببطء بعيدًا عنهم في الردهة إلى أن امتزجت بقعه البنية بالبقع البنية لأثاث المنزل واختفى.

شد ميلات جهاز التومترونيك حول رقبته وعبس وضرب بقبضته مصممًا جرس الباب وشده إلى الأسفل.

اقترحت آيري: "ربما، لا يريد المواد".

أفلت ميلات جرس الباب لوقت قصير. "لا بد أنه يريدها. لقد طلبها"، صاح ضاغطًا على الجرس بقوته الكاملة. "هذا حصاد الرب، أليس كذلك؟ سيد هاملتون! سيد جي. بي هاملتون!"

ثم بدأت تلك العملية من الاختفاء ترجع إلى الخلف وعاود تشكيل نفسه عن طريق ذرات درج وخزانة ثياب إلى أن عاد إلى شكله الأصلي والتف حول الباب.

فقد ميلات صبره ودفع ورقة معلومات المدرسة بين يديه. "إنه حصاد الرب".

لكن العجوز هز رأسه كعصفور في حمام للطيور: "كلا، كلا، في الحقيقة لا أريد أن أجبر على الشراء على عتبة بيتي. لا أعرف ماذا تبيعون، من فضلكم، لا أريد موسوعات، في سني لا يحتاج المرء لهذه المعلومات".

"لكن هذا مجاني".

"آه... نعم، أرى... لماذا؟"

"إنه حصاد الرب"، كرر ماجد.

"لمساعدة الجماعة المحلية. سيد هاملتون، لا بد أنك تحدثت مع أستاذتنا، لأنها أرسلتنا إلى هنا. ربما نسيت"، أضافت آيري بصوتها الذي كصوت الناضجين.

لمس السيد هاملتون صدغه بحزن وكأنه يريد استعادة الذاكرة ثم ببطء شديد فتح الباب الأمامي بشكل كامل وسار كالحمامة إلى الأمام في ضوء الخريف.

"حسنًا... من الأفضل أن تدخلوا".

تبعوا السيد هاملتون إلى ظلمة صالون منزله. كان مكتظًا بأشياء من العهد الفكتوري معطلة ومكسورة وتفصل بينها علامات حياة أحدث: دراجات هوائية معطلة، كمبيوترات أطفال منسقة، أربعة أزواج من الأبواط بنمر مختلفة.

قال بابتهاج، حين وصلوا إلى غرفة الجلوس بنوافذها الجميلة المطلة على الخليج التي يمكن من خلالها رؤية حديقة واسعة: "والآن، ماذا لدينا هنا؟"

وضع الأطفال حمولتهم على كرسي طويل أكلته حشرات العث، وكان ماجد يدفع البضائع كأنها من قائمة تسوق، بينما أشعل هاملتون سيجارة وفحص المأكولات بأصابع مرتجفة.

"تفاح... آه، عزيزي كلا، حمص... كلا كلا كلا... رقائق بطاطا".

ومر الأمر هكذا، ذُكرت كل مادة بالدور وانتُقدت، إلى أن نظر العجوز إليهم بدموع خفيفة في عينيه: "لا أستطيع أن آكل أيًا من هذا... قاس جدًا، قاس جدًا جدًا. كل ما أستطيع تناوله هو ربما الحليب الذي في جوزة الهند. مع ذلك... سنتناول بعض الشاي، ألا تريدون؟ هل ستبقون من أجل الشاي؟

نظر الأطفال إليه نظرة فارغة.

"هيا يا أعزائي، اجلسوا".

جلس كل من آيري وماجد وميلات بعصبية على الكرسي الطويل. ثم صدر صوت طقطقة وحين نظروا إلى الأعلى كانت أسنان السيد هاملتون على لسانه كما لو أن فمًا ثانيًا خرج من الأول. ثم في ومضة عادت إلى الداخل.

"لا أستطيع أكل أي شيء إلا إذا طُحنَ، كما ترون، هذا خطئي، أعوام وأعوام من الإهمال. لم تكن الأسنان النظيفة أولوية أبدًا في الجيش". أشار إلى نفسه بشكل مشوش، ربتة مرتبكة على صدره بيد مرتجفة. "كنت عسكريًا. كم مرة تفرشون أسنانكم يا شبان؟"

قالت آيري كاذبة: "ثلاث مرات في اليوم".

صاح ميلات وماجد: "كاذبة. كاذبة... بنطلونك يحترق".

"مرتان ونصف".

"حسنًا يا عزيزتي، أي منها؟" قال السيد هاملتون ممسدًا بنطلونه بيد ورافعًا الشاي باليد الأخرى.

قالت آيري بخجل، وقد أجبرها القلق في صوتها على قول الحقيقة: "مرة في اليوم. معظم الأيام".

"أخشى أنك ستندمين على هذا. وأنتما الاثنان؟"

كان ماجد يحاول صياغة تصور متقن حول آلة فرشاة أسنان تقوم بالعمل وأنت نائم، لكن ميلات قال مباشرة: "نفس الشيء، مرة في اليوم، تقريبًا".

اتكأ السيد إلى الخلف بشكل تأملي على الكرسي: "إن المرء ينسى أحيانًا أهمية أسنانه. نحن لسنا كالحيوانات الأدنى، أسنانها تُستبدل بشكل منتظم، نحن من الثدييات، كما ترون، والثدييات تحظى بفرصتين، مع الأسنان. هل تريدون المزيد من السكر؟"

رفض الأطفال المنتبهون إلى فرصتيهم بلباقة.

"لكن كمثل الأشياء كلها، للعمل جانبان. إن الأسنان البيضاء النظيفة لا تنم دومًا عن حكمة. على سبيل المثال: حين كنت في الكونغو كانت الطريقة الوحيدة التي أحدد فيها الزنجي هي بياض أسنانه، إذا فهمتم ما أعنيه. عمل مريع وكريه كاللواط. وكانوا يموتون بسبب ذلك. أولاد الحرام المساكين. أو بالأحرى كنت أنا أبقى على قيد الحياة، كي أنظر إلى الأمر بطريقة أخرى، هل تفهمون؟"

جلس الأطفال صامتين. ثم بدأت آيري تبكي بصمت.

واصل السيد هاملتون: "كانت تلك قرارات منفصلة تُتخذ في الحرب. ترى وميض بياض وفرقعة، كما حدث. سيّئ كاللواط. أوقات مريعة. كل أولئك الأطفال يستلقون ميتين هناك، أمامي، عند قدمي. المعدة مفتوحة، أحشاؤهم على حذائي، كمثل نهاية العالم اللعين. رجال جميلون، طوّعهم الألمان [80]، سود كأس البستوني، الحمقى المساكين لم يعرفوا حتى لماذا كانوا هناك، أي شعب يقاتلون من أجله، وعلى من يطلقون النار. كان هذا قرار البندقية. أطفال

سريعون. متوحشون. هل تريدون البسكويت؟"

همست آيري: "أريد أن أذهب إلى المنزل".

قال ميلات محمرّ الوجه وغاضبًا: "كان أبي في الحرب. لعب من أجل إنكلترا".

"حسنًا، يا فتى، هل تعني فريق كرة القدم أم الحرب؟"

قال ماجد: "خدم في الجيش البريطاني. كان يقود دبابة من نوع تشرشل مع والدها".

قال السيد هاملتون، الأنيق كما دائمًا: "أخشى أن تكون مخطئًا، لم يكن هناك أشخاص من غير البيض كما أذكر، على الرغم من أنه ليس مسموحًا لك أن تقول هذا في هذه الأيام... لم يكن هناك باكستانيون... ما الذي كنا سنطعمهم؟ كلا، كلا" - قال مؤكدًا المسألة كما لو أنه مُنح الفرصة كي يعاود كتابة التاريخ الآن وهنا - "لم يكن هذا واردًا، لا أصدق هذا. لم يكن هناك باكستانيون. كان الباكستانيون في الجيش الباكستاني، أتفهمون؟ بالنسبة للبريطانيين المساكين، كان لديهم ما يكفي من المشاكل من ملكاتنا العجائز..."

ضحك السيد هاملتون لنفسه ضحكة خفيفة ثم أدار رأسه وبصمت عبّر عن إعجابه بالأغصان المتفرعة لشجرة كرز احتلت زاوية كاملة من حديقته. وبعد وقفة طويلة التفت إلى الخلف والدموع مرئية في عينيه مرة أخرى، دموع سريعة وحادة كما لو أنه صُفع على الوجه: "الآن، أنتم أيها الشبان يجب ألا تتفوهوا بالأكاذيب؟ إن الأكاذيب ستجعل أسنانكم تنتن".

قال ماجد المحافظ دومًا على الهدوء: "هذه ليست أكذوبة يا سيد جي. بي. هاملتون، هذا ما حدث بالفعل، لقد أطلقوا النار على يده. لديه أوسمة. كان بطلا".

واصل السيد هاملتون مبتسمًا للسقف: "وحين تهترئ أسنانكم، آه، لا يوجد عودة. لن ينظروا إليكم كما اعتادوا، لن تخصكن الجميلات بنظرة ثانية، حتى من أجل النقود، لكن بينما أنتم شبان إن المسألة المهمة هي الأرحاء الثالثة (أضراس العقل) ويجب أن تتعاملوا معها قبل أي شيء آخر، وكان هذا سبب

سقوطي، لم تحصلوا عليها بعد لكن أحفادي يشعرون بها الآن. إن المشكلة مع أضراس العقل هي أن المرء ليس متأكدًا أبدًا إن كان فمه كبيرًا بما يكفي كي يحتوي عليها. إنها الجزء الوحيد من الجسد الذي يجب أن يعتني به المرء. يجب أن يخص هذه الأضراس بالعناية. أتفهمون؟ لأنه إذا لم يفعل، آه يا أعزائي ستنطمر أو ترفض النمو. وستبقى منطمرة هناك في العظم، هذه هي التسمية كما أظن وينشأ عن هذا التهاب مريع. انزعوها باكرًا، هذا ما قلته لحفيدتي جوسلين بخصوص أولادها. يجب أن تفعلوا هذا. لا تستطيعون مقاتلتها. أتمنى لو كنت قادرًا وحميت نفسي باكرًا. لأنها أسنان والدكم، إن أضراس العقل ينقلها الآباء، أنا متأكد من هذا، وهكذا يجب أن تعوا هذا وتعتنوا بها. الله أعلم، لم أكن واعيًا بما يكفي لأضراسي... اخلعوها وفرْشوا ثلاث مرات في اليوم، إذا كانت نصيحتي تعني أي شيء".

في الوقت الذي نظر فيه السيد هاملتون إلى الأسفل كي يرى إن عنت نصيحته أي شيء، كان زواره الثلاثة السمر قد اختفوا، آخذين معهم حقيبة التفاح (التي كان يفكر بأن يطلب من ابنته جوسلين أن تعالجها في الخلاط) مصطدمين ببعضهم، راكضين كي يصلوا إلى مكان أخضر، كي يصلوا إلى إحدى رئات المدينة، إلى مكان يستطيعون أن يتنفّسوا فيه بحرية.

*****

كان الأطفال الثلاثة يعرفون المدينة، ويعرفون أنها تتجنب المجانين، يعرفون السيد ذا الوجه الأبيض، وهو هندي يتجول في شوارع ولسدن بوجه مدهون بالأبيض، وشفتين مدهونتين بالأزرق، ويرتدي زوجًا من المشدات وبوطَ تسلق، ويعرفون السيد صحيفة، وهو رجل طويل ونحيل يرتدي معطفًا مطريًا يصل إلى الكاحل ويجلس في مكتبات برينت مخرجًا صحف اليوم من حقيبته ويمزقها منهجيًا إلى قطع، ويعرفون المجنونة ماري وهي امرأة سوداء تمارس السحر الأسود، بوجه أحمر وتمتد أراضيها من كلبورن إلى شارع أكسفورد لكنها تعد

تعاويذها في حاوية في ويست هامبستيد، ويعرفون السيد توبي الذي ليس له حاجبان ويضع شعرًا مستعارًا ليس على رأسه بل على خيط حول عنقه. لكن هؤلاء الأشخاص الذين أعلنوا جنونهم كانوا أفضل، وأقل إخافة من السيد جي. بي هاملتون، فقد تباهوا بجنونهم، ولم يكونوا نصف مجانين ونصف عاقلين، يمدون أعناقهم حول إطار الباب. كانوا مجانين بالمعنى الشكسبيري، ويتحدثون بشكل عقلاني حين تكون أقل توقعًا لهذا. وفي شمال لندن، حيث صوّت أعضاء المجلس مرة لتغيير اسم المنطقة إلى نيرفانا، لم يكن من غير المعتاد أن تسير في الشوارع وتواجهك فجأة كلمات عاقلة من الوجه الحواري الذي لا حواجب له ومن الشفتين الزرقاوين. وفي الجهة المقابلة من الشارع أو من الطرف الآخر من محطة الأنفاق كانوا يستخدمون مواهبهم الفصامية لرؤية النظام في ما هو عشوائي (كي يشاهدوا العالم كله في حبة رمل، من أجل استلهام الحكاية من اللاشيء) وكي يتحدثوا ألغازًا معك، وكي يقرؤوا لك شعرًا مقفى، وكي يعرّوك، ويقولوا لك من أنت وإلى أين أنت ذاهب (عادة شارع بيكر، الغالبية الكبرى من العرافين في الزمن الحديث يسافرون عبر خط الميتروبوليتان) ولماذا؟ لكننا كمدينة لا نقدر أشخاصًا كهؤلاء، ونشعر غريزيًا أنهم سيربكوننا، وأنهم في الخارج كي يلحقوا بنا العار نوعًا ما وهم يتمايلون في ممر القطار، بأعين بصلية وأنف جمري، ويستعدون كي يسألونا، بشكل محتم: إلى ماذا ننظر؟ إلى ماذا ننظر بحق الجحيم؟ وكنوع من الدفاع الاستباقي عن النفس، تعلم اللندنيون ألا ينظروا، ألا ينظروا أبدًا، وأن يتجنبوا الاتصال البصري في جميع الأوقات بحيث أن السؤال المقيت: "إلى ماذ تنظر؟" وجوابه المثير للشفقة، الجبان، والذي لا فائدة منه: "لاشيء"، يمكن أن يتم تجنبهما. لكن كما تتطور الطريدة (ونحن طريدة أولئك المجانين الذين يلاحقوننا، متلهفين كي يفرضوا دمْغتهم من الحقيقة على المسافر قليل الحظ) هكذا يفعل الصياد، ويبدأ المحترفون الحقيقيون بالتعب من ذلك الشعار القديم: "ما الذي تنظر إليه؟" ويتحركون إلى أرض أكثر غرائبية. خذوا المجنونة ماري كمثال. آه، لا يزال المبدأ نفسه، لا يزال يتعلق بالاتصال البصري وخطر

القيام به، لكنها تقوم الآن بالاتصال البصري من بعد مائة، مائتين أو ثلاثمائة ياردة وإذا قبضتْ عليك تقوم بالشيء نفسه تزأر في الشارع وتكون خصلات الشعر والريش والرداء كلهم متطايرين، وعصا الهودو في اليد، إلى أن تصل إلى حيث أنت، وتبصق عليك، وتبدأ. وكان صمد يعرف عن كل هذا، وقد عقد صفقات من قبل هو وماري ذات الوجه الأحمر، وعانى لسوء حظه من مصيبة أنها جلست إلى جانبه في حافلة. في أي يوم آخر كان صمد سيواجهها ويرد على هجومها، لكنه اليوم كان يشعر بالخطيئة والضعف، ويمسك بيد بوبي والشمس غابت، ولم يستطع أن يواجه ماري المجنونة وقولها المصمم للحقيقة وجنونها البغيض والذي كان سبب ملاحقتها له بشكل متعمد على طريق الكنيسة.

قال صمد: "من أجل أمانك واصلي دومًا السير في خط مستقيم. لم أمتلك فكرة أنها اجتازت هذه المسافة إلى هارلسدين".

ألقت بوبي أسرع نظرة ممكنة على الومض المتدفق متعدد الألوان الذي يعدو في هاي رود على حصان خيالي.

ضحكت: "من هذه؟"

سارع صمد خطوه: "إنها ماري المجنونة، وهي ليست مسلية عن بُعد. إنها خطيرة".

"آه، لا تكن سخيفًا. كونها مشردة ومصابة بمرض عقلي... وتعاني من صعوبات، لا يعني أنها تريد أن تؤذي أي شخص. المسكينة، هل يمكن أن تتخيل ما الذي يمكن أنه حصل في حياتها كي يجعلها هكذا؟"

تنهد صمد: "أولًا، ليست مشردة. لقد سرقت كل الحاويات في ويست هامبستيد وبنَت بناء مهمًا منها في فورشن جرين. وثانيًا، ليست مسكينة. الجميع مرعوبون منها، من المجلس إلى الأسفل، تحصل على طعام مجاني من كل حوانيت الزوايا في شمال لندن منذ أن لعنت محل رامتشاندرا وانهارت تجارته خلال شهر". كان شكل صمد السمين يتعرق الآن، حين أسرع استجابة للفعل نفسه الذي قامت به المجنونة ماري في الجانب الآخر من الشارع.

همس فاقدًا للنفس: "وهي لا تحب البيض".

اتسعت عينا بوبي: "حقًا؟"، قالت، كما لو أن فكرة كهذه لم تخطر لها أبدًا واستدارت كي ترتكب خطأ النظر المهلك. في ثانية، وصلت إليهما المجنونة ماري.

ضربت كتلة بصاق كثيفة صمد مباشرة بين عينيه، وعلى عظم أنفه. مسحها، وشد بوبي إليه وحاول أن يتجنب ماري محاولًا الدخول في فناء كنيسة القديس أندرو لكن عصا الهودو اعترضت الاثنين راسمة خطًا على الحصى والغبار لا يمكن أن يُعْبر.

تحدثت ببطء، وبتجهم مهدد بحيث أن الجانب الأيسر من وجهها بدا مشلولًا: "أنت... هل... تنظرين... إلى شيء ما؟"

نجحت بوبي في إصدار صوت كالصرير: "كلا!"

ضربت المجنونة ماري ربلة ساق بوبي بعصا الهودو والتفتت إلى صمد: "أنت يا سيد... تنظر إلى... شيء... ما".

هز صمد رأسه.

فجأة بدأت تصرخ: "أيها الأسود! فلينغلق الطريق في وجهك أينما اتجهت!"

تلعثمت بوبي مرعوبة بشكل واضح: "من فضلك، لا نريد أية مشاكل".

"أيها الرجل الأسود! (كانت تحب الحديث بكلام مقفى) العاهرة ترغب برؤيتك تحترق..."

"نحن نهتم بعملنا"، بدأ صمد، لكن قذيفة بصاق أخرى أوقفته، وهذه المرة أصابته على خده.

"الجحيم الحقيقي والهاوية يطاردانك، يطاردانك. الجحيم الحقيقي والهاوية، وسيبتلعك الشيطان، سيبتلعك الشيطان".

أدت هذا بأسلوب غنائي وهمس مسرحي مترافقًا مع رقص من جانب إلى آخر، ذراعاها ممدودتان وعصا الهودو تستقر بقوة تحت ذقن بوبي بورت جونز.

"ما الذي فعله لنا هؤلاء إلا الاستعباد والقتل؟ ما الذي فعلوه لعقولنا سوى الأذى وإثارة جنوننا؟ ما هو التلوث؟"

رفعت المجنونة ماري ذقن بوبي بعصاها وسألت ثانية: "ما هو التلوث؟"

كانت بوبي تبكي. "من فضلك... لا أعرف ماذا تريدينني أن...".

امتصت المجنونة ماري أسنانها وأدارت وجهها مرة أخرى لصمد: "ما هو الحل؟"

"لا أعرف".

ضربت المجنونة ماري بالعصا حول كاحليها: "ما الحل أيها الأسود؟"

كانت ماري المجنونة امرأة مدهشة وجميلة، لها جبين نبيل وأنف بارز، وبشرة سوداء كمنتصف الليل لا تهرم وعنق طويلة لا يمكن أن تحلم بها إلا الملكات. لكن عينيها المرعبتين، اللتين أطلقتا الغضب، كانتا على حافة انهيار كلي، وكان صمد مركزًا عليهما، لأنه رأى أنهما تتحدثان إليه وحده. لا علاقة لبوبي بهذا. كانت المجنونة ماري تنظر إليه بمعرفة. شاهدت المجنونة ماري زميلًا مسافرًا. شاهدت مجنونًا فيه (لنقل إنه المتنبئ)، شعر بأنها رأت الرجل الغاضب، الرجل المستمني، الرجل المقيد في الصحراء بعيدًا عن أولاده، الرجل الأجنبي في بلاد أجنبية والعالق بين الحدود... الرجل، الذي إذا دفعته بما يكفي بعيدًا سيمتلك العقل فجأة. أي سبب آخر دفعها لاختياره في شارع مليء بالناس؟ الجواب لأنها تعرفت عليه. لأنهما كانا من المكان نفسه، هو والمجنونة ماري، أي: من مكان بعيد.

قال صمد متفاجئًا من هدوئه: "ساتياجراها".

المجنونة ماري غير المعتادة على الإجابة على استجواباتها نظرت إليه مندهشة: "ما الحل؟"

"ساتياجراها، وتعني بالسنسكريتية الحقيقة والحزم. كلمة غاندي. لم يكن يحب المقاومة السلبية غير الفعالة أو العصيان المدني".

بدأت المجنونة ماري ترتجف وتلعن مكرهةً بصوت منخفض، لكن صمد شعر بطريقة ما أن المجنونة ماري تصغي، وكان هذا ذهن المجنونة ماري الذي يحاول أن يفهم كلمات ليست لها.

"لم تكن هذه الكلمات كبيرة بما يكفي له. أراد أن يظهر قوة ما ندعوه بالضعف. فهم أنه أحيانًا ألا نعمل هو نصر عظيم للإنسان. كان هندوسيًا. أنا مسلم. صديقتي هي..."
قالت بوبي مرتجفة: "صرت كاثوليكية رومانية".

بدأ صمد: "هل أنت؟"

تلفظت المجنونة ماري بكلمات "كس" وعاهرة ونذلة عدة مرات وبصقت على الأرض فاعتبر صمد هذا تبريدًا لعدوانيتها.

"ما أحاول قوله..."

نظر صمد إلى مجموعة صغيرة من أتباع الكنيسة الميثودية الذين لدى سماع الضجة بدؤوا يتجمعون بشكل عصبي عند باب كنيسة القديس أندرو. ازدادت ثقته. كان هناك دومًا واعظ لم ير النور في صمد يدعي أنه يعرف كل شيء ويتحدث الهراء. مع جمهور صغير والكثير من الهواء النقي كان دومًا قادرًا على إقناع نفسه أنه يمتلك كل المعرفة في الكون، وكل المعرفة التي على الجدران.

"أنا أحاول القول إن الحياة كنيسة واسعة، أليس كذلك؟" أشار إلى بناء الآجر الأحمر الدميم المليء بمؤمنيه المرتعشين. "بممرات واسعة". أشار إلى النشاط الصاخب ذي الرائحة من السود والبيض والسمر والصفر الذاهبين والقادمين في منطقة الطريق السريع، وإلى المرأة البرصاء التي تقف خارج محل "كاش آند كاري" وتبيع أزهار الأقحوان التي قطفتها من فناء الكنيسة. "سنواصل أنا وصديقتي السير إذا كنت لا تمانعين. صدقيني، أنا أفهم مخاوفك"، قال صمد مستمدًا الإلهام الآن من واعظ شمال لندن العظيم الآخر كين لفنجستون الذي كان يتجول في الشوارع: "أنا أواجه صعوبات. كلنا نواجه صعوبات في هذه البلاد، هذه البلاد الجديدة والقديمة في آن واحد معًا بالنسبة لنا كلنا. نحن شعب مقسم، أليس كذلك".

وهنا فعل صمد ما لم يفعله أي شخص لماري المجنونة طيلة خمس عشرة سنة: لمسها بخفة شديدة على الكتف.

"نحن قوم منقسمون. بالنسبة لي نصفي يتمنى أن يجلس بهدوء واضعًا قدمًا

فوق أخرى، تاركًا الأشياء التي خارج سيطرتي تؤثر بي. لكن النصف الآخر يريد أن يشن الحرب المقدسة، الجهاد، وأكيد نستطيع أن نناقش هذا في الشارع، لكنني أعتقد، في النهاية، أن ماضيك ليس ماضيَّ وحقيقتك ليست حقيقتي وحلك ليس حلي. وهكذا لا أعرف ما الذي تريدين مني قوله. الحقيقة والحزم هما اقتراح على الرغم من أن هناك كثيرًا من الأشخاص الآخرين الذين تستطيعين أن تسأليهم إذا لم يقنعك الجواب. شخصيًا يكمن أملي في الأيام الأخيرة. وقد ذُكر عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم إنه قال إن البشر سيفقدون وعيهم يوم القيامة وسيكونون عُمْيًا وبُكْمًا وصمًا. وأية راحة ستكون هذه! والآن، اعذرينا".

أمسك صمد بوبي بشدة من يدها وسار بينما وقفت ماري المجنونة مذهولة لوقت قصير فقط قبل أن تندفع إلى باب الكنيسة وتنشر اللعاب على الحشد.

مسحت بوبي دمعة خوف وتنهدت.

قالت: "هادئ في الأزمة. جميل".

صمد، الذي صار على نحو متزايد يرى الرؤى، شاهد والد جده، مانغال باندي، يحمل بندقية ويقاتل ضد الجديد، متمسكًا بالتراث.

قال: "هذا يجري في دم العائلة".

فيما بعد سار صمد وبوبي عبر هارلسدن، حول دوليس هيل، ثم، حين تبين أنهما يقتربان كثيرًا من ولسدن، انتظر صمد إلى أن غابت الشمس، اشترى علبة من الحلويات الهندية الدبقة وانعطفا إلى حديقة راوندوود، حيث استمتعا بمنظر آخر الأزهار. واصل التحدث، نوع الحديث الذي تقوم به كي تقمع الرغبة الجسدية المحتمة، نوع الحديث الذي يؤججها فحسب. أخبرها عن دلهي في حوالي 1942، أخبرته عن سينت ألبانس حوالي 1972. شكت من قائمة طويلة من العشاق غير المناسبين، وبما أن صمد لم يكن قادرًا على انتقاد ألسانا أو حتى ذكر اسمها تحدث عن ولديه: الخوف من ولع ميلات بالكلمات الفاحشة والعرض التلفزيوني عن "فريق إي[81]"، والقلق من إن كان ماجد قد تلقى ما يكفي من ضوء الشمس المباشر. ما الذي كانت تفعله البلاد لولديه، أراد أن يعرف ما الذي كانت تفعله؟

قالت أخيرًا: "أنا أحبك كثيرًا. أنت ممتع جدًا، هل تعرف أنك ممتع؟"

ابتسم صمد وهز رأسه: "لم أفكر أبدًا بنفسي كفكاهي عظيم".

"كلا، أنت مسل، ذلك الشيء الذي قلته عن الإبل..."، بدأت تضحك، وكان ضحكها معديًا.

"أي شيء؟"

"عن الإبل، إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة [82].

"نعم!".

قال صمد: "هذه ليست كوميديا، هذا من كتاب البخاري، الجزء الثامن، الصفحة 130، إنها نصيحة جيدة. وقد تأكد لي أنها صحيحة".

"حسنًا، إنها مع ذلك مضحكة".

جلست قريبة منه على المقعد وقبلت أذنه: "حقًا أنا أحبك".

"أنا كبير بما يكفي كي أكون والدًا لك. أنا متزوج ومسلم".

"حسنًا. هل سن المواعدة لديكم لا يتماشى مع شكلينا، إذًا ماذا؟"

"ما نوع هذه العبارة: إذًا ماذا؟ هل هي إنكليزية؟ هذه ليست إنكليزية. فقط المهاجرون يستطيعون تحدث إنكليزية الملكة هذه الأيام".

ضحكت بوبي: "ما زلت أقول: وهكذا..."

لكن صمد غطى فمها بيده، وبحث عن لحظة كما لو أنه نوى أن يضربها، قال: "وهكذا كل شيء. هكذا كل شيء. لا يوجد شيء مضحك حيال هذا الموقف. لا شيء جيدًا فيه. لا أرغب بمناقشة الأشياء الصحيحة أو الخاطئة معك. لنركز على ما نحن هنا من أجله، الجانب المادي لا الميتافيزيقي".

انتقلت بوبي إلى الطرف الآخر من المقعد ومالت إلى الأمام، كوعاها يستندان إلى ركبتيها. بدأت ببطء: "أعرف، هذا ليس أكثر مما هو. لكن لا أريد أن يتم التحدث معي بهذه الطريقة".

"أنا آسف. كان هذا خطأ مني...".

"لأنك تشعر بالذنب فقط، ليس لدي شيء كي أشعر..."

نعم، أنا آسف. ليس عندي..."

"لأنك تستطيع الرحيل إذًا..."

أنصاف أفكار، اِجمعها كلها مع بعضها ويكون لديك أقل مما بدأت به.

"لا أريد أن أذهب. أريدك".

توهجت بوبي قليلًا وابتسمت ابتسامة نصف حزينة ونصف بلهاء.

"أريد أن أمضي الليلة معك".

أجابته: "جيد. لأنني اشتريت هذا لك بينما كنت في المحل التالي تشتري الحلويات".

"ما هذا؟"

مدت يدها في حقيبتها وفي الدقيقة السريعة التي بحثت فيها بين أحمر الشفاه ومفاتيح السيارة والفكة الاحتياطية حدث أمران:

-1أغمض صمد عينيه وسمع كلمات: "كل شيء طاهر للطاهرين" ثم على الفور فيما بعد: "لا أستطيع قول ما هو أعدل من هذا".

-2فتح صمد عينيه وشاهد بكل وضوح قرب المنصة وَلَديه وأسنانهما البيضاء تعض تفاحتين شمعيتين، ويلوحان مبتسمين.

ثم عادت بوبي من رحلة بحثها منتصرة بقطعة من البلاستيك الأحمر في يديها.

وقالت مبتسمة: "فرشاة أسنان".

8

الانقسام الفتيلي[83]

إن الغريب الذي يدخل عشوائيًا إلى صالة أوكونيل للبلياردو آملًا أن يسمع الارتفاع والانخفاض الناعم لبوط جده الإيرلندي، أو ناشدًا أن يرد كرة حمراء من البطانة الجانبية لطاولة البلياردو إلى الفتحة في الزاوية، يخيب أمله على الفور حين يكتشف أن المكان ليس إيرلنديًا ولا بناء يحتوي على مسبح. يفحص الجدران المكسوة بالسجاد، ولوحات جورج ستابس عن أحصنة السباق المنسوخة عن الأصل، والقطع المؤطرة لبعض الخطوط الأجنبية الشرقية، بتشوش كبير. يبحث عن طاولة سنوكر ويعثر بدلًا من ذلك على رجل أسمر يحمل حَبّ شباب مُريع خلف طاولة يقلي البيض والفطر. تهبط عينه بشبهة على راية إيرلندية وخريطة للإمارات العربية المتحدة منسوجتين ببعضهما ومعلقتين من حائط إلى آخر، فاصلتين بينه وبين الزبائن الآخرين. ثم ينتبه إلى عدة أزواج من الأعين عليه، بعضها متعال وبعضها شكاك، وهكذا فإن الغريب سيّئ الحظ يتعثر خارجًا، ويقلب في طريقه مجسم فيف رتشاردز الذي بالحجم الطبيعي. يضحك الزبائن. إن أوكونيل ليس مكانًا للغرباء.

أوكونيل مكان يأتي إليه الرجال المتزوجون إلى عائلة من نوع مختلف، وعلى النقيض من علاقات القربى، من الضروري أن تكسب موقعك هنا في الجماعة،

ويستغرق هذا أعوامًا من التواجد وتبديد الوقت ومن التسكع والثرثرة والملل الشديد وعدم فعل أي شيء، ويقتضي الأمر إخلاصًا أكبر من الذي يستثمره الرجال في اللحظة الطائشة للتناسل. وتحتاج إلى معرفة المكان. مثلًا، هناك أسباب لماذا أوكونيل هو صالة بلياردو إيرلنديه يديرها عرب وبدون طاولات بلياردو، وهناك أسباب لماذا سيطهو لك ميكي المغطى بالبثور رقائق البطاطا والبيض والفاصولياء أو البيض، رقائق البطاطا والفاصولياء، أو الفاصولياء ورقائق البطاطا والبيض والفطر ولكن ليس في أية ظروف، رقائق البطاطا والفاصولياء والبيض ولحم الخنزير. لكن عليك أن تبحث عن نوع المعلومات. سنتحدث عن هذا فيما بعد. الآن، يكفي القول إن هذا هو المنزل الذي كان يهرب إليه آرشي وصمد من المنزل، طيلة عشر سنوات كانا يأتيان إلى هنا بين السادسة (الوقت الذي ينهي فيه آرشي العمل) والثامنة (الوقت الذي يبدأ فيه صمد) كي يناقشا كل شيء من سفر الرؤيا إلى أجور السمكريّة والنساء، النساء المفترضات. وإذا عبرت امرأة الواجهة الملطخة بصفار البيض لقاعة أوكونيل (لم يعرف أن امرأة غامرت بالدخول) سيبتسمان ويفكران (بحسب حساسيات صمد الدينية في ذلك المساء) بمسائل تشمل إن كان المرء سيطردها من السرير بسرعة إلى الحسنات النسبية للجوارب والمشدات ثم ينتقلان بشكل محتم إلى الجدل الكبير: الأثداء الصغيرة (التي تنتصب) إزاء الكبيرة (التي تترهل وتميل إلى الجانبين). لكن لم يكن هناك أبدًا أي سؤال عن نساء حقيقيات من لحم ودم حقيقيين وعن نساء رطبات ودبقات، ليس حتى الآن. وهكذا فإن الحوادث غير المسبوقة للأشهر القليلة الماضية استدعت قمة غير عادية في أوكونيل. اتصل صمد أخيرًا بآرشي واعترف بالخطأ الكبير كله: لقد غش، إنه يغش، وقد شاهده الولدان، والآن يشاهد الولدين كرؤى نهارًا وليلًا. كان آرشي صامتًا لبعض الوقت، ثم قال: "يا للجحيم. في الساعة الرابعة إذًا. يا للجحيم اللعين". كان آرشي هكذا، هادئًا في الأزمة.

لكن جاءت الرابعة والربع ولا توجد علامة تدل عليه، مضغ صمد اليائس كل أظافره إلى البشرة وانهار على الطاولة، أنفه على الزجاج الحار حيث حُفظ

اللحم المتبل، ووجهًا لوجه مع بطاقة بريدية تظهر ثمانية مواقع فاتنة من مقاطعة أنتريم.

ميكي، الشيف والنادل والمالك الذي يشعر بالفخر لأنه يعرف جميع أسماء الزبائن وحين يكون كل زبون ليس على ما يرام رفع وجه صمد عن الزجاج الحار بملعقة مسطحة.

"نعم".

"مرحبًا ميكي، كيف حالك؟"

"العجوز صمد، العجوز نفسه. لكن لنتوقف عن الحديث عني. ما مشكلتك يا صديقي؟ كنت أراقبك يا سامي منذ اللحظة التي دخلت بها، بوجه ممتعض. أخبر عمك ميكي".

أنّ صمد.

"آه. كلا، لا شيء من هذا. أنت تعرفني. أنا الجانب المتعاطف لصناعة الخدمات، أنا خدمة بابتسامة لعينة، سألبس ربطة عنق صغيرة حمراء وقبعة حمراء صغيرة كمثل الحاذقين في محل السيد برغر إذا لم يكن رأسي اللعين كبيرًا".

لم تكن هذه استعارة. كان لميكي رأس ضخم، تقريبًا كأن حب الشباب لديه تطلب المزيد من المساحة وحصل على إذن بالتوسع.

"ما المشكلة؟"

نظر صمد إلى رأس ميكي الكبير الأحمر.

"أنا أنتظر أرشيبالد فحسب يا ميكي. من فضلك لا تشغل بالك. سأكون بخير".

"الوقت مبكر قليلًا، أليس كذلك؟"

"عذرًا؟"

فحص ميكي الساعة خلفه، تلك التي فيها بيضة زجاجية ملبسة بقشر من العصر الحجري: "أقول إنه مبكر قليلًا، أليس كذلك؟ بالنسبة لك وللفتى آرشي. أتوقع قدومكما في السادسة. واحد من رقائق البطاطا والفاصولياء والبيض

والفطر. وواحد أومليت مع الفطر، مع تنوعات موسمية، بشكل طبيعي".

تنهد صمد. "لدينا الكثير كي نناقشه".

دوّر ميكي عينيه: "لن تبدآ ثانية حول ذلك المانغي باندي مهما كان الموضوع اللعين، هل ستفعلان؟ من أطلق النار على من، ومن شنق من، حكمَ جدي الباكستانيين أو أي شخص كان، كما لو أن أي شخص يكترث بهذا الموضوع اللعين. أنتما تسببان هرب الزبائن. أنتما تتبعان..." وبدأ ميكي يتصفح إنجيله الجديد وهو كتاب بعنوان "طعام للفكر: دليل لأرباب العمل والموظفين الذين يعملون في صناعة خدمة الطعام، استراتيجية الزبون وعلاقات المستهلك". "أنتما تسببان أعراضًا متكررة تجعل كل أولئك اللواطيين يعافون طعامهم".

"كلا، كلا. والد جدي ليس موضوعًا للنقاش اليوم. لدينا عمل آخر".

"حسنًا، شكرًا لك، أرحتني. إن الأعراض المتكررة هي ما هي". ربت ميكي على كتابه، بعطف. كل شيء هنا، يا صديقي. أفضل مبلغ "أربعة جنيهات وخمسة وتسعين سنتًا" دفعته. بمناسبة الحديث عن النقود، هل ستجازفان ببعض المال اليوم؟" سأل ميكي وهو يشير إلى الطابق السفلي.

"أنا مسلم يا ميكي، لن أنغمس في هذا بعد الآن".

"حسنًا، من الواضح أننا كلنا أخوة لكن يجب أن يعيش الإنسان الآن. أليس كذلك؟ أعني، أليس كذلك؟"

"لا أعرف يا ميكي، هل هذا كذلك؟"

صفع ميكي صمد بشدة على الظهر: "بالطبع كذلك، كنت أقول لأخي عبدل..."

"أي عبدل...؟"

كانت تسمية الأطفال باسم عبدل تقليدًا في عائلة ميكي لتعلميهم تفاهة وغرور تولي موقع أعلى من أي إنسان آخر، وكان هذا كله جيدًا جدًا لكنه سبب التشوش في سنوات التكوين. وعلى أي حال، الأطفال مبدعون وكل الذين أُطلق عليهم اسم عبدل أضافوا اسمًا إنكليزيًا كنوع من مخفف الصدمة للأول.

"عبدل كولن".

"صحيح".

"وهكذا تعرف أن عبدل كولن صار أصوليًا قليلًا: بيض وفاصولياء ورقائق البطاطا وتوست، لحية طويلة لعينة، لا لحم خنزير ولا شراب ولا فرج ولا مضاجعة، يا صديقي، وها أنت يا معلم".

دفع عبدل ميكي صحنًا من الكربوهيدرات المتقيحة لعجوز غائر كان بنطلونه في أعلى جسمه ويبتلعه بشكل كامل.

"حسنًا، أين تعتقد أنني شاهدت عبدل كولن الأسبوع الماضي؟ فقط في الميكي فين، في أسفل طريق هارو، وقلت، آه عبدل كولن، هذا، هذا ظهور لعين للكتب اللعينة، وقال بكل وقار، كما تعلم، بلحيته الكاملة:

ميكي، ميكي، هل يزعجك إذا أجّلنا القصة... إن الأمر فقط..."

"كلا، جيد، جيد. أتمنى لو أعرف لماذا أضايق نفسي".

"هل يمكن أن تخبر أرشيبالد أنني أجلس إلى الطاولة التي خلف آلة لعبة البينبول حين يدخل. آه، ومكاني المعتاد".

"ما من مشكلة يا رفيق".

بعد عشر دقائق فُتح الباب ورفع ميكي عينيه عن الفصل السادس لكتابه: "هناك ذبابة في حسائي: التعامل مع مسائل الصحة"، كي يشاهد أرشيبالد جونز، بيده حقيبة سفر رخيصة ويقترب من الكاونتر.

"حسنًا يا آرش. كيف عمل الطي؟"

"آه، كما تعلم. ليس جيدًا ولا سيئًا. هل صمد هنا؟"

"هل هو هنا؟ هل جاء؟ كانت ينتظر هنا كرائحة سيئة لنصف ساعة لعينة. وجه ممتعض ومتضايق. شخص ما يريد أن يحضر آلة جمع براز الكلاب ويزيله بها".

وضع آرشي حقيبته على الكاونتر وغضن حاجبه: "هل هو في حالة سيئة؟ بيني وبينك، يا ميكي، أنا قلق عليه في الحقيقة".

قال ميكي الذي أغضبه تأكيد الفصل السادس أنه يجب أن تُغسل الصحون

بمياه ساخنة جدًا: "اذهب وانشر الكلمة اللعينة، أو اذهب بدلًا من ذلك إلى الطاولة خلف آلة البينبول".

"شكرًا يا ميكي. آه، أومليت و..."

"أعرف. الفطر".

سار آرشي عبر ممرات مطعم أوكونيل المشمعية.

"مرحبًا دينزل، مساء الخير كلارينس".

كان دينزل وكلارينس وقحين على نحو فريد، وجامايكيين بذيئي اللسان في الثمانين من العمر. كان دينزل سمينًا بشكل غير قابل للتصور، وكلارينس نحيلًا بشكل غير قابل للتصور، ماتت عائلة الاثنان، وكان كلاهما يعتمر قبعة ويجلسان في زاوية يلعبان الدومينو طيلة الساعات المتبقية لهما.

"ما الذي يقوله ممسحة المؤخرات؟"

"أقول مساء الخير".

"ألا تراني ألعب الدومينو؟"

"كلا يا رجل، لديه كس بدلًا من وجهه، كيف تتوقع منه أن يرى هذا الشيء الصغير؟"

تحمل آرشي الأمر وقبله دون تذمر كما عُنيَ وواصل طريقه إلى الطاولة وجلس قبالة صمد. قال آرشي مبتدئًا على الفور من حيث توقفت مكالمتهما الهاتفية: "لا أفهم".

"هل تقول إنك تراهما هناك في خيالك أم تراهما هناك في حياتك الحقيقية؟"

"هذا بسيط جدًا في الحقيقة. في المرة الأولى كانا هناك. لكن يا آرشي في تلك الأسابيع الماضية صرت أرى التوأمين كلما كنت معها كشبحين. حتى حين... أراهما هناك. يبتسمان لي".

"هل أنت متأكد أنك لست فقط منهكًا".

"أصغ إلي يا آرشي، أنا أراهما، هذه علامة".

"سام، لنحاول ونتعامل مع الحقائق. حين شاهداك في الحقيقة ما الذي

فعلته؟"

"ما الذي أستطيع فعله؟ قلت مرحبًا يا ولديَّ. سلّما على الآنسة بورت جونز".

"وما الذي قالاه؟"

"سلما عليها".

"وماذا قلت؟"

"أرشيبالد، هل أستطيع أن أخبرك ببساطة ما حصل دون هذه الاعتراضات التافهة؟"

"رقائق البطاطا، فاصولياء، بيض، طماطم وفطر!"

"صمد، هذا لك".

"أستاء من التهمة. ليس لي. لا أطلب الطماطم أبدًا. لا أريد بعض البطاطا المسكينة المقشرة مسلوقة حتى الموت، ثم مقلية حتى الموت".

"حسنًا، ليس لي. الآن، هل يمكن أن أواصل؟"

"بكل سرور".

"نظرتُ إلى ولديَّ يا آرشي... نظرت إلى ولديَّ الجميلين... وانشق قلبي، كلا، أكثر من هذا تفتت، تفتت إلى قطع كثيرة وكل قطعة طعنتني مسببة جرحًا مهلكًا. واصلتُ التفكير: كيف يمكن أن أعلّم أبنائي أي شيء، كيف يمكن أن أريهم الصراط المستقيم حين أكون قد ضللتُ طريقي؟"

فكر آرشي بشكل متقطع: "اعتقدت أن المشكلة هي المرأة. إذا كنت في الحقيقة لا تعرف ما الذي تفعله حيالها، حسنًا... نستطيع أن نقذف هذه القطعة النقدية فإذا جاءت نقشًا تبقى أما إذا جاءت طرة تذهب، على الأقل قمت بـ..."

ضرب صمد الطاولة بقبضته القوية: "لا أريد أن أرمي قطعة نقد لعينة! فضلًا عن ذلك، إن الوقت متأخر على هذا. ألا تستطيع أن ترى؟ ما فُعل، أنا مقيد في جهنم، أرى هذا الآن. وهكذا يجب أن أركز على إنقاذ ولديّ. لدي خيار

أقوم به، خيار أخلاقي". خفض صمد صوته، وحتى قبل أن يتحدث عرف آرشي إلى ماذا كان سيشير. "لقد قمت بخيارات صعبة بنفسك يا آرشي، منذ سنوات كثيرة. تخبئها جيدًا، لكنني أعرف أنك لم تنس كيف هو الأمر. لديك رصاصة في الساق للبرهنة على الأمر. صارعت معه. فزت. لم أنس. أُعجبت دومًا بك بسبب هذا يا أرشيبالد".

نظر آرشي إلى الأرض: "أفضل أن لا..."

"صدقني، لا أستمتع في استحضار ما هو كريه بالنسبة لك يا صديقي. لكنني أحاول فقط جعلك تتفهم موقفي. ثم، كما الآن، إن المسألة دومًا هي: في أي نوع من العالم أريد أن يكبر ولداي؟ لقد قمتَ بالفعل حيال هذه المسألة مرة. والآن جاء دوري".

آرشي، الذي لم يفهم من خطابات صمد أي شيء كما هو الأمر منذ أربعين سنة لعب بعود الأسنان لحظة.

"حسنًا..لماذا لا تتوقف فقط عن رؤيتها؟"

"أحاول... أحاول".

"هذا جيد أليس كذلك؟"

"كلا، ليس هذا بالضبط... ما أعني قوله، هذا ظريف، نعم... لكنه ليس فاسقًا... نتبادل القبل والعناق".

"لكن بدون..."

"ليس هكذا بالضبط".

"لكن بعض..."

"أرشيبالد، هل أنت قلق على ولدي أم على مني؟"

قال آرشي: "على ولديك، بالتحديد ولديك".

"لأن هناك تمردًا فيهما يا آرشي. أستطيع رؤيته، إنه صغير الآن لكنه يكبر. أقول لك، لا أعرف ما الذي يحدث لأولادنا في هذه البلاد. أينما نظرت، الأمر نفسه. الأسبوع الماضي ضُبط ابن زينات وهو يدخن الماريجوانا مثل الجامايكيين!"

رفع آرشي حاجبيه.

"آه، لم أقصد الإهانة يا أرشيبالد".

"لم أتلق أيًا منها يا صديقي. لكن يجب ألا تحكم قبل أن تجرب الأمر. كوني متزوجًا من جامايكية فعل العجائب لالتهاب مفاصلي. لكن هذا بالصدفة. تابع".

"حسنًا، خذ شقيقات ألسانا، كل أولادهن متورطون في المشاكل ولا شيء لديهم سواها. لا يذهبون إلى الجامع ولا يصلّون ويتحدثون بشكل غريب، ويلبسون بشكل غريب، ويأكلون كل أنواع القمامة، ويمارسون جنسًا لا أحد يعلم مع من سوى الله. لا احترام للتقاليد. يدعو الناس هذا فهمًا لكنه ليس إلا فسادًا!"

حاول آرشي أن يبدو مصدومًا ثم حاول أن يبدو شاعرًا بالقرف، غير عارف ماذا يقول. أحبَّ أن ينجح الناس في أمورهم. شعر نوعًا ما أن الناس يجب أن يعيشوا معًا، في سلام أو انسجام أو شيء ما.

"رقائق البطاطا، فاصولياء، بيض، فطر، أومليت وفطر!"

رفع صمد يده واستدار إلى الكاونتر وصاح: "عبدل ميكي!" واتخذ صوته حدة شرق لندنية كوميدية قليلًا. "هنا، يا معلمي، من فضلك".

نظر ميكي إلى صمد، انحنى على الكاونتر، ومسح أنفه بمئزره.

"الآن أنت تعرف أفضل من هذا. إنها خدمة ذاتية هنا، يا سادة. ليس هذا فندق الوالدروف اللعين".

"سأحضره"، قال آرشي، ناهضًا من مقعده.

"كيف هو؟" سأل ميكي بصوت منخفض، فيما كان يدفع الصحن نحو آرشي.

عبس آرشي: "لا أعرف. يتحدث عن التقاليد ثانية. قلق على أولاده، من السهل على الأولاد أن يخرجوا عن السكة في هذا الزمن والعمر، تعرف ذلك. لا أعرف في الحقيقة ماذا أقول له".

قال ميكي، هازًا رأسه: "ليس عليك أن تقول لي شيئًا يا صديقي، أعرف كل شيء. إن الابن الأصغر لدي، عبدل جيمي، سيمثل في محكمة الأحداث الأسبوع

القادم من أجل سرقة ميداليات الفولكس فاكن اللعينة. قلت له، هل أنت غبي أم ماذا؟ ما الهدف من هذا؟ على الأقل اسرق السيارة اللعينة إذا كان هذا ما تشعر به حيالها، أعني، لماذا؟ قال إنه شيء يتعلق بشخص لعين اسمه بيتي بويز أو شخص تافه ما. حسنًا، قلت له، سأقتلهم إذا أمسكت بهم، وأقول لك هذا من أجل لا شيء. إن المشكلة هي أنه ليس هناك احترام للتقاليد ولا أخلاق!"

هز آرشي رأسه والتقط رزمة محارم كي يحمل بها الصحنين الساخنين.

"إذا أردت نصيحتي، وتريدها، لأن هذا جزء من العلاقة الخاصة بين مالك مقهى وزبون، قل لصمد أمامه خياران إما أن يعيدهما إلى البلاد القديمة، إلى الهند..."

"بنغلادش"، صحح آرشي سارقًا رقاقة بطاطا من وجبة صمد.

"أينما كان البلد اللعين. يستطيع أن يعيدهما إلى هناك ويربيهما بشكل ملائم عند جدهما وجدتهما، ويعلمهما الثقافة، ويجعلهما يكبران مع بعض المبادئ. أو – لحظة – رقائق بطاطا، باتي وفطائر لاثنين!"

اقترب دينزل وكلارينس ببطء من الصحنين الساخنين.

قال كلارينس: "تلك الفطائر تبدو غريبة".

قال دينزل: "يحاول تسميمنا".

قال كلارينس: "هذا الفطر يبدو غريبًا".

قال دينزل: "يحاول التسلل إلى رجل جيد بطعام الشيطان".

رمى ميكي قطعة بيض على أصابع دينزل: "آه موريكامبي ووايس. فتّشا عن روتين جديد لعين، حسنًا؟"

"أو ماذا؟" ألح آرشي.

قال دينزل، بينما عاد الاثنان إلى مقعديهما: "أنا أحاول أن أقتل رجلًا كهلًا ضعيفًا".

"اللعنة على الاثنين، إنهما حيان فقط لأنهما شحيحان جدًا ولا يدفعان لعملية الحرق".

"أو ماذا؟"

"ماذا؟"

"ما الخيار الثاني؟"

"اه، نعم. إن الخيار الثاني واضح أليس كذلك؟"

"هل هو واضح؟"

"أن يتقبّل الأمر. عليه أن يتقبل الأمر. أليس كذلك؟ كلنا إنكليز الآن، يا صديقي. سواء أحببت هذا أم كرهته، كعشبة الراوند في الكستر. والسعر هو 250 يا رجلي الطيب أرشيبالد. لقد انتهى العصر الذهبي لقسائم الوجبات المجانية".

انتهى العصر الذهبي للوجبات المجانية منذ عشر سنوات، ولمدة عشر سنوات كان ميكي يقول: "انتهى العصر الذهبي للوجبات المجانية". وهذا ما أحبه آرشي في قاعة أوكونيل. يتم تذكر كل شيء، ولا شيء يضيع. لم يُراجع التاريخ أبدًا أو يُعاد تأويله أو تكييفه أو تبييضه. كان صلبًا وبسيطًا كمثل البيضة الملبسة على الساعة.

حين عاد آرشي إلى الطاولة رقم ثمانية، كان صمد مثل الشخصية الكوميدية جيفيز، وإذا لم يكن بالضبط مستاء، فإنه كان بعيدًا قليلًا عن كونه مسرورًا.

"أرشيبالد، هل سلكت الطريق الخطأ في الغانج؟ ألم تكن تستمع إلى مأزقي؟ أنا فاسد، ولداي يفسدان، سنحترق حالًا في نار جهنم. هذه مشاكل ملحة يا أرشيبالد".

ابتسم آرشي بجدية وسرق رقاقة أخرى: "حُلت المشكلة، يا صديقي صمد".

"حُلت المشكلة؟"

"إن المشكلة حلت. الآن، كما أرى الأمر، لديك خياران..."

*****

في بداية هذا القرن تقريبًا أبحرت ملكة تايلندة في سفينة مع كثير من أفراد حاشيتها وخدمها من الذكور والإناث وغاسلي الأقدام ومتذوقي الطعام. وفجأة ضربت الكوثل موجةٌ قذفت الملكة عن ظهر القارب إلى المياه التركوازية لنهر يبون

كاي، وعلى الرغم من توسلات الملكة طلبًا للمساعدة غرقت ولم يتحرك أحد من الذين على ظهر المركب لمساعدتها. كان هذا التصرف الغامض بالنسبة للعالم الخارجي واضحًا بالنسبة للتايلندي: التقاليد تقتضي، كما هو الأمر حتى اليوم، أن لا يلمس رجل أو امرأة الملكة.

إذا كان الدين أفيون الشعوب، فإن التقاليد مخدّر أكثر شرًا، لأنها نادرًا ما تبدو شريرة. وإذا كان الدين عِصابة محكمة، شريانًا نابضًا وإبرة، فإن التقاليد طهو أكثر عائلية: بذور خشخاش مطحونة في الشاي، شراب كاكاو حلو مخلوط بالكوكايين، نوع الشيء الذي يمكن أن تصنعه جدتك. وبالنسبة لصمد، كما لشعب تايلندة، كانت التقاليد ثقافة والثقافة تقود إلى جذور، وكانت هذه جيدة، مبادئ غير ملطخة. لا يعني هذا أنه يستطع أن يعيش وفقًا لها، ويتقيد بها أو ينمو بالطريقة التي تتطلبها، لكن الجذور جذور وهي جيدة. ولن تصل إلى نتيجة لو قلت له إن الأعشاب أيضًا لها تدرنات، أو أن العلامة الأولى لسن مرتخ هي شيء منتن، شيء فاسد، عميقًا داخل اللثة. إن الجذور هي ما ينقذ، الحبال التي يرميها المرء كي ينقذ الغرقى، كي ينقذ أرواحهم. وكلما عام صمد أكثر في البحر، وشُد إلى الأعماق من قبل السيرانة التي تُدعى بوبي بورت جونز صار مصممًا أكثر على أن يبدع لولديه جذورًا على الشاطئ، جذورًا عميقة لا تستطيع عاصفة أو ريح شديدة أن تقتلعها. وكان القول أسهل من الفعل. كان في شقة بوبي غير الأنيقة والصغيرة، يراجع حسابات منزله، حين تبين له أن لديه أولادًا أكثر مما لديه نقود. وإذا كان سيعيدهما إلى الوطن فإنه يحتاج إلى نقود للجدين، ومبلغين للمدرسة، ومبلغين للثياب. ولم يكن يستطيع أن يغطي بطاقتي الطائرة. قالت بوبي: "ماذا عن زوجتك؟ إنها من عائلة غنية، أليس كذلك؟" لكن صمد لم يكن قد كشف عن خطته لألسانا. حاول أن يعرف رد فعلها فحسب، ذاكرًا الأمر بطريقة فرضية عابرة لكلارا بينما كانت تشتغل في الحديقة. سألها كيف سيكون رد فعلها إذا قام شخص، من أجل مصلحة آيري الأفضل، بنقل الطفلة إلى حياة أفضل؟ نهضت كلارا عن حوض الأزهار وحدقت به بقلق صامت ثم ضحكت طويلًا وبصوت

مرتفع. قالت أخيرًا، رافعة مجزًّا ضخمًا قريبًا من بين ساقيه: إن الرجل الذي يفعل هذا سأقطعه له. ستقطعه، فكر صمد، توضّح له ما الذي ستفعله.

"أحدهما؟"

صالة أوكونيل مرة ثانية. السادسة وخمس وعشرون دقيقة. واحد رقائق بطاطا، فاصولياء، بيض وفطر. وواحد أومليت مع الفطر والبازلا.

"واحد منهما فقط".

قطع البيض المقلي في صحنه في الوسط: "هذا ما قلته. افصل بينهما. لا يوجد طريقة أخرى".

"ولكن..."

فكر آرشي مرة ثانية، قدر استطاعته. إنه الموضوع القديم نفسه. أنت تعرف، لماذا لا يستطيع الناس القيام بالأمور، والعيش معًا بسلام وانسجام. لكنه لم يقل أيًا من هذا. قال فقط: "ثم، لكن..."

ثم أخيرًا: "لكن أي واحد؟"

إذا حُسبت أجرة الطائرة، والمهر، وأجرة الدراسة الأولية يحتاج الأمر إلى ثلاثة آلاف ومائتين وخمسة وأربعين جنيهًا. وحالما يتم تأمين النقود (نعم، أعاد رهن المنزل، وجازف بأرضه، وهذا أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه مهاجر) لا يبقى أمامه إلا مسألة اختيار الطفل. في الأسبوع الأول وقع الخيار على ماجد، ماجد بشكل محدد. كان لماجد دماغ، وسيستقر بسرعة أكبر ويتعلم اللغة، وكان آرشي يمتلك اهتمامًا راسخًا في إبقاء ميلات في البلاد لأنه كان أفضل هداف في نادي ولسدن الرياضي (تحت الخامسة عشرة) والذي سبق أن شهده النادي لعقود. وهكذا بدأ صمد يسرق ثياب ماجد من أجل حزم حقائب سري، وأصدر له جواز سفر منفصلًا (سيسافر مع العمة زينات في الرابع من تشرين الثاني\نوفمبر) وقال للمدرسة (إنه ذاهب في عطلة طويلة، وهل يمكن إعطاؤه وظيفة يأخذها معه، إلخ).

ولكن في الأسبوع التالي حدث تغير في القلب ووقع الاختيار على ميلات، لأن ماجد كان في الحقيقة المفضل لدى صمد، وأراد أن يشاهده وهو يكبر، وميلات

أكثر حاجة إلى التوجيه الأخلاقي بأية حال، وهكذا حُزمت ثياب ميلات وصدر جواز سفره وهُمس اسمه في الآذان الصحيحة.

في الأسبوع التالي وقع الاختيار من جديد على ماجد حتى يوم الأربعاء ثم ميلات لأن صديق آرشي القديم الذي يتبادل معه الرسائل هورست إبلجوفتس كتب الرسالة التالية، التي أطلع آرشي، العارف الآن بالطبيعة النبوية الغريبة لمراسلات هورست، صمد عليها:

15 أيلول 1984

العزيز أرشيبالد،

مر بعض الوقت منذ الرسالة الأخيرة، لكنني شعرتُ بأنني يجب أن أكتب لك حول تطور رائع حدث في حديقتي سبب لي متعة ليست قليلة في الأشهر القليلة الماضية. وكي أختصر الموضوع، قررت أخيرًا قطع شجرة البلوط القديمة من الزاوية ولا أستطيع أن أبدأ بأن أصف لك الفرق الذي أحدثه هذا! تلقت البذار الأضعف كمية أكبر من أشعة الشمس وتمتعت بصحة جيدة، وأستطيع أن آخذ منها حتى قصاصات، وللعام الأول، يمتلك كل واحد من أولادي مزهرية من نبات عود الصليب على أفاريز نوافذهم. كنت أعاني من عدم الفهم كل تلك الأعوام كما أنني كنت حدائقيًا لامباليًا، بينما طيلة الوقت كانت تلك الشجرة المهيبة القديمة تحتل نصف الحديقة بجذورها ولا تسمح لأي شيء آخر بالنمو.

واصلت الرسالة، لكن صمد توقف هنا. قال باستياء: "وأنا ماذا أستنتج من هذا بالضبط...ماذا؟"

ربت آرشي على جانب أنفه بشكل عارف: "اقطع، اقطع. يجب أن يكون ميلات. هذه نبوءة يا صديقي. يمكنك الثقة بإبلجوفتس".

وصمد، الذي لا يمتلك عادة الوقت للنبوءات أو لإيماءة وضع اليد على الأنف، كان عصبيًا بما يكفي بحيث أخذ بالنصيحة. لكن بوبي التي انتبهت بذكاء إلى أنها كانت تتلاشى من ذهن صمد بالمقارنة مع مسألة الولدين اهتمت فجأة، مدعية بأنها رأت لتوها في منام أنه يجب أن يكون ماجد وهكذا وقع الاختيار على ماجد مرة أخرى. وسمح صمد، بسبب يأسه، لآرشي حتى أن يرمي القطعة النقدية لكن كان من الصعب التقيد بالقرار (من الأفضل ثلاث مرات، الأفضل خمس مرات) ولم يستطع صمد أن يثق بذلك. وإذا كان بوسعك تصديق ذلك، كانت هذه هي الطريقة التي بدأ صمد وآرشي يلعبان بها اليانصيب بالولدين، ضاربين المسألة على جدران أوكونيل كي ترتد إليهما، وقاذفين الأرواح ليشاهدا على أي جانب تستقر.

دفاعًا عنهما، يجب توضيح أمر واحد: لم تُذكر كلمة اختطاف في أية نقطة. وفي الحقيقة لو أن هذا قُدم كمفردة لما كان سيفعله لشعر صمد بالرعب وذُهل، وتخلى عن الأمر كله كمثل مسرنم يستيقظ كي يجد نفسه في غرفة السيد وسكين الخبز في يده. يعرف أنه لم يخبر ألسانا بعد. يعرف أنه حجز في رحلة الثالثة صباحًا، لكن لم يكن واضحًا بأية طريقة له أن هاتين الحقيقتين كانتا مرتبطتين أو سترتبطان كي تعبرا عن عملية خطف. وهكذا دُهش صمد حين شاهد ألسانا وهي تبكي بعنف في الثانية صباحًا في 31 تشرين الأول\أكتوبر، محنية فوق طاولة المطبخ. لم يفكر، آه، لقد اكتشفت ما الذي سأفعله بماجد (كان أخيرًا وإلى الأبد ماجد) لأنه لم يكن وغدًا بشارب في رواية فكتورية تدور حول جريمة، وفضلًا عن ذلك لم يكن واعيًا بتخطيط أية جريمة. بالأحرى كانت أفكاره الأولى هي أنها عرفت بموضوع بوبي، واستجابة لهذا الموقف فعل كل ما يفعله شخص راشد بدافع من الغريزة: هاجم أولًا.

"وهكذا يجب أن آتي إلى المنزل إلى هذا، أليس كذلك؟" - قذف الحقيبة على الأرض من أجل التأثير - "أمضيت الليل كله في مطعم كالجحيم ثم يجب أن أعود

إلى الميلودراما الخاصة بك؟"

تشنجت ألسانا من الدموع. سمع صمد صوت دهنها الذي اهتز في الفجوة في الساري الذي ترتديه، لوحت بيديها له ثم وضعتهما فوق دموعها.

سأل صمد، محاولًا أن يموّه خوفه (توقع الغضب، ولم يعرف كيف يتعامل مع الدموع): "هل هذا حقًا ضروري؟ من فضلك يا ألسانا، هذه مبالغة في رد الفعل".

لوحت يدها له كما لو أنها تريد صرفه ثم رفعت جسمها قليلًا وشاهد صمد أن الصوت لم يكن عضويًا، لكنها كانت منحنية فوق شيء ما.

"ما هذا..."

دفعت ألسانا جهاز الراديو عن جسمها إلى منتصف الطاولة وأشارت لصمد أن يشغله. أربع صفرات مألوفة، الصفرات التي تتبع الإنكليز إلى أية أرض يجتاحونها، دوت في المطبخ، ثم بدأ البث وسمع صمد ما يلي:

معكم البي بي سي، اغتيلت رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي اليوم في الساعة الثالثة على يد حراسها الشخصيين السيخ الذين أطلقوا عليها النار في فعل عصيان علني وهي تسير في حديقة منزلها في نيودلهي، لا شك أن دافع الجريمة هو الانتقام ضد 'عملية النجم الأزرق'، اقتحام المعبد الأكثر قداسة للسيخ في أمرستار في حزيران الماضي. إن جماعة السيخ، الذين يشعرون أنه تم الاعتداء على ثقافتهم من قبل...

قال صمد، مطفئًا الراديو: "يكفي، لم تكن جيدة بأية حال. ما من أحد منهم جيد. ومن الذي يهمه ما يجري في تلك البالوعة، الهند. عزيزتي..." وقبل أن يقول ذلك تساءل لماذا كان عليه قوله، لماذا شعر بأنه حاقد هذا المساء: "أنت فعلًا

مثيرة للشفقة بشكل حقيقي أتساءل: أين ستذهب هذه الدموع لو مت أنا؟ إلى لامكان، تهتمين أكثر بسياسية فاسدة لا تعرفينها. هل تعلمين أنك المثال الكامل على جهل الجماهير، يا ألسي؟ هل تعرفين هذا؟"- قال، متحدثًا كما لو مع طفل ورافعًا ذقنها إلى الأعلى - "تبكين على الأغنياء والأقوياء الذين سيستكثرون البول عليك، لا شك أنه في الأسبوع القادم ستزعقين إذا كسرت الأميرة ديانا ظفرًا".

جمعت ألسانا كل البصاق الذي قدرت عليه في فمها وأطلقته عليه.

"يا مضاجع أخته! أنا لا أبكي عليها، يا أبله، أبكي على أصدقائي، سيُسفح دم في شوارع الوطن بسبب هذا، في الهند وبنغلادش. ستحدث أعمال شغب، سكاكين وبنادق وموت عام، لقد رأيته، سيكون الأمر كمحشر، كيوم القيامة، سيموت الناس في الشوارع يا صمد، أنت تعرف وأنا أعرف هذا. وستكون دلهي أسوأ مكان، وهي دومًا أسوأ مكان. لدي عائلة في دلهي، وأصدقاء وعشاق قدامى..."

وهنا صفعها صمد، من أجل العشاق القدامى ولأنه لأول مرة منذ سنوات كثيرة أشير إليه باسم مضاجع أخته.

وضعت ألسانا وجهها بين يديها وتحدثت بهدوء: "أبكي من الألم على تلك العائلات وبسبب الراحة على ولديّ. والدهما يتجاهلهما ويعنفهما، نعم، لكنهم على الأقل لن يموتا في الشوارع كالجرذان".

وهكذا قاد الأمر إلى إحدى تلك المشاجرات: المواقف نفسها، الخطوط نفسها، تبادل الاتهامات نفسه، الإشكالات نفسها. ورن الجرس، وخرج صمد من زاويته.

"كلا، سيعانون شيئًا أسوأ، أسوأ بكثير، وهم جالسون في بلد مفلس أخلاقيًا مع أم فاقدة لعقلها، بلهاء بشكل كامل، ينقصك الكثير، انظري إلى نفسك، انظري إلى حالتك. انظري كم أنت سمينة!" أمسك بقطعة منها، ثم أفلتها كما لو أن ستصيبه بالعدوى. "انظري ماذا تلبسين، حذاء جري وساريًا؟ وما هذا؟"

كانت إحدى لفحات كلارا الأفريقية الخاصة بالرأس الطويلة والجميلة من قماش كينتي البرتقالي وقد بدأت ألسانا تغلف بها شعرها الكثيف. سحبها صمد

ورماها في الغرفة تاركًا شعر ألسانا ينزل على ظهرها.

"لا تعرفين حتى ماذا أنت، من أين أتيت. لم نعد نرى العائلة أبدًا، أشعر بالعار من تعريفك عليهم. لماذا اجتزت كل الطريق إلى البنغال من أجل زوجة؟ هذا ما يسألونه. لماذا لم تذهب فقط إلى بوتني؟"

ابتسمت ألسانا بشكل يُرثى له، هزت رأسها بينما تظاهر صمد بالهدوء مالئًا الأبريق المعدني بالماء وواضعًا له على الموقد.

"وهل هذه اللونجي التي ترتديها جميلة يا صمد مياه؟" قالت بمرارة، مشيرة إلى بذلته الزرقاء التي تشبه رداء المنشفة والتي تعلوها قبعة بوبي الخاصة بفريق لوس أنجلوس ريدرز للبيسبول.

قال صمد دون أن ينظر إليها، واضعًا إبهامه تحت عظم ثديه الأيسر: "إن الفرق يكمن هنا، تقولين إنك ممتنة لأننا في إنكلترة، هذا لأنك بلعت المسألة كلها دون هضم. أستطيع أن أقول لك إن الولدين سيحصلان على حياة أفضل في الوطن..."

"صمد مياه! لا تبدأ! ستكون فوق جثتي عودة هذه العائلة إلى المكان الذي تتعرض فيه حياتنا للخطر! أخبرتني كلارا عنك، كيف سألتها أسئلة غريبة، ما الذي تخطط له يا صمد؟ أسمع من زينات كل الكلام عن ضمان الحياة... من الذي يموت؟ ما الذي أستطيع شمه؟ أقول لك إنه سيكون فوق جثتي".

"لكن إذا كنت مسبقًا ميتة يا ألسي..."

"اخرس، اخرس! أنا لست مجنونة. أنت تحاول دفعي إلى الجنون. اتصلت بأردشير، يا صمد. قال لي إنك تترك العمل في الحادية عشرة والنصف. الساعة الثانية صباحًا. أنا لست مجنونة!"

"كلا، بل أسوأ من ذلك. ذهنك مريض. تدعين نفسك مسلمة..."

استدارت ألسانا كي تواجه صمد، الذي كان يحاول تركيز انتباهه على البخار الصافر المتصاعد من الأبريق.

"كلا يا صمد. آه كلا. لا أدعو نفسي أي شيء. لا أدّعي أي شيء. أنت تدعو

نفسك مسلمًا. تعقد الصفقات مع الله. أنت الشخص الذي سيتحدث هو معه. تعال يا محشر. أنت يا صمد مياه، أنت، أنت، أنت."

دورة ثانية. صفع صمد ألسانا. ضربته ألسانا بيدها اليمنى على المعدة ثم تبعتها بضربة على عظم الخد الأيسر. ثم قامت باندفاعة إلى الباب الخلفي، لكن صمد أمسكها من الخصر، أمسكها كما يحدث في لعبة الركبي وجرها إلى الأسفل وثبتها بكوعه من العصعص. وبما أن ألسانا أكبر وزنًا من صمد، رفعت نفسها على ركبتيها، ورفعته وقذفته وجرته إلى الحديقة حيث رفسته مرتين وهو يستلقي على الأرض، محدثة شقين قصيرين ومؤلمين في جبهته، لكن الكعب المغلف بالمطاط أحدث ضررًا خفيفًا وبعد لحظة نهض على ركبتيه ثانية. أمسكا بشعر بعضهما، وصمد مصمم على الشد إلى أن يرى الدم. لكن هذا ترك ركبة ألسانا حرة فضربت بسرعة بين فخذي صمد، وأجبرته على ترك الشعر والقيام بقفزة عمياء قاصدًا فمها لكنه أمسك أذنها، في هذا الوقت بزغ التوأمان نصف مستيقظين من سريرهما ووقفا خلف نافذة المطبخ الزجاجية الطويلة كي يراقبا القتال، بينما اشتعلت أضواء الجيران، مضيئة حديقة إقبال كستاد.

قال ماجد، بعد فحص حالة المسرحية للحظة: "أبي، أكيد أبي".

قال ميلات طارفًا عينيه في الضوء: "كلا، لا يمكن، أراهنك على مصاصتيْ برتقال أن أمي ستقضي عليه".

"آه!،" صاح التوأمان معًا كما لو أنه عرض ألعاب نارية، ثم: "ههههه!"

أنهت ألسانا لتوها المعركة بمساعدة قليلة من مجرفة الحديقة.

صاح أحد الجيران: "هل يمكن لبعضنا الذين عليهم أن يعملوا في الصباح أن يحصلوا على نوم ليلي مريح، أيها الباكستانيون الدمويون".

بعد بضع لحظات (لأنهما دومًا يمسكان ببعضهما بعد هذه المعارك، في عناق في مكان ما بين العطف والانهيار) دخل صمد من الحديقة، ولا يزال متأثرًا قليلًا وقال: "اذهبا إلى السرير"، قبل أن يمرر يدًا عبر الشعر الأسود لولديه.

حين وصل إلى الباب توقف وقال "ستشكرني" ملتفتًا إلى ماجد الذي

ابتسم ابتسامة خفيفة ظانًا أن والده سيحضر له علبة الأدوات الكيميائية في النهاية. "ستشكرني في النهاية. هذه البلاد ليست جيدة. يمزق بعضنا بعضًا إربًا في هذه البلاد".

ثم صعد على الدرج واتصل ببوبي بورت جونز وأيقظها كي يخبرها أنه لن يكون هناك المزيد من القبل بعد الظهر ولا سيارات تكسي سرية وأن العلاقة انتهت.

ربما كان كل آل إقبال متنبئين لأن أنف ألسانا حيال المشكلات كان أكثر صحة مما سبق. فقد حدث قطعٌ علنيٌّ للرؤوس، وأُحرقت عائلات حتى الرماد وهي نائمة، وتدلت جثث المشنوقين خارج بوابة كشمير، وكان هناك أشخاص يتخبطون دائخين فاقدين لقطع من أنفسهم، أعضاء جسدية كان السيخ يأخذونها من المسلمين، ويأخذها الهندوس من السيخ، سيقان وأنوف وأصابع أقدام وأسنان، أسنان في كل مكان، تتبعثر في أنحاء الأرض مختلطة بالغبار. مات ألف شخص في الرابع من تشرين الثاني حين خرجت ألسانا من تحت ماء الحمام كي تسمع الصوت المفرقع لرجلنا في دلهي يروي لها عن ذلك من فوق خزانة الأدوية.

كان عملًا مريعًا. لكن، كما رآه صمد، كان بعضنا يمتلك ترف الجلوس في الحمام والإصغاء للأخبار الأجنبية بينما البعض الآخر يجب أن يعملوا كي يكسبوا رزقهم، ولديهم علاقة كي ينسوها، وطفل كي يخطفوه. حشرَ نفسه في البنطلون الأبيض، وفحص بطاقة الطائرة، واتصل بآرشي كي يتابع الخطة وذهب إلى العمل.

شاهد في نفق المترو فتاة سمراء أكثر فتوة وجمالًا، بدت أسبانية، وملتصقة الحاجبين وكانت تبكي. كانت تجلس قبالته، ترتدي زوجًا من الجرابات القرنفلية الكبيرة، وتبكي علنًا. لم يقل أحد أي شيء. ولم يفعل أحد أي شيء، وكان الجميع يأمل أنها ستنزل في كلبرن لكنها واصلت جلوسها وبكاءها، ويست هامبستيد، فنكلي رود، سويس كوتاج، سينت جون وود. ثم في شارع بوند أخرجت صورة شاب ليس جميل المنظر من حقيبة ظهرها وأرتها لصمد ولبعض المسافرين الآخرين.

"لماذا غادر؟ حطم قلبي... نيل، يقول اسمه، نيل. نيل، نيل".

في تقاطع تشارنغ، نهاية الخط، راقبها صمد وهي تعبر المنصة وتأخذ قطارًا

ذاهبًا مباشرة إلى ولسدن جرين. كان هذا رومانسيًا بطريقة ما، الطريقة التي قالت بها "نيل" كما لو أنها كلمة عاطفية جدًا وتحتوي على هيام سابق، وتنضح بالخسارة. هذا النوع من التدفق، البؤس الأنثوي. توقع شيئًا ما مشابهًا يحدث لبوبي، نوعًا ما، التقط الهاتف متوقعًا دموعًا لطيفة إيقاعية ورسائل فيما بعد، ربما، معطرة وملطخة بالدموع، وأنه سينمو داخل أحزانها، كما يحدث لنيل ربما في هذه اللحظة، وسيكون حزنها تجليًا يقربه خطوة واحدة من خلاصه، لكن بدلًا من ذلك حصل فقط على: "اللعنة عليك أيها الحقير".

قال شيفا، هازًا رأسه وممررًا لصمد سلة من المناديل الصفراء كي تُحوّل إلى شكل قلاعٍ: "أخبرتك، قلت لك ألا تدخل في عمل كهذا. ألم أفعل؟ هناك الكثير من التاريخ يا رجل. كما ترى: ليس فقط أنها غاضبة من المسألة، أليس كذلك؟"

هز صمد كتفيه وبدأ بالأبراج.

"كلا يا رجل، التاريخ، التاريخ. إنه كل ما يتركه الأسمر للمرأة الإنكليزية، وهذا كل ما قاله نهرو للمدام بريطانيا: إلى اللقاء!". كان شيفا قد سجل في الجامعة المفتوحة في محاولة لتحسين أوضاعه.

"كل هذا معقد، خراء معقد. إنه كله عن الكبرياء. إنها تريدك خادمًا، خادمًا محليًا يقشر العنب".

احتج صمد: "كلا، لم يكن الأمر هكذا. ليست هذه هي العصور الوسطى يا شيفا، هذا 1984".

"أرنا كم تعرف. بحسب ما قلته لي إنها حالة كلاسيكية، يا صديقي، كلاسيكية".

قال صمد (مفكرًا بينه وبين نفسه أن طفليه ينامان في السرير الآن في مناسبة تبادل النوم لدى عائلة جونيسيس، وأن ساعتين ستمران قبل أن يقوم آرشي بإيقاظ ماجد، تاركًا ميلات نائمًا): "حسنًا، لدي اهتمامات أخرى الآن، اهتمامات أسرية".

صاح أردشير، الذي زحف من الخلف، بشكل غير مفهوم كما دومًا، كي يفحص

الأسوار ذات الفتحات في قلاع صمد: "لا يوجد وقت! لا وقت للاهتمامات العائلية، يا ابن العم. الجميع مهتمون، الجميع يحاولون إخراج عائلاتهم من المشكلة في الوطن. أنا نفسي سأدفع ألف جنيه لبطاقة طائرة لأختي الثرثارة، لكن يجب أن آتي إلى العمل، يجب أن أواصل الأمور. ليلة مشغولة هذه الليلة يا ابن العم"، صاح أردشير وهو يغادر المطبخ كي يتجول في المطعم في صدار أسود. "لا تخذلني".

كانت الليلة الأكثر انشغالًا في الأسبوع، ليلة السبت، الليلة التي تأتي فيها الحشود في أمواج: قبل المسرح، بعد المسرح، بعد الحانة، بعد النادي، الحشد الأول لبق ويميل إلى المحادثة، الثاني يدندن ألحان عرض، الثالث مشاكس، الرابع مفتح العينين ومستغل. وكانت حشود المسرح عادة هي المفضلة للندُل، فقد كانوا يلاطفونهم ويدفعون لهم بقشيشًا جيدًا ويتحققون من جغرافيا الطعام: أصله الشرقي وتاريخه وكان كل هذا يُفبرك بسعادة من قبل الندل الشبان (الذين كانت أبعد رحلة لهم شرقًا هي التي يقومون بها يوميًا إلى وايت تشابل، سميثفيلدز، جزيرة الكلاب) أو يحكى عنها بإخلاص من قبل الكبار بقلم الحبر على ظهر منديل قرمزي.

كان عنوان العرض في المسرح القومي في الأشهر القليلة الماضية تلك هو "سأراهن أنها هكذا!"، وهو عرض مسرحي موسيقي من منتصف الخمسينيات أعيد اكتشافه وجُعلت خلفية أحداثه في الثلاثينيات، ويروي قصة فتاة غنية تهرب من أسرتها وتلتقي بفتى فقير على الطريق، كان منطلقًا كي يحارب في الحرب الأهلية الأسبانية. يقعان في الغرام. حتى صمد، الذي لم يكن يحب لحنًا معينًا شاهد ما يكفي من البرامج وسمع ما يكفي من الطاولات التي تصدح بأغنية مما جعله يعرف معظم الأغاني، وقد أحبها في الحقيقة وأخذت ذهنه بعيدًا عن الكدح (حتى أنها أراحته الليلة بشكل جميل من القلق الناجم عن تفكيره بآرشي وإذا كان سيحضر ماجد إلى خارج مطعم البالاس في الواحدة بعد منتصف الليل في الموعد المحدد)، كان يدندنها مع البقية في المطبخ في نوع من الإيقاع وهم ويتبلون ويقطعون الشرائح ويطحنون.

لقد شاهدت أوبرا باريس وعجائب الشرق.

"صمد مياه، أنا أبحث عن بذار خردل رجا".

أمضيت فصول الصيف قرب النيل وشتاءاتي على حلبة التزلج.

"بذار الخردل... أعتقد أنني شاهدت محمد معهم".

كان لدي ألماس وياقوت وفراء وقبعات مخملية.

"تهم، تهم... لم أشاهد أي بذار خردل".

جعلتُ هوارد هيوز يقشر لي حبة عنب.

"آسف يا شيفا، إذا لم تكن موجودة لدى العجوز فإنها ليست لدي".

لكن ما الذي يعنيه هذا بدون حب؟

سار شيفا من مكانه قرب الشيف والتقط علبة من بذار الخردل قرب كوع صمد الأيمن: "ثم ما هذه؟ هيا يا سام، اجمعها مع بعضها. الرأس في السحب هذا المساء".

"أنا آسف... ثمة الكثير الذي يشغل ذهني".

"تلك السيدة صديقتك، أليس كذلك؟"

"أخفض صوتك يا شيفا".

"يقولون لي إنني مدللة، امرأة غنية تعني المشاكل"، غنى شيفا باللهجات الهندية الأكثر غرابة العابرة للأطلسي. "أوي، أوي يا كورسي. لكن أي حب يُمنح لي أعيده مضاعفًا".

أمسك شيفا مزهرية زبرجد صغيرة وغنى أغنيته الختامية الكبيرة إلى نهايتها المقلوبة: "لا، لا مبلغ من المال، سيجعل حبي لي... يجب أن تأخذ هذه النصيحة يا صمد مياه"، قال شيفا، الذي كان مقتنعًا أن الرهن العقاري الأخير لصمد هو من أجل تمويل علاقته غير المشروعة، "هذه نصيحة جيدة".

بعد بضع ساعات ظهر أردشير مرة أخرى عبر الباب الدوار مقاطعًا الغناء كي يلقي المرحلة الثانية من حديثه الحماسي: "سادة، يا سادة. هذا أكثر من كاف. الآن، اسمعوا، إنها العاشرة والنصف. لقد شاهدوا العرض. وهم جائعون. لم

يحصلوا إلا على قطعة بائسة من البوظة في الاستراحة والكثير من جن بومبي، الذي كما نعرف جميعًا يولّد الحاجة للكري وهنا يأتي دورنا يا سادة. هناك طاولتان عليهما 15 شخصًا دخلوا لتوهم وجلسوا في المؤخرة، الآن: حين يطلبون الماء ماذا تفعلون؟ ماذا تفعل يا رافيند؟"

كان رافيند جديدًا، وهو ابن شقيق الشيف، في السادسة عشرة وعصبيًا.

"أخبرهم..."

"كلا، يا رافيند، حتى قبل أن تتحدث، ماذا تفعل؟"

عض رافيند شفته: "لا أعرف يا أردشير".

قال أردشير، هازًا رأسه: "تهز رأسك، وعلى نحو متزامن تظهر نظرة اهتمام وخوف على رفاههم" - عرض أردشير النظرة - "ثم ماذا تقول؟"

"الماء لا يساعد في الحرارة يا سيدي".

"لكن ما الذي يساعد في الحرارة يا رافيند؟ ما الذي سيساعد السيد بإحساس الحرارة الذي يشعر به الآن؟"

"المزيد من الأرز يا أردشير".

"و؟ و؟"

بدا رافيند محتارًا وبدأ بالتعرق. صمد، الذي صغّره أردشير مرات كثيرة بحيث لم يستمتع بمراقبة شخص آخر يلعب دور الضحية، مال إلى الأمام كي يهمس الجواب في أذن رافيند الندية.

توهج وجه رافيند بالامتنان: "المزيد من خبز النان يا أردشير!"

"نعم، لأنه يمتص الفلفل والأكثر أهمية لأن الماء مجاني وخبز النان جنيه لكل عشرين. الآن، يا ابن العم" - قال أردشير ملتفتًا إلى صمد وملوحًا بإصبع بارز العظم - "كيف سيتعلم الفتى؟ دع الفتى يجب بنفسه في المرة التالية. لديك عملك الخاص بك: سيدتان على الطاولة 12 طلبتا رئيس الندل بشكل رئيسي، كي يخدمهما..."

"طلبتاني؟ لكنني ظننتُ أنه يمكنني البقاء في المطبخ هذا المساء. بالإضافة

إلى ذلك، لا يمكن أن أُطْلَب كخادم شخصي، هناك الكثير للقيام به، هذه ليست سياسة يا ابن العم".

في هذه اللحظة شعر صمد بالرعب، فقد كان ذهنه منشغلًا جدًا باختطاف الساعة الواحدة، وباحتمال الفصل بين توأميه، بحيث أنه لا يثق بنفسه لحمل صحون حارة وآنية دال يتصاعد منها البخار، بالدهن الباصق لدجاج الفرن الفخاري، وبكل المخاطر التي ترافق خادم بيد واحدة. كان ذهنه منشغلًا بولديه، ونصفه في حلم هذا المساء، وقد قضم جميع الأظافر حتى وراء البشرة ويقترب بسرعة من الأهلة العليا، والمحاور النازفة.

قال، أو سمع نفسه يقول: "أردشير، لدي مليون شيء أقوم به هنا في المطبخ. ولماذا يجب..."؟

وجاء الجواب: "لأن كبير الندل هو أفضل نادل وبشكل طبيعي يمنحونني البقشيش (يمنحوننا) من أجل الامتياز، بدون مراوغة من فضلك يا ابن العم. الطاولة رقم 12، يا صمد مياه".

ومتعرقًا بشكل خفيف، راميًا منشفة بيضاء على كتفه الأيسر، بدأ صمد مدندنًا دون إيقاع أغنية العرض وهو يدفع الأبواب.

ما الذي لن يفعله شخص لفتاة؟ كم هو عذب العطر، كم هي ضخمة اللؤلؤة؟

كان مسيرًا طويلًا إلى الطاولة رقم 12، ليس بسبب المسافة، فهي على بعد عشرين مترًا فقط، لكنه مسير طويل عبر الروائح الكثيفة والأصوات المرتفعة والطلبات وصيحات الرجال الإنكليز وعبر طاولتين حيث المنفضة مليئة ويجب أن تُستبدل بأخرى، وتُرفع بصمت وبرقة بالغة وتُستبدل. وتوقف عند الطاولة 4 حيث يوجد صحن غير قابل للتحديد غير مرتب، وتجادل مع الطاولة 5 التي تريد ضم الطاولة السادسة، بصرف النظر عن الفوضى، والطاولة 7 تريد الأرز المقلي مع البيض سواء كان أو لم يكن صحنًا صينيًا، والطاولة الثامنة تهتز والمزيد من النبيذ والمزيد من البيرة! إنه مسير طويل إذا كنت ستفاوض الحشد، ملبيًا

الاحتياجات التي لا تنتهي والرغبات التي لا مبرر لها، الرغبات، طلبات الوجوه الوردية، التي تواجه صمد الآن كسادة يرتدون قبعات كالخوذ، الأقدام فوق الطاولة والمسدس في أحضانهم، بينما السيدات شاربات الشاي على الشرفات يبردن أنفسهن في نسيم مراوح الخدم السمر الذين يحركون ريش النعام.

أية مسافات سيجتاز، كم ضربة بقدميه على الحصى...

كم هو ممتن، قسمًا بالله (نعم مدام، لحظة واحدة يا مدام)، كما أسرَّتْهُ فكرة أن ماجد، ماجد على الأقل، سيطيرُ في غضون ساعات شرقًا مغادرًا هذا المكان ومتطلباته وشهواته المتواصلة، هذا المكان حيث لا صبر ولا شفقة، حيث الناس يريدون ما يريدونه الآن، الآن في هذه اللحظة (لقد انتظرنا الخضار عشرين دقيقة)، متوقعين عشاقهم وأطفالهم وأصدقاءهم وحتى آلهتهم أن يصلوا بكلفة قليلة وفي وقت قصير، تماما كما تتوقع الطاولة عشرة القريدس المشوي.

في مزاد علني من اختيارها، كم رمبرانت وكليمت ودي كوننغ؟

سيتخلى هؤلاء البشر عن إيمانهم مقابل الجنس وعن الجنس مقابل السلطة، سيستبدلون الإيمان بالله بالغرور الذاتي، والمعرفة بالسخرية، وسيفضلون شعرًا برتقاليًا طويلًا على رأس محجب ومحترم...

إنها بوبي على الطاولة رقم 12 . بوبي بورت جونز، وكان الاسم فقط كافيًا الآن (ذلك أنه كان خاليًا من الهموم، وكان على وشك أن يفصل ولديه إلى اثنين كمثل جراح الأعصاب الأول الذي يحمل سكينه الحادة والمرتبكة فوق الجلد المتكتل لتوأمي سيام)، كان الاسم فقط كافيًا لتفجير ذهنه، كان الاسم طوربيدًا يتجه نحو زورق صيد صغير ويدمره بالكامل. المسألة كانت أكثر من اسم، من صدى اسم نطقه أحمق بلا عقل أو عُثر عليه في أسفل رسالة قديمة، كانت بوبي بورت جونز موجودة بلحمها المنمش وجالسة ببرود وتصميم مع أختها التي بدت مثل جميع شقيقات اللواتي نرغب بهنَّ، نسخةً أكثر دمامة وبملامح غير ملائمة.

قالت بوبي فجأة لاعبة بعلبة مارلبورو: "قل شيئًا ما، إذًا، لا تقدم ردًا سريعًا وذكيًا؟ لا أريد كلامًا تافهًا عن الجمال أو جوز الهند؟ ليس لديك ما تقوله؟"

لم يكن لدى صمد أي شيء يقوله. توقف فقط عن الدندنة، أحنى رأسه تمامًا في الزاوية المراعية، ووضع رأس قلمه بشكل جاهز على الورقة. إنه كمثل حلم.

قالت بوبي بجفاف، فاحصة صمد من الأعلى للأسفل، مشعلة سيجارة: "حسنًا، إذًا، اجعلها بطريقتك. حسنًا. كي نبدأ نريد فطائر اللحم واللبن أو أيا كان ما تسمونه".

قالت الأخت الأقصر والأكثر لؤمًا ذات الأنف الأفطس: "وبالنسبة للطبق الرئيسي، نريد اثنين من لحم ضأن دون سوك وأرزًا مع رقائق البطاطا من فضلك، يا نادل".

*****

على الأقل جاء آرشي تمامًا في التوقيت المناسب وفي العام المناسب والموعد المناسب والساعة المناسبة: 1984، 5 تشرين الثاني\نوفمبر، الواحدة صباحًا. كان خارج المطعم، يرتدي معطفًا طويلًا، ويقف أمام سيارته الفوكسهول، بيد واحد تداعب دواليب بيريلي الجديدة الممتازة، والأخرى تمسك بشدة سيجارًا مثل بوجارت [84] أو مثل سائق أو مثل سائق بوجارت. وصل صمد، أمسك يد آرشي اليمنى وشعر ببرودة أصابع صديقه، شعر بالدين الكبير الذي يدين له به. وبشكل لا إرادي نفخ سحابة من النفس المتجمد في وجهه وقال: "لن أنسى هذا يا أرشيبالد. لن أنسى ما فعلته من أجلي الليلة، يا صديقي".

تحرك آرشي بارتباك: "سام، قبل أن ... هناك شيء ما يجب ..."

لكن صمد بحث عن الباب، وكان يجب أن يتبع شرح آرشي مشهد ثلاثة أطفال يرتجفون في المقعد الخلفي مثل خاتمة متعثرة.

"لقد استيقظوا يا سام. كانوا جميعًا نائمين في الغرفة نفسها، هذه هي الدعوة إلى النوم عند الآخرين. لم أستطع فعل شيء، وضعت معاطف فوق بيجاماتهم فحسب، لم أستطع أن أجازف وأجعل كلارا تسمع. كان يجب أن أحضرهم".

كانت آيري نائمة، ملتفة ورأسها على المنفضة وقدماها على علبة السرعة،

لكن ميلات وماجد انطلقا إلى والدهما بابتهاج وشدا بنطلونه وربتا على ذقنه.

"هي، بابا! إلى أين نحن ذاهبون، يا بابا؟ إلى حفلة ديسكو سرية؟ هل حقًا؟"

نظر صمد بحدة إلى آرشي. آرشي هز كتفيه.

"ذاهبون في رحلة إلى المطار. إلى هيثرو".

"ووو!"

"وإذًا متى نصل إلى هناك، ماجد، ماجد".

كان الأمر كالحلم. شعر صمد بالدموع قبل أن يستطيع إيقافها، مد يده إلى ابنه الأكبر بدقيقتين وضمه بإحكام إلى صدره بحيث نزع ذراع نظارته: "ومن هناك يذهب ماجد في رحلة مع العمة زينات".

قال ميلات: "هل سيعود؟ لن يكون جيدًا إذا لم يعد".

حرر ماجد نفسه من قبضة والده: "هل هي بعيدة؟ هل سأعود في الوقت المناسب يوم الإثنين، يجب أن أرى كيف هو تركيبي الضوئي من أجل مادة العلوم، أحضرتُ نبتتين ووضعت واحدة في الخزانة وأخرى في ضوء الشمس، يجب أن أرى يا أبي، يجب أن أرى أي واحدة...".

بعد أعوام من الآن، حتى بعد ساعات من مغادرة الطائرة، صار هذا تاريخًا حاول صمد ألا يتذكره. ولم تبذل ذاكرته جهدًا للاحتفاظ به. كان كغرق حجر مفاجئ، كطقم أسنان مزيف ينحدر بهدوء إلى قاع كأس.

"هل سأعود إلى المدرسة يا أبي؟"

قال آرشي بوقار من المقعد الخلفي: "هيا. يجب أن ننطلق بسرعة إذا كنا سنقوم بالأمر".

"ستكون في المدرسة يوم الاثنين يا ماجد. أعدك. اجلسوا الآن في مقاعدكم. هيا. من أجل البابا من فضلكم".

أغلق صمد باب السيارة وربض يراقب توأميه ينفخان نَفَسَيهما على زجاج النافذة. رفع يده، وقام بلمسة مزيفة لشفتيهما، مادة قرنقلية خام على الزجاج، لعابهما امتزج في الكثافة القذرة.

9

تمرّد

لم يكن الفرق الرئيسي بين الناس بالنسبة لألسانا يكمن في اللون أو في الجنس والدين والقدرة النسبية على الرقص على إيقاع هادئ أو فتح الأشخاص لقبضاتهم كي يكشفوا عن حفنة من القطع النقدية. كان الفرق الرئيسي أكثر جوهرية ويكمن في التراب وفي السماء. تستطيع أن تقسم البشرية كلها إلى معسكرين متميزين، بقدر ما كان يهمها الأمر، فقط من خلال الطلب منهم أن يكملوا استبيانًا بسيطًا جدًا، من النوع الذي تجده في مجلة "ما يخص النساء" يوم ثلاثاء:

-1 هل من المحتمل أن تنشق السماوات التي تنام تحتها لأسابيع في النهاية؟

-2هل من المحتمل أن تهتز الأرض التي تسير عليها وتنشقّ؟

-3هل هناك فرصة (ومن فضلك علّم المربع، مهما كانت الفرصة صغيرة) أن هذا الجبل المشؤوم يمكن أن يرمي ظلًا في منتصف النهار فوق بيتك وأن ينفجر يومًا ما دون أيما سبب على الإطلاق؟

لأنه إذا كان الجواب هو نعم لواحد من هذه الأسئلة أو لكلها، إذًا فإن الحياة التي تعيشها هي شيء في منتصف الليل، دومًا على بعد شعرة من ساعة

السحر، عابرة ومبتذلة، وخالية من الهم بالمعنى الحقيقي للكلمة. إنها خفيفة، قابلة للخسارة كحلقة مفتاح أو قصاصة شعر. وهي سبات: لماذا لا نجلس طيلة الصباح، طيلة اليوم، طيلة العام، تحت شجرة الأرز نفسها ونرسم شكل ثمانية في التراب؟ فضلًا عن ذلك إنها كارثة وفوضى: لماذا لا نُسقط حكومة بنزوة، ولماذا لا تعمي الرجل الذي تكرهه، لماذا لا تجن، وتتجول مثرثرًا في المدينة كأحمق، ملوحًا بيديك، ناتفًا شعرك، لا يوقفك شيء، أو بالأحرى لا يقدر أي شيء أن يوقفك، في أية ساعة، وأية دقيقة. إن هذا الشعور هو الفرق الحقيقي في الحياة. فالأشخاص الذين يقفون على أرض صلبة، وتحت سماوات آمنة، لا يعرفون أي شيء عن هذا، إنهم مثل الأسرى البريطانيين المفقودين في درسدن الذين واصلوا صب الشاي واللباس من أجل العشاء، بينما كانت أجهزة الإنذار تنطلق، وحتى حين كانت المدينة تتحول إلى كرة برجية من اللهب. إن الإنكليز المولودين في أرض خضراء وجميلة ولطيفة عاجزون عن تصور كارثة حتى حين تكون من صنع الإنسان.

لكن الأمر مختلف بالنسبة لشعب بنغلادش التي كانت سابقًا شرق باكستان، وسابقًا الهند، وسابقًا البنغال. فهذا الشعب يعيش تحت الإصبع اللامرئي للكوارث العشوائية، للطوفان والإعصار وللعاصفة والانزلاقات الطينية. تعيش البلاد نصف الوقت تحت الماء، وقد مُحيت أجيال بشكل منتظم كعمل الساعة، أما متوسط حياة الفرد فيمكن التفاؤل أنه يصل إلى 52، ويدرك هذا الشعب ببرود أنه حين تتحدث عن الكارثة، وحين تتحدث عن الموت الجماعي، فإنه يقود الطريق في ذلك الميدان الخاص، ويكون أول من يذهب، أول من ينزلق كمثل جزيرة أطلانتس إلى حوض البحر حين تبدأ الأغطية الجليدية القطبية المزعجة بالتحرك والذوبان. إنها البلاد الأكثر سخفًا في العالم، بنغلادش. إنها كوميديا سوداء من الله. لا حاجة كي تقوم باستبيان مع البنغاليين، ذلك أن حقائق الكارثة هي حقائق حياتهم. وبين عيد الميلاد السادس عشر العذب لألسانا (1971) مثلًا، والعام الذي توقفت فيه عن التحدث بشكل مباشر مع زوجها

(1985) مات المزيد من البشر في بنغلادش، هلكوا في الرياح والأمطار أكثر مما هلك في هيروشيما ودرسدن إذا جُمعوا معًا. فقد مليون شخص حياتهم التي تعلموا أن يتمسكوا بها بشكل واه في المقام الأول.

وهذا ما حملته ألسانا في الحقيقة ضد صمد، إذا أردتم الحقيقة، أكثر من الخيانة، أكثر من الأكاذيب، أكثر من الحقائق الأساسية لعملية خطف: أن ماجد يجب أن يتعلم أن يتمسك بحياته بخفة. على الرغم من أنه آمن نسبيًا في هضاب تشيتاجونغ، النقطة الأعلى في الأرض المسطحة والمنخفضة، لا تزال تكره فكرة أن ماجد سيكون كما كانت مرة، يتمسك بحياة ليست أثقل من بيزو (قطعة نقد) خائضًا دون تفكير عبر الطوفانات، مرتجفًا تحت ثقل سماوات سوداء...

أصيبت بالهستيريا بشكل طبيعي، وبشكل طبيعي حاولت أن تعيده. تحدثت مع السلطات المختصة التي أجابتها: "صدقًا يا حبي، نحن قلقون أكثر من مجيئهم". أو: "أصدقك القول، إذا كان زوجك هو من رتب الرحلة، لا يوجد ما نستطيع..."، وهكذا أغلقت السماعة. وبعد بضعة أشهر توقفت عن الاتصال وذهبت إلى ويمبلي ووايت تشابل يائسة وجلست في منازل الأقرباء في عطل نهاية أسبوع داخلة في ملحمة من البكاء والأكل والرثاء، لكن حدسها أخبرها أنه على الرغم من أن الكري جيد فإن الرثاءات لم تكن هكذا، فهناك أشخاص سروا في دخيلائهم من أن ألسانا إقبال، بمنزلها الكبير وأصدقائها الذين هم جزئيًا سود وجزئيًا بيض وزوجها الذي يشبه عمر الشريف وابنها الذي يتحدث مثل أمير ويلز، تعيش الآن في الشك واللايقين كمثل بقيتهم، متعلمة أن تلبس البؤس كمثل الحرير المألوف القديم. وكان هناك رضا معين في هذا، حتى حين مدت زينات، التي لم تكشف أبدًا دورها في العملية، يدها فوق ذراع الكرسي كي تمسك بيد ألسانا بأصابعها المتعاطفة التي تشبه المخالب: "آه يا ألسي، فقط أواصل التفكير كم هو مخجل أن يأخذ الجيد. كان ذكيًا وجيد السلوك. ليس عليك القلق حيال المخدرات والعاهرات مع هذا الشخص. فقط ثمن النظارة بسبب كل تلك القراءة".

آه، كانت هناك متعة معينة. لا تحط أبدًا من قدْر الناس، أو من قيمة المتعة

التي يتلقونها من رؤية الألم الذي ليس ألمهم، من نقل الأخبار السيئة، ومشاهدة القنابل تتساقط في التلفزيون، ومن الاستماع لبكاء مخنوق من الطرف الآخر لخط الهاتف. إن الألم في حد ذاته مجرد ألم، لكن الألم + المسافة يمكن أن =التسلية واستراق النظر والاهتمام البشري وسينما الحقيقة والضحك العميق وابتسامة متعاطفة ورفع حاجب والاحتقار المقنّع. أحست ألسانا بكل هذه الأمور وبما أكثر منها في الطرف الآخر من خط الهاتف حين تدفقت المكالمات في 28 أيار 1985 كي يبلغوها عن آخر إعصار ويقدموا الرثاءات.

"ألسي، كان يجب أن أتصل فحسب. يقولون إن هناك الكثير من الجثث تعوم في خليج البنغال..."

"سمعت آخر الأخبار الإذاعية فحسب، عشرة آلاف!"

"والناجون يعومون على الأسطحة بينما أسماك القرش والتماسيح تعض كعوبهم".

"إنه مريع يا آلسي، أن يكون المرء غير عارف، وغير متأكد..."

لستة أيام وست ليال، لم تعرف ألسانا، ولم تكن متأكدة. أثناء هذه الفترة قرأت بشكل مكثف للشاعر البنغالي رابرانت طاغور وحاولت بصعوبة أن تصدق تأكيداته (ظلمة الليل حقيبة تنفجر بذهب الفجر)، لكنها كانت، في قلبها، امرأة عملية ولم تجد الشعر مريحًا. في تلك الأيام الستة كانت حياتها شيئًا ينتمي إلى منتصف الليل، على بعد شعرة من ساعة السحر. لكن في اليوم السابع جاء الضوء: وصلت الأنباء بأن ماجد بخير، يعاني فقط من أنف مكسور سببته مزهرية سقطت من موقعها على رف مرتفع في مسجد، بعد أن ضربه النفس الأول للرياح الأولى (أبقوا عينًا على المزهرية من فضلكم، إنها المزهرية نفسها التي ستقود ماجد من أنفه إلى مهنته). كان الخدم الذين أخذوا قبل يومين تموينًا سريًا من الجن وتجمعوا في شاحنة العائلة المتضعضعة في رحلة متعة إلى دكا، هم الذين يطوفون الآن فقط وبطونهم إلى الأعلى في نهر جامونا بينما أسماك بزعانف فضية تحدق بهم جاحظة الأعين ومتسلية.

شعر صمد بالانتصار: "أترين؟ لن يصيبه أذى في تشيتاجونغ! حتى الأنباء أفضل، كان في جامع. أن يكسر أنفه في جامع أفضل من أن يكسره في مشاجرة في كلبرن. وهذا بالضبط ما كنت آمله. إنه يتعلم الطرق القديمة. ألا يتعلم الطرق القديمة؟"

صارعت ألسانا للحظة. ثم قالت: "ربما يا صمد مياه".

"ما الذي تعنيه بربما؟"

"ربما يا صمد مياه وربما لا".

قررت ألسانا أن تتوقف عن التحدث مباشرة مع زوجها. صممت أنها خلال السنوات الثماني التالية لن تقول له نعم أو لا أبدًا، بل أن تجبره على أن يعيش كما فعلت، غير عارف أبدًا، غير متأكد أبدًا، محتجزة عقل صمد من أجل فدية، إلى أن يدفع لها بشكل كامل بعودة ابنها رقم واحد الأكبر بدقيقتين، إلى أن تستطيع مرة أخرى أن تمرر يدًا سمينة في شعره الكثيف. وكان هذا وعدها، لعنتها على صمد، وكان انتقامًا ممتازًا. أحيانًا كان يدفعه تقريبًا إلى حافة الجنون، إلى مرحلة سكين المطبخ، إلى خزانة الأدوية. لكن صمد كان شخصًا من النوع العنيد جدًا الذي لن يقتل نفسه إذا عنى هذا إرضاء شخص آخر. صبر حيال الأمر. وكانت ألسانا تتقلب في نومها متمتمة: "فقط أعده يا أبله... إذا كان هذا يجعلك مجنونًا، فقط أعد لي طفلي".

لكن لم يكن هناك نقود لإعادة ماجد حتى لو كان صمد ميالًا إلى التلويح بدوتي (لباس هندوسي) أبيض. تعلم أن يعيش مع الأمر. ووصل إلى نقطة حيث إذا قال شخص ما "نعم" أو "كلا" لصمد في الشارع أو في المطعم، لم يكن يعرف كيف يجيب، صار ينسى ما عنته تلك الكلمتان الرشيقتان الدالتان. لم يسمعهما أبدًا من شفتي ألسانا. مهما كانت المسألة في منزل إقبال، لن يكون هناك أبدًا جواب مباشر.

"ألسانا هل شاهدت حذائي؟"

"ربما، يا صمد مياه".

"كم الساعة؟"

"ربما الثالثة يا صمد مياه، لكن يعلم الله قد تكون الرابع".

"ألسانا، أين وضعت جهاز التحكم؟"

"من المحتمل أنه في الدرج، يا صمد مياه، وربما خلف الصوفا".

وهكذا تواصل الأمر.

في وقت ما، بعض إعصار أيار\مايو، تلقت عائلة إقبال رسالة من ابنهما الأكبر بدقيقتين من أخيه، مكتوبة بخط جيد على ورقة نظيفة ومطوية وفي داخلها صورة حديثة. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي كتب فيها، لكن صمد شاهد شيئًا مختلفًا في هذه الرسالة، شيئًا أثاره وأكد صحة القرار غير الشعبي الذي قام به، استشف بعض التغير في النبرة، بعض الإيحاء بالنضج، حكمة شرقية نامية، وبعد أن قرأها بعناية في الحديقة أولًا، استمتع كثيرًا في إدخالها إلى المطبخ وقراءتها بصوت مرتفع لكلارا وألسانا، اللتين كانت تشربان الشاي بالنعناع.

"أصغيا، هنا يقول: أمس، جَلَدَ جدي تميم الخادم بحزام إلى أن احمرَّت مؤخرته أكثر من الطماطم. قال إن تميم سرق بعض الشموع، هذا صحيح. رأيتهُ يفعل هذا، وهذا ما حصل عليه مقابل فعلته. يقول أحيانًا إن الله يعاقب وأحيانًا يجب أن يفعل البشر ذلك، ويعرف الرجل الحكيم إن كان الدور دور الله أم دوره. آمل أن أصبح يومًا رجلًا حكيمًا. هل سمعتما هذا؟ يريد أن يكون حكيمًا. كم من الأطفال في تلك المدرسة تعرفان أنهم سيصبحون حكماء؟"

"ربما لا أحد، يا صمد ميا، وربما الجميع".

عبس صمد في وجه زوجته وقال: "وهنا، هنا يتحدث عن أنفه: يبدو لي أن المزهرية يجب ألا تكون في مكان سخيف كهذا حيث يمكن أن تسقط وتكسر أنف فتى. يجب أن يكون هذا خطأ شخص ما ويجب أن يُعاقب هذا الشخص (لكن ليس بالجلد على مؤخرته إلا إذا كان صغيرًا وليس كبيرًا. إذا كان أصغر من 12 سنة). حين أكبر سأعمل على التأكد من أن المزهريات لا توضع في أمكنة سخيفة كهذه حيث يمكن أن تشكل خطرًا وسأحتج ضد أمور أخرى خطيرة أيضًا

(بالمناسبة أنفي جيد الآن". أترين؟"

عبست كلارا: "أرى ماذا؟"

"إنه يرفض بوضوح وضع الأيقونات في الجامع، ويكره كل التزيين الوثني غير الضروري والخطير. إن ولدًا كهذا مكتوب عليه أن يصبح عظيمًا، أليس كذلك؟"

"ربما يا صمد مياه، وربما لا".

قالت كلارا: "ربما سيعمل في الحكومة، أو في مجال القانون".

"قمامة! ابني سيعمل من أجل الله، وليس من أجل الرجال. إنه لا يخاف من واجبه. لا يخاف أن يكون بنغاليًا حقيقيًا، ومسلمًا مستقيمًا. هنا يقول لي إن العنزة في الصورة ميتة. يقول: لقد ساعدت في قتل العنزة يا أبي. واصلت التحرك لبعض الوقت بعد أن قطعناها إلى قسمين. هل هذا ولد يخاف؟"

وكونه كان واضحًا أنه يجب على شخص ما أن يقول كلا، قالتها كلارا بحماس فاتر ومدت يدها لتناول الصورة التي ناولها لها صمد. وكان فيها ماجد يرتدي ملابسه الرمادية المعتادة ويقف إلى جانب العنزة المنحوسة والبيت القديم في الخلفية.

"آه! انظر إلى أنفه! انظر إلى الكسر. له أنف روماني الآن. يبدو مثل أرستقراطي صغير، كمثل رجل إنكليزي. انظر يا ميلات". وضعت كلارا الصورة تحت أنف ميلات الأصغر والأكثر تسطحًا. "أنتما الاثنان لا تبدوان كتوأمين بعد الآن".

قال ميلات بعد نظرة سريعة وبلهجة شوارعية: "يبدو تافهًا".

صمد الذي لم يمتلك معرفة جيدة أبدًا بلغة شوارع ولسدن هز رأسه بوقار معتقدًا أن الكلمة تعني زعيمًا، وربت على شعر ابنه: "جيد أنك ترى الفرق بينكما يا ميلات الآن وليس فيما بعد". نظر صمد إلى ألسانا وهي تدير سبابتها عند صدغها، حين ربتت جانب رأسها: مجنون، فقد عقله: "آخرون يمكن أن يسخروا لكن أنا وأنت نعرف أن أخاك سيقود الآخرين من البرية. سيكون زعيم قبائل. إنه من طينة الزعماء".

ضحك ميلات بصوت مرتفع على هذا، بشكل لا تمكن السيطرة عليه، بحيث أنه تعثّر، انزلق على منشفة وكسر أنفه على المغسلة.

*****

ولدان، واحد لامرئي ومكتمل، مجمد في السن الجميل للتاسعة، وثابت في إطار صورة بينما التلفزيون الذي تحته يتلفظ بكل تفاهات الثمانينيات: القنابل الإيرلندية وأعمال الشغب الإنكليزية والمآزق العابرة للأطلسي. وفوق هذه الفوضى توضعت صورة الطفل غير قابل للمس وغير الملطخ، في وضعية بوذا ذي الابتسامة الدائمة، والمشبع بتأمل شرقي هادئ، والقادر على أي شيء، على أن يكون قائدًا طبيعيًا، ومسلمًا طبيعيًا، وزعيمًا طبيعيًا، باختصار، لا شيء إلا مجرد شبح، لوح تصوير فضي شبحي مشكل من زئبق خيال الأب ومحفوظ بالمحلول المالح لدموع الأم. وقف هذا الولد صامتًا وبعيدًا و"متخيلًا بشكل جيد"، كإحدى جزر جلالتها الاستعمارية التي تُشكل معلمًا متقدمًا عالقًا في حالة أبدية من السذاجة الأصلية، وفي ما قبل بلوغ أبدي. هذا الابن الذي لم يستطع صمد أن يراه. وكان صمد قد تعلم لوقت طويل أن يعبد ما لم يستطع رؤيته.

أما بالنسبة للابن الذي يقدر على مشاهدته، والذي كان يقف في طريقه ويزعجه، فمن الأفضل ألا نجعل صمد يبدأ في التحدث عن هذا الموضوع، موضوع المشكلة مع ميلات، ولكن هذه هي: إنه الابن الثاني، المتأخر كحافلة، المتأخر كالبريد الرخيص، العربة البطيئة، الفتى المتأخر، الذي خسر السباق الأول داخل قناة الولادة، لكنه تابع فحسب بالميل الوراثي، بالتصميم المعقد لله، وخسر دقيقتين حيويتين لن يعوضهما، ليس في تلك المرايا شاملة الرؤية ذات القطع المكافئ، وليس في تلك الكرات الزجاجية لرأس الإله، وليس في عيني والده.

إن طفلًا أكثر كآبة من ميلات، وأكثر عمقًا في التفكير، يمكن أن يمضي بقية حياته كي يصطاد تلكما الدقيقتين ويجعل نفسه بائسًا، يطارد تلك الطريدة المراوغة ويأتي بها في النهاية كي يضعها عند قدميْ والده. لكن ما قاله والده عنه لم

يهم ميلات كثيرًا: عرف نفسه بأنه ليس تابعًا، وليس زعيمًا أو مستمنيًا أو للبيع أو غبيًا مهما كان ما قاله والده. وبلغة الشارع كان ميلات وقحًا وسيئًا، وفي الواجهة يغير الصورة دومًا كما تُغير الأحذية، وكان عذبًا وآمنًا وشريرًا يقود الفتيان إلى أعلى الهضبة للعب كرة القدم، وإلى أسفل الهضبة لتخريب ماكينات القمار، وإلى خارج المدرسة، وإلى حوانيت الفيديو. وفي "روكي فيديو"، المحل المفضل لميلات، والذي يديره تاجر مخدرات عديم الضمير، ترى الصور الإباحية حين تصل إلى الخامسة، والممارسة الجنسية الحارة حين تكون في الحادية عشرة، وأفلام جنسية عنيفة بشكل سري مقابل خمسة جنيهات. وهنا تعلم ميلات في الحقيقة عن الآباء والعرابين وأخوة الدم، وأفلام آل باتشينو ودي نيرو، ورجال يرتدون السواد يبدون جيدين، يتحدثون بسرعة، لا ينتظرون أبدًا طاولة لعينة، ولهم أيدي تحمل المسدسات وتعمل بشكل كامل. وتعلّم أن المرء لا يحتاج إلى العيش تحت الطوفان، وتحت الإعصار، والتعرض لبعض الخطر، وإلى أن يكون حكيمًا. يجب أن تخرج للبحث عن الأمر. وفي سن الثانية عشرة خرج ميلات بحثًا عنه، وعلى الرغم من أن ولسدن جرين ليس البرونكس، ولا ساوث سنترال، عثر على القليل، عثر على ما يكفي. وكان فظًا ويتحدث كثيرًا بوقاحة، وكانت ملامحه الجميلة الوحشية مضغوطة بإحكام داخله كمثل لعبة مركبة على نابض في علبة كي يقفز في سن الثالثة عشرة، وعند هذه النقطة تخرج من قائد الفتيان ذوي الوجوه المنمشة إلى قائد النساء، قائد ولسدن جرين، وكانت الفتيات المسحورات به يتقاطرْن خلفه بألسنة ممدودة وأثداء جذابة ساقطات في برك من تحطم القلب... وكل هذا لأنه كان الأكبر والأسوأ، وقد عاش حياته الشابة مبادرًا: دخن أولًا وشرب أولًا وكان يستشيط غضبًا أيضًا، وفي سن الثالثة عشرة والنصف. حسنًا، وهكذا لم يشعر كثيرًا أو يلمس كثيرًا، وكان يقوم بالأمر شاعرًا بالبلل ومشوشًا، ويغضب دون أن يعرف حتى لماذا، ويواصل الغضب لأنه لم يكن هناك شك بأنه كان أفضل من البقية، وعلى أي وزن من جنوح الأحداث كان الضوء المتوهج لجماعة المراهقين، الدون، الذي يقوم بالعمل، والذي لا يُغلب، وفتى

الشوارع، وزعيم العصابة. وفي الحقيقة، إن المشكلة الوحيدة لدى ميلات هي أنه يحب المشاكل، وكان جيدًا فيها. ولولا ذلك لكان عظيمًا.

حدث كثير من النقاش في المنزل والمدرسة وفي المطابخ المختلفة لعشيرة إقبال\بيجوم واسعة الانتشار، عن المشكلة مع ميلات، العاصي ميلات الذي في الثالثة عشرة، الذي يضرط في المسجد، ويطارد الشقراوات وتفوح منه رائحة التبغ، ولم يقتصر هذا على ميلات فحسب بل شمل كل الأطفال: مجيب (في الرابعة عشرة، له سجل إجرامي في الاستمتاع بقيادة السيارات المسروقة)، خانداكار (السادسة عشرة، صديقة بيضاء، تضع المسكرة في المساء)، ديبيش (الخامسة عشرة، ماريجوانا)، خورشيد (الثامنة عشرة، الماريجوانا وبنطلون واسع جدًا) خالد (السابعة عشرة، الجنس قبل الزواج مع فتى صيني)، بيمال (التاسعة عشرة، يدرس الدبلوم في الدراما)، **ما الخطأ في كل الأطفال**؟ ما الخطأ الذي حدث مع المتحدرين الأوائل هؤلاء من تجربة عبور المحيط العظيمة؟ ألم يكن لديهم كل ما يريدونه؟ ألم تكن هناك منطقة حدائق جوهرية، وجبات منتظمة، ثياب نظيفة من ماركس إن سباركس، وتعليم من المستوى الراقي؟ ألم يفعل الكبار ما بوسعهم؟ ألم يأتوا جميعًا إلى هذه الجزيرة لسبب؟ كي يكونوا بمأمن. ألم يكونوا آمنين؟

قال صمد بصبر معزيًا أمًا أو أبًا باكيًا أو غاضبًا، جدًا أو جدة محتارين أو كبيرين في السن: "آمنون جدًا، إنهم آمنون جدًا في هذا البلد، أليس كذلك؟ يعيشون في فقاعات بلاستيكية كبيرة من ابتكارنا، حياتهم كلها مخططة لهم. أنا شخصيًا سأبصق على القديس بولس، لكن الحكمة صحيحة، الحكمة هي في الحقيقة لله: تخلوا عن التصرفات الصبيانية. كيف يمكن أن يصبح أطفالنا رجالًا حين لا يتم تحديهم أبدًا كرجال؟ كيف؟ لا شك في هذا، لدى التفكير بالأمر، إن إرسال ماجد كان أفضل ما فُعل وأنا أزكي هذا".

عند هذه النقطة، نظر الباكون والنادبون المجتمعون كلهم بشكل نادب إلى الصورة الغالية لماجد والعنزة. وجلسوا مسمرين، كمثل الهندوس المنتظرين لبقرة

حجرية أن تصرخ، إلى أن تبدو هالة مرئية صادرة عن الصورة، الطيبة والشجاعة من خلال التنوع، من خلال الجحيم والمياه المرتفعة، الفتى المسلم الحقيقي، الطفل الذي لم يحصلوا عليه أبدًا. ووجدت ألسانا هذا الأمر المزعج مسليًا على نحو طفيف، بعد أن انقلب الموقف ضدها، لا أحد يبكي عليها، الجميع يبكون على أنفسهم وعلى أطفالهم، حيال ما تفعله الثمانينات المزعجة لهم. وكانت هذه الاجتماعات كمثل القمم السياسية الأخيرة، كمثل اجتماعات يائسة للحكومة والكنيسة خلف الأبواب المغلقة بينما الرعاع المتمردون يطوفون بشكل وحشي في الشوارع ويهشمون النوافذ. كانت هناك مسافة تؤسس نفسها، ليس بين الآباء والأولاد والعجائز والشبان والمولودين هنا فحسب، بل أيضًا بين أولئك الذين يبقون داخل المنزل والذين يخرجون للشغب في الخارج.

كرر صمد، بينما كانت العمة الأكبر بيبي تمسح ماجد بحب بمادة "مستر شاين" الملمعة بشكل خفيف: "آمن جدًا، سهل جدًا، إن شهرًا في الوطن سيحل مشاكل كل واحد منهم".

لكن الحقيقة هي أن ميلات لم يكن بحاجة إلى العودة إلى الوطن: كان يقف مصابًا بالفصام، بقدم في البنغال وأخرى في ولسدن، وفي ذهنه كان هناك بقدر ما كان هنا. ولم يكن بحاجة إلى جواز سفر كي يعيش في مكانين في وقت واحد، ولم يحتج إلى فيزا كي يعيش حياة شقيقه وحياته (كان توأمًا في النهاية). وكانت ألسانا أول من رأت ذلك وأسرت لكلارا: "أقسم بالله، أنهما مقيدان ببعضهما كمثل مهد قطة، ومرتبطان كلعبة مهد القطة (الكاتس كريدل) ومثل مرجيحة (السي- سو) إذا دفعتِ طرفًا يرتفع الآخر، ومهما كان ما يراه ميلات، كان ماجد يرى العكس!". ولم تعرف ألسانا إلا الأشياء العرضية: الأمراض المشابهة، والأحداث المتزامنة، والحيوانات الأليفة التي تنفق في قارتين منفصلتين. لم تعرف أنه حين راقب ماجد إعصار 1985 يهز الأشياء ويرميها من الأمكنة العالية، كان ميلات يواصل توقعه لحظ جيد على طول الجدار الشاهق للمقبرة في فورشن جرين، أنه في العاشر من شباط 1988، بينما كان ماجد يشق طريقه عبر الحشود العنيفة في

دكا متملصًا من ضربات المشغولين بحل مشكلة انتخابات بالسكاكين والقبضات كان ميلات يرفع قبضته وسكينه ضد ثلاثة سكيرين أيرلنديين عنيفين وسريعين خارج بار بيدي موليجان سيّئ الصيت في كلبرن. آه، لا تقنعك المصادفة؟ تريد الحقيقة الحقيقة الحقيقة؟ تريد أن تواجه الرجل الكبير الذي يغطي رأسه برداء أسود ويحمل منجلًا؟ حسنًا: في الثامن والعشرين من نيسان، 1989رفع إعصار مطبخ تشيتاجونغ عاليًا في السماء، آخذًا معه كل شيء باستثناء ماجد، الذي تُرك بشكل إعجازي ملتفًا في كرة على الأرض. الآن، ننتقل إلى ميلات، على بعد خمسة آلاف ميل، وهو فوق طالبة الثانوية ناتاليا كافنديش (التي يخفي جسمها عنها سرًا مربكًا)، الأكياس الواقية غير مفتوحة في علبة في جيبه الخلفي، لكنه نوعًا ما لن يمسك بها على الرغم من أنه يتحرك إيقاعيًا الآن، إلى الأعلى والداخل، أعمق وجانبيًا، راقصًا مع الموت.

*****

ثلاثة أيام:

15 تشرين الأول\أكتوبر 1987.

حتى حين اشتعلت الأضواء وكانت الريح تخبط بعنف على الزجاج المزدوج، فإن ألسانا، المؤمنة الكبيرة بالنبوءة التي هي هيئة الإذاعة البريطانية، جلست في ثوب النوم على الصوفا، رافضة أن تتزحزح.

"إذا كان ذلك السيد فيش يقول إن الأمر صحيح، فهذا يعني أنه صحيح. إنها البي بي سي، كُرمى لله".

استسلم صمد (كان من المستحيل تقريبًا تغيير ذهن ألسانا حول الموثوقية التي لا تُناقش لمؤسساتها الإنكليزية المفضلة، بينها: الأميرة آن، بلو- تاك، الأداء الملكي المتنوع للأطفال، إيريك مروكامب، ساعة المرأة). أحضر البيل من درج المطبخ وصعد إلى الطابق العلوي بحثًا عن ميلات.

"ميلات؟ أجبني يا ميلات. هل أنت هنا؟"

"ربما نعم يا بابا، وربما لا".

تبع صمد الصوت إلى الحمام وعثر على ميلات مغمورًا إلى ذقنه في رغوة صابون قرنفلية متسخة، يقرأ مجلة فيز الكوميدية.

"آه، أبي، الشرير. تحمل مصباحًا يدويًا. وجّهه إلى هنا كي أستطيع القراءة".

انتزع صمد المجلة من يد ابنه: "لا تقرأ هذه". ثمة إعصار لعين يهب وأمك المجنونة تنوي البقاء هنا إلى أن يهر السقف. اخرج من الحمام. أريدك أن تذهب إلى الكوخ وتعثر على بعض الخشب والمسامير كي نستطيع أن..."

"لكن يا أبي أنا عار".

"لا تشغلني بكلماتك السخيفة، هذا أمر طارئ. أريدك أن ..."

سُمع صوت تمزّق قوي، كما لو أن شيئًا قُطع من جذوره وانقذف على حائط، جاء من الخارج.

بعد دقيقتين كان أفراد عائلة إقبال يقفون بشكل منظم في حالات مختلفة من عدم اللباس وينظرون من نافذة المطبخ الطويلة إلى البقعة في المرج التي كان يتوضع فيها الكوخ. نقر ميلات كعبه ثلاث مرات وأضاف إلى ذلك قائلًا بلهجة شوارعية: "يا إلهي! لا يوجد مكان كالمنزل. لا يوجد مكان كالمنزل".

"حسنًا يا امرأة. هل أنت قادمة الآن؟"

"ربما يا صمد مياه، ربما".

"اللعنة! لست في مزاج القيام باستفتاء. سنذهب إلى أرشيبالد. ربما لا يزال لديهم ضوء. وهناك أمان في حال كنا كثيرين. البسا، واحملا الضروريات، أشياء الحياة أو الموت، واصعدا إلى السيارة".

ممسكًا بالباب في وجه ريح مصممة على إغلاقه، استمتع صمد في البداية من الأشياء التي اعتبرتها زوجته وابنه ضرورية، أشياء الحياة والموت ثم شعر بالكآبة. فقد أحضر ميلات:

ألبوم "ولد كي يهرب"

سبرينغستين

بوستر لدي نيرو من مشهد "أنت تتحدث معي" في فيلم "سائق التاكسي".

نسخة بيتاماكس من "المطر الأرجواني" (فيلم روك)

بنطلون جينز ليفيز ضيق (ريد تاب)

حذاء كرة القاعدة الكونفيرس

رواية البرتقالة الآلية.

فيما أحضرت ألسانا:

آلة الخياطة،

ثلاثة علب من دهان النمر

فخذ خروف (مجمد)

إناء لغسل القدمين

كتب علامات الأبراج لليندا جودمان

علبة ضخمة من سجائر بيدي

فيديو موسيقى بعنوان شعاع القمر فوق كيرالا لديفارجيتي سنغ.

خبط صمد البوط على الأرضية.

"لا مدية ولا مأكولات ولا مصادر إضاءة. عظيم، لا جوائز لتخمين مَنْ مِن عائلة إقبال هو متطوع الحرب. لا أحد حتى يفكر بحمل القرآن، وهو شيء رئيسي في حالات الطوارئ يقدم الدعم الروحي. سأعود إلى الداخل. اجلسا في السيارة ولا تقوما بأية حركة".

حالما وصل إلى المطبخ سلط صمد ضوء المصباح اليدوي حوله مضيئًا الغلاية ورف الموقد وفنجان الشاي والستارة وثم لمحة سريالية للكوخ الذي يتوضع سعيدًا كمنزل في شجرة كستناء البيت التالي. التقط مدية الجيش السويسري التي تذكر أنه وضعها تحت المغسلة، وتناول نسخته من القرآن المطلية بماء الذهب والمهدبة بالمخمل من غرفة الجلوس وكان على وشك المغادرة حين شعر بالإغواء كي يشعر بالعاصفة، كي يرى بعض الدمار الهائل. انتظر

هدوء الريح وفتح باب المطبخ، متحركًا بانتباه إلى الحديقة حيث شعاع من البرق أضاء مشهد جائحة خاصة بالضواحي: أشجار البلوط والأرز والجميز والدردار مقطوعة في حديقة بعد أخرى، الأسيجة ساقطة، وأثاث الحديقة مدمر. كانت حديقته فقط، والتي كان يُسْخر منها غالبًا بسبب الحديد المموج الذي يحيط بها، تخلو من الأشجار، وفيها أحواض متتالية من النباتات العطرية ذات الرائحة المقيتة والتي بقيت نسبيًا سليمة.

كان في سيرورة أن يصوغ بسعادة بعض الكلمات المجازية بخصوص شجرة الخيزران الشرقية المنحنية إزاء شجرة البلوط الغربية العنيدة، حين عاودت الريح تأكيد نفسها، دافعة به جانبيًا ومواصلة طريقها إلى الزجاج المزدوج فشقته وفجرته دون جهد، دافعة بالزجاج إلى الداخل، متقيئة كل شيء من المطبخ إلى الخارج في الهواء الطلق. صمد، الذي توضعت مصفاة محمولة جوًا على أذنه، حمل كتابه بإحكام إلى صدره وأسرع إلى السيارة.

"ما الذي تفعلينه في مقعد القيادة؟"

تمسكت ألسانا بعجلة القيادة بقوة وتحدثت مع ميلات من خلال مرآة الرؤية الخلفية: "هل يخبر أحد من فضلكم زوجي أنني سأقود السيارة. لقد ترعرعتُ في خليج البنغال وراقبتُ أمي وهي تقود عبر رياح كهذه بينما كان زوجي يتسكع في دلهي مع مجموعة من طالبات الكلية الجميلات. أقترح أن يجلس زوجي في مقعد الركاب وألا يضطر إلى أن أطلب منه ذلك".

ساقت ألسانا بسرعة ثلاثة أميال في الساعة عبر الطريق العام المهجور والمعتم بينما كانت رياح بقوة 110 أميال في الساعة تحطم بلا كلل قمم الأبنية الأعلى.

"هذه إنكلترة، هذا ما يعنيه الأمر. انتقلتُ إلى إنكلترة كي لا أضطرّ لفعل هذا. لن أثق بذلك السيد نفاية ثانية أبدًا".

"ماما، إنه السيد فيش".

قالت ألسانا بنظرة سوداوية: "من الآن فصاعدًا إنه السيد نفاية بالنسبة لي، بي بي سي أو لا بي بي سي".

كانت الأضواء مطفأة في منزل آرشي، لكن منزل جونز كان جاهزًا لجميع الأحداث الكارثية من موجة المد إلى انتشار الشعاع النووي، وفي الوقت الذي وصلت فيه عائلة إقبال إليه كان المنزل مضاء بدزينة من المصابيح الغازية وشموع الحدائق والأضواء الليلية ودُعِّمَ الباب الأمامي والنوافذ بسرعة بالألواح أما أشجار الحديقة فقد رُبطت أغصانها ببعضها.

أعلن آرشي وهو يفتح الباب لآل إقبال اليائسين وأذرعهم الممتلئة بالممتلكات كمثل ملك يقوم بالأمور بنفسه ويرحب بالمحرومين: "كل هذا يتعلق بالتحضير، أعني يجب أن تحمي عائلتك، أليس كذلك؟ لا يعني أنك فشلت في هذه المسألة، تعرف ما الذي أعنيه، فقط المسألة كما أراها: هي أنني ضد الريح: افحص الجدران الداعمة. إذا لم تكن في وضعية ممتازة فأنت مقضي عليك يا صديقي، مقضي عليك حقًا. ويجب أن يكون في بيتك فاحص للكهرباء. ضروري".

"هذا ساحر يا أرشيبالد. هل يمكن أن ندخل؟"

خطا آرشي جانبيًا: "بالطبع. في الحقيقة كنت أتوقع قدومكم. لن تميز أبدًا أداة الحفر عن مقبض مفك براغي يا إقبال، أنت جيد في النظرية لكن لا علاقة لك بالتفاصيل. تابعوا إلى أعلى الدرج، انتبهوا إلى الأضواء الليلية. أليست هذه فكرة جيدة؟ مرحبًا يا ألسي، تبدين جميلة كما دومًا، مرحبًا يا ميلات، أيها الوغد. وهكذا يا سام، أخبرني، ما الذي فقدته؟"

أحصى صمد بخجل الأضرار حتى الآن.

"آه، الآن توضح الأمر، هذا ليس بسبب زجاجك، لا بأس به، لقد ركبت النوع نفسه، إن السبب هو الإطارات. انتُزعت فحسب من الجدار المتفتت، وأراهن على ذلك".

أقر صمد على مضض على أن هذه هي الحالة.

"سيحدث ما هو أسوأ، انتبه إلى كلامي. حسنًا، ما فُعل فُعل. كلارا وإري في المطبخ. لدينا فرن بنزين يعمل. وسيكون الطعام جاهزًا بعد دقيقة. لكن يا

لها من عاصفة لعينة؟ انقطعت خطوط الهاتف. لا يوجد كهرباء. لم أر أبدًا عاصفة تشبهها".

في المطبخ، ساد نوع من الهدوء المصطنع. كانت كلارا تحرك بعض الفاصوليا، وتدندن بهدوء لحن أغنية "الجنود الجواميس [85]". وكانت آيري محنية فوق مفكرة، وتكتب يومياتها بشكل هوسي على طريقة الذين في الثالثة عشرة من عمرهم:

كانت الساعة الثامنة والنصف. دخل ميلات لتوه. إنه رائع جدًا لكنه مزعج في النهاية. يرتدي بنطلون جينز ضيقًا كالعادة. لا ينظر إليّ (كالعادة، عدا بطريقة ودية). أنا أحب مغفلًا (يا لي من غبية!) لو فقط أنه يملك دماغ أخيه... آه حسنًا. لقد دخلت في علاقة حب سطحية ونما لي دهن عابر كالذي يحدث للأطفال... آخ! إن العاصفة لا تزال مجنونة. يجب أن أذهب. سأكتب فيما بعد.

"حسنًا"، قال ميلات.

"حسنًا"، قالت آيري.

"هذا جنون، أليس كذلك؟"

"نعم، عقلي".

"أبي متضايق. المنزل ممزق تمامًا".

"كما قلت من قبل. إن الجنون منتشر هنا أيضًا.

قال آرشي داقًا مسمارًا آخر في اللوح نفسه: "أحب أن أعرف أين ستكونين بدوني أيتها السيدة الشابة، هذا هو المنزل المحمي بشكل أفضل في ولسدن. من الصعب أن يعرف المرء أن هناك عاصفة وهو هنا".

قال ميلات مختلسًا نظرة حماسية أخيرة عبر النافذة إلى الأشجار المتمايلة

بعنف قبل أن يحجب آرشي السماء بشكل كامل بالأخشاب والمسامير: "نعم، هذه هي المشكلة".

شد صمد ميلات من أذنه: "لا تبدأ بوقاحتك. نحن نعرف ما نفعله. نسيتَ أنني أنا وأرشيبالد تعاملنا مع المواقف الصعبة. حين تتدبر أمر دبابة فيها خمسة رجال في وسط ساحة معركة، وحين تكون حياتك معرضة للخطر عند كل منعطف، والرصاصات تئز على بعد إنشات من مؤخرتك، وحين في الوقت نفسه تأسر عدوًا في الظروف الأكثر قسوة، فإن الإعصار شيء تافه بالمقارنة. تستطيع أن تقول شيئًا أفضل من: نعم، نعم، أكيد أنه مسل جد" - قال صمد، بينما تظاهر الولدان والزوجتان بالنوم - "من يريد بعض هذه الفاصولياء؟ أنا أقوم بتقديم الطعام".

قالت ألسانا: "ليرْوِ أحدٌ لنا قصة. سيصبح الجو مضجرًا جدًا إذا اضطرينا للإصغاء إلى الجنديين العجوزين طيلة الليل".

قال آرشي بغمزة: "تابع يا سام، ارْوِ لنا الحكاية عن مانغال باندي. هذه جيدة دومًا للضحك".

جاء صوت قوي يقول كلمة كلا حاكى قطع الحناجر وخنق الذات من الرفقة المجتمعة.

احتج صمد قائلًا: "إن قصة مانغال باندي ليست للضحك. إنه سبب حدوث كل هذا، إنه سبب لماذا نحن ما نحن عليه، مؤسس الهند الحديثة، الشخصية التاريخية المهمة والعظيمة".

نخرت ألسانا: "هذا هراء، يعرف جميع الحمقى أن غاندي هو الشخصية المهمة. أو نهرو. أو ربما أكبر، لكنه كان محني الظهر وكبير الأنف ولم أحبه أبدًا".

"اللعنة! لا تنطقي بالهراء يا امرأة. ما الذي تعرفينه عن الأمر؟ الحقيقة هي أن المسألة مسألة اقتصاد سوق وشهرة وحقوق فيلم. والسؤال هو: هل الرجال الجميلون ذوو الأسنان البيضاء راغبون بأن يُمثِّل دورك، إلخ. كان لدى غاندي السيد كينجسلي، المثير للإعجاب، لكن من الذي سيلعب دور باندي؟ باندي ليس

جميلًا بما يكفي، أليس كذلك؟ يبدو هنديًا جدًا بأنف كبير وحاجبين كبيرين. لهذا يجب أن أقول لكم دومًا أيها العاقون شيئًا أو شيئين عن مانغال باندي. باختصار: إذا لم أفعل، لن يفعل أحد هذا".

قال ميلات: "انظر، سأقوم بالنسخة القصيرة. والد جدي..."

" والد جد جدك أيها الغبي"، صححت ألسانا.

"مهما كان. قرر أن ينيك الإنكليز".

"ميلات!"

"أن يتمرد ضد الإنكليز، وقام بكل هذا لوحده، مستاء جدًا، وأطلق النار على النقيب فلم يصبه وأطلق النار على نفسه فأخطأ فعُلِّقَ..."

"شُنق"، قالت كلارا شاردة الذهن.

قال آرشي واضعًا مطرقته ونازلًا عن طاولة المطبخ: "شُنق أو عُلق؟ سأحضر القاموس".

"مهما حدث، نهاية القصة مضجرة".

شجرة ضخمة من النوع المتوطن في شمال لندن، من تلك الأشجار التي ينمو ثلاث أشجار صغيرة على طول جذعها قبل أن تنفجر ناميةً في النهاية في خضرة مجيدة، والتي تمثل حياة مدينة لشتات كامل من العقاعق، شجرة من هذا النوع انتزعت نفسها من براز الكلاب والاسمنت، وخطت خطوة متمايلة إلى الأمام، وفقدت وعيها وانهارت، عبر المزاريب وعبر الزجاج المزدوج وعبر الألواح الخشبية، وأوقعت مصباحًا غازيًا ثم هبطت في فراغ كان يأخذ شكل آرشي الذي كان قد غادره لتوه.

كان آرشي أول من قفز من أجل العمل، راميًا منشفة على النار الصغيرة التي كانت تتقدم عبر قرميدات المطبخ الفلينية، بينما كان الجميع يرتجفون ويبكون ويفحصون بعضهم من أجل تبين الإصابات. ثم آرشي، الذي كان مهزوزًا من تلك الضربة لتفوقه في القيام بالأمور بنفسه، استعاد السيطرة على العناصر، رابطًا بعض الأغصان بأسمال مطبخية وآمرًا ميلات وآيري أن يدورا حول المنزل ويطفئا

المصابيح الغازية.

"لا نريد أن نحرق أنفسنا ونموت، من الأفضل أن أعثر على بعض البلاستيك الأسود والشريط الأسود اللاصق. افعلا شيئًا حيال هذا".

كان صمد ميالًا للشك: "افعل شيئًا حيال هذا يا أرشيبالد؟ لا أعرف كيف سيغير شريط أسود حقيقة أنه يوجد نصف شجرة في المطبخ".

قالت كلارا، بعد صمت لبضع دقائق، حين هدأت العاصفة: "يا رجل أنا مرعوبة. الهدوء علامة سيئة دومًا. إن جدتي، رحمها الله، قالت هذا دومًا. إن الهدوء يعني فقط أن الله يهيّئ الأمر قبل الصّيحة الثانية. أعتقد أننا يجب أن ندخل إلى الغرفة الأخرى".

قال آرشي لامسًا كتف زوجته بعطف: "هذه هي الشجرة الوحيدة في هذا الجانب. من الأفضل أن نبقى هنا. الأسوأ حدث هنا. فضلًا عن ذلك أنتم آل بودن جربتم أسوأ من هذا! ولدت أمك في زلزال دموي قسمًا بالمسيح. في 1907، تدمرت كنغستون وأتت هورتينس إلى العالم. لن تقلقها عاصفة صغيرة كهذه. إن تلك المرأة قوية كالمسامير".

قالت كلارا واقفة كي تنظر عبر النافذة المحطمة إلى الفوضى في الخارج: "ليست القوة، بل الحظ، الحظ والإيمان".

قال صمد ملتقطًا نسخته الجديدة من القرآن: "أقترح أن نصلي. أقترح أن نعترف بقوة الخالق وهو يقوم بأسوأ ما يقوم به هذا المساء".

بدأ صمد يقلب فيه وحين عثر على ما يريد أحضره كأرستقراطي إلى تحت أنف زوجته لكنها أغلقته بدفعة ونظرت إليه. ألسانا غير المؤمنة، التي لا تزال خبيرة بكلمة الله (دراسة جيدة، والدان ملائمان، آه نعم)، لا تفتقر لأي شيء سوى الإيمان، استعدت كي تفعل ما تفعله فقط عند الطوارئ وهو تلاوة من القرآن:(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ). سورة الكافرون 109، ترجمة ن. ج. داوود. قالت ألسانا ناظرة إلى كلارا: "هل سيفعل أحد ما، الآن، من فضلك

ذكّري زوجي أنه ليس السيد مانيلو[86] وليست لديه الأناشيد التي تجعل العالم كله ينشد. سيصفر لحنه وسأصفر لحني".

استدار صمد باحتقار عن زوجته ووضع كلتا يديه بصرامة على كتابه: "من سيصلي معي؟"

جاء صوت مختنق (كان رأس آرشي في الخزانة يبحث عن أكياس القمامة): "آسف يا صمد، ليس هذا ما أهتم به أيضًا. لم أذهب أبدًا إلى الكنيسة يا رجل. لا أقصد الإساءة".

مرت خمس دقائق دون ريح. ثم انجلى الهدوء وسُمع الصياح تمامًا كما قالت أمبروسيا بودن لحفيدتها. سُمع هزيم الرعد فوق المنزل كحشرجة رجل محتضر وتلاه برق كمثل لعنة وأغمض صمد عينيه.

"آيري، ميلات!" نادت كلارا، ثم ألسانا. لا جواب. واقفًا بشكل منتصب في الخزانة، ضاربًا رأسه برف التوابل، قال آرشي: "مرت عشر دقائق. آه أين الطفلان؟"

*****

كان أحد الولدين في تشيتاجونغ حيث تحداه صديقه أن ينزع ملابسه ويسير في مستنقع مشهور للتماسيح، بينما تسلل الآخران خارج المنزل كي يشعرا بمركز العاصفة وسارا عكس الريح كما لو أنهما يخوضان في الماء. سارا في أرض منتزه ولسدن، حيث تمت المحادثة التالية.

"هذا لا يصدق!

"نعم، جنوني".

"أنت مجنونة".

"ما الذي تعنيه؟ أنا بخير".

"كلا لست كذلك. تنظرين إليّ دائمًا. وما الذي كنت تكتبينه؟ أنت حمقاء. تكتبين دومًا".

"لا شيء. شيء ما. يوميات".

"أنت ترغبين بي جنسيًا".

"لا أستطيع أن أسمعك، ارفع صوتك".

"الرغبة الجنسية! بشكل صارخ! تستطيعين أن تسمعيني!"

"ليست لدي! أنت أناني جدًا".

"تريدين مؤخرتي!"

"لا تكن مستمنيًا!"

"حسنًا، هذا ليس جيدًا بأية حال. أنت تكبرين. لا أحب الكبيرات. لا تستطيعين أن تحصلي علي".

"لا أريد يا سيد أناني".

"بالإضافة إلى ذلك: تخيلي كيف سيكون أولادنا".

"أعتقد أنهم سيكونون جميلين".

"سيكونون سودًا بأنف أفريقي أفطس، وأسنان أرنب وكلف. سيكونون غريبين".

"تستطيع التحدث. رأيت تلك الصورة لجدك..."

"جد جدي".

"أنف ضخم، حاجبان مريعان".

"هذا انطباع فنان، يا زعيمة [87]"

"وسيكونون مجانين. كان مجنونًا، كل أفراد عائلتك مجانين. هذا وراثي".

"نعم، نعم مهما كان".

"ولمعلوماتك، أنا لا أتخيلك، بأية حال، لديك أنف فيه انحراف. وتسبب المشاكل. من يريد المشاكل؟"

قال ميلات، مائلًا إلى الأمام مصطدمًا بسن ناتئ وأقحم لسانه بشكل مؤقت ثم سحبه: "حسنًا، حاذري، لأن هذه هي كل المشاكل التي ستحصلين عليها".

14 كانون الثاني 1989

باعد ميلات بين ساقيه كإلفيس ورمى محفظته على الطاولة: "واحدة إلى برادفورد، نعم؟"

قرّب رجل التذاكر وجهه المتعب من الزجاج: "هل تطلب مني أيها الشاب أم تأمرني؟"

"قلت واحدة إلى برادفور، نعم؟ لديك مشكلة؟ هل تتحدث الإنكليزية؟ هذه كينج كروس، نعم؟ واحدة إلى برادفورد، أليس كذلك؟"

طاقم ميلات (راجيك ورانيل وديبيش وهيفان) قهقهوا ساخرين وهم يمشون متثاقلين خلفه، منضمين في قول كلمة نعم كنوع من فرق الدعم.

"من فضلك؟"

"من فضلك ماذا؟ واحدة لبرادفورد؟ هل فهمتني؟ واحدة لبرادفورد يا زعيم".

"وستكون هذه عودة؟ لطفل؟"

"نعم يا رجل، أنا في الخامسة عشرة، نعم؟ بالطبع أريد عودة، لدي مكان أعود إليه كالجميع".

"السعر 75 جنيهًا، إذًا، من فضلك؟"

قابل ميلات وطاقمه هذا باستياء.

"أنت ماذا؟ تأخذ حريتك في رفع السعر! سبعون، ماذا يا رجل. هذا مزاجي. لن أدفع لك 75!"

قال رجل التذاكر ناظرًا بحدة إلى المجوهرات الذهبية التي تتدلى من أذني ميلات ورسغيه وأصابعه ومن حول رقبته: "حسنًا، أخشى أن هذا هو السعر. ربما في المرة التالية تسلب عجوزًا مسكينة، تستطيع أن تتوقف هنا قبل أن تذهب إلى محل المجوهرات".

صاح هيفان: "حريات!"

حذر راجيك: "إنه يناقشك، نعم؟".

انتظر ميلات دقيقة. كان التوقيت كل شيء. ثم استدار، رفع مؤخرته في

الجو، وضرط ضرطة طويلة صاخبة باتجاه رجل التذاكر.

الطاقم، في اللحظة المناسبة: "يا لواطي!"

"ماذا تدعوني؟ أنت، ماذا قلت؟ أيها الأوغاد الصغار. ألا تستطيع أن تخبرني بالإنكليزية؟ هل عليك أن تتحدث لغتك الباكستانية؟"

ضرب ميلات بقبضته الزجاج بقسوة بحيث أن الصوت عبر الكشك ووصل إلى الرجل في الطرف الآخر الذي يبيع التذاكر إلى ميلتون كينيز.

"أولًا لست باكستانيًا، أيها اللعين الجاهل. وثانيًا لا تحتاج إلى مترجم، أليس كذلك؟ سأعطيك إياها بشكل مباشر. أنت لواطي لعين، نعم؟ غريب الأطوار، شاذ، يحب المؤخرات، بقضيب متسخ بالبراز".

لم يكن هناك شيء يفتخر به طاقم ميلات أكثر من عدد التسميات التي يمكن أن يقدموها للمثلية الجنسية.

"لص مؤخرات، لواطي حقيقي، لواطي مراحيض".

"يجب أن تشكر الله بسبب الزجاج الذي بيننا يا فتى".

"نعم، نعم، نعم. أشكر الله، نعم. آمل أن يلعنك أيها الشرير. نحن ذاهبون إلى برادفورد كي نصلح أمر أشخاص من أمثالك، يا غبي!"

في منتصف الطريق على الرصيف 12، وهم على وشك الصعود إلى متن قطار ولا يمتلكون تذاكر له، أوقف رجل أمن من كينجز كروس طاقم ميلات كي يسألهم سؤالًا: "أيها الأطفال أنتم لا تبحثون عن المشاكل، أليس كذلك؟"

كان السؤال عادلًا. بدا طاقم ميلات كمشكلة، وفي ذلك الوقت كان الطاقم الذي يبدو إشكاليًا في تلك الطريقة الخاصة يمتلك اسمًا، ومن ذرية راجستانية[88].

كانت ذرية جديدة، انضمت مؤخرًا إلى صفوف طواقم شوارع أخرى كالبيكز وفتيان الهوب هوب وفتيان الروك الهنود وفرقة الوايد بويز والمعربدين والوقحين ومدمني حبوب الهلوسة والتشارونز والتراسيرز والكيفز وأخوة الأمة والراجستانيين والباكستانيين، وكانت هذه الذرية تتجلى كنوع من الجنين غير الشرعي للأصناف الثلاثة الأخيرة. وكان الراجستانيون يتحدثون خليطًا غريبًا

من اللهجة العامية الجامايكية والبنغالية والكواجارتية والإنكليزية. وكان الشيء الذي يميزهم، البيان الخاص بهم، إذا كان يمكن تسميته هكذا، شيئًا مهجنًا أيضًا: كان الرّب يُصوَّر كأخ كبير وليس كائنًا متفوقًا، كرجل غريب قاس سيقاتل في زاويتهم إذا اقتضت الضرورة، وكانت الكونغ فو وأعمال بروسلي أيضًا محورية للفلسفة، وأُضيفت إلى هذه الطريقة معرفة قليلة بالقوة السوداء (كما تتجسد في ألبوم "الخوف من كوكب أسود[89]*"، لفرقة ببليك إنيمي)، لكن مهمتهم بشكل رئيسي هي إعادة تسمية الذي لا يقهر إلى الهندي، والفظ والقوي إلى البنغالي، والبي فإنك إلى الباكستاني. ولقد أساء الناس لراجيك في الأيام التي كان يلعب فيها الشطرنج ويرتدي قبة سبعة، وأساؤوا إلى رانيل حين كان يجلس في مؤخرة الصف وينسخ بعناية كل تعليقات الأستاذة في كتابه، وأساء الناس لديبيش وهيفان حين ارتديا الملابس التقليدية في الملعب، وأساؤوا حتى لميلات، بينطلون جينزه الضيق وجوهرته البيضاء. لكن لم يَسِئ أحد لهم بعد الآن لأنهم بدوا مسببين للمشاكل. وبدوا مسببين للمشاكل في مجموعة. وبشكل طبيعي كان هناك زي. وكانوا كلهم يرتدون الكثير من المجوهرات الذهبية ومناديل مزينة بالرسوم إما ملفوفة حول جباههم أو مربوطة على المفصل أو الذراع أو الساق. وكانت البنطلونات ضخمة، وكبيرة جدًا، الطرف الأيسر دومًا يُرفع بشكل غير قابل للشرح حتى الركبة، وكانت الأبواط الرياضية مشهدية كلها، بألسنة طويلة بحيث تُعتم الكاحل، وقبعات البيسبول كانت إجبارية، ومنخفضة ولا تُخلع، وكان كل ما يرتدونه من ماركة نايك، وأينما ذهب خمستهم كان الانطباع الذي يتركونه خلفهم هو صوت تعجب ضخم، وعلامة تجارية واحدة. وكانوا يسيرون بطريقة خاصة جدًا، والجانب الأيسر من أجسامهم يوحي بنوع من الشلل الفضفاض الذي يحتاج أن يحمله الجانب الأيمن، نوع من العرج الممجد والراقص كالحركة البطيئة التي تخيلها الشاعر بيتس لوحشه الألفي الشرس [90]. وقبل عشر سنوات، بينما كانت الرؤوس المنتشية من حبوب الهلوسة ترقص في صيف الحب [91]، كان طاقم ميلات يتسكع باتجاه برادفورد.

"لا مشاكل، نعم؟" قال ميلات لرجل الأمن.

"فقط ذاهبون..."، بدأ راجيك.

"من أجل العمل، نعم؟" قال ديبيش.

"إلى اللقاء، بيدايو!"، صاح هيفان، وهم يدخلون القطار، باعصًا له بإشارة من إصبعه، ورفعوا مؤخراتهم باتجاه الباب الذي كان ينغلق.

"اجلس على المقعد القريب من النافذة. لقد دخنت سيجارة أمام الجميع. أنا أشعر بتوتر شديد من هذا العمل كله يا رجل. العجوز اللعين يا رجل. إنه أسود لعين. أود أن أتخلص منه."

كانت كل الأسئلة الجدية تُوجه لميلات، وكان ميلات دومًا يجيب المجموعة ككل: "كلا، ما من مجال. لن يكون هناك. الأخوة فقط سيكونون هناك. إنه احتجاج لعين، أنت يا زعيم، لماذا سيحتج ضد نفسه؟"

قال رانيل شاعرًا بالاستياء: "أنا أقول فحسب، سأقضي عليه، لو كان هناك، كما تعرف. كتاب قذر لعين".

قال ميلات، باصقًا علكة على النافذة: "هذه إهانة لعينة، لقد تلقيناها فترة طويلة في هذه البلاد. والآن نحصل عليها من قومنا يا رجل. خراء، إنه قرد، دمية رجل أبيض".

قال هيفان الغاضب، الأكثر إخلاصًا في تدينه من المجموعة: "قال عمي إنه لا يعرف أن يهجي، ويجرؤ على التحدث عن الله".

صاح راجيك الأقل ذكاء، والذي كان يعتقد أن ربّه مُرَكّب من قرد سحري له شكل بروس ويليس: "لقد لعنه الله، سيرفسه في خصيتيه. كتاب قذر".

"هل قرأته؟" سأل رانيل، والقطار ينطلق مصدرًا أزيزه وهو يعبر حديقة فنسبري.

خيم صمت عام.

قال ميلات: "لم أقرأه لكنني أعرف كل شيء عن هذا الخراء".

ومن أجل الدقة، لم يقرأه ميلات. لم يعرف ميلات أي شيء عن الكاتب أو

الكتاب، ولا يستطع أن يحدد إن كان الكتاب موجودًا في كومة من الكتب الأخرى، أو أن يعرف الكاتب بين تشكيلة من الكتاب الآخرين (وكانت تلك التشكيلة من الكتاب المسيئين غير قابلة للمقاومة: سقراط وبروتاغوراس وأوفيد وجوفينال ورادكليف هول وبوريس باسترناك ود. إتش لورنس وسولجنتسين ونابوكوف، كلهم يمسكون بأرقامهم من أجل صورة الاعتقال، يحرفون أعينهم عن وميض اللمبة). لكنه يعرف أمورًا أخرى، يعرف أنه هو، ميلات باكستاني بصرف النظر عن المكان الذي أتى منه، أن رائحة الكري تفوح منه، ولا يمتلك هوية جنسية، واستولى على وظائف الآخرين، أو لا عمل لديه ويتسوّل من الدولة، أو منح كل الوظائف لأقربائه، وأنه يمكن أن يكون طبيب أسنان أو صاحب حانوت أو ناقل كري لكن ليس لاعب كرة قدم أو مخرجًا سينمائيًا، وأنه يجب أن يعود إلى بلاده، أو يبقى هنا ويكسب رزقه اللعين، وأنه يعبد الفيلة ويرتدي العمامة، وأنه لا أحد يبدو كميلات، أو يظهر في الأخبار إلا إذا قتل مؤخرًا. باختصار، كان يعرف أنه لم يكن له وجه له في هذه البلاد حتى الأسبوع قبل الأخير حين فجأة ظهر أشخاص مثل ميلات على جميع القنوات والإذاعات والصحف وكانوا غاضبين وعرف ميلات الغضب، وفكر أنه عرفه، وأمسك به بكلتا يديه.

سأله رانيل بعصبية: "وهكذا...لم تقرأه؟"

"اسمع، من الأفضل أن تصدق أنني لا أشتري ذلك الخراء يا رجل. لا يوجد مجال يا نجم".

قال هيفان: "ولا أنا أيضًا".

قال راجيك: "نجم حقيقي".

قال رانيل: "قذارة لعينة".

قال ديبيش: "سعره 12 و95 كما تعرف".

قال ميلات بصوت جازم بالرغم من نبره المرتفع: "ليس عليك أن تقرأ خراء كي تعرف أنه كفر، هل فهمتني؟"

*****

في ولسدن كان صمد إقبال يعبر عن العاطفة نفسها تمامًا بصوت مرتفع حيال أنباء المساء.

"لا أحتاج لقراءته. لقد صوروا لي نسخة من النصوص ذات الصلة".

قالت ألسانا متحدثة مع قارئ الأخبار: "هل يمكن أن يذكّر أحد ما زوجي أنه لا يعرف حتى عم يتحدث الكتاب اللعين لأن آخر شيء قرأه هو مجلة ألف -زيد اللعينة".

"سأطلب منك مرة أخرى أن تخرسي كي أستطيع أن أشاهد الأخبار".

"أستطيع سماع الصراخ لكنه لا يبدو كأنه صوتي".

"ألا تفهمين يا امرأة؟ هذا أهم شيء سبق أن حدث لنا في هذه البلاد. إنه سبب أزمة، سبب كل شيء. إنه حدث مهم". ضرب صمد زر الصوت عدة مرات بإبهامه. "إن هذه المرأة- مويرا، مهما كان اسمها - تغمغم. لماذا تذيع الأنباء إن كانت لا تستطيع التحدث بشكل ملائم؟"

التفتت مويرا فجأة في منتصف الجملة وقالت: "إن الكاتب ينكر أنه يجدف، ويرى أن الكتاب يتعلق بالصراع بين وجهتيْ النظر العلمانية والدينية في الحياة".

نخر صمد: "أي صراع؟ لا أرى صراعًا. أنا في وضع جيد. كل الخلايا العصبية في وضع جيد. لا صعوبات عاطفية".

ضحكت ألسانا بمرارة: "يخوض زوجي حرب العالم الثالث كل يوم في رأسه، وهكذا يفعل الجميع".

"كلا، كلا، كلا. ما من صراع. ما الذي ينوي فعله؟ لا يستطيع أن يخرج من الأمر بكونه عقلانيًا. العقلانية! الفضيلة الغربية المبالغ في تقديرها كثيرًا! آه، كلا. الحقيقة هي أنه مسيّئ، لقد أساء".

تدخلت ألسانا: "اسمع، حين تجتمع مجموعتي الصغيرة معًا، إذا اختلفنا حول شيء ما، نستطيع أن نحل الخلاف. مثلًا: موهونا حسين تكره ديفارجيت سنغ، تكره كل أفلامه. تكرهه بشدة وتحب المغفل الآخر الذي له رموش كالسيدة،

لكننا وصلنا إلى تسوية، لم أحرق أبدًا فيديو واحدًا لها".

"لكن هذا الأمر مختلف يا سيدة إقبال، ليس الموضوع نفسه".

"آه، العواطف تعلو في لجنة المرأة، وتظهر كم يعرف صمد إقبال. لكني لست مثل صمد إقبال. أنا أكبح نفسي. أعيش... وأقبل الأشياء كما هي".

"هذه ليست مسألة جعل الآخرين يعيشون، بل مسألة حماية ثقافة المرء، حماية دين المرء من الانتهاك. أنت لا تعرفين أي شيء عن هذا بشكل طبيعي، دومًا مشغولة بهذا الدماغ الهندي الذي كالفشار بحيث لا تنتبهين إلى ثقافتك الخاصة!"

"ثقافتي الخاصة؟ وما هي هذه من فضلك؟"

"أنت بنغالية. تصرفي كبنغالية".

"وما البنغالي يا زوجي من فضلك؟"

"ابتعدي عن التلفزيون وابحثي عنها".

تناولت ألسانا مجلد "الدماغ البلطيقي" رقم 3 من مجموعة موسوعة ريدرز دايجست المؤلفة من 24 مجلدًا، وقرأت من القسم ذي الصلة:

> إن غالبية سكان بنغلادش بنغاليون، وانحدر معظمهم من الهنود الآريين الذين بدؤوا يهاجرون إلى البلاد من الغرب منذ آلاف السنين واختلطوا داخل البنغال مع مجموعات محلية من الخلفيات السلالية المختلفة. وتتضمن الأقليات الإثنية الشاكما[92] والموغيين[93] والمنغوليد[94] الذين يعيشون في هضبة تشيتاجونغ، والسانتال[95] الذين انحدروا بشكل رئيسي من مهاجرين من الهند الحالية، والبيهاريس، المسلمين غير البنغاليين الذين هاجروا من الهند بعد التقسيم.

قالت ألسانا، كاشفة عن لسانها الإنكليزي: "آه يا سيد، الهنود الآريون... يبدو أنني غربية في النهاية! ربما يجب أن أصغي إلى تينا تيرنر، وأرتدي التنورة الجلدية القصيرة جدًا. ياه.. فقط تذهب إلى العرض، تعود إلى الخلف وتواصل العودة ويظل العثور على كيس مكنسة الهوفر الكهربائية أسهل من العثور على شخص نقي وإيمان نقي واحد في الكوكب. هل تعتقد أن أي شخص إنكليزي؟ إنكليزي حقًا؟ هذه حكاية خرافية!"

"لا تعرفين عم تتحدثين. أنت لست عميقة".

رفعت ألسانا الموسوعة: "آه يا صمد مياه. تريد أن تحرق هذه أيضًا؟"

"استمعي. لا وقت لدي للعب الآن. أحاول أن أصغي لخبر مهم جدًا. أحداث جدية تجري في برادفورد. وهكذا، لو سمحت..."

"آه يا إلهي!" صرخت ألسانا وقد تبخرت الابتسامة عن وجهها ووقعت على ركبتيها أمام التلفزيون متعقبة بإصبعها عابرة الكتاب الذي يحترق إلى الوجه الذي تعرفت عليه يبتسم لها عبر الأنابيب الضوئية، ابنها الثاني المنقط تحت الصورة المؤطرة لابنها الأول. "ما الذي يفعله؟ هل هو مجنون؟ من يظن نفسه؟ ما الذي يفعله هناك؟ يجب أن يكون في المدرسة. هل جاء اليوم الذي يحرق فيه الأطفال الكتب، هل جاء؟ لا أصدق هذا!"

قال صمد ببرود، متكئًا على كرسيه ذي الذراعين: "لا دخل لي في الأمر. أنت السبب في كل شيء يا سيدة إقبال. أنت السبب".

حين عاد ميلات إلى المنزل في المساء كانت نار كبيرة تتأجج في الحديقة الخلفية وفيها كل أغراضه العلمانية، ما قيمته أربع سنوات من ما قبل وبعد الراجستانيين، وجميع الألبومات والبوسترات والقمصان التي عليها طبعات خاصة، ونشرات النادي الإعلانية التي جُمعت وحُفظت على مدى عامين، وأبواط إير ماكس الرياضية الجميلة، ونسخ عددها من 20-75 من مجلة 2000 إي دي [96]، وصورة موقعة لتشاك دي [97]، ونسخة نادرة من كتاب سليك ريك [98] "أيها العالم الشاب"، ونسخة من الفارس في حقل الشوفان[99]، غيتاره، فيلم العراب 1 والعراب 2، شوارع

قذرة [100]، السمك الرعاد [101]، بعد ظهر حار ورطب [102] وشافت في أفريقيا [103]، رُميتْ كلُّ هذه الأشياء في المحرقة، وهي الآن كومة محترقة من الرماد تصدر أبخرة مشبعة بروائح البلاستيك والورق، تملأ عيني الفتى اللتين تغصان بالدموع.

قالت ألسانا مشعلة عود ثقاب بقلب مثقل قبل بضع ساعات: "إن الجميع يجب أن يُلقنوا درسًا. إما كل شيء مقدس أو ما من شيء مقدس. وإذا بدأ بحرق أشياء الآخرين، إذًا يجب أن يفقد شيئًا مقدسًا أيضًا، يحصل الجميع على ما هو آت، عاجلًا أم آجلًا".

10 نوفمبر 1989

هناك جدار ينهار ويجب أن يُفعل شيء مع التاريخ. كانت مناسبة تاريخية. ولم يعرف أحد في الحقيقة من بنى الجدار أو من يهدمه وإن كان هذا جيدًا أو سيئًا أو شيئًا آخر، ولم يعرف أحد كم يبلغ ارتفاعه، وكم استمر، ولماذا مات الناس وهم يحاولون تسلقه أو إن كانوا سيتوقفون عن الموت في المستقبل، لكنه كان تعليميًا أيضًا، وعذرًا جيدًا للاجتماع معًا كأي عذر. كان ليل الثلاثاء، وقد طبخت كل من ألسانا وكلارا، وكان الجميع يشاهدون التاريخ على التلفاز.

"من يريد المزيد من الأرز؟"

مد ميلات وآيري صحنيهما، وتزاحما على الموقع الرئيسي.

"ما الذي يحدث الآن؟" سألت كلارا، مندفعة وعائدة إلى مقعدها بإناء من الزلابية الجامايكية المقلية التي انتشلت منها إري ثلاثة أقراص.

قال ميلات متذمرًا: "الشيء نفسه يا رجل، نفسه، نفسه، الرقص على الحائط، سحقه بمطرقة. أريد أن أرى ما الأمور الأخرى التي تجري؟"

انتشلت ألسانا جهاز التحكم وحشرت نفسها بين كلارا وآرشي: "لا تحاول يا سيد؟".

قالت كلارا بتعمد وكانت إضمامة ورقها وقلمها على ذراع الكرسي وتنتظر أن تقفز إلى الفعل لدى اقتراح أي شيء تنويري: "إنه تعليمي، إنه نوع الشيء الذي

يجب أن نشاهده جميعًا".

هزت ألسانا رأسها وانتظرت مرور قطعتي باجي كبيرتي الحجم عبر المري: "هذا ما أحاول قوله للفتى. عمل كبير. مناسبة تاريخية ممتازة. حين يتعلق أطفالك بينطلونك ويسألونك أين كنت حين..."

"سأقول إنني كنت أشعر بالملل الشديد من مشاهدته على التلفزيون".

تلقى ضربة على رأسه لاستخدامه كلمة بذيئة وأخرى من أجل وقاحته. آيري، التي بدت على نحو غريب كالحشد فوق الحائط في زيها اليومي الذي عليه شعارات حملة نزع الأسلحة النووية، وبنطلونها المغطى بالغرافيتي والشعر المضفور، هزت رأسها في إشارة عدم تصديق. كانت في تلك السن وكل ما تقوله تجلى كعبقرية في قرون من الصمت، وكل ما لمسته كان الضربة الأولى من نوعها، وكل ما آمنت به لم يكن يشكله الإيمان بل نفحات من اليقين، وكل ما فكرت به كانت المرة الأولى التي فُكر بها بتلك الفكرة.

"هذه مشكلتك يا ميلات، ليس لديك اهتمام بالعالم الخارجي. أعتقد أن هذا مذهل. إنهم أحرار جميعًا! بعد كل هذا الوقت، ألا تعتقد أن هذا مذهل؟ أنه بعد سنين في ظل السحابة السوداء للشيوعية الشرقية يدخلون إلى ضوء الديمقراطية الغربية، موحدين" - قالت، مقتبسة كلام نشرة الأخبار المسائية بإخلاص - "أعتقد أن الديمقراطية هي ابتكار الإنسان الأعظم".

ألسانا التي شعرت بأن ابنة كلارا صارت مدعية في هذه الأيام، أمسكت رأس سمكة جامايكية مقلية محتجة: "كلا يا عزيزتي. لا ترتكبي هذا الخطأ. إن قشّارة البطاطا هي اختراع الإنسان الأعظم. هذه أو المجرفة".

قال ميلات: "إن ما يحتاجون إليه هو التوقف عن استخدام تلك المطرقة وإحضار مادة السمتيكس لتفجير هذا الجدار اللعين إذا كانوا لا يحبونه، هل تفهمينني؟ يجب أن يكونوا أسرع في التخلص منه".

قالت آيري ملتهمة فطيرة: "لماذا تتحدث هكذا؟ هذا ليس صوتك. تبدو سخيفًا".

قال ميلات رابتًا على بطنه: "ويجب أن تحذري الفطائر. إن السمينة ليست جميلة".

"آه، خسئت".

تمتم آرشي وهو يقضم جناح دجاجة: "تعرفون، أنا لست متأكدًا أن هذا الشيء جيد. أعني. يجب أن تتذكروا، أنا وصمد، كنا هناك. وصدقوني هناك سبب جيد للانقسام إلى دولتين. فرّق تسد، يا شابة".

"يا يسوع يا أبي. إلى ماذا ترمي؟"

قال صمد بحدة: "إنه لا يرمي إلى أي شيء. أنتم أيها الأصغر في السن تنسون لماذا أُنجزت أمور معينة، تنسون أهميتها. كنا هناك. لا نفكر كلنا بولع بألمانيا موحدة. كانت أوقاتًا مختلفة، يا شابة".

"ما الخطأ في حشد من الناس يعبرون عن حريتهم بالصياح؟ انظروا إليهم. انظروا كم هم سعداء".

نظر صمد إلى الناس السعداء يرقصون على الجدار وشعر بالاحتقار وبشيء يغيظه أكثر تحت ذلك قد يكون الغيرة.

"لا يعني أنني لا أوافق على الأفعال التمردية بحد ذاتها لكن إذا أنهيت نظامًا قديمًا يجب أن تكون متأكدًا أنك تستطيع أن تقدم شيئًا مهمًا يحل مكانه، هذا ما تحتاج ألمانيا إلى فهمه. مثلًا، خذوا والد جدي مانغال باندي كمثال..."

تنهدت آيري التنهيدة الأكثر تعبيرًا التي سبق أن أصدرها شخص.

"لن أفعل إذا كان كله متشابهًا".

"آيري!"، قالت كلارا لأنها شعرت أنها يجب أن تفعل.

تضايقت آيري ونفخت.

قالت ملتفتة إلى صمد: "حسنًا! يتحدث كأنه يعرف كل شيء، يتركز كل شيء دومًا حوله، وأنا أحاول التحدث عن الآن، عن اليوم، عن ألمانيا. أراهنك أنني أعرف عنها أكثر مما تعرف. حاول. جربني. درستها لفصل كامل. آه، وبالمناسبة: لم تكن هناك. غادرت أنت وأبي في 1945. لم يبنوا الجدار حتى عام 1961".

قال صمد متجاهلًا لها: "الحرب الباردة. لم يعودوا يتحدثون عن حرب حارة بعد الآن، النوع الذي يُقتل فيه الرجال، تعلمت عن أوربا في ذلك الوقت، ولا يمكن العثور على ذلك في الكتب".

قال آرشي محاولًا فض الشجار: "نعم، نعم. هل تعرف أنهم سيبثون بعد عشر دقائق "آخر نبيذ الصيف [104]" على البي بي سي 2؟"

ألحت آيري راكعة ومستديرة كي تواجه صمد: "هيا، جربني".

قال صمد بوقار: "إن الفجوة بين الكتب والتجربة واسعة".

"صحيح. أنتما الاثنان تتحدثان ككومة من الخر..."

لكن كلارا كانت سريعة في توجيه صفعة إلى الأذن: "آيري!"

عادت آيري إلى الجلوس، لم تكن مهزومة بقدر ما هي مجهدة وأعلت صوت التلفزيون.

لم يعد هناك معنى بعد الآن للندبة التي بطول 28 ميلًا، للرمز الأبشع لعالم مقسم، الشرق والغرب. قلة من الناس، بما فيه هذا المراسل، ظنوا أن هذا سيحدث في فترة حياتهم، لكن الليلة الماضية، عندما دقت الساعة منتصف الليل، أصدر الآلاف المتريثون على جانبي الجدار زئيرًا عظيمًا وبدؤوا يتدفقون عبر نقاط التفتيش ويتسلقون إلى الأعلى وفوقه.

"حماقة. سيتبع ذلك مشكلة هجرة ضخمة"، قال صمد للتلفزيون، غامسًا فطيرة في الكتشب.

"لا تستطيع أن تدع مليون شخص يدخلون دولة غنية. هذه وصفة للكارثة".

"ومن يظن نفسه؟ السيد تشرشل؟ منحدرات دوفر أم هلام الحنقليس أم برنامج المنوعات الملكي أم فريق المصارعة بريتش بولدوج؟"

قالت كلارا وهي تكتب الكلمة: "ندبة. هذه هي الكلمة الصحيحة. أليس

كذلك؟"

"يا يسوع! ألا يستطيع أي منكم أن يفهم أهمية ما يحدث الآن هنا؟ هذه هي الأيام الأخيرة لنظام، جائحة سياسية، انهيار. إنه حدث تاريخي".

قال آرشي وهو يفتش مجلة تي في تايمز التي تحتوي على قائمة البرامج التلفزيونية: "هذا ما يواصل الجميع قوله. لكن ماذا عن عرض "الكريتون فاكتور[105]، على الآي تي في؟ هذا دومًا جيد، صحيح؟ إنه يعرض الآن".

قال ميلات مغتاظًا من كل الحديث السياسي المدعي: "لماذا لا تتحدثين جيدًا؟ لماذا عليك دومًا أن تستخدمي كلامًا طنانًا؟"

"آه، اللعنة!" (تحبه لكنه لا يطاق). "ما الفرق اللعين الذي يمكن أن يحدثه هذا؟"

نهض صمد عن مقعده: "آيري! هذا منزلي وأنت ضيفتي. لا أريد هذه اللغة فيه".

"حسنًا. سآخذها إلى الشارع مع بقية البروليتاريا".

قالت ألسانا حين أُغلق بابها الأمامي بصوت عنيف: "تلك الفتاة. ابتلعت موسوعة ومزرابًا في الوقت نفسه".

زم ميلات شفتيه على أمه: "لا تبدئي. ما الخطأ في كلمة موسوعة؟ لماذا الجميع في هذا المنزل مدعون بشكل لعين"؟

أشار صمد إلى الباب: "حسنًا يا سيد. لا تتحدث مع أمك هكذا. اخرج أنت أيضًا".

قالت كلارا بهدوء بعد أن اندفع ميلات بسرعة إلى غرفته: "لا أظن أننا يجب أن نمنع تعبير الأطفال عن رأيهم، جيد أنهم مفكرون أحرار".

سخر صمد: "وستعرفين... ماذا؟ تقومين بكمية كبيرة من التفكير الحر؟ في المنزل طيلة اليوم، وأنت تشاهدين التلفزيون؟"

"عذرًا؟"

"أستميحك عذرًا، إن العالم معقد يا كلارا. إذا كان هناك شيء واحد يحتاج الأطفال إلى فهمه فهو إن المرء بحاجة إلى قواعد كي يعيش فيه وليس إلى الخيال".

قال آرشي بجدية وهو ينفض سيجارة في إناء الكري الفارغ: "إنه مصيب، مسائل عاطفية، ثم نعم هذا هو قسمك..."

صاحت ألسانا بفم مليء بالكري: "آه، عمل نساء. شكرًا جزيلًا لك يا أرشيبالد".

صارع آرشي كي يواصل: "لكنك لا تستطيعين هزيمة التجربة، هل يمكنك؟ أعني، أنتما لا تزالان شابتين، بطريقة ما، بينما نحن بئران من التجربة التي يستطيع أن يستخدمها الولدان حين يشعران بالحاجة. نحن كالموسوعات. لا تستطيعان أن تقدما لهما ما نقدر عليه، إذا كنا منصفين".

وضعت ألسانا راحة كفها على جبين آرشي ومسدته بخفة: "أيها الأحمق. ألا تعرف أنك تُركت في الخلف كعربة وأحصنة، كالشمع؟ ألا تعرف أنك بالنسبة لهما عجوز وتفوح منك رائحة كورق رقائق السمك الذي من البارحة؟ أتفق مع ابنتك حول مسألة مهمة واحدة". نهضت ألسانا وتبعت كلارا التي غادرت عند هذه الإهانة الأخيرة وسارت وهي تبكي إلى المطبخ: "أنتما الاثنان تتحدثان كثيرًا عم تعرفان".

بعد أن تُركا لوحدهما علق آرشي وصمد على رحيل أعضاء الأسرتين بتبادل للنظرات وابتسامتين ساخرتين. جلسا بهدوء للحظة بينما كان إبهام آرشي يقلب بمهارة متنقلًا من "مناسبة تاريخية" إلى "دراما أزياء تجري في جيرسي"، إلى "رجلان يحاولان بناء معدية في ثلاثين ثانية"، إلى "نقاش حول الإجهاض"، ثم عاد مرة أخرى إلى "مناسبة تاريخية".

نقرة

نقرة

نقرة

نقرة

نقرة

"هل نذهب إلى منزلنا؟ أوكونيل؟"

كان آرشي على وشك أن يمد يده من أجل قطعة العشرة بنسات حين أدرك أنه لا حاجة لذلك.

قال آرشي: "أوكونيل".

قال صمد: "أوكونيل".

10

القنوات الجذرية لمانغال باندي

أخيرًا، في أوكونيل. لا مفر من الذهاب إلى أوكونيل. والسبب هو أنك تستطيع أن تأتي إليه بدون أسرة، وبدون أملاك أو مكانة، ودون مجد ماض أو أمل مستقبلي. وبوسعك أن تدخل من ذلك الباب دون أي شيء وتكون تمامًا مثل جميع من في الداخل. وقد يكون العام هو 1989 في الخارج، أو 1999 أو 2009، وتظل جالسًا إلى الطاولة بالقبة المفتوحة كما في حفل زفافك في عام 1975، 1945، 1935 . لا يتغيّر أي شيء هنا. فقط الأشياء تُروى من جديد، ويتم تذكرها ولهذا يحب العجائز هذا المكان.

كل شيء يتعلق بالوقت، ليس فقط جموده لكن كميته النقية والوقحة، وهو كمي وليس نوعيًا. من الصعب شرح هذا. لو كانت هناك معادلة، شيء ما كهذا فحسب:

$$\frac{\text{الوقت الذي أمضيه هنا}}{\text{الوقت الذي كان بوسعي أن أمضيه بشكل مفيد في مكان آخر}} \text{ المتعة X الفحولة = لماذا أنا زبون منتظم}$$

هناك أمر يحتاج للتفسير العقلي وهولماذا يواصل المرء العودة إلى السيناريو البائس نفسه كمثل حفيد فرويد بلعبته الفورت-دا [106]التي كان يكررها؟ هذا يعتمد على تأثير الوقت. فبعد أن تصرف مبلغًا معينًا، وتستثمر الكثير منه في مكان واحد، فإن نسبة الفائدة لديك ترتفع جدًا وتشعر بأنك تربح. تشعر كأنك تمكث في مكان واحد إلى أن يعيد لك كل الوقت الذي منحته له، حتى ولو لن يفعل أبدًا.

ومع الوقت المصروف تأتي المعرفة ويأتي التاريخ. ففي أوكونيل اقترح صمد على آرشي أن يتزوج من جديد في 1974. وتحت الطاولة رقم 6 حيث تناثر تقيؤه، احتفل آرشي بولادة آيري في 1975. وثمة لطخة على زاوية آلة لعبة البنبول حيث سفح صمد لأول مرة الدم المدني، بلكمة يمينية ثقيلة لسكير عنصري، في 1980. وكان آرشي في الطابق السفلي في الليلة التي شاهد فيها عيد ميلاده الخمسين يعوم عبر أعماق من الويسكي كي يلتقي به كحطام سفينة قديمة، 1977. وإلى هنا جاء كلاهما في مساء رأس السنة في 1989 (لم تعبر لا عائلة إقبال ولا عائلة جونز عن رغبة لدخول التسعينيات برفقتهما)، سعيدين لاستغلال فرصة عرض ميكي بمناسبة العام الجديد: جنيهان وخمسة وثمانون سنتًا مقابل ثلاث بيضات مع الفاصولياء ودورتين من التوست والفطر وقطعة كبيرة من لحم ديك الحبش المتبل.

كان لحم الحبش المتبّل على حساب المحل، وبالنسبة لآرشي وصمد كل شيء يجب أن يتمحور حول كونهما شاهدين وخبيرين. وكانا يأتيان إلى هنا لأنهما يعرفان المكان، يعرفانه من الداخل والخارج. وإذا كنت لا تستطيع أن تشرح لولدك لماذا سيتحطم الكأس من تأثيرات معينة وليس من أخرى، وغير قادر على فهم كيف يمكن إحداث توازن بين العلمانية الديمقراطية والإيمان الديني داخل الدولة نفسها، أو لا تتذكر الظروف التي قُسمت فيها ألمانيا، حينها ينتابك شعور جيد (كلا، عظيم) أنك تعرف على الأقل مكانًا معينًا واحدًا، فترة معينة واحدة

من التجربة المباشرة وتقارير الشهود وأنك مرجع وتمتلك الوقت مرة، لمرة واحدة. ولا يوجد مؤرخون ولا خبراء أفضل من آرشي وصمد حين يتعلق الأمر ب "إعادة البناء بعد الحرب ونمو قاعة أوكونيل".

1952: وصل علي (والد ميكي) وأخوته الثلاثة إلى دوفر بثلاثين جنيهًا قديمًا وساعة والدهم الجيب الذهبية. وكان الجميع يعانون من مرض جلدي مشوِّه.

1954-1963: زواجات، أعمال غريبة من كل الأنواع، ولادة عبدل ميكي، الأولاد الخمسة الآخرون الذين تبدأ أسماؤهم بعبد وأولاد عمهم.

1968: بعد العمل لمدة ثلاثة أعوام كفتيان توصيل في مصبغة يوغسلافية، جمع علي وأخوته مبلغًا صغيرًا وأسسوا به شركة عربات أجرة دعوها خدمة علي للتاكسي.

1971: نجح مشروع عربات الأجرة نجاحًا كبيرًا لكن علي لم يكن راضيًا. قرر أن ما يريد فعله حقًا هو تقديم الطعام وإسعاد الناس وتبادل الحديث المباشر بين فترة وأخرى، فاشترى المحل الإيرلندي غير المستخدم إلى جانب محطة القطار المهجورة في فنشلي رود وبدأ بتجديده.

1972: في فنشلي رود كانت المؤسسات الإيرلندية وحدها هي التي تقوم بأي عمل حقيقي. وهكذا على الرغم من خلفيته الشرق أوسطية وحقيقة أنه فتح مطعمه الخاص وليس مسبحًا، قرر علي الإبقاء على الاسم الإيرلندي القديم. دهن الأثاث باللونين البرتقالي والأخضر وعلق صور أحصنة السباق وسجل اسم عمله ب "أندريه أوكونيل يوسف". ومن أجل الاحترام شجعه أخوته على تعليق آيات من القرآن على الحائط كي يُرْضى عن هذا العمل المهجن.

13 أيار\مايو 1973: افتتح أوكونيل للعمل.

2 تشرين الثاني\نوفمبر 1974: عثر صمد وآرشي على أوكونيل في طريقهما إلى المنزل ودخلا لتناول صحن من الأطعمة المقلية المتنوعة.

1975: قرر علي أن يكسو الجدران بالسجاد كي يحد من لطخ الطعام.

أيار\مايو 1977: ربح صمد خمسة عشر شلنًا من آلة الفاكهة.

1979 : حصلت نوبة قلبية قاتلة لعلي بسبب تراكم الكولسترول حول قلبه فقررت بقية عائلته أن موته نجم عن الاستهلاك الحرام لمنتجات لحم الخنزير. حذف لحم الخنزير من قائمة الطعام.

1980 : كان عامًا مليئًا بالأحداث. تولى عبدل ميكي إدارة مطعم أوكونيل. أسس غرفة قمار سفلية كي يعوض النقود التي خسرها بسبب عدم تقديم السجق. استخدمت طاولتا مسبح كبيرتان، طاولة الموت وطاولة الحياة، كل من يلعبون من أجل النقود يلعبون على طاولة الموت وكل من يعترضون لأسباب دينية أو المفلسون يلعبون على طاولة الحياة الودية. نجحت الخطة نجاحًا كبيرًا. لعب صمد وآرشي على طاولة الموت.

كانون الأول\ديسمبر 1980 : حصل آرشي على أعلى نقطة سبق أن سجلت في آلة البينبول: 51، 998 نقطة.

1981 : عثر آرشي على مجسم لفيف رتشارد لا يريده أحد في حانوت سيلف ريدجز وأحضره إلى أوكونيل. طلب صمد تعليق صورة والد جده مانغال باندي على الحائط. رفض ميكي، مدعيًا أن "العينين قريبتان جدًا من بعضهما".

1982 : توقف صمد عن اللعب على طاولة الموت لأسباب دينية. واصل صمد طلب وضع الصورة..

31 تشرين الأول\أكتوبر 1984 : ربح آرشي 268 جنيهًا و72 سنتًا على طاولة الموت. اشترى مجموعة جديدة من إطارات البيريلي القديمة والسيئة.

في عشية يوم رأس السنة 1989، في العاشرة والنصف مساء أقنع صمد أخيرًا ميكي بتعليق الصورة. ما زال ميكي يعتقد أنها "تجعل الناس يقرفون من طعامهم".

"ما زلت أعتقد أنها تجعل الناس يقرفون من طعامهم. وفي ليلة رأس السنة. أنا آسف يا زميل. لا أقصد الإساءة. بالطبع رأيي ليس كلمةً مُنزلة لكنه رأيي".

علق ميكي سلكًا خلف ظهر الإطار الرخيص ومسح الزجاج المغبر بسرعة بمئزره وبتردد وضع الصورة على علاقتها فوق الفرن.

"أعني أن شكله كريه. الشارب. يبدو كعمل كريه، وما ذلك الخرص؟ ليس

شاذًا، هل هو؟

"كلا، كلا، كلا. كان عاديًا أن يرتدي الرجال المجوهرات".

كان ميكي مرتابًا، وخص صمد بنظرة يخص بها الأشخاص الذين يزعمون أنهم لم يلعبوا في آلة البنبول بالخمسين بنسًا الخاص بهم ويأتون طالبين لهم. خرج من خلف الكاونتر ونظر إلى الصورة من زاوية جديدة: "ما رأيك يا آرشي؟"

قال آرشي بثقة: "جيدة. أعتقد أنها جيدة".

"من فضلك. سأعتبر هذا معروفًا شخصيًا كبيرًا إذا أبقيتها".

أدار ميكي رأسه إلى جانب ثم إلى الآخر: "كما قلت. لا أقصد الإساءة، فقط أعتقد أنه يبدو غامضًا بشكل لعين. أليس لديك صورة أخرى له أو شيء ما؟"

"هذه هي الوحيدة التي بقيت. سأعتبر هذا معروفًا عظيمًا".

فكر ميكي، قالبًا بيضة: "حسنًا... أنت زبون منتظم، وتلح على الأمر كثيرًا، أعتقد أننا سنبقيها. ماذا عن مسح عام؟ ما رأيك يا دينزل؟ يا كلارينس؟"

كان دينزل وكلارينس يجلسان في الزاوية كما دومًا، كانت تقدمتهما الوحيدة لأمسية رأس السنة بعض خيوط التزيين المبهرجة البائسة المتدلية من قبعة دينزل ومزمارًا مريشًا يحتل موضعًا في الفم مع سيجار كلارينس.

"ما هذا؟"

"قلت ما رأيكما بهذا الشخص الذي يريد صمد تعليق صورته؟ إنه جده".

صحّح صمد: "والد جدي".

التفت دينزل على مضض كي ينظر إليها: "ألا تريان أنني ألعب الدومينو؟ تريدان أن تجردا عجوزًا من متعته؟ أية صورة؟ هذه؟ لا أحبها. يبدو كأحد أفراد طاقم الشيطان".

قال كلارينس لصمد بصوته النسوي: "هل هو قريب لك؟ هذا يشرح الكثير يا صديقي، الكثير! له وجه كفرج الأتان".

انفجر دينزل وكلارينس في ضحك داعر: "يكفي لمنع معدتي من الهضم".

قال ميكي منتصرًا ومستديرًا إلى صمد: "ها أنت ترى، إنه يعرقل أكل الزبائن،

هذا ما قلته تمامًا".

"أكِّد لي أنك لن تصغي لهذين الاثنين".

استدار ميكي عن طبخه، كان التفكير الصعب دومًا يستخدم المساعدة غير الطوعية لجسمه: "لا أعرف...أنا أحترمك وكنت صديق أبي، لكني أقول لك ولا أقصد الإساءة إنك تتقدم في السن والزبائن الأصغر يمكن أن لا..."

طالبه صمد مشيرًا إلى كلارينس وديزل: "أي زبائن أصغر؟

"آه، فهمت... لكن الزبون دومًا على صواب، لو فهمتَ قصدي".

شعر صمد بألم حقيقي: "أنا زبون. أنا زبون. أجيء إلى هذا المكان منذ خمسة عشر عامًا يا ميكي. وقت طويل في تقدير أي إنسان".

"نعم، لكن صوت الأغلبية يهم، أليس كذلك؟ في معظم الأشياء الأخرى، أختلف مع رأيك، الشبان يدعونك أستاذًا، وتستحق هذا، ليس دون سبب، وأنا أحترم حكمك، ستة أيام من كل سبعة، لكن لب الموضوع هو: لو كنت قبطانًا وبقية الطاقم يريدون العصيان، حسنًا... سيُقضى عليك، أليس كذلك؟"

بين ميكي بشكل متعاطف حكمة الأمر في مقلاته، مظهرًا كيف أن 12 فطرًا يمكن أن يجبروا فطرًا على الخروج من فوق الحافة ويُسْقطوه على الأرض.

فيما كانت قهقهة كلارينس وديزل تلعلع في أذنيه، سرى تيار غضب في صمد وارتفع إلى حنجرته قبل أن يتمكن من إيقافه.

مد يده إلى الكاونتر حيث كانت صورة مانغال باندي معلقة في زاوية كئيبة فوق المدفأة: "أعطني الصورة، كان يجب ألا أطلب منك أبدًا... هذه إهانة، سيلحق العار بذكرى مانغال باندي إذا وضعت صورته هنا في مكان العار الكافر هذا".

"أنت ماذا؟"

"أعطني إياها".

"استمع الآن... انتظر لحظة".

حاول ميكي وآرشي إيقافه لكن صمد المستاء والمليء بإذلالات عقد واصل الصراع للتغلب على حضور ميكي الذي سد الطريق. تصارعا قليلًا لكن جسم

صمد ضعف وتغطى بطبقة خفيفة من العرق واستسلم.

لمس ميكي كتفي صمد بعطف بحيث اعتقد صمد أنه يمكن أن يبكي: "استمع يا صمد، لم أعتقد أن هذا يعني شيئًا كبيرًا لك. لنبدأ ثانية. نعلق الصورة لأسبوع ونرى كيف يجري الأمر، اتفقنا؟"

أخرج صمد منديلًا ومرره فوق جبينه: "شكرًا لك يا صديقي. أقدّر لك هذا، أقدر لك هذا".

ربت ميكي بين عظامه الكتفية مصالحًا: "لا أعرف. سمعت عنه ما يكفي مع مرور الأعوام. يمكن أن نعلقه على هذا الحائط اللعين. ما من مشكلة بالنسبة لي. ليس سيئًا وليس جيدًا، كما يقول الفرنسيون آكلو الضفادع. أعني الجحيم اللعين، الجحيم اللعين. والمزيد من لحم الحبش بحاجة للنقود، يا أرشيبالد يا رجلي الصالح، لقد ولّت الأيام الذهبية لقسائم الوجبات المجانية. آه يا عزيزي، يا له من هذر بلا هدف..."

نظر صمد بتمعن في عينيْ والد جده، لقد خاضتا تلك المعركة مرات كثيرة، صمد وباندي، المعركة من أجل سمعة الثاني. كلاهما يعرف جيدًا أن الرأي الحديث حول مانغال باندي يرجح في الجانب الآخر من المعسكرين:

بطل غير معترف به	**هذر وكلام فارغ**
صمد إقبال	ميكي
إي. إس. ميزرا	ماجد
	ميلات
	ألسانا
	آرشي
	آيري
	كلارينس
	دينزل
	البحث البريطاني في الوقت الحاضر

مرة بعد أخرى تجادل واختلف في الرأي مع آرشي حول هذه المسألة. ومع مرور الأعوام كانا يجلسان في أوكونيل ويعودان إلى الجدل نفسه، أحيانًا بمعلومات جديدة مستقاة من بحث صمد المتواصل في المسألة، لكن منذ أن عثر آرشي على "الحقيقة" عن باندي، تقريبًا في 1953، لم يغير رأيه. إن شهرته الوحيدة، مستمدة، كما جهد آرشي كي يشير، من الهدية الاشتقاقية التي قدمها للغة الإنكليزية من خلال كلمة "باندي"، والتي تحت عنوانها في قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية سيرى القارئ الفضولي التعريف التالي:

باندي: كنية المتمرد الأول بين جنود الطبقة العليا في الجيش البنغالي الذين حاربوا مع البريطانيين. -1أي جندي تمرد في العصيان الهندي في 1857. -2 أي متمرد أو خائن. -3أي أحمق أو جبان في موقف عسكري.

أغلق آرشي الكتاب منتشيًا: "هذا واضح كالفطيرة في وجهك يا صديقي. ولا أحتاج إلى قاموس كي يقول لي هذا، وكلاكما لا تحتاجان. هذا كلام عام. حين كنت أنا وأنت في الجيش حصل الأمر نفسه. حاولتَ أن تخدعني بشيء، لكن الحقيقة ستظهر يا صديقي. إن كلمة باندي تعني شيئًا واحدًا فقط. ولو كنت مكانك لبدأت بتخفيف صلة الأسرة بدلًا من إزعاج الجميع 24 ساعة في اليوم".

"أرشيبالد، إن وجود الكلمة لا يعني أنها تمثيل صحيح لشخصية مانغال باندي. نتفق على التعريف الأول: كان والد جدي متمردًا وأنا فخور بقول هذا. أعترف أن الأمور لم تسر وفق الخطة. لكن خائن؟ جبان؟ إن القاموس الذي أريتني إياه قديم، وهذه التعريفات هي خارج التداول الآن. لم يكن باندي خائنًا أو جبانًا.

قال آرشي وقد بدا متأثرًا بحكمة استنتاجه: "آه، الآن ترى، لقد خضنا في هذا، وهذا ما أفكر به: لا دخان بدون نار، تعرف ما أعنيه".

كانت هذه إحدى أدوات آرشي التحليلية المفضلة حين تواجهه القصص الإخبارية، والحوادث التاريخية، والعملية اليومية المخادعة لفصل الحقيقة عن الخيال. لا دخان بدون نار. كان هناك شيء ما مكشوف في الطريقة التي اعتمد فيها على تلك القناعة، أن صمد لم يمتلك أبدًا الشجاعة كي يخلصه منها. لماذا تقول لعجوز إنه يمكن أن يكون هناك دخان بدون نار كما هناك جراح لا يخرج منها دم؟

"بالطبع، أفهم وجهة نظرك يا آرشي. لكن نقطتي هي، وكانت دومًا، من المرة الأولى التي ناقشنا فيها الموضوع، نقطتي هي أن هذه ليست القصة الحقيقية. ونعم أنا أدرك أننا استقصينا عن الأمر بشكل شامل عدة مرات، لكن الحقيقة هي أن القصص الحقيقية نادرة وثمينة كالألماس. لو كنت محظوظًا بما يكفي كي تكشف واحدة فإن القصة الحقيقية ستتوضع في ذهنك كالرصاص. إنها صعبة ومطنبة وملحمية. إنها كالقصص التي يرويها الله: مليئة بمعلومات معينة مستحيلة لا تجدها في القاموس".

"حسنًا، حسنًا يا أستاذ. لنسمع نسختك".

غالبًا ما ترى عجائز في زاوية الحانات المظلمة يناقشون ويومئون، مستخدمين كؤوس البيرة والممالح كي تجسّد أشخاصًا ماتوا منذ وقت طويل وأمكنة بعيدة. وفي تلك اللحظة تتجلى فيهم حيوية مفقودة في جميع مجالات حياتهم الأخرى. يتوهجون. وحين يروون قصة كاملة وهم جالسون إلى الطاولة يولدون من جديد: هنا تشرشل الذي يُشار إليه بالشوكة، وهناك منديل المائدة الذي يمثّل تشيكوسلوفاكيا، وهناك نعثر على مجموعة من الجنود الألمان الذين تجسّدهم مجموعة من حبوب الفاصولياء الباردة. ولكن حين كان صمد وآرشي يقومان بهذا النوع من الجدل فوق الطاولة في الثمانينيات كانت السكاكين والشوك غير كافية. وكان الصيف الهندي كله المشبع بالبخار لعام 1857، عام التمرد والمجزرة، يُجر إلى داخل أوكونيل ويوقظه المؤرخان المؤقتان. وكانت المنطقة التي تمتد من خزانة الفونوغراف الآلي إلى آلة الفواكه تصبح دلهي، وفيف رتشارد يعمل كرئيس

باندي الإنكليزي، النقيب هيرسي وكلارينس وديتزل يواصلون لعب الدومينو بينما في الوقت نفسه يمثلان حشود الجنود الذين لا يهدأون في الجيش البريطاني. وكان كل رجل يستعرض قطع حجته، ويصفها ويقدمها للآخر كي يراها. وكانت المشاهد تُرتَّب، ومسارات الرصاص يتم تعقبها ويسود الخلاف.

وتروي الحكاية أنه في ربيع 1857 في مصنع في دوم-دوم، أُنتجَ نوع جديد من الرصاص البريطاني وكان مصممًا كي يستخدمه جنود هنود في بنادق إنكليزية. ومثل معظم الرصاص في تلك الأيام يجب أن يُعض غلافه كي يدخل في السبطانة. ولم يكن هناك أي شيء استثنائي حياله إلى أن اكتشف عامل مصنع ذكي أنه مدهون بشحم الخنازير التي يمقتها المسلمون وشحم الأبقار المقدسة للهندوس. كان خطأ بريئًا بقدر ما يكون أي شيء بريئًا على أرض مسروقة، كان خطأ بريطانيًا فادحًا. لكن حدث اضطراب عنيف بين الناس لدى سماعهم الأخبار للمرة الأولى. بفعلهم لهذا كان الإنكليز يهدفون إلى تدمير طبقتهم وشرفهم وموقعهم في عين الله والبشر، باختصار كل شيء جعل الحياة جديرة بأن تعاش. إن إشاعة كهذه لا يمكن أن تبقى سرًا، انتشرت كنار وحشية في هشيم الأراضي الجافة للهند في ذلك الصيف، ووصلت إلى الجميع أينما كانوا، وفي الشوارع، عبر منازل البلاد وأكواخ الريف، من ثكنة إلى أخرى إلى أن التهبت البلاد كلها برغبة التمرد. ووصلت الإشاعة إلى الأذنين الضخمتين والقبيحتين لمانغال باندي، وهو جندي مجهول في بلدة باراكبور الصغيرة، والذي سار متبخترًا في مكان تجمع الجنود، في 29 آذار 1857، خاطبًا أمام الحشد لصناعة نوع معين من التاريخ. قال آرشي: "إن ما فعله هو أنه حول نفسه إلى أحمق". (ذلك أنه في هذه الأيام لم يَبْلغ الكلام عن باندي بسهولة كما حدث مرة).

أجابه صمد: "أنت تسيء فهم تضحيته بشكل كامل".

"أية تضحية؟ لم يستطع حتى أن يقتل نفسه بشكل ملائم! إن المشكلة معك يا سام هي أنك لا تريد الإصغاء للأدلة. لقد قرأتَ عن هذا كله. إن الحقيقة هي الحقيقة، مهما كان طعمها كريهًا".

"حقًا. حسنًا، من فضلك يا صديقي، بما أنك على ما يبدو خبير في أفعال أسرتي من فضلك نوّرْني. دعنا نسمع نسختك".

إن طالب المدرسة العادي في هذه الأيام مُطّلع على القوى المعقدة والحركات والتيارات العميقة التي تُحفّز على الحروب وتُشْعل شرارة الثورات. لكن حين كان آرشي في المدرسة بدا العالم مفتوحًا أكثر على تحويله إلى رواية. وكان التاريخ عملًا مختلفًا آنذاك: كان يُدرَّس بعين على السرد والعين الأخرى على الدراما بصرف النظر عن إن كان غير محتمل أو خاطئًا من حيث التسلسل الزمني. وبحسب هذه الخطة، بدأت الثورة الروسية لأن الجميع كرهوا راسبوتين. وتدهورت الحضارة الرومانية لأن أنطوني كان يمارس الجنس مع كليوباترا. وانتصر هنري الخامس في أجينكورت لأن الفرنسيين كانوا مشغولين جدًا بالإعجاب بثيابهم. وبدأ التمرد الهندي الكبير في 1857 حين أطلق أحمق سكير يدعى مانغال باندي رصاصة. وعلى الرغم من اعتراض صمد، كلما قرأ آرشي التالي وجد نفسه مقتنعًا أكثر:

ما حدث في باراكبور، في 29 آذار 1857:

في بعد ظهر الأحد، وفي الساحة الترابية حدثت دراما أوحت بكل شيء ما عدا هدوء يوم السبت. كانت مجموعة غير منتظمة من الجنود تثرثر وتتمايل وتتحرك دائريًا، في كل مراحل الثياب وخلعها، وكان البعض مسلحين والبعض الآخر غير مسلح، لكنهم كانوا جميعًا مهتاجين. وعلى بعد ثلاثين ياردة من الخط 34 كان يتبختر جيئة وذهابًا جندي يدعى مانغال باندي. كان نصف مخدر من عصير القنب، وثملًا بشكل كامل من التعصب الديني. وكان يرفع ذقنه في الجو، وبيده بندقية مذخرة، ويتقدم ويتراجع في نوع من نصف الرقصة، ويصيح بصوت حاد رتيب وأنفي: اخرجوا أيها الحرس السود، اخرجوا

جميعًا! إن الإنكليز ضدنا. إذا عضضنا هذه الخراطيش سنصبح جميعنا كفارًا.

كان الرجل في الحقيقة في تلك الحالة الخليط بين التأثر بالحشيشة والعصبية الأمر الذي يجعل شخصًا مالاويًا متوحشًا. وكانت كل صيحة من بين شفتيه تنطلق كلسان لهب مفاجئ عبر أدمغة وأعصاب الحشد المصغي من الزملاء الجنود، ومع كبر حجم الحشد صارت ازداد الهياج والتوتر. باختصار، كان هناك مخزن من البارود البشري على وشك الانفجار.

انفجر المخزن. وأطلق باندي النار على ملازمه وأخطأ الهدف، ثم شهرَ سيفًا مقوسًا ضخمًا واندفع بغدر حين كان ملازمه يدير ظهره وأصابه في الكتف. حاول جندي أن يوقفه، لكن باندي عارك. ثم جاءت التعزيزات: اندفع النقيب هيرسي إلى الأمام، وابنه إلى جانبه، وكلاهما مسلح وصاحب تشريفات ومستعد للموت من أجل بلاده، (كلمة هيرسي[107] هي بالضبط ما هي عليه! قمامة. فبركة) عند هذه النقطة رأى باندي أن اللعبة انتهت فصوّب بندقيته الضخمة إلى رأسه وضغط دراميًا على الزناد بقدمه اليسرى لكنه أخطأ الهدف. وبعد بضعة أيام، حُوكم باندي وأُدين. وفي الجانب الآخر من البلاد، على كرسي طويل في دلهي، صدر أمر إعدامه من الجنرال هنري هافلوك (الرجل الذي كُرِّم بتمثال تمامًا أمام مطعم البالاس، في ساحة ترافالجار، إلى يمين نلسون، مما أثار غضب صمد) الذي أضاف، في حاشية لكلمته المكتوبة أنه يأمل أن هذا سينهي كل الحديث المستعجل عن التمرد الذي واصل المرء السماع عنه مؤخرًا. لكن الوقت كان متأخرًا جدًا. وبينما كان باندي يتأرجح في النسيم القائظ متدليًا من مشنقة مؤقتة توجه رفاقه المسرّحون من الفرقة 34 إلى دلهي مصممين على الانضمام إلى قوى التمرد في ما أصبح أحد التمردات الأكثر دموية في هذا القرن أو أي قرن.

كانت هذه النسخة من الأحداث، التي رواها المؤرخ المعاصر المسمى فيتشيت

كافية لجعل صمد يتشنج من الغضب، وحين لا يملك الإنسان سوى دمه كي يحميه فإن كل قطرة منه تهم بشكل مريع، ويجب أن يدافع عنه بغيرة. ويجب أن يحميه من المهاجمين والنادمين، وأن يُقَاتل من أجله. لكن، كمثل الهمسة الصينية [108] المتواصلة في اللعبة البريطانية المشهورة، مر باندي الثمل وغير الكفء، الذي اخترعه فتشيت، عبر خط من المؤرخين المتعاقبين، وكانت الحقيقة تُبْتر وتُلوى وتتراجع فيما يتواصل الهمس. ولم يكن يهم أن شراب القنب المخدر المتناول في جرعات صغيرة لأهداف طبية كان من غير الممكن أن يسبب السكر، أو أن باندي، الهندوسي المتشدد، كان يمكن أن يتناوله. ولم يهم أن صمد لم يستطع العثور على دليل يثبت أن باندي تناول الماريجوانا في ذلك الصباح. وما زالت القصة ملصقة، كمثل اقتباس كبير خاطئ، على سمعة إقبال، وكانت صلبة وغير قابلة للإزالة كمثل سوء الفهم الشائع بأن هاملت سبق وقال إنه يعرف يوريك "جيدًا".

"هذا يكفي! إن قراءتك المتكررة لهذا لا تحدث فرقًا، يا أرشيبالد". (كان آرشي يأتي عادة مسلحًا بكيس بلاستيكي مليء بكتب مكتبة برينت، الدعاية المضادة لباندي، والمقتطفات السيئة الوافرة). "إنها كمثل عصابة من الأطفال العالقين بأيديهم في إناء عسل ضخم: سيقولون لي كلهم الكذبة نفسها. أنا غير مهتم بهذا النوع من الافتراء. أنا غير مهتم بمسرح الدمى ولا بالمسرحيات الهزلية المأساوية. إن ما يهمني هو الفعل، يا صديقي" - وهنا يحاكي صمد الإغلاق النهائي لشفتيه، ورمي المفتاح بعيدًا - "فعل حقيقي، لا كلمات. يا أرشيبالد، لقد ضحى مانغال باندي بحياته باسم العدالة من أجل الهند، وليس لأنه كان ثملًا ومجنونًا. مرّر لي الكتشب".

كانت أمسية رأس السنة لعام 1989 في أوكونيل، وكان الجدل في أوجه.

"صحيح أنه لم يكن بطلًا بالطريقة التي تحبون بها أبطالكم في الغرب، فهو لم ينجح إلا في طريقة موته المشرفة. لكن تخيل هذا: هنا يجلس" - أشار صمد إلى دينزل، الذي كان على وشك أن يلعب قطعة الدومينو الرابحة الخاصة به - "في المحاكمة، عارفًا أنه سيصدر عليه حكم بالإعدام، ورفض أن يكشف أسماء

المتواطئين معه..."

قال آرشي رابتًا على كومته من الكتب المشككة لكل من مايكل إدواردز وبي. جي. أو تيلور والسيد معين الحق [109] والبقية: "هذا يعتمد على ماذا تقرأ".

"كلا يا آرشي. هذا خطأ عام. لا تعتمد الحقيقة على ما تقرأ. من فضلك لا تدعنا نتحدث عن طبيعة الحقيقة. حينها لن يكون عليك أن ترسم بجبنتي وأستطيع تجنب أكل طباشيرك".

"حسنًا إذًا، ما الذي حققه باندي؟ لا شيء. كل ما فعله هو أن بدأ تمردًا قبل الموعد المتفق عليه (انتبه إلى هذا) واعذرني على هذا الكلام، لكنه كارثة لعينة بالمعنى العسكري. يجب أن تخطط، لا أن تعمل غريزيًا، سبّب سقوط عدد من الضحايا الإنكليز والهنود دون مبرر".

"مع احترامي لرأيك لا أظن أن هذا ما حدث".

"إذًا أنت مخطئ".

"مع احترامي لرأيك، أعتقد أنني على صواب".

"الأمر هكذا، يا سام: تخيل هنا" - جمع كومة من الصحون المتسخة كان ميكي على وشك وضعها في آلة الجلي- "جميع الأشخاص الذين كتبوا عن باندي في الأعوام المائة والتي ما لست أدري الأخيرة، الذين يتفقون معي الآن وهنا" - وضع عشرة صحون على طرف من الطاولة ودفع واحدًا لصمد "- وهذا هو المجنون الذي يصفُّ معك".

"إي.س. ميزرا. موظف مدني هندي محترم. وليس مجنونًا".

"حسنًا. سيستغرق معك الأمر مائة سنة أخرى وما لست أدري للحصول على عدد الصحون الذي حصلتُ عليه أنا، حتى ولو صنعتها بنفسك، وما هو محتمل هو أنه حالما تحصل عليها، لن يرغب أحد بالأكل منها بأية حال، أتحدّث مجازيًا. هل تعرف ما أعنيه؟

لم يبق إلا إي. س. ميزرا. ففي ربيع 81 وصلت رسالة إلى صمد من أحد أبناء أخيه راجنو الذي يدرس في جامعة كمبردج ذكر فيها أنه عثر على كتاب يمكن

أن يهم عمه، وفيه يمكن العثور على دفاع صريح عن سلفهما المشترك مانغال باندي. وكانت النسخة الوحيدة المتبقية هي في مكتبة الكلية، واسم المؤلف هو ميزرا. هل سمع به من قبل؟ إذا لم يسمع، ألا يمكن أن يخدم هذا (أضاف راجنو في ملاحظة حذرة) كسبب جيد كي يرى عمه ثانية؟

وصل صمد بالقطار في اليوم التالي ووقف على المنصة وسلم بمودة على ابن أخيه ذي الكلام الناعم تحت المطر الغزير مصافحًا له عدة مرات ومتحدثًا معه بسرعة بشكل متكرر ومبالغ فيه.

كرر مرة بعد أخرى، إلى أن تبلل الرجلان إلى الجلد: "يوم عظيم، يوم عظيم لعائلتنا، يا راجنو، يوم عظيم للحقيقة".

لا يُسمح للرجال المبللين بالدخول إلى مكتبة الكلية، لذلك أمضيا الصباح وهما يجففان نفسيهما في مقهى في الطابق العلوي المغلق وغير المهوى، والمليء بالنمط الملائم من السيدات اللائي يحتسين النوع الملائم من الشاي. راجنو، المستمع الجيد دومًا، جلس بصبر بينما كان عمه يثرثر بصوت مرتفع عن أهمية الاكتشاف، وكم انتظر طويلًا هذه اللحظة حانيًا رأسه في كل الأماكن الصحيحة ومبتسمًا بعذوبة فيما كان صمد يمسح الدموع عن زاويتي عينيه. "هذا كتاب عظيم، أليس كذلك يا راجنو؟" سأل صمد بلهفة، فيما ترك ابن أخيه بقشيشًا كريمًا للنادلات ذوات الأوجه المتجهمة اللواتي لم يقدّرن هنديين مُفرطي الحماس أمضيا ثلاث ساعات طالبين فقط شايًا مع الكريم وتاركين آثار بلل على الأثاث كله، "إنه معروف، أليس كذلك؟"

كان راجنو يعرف في قلبه أن الكتاب بلا قيمة وبلا أهمية، وهو قطعة من البحث المنسي، لكنه كان يحب عمه، وهكذا ابتسم وهز رأسه موافقًا.

حالما دخلا المكتبة، طلب من صمد أن يكتب في سجل الزوار:

الاسم: صمد مياه إقبال

الكلية: متعلم في مكان آخر (دلهي)

مشروع البحث: الحقيقة.

إن راجنو الذي دغدغته هذه الكلمة الأخيرة، التقط القلم وأضاف: "ومأساة".

قال أمين مكتبة جامد الوجه وهو يدير ظهر كتاب: "الحقيقة ومأساة، هل تبحثان عن نوع معين؟"

قال صمد بلطف: "لا تقلق. سنعثر عليه".

احتاج الأمر إلى سلم للوصول إلى الكتاب لكنه كان يستحق ذلك. وحين ناول راجنو الكتاب إلى عمه شعر صمد بأن أصابعه ترتعش وحين نظر إلى غلافة وشكله ولونه شاهد فيه كل ما حلم به. كان ثقيلًا وكثير الصفحات ومجلدًا بجلد مدبوغ ومغطى بغبار خفيف يشير إلى شيء ثمين بشكل لا يصدق، شيء ما نادرًا ما لُمس.

"تركتُ علامةً فيه. ثمة الكثير فيه للقراءة لكنّ هناك شيئًا اعتقدتُ أنك تحب أن تراه أولًا، إنه انطباع فنان فحسب، لكن التشابه بين ..."، قال راجنو واضعًا الكتاب على الطاولة، وصدر صوت عن ارتطام طرف الكتاب بالطاولة، ونظر صمد إلى الصفحة المحددة وكانت أكثر مما كان يأمله.

"لا تتحدث"، قال صمد، متعقبًا الصورة بأصابعه.

"هذا دمنا يا راجنو. لم أفكر أبدًا أنني سأرى ... أي حاجبين! أي أنف! لدي أنفه!"

"لديك وجهه يا عمي لكنك أكثر أناقة بشكل طبيعي".

"وماذا، ما الذي يقوله في الأسفل؟ اللعنة، أين نظارات القراءة الخاصة بي؟ اقرأه لي يا راجنو، الكتابة صغيرة جدًا".

"يقول إن مانغال باندا أطلق الرصاصة الأولى في حركة 1857. إن تضحيته بنفسه أطلقت صوت جهاز الإنذار للأمة كي تحمل السلاح ضد حاكم أجنبي وتتوج هذا في انتفاضة جماهيرية لا نظير لها في التاريخ. وعلى الرغم من أن الجهود فشلت في نتائجها المباشرة إلا أنها نجحت

في وضع أسس الاستقلال الذي تحقق في 1947. لقد ضحى بحياته من أجل وطنه. وحتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة رفض كشف أسماء الذي كانوا يحضّرون للانتفاضة الكبيرة ويحرّضون من أجلها".

جلس صمد عند قدم السلم وبكى.

"وهكذا، دعني أوضح هذا بشكل صريح. الآن تقول لي إنه لولا باندي لما كان هناك غاندي، إنه لولا جدك المجنون لما حدث الاستقلال..."

"والد جدي".

ربت آرشي على كتفيْ دينزل وكلارينس غير المكترثين: "كلا، دعني أنهي يا سام. هل هذا ما تطلب منا بجدية أن نصدقه؟" ثم سأل كلارينس: "هل تصدقه؟"

قال كلارينس دون أن يمتلك أدنى فكرة عن الموضوع: "أستطيع أن أصدق هذا".

مخط دينزل في المنديل: "الحقيقة لا أحب أن أصدق أي شيء، أو أن أسمع أي شر أو أن أتفوه بأي شر. هذا شعاري".

"كانت الشرارة يا أرشيبالد، الأمر بهذه البساطة. أصدق هذا".

خيم الهدوء لدقيقة. راقب أرشيبالد ثلاثة مكعبات سكر تنحل في شايه. ثم، بشكل متردد، قال: "لدي نظريتي الخاصة، المنفصلة عن الكتب، أعني...".

انحنى صمد: "من فضلك أتحفْنا بها".

"لا تغضب الآن. فكّر قليلًا. لماذا يتناول رجل متدين ومتشدد مثل باندي المخدرات؟ أعرف أنني أضايقك بذكري لهذا. ولكن لماذا فعل؟"

"أنت تعرف رأيي حول هذا الموضوع. لم يفعل، هذه دعاية إنكليزية".

"وهو رام جيد..."

"لا شك في هذا. إن إي. س. ميزرا يقدم نسخة من سجل يقرّ بأن باندي تدرّب كحارس خاص لسنة، وتدرب بشكل خاص على استخدام البنادق".

"لماذ أخطأ الهدف إذًا؟ لماذا؟"

"أعتقد أن التفسير الوحيد الممكن هو أن البندقية كان فيها خلل".

"نعم... يحدث هذا. لكن ربما، ربما شيء آخر. ربما أُجْبر على الخروج إلى هناك وإحداث الفوضى، ربما حرّضه أشخاص آخرون. ولم يرد أن يقتل أحدًا. وهكذا تظاهر بأنه ثمل كي يصدق الأشخاص في الثكنة أنه أخطأ الهدف".

تنهد صمد حين بدأ العقرب الثاني لساعة ميكي الملطخ بالبيض العد التنازلي لثلاثين ثانية لبلوغ منتصف الليل: "هذه هي النظرية الأكثر غباء التي سبق أن سمعتها، النوع الذي لا يمكن أن يطرحه إلا أنت. هذا سخيف".

"لماذا؟"

"لماذا؟ أرشيبالد، هؤلاء الإنكليز، هؤلاء النقباء الذين باسم هيرسي وهافلوك والبقية، كانوا أعداء أي إنسان هندي. لماذا يستثني حيوات كان يحتقرها؟"

"ربما لم يستطع فعلها. ربما لم يكن من هذا النمط".

"هل تعتقد حقًا هناك نمط من البشر يقتل ونمط لا يقتل؟"

"ربما يا سام، وربما لا".

قال صمد آكلًا قطعة بيض أخيرة: "تتحدث كزوجتي، دعني أخبرك شيئًا يا أرشيبالد، إن الرجل هو رجل. وقد هُددت عائلته وهوجمت معتقداته ودُمرت طريقته في الحياة، وانتهى عالمه كله، وهكذا سيقتل. لا تخطئ. لن يترك النظام الجديد يتدحرج فوقه دون صراع. سيكون هناك أشخاص يقتلهم".

قال آرشي جونز بنظرة غامضة كان صديقه سيظنها إنجازًا كبيرًا لتلك الملامح المترهلة والسمينة: "وهناك أشخاص سينقذهم، ثق بي".

"خمسة! أربعة! ثلاثة! اثنان! واحد! رائع!" قال ديزل وكلارينس، رافعين قهوة إيرلندية حارة لبعضهما في تبادل نخب، ثم استأنفا بسرعة الدورة التاسعة من الدومينو.

"عام جديد لعين سعيد!" صاح ميكي، من خلف الكاونتر.

آيري

1990 ,1907

في عالم الحديد المليّف هذا الذي يتقاطع فيه السبب مع النتيجة، هل من المحتمل أن النبض الخفي الذي سرقته منهم لم يؤثر بمستقبلهم؟

لوليتا، فلاديمير نابوكوف

11

التعليم السيّئ والمؤذي لآيري جونز

كان هناك عمود إنارة يقع على مسافة متساوية من منزل جونز ومدرسة جلينارد أوك العامة، بدأ يظهر في أحلام آيري. ليس عمود الإنارة بالضبط، بل إعلانًا صغيرًا مكتوبًا باليد ملصقًا عليه بلاصق شفاف على مستوى العين. يقول:

افقد الوزن كي تربح النقود
081 555 6752

صارت آيري جونز التي في الخامسة عشرة كبيرة الحجم الآن. ذلك أن النسب الأوربية لشكل كلارا تخطت جيلًا ونزلت بدلًا من ذلك في إطار هورتينس الجامايكي الكبير المحمل بالأناناس وثمار المانغو والجوافة. للفتاة وزن ثقيل وثديان كبيران ومؤخرة كبيرة وردفان كبيران. لها فخذان كبيران وأسنان كبيرة. كان وزنها 182 رطلًا ومعها 13 جنيهًا في حساب توفيرها. عرفت أنها المستهدفة (لو حدث وكان هناك شخص مستهدف)، وقد عرفت هذا جيدًا، وهي تسير ببطء وصعوبة إلى المدرسة بفم مليء بالحلوى. وهي تضغط الدهون في وسطها شعرت أن الإعلان يتحدث إليها. قال لها: افقدي الوزن كي تكسبي النقود. أنت، أنت، يا آنسة جونز، بذراعيك الموضوعتين بشكل مدروس وسترتك من الصوف المحبوك، المربوطة

حـول المؤخـرة (اللغـز اللانهائي: كيـف تصغّـرين ذلـك الانتفـاخ الضخـم، الاندفـاع الجامايكي إلى الخلـف؟) بلباسـك التحتـاني الـذي يشـدّ البطـن وحمالـة الصـدر المخفضـة لحجـم الثدييـن، ومشـد الليكـرا الموسـوس، حـل التسـعينات المصفـق لـه كثيرًا لضخامـة الجثـة، وبثيـاب خصـرك المطاطيـة. عـرفـتْ أن الإعـلان يتحـدث إليهـا لكنهـا لـم تعـرف مـا الـذي يقولـه تمامًـا. مـا الـذي قلنـاه عنهـا؟ نحافـة مضمونـة؟ القـدرة على الكسـب لـدى الأشـخاص النحيليـن؟ أم هـل قلنـا إنـه شيء مـا ينتمـي أكثر إلى العهـد اليعقـوبي، وليـد ذهـن شـايلوك مـن ولسـدن جريـن، رطـل مـن اللحـم مقابـل رطـل مـن الذهـب: اللحـم مقابـل المـال؟

كانـت مصابـة بنـوم حـركـة العيـن السـريعة [110]. أحيانًـا تسـير في المدرسـة في البكيني ولغـز عمـود الإنـارة مكتـوب بالطباشـير حـول انتفاخيهـا السـمراوين، فـوق حوافهـا المختلفـة (ثمـة فـراغ لـرف كتـب وأكـواب الشـاي والسـلال أو بشـكل أدق للأطفـال وسـلال الفاكهـة ودلاء المـاء)، حـواف مصممـة وراثيًـا في بـلاد أخـرى في الذهـن ومنـاخ آخـر. وفي أوقـات أخـرى، شـاهدت حلـم النحـف الخاضـع للرعايـة: قرعـت بابًـا بعـد آخـر بمؤخـرة عاريـة مـع حافظـة، مغمـورة بضـوء الشـمس، محاولـة أن تشـجع العجائـز على أن يمسـكوا إنشًـا مـن جسـمها ويدفعـوا جنيهًـا. وفي الأوقـات الأسـوأ؟ شـاهدت في منامهـا أنهـا نزعـت لحمًـا أبيـض منمشًـا ووضعتـه في علـب كـولا قديمـة جميلـة الشـكل، وحملتهـا إلى حانـوت على الزاويـة، مررتهـا فـوق طاولـة، وتناولهـا البقـال ميـلات الـذي يرتـدي البنـدي وقبـة سـبعة، وعلى مضـض فتـح درج النقـود بكفيـن مصطبغيـن بالـدم وقـدم لهـا النقـود. **القليـل مـن اللحـم الكاريبـي مقابـل القليـل مـن الفكـة الإنكليزيـة.**

كانـت آيـري جونـز مهووسـة. وكانـت أمهـا القلقـة تحصرهـا أحيانًـا في غرفـة الجلـوس قبـل أن تخـرج مـن البـاب، غير موافقـة على مشـدهـا المحكـم، وتسـألها: "مـا الـذي تفعلينـه؟ مـا الـذي ترتدينـه؟ كيـف تسـتطيعين التنفـس؟ آيـري، حبيبتي، أنـت رائعـة، فقـط لـك بنيـة امـرأة مـن آل بـودن المخلصيـن لله، ألا تعرفيـن أنـك رائعـة؟"

لكـن آيـري لـم تعـرف أنهـا رائعـة. كانـت هنـاك إنكلترة، المـرآة العملاقـة، وهنـاك

آيري، دون انعكاس، غريبة في أرض غريبة.

كوابيس وأحلام يقظة في الحافلة والحمام والصف. قبل. بعد. قبل. بعد. قبل. بعد. كانت تمتص تعويذة الهوس بمواد التجميل إلى الداخل وتطلقها إلى الخارج، غير راغبة بأن تستقر على مصير وراثي، منتظرة بدلًا من ذلك تحولها من ساعة رملية جامايكية ثقيلة بالرمال التي تتجمع حول شلالات نهر دان إلى وردة إنكليزية (آه، تعرفونها!) إنها نحيلة، حساسة غير مصنوعة للشموس الحارة، لوح ركوب أمواج يغضّنه الموج:

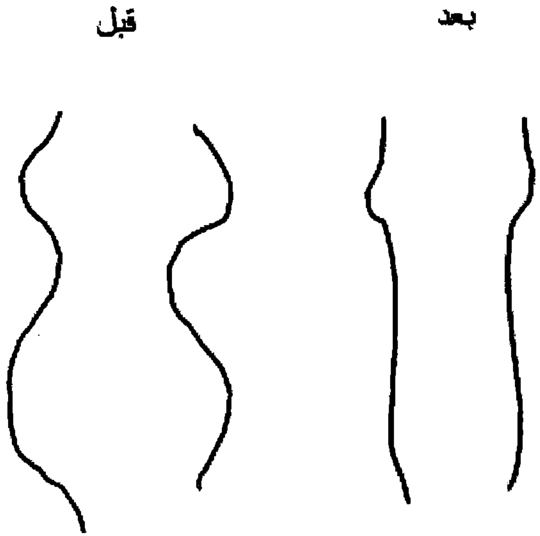

السيدة أوليفر رودي، أستاذة اللغة الإنكليزية وخبيرة اكتشاف الخربشات على مسافات تبلغ حتى عشرين ياردة، مدت يدها فوق مكتبها إلى دفتر تمارين آيري ومزقت الورقة المعنية. ثم تحققت بتأكيد أسكتلندي إيقاعي:

"قبل وبعد ماذا؟"

"آه، لا شيء يا آنسة".

"لا شيء؟ آه، هيا الآن يا آنسة جونز. لا حاجة للوقار. من الواضح أنه أكثر إمتاعًا من السونيتة رقم 127".

"إنه لا شيء، لا شيء".

"هل أنت متأكدة؟ لا تقومي بتأخير الصف بعد الآن؟ لأن... بعض طلاب الصف يحتاجون إلى أن يصغوا إلى ما أقوله ولو كان اهتمامهم قليلًا. وهكذا توقفي عن الخربشة" - لا أحد يقول كلمة خربشة مثل أوليف رودي "وانضمي لبقيتنا، سنتابع، حسنًا؟"

"حسنًا ماذا؟"

"هل تستطيعين الكف عن ذلك والانتباه؟"

"نعم يا آنسة رودي".

"آه، حسنًا. لقد أبهجني هذا. السونيتة رقم 127، من فضلك".

واصل فرانسيس ستون بالأزيز المشلول الذي قرأ به الطلاب الشعر الإليزابيثي: "في العصر القديم لم يُنظر إلى السوداء على أنها جميلة، أو إذا كانت جميلة، فإنها لم تحمل لقب جميلة".

بلعت آيري ريقها وهي تضع يدها اليمنى على بطنها وحاولت أن تلفت انتباه ميلات. لكن ميلات كان مشغولًا، يظهر لنيكي تايلر الجميلة كيف يستطيع أن يلعب بلسانه ويحوله إلى لفافة ضيقة وناي. وكانت نيكي تايلر تريه كيف أن شحمتي أذنيها مرتبطتان بجانبي رأسها وليستا فالتتين. كانت هذه بقايا غزلية من درس العلوم هذا الصباح والذي كان بعنوان "الخصائص الوراثية": الجزء الأول أ- متحرر. متصل. ملفوف. مسطح. عين زرقاء. عين بنية. قبل. بعد.

"بالتالي إن عيني محظيتي شديدتا السواد،
وحاجبيها ملائمان جدًا، ويبدو النادبون... إن عيني سيدتي
ليستا كالشمس. إن المرجان أشد حمرة من حمرة شفتيها،
وإذا كان الثلج أبيض، لماذا إذًا ثدياها سوداوان.."

إن سن البلوغ، سن البلوغ الحقيقي التام (لا الانتفاخ الضئيل لثدي، أو البزوغ الظلي للزغب)، فرّق بين هذين الصديقين القديمين، آيري جونز وميلات إقبال. صارا كالجانبين المختلفين لسياج المدرسة. واعتقدت آيري أنها حصلت على الأوراق السيئة: المنعطفات الجبلية، والأسنان الناتئة ومقوِّم أسنان معدني سميك، وشعر أفريقي مستحيل، وفوق كل هذا ذباب العين الذي تطلّب بدوره نظارة مستديرة العدسة لها ظل قرمزي خفيف. (حتى العينان الزرقاوان، العينان اللتان أفرحتا آرشي لم تستمرا إلا أسبوعين. ولدت بهما، نعم، لكن في أحد الأيام نظرت كلارا ثانية وكانت هناك عينان بنيتان تنظران إليها كالتحول من برعم مغلق إلى زهرة متفتحة، تلك اللحظة الدقيقة التي لا تستطيع العين أن ترصدها). وهذا الإيمان بدمامتها، وبخطئها أخضعها واحتفظت بتعليقاتها المزعجة لنفسها في هذه الأيام، وأبقت يدها اليمنى على بطنها. وكانت مخطئة كليًا.

كان ميلات كالشباب الذي يتم تذكره في سن الشيخوخة، كان الجمال ساخرًا من نفسه بأنف روماني مكسور، طويل ونحيل، وشرايين نحيلة وعضلات ناعمة وعينين بلون الشوكولاتة فيهما بريق أخضر انعاكسي كضوء القمر القافز عن بحر داكن وابتسامته لا تُقاوم وأسنانه بيضاء وكبيرة. وفي فهم مدرسة جلينارد أوك كان الأسود والباكستاني واليوناني والإيرلندي يمثلون سلالات لكن الذين لهم جاذبية جنسية سبقوا العدائين الآخرين. وشكلوا نوعًا خاصًا وفريدًا.

"لو كان الشعرات أسلاكًا، فإن الأسلاك السود تنمو في رأسها..."

أحبّته، بالطبع لكنه كان يقول لها: "إن المسألة هي أن الناس يعتمدون عليّ ويحتاجون إليّ كي أكون ميلات، ميلات القديم الجيد، ميلات الشرير، ميلات العذب والآمن، يريدونني بقوة وهذه عمليًا مسؤولية".

وكانت هكذا على نحو خاص. قال رنجو ستار[111] مرة عن فرقة البيتلز[112] إنها ليست أكبر مما كانت عليه في ليفربول في أواخر 1962. كانت تسافر فقط إلى بلدان أكثر. وهذا ما حدث لميلات. كان كبيرًا جدًا في كريكلوود وفي ولسدن وفي ويست هامبستيد في صيف 1990، بحيث أنه لاشيء فعله فيما بعد في

حياته يستطيع أن يتربع فوق هذا. ومنذ عصابته الراجستانية الأولى، وسّع وطور عصابات في المدرسة، وفي شمال لندن. وكان كبيرًا بحيث لا يمكنه البقاء كموضوع لحب آيري، قائد عصابة الراجاستانيين، أو ابن صمد والسانا إقبال. وكان عليه أن يسر جميع الأشخاص طوال الوقت. وبالنسبة لأولاد شرق لندن الأذكياء الذين يرتدون الجينز الأبيض والقمصان الملونة كان الجوكر والمجازف، وعشيق السيدات المحترمات، وبالنسبة للأطفال السود كان زميلًا مدخنًا للماريجوانا وزبونًا قيمًا. وبالنسبة للأطفال الآسيويين كان بطلًا وناطقًا باسمهم. كان حرباء اجتماعية. وتحت كل هذا بقي الغضب والألم حاضرين أبدًا، الشعور بعدم الانتماء الذي يشعر به الناس الذين ينتمون إلى كل مكان. وكان هذا الجزء المخبأ هو الذي جعله محبوبًا، وجعل آيري أكثر هيامًا به وكذلك فتيات المدرسة المتوسطة ذوات التنانير الطويلة وعازفات المزامير، وهامت به أكثر الإناث اللواتي يغنين الفوجا ويلوحن بشعرهن، فقد كان أميرهن الأسمر، والعاشق العابر أو الحب المستحيل، وموضوع الخيال التعرقي والأحلام الساخنة...

وكان أيضًا مشروعًا لهن: ما الذي يجب أن يفعلْنه مع ميلات؟ يجب أن يتوقف فقط عن تدخين الماريجوانا. يجب أن نحاول إيقافه عن الخروج من الصف. قلقن من موقفه أثناء النوم المتبادل، وناقشن تعليمه افتراضيًا مع أولياء أمورهن (قولي فقط هناك ذلك الفتى الهندي، نعم، الذي كان دومًا يدخل في...) حتى أنهن ألّفن قصائد عن الموضوع. أرادت الفتيات إما هو أو تحسينه، ولكن في غالب الأحيان رغبن بمزيج من الاثنين. أردن تحسينه إلى أن يبررن كمية رغبتهن به. وكان ميلات إقبال جذابًا لهن جميعًا.

قال ميلات للشهيدة آيري جونز: "لكنك مختلفة، أنت مختلفة. ننتمي إلى ماض. لدينا تاريخ. أنت صديقة حقيقية. إنهن لا يعنين أي شيء في الحقيقة بالنسبة لي".

أحبت آيري أن تصدق هذا: أن بينهما تاريخًا، أنها مختلفة بطريقة جيدة.

"إن سوادك هو الأجمل في رأيي..."

أسكتت الآنسة رودي فرانسيس ورفعت إصبعًا: "الآن، ما الذي يقوله هناك؟ أناليس؟"

أناليس هيرش، التي أمضت الدرس حتى الآن وهي تضفر خيطًا أحمر وأصفر في شعرها، نظرت إلى الأعلى في تشوش فارغ.

"أي شيء، يا عزيزتي أناليس، أية فكرة صغيرة، لا يهم كم هي صغيرة، ولا يهم كم هي تافهة".

عضت أناليس شفتيها ونظرت إلى الكتاب ثم نظرت إلى الآنسة رودي. نظرت إلى الكتاب من جديد.

"الأسود؟... هو؟... جيد؟"

"نعم... حسنًا، أعتقد أننا نستطيع إضافة هذا إلى إسهام الأسبوع الماضي: هاملت؟... هو؟... مجنون؟ أي شخص آخر؟ ماذا عن هذا؟ "بما أن كل شخص يمتلك قوة الطبيعة، وقادر على تجميل القبيح بالوجه المزيف المستعار للفن". أتساءل ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟"

رفع جوشوا تشالفن الفتى الوحيد في الصف الذي يتبرع بالآراء يده.

"تفضل يا جوشوا".

"الماكياج".

قالت السيدة رودي وهي تبدو قريبة من النشوة: "نعم يا جوشوا، هذا هو، ماذا عنه؟"

"لديها بشرة سوداء تحاول تخفيفها بوسيلة اصطناعية، أي بالماكياج. كان الإليزابيثيون أذكياء جدًا في التعامل مع الجلد الشاحب".

قال ميلات ساخرًا، لأن جوشوا كان شاحب البشرة، ومصابًا بفقر الدم، ومجعد الشعر وسمينًا: "كانوا سيحبونك إذًا. ستكون توم كروز اللعين".

علا الضحك، ليس لأن الكلام كان مضحكًا، بل لأن ميلات كان يضع الأحمق في المكان المناسب، في مكانه الطبيعي.

"كلمة أخرى منك يا سيد إكبول وسأطردك".

"شكسبير. متعرق. هراء. هذه ثلاثة أمور. لا تقلقي، سأخرج بنفسي".

كان هذا نوع الشيء الذي يفعله ميلات بخبرة. صفق الباب. نظرت الفتيات الجميلات إلى بعضهن بتلك الطريقة. (فقد السيطرة على نفسه، مجنون... في الواقع يحتاج إلى بعض المساعدة، مساعدة شخصية حقيقية من صديق جيد...) ضحك الفتيان بصخب. وتساءلت المعلمة إن كانت هذه بداية تمرد. غطت آيري بطنها بيدها اليمنى.

"مدهش. بالغون جدًا. أفترض أن ميلات إقبال هو بطل من نوع ما". شاهدت السيدة رودي للمرة الأولى وبوضوح كريه، وهي تنظر إلى الوجوه البليدة والغبية لطلاب الصف، أن هذا ما كانه: "هل لدى أي منكم ما يقوله عن هذه السونيتات؟ آنسة جونز! هل يمكن أن تتوقفي عن النظر نادبة إلى الباب. لقد ذهب، حسنًا؟ إلا إذا أردت أن تنضمي إليه؟"

"كلا يا سيدة رودي".

"حسنًا، إذًا. هل لديك أي شيء تقولينه عن السونيتات؟"

"نعم".

"ماذا؟"

"هل هي سوداء؟"

"من هي السوداء".

"السيدة السوداء".

"كلا، يا عزيزتي، إنها داكنة. ليست سوداء بالمعنى الحديث. لم يكن هناك... حسنًا، كاريبيون من أصل أفريقي في إنكلترا في ذلك الوقت يا عزيزتي. هذه ظاهرة حديثة، كما أنا متأكدة من أنك تعرفين. لكن حدث هذا في القرن السابع عشر. أعني لا أستطيع التأكد، لكن يبدو غير محتمل بشكل مريع، إلا إذا كانت عبدة من نوع ما، ومن غير المحتمل أنه كتب سلسلة من السونيتات لسدة ومن ثم لعبدة، أليس كذلك؟"

احمرت آيري. فكرت فقط حينئذ أنها رأت شيئًا ما كانعكاس لكنه كان

ينحسر وهكذا قالت: "أليس كذلك، يا آنسة؟"

"فضلًا عن ذلك، قال بوضوح شديد: لستِ سوداء في أي شيء إلا في أفعالك... كلا يا عزيزتي، لها بشرة داكنة فحسب، كما ترين، ربما داكنة كبشرتي".

نظرت آيري إلى السيدة رودي. كانت بلون قشدة الفراولة.

"كما ترين، جوشوا على صواب: إن التفضيل هو لنساء يكن شاحبات بشكل مفرط في تلك الأيام. تتحدث السونيتة عن الجدل بين لونها الطبيعي والماكياج الذي كان موضة في تلك الأيام".

"ظننت فقط... أنه حين قال، هنا: ثم هل سأقسم، أن الجمال نفسه أسود... شعر مجعد، وأسلاك سوداء..."

توقفت آيري في وجه الضحك وهزت كتفيها.

"كلا يا عزيزتي، أنت تقرئينها من منظور حديث. لا تقرئي أبدًا ما هو قديم من منظور حديث. في الحقيقة سيخدم هذا كمبدأ لليوم: هل تستطيعون أن تكتبوا كلكم هذا؟"

كتب طلاب الصف هذا وتراجع الانعكاس الذي شاهدته آيري إلى الظلمة المألوفة. وفي الطريق خارج الصف، مررت أناليس هيرش لآيري ورقة وهزت كتفيها كي تشير أنها ليست المؤلفة بل فقط واحدة من كثيرين. كتب فيها: "تأليف وليم شكسبير. أنشودة إلى ليتيتيا وكل عاهراتي ذوات الشعر المجعد والمؤخرات الكبيرة".

*****

كان المحل المسمى على نحو مشفّر "بي كيز أفرو هير: تصميم وإدارة "يتوضع بين مكتب فيرويزر لدفن الموتى وعيادة راكشان لطب الأسنان، وكان القرب الملائم يعني أنه لم يكن من غير الشائع مطلقًا لجثة من أصل أفريقي أن تمرّ عبر المؤسسات الثلاث في رحلته أو رحلتها الأخيرة إلى تابوت مفتوح. وهكذا حين تتصل من أجل موعد لقص الشعر، وتقول لك أندريا أو دينس أو جاكي تعال في الثالثة

والنصف بالتوقيت الجامايكي، فهذا يعني بشكل طبيعي تعال متأخرًا، لكن كان هناك أيضًا فرصة عنت أن سيدة ما تؤم الكنيسة باردة كالحجر مصممة على الذهاب إلى قبرها بأظافر طويلة اصطناعية وجدائل مكوية. وكان من الغريب أن هناك كثيرًا من الناس يرفضون اللقاء مع الرب بتسريحة أفرو.

آيري، الجاهلة لكل هذا، ظهرت من أجل موعدها في الثالثة والنصف بالضبط، ناوية التحول، ناوية مقاتلة جيناتها، ترتدي لفحة تخفي شعرها الذي كعش الطائر، ويدها اليمنى موضوعة على بطنها.

"هل تريدين شيئًا ما يا طفلة؟"

تريد شعرًا ناعمًا، يمكن تمسيده وقابلًا للقذف والهز واللمس وتمرير الإصبع فيه ومرور الريح وبهداب. ويغطي الجبين.

كان كل ما استطاعت آيري إيصاله هو: "الثالثة والنصف مع أندريا".

أجابت المرأة، وهي تقطع قطعة من علكة طويلة ومشيرة باتجاه مبنى فيرويزر: "أندريا في الغرفة المجاورة، تتسلى مع راحل عزيز. من الأفضل أن تجلسي وتنتظري ولا تزعجيني. لا أعرف كم ستغيب".

بدت آيري ضائعة، واقفة وسط الحانوت، ممسكة بدهنها. أشفقت عليها المرأة، بلعت علكتها وفحصت آيري، شعرت بتعاطف أكبر حين لاحظت بشرتها التي كالكاكاو وعينيها الفاتحتين.

"اسمي جاكي".

"آيري".

"شاحبة يا سيدة! نمش وكل شيء. هل أنت مكسيكية؟"

"كلا".

"عربية؟"

"نصف جامايكية، نصف إنكليزية".

"شرحت جاكي بصبر: "نصف منبوذة، هل أمك بيضاء؟"

"أبي".

جعدت جاكي أنفها: "عادة يكون الأمر هو العكس. كم هو مجعد؟ أريني ماذا هناك"- أمسكت لفحة آيري. آيري، مرعوبة من احتمال أن تتعرى في غرفة مليئة بالناس، وصلت إلى هناك قبلها وتمسكت بها بشدة.

امتصت جاكي أسنانها: "ما الذي تتوقعين منا أن نفعله به إذا كنا لا نستطيع رؤيته؟"

هزت آيري كتفيها. جاكي هزت رأسها، متسلية.

"لم تأت هنا من قبل؟"

"كلا، أبدًا".

"ما الذي تريدينه؟"

قالت آيري بحدة مفكرة بنيكي تايلر: "شعرًا مسترسلًا، وغامق الحمرة".

"حقًا! هل غسلت شعرك مؤخرًا؟"

"أمس"، قالت آيري، مستاءة. ربتت جاكي على طرف رأسها.

"لا تغسليه إذا أردتيه مسترسلًا، لا تغسليه! هل سبق واستخدمت الأمونيا على شعرك؟ إنه كالشيطان يقوم بحفلة على فروة رأسك. هل أنت مجنونة؟ لا تغسليه لمدة أسبوعين ثم عودي إلى هنا".

لكن آيري لم تكن تمتلك أسبوعين. وقد خططت لكل شيء، وستذهب إلى ميلات هذا المساء بشعرها الجديد المربوط في كعكة، وستنزع نظارتها وتهز شعرها وسيقول لها: آنسة جونز، لن أفترض أبدًا... لماذا يا آنسة جونز، أنت...

"يجب أن أفعل هذا اليوم. ستتزوج أختي".

"حسنًا، حين تعود أندريا ستحرق ستة أغطية من الخراء من شعرك وستكونين محظوظة إذا لم تخرجي من هنا صلعاء. وحينها ستكون جنازتك. خذي هذه"- قالت دافعة كومة من المجلات بين يدي آيري- "واجلسي هناك" قالت مشيرة إلى كرسي.

كان صالون بي كيز مقسومًا إلى جزء للذكور وآخر للإناث. وكانت تأتي من قسم الذكور موسيقى راجا متواصلة وقوية من مسجّلة متداعية، وكان للشبان

قصات تبرز شعارات معينة في خلفية رؤوسهم على يد فتيان أكبر في السن، يحملون بمهارة آلات حلاقة كهربائية، شعارات أديداس وبادموثا ومارتن. وكان القسم الذكوري مليئًا بالضحك والحديث واللعب، وهناك ارتياح ناتج عن أنه لا يوجد قصة ذكورية تكلف أكثر من ستة جنيهات أو تستغرق أكثر من 15 دقيقة. كان هناك تبادل بسيط بما يكفي وممتع: أزيز شفرة دائرة قرب أذنك، وتمشيط فظ إلى الأسفل بيد دافئة، مرايا في الأمام والخلف للإعجاب بالتحول. تدخل برأس من الصعب إرضاؤه، غير مستو وخشن، مقنّعًا تحت قبعة بيسبول وتغادر بسرعة فيما بعد رجلًا جديدًا، تفوح منك رائحة زيت جوز الهند العذبة وبقصة حادة ونظيف كشتيمة.

وبالمقارنة، كان القسم النسائي لبي كيز شيئًا مميتًا. ففيه تتصارع الرغبة المستحيلة للاسترسال و"الحركة" يوميًا مع التصميم العنيد لخصلات الشعر الأفريقية الملتفة، وتتطوع هنا الأمونيا والأمشاط الحارة والمشابك والدبابيس والنار البسيطة كلها في الحرب وتقوم بكل ما هو أكثر إزعاجًا فيها كي تهزم الشعر المجعد وتجبره على الطاعة.

"هل هو مسترسل؟" كان السؤال الوحيد الذي تسمعه حين تُزاح المناشف عن الرؤوس خارجة من المجفف نابضة بالألم. "هل هو مسترسل يا دينيس؟ أخبريني، هل هو مسترسل يا جاكي؟"

وبالنسبة لهذا الأمر فإن جاكي أو دينيس اللتين لا تملكان أيًا من التزامات مزيّنات الشعر البيض، وليستا مضطرتين لإعداد الشاي أو تقبيل المؤخرات أو الإطراء أو القيام بمحادثة (ذلك أن هؤلاء لم يكونوا زبائن بالمعنى الحقيقي بل مرضى يائسين وبائسين)، تصدران نخرة شكية وتنفضان الرداء المصفر من التقيؤ. "إنه مسترسل كما سيكون أبدًا".

أربع نساء يجلسن أمام آيري الآن، يعضضن شفاههن، ويحدقن متعمدات في مرآة قذرة طويلة، منتظرات تجسّد ذواتهن ذات الشعر المسترسل. وبينما كانت آيري تقلب بعصبية في مجلات الشعر الأسود الأميركية جلست النساء الأربع

مقطبات من الألم. أحيانًا كانت واحدة تقول للأخرى: "كم سيستغرق الأمر؟" فيجيء الرد الفخور: "خمس عشرة دقيقة. كم بالنسبة لك؟" "22 دقيقة. توضّع هذا الخراء على شعري لمدة عشرين دقيقة. من الأفضل أن يصبح مسترسلًا".

كان تنافسًا في الألم، كمثل النساء الغنيات في مطاعم أنيقة يطلبن دائمًا صحون سلطة أصغر.

أخيرًا تصدر صرخة، أو: "هذا هو! اللعنة، لا أستطيع تقبّله!" ويسرع بالرأس المعني إلى المغسلة، حيث الغسل لا يمكن أن يكون سريعًا بما يكفي أبدًا (لا تستطيع التخلص من الأمونيا في شعرك بسرعة) ويبدأ البكاء الصامت. عند هذه النقطة يصعد العداء، ويصبح شعر بعض الأشخاص أكثر تشابكًا من الآخرين، ويقاتل بعض الأفارقة بصعوبة أكبر، والبعض يبقون على قيد الحياة. وينتشر العداء من الزبونة إلى المزيّنة، مُسلِّطةِ هذا الألم، ذلك أنه كان طبيعيًا بما يكفي الشك بجاكي أو دينيس بممارسة شيء كالسادية: كانت أصابعهن بطيئة جدًا وهما تعملان، وبدا أن المياه تتجمع أكثر مما تتدفق، وفي غضون ذلك يقضي الشيطان وقتًا ممتعًا في إحراق شعرك على نحو سيّئ جدًا.

"هل هو مسترسل يا جاكي، هل هو مسترسل؟"

كان الفتيان يقوّسون رؤوسهم حول الحائط الفاصل، رفعت آيري عينيها عن المجلة. كان هناك القليل لقوله. وكان الشعر كله يخرج مسترسلًا أو مسترسلًا بما يكفي. لكنه كان يخرج أيضًا ميتًا وجافًا ومتناثرًا وصلبًا، بعد أن يذهب ربيعه، كمثل شعر جيفة تنحسر فيه الطراوة.

كانت جاكي أو دينيس تعرفان جيدًا أن الخصلات الأفريقية المجعدة ستتبع في النهاية تعليماتها الجينية، ولهذا تطعّمان الأخبار السيئة بوجهة نظر فلسفية: "إنه مسترسل كما سيكون دومًا. ثلاثة أسابيع إذا كنت محظوظة".

وعلى الرغم من الفشل الواضح للمشروع شعرت جميع النساء اللواتي في الدور أنه سيكون مختلفًا بالنسبة إليهن، وأنه حين يحين وقت إزاحة الستار عنهن، سيحصلن على الشعر المسترسل القابل للتمسيد والخصلات التي تلعب

بها الريح. آيري، المليئة بالثقة كالأخريات، عادت إلى مجلتها.

مليكة، النجمة الشابة المليئة بالحيوية للمسرحية التي حققت نجاحًا هائلًا "حياة مليكة"، شرحت كيف تعتني بشعرها المفرود والمتدفق: "ألفّه وهو دافئ كل مساء، متأكدة أن النهايات مشمعة بشكل خفيف بمادة أفريكان كوين أفرو شين، ثم في الصباح، أضع المشط على المدفأة تقريبًا ل..."

عادت أندريا فانتُشلت المجلة من يدها، وأُزيل غطاء رأسها بشكل غير طقسي قبل أن تستطيع إيقاف هذا، وبدأت خمسة أصابع طويلة وواضحة المعالم تشق طريقها في فروة رأسها.

"أوووه"، قالت أندريا.

كانت علامة الموافقة هذه حادثة نادرة كافية لبقية الزبائن في المحل كي يدوروا حول الحاجز ويلقوا نظرة.

قالت دينيس، مضيفة أصابعها لأندريا: "آه! "مسترسل كثيرًا".

سيدة أكبر في السن، تتألم تحت المجفف، هزت رأسها بإعجاب.

"يا له من شعر مجعد ولين"، قالت جاكي، متجاهلة مريضتها المتألمة كي تمد يدها إلى صوف آيري.

"هذا شعر من سلالتين مختلفتين. أتمنى لو كان شعري مثله. سيسترخي هذا يا جميلة".

تجهم وجه آيري وقالت: "أكرهه".

قالت دينيس للحشد: "إنها تكرهه. إن لونه بني فاتح في بعض المواضع".

قالت أندريا مستيقظة من خدرها: "كنت أتعامل مع جثة طيلة الصباح. سيكون ظريفًا أن أضع يدي في شيء ناعم، تريدين جعله مسترسلًا يا عزيزتي؟"

"نعم أريده مسترسلًا، مسترسلًا وأحمر".

ربطت أندريا رداء أخضر حول عنق آيري وأخفضت رأسها إلى كرسي دائر: "لا تعرفين عن الأحمر يا عزيزتي. لا تستطيعين أن تصبغيه وتجعليه يسترخي في اليوم نفسه. هذا يقضي على الشعر. لكن أستطيع أن أجعله مسترسلًا لك، لا

يوجد مشكلة. سيخرج جميلًا يا عزيزتي".

كان التواصل بين مزينات الشعر في بي كيز سيئًا لهذا لم يخبر أحد أندريا أن آيري غسلت شعرها. بعد دقيقتين من رش الأمونيا على رأسها، شعرت بالإحساس البارد الأول يتحول إلى نار مريعة. لم يكن هناك أوساخ لحماية فروة الرأس، وبدأت آيري بالصراخ.

"لقد وضعته لتوي! تريدينه مسترسلًا، أليس كذلك؟ توقفي عن إصدار هذه الضجة!"

"لكن يؤلمني".

قالت أندريا بازدراء: "الحياة تؤلم. الجمال يؤلم!"

عضت آيري لسانها لثلاثين ثانية أخرى إلى أن ظهر الدم فوق أذنها اليمنى ثم غشي على الفتاة المسكينة.

صحت ورأسها فوق المغسلة مراقبة شعرها الذي كان يمر في كتل راقصة في البالوعة.

صاحت أندريا: "كان يجب أن تخبريني. كان يجب أن تخبريني أنك غسلتيه. يجب أن يكون متسخًا أولًا. والآن انظري".

الآن انظرو، كان الشعر الذي وصل إلى فقراتها الوسطى يبعد بضع بوصات عن رأسها فقط.

واصلت أندريا، بينما كانت آيري تبكي بصوت مرتفع: "أترين ماذا فعلت. أود أن أعرف ما الذي سيقوله السيد بول كينغ عن هذا. من الأفضل أن أتصل به كي أرى إن كان بوسعه حل المشكلة لك مجانًا".

كان السيد بول كينغ. بي كي يملك المكان. وهو رجل أبيض كبير في السن، في أواسط الخمسينيات، وعمل مقاولًا في تجارة الأبنية حتى الأربعاء الأسود [113] وأخذ الصرف المفرط للبطاقة الائتمانية التي لزوجته كل شيء عدا بعض الآجر والملاط. بحث عن فكرة جديدة، وقرأ في قسم أسلوب الحياة في صحيفة فطوره أن النساء السوداوات يصرفن أكثر بخمس مرات من البيضاوات على منتجات

التجميل وأكثر بتسع مرات على شعرهن. آخذًا زوجته شيلا كنموذج للمرأة البيضاء، بدأ بول كينغ يريّل. وأدى بعض البحث في مكتبته المحلية إلى صناعة تدرّ ملايين الجنيهات. حينئذ اشترى بول كينغ محل لحام غير مستخدم في ولسدن، منطقة الطريق السريع، واصطاد أندريا من صالون هارلسدين، وبدأ مهنة حلاقة شعر السود فحقق نجاحًا فوريًا. وذُهل حين اكتشف أن النساء ذوات الدخل المنخفض هن في الحقيقة مستعدات لإنفاق مئات الجنيهات على شعرهن وأكثر على أظافرهن وإكسسواراتهن. وقد استمتع بغموض حين شرحت أندريا في البداية له أن الألم الجسدي هو أيضًا جزء من العملية، والجزء الأفضل منه أنه لا يوجد إمكانية للمحاكمة، فهن يتوقعن الحروق. وكان هذا عملًا تامًا.

قال بول كينغ صائحًا في موبايل يشبه شكله الآجرّة في ضجة بناء صالونه الذي فتحه في ويمبلي: "تابعي يا أندريا، يا حبي، امنحيها هدية ترويحية مجانية، لكن لا تجعلي هذه عادة".

عادت أندريا إلى آيري بأخبار جيدة: "سنصحح شعرك يا عزيزتي. وهذا على حسابنا".

نظرت آيري إلى صورتها التي تشبه هيروشيما وقالت: "لكن ماذا، ماذا تستطيعين ... "

"ارتدي لفحتك، اخرجي وانعطفي إلى اليسار ثم سيري على الطريق السريع إلى أن تصلي إلى حانوت يدعى روشي للعناية بالشعر. خذي هذه البطاقة وقولي لهم إن پي كيز أرسلك. أحضري ثماني علب من نوع رقم 5 من الشعر الأسود بلمعان أحمر وتعالي هنا بسرعة.

كررت آيري من خلال المخاط والدموع: "شعر؟ شعر مستعار؟"

"أيتها الفتاة الغبية. ليس مستعارًا. إنه حقيقي. وحين يكون على رأسك سيكون شعرك الحقيقي. هيا!"

باكية كطفلة، انطلقت آيري خارج پي كيز وعلى الطريق السريع محاولة تجنب انعكاسها في نوافذ الحوانيت. وصلت إلى محل روشيز، وبذلت ما في وسعها

كي تتماسك، ووضعت يدها اليمنى على بطنها ودخلت.

كان الجو مظلمًا في محل روشيز وتفوح منه مثل محل بي. كيز رائحة الأمونيا وزيت جوز الهند، والألم ممتزجًا بالمتعة، ومن الوهج الباهت الصادر عن ضوء تعري متذبذب، استطاعت آيري أن تشاهد أنه لا يوجد هناك رفوف بل منتجات شعر متكومة كالجبال من الأرض حتى الأعلى، بينما الإكسسوارات (أمشاط، ربطات، ملمع أظافر) مثبتة على الحائط والسعر مكتوب بالقلم إلى جانبها. وكان العرض الوحيد لأي نوع يمكن التعرف عليه موضوعًا تمامًا تحت السقف في دائرة حول الغرفة حيث بدت الأشياء كمجموعة من فروات الرأس القربانية أو غنائم صيد. وكان هناك شعر، وضفائر طويلة مثبتة منفصلة بوصات عن بعضها. وتحت كل منها لافتة كرتونية كبيرة تشرح مواصفاتها:

متران. تايلندي طبيعي، مسترسل. كستنائي

متر. باكستاني طبيعي. مسترسل ومتموج. أسود

5 أمتار. صيني طبيعي. مسترسل. أسود

3 أمتار. شعر اصطناعي. مجعد وملتف كفتاحة نبيذ. قرمزي.

اقتربت آيري من الكاونتر. امرأة سمينة جدًا ترتدي الساري تتمايل نحو درج النقود وتعود ثانية كي تسلم 25 جنيها لفتاة هندية قُص شعرها بشكل خطير قريبًا من فروة الرأس.

"من فضلك لا تنظري إليّ بهذه الطريقة. 25 سعر معقول جدًا. أقول لك لا تنفعني في شيء هذه النهايات المنفصلة".

اعترضت الفتاة بلغة أخرى، التقطت الحقيبة المعنية عن الطاولة وتصرفت كأنها ستغادر بها لكن المرأة الكبيرة انتزعتها منها.

"من فضلك لا تحرجي نفسك أكثر. كلانا رأى النهايات. 25 هو كل ما أستطيع دفعه لك. لن تحصلي على أكثر في مكان آخر. من فضلك الآن" - قالت ناظرة فوق كتف الفتاة إلى آيري - "لدي زبونة أخرى".

شاهدت آيري دموعًا ساخنة، لا تختلف عن دموعها، تقفز إلى عيني الفتاة.

بدت كأنها ستتجمد للحظة، ارتجفت قليلًا من الغضب ثم خبطت بيدها على الكاونتر، سحبت الخمسة وعشرين جنيهًا واتجهت إلى الباب.

هزت السيدة السمينة فكيها احتقارًا خلف الفتاة التي اختفت: "غير ممتنة".

ثم نزعت لصقة من ورقتها البنية ووضعتها وضغطتها على كيس الشعر. كتب عليها: 6 أمتار. هندي. مسترسل. أسود\أحمر.

"نعم يا عزيزتي، ماذا أستطيع أن أفعل لك؟"

كررت آيري توجيهات أندريا وسلمتها البطاقة.

"ثمانية علب؟ هذا حوالي ستة أمتار، أليس كذلك؟

"لا أعرف".

"نعم، هذا هو. تريدينه مسترسلًا أم متموجًا؟"

"أريده مسترسلًا، جدًا".

قامت السيدة السمينة بحساب صامت ثم التقطت حقيبة الشعر التي تركتها الفتاة لتوها: "هذا ما تبحثين عنه. لم أقدر على حزمه، أتفهمين. لكنه نظيف تمامًا. تريدينه؟"

بدت آيري مترددة.

"لا تقلقي مما قلته. لا يوجد نهايات متباعدة. فقط الفتاة السخيفة تحاول أن تحصل على أكثر مما تستحق. بعض الناس لا يفهمون الأنور البسيطة في الاقتصاد... يؤلمها أن تقص شعرها وهكذا تتوقع مليون جنيه أو شيئًا جنونيًا. شعر جميل. لديها شعر جميل. حين كنت شابة، آه، كان شعري جميلًا أيضًا." انفجرت السيدة السمينة في ضحك صاخب، شفتها العليا المنشغلة جعلت شاربها يرتعش. تلاشت الضحكة.

"أخبري أندريا أن السعر 37 جنيهًا وخمسين سنتًا. نحن النساء الهنديات لدينا شعر جميل. الجميع يريدونه".

كانت امرأة سوداء معها طفلان في عربة لتوأم تنتظر خلف آيري. امتصت أسنانها: "أنتم أيها البشر تعتقدون أنكم جميعا مهمون"، تمتمت، وكانت نصف

التمتمة لنفسها.

"بعضنا سعداء بشعرنا الأفريقي، شكرًا جزيلًا لك. لا أريد أن أشتري شعر فتاة هندية مسكينة. وأتمنى من الله لو أستطيع أن أشتري منتجات شعر من السود مرة. كيف نشق طريقنا في هذه البلاد إذا لم نقم بعملنا الخاص؟"

صار الجلد حول فم السيدة السمينة مشدودًا جدًا. بدأت تتحدث بسرعة كبيرة، واضعة شعر آيري في حقيبة وكاتبة وصلًا لها، موجهة كل تعليقاتها على المرأة من خلال آيري، بينما كانت تفعل ما بوسعها كي تتجاهل اعتراضات المرأة: "لا تحبين التسوق هنا إذًا من فضلك لا تتسوقي هنا، هل نجبر أحدًا؟ كلا. هذا مذهل، أعني الوقاحة، أنا لست عنصرية، لكن لا أستطيع فهم هذا، أنا أقدم خدمة فحسب، خدمة. لا أحتاج إلى الإساءة، اتركي نقودك على الكاونتر فقط، إذا كنت أتلقى الإساءة، لن أخدم".

"لا أحد يسيّئ إليك. يا يسوع!".

"هل هذا خطئي إن كانوا يريدون الشعر مسترسلًا، وبشرة أكثر بياضًا أحيانًا، مثل مايكل جاكسون، هل هذا خطئي أيضًا؟ يطلبون مني ألا أبيع مبيض الدكتور بيكوك (صحيفة محلية، يا إلهي، أية إثارة هذه) ثم يشترونه، خذي الوصل إلى أندريا، يا عزيزتي، من فضلك؟ أنا أحاول فقط أن أكسب رزقي في هذه البلاد كمثل البقية. هناك أنت، يا عزيزتي، وهذا شعرك".

مدت المرأة يدها خلف آيري ووضعت الفكة الصحيحة على الكاونتر بخبطة تنم عن غضب. "اللعنة!"

"لا أستطيع أن أتحمل الأمر إذا كان هذا ما يريدونه: العرض والطلب واللغة السيئة. لن أسمح بهذا. اقتصاديات بسيطة، انتبهي إلى خطوتك وأنت خارجة يا عزيزتي، وأنت، لا تعودي من فضلك، سأتصل بالشرطة، لا أقبل التهديد، الشرطة، سأتصل بهم".

"نعم، نعم، نعم"،

فتحت آيري الباب للعربة المزدوجة، ووقفت في جانب كي تساعد في حملها

فوق الدرجة الأمامية. في الخارج وضعت المرأة دبابيس شعرها في جيبها. بدت متعبة جدًا.

قالت: "أكره هذا المكان، لكنني أحتاج إلى دبابيس الشعر".

قالت إري: "أحتاج للشعر".

هزت المرأة رأسها وقالت: "لديك شعر".

بعد خمس ساعات ونصف، وبفضل عملية حماسية شملت تضفير شعر شخص آخر في أقسام صغيرة مع شعر آيري الذي بطول إنشين وتصميفه، امتلكت آيري جونز رأسًا كاملًا من الشعر الأسود المائل للحمرة، المسترسل والطويل.

سألت غير مصدقة دليل عينيها: "هل هو مسترسل؟"

قالت أندريا معجبة بعملها اليدوي: "مسترسل كالجحيم، لكن حبيبتي يجب أن تضفريه بشكل ملائم إذا أردتيه أن يبقى. لماذا لا تتركيني أضفره لك؟ لن يبقى إذا كان مرتخيًا هكذا".

قالت آيري من صورتها في المرآة: "سيبقى، يجب أن يبقى".

ميلات يجب أن يراه مرة واحدة، أخيرًا، مرة واحدة. ولضمان وصولها إليه في حالة تامة، سارت كل الطريق إلى بيت إقبال ويداها حول شعرها، مرعوبة من أن تسقطه الريح.

فتحت ألسانا الباب: "آه، مرحبًا. كلا. ليس هنا. في الخارج. لا تسأليني أين هو، لا يخبرني أي شيء. أعرف أين ماجد معظم الوقت".

سارت آيري إلى منتصف المدخل وألقت نظرة مختلسة على نفسها في المرآة. لا يزال هناك وفي الموقع الملائم.

"هل أستطيع الانتظار هنا؟"

"بالطبع. تبدين مختلفة عزيزتي. هل فقدت وزنًا؟"

توهجت آيري: "قصّة جديدة".

"آه نعم... تبدين كمذيعة. جميل جدًا، الآن في غرفة الجلوس من فضلك،

إن ابنة أخت العار وصديقتها الكريهة هنا، لكن حاولي ألا تسمحي لهما بإزعاجك. أنا أعمل في المطبخ وصمد يعشّب، وهكذا أخفضي الصوت".

سارت آيري إلى غرفة الجلوس. صاحت نينا على الشكل القادم: "يا للجحيم! اللعنة ما هذا الشكل الذي تبدين فيه!"

بدت جميلة. بدت بشعر مسترسل، غير مجعد وجميل.

"تبدين كشخص غير طبيعي! اللعنة! ماكسين، انظري إلى هذه. يا يسوع يا آيري. ما الذي تهدفين إليه بالضبط؟"

ألم يكن واضحًا؟ شعر مسترسل. الاسترسال. إمكانية تمسيد الشعر.

"أعني ما الخطة الكبيرة؟ الزنجية ميريل ستريب؟"

استدارت نينا وضحكت بصخب.

جاء صوت ألسانا من المطبخ: "يا ابنة الأخ الجالبة للعار! الخياطة تتطلب التركيز، اخرسي، يا ثرثارة، من فضلك".

صديقة نينا المزعجة، المعروفة باسم عشيقة نينا، وهي فتاة مثيرة ونحيلة تُدعى ماكسين لها وجه خزفي جميل، وعينان داكنتان والكثير من الشعر البني المجعد، شدت خصلات شعر آيري الغريبة: "ما الذي فعلتيه؟ كان شعرك جميلًا. كان مجعدًا وبريًا. كان رائعًا".

لم تستطع آيري أن تقول شيئًا للحظة. لم تفكر باحتمال أن تبدو إلا رائعة.

"قصصت شعري فقط، ما المشكلة؟"

قالت نينا، بعد أن هزت الشعر وكوفئت بحفنة منه: "لكن هذا ليس شعرك، اللعنة، هذا شعر امرأة باكستانية فقيرة مضطهدة تحتاج إلى النقود من أجل أولادها. آه، اللعنة!"

أصيبت نينا وماكسين بانتكاسة هستيرية.

"توقفا عن ذلك فحسب"، انسحبت آيري إلى كرسي الذراعين ووضعت ركبتيها تحت ذقنها. محاولة أن تبدو عادية، ثم سألت:

"أين ميلات؟"

سألت نينا مندهشة: "هل هذا هو الهدف من كل هذا. ابن العم الأبله هذا؟"

"كلا، كفي عني".

"حسنًا، ليس هنا. لديه فتاة جديدة، وهي لاعبة جمباز من الكتلة الشرقية بمعدة كلوح الغسيل. ليست جذابة لكن صدرها رائع، ومؤخرتها مشدودة كالجحيم. الاسم... الاسم؟"

"ستاسيا، أو هراء ما"، قالت ماكسين، حارفة نظرها قليلًا عن البرنامج الموسيقي "توب أوف ذ بوبز". غاصت آيري عميقًا في النوابض المكسورة لكرسي صمد المفضلة.

"آيري، هل ستقبلين نصيحة؟ منذ أن عرفتك، كنت تتبعين ذلك الفتى ككلب ضائع، وفي ذلك الوقت قبّل الجميع، الجميع إلاك. لقد قبّلني حتى، وأنا ابنة خالته، اللعنة".

قالت ماكسين: "وأنا، على الرغم من أنني لست ميالة إلى ذلك".

"ألم تتساءلي لماذ لم يقبلك أبدًا؟"

"لأنني دميمة وسمينة وبعرق أفريقي".

"كلا يا ذات الوجه اللعين، لأنك كل ما لديه. لأنه يحتاج إليك. أنتما الاثنان لديكما تاريخ. تعرفينه حقًا. انظري كم هو مشوش. يومًا ما سيكون هذا أو ذاك. في المرة التالية ستكون الشقراوات ذات الأثداء الكبيرة، لاعبات الجمباز الروسيات ثم سيدخن الماريجوانا المركزة. لا يعرف مؤخرته من كوعه، مثل والده تمامًا. لا يعرف من هو. لكنك تعرفينه، على الأقل قليلًا، تعرفين كل تفاصيله. يحتاج إلى هذا وأنت مختلفة".

دوّرت آيري عينيها. أحيانًا تريد أن تكون مختلفًا. وفي أحيان أخرى تمنح شعر رأسك كي تكون مثل الآخرين.

"استمعي، أنت فتاة ذكية يا آيري، لكن تم تعليمك كل أنواع الخراء، يجب أن تعيدي تعليم نفسك، أدركي قيمتك، وتوقفي عن تحويل نفسك إلى عبدة، واحصلي على حياة يا آيري. احصلي على فتاة، على شاب، لكن احصلي

على حياة".

قالت ماكسين بعذوبة: "أنت فتاة مثيرة جدًا يا آيري".

"نعم. صحيح".

قالت نينا، مداعبة شعر ماكسين بعطف ومقبلة لها: "ثقي بها، إنها سحاقية معربدة، لكن الحقيقة هي أن قصة باربرا ستراسناد [114] التي حصلتِ عليها لا تنفعك في شيء. كان الشعر الأفريقي جميلًا وشريرًا، كان لك".

فجأة ظهرت ألسانا على المدخل بصحن ضخم من البسكويت ونظرة من الشبهة الشديدة. نفخت لها ماكسين قبلة.

"هل تريدين البسكويت يا آيري؟ تعالي وتناولي بعض البسكويت. معي. في المطبخ".

قالت نينا: "لا تخافي يا عمتي. فقط نطوعها في عبادة سافو".

"لا يهمني ماذا تفعلان. ولا أعرف ماذا تفعلان. لا أريد أن أعرف أشياء كهذه".

"نحن نشاهد التلفزيون".

كانت مادونا على الشاشة، تعمل بيديها حول ثديين لهما شكل مخروطي.

قالت ألسانا وهي تنظر إلى ماكسين: "جميل جدًا. هل تريدين البسكويت يا آيري؟"

تمتمت ماكسين محركة رمشيها الصارخين: "أريد بعض البسكويت".

"أنا متأكدة"، قالت ألسانا، مشيرة إلى المطبخ بتجهم. تبعتها آيري إلى الخارج.

شكت ألسانا، حالما صارا لوحدهما: "أنا ليبرالية مثل أي شخص، ولكن لماذا يجب أن تضحكا دومًا وتصدرا ضجة حول كل شيء؟ لا أستطيع تصديق أن المثلية هي مسلية إلى هذا الحد. أكيد أن الانجذاب إلى الآخر المغاير غير ممتع".

قال صمد جامد الوجه، داخلًا من الحديقة وواضعًا قفازه الخاص بالتعشيب على الطاولة: "لا أعتقد أنني أريد سماع هذه الكلمة في المنزل ثانية".

"أي واحدة؟"

"أيًا منهما. أحاول أن أفعل ما بوسعي كي أدير منزلًا إلهيًا".

رأى صمد شخصًا جالسًا إلى طاولة مطبخه عابسًا، واكتشف أنه آيري جونز وبدأ الروتين الصغير الذي يتبادله الاثنان: "مرحبًا يا آنسة جونز. كيف والدك؟"

هزت آيري كتفيها في اللحظة المناسبة: "أنت تراه أكثر مما نفعل. كيف هو الله معك؟"

"جيد جدًا، شكرًا لك. هل شاهدتِ ولدي الذي لا ينفع لشيء مؤخرًا؟"

"لم أشاهده مؤخرًا".

"ماذا عن ابني الجيد؟"

"لم أشاهده لسنوات".

"هل ستقولين للذي لا ينفع لشيء أنه لا ينفع لشيء حين ترينه؟"

"سأفعل ما بوسعي يا سيد إقبال".

"ليباركك الله".

"وأنت أيضًا".

"والآن، اعذريني". مد صمد يده إلى سجادة صلاته فوق البراد وغادر الغرفة.

سألت آيري، ملاحظة أن صمد ألقى سطوره بحماس أقل: "ما مشكلته؟ يبدو حزينًا".

تنهدت ألسانا: "إنه حزين. يشعر أنه خرب كل شيء، وبالطبع خرّب كل شيء، لكن ثانية، من سيرمي أول حجر، إلخ... يصلي ويواصل الصلاة. لكن لن ينظر مباشرة إلى الحقائق: ميلات يتجول مع من لا يعرف إلا الله أي نوع من البشر، دومًا مع الفتيات البيض، وماجد..."

تذكرت آيري حبيبها الأول محاطًا بهالة زغبية من الكمال، الوهم الذي وُلد من خيبات أمل سببها لها ميلات مع مرور الأعوام.

"لماذا، ما المشكلة مع ماجد؟"

تجهمت ألسانا ومدت يدها إلى رف المطبخ العلوي، حيث كانت تضع ظرفًا وصل بالبريد الجوي ومررته إلى آيري. أخرجت آيري الرسالة والصورة التي في الداخل.

كانت الصورة لماجد، وهو الآن شاب طويل جميل الشكل. كان شعره الشعر الأسود الفاحم لأخيه لكن لم يكن ممشطًا إلى الأمام على وجهه بل كان مفروقًا إلى اليسار، ومسرحًا إلى الأسفل ومشدودًا خلف الأذن اليمنى. وكان يرتدي بذلة تويد وما بدا (على الرغم من أن المرء لا يستطيع التأكد، لم تكن الصورة جيدة) كالكرافات. كان يمسك بقبعة عريضة واقية من الشمس في إحدى يديه وفي الأخرى يمسك بيد الكاتب الهندي البارز السير ر. ف. ساراسواتي. كان ساراسواتي يلبس ثيابًا بيضاء وقبعة ذات حافة عريضة على رأسه، ويحمل عصا مبهرجة في يده المتحررة. كان كلاهما يتخذ وضعية تنم عن غرور نوعًا ما، ويبتسمان ابتسامة عريضة وينظران إلى العالم كله وكأنهما سيربتان بعضهما بقوة على الظهر أو فعلا ذلك لتوهما. كانت شمس منتصف النهار في الخارج وتقفز عن درجات جامعة دكا الأمامية حيث التقط المشهد كله.

أزاحت ألسانا لطخة عن الصورة بسبابتها.

"تعرفين ساراسواتي؟"

هزت آيري رأسها. كان هناك كتاب تعليمي إجباري بعنوان "رتق في الزمن" تأليف ر. في. ساراسواتي. وهو حكاية ممتعة ومحزنة عن الأيام الأخيرة للإمبراطورية.

"صمد يكره ساراسواتي. يسميه ردة استعمارية، لاعق لمؤخرات الإنكليز".

اختارت آيري فقرة عشوائيًا من الرسالة وقرأت بصوت مرتفع:

كما تشاهدون، كنت محظوظًا بما يكفي كي ألتقي بأروع كاتب هندي في يوم مشرق في آذار/مارس. بعد الفوز في مسابقة لكتابة المقالات (كان عنوان مقالتي هو: بنغلادش، لمن يجب أن تُعاد؟)، سافرتُ إلى دكا كي أستلم جائزتي (شهادة وجائزة مادية صغيرة) من الرجل العظيم نفسه في احتفال في الجامعة. أتشرف بالقول إنه أحبني وأمضينا أصيلًا ممتعًا معًا، ثم تناولنا الشاي

في لقاء طويل وحميمي تبعته نزهة في أمكنة دكا الأكثر جمالًا. وأثناء محادثاتنا الطويلة أثنى السير ساراسواتي على عقلي، حتى أنه ذهب بعيدًا وقال (وأقتطف هنا ما قاله حرفيًا):"شاب من الدرجة الأولى"، وهذا تعليق أعتز به، واقترح أن مستقبلي قد يكمن في دراسة القانون، والدراسة في الجامعة، أو حتى مهنته في الكتابة الإبداعية. أخبرته أن المهنة الأولى هي الأقرب إلى قلبي وقد نويتُ منذ وقت طويل أن أجعل البلدان الآسيوية أمكنة معقولة، حيث يسود النظام، ويتم الاستعداد للكارثة، ولا يتعرض فتى شاب للخطر من مزهرية ساقطة. هناك قوانين جديدة، وشروط جديدة مطلوبة (كما أخبرته) للتعامل مع مصيرنا المشؤوم، مع هذه الكارثة الطبيعية. لكنه صحح لي قائلًا:"هذا ليس مصيرًا، وفي غالب الأحيان نحن الهنود، ونحن الباكستانيين، ونحن البنغاليين، نرفع أيدينا ونصيح"هذا هو القدر!" في وجه التاريخ. لكن كثيرين منا غير متعلمين، وكثيرين لا يفهمون العالم. يجب أن نكون كالإنكليز. الإنكليز يقاتلون القدر حتى الموت ولا يُصْغون للتاريخ إلا إذا كان يقول لهم ما يرغبون بسماعه. نقول: يجب أن يكون. ليس عليه أن يكون. لا شيء يُفعل". في بعد ظهر أحد الأيام تعلمت من هذا الرجل العظيم أكثر...

"لم يتعلم أي شيء".

دخل صمد إلى المطبخ غاضبًا ووضع الأبريق على الموقد: "لم يتعلم أي شيء من رجل لا يعرف أي شيء. أين اللحية؟ أين عباءته؟ أين تواضعه؟ إذا قال الله ستحدث عاصفة، فستحدث عاصفة. إذا قال سيحدث زلزال، فسيحدث زلزال.

وبالطبع يجب أن يحدث. هذا هو السبب الذي أرسلتُ الفتى من أجله: أن يفهم أننا جوهريًّا ضعفاء، أننا لا نسيطر على شيء. ما الذي يعنيه الإسلام؟ ما الذي تعنيه الكلمة، الكلمة نفسها؟ أستسلم. أستسلم لله. هذه ليست حياتي، هذه حياته. هذه الحياة التي أدعوها حياتي هي له كي يفعل بها ما يشاء، وبالفعل، يجب أن أُقذف وأتقلب على الموجة، ولن أقدر على فعل أي شيء. لا شيء. إن الطبيعة نفسها مسلمة، لأنها تطيع القوانين التي ضمّنها الخالق فيها".

"لا تُبشِّرْ في هذا المنزل يا صمد مياه! هناك أمكنة لهذا النوع من الشيء. اذهب إلى المسجد، ولكن لا تفعل هذا في المطبخ، الناس سيأكلون هنا..."

"لكن نحن، لا نطيع بشكل آلي. نحن مخادعون، نحن الأوغاد المخادعون، نحن البشر. لدينا الشر في داخلنا، الإرادة الحرة. يجب أن نتعلم أن نطيع. هذا ما أرسلتُ الطفل ماجد محفوظ مرشد مبتسم إقبال كي يكتشفه. أخبريني، هل أرسلته كي يسمم ذهنه هندوسيٌّ يعبد حكم بريطانيا أيتها الملكة العجوز؟"

"ربما يا صمد مياه، وربما لا".

"لا تفعلي يا ألسي، أحذرك..."

جمعت ألسانا طياتها اللحمية الاحتياطية حولها كمصارع سومو: "آه، تابع، أيها الأبريق العجوز، تقول لا سيطرة لنا، مع ذلك حاولتَ دومًا أن تسيطر على كل شيء! اتركه يا صمد مياه. اترك الفتى. إنه جيل ثان، لقد وُلد هنا، وبشكل طبيعي سيفعل الأشياء بشكل مختلف. لا تستطيع أن تخطط لكل شيء. في النهاية، ما هو الأمر الكريه جدًا: أنه لا يتدرب كي يصبح رجل دين؟ لكنه متعلم ونظيف!"

"وهل هذا كل ما تطلبينه لابنك؟ أن يكون نظيفًا؟"

"ربما يا صمد مياه، ربما..."

"لا تتحدثي معي عن الجيل الثاني! ثمة جيل واحد غير قابل للانقسام، أبدي!".

في مكان ما في منتصف هذا الجدل خرجت آيري من المطبخ وتوجهت إلى الباب الأمامي. شاهدت لمحة لنفسها غير محظوظة في خدوش ولطخ مرآة الردهة،

بدت كالطفل الذي أنجبته ديانا روس وإنجلبرت همبردينك [115] دون زواج.

"يجب أن تجعلهم يرتكبون أخطاءهم..."، جاء صوت ألسانا من وطيس المعركة، مسافرًا عبر الخشب الرخيص لباب المطبخ ثم إلى الردهة، حيث كانت آيري تقف مواجهة صورتها المنعكسة، منشغلة بنتف شعر فتاة أخرى بيديها العاريتين.

*****

كان لمدرسة جلينارد أوك جغرافية معقدة كمثل أية مدرسة أخرى. لا يعني هذا أنها مصممة كالمتاهة على نحو خاص. فقد بُنيت في مرحلتين بسيطتين، أولًا في عام 1886 كإصلاحية للأحداث (النتيجة: بناء أحمر ضخم، مصح فكتوري) ثم وُسِّعَتْ في 1963 حين أصبحت مدرسة وكانت النتيجة مبنى حجريًا مفردًا في ريف نيو كاونسل استيت. ثم رُبط البناءان الكبيران في 1974 بجسر مشاة أنبوبي الشكل من البلاستيك الصلب. لكن الجسر لم يكن كافيًا لجعل المكانين واحدًا، أو لإبطاء تصميم الطلاب على التناثر أو التحول إلى فصائل. وتعلمت المدرسة على حسابها المكلف أنك لا تستطيع أن توحِّد ألف طالب تحت يافطة شعار لاتيني واحد (العمل صلاة)، فقد واصل الأطفال تعليم الأرض داخل الأرض كالقطط التي تتبول وتتغوط والخلود التي تحفر وتختفي، وكان لكل قسم قواعده ومعتقداته وقوانين اشتباكه الخاصة. وعلى الرغم من جميع المحاولات لمحاربة هذا، فقد احتوت المدرسة وحافظت على بقع وأمكنة للتسكع وحدود متنازع عليها ودول تابعة وحالات طوارئ وغيتوات وقطاعات وجزر. ولم يكن هناك خرائط لكن الحس السليم يخبرك مثلًا ألا تدخل المنطقة بين صناديق القمامة وقسم الحرف اليدوية. فقد سقط هناك ضحايا (وخاصة مَثَليٌّ مسكين يُدعى كيث وُضع رأسه في ملزمة)، أما الأطفال النحيلون والعضليون الذين يقومون بدوريات في هذه المنطقة فهم من النوع الذي يُنصح بعدم العبث معهم. كان الأطفال نحيلين لرجال سمينين بجرائد غير أخلاقية مشكّلة في جيوبهم الخلفية كالمسدسات،

رجال سمينين يؤمنون بالعدالة القاسية: حياة بحياة، وكان الشّنق *عقابًا جيّدًا* جدًا لهم.

وفي الجهة المقابلة هناك المقاعد، وكان ثلاثة منها في صف. وهي للمتخفين الذين يتعاملون في كميات صغيرة جدًا من المخدرات، ما يعادل جنيهين ونصفًا من مادة الماريجوانا، وكانت صغيرة بحيث يمكن أن تضيع في علبة أقلام الرصاص الخاصة بك ويمكن أن ألا تميزها عن قطعة مقطوعة من الممحاة، أو ربع حبة من حبوب النشوة، والتي كان الاستخدام الأعظم لها هو تهدئة آلام الدورة الشهرية الملحة بشكل خاص. ويمكن بسهولة إقناع السذج بعدد من البضائع المنزلية المتنوعة كشاي الياسمين وعشب الحديقة والأسبرين والعرقسوس والطحين، وكلها مموهة كمخدرات درجة أولى كي تُدخن أو تُبلع خلف المبنى في التجويف خلف قسم الدراما. إن هذا القسم المقعر من الحائط، وهذا يعتمد على أين تقف، يقدم إمكانية منخفضة للرؤية من قبل الأساتذة للمدخنين الصغار جدًا الذين لا يستطيعون التدخين في حديقة المدخنين (حديقة اسمنتية للذين وصلوا سن السادسة عشرة وسُمح لهم بأن يدخنوا حتى يشعروا بالدوخة، هل يوجد أية مدارس كهذه بعد الآن؟). وكان يجب تجنب تجويف الدراما. وكان أولئك أوغادًا صغارًا قساة في الثانية عشرة، ومدخنين متواصلين في الثالثة عشرة وهم لا يأبهون، وفي الحقيقة لا يكترثون بصحتك أو بصحتهم أو بالأساتذة وأولياء الأمور أو بالشرطة أو بأي كان. وكان التدخين هو جوابهم على الحياة والكون وسبب وجودهم. وكانوا متيمين بالسجائر ويسحبون منها كما يرضع الأطفال من الحلمات وحين ينتهون يضعونها في الطين بأعين دامعة. كانوا يحبونها كثيرًا. السجائر، السجائر، السجائر. وكان اهتمامهم الوحيد خارج السجائر هو السياسة، وبشكل أكثر دقة، ذلك اللعين، المستشار الذي يواصل رفع أسعار السجائر، لأنه لم يكن هناك أبدًا نقود كافية ولا سجائر كافية. ويجب أن تصبح خبيرًا في الطلب والتسول وسرقة السجائر. وكانت الحيلة المشهورة هي صرف نقود جيب أسبوع على عشرين سيجارة وتوزيعها على الجميع، وإمضاء الشهر

التالي مذكرًا الذين معهم سجائر بالوقت الذي أعطيتهم فيه سيجارة. لكن هذه كانت سياسة تنطوي على مجازفة عالية. ومن الأفضل أن يكون لديك وجه قابل للنسيان تمامًا، وأن تكون قادرًا على التسول من أجل سيجارة وتأتي بعد خمس دقائق من أجل أخرى دون أن يتم تذكرك، وأن تطور شخصية كالشفرة، وأن تكون فتى صغيرًا بلا ملامح يُدعى مارت أو جولز أو إيان، وإلا يجب أن تعتمد على العمل الخيري وتقاسم السجائر. يمكن أن تُقسم سيجارة واحدة بطرق كثيرة. ويعمل الأمر كالتالي: أحد ما (أي شخص اشترى بالفعل علبة سجائر) يشعلها. شخص ما يصيح "أنصاف". في نقطة في المنتصف نسمع "أثلاث"، ثم "أنصاف أثلاث"، ثم "عقب". ثم، إذا كان اليوم باردًا والحاجة للسيجارة طاغية: "سحبة أخيرة!" لكن السحبة الأخيرة هي فقط لليائسين، إنها وراء التقسيم، ووراء اسم نوع السيجارة، ووراء ما يمكن أن يوصف بشكل معقول كعقب. إن السحبة الأخيرة هي النسيج المصفرّ للعقب، يحتوي المادة التي هي أقل من تبغ، المادة التي تتجمع في الرئتين كقنبلة موقوتة، وتدمر جهاز المناعة وتسبب أنفلونزا دائمة شمية وأنفية، المادة التي تحول الأسنان البيضاء إلى صفراء.

كان الجميع في جلينارد أوك في العمل، كانوا البابليين الذين من جميع الطبقات المعروفة وجميع الألوان ويتحدثون لغات مجهولة، كل في زاويته الكادحة، أفواههم المشغولة المبخرة ترسل التقدمة النذرية من دخان التبغ للآلهة الكثيرة فوقهم (تقرير مدارس برينت 1990: 67 دينًا مختلفًا، 123 لغة مختلفة)

العمل صلاة:

مهووسون عند البركة يفحصون ممارسة الجنس لدى الضفادع.

الفتيات الغنيات المدللات في قسم الموسيقا يغنين أغاني فرنسية، ويتحدثن اللاتينية، ويتبعن حميات قائمة على أكل العنب، ويقمعن غرائز سحاقية.

الفتيان السمان في ممر التمارين الرياضية يستمنون.

الفتيات العصبيات خارج مجموعة اللغة يقرأن كتبًا عن الجرائم.

الأطفال الهنود يلعبون الكريكيت بمضارب تنس في ملعب كرة القدم.

آيري جونز تبحث عن ميلات إقبال.

سكوت بريز وليزا رينبو في المرحاض يمارسان الجنس.

جوشوا تشالفن وعفريت وعجوز وقزم خلف قسم العلوم، يلعبون لعبة "العفاريت ووحوش العالم السفلي"، والجميع، الجميع يدخنون السجائر، السجائر، السجائر، ويعملون بكد في تسولها وإشعالها والاستنشاق منها وجمع أعقابها وإعادة صناعة بعضها والاحتفاء بقوتهم في جمع الناس معًا عبر الثقافات والمعتقدات ولكن في معظم الوقت يدخنونها فحسب: أعطنا سيجارة، أمّن لنا سيجارة. ينفخون من السجائر كمداخن صغيرة إلى أن يصبح الدخان كثيفًا بحيث أن أولئك الذين غذوا المداخن في 1886، في أيام الإصلاحية، لن يشعروا أنهم خارج المكان.

وفي الضباب كانت آيري تبحث عن ميلات. بحثت في ملعب السلة وحديقة التدخين وقسم الموسيقا والكافتريا ومراحيض الجنسين والمقبرة التي خلف المدرسة. كان يجب أن تحذره. ستُشنّ غارة للقبض على المدخنين غير الشرعيين للماريجوانا أو التبغ، وهو جهد مشترك بين طاقم المدرسة والشرطة المحلية. فقد جاءت الشكاوى القوية من آرشي، ملاك الوحي، وسمعت محادثته الهاتفية والأسرار المقدسة لجمعية الآباء والمدرسين، وذهبت آيري حاملة الآن عبئًا أكثر ثقلا من عبء دارس الزلازل، ذهبت بالأحرى بعبء النبي، لأنها تعرف يوم وتوقيت الزلزال (اليوم في الثانية والنصف)، وكانت تعرف قوته (ربما الطرد)، ومن الذي من المحتمل أن يكون ضحيته على خط الزلزال. يجب أن تنقذه. ممسكة بلمة شعرها وبكتلتها الدهنية المتأرجحة ومتعرقة في البوصات الثلاث من الشعر الأفريقي، اندفعت عبر الأراضي، منادية اسمه، متحققة من الآخرين، ناظرة في جميع الأمكنة المألوفة، لكنه لم يكن مع أبناء شرق لندن من بائعي البضائع ولا مع الفتيات المدللات أو عصابة الأطفال الهنود أو الفتيان السود. ذهبت أخيرًا إلى بناء العلوم، ذلك الجزء من المصح القديم والزاوية الشرقية التي تقدم ثلاثين ياردة ثمينة من الأعشاب، حيث التلميذ المنغمس في أفعال غير شرعية يكون

مخبأ بشكل كامل عن الأعين العامة. وكان يومًا خريفيًا جافًا وجميلًا، وكان المكان مزدحمًا فاضطرت آيري للسير بين الأشخاص المشهورين بالقبل الفرنسية واللمس، ومشت فوق لعبة العفاريت ووحوش العالم السفلي التي لجوشوا تشالفن (هيْ! انتبهي لقدميك! انتبهي لكهف الموتى)، ومرت عبر كتيبة محكمة من مدخني السجائر قبل أن تصل إلى ميلات الذي كان في محور كل شيء، يسحب باقتصاد من سيجارة ماريجوانا على شكل مخروط، مصغيًا إلى شخص طويل بلحية طويلة جدًا.

"ميل".

"ليس الآن، يا جونز".

"لكن يا ميل!".

"من فضلك يا جونز. هذا هيفان. صديق قديم. أحاول أن أصغي إليه".

لم يتوقف الشخص الطويل هيفان عن الكلام. كان له صوت عميق ناعم كالمياه الجارية، حتمي ومتواصل، يتطلب قوة أقوى من الظهور المفاجئ لآيري وربما أقوى من الجاذبية لإيقافه. وكان يرتدي بذلة شديدة السواد، وقميصًا أبيض وربطة عنق خضراء. جيب صداره طُرز عليه رمز صغير، يدان تطوقان براحة كفيهما لسان لهب، وثمة شيء ما تحتهما من الصعب رؤيته. وعلى الرغم أنه ليس أكبر سنًا من ميلات، كانت غزارة نمو شعره مذهلة، ولحيته أظهرته بعمر أكبر بكثير.

"... وهكذا فإن الماريجوانا تُضعف قدرات الإنسان وقواه وتحرمنا من أفضل رجالنا في هذه البلاد: رجال مثلك يا ميلات، يملكون مهارات قيادية طبيعية، ويمتلكون داخلهم القدرة على إمساك يد الأشخاص ورفعهم. هناك حديث في كتاب البخاري، الجزء الخامس، الصفحة الثانية ذكر فيه أن النبي محمد قال إن خير الناس هم أبناء زمني والموالون لي. وأنت ابن زمني، يا ميلات، أعتقد أنك ستُصبح مواليًا لي أيضًا، هناك حرب قائمة يا ميلات، حرب".

واصل حديثه بهذه الطريقة، كلمة تتدفق خلف أخرى دون علامات ترقيم أو

نَفَس وبالكلام المعسول نفسه بحيث يستطيع المرء أن يتسلق إلى جمله وينام فيها.

"ميل، ميل، الأمر مهم".

بدا النعاس على ميلات إما من الماريجوانا أو أن هيفان لم يكن واضحًا. أبعد آيري عن كمه، وحاول تعريفهما.

"آيري، هيفان. كنت أنا وهو نخرج معًا، هيفان..."

خطا هيفان إلى الأمام، وبان فوق آيري كجرس برج.

"جيد أن ألتقي بك يا أخت. أنا هيفان".

"عظيم. ميلات".

مرر لها السيجارة: "آيري، اللعنة! هل يمكن أن تسكتي للحظة؟ أنا أحاول أن أصغي للشخص. هيفان هو الزعيم. انظري إلى البذلة... أسلوب العصابات!" مرر ميلات إصبعه على طية صدر سترته، وهيفان ضد غريزته الأفضل، توهج من المتعة. "أقول بكل جدية يا هيفان، تبدو شريرًا جدًا".

"نعم؟"

"أفضل من الملابس التي كنت تخرج فيها حين كنا نتسكع. أيام كلبرن. أتذكر حين ذهبنا إلى برادفورد و..."

تذكر هيفان نفسه. أعاد تلبّس وجهه السابق من التصميم الورع: "أخشى أنني لا أتذكر أيام كلبرن يا أخي. فعلت أشياء ناجمة عن الجهل آنذاك. كان ذاك شخصًا مختلفًا".

قال ميلات بارتباك: "بالطبع".

قرص ميلات هيفان مازحًا في كتفه فوقف هيفان منتصبًا كعمود البوابة.

"وهكذا، هناك حرب روحية لعينة تجري. وهذا جنوني. حان الوقت، يجب أن نترك أثرنا في هذه البلاد اللعينة. ما اسم جماعتك ثانية؟"

قال هيفان بفخر: "أنا من فرع كلبرن من حماة الأمة الإسلامية الأبدية المنتصرة".

استنشقت إري.

كرر ميلات، متأثرًا: "حماة الأمة الإسلامية الأبدية والمنتصرة، هذا اسم شرير، فيه صوت رفسة كونغ فو في المؤخرة".

تجهمت آيري: "منظمة كيفن؟"

قال هيفان بوقار، مشيرًا إلى البقعة التي تحت لسان اللهب المطوق بالكفين حيث الأحرف الأولى للأسماء مطرزة بشكل منمنم: "نحن واعون أن لدينا مشكلة في اختصار الاسم".

"فقط قليلا".

"لكن الاسم لله ولا يمكن تغييره... وكي أواصل ما كنت أقوله: ميلات، يا صديقي، يمكن أن تكون رئيس فرع كريكلوود..."

"ميل".

"يمكن أن تحصل على ما لدي، بدلًا من التشوش المريع الذي أنت فيه، بدلًا من هذا الاعتماد على مخدرات مستوردة خصيصًا من الحكومات لإخضاع الجماعة السوداء والآسيوية ولإضعاف قوانا".

قال ميلات بحزن، وهو في منتصف لف سيجارة ماريجوانا جديدة: "نعم، لا أنظر في الحقيقة إلى الأمر هكذا. أخمن أني يجب أن أنظر إليه هكذا".

"ميل".

"جونز، اسكتي قليلًا. أنا وسط جدل لعين. هيفان، في أي مدرسة أنت الآن يا صديق؟"

هز هيفان رأسه مبتسمًا: "تركت النظام التعليمي الإنكليزي منذ مدة. لكن تعليمي بعيد عن أن ينتهي. لو كان بوسعي أن أقتبس لك من التبريزي [116]، الحديث رقم 220: من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع".

همست آيري، تحت تدفق الصوت العسلي لهيفان: "ميل، ميل".

"اللعنة. ماذا؟ عفوًا يا هيفان. دقيقة واحدة".

سحبت آيري بعمق من سيجارتها ونقلت أخبارها. تنهد ميلات: "آيري، يأتون من جانب ونذهب من آخر. هذا ليس مهمًا. هذا شيء منتظم. حسنًا؟

والآن لماذا لا تذهبين وتلعبين مع الأولاد؟ ثمة عمل جدي هنا".

قال هيفان، مادًا يده وفاحصًا لها من الأعلى إلى الأسفل: "سررتُ بلقائك يا آيري، لو كان بوسعي قول هذا، منعش رؤية امرأة تلبس برزانة وشعرها قصير. تعتقد منظمة كيفن أن المرأة يجب ألا تشعر بالحاجة للانغماس في الأخيلة الإيروتيكية للجنسانية الغربية".

"آه، نعم، شكرًا لك".

شاعرة بالأسف على نفسها وأنها تجاوزت حدود نشوة الماريجوانا، شقت آيري طريقها عائدة عبر حائط من الدخان وخطت عبر لعبة جوشوا تشالفن العفاريت ووحوش العالم السفلي مرة أخرى.

"انتبهي، نحاول أن نلعب هنا".

استدارت آيري، مليئة بالغضب المكبوت: "و؟"

اندفع أصدقاء جوشوا، فتى سمين، فتى فيه بثور، وفتى برأس ضخم بشكل غير طبيعي، إلى الخلف خائفين. لكن جوشوا بقي في أرضه. كان يعزف على المزمار خلف الكمان الثاني المتوسط لآيري في أوركسترا المدرسة الفقيرة، وغالبًا ما لاحظ الشعر الغريب والكتفين العريضين واعتقد أنه يمكن أن يحصل على نصف فرصة هنا. كانت ذكية ولم تكن تخلو من الجمال، وكان هناك شيء فيها فيه نكهة غير عادية، على الرغم من ذلك الفتى الذي تمضي وقتها معه، ذلك الهندي الذي تعلقت به، لكنها لم تكن مثله. فكر بها جوشوا تشالفن بقوة كواحدة من فتياته. وكان هناك شيء فطري فيها شعر أنه يستطيع إخراجه. كانت مهاجرة بسيطة هربت من أرض السمينين، دميمة الوجه وذكية بشكل فاتن. تسلقت جبال كالدور وسبحت في نهر لفياثراكس، تحدت هوة دويلوين، في الاندفاع الجنوني بعيدًا عن رجال بلدها الحقيقيين إلى أرض أخرى.

"أنا أقول فحسب إنه ظريف منك أنك خطوت في أرض كولثون. هل تريدين أن تلعبي معنا؟"

"كلا، لا أريد أن ألعب معكم، أيها المنافقون. لا أعرفكم حتى".

"جوشوا تشالفن. كنت في مدرسة مانور الابتدائية. ونحن في درس الإنكليزية معًا".

"كلا، لسنا معًا. أنا في الأوركسترا. أنت في الأوركسترا. لا معنى لوجودنا معًا".

العفريت والكبير والقزم الذين يقدرون اللعب الجيد بالكلمات، ضحكوا من كلماتها والمخاط يسيل من أنوفهم. لكن الإهانات لا تعني أي شيء لجوشوا. كان جوشوا سيرانو دي بيرجراك في تلقي الإهانات. تلقى الإهانات (من الطرف المتعاطف: جوشوا السمين وبوش جوش واليهودي ذو الشعر المجعد، ومن الطرف الآخر: ذلك اليِبّي اللعين، ماص القضيب ذو الشعر الأجعد، آكل البراز)، تلقى إهانات لا حصر لها طول حياته لكنه بقي على قيد الحياة، خارجًا من الطرف الآخر كي يتباهى. وكانت الإهانة مجرد حصاة في طريقه، تبرهن فقط على الدونية الفكرية لمن يتفوه بها ولم يكن يكترث بالأمر.

"أحب ما فعلتيه بشعرك".

"هل تسخر؟"

"كلا، أحب الشعر القصير على الفتيات. أحب ذلك الشيء الخنثوي. بجدية".

"ما مشكلتك؟"

هز جوشوا كتفيه: "لا شيء. إن الاطلاع الأقل على النظرية الفرويدية الأساسية سيوحي بأنك الشخص الذي لديه مشكلة. من أين تأتي كل هذه العدوانية؟ أعتقد أن الهدف من التدخين هو أن يهدئك. هل أستطيع أن أتناول القليل منه؟"

كانت آيري قد نسيت سيجارة الماريجوانا المشتعلة في يدها: "آه، نعم، نحن مدخنون منتظمون، أليس كذلك؟"

"أشارك أحيانًا".

القزم، الكبير والعفريت أطلقوا بعض النخرات وأصوات السوائل.

تنهدت آيري وهي تمررها له: "آه، أكيد، مهما كان".

"آيري!".

كان هذا صوت ميلات. نسي أن يأخذ سيجارته من آيري وكان يركض الآن كي يستعيدها. آيري، التي كانت على وشك تسليمها لجوشوا، استدارت في منتصف الفعل وحين شاهدت ميلات يتقدم نحوها شعرت بهزة في الأرض، ارتجافة هزت جيش عفاريت جوشوا الصغيرة والمصبوبة من الحديد حتى ركبها ثم أسقطتها عن اللوح.

قال ميلات: "ما هذا؟"

كانت لجنة الغارة التي أخذت باقتراح الأب المشرف أرشيبالد جونز، وهو رجل خدم سابقًا في الجيش وادعى أنه خبير في ميدان الكمين، وقررت أن تهجم من الجهتين (لم يُختبر هذا من قبل)، واستخدمت فرقتهم المؤلفة من 100 من الأشخاص الأقوياء عنصر المفاجأة، دون سابق إنذار مما حجب صوت أقدامهم وطوقوا الأوغاد الصغار، قاطعين بالتالي أي طريق نجاة للعدو وقبضوا على ميلات إقبال وإري جونز وجوشوا تشالفن متلبسين بتدخين الماريجوانا.

*****

كان ناظر مدرسة جلينارد أوك في حالة متواصلة من الانهيار، ارتفع خط شعره وبقي متدفقًا كموجة مصممة، وكان محجرا عينيه عميقين وقام بزم شفتيه، ولم يكن لديه جسد يمكن التحدث عنه، أو بالأحرى طوى ما كان لديه في طرد صغير ملتف، وختمه في زوج من الذراعين المتصالبين والساقين الموضوعتين فوق بعضهما. وكما لو أنه يريد أن يواجه هذا الانهيار الشخصي الداخلي، رتب المدير الجلوس في دائرة واسعة، واعتقد أن هذه إشارة واضحة ستساعد الجميع على التحدث ورؤية بعضهم بعضًا، وسيسمح هذا للجميع بأن يعبروا عن وجهة نظرهم ويُسْمعوا أصواتهم كي يساهموا معًا في حل المشكلة بدلًا من اللجوء إلى العقاب بسبب سلوكهم. وكان بعض أولياء الأمور قلقين من أن المدير ليبرالي جدًا ومتسامح مع أخطاء من هذا النوع. ولو

سألت تينا، سكرتيرته (لا يعني هذا أنه لم يسأل أحد تينا عن أي شيء، آه كلا، لا خوف، فقط أسئلة من قبيل: ما الذي سيحدث لأولئك الأوغاد الثلاثة، إذًا؟)، لكان الأمر أشبه بالنزف.

سأل المدير تينا بابتسامة كئيبة: "وهكذا، ما الذي سيحدث لأولئك الأوغاد الثلاثة، إذًا؟"

بقلق، قرأت تينا ثلاث عواقب تمخضت عن امتلاك الماريجوانا. رفعت آيري يدها كي تعترض، لكن المدير أصمتها بابتسامة لطيفة.

قال المدير واضعًا يديه بحيث كانت راحتا الكف في الأعلى ومسطحتين على ركبتيه كي يبين أنه لم يكن يحمل أية أسلحة: "تينا، هذا كل شيء. اتركي من فضلك الباب مفتوحًا جزئيًا في طريقك إلى الخارج، نعم، هكذا، قليلًا أكثر... رائع، لا أريد أن يشعر أحد بالحجز. حسنًا، الآن... أعتقد أن هذه هي الطريقة الأكثر تحضرًا لفعل هذا، وهكذا كي لا يقاطع بعضنا بعضًا، أقول كلامي ويقول كل منكم كلامه، ونبدأ بك يا ميلات وننتهي بجوشوا، وبعد أن نفهم كل ما قيل، سأقول كلامي الأخير وهذا هو الأمر. غير مؤلم نسبيًا. هل هذا جيد؟ حسنًا".

قال ميلات: "أحتاج إلى سيجارة".

عدّل المدير جلسته. رفع قدمه اليمنى ورمى قدمه اليسرى النحيلة إلى الأعلى بدلًا من ذلك، ورفع السبابة والإصبع الذي يليها إلى شفتيه في شكل برج كنيسة، أرجع رأسه إلى الخلف كسلحفاة.

"ميلات، من فضلك".

"هل لديك منفضة سجائر؟"

"كلا، الآن، هيا يا ميلات..."

"سأذهب وأدخن واحدة عند البوابات إذًا".

بهذه الطريقة، كانت المدرسة كلها تجبر المدير. لا يستطيع أن يجعل ألف طفل يقفون في صف في شوارع كريكلوود ويدخنون السجائر مسيئين إلى سمعة المدرسة. وكان هذا عصر وضع المراتب وأولياء الأمور المدققين الذين يتصفحون

ملحق التايمز التربوي، ملخصين المدارس في أحرف وأرقام وتقارير المفتشين. وأجبر المدير على إطفاء أجهزة إنذار الحريق لفصول أحيانًا مخبئًا مدخنيه الألف داخل المدرسة.

"آه... استمع، قرّب كرسيك من النافذة فحسب. هيا، لا تصنع قصة من الموضوع. هذا هو الأمر. حسنا؟"

تدلت سيجارة لامبرت آند بتلر من شفتي ميلات. "ولاعة؟"

فتش المدير في جيب قميصه، حيث توجد علبة من تبغ اللف الألماني وولاعة مدفونتين بين الكثير من المحارم وأقلام الحبر.

"خذ". أشعل ميلات، نافخًا الدخان باتجاه المدير. سعل المدير كرجل عجوز.

"حسنًا يا ميلات، ابدأ أولًا، لأنني أتوقع هذا منك، على الأقل، بحْ لنا بالسر".

قال ميلات: "كنت هناك، خلف مبنى العلوم، بسبب مسألة تتعلق بالنمو الروحي".

انحنى المدير إلى الأمام وربت بإصبعيه على شفتيه لبضع لحظات: "يجب أن تعطيني معلومات أكثر كي أعمل عليها يا ميلات. إذا كان هناك بعض الصلة الدينية، يمكن أن يعمل هذا فقط لصالحك، لكن يجب أن أعرف عنها".

أوضح ميلات: "كنت أتحدث مع زميلي هيفان".

هز المدير رأسه: "أنا لا أفهم عليك يا ميلات".

"إنه زعيم روحي. كنت أتلقى بعض النصيحة".

"هيفان، زعيم روحي؟ هل هو في المدرسة؟ هل نتحدث عن طائفة دينية هنا؟ أريد أن أعرف إن كنا نتحدث عن طائفة؟"

صاحت آيري منهكة: "كلا، ليست طائفة دينية. هل يمكن الدخول في الموضوع. لدي درس موسيقى بعد عشر دقائق".

"ميلات يتحدث يا آيري. نحن نصغي لميلات. ونأمل أن نصل إليك، سيمنحك ميلات من الاحترام أكثر مما أبديت له. حسنًا؟ يجب أن يكون لدينا

بعض التواصل. حسنًا، ميلات، واصل. أي نوع من الزعيم الروحي؟"

"مسلم. كان يساعدني في ديني. هو رئيس فرع كريكلوود لحماة الأمة الإسلامية الأبدية والمنتصرة".

تجهم المدير: "منظمة كيفن؟"

شرحت آيري: "هم واعون أن لديهم مشكلة في اختصار الأحرف".

واصل المدير بلهفة: "وهكذا، هذا الشخص من منظمة كيفن. هل كان هو الشخص الذي يقدم عدة التدخين؟"

قال ميلات مطفئًا سيجارته على زجاج النافذة: "كلا. كانت عدتي. كان يتحدث معي وكنت أدخنها".

قالت آيري بعد عدة لحظات أخرى من الجدل البيزنطي: "هذا بسيط جدًا. الماريجوانا لميلات. وأنا دخنتها دون أن أفكر، ثم أعطيتها لجوشوا كي يمسكها لثانية كي أشد رباط حذائي وفي الحقيقة لا علاقة له بها. حسنًا؟ هل نستطيع الذهاب الآن؟"

"نعم، فعلت".

استدارت آيري إلى جوشوا: "ماذا؟"

"إنها تحاول التغطية عليّ. كانت الماريجوانا لي. كنت أتاجر بها، ثم قفزت عليّ الخنازير".

"آه، يا يسوع المسيح. أنت مجنون يا تشالفن".

ربما. لكن في اليومين الماضيين حظي جوشوا بالمزيد من الاحترام وصار يربته على الظهر المزيد من الأشخاص، وحقق بعض التميز هنا أكثر مما فعل طيلة حياته. وبدا كأن شهرة ميلات قد انعكست عليه، وبالنسبة لآيري سمح "لاهتمام غامض" بأن يتطور، في اليومين الماضيين إلى حب كامل. وبصرف النظر عن هذا شعر بحب كبير لكليهما. كان هناك شيء مغر فيهما أكثر من إلجين القزم أو مولوك الساحر. وأحب أن يرتبط بهما، مهما كان هذا واهيًا. فقد انتزعه كلاهما من البلادة، وبالمصادفة خرج من الغموض إلى ضوء المدرسة. ولم يكن يعود بدون صراع.

"هل هذا صحيح يا جوشوا؟"

"نعم، بدأت المسألة بشكل خفيف، لكنني أعتقد الآن أنه لدي مشكلة حقيقية، لا أريد التعامل بالمخدرات، من الواضح أنني لا أريد، لكنه يبدو مثل إكراه..."

"آه، كرمى لله..."

"الآن، آيري، يجب أن تتركي جوشوا يتحدث. كلامه صالح ككلامك".

مد ميلات يده إلى جيب المدير وسحب علبة سجائره الثقيلة. رمى المحتويات على الطاولة الصغيرة.

"تشالفن، يا فتى الغيتو، قم بتحديد ثمنٍ من هذا".

نظر جوشوا إلى الجبل المنتن للون البني: "ثمنًا أوربيًا أم ثمنًا إنكليزيًّا".

قال المدير مستاء، مائلًا إلى الأمام على كرسيه كي يفحص التبغ: "هل تستطيع فقط أن تفعل كما يقترح ميلات، وهكذا نستطيع أن نحل المسألة".

بأصابع مرتجفة سحب جوشوا قسمًا من التبغ إلى راحة كفه ورفعها. رفع المدير يد جوشوا تحت أنف ميلات من أجل التفتيش.

قال ميلات بازدراء: "كمية تعادل خمسة جنيهات تقريبًا. لن أشتري الخراء منك".

قال المدير، معيدًا التبغ إلى علبته: "حسنًا يا جوشوا، أعتقد أننا نستطيع أن نقول بأمان إن اللعبة انتهت. حتى أنا عرفت أن هذا الثمن غير دقيق. لكن يقلقني أنك شعرت بالحاجة للكذب ويجب أن نرتب وقتًا للتحدث عن هذا".

"نعم، سيدي".

"لقد تحدثت مع أولياء أموركم، وانسجامًا مع سياسة المدرسة البعيدة عن سلوك العقوبة والقريبة من إدارة السلوك البناءة، اقترحوا بكرم برنامجًا لمدة شهرين".

"برنامجًا؟"

"أنت يا ميلات وأنت يا آيري ستذهبان إلى منزل جوشوا كل ثلاثاء وكل

خميس وتنضمان إليه في مجموعة دراسية لمدة ساعتين بعد انتهاء الدوام وستكون موزعة بين الحساب والبيولوجيا، موضوعكما الأضعف وموضوعه الأقوى".

قالت آيري: "أنت لست جادًّا؟"

"تعرفين أنني جادّ. أعتقد أن هذه فكرة ممتعة في الحقيقة. بهذه الطريقة يمكن مشاطرة نقاط قوة جوشوا بشكل متساو بينكما، وكلاكما يمكنه الذهاب إلى بيئة مستقرة، تحميكما من الشوارع. تحدثتُ مع والديكما وهما سعيدان بهذا الترتيب. وما هو مثير في الحقيقة هو أن والد جوشوا عالم بارز وأمه عالمة بستنة، كما أظن، وستستفيدان كثيرًا من هذا في الحقيقة. أنتما تمتلكان الكثير من الإمكانيات، لكنني أشعر أنكما عالقان في جو معرقل لها لا أعرف إن كان بيئة عائلية أو مشاحنات شخصية، لكن في الحقيقة هناك فرصة جيدة للهرب من ذلك. آمل أن تفهما أن هذه ليست عقوبة، بل بناء، أنه أشخاص يساعدون أشخاصًا، وآمل في الحقيقة أن تفعلا هذا بصدق، إن عملًا من هذا النوع ينتمي إلى تاريخ وروح وأخلاق جلينارد أوك، منذ زمن السير جلينارد نفسه.

*****

يمكن تتبُّع تاريخ وروح وأخلاق مدرسة جلينارد أوك، كما يعرف أي جليناردي كفء إلى السير إدموند فليكر جلينارد (1842-1907) الذي قررت المدرسة إحياء ذكراه كمتبرع فكتوري كريم جدًا بها. وصرح الناطق الرسمي للحزب أن جلينارد تبرع بالنقود للبناء الأصلي بسبب اهتمام صادق بالتحسين الاجتماعي للمحرومين. وبدلًا من إصلاحية وصف كتيب رابطة المدرسين وأولياء الأمور المكان "كمأوى، ومكان عمل ومؤسسة تعليمية"، واستُخدم في حينه من قبل خليط من الإنكليز والكاريبيين. وبحسب هذا الكتيّب، كان المؤسس جلينارد أوك فاعل خير في مجال التعليم. لكن آنذاك، وبحسب الكتيّب، "كانت فترة الإصلاح بعد الصفوف بديلًا ملائمًا لكلمة حجز".

وكشف بحث أكثر شمولًا في أرشيف مكتبة جرانجي أن السير إدموند فليكر

جليناردكان مستعمرًا ناجحًا جمع مبلغًا كبيرًا من المال من مزارع جامايكا للتبغ، أو بالأحرى كان يشرف على مساحات شاسعة من الأراضي التي يُزرع فيها التبغ. وبعد عشرين عامًا من هذا العمل، وبعد أن كسب مبالغ مالية هائلة تجاوزت حاجته، جلس السير إدموند متكئًا على كرسيه ذي الذراعين الجلدي والفاخر وتساءل إن كان هناك شيء ما يجب أن يفعله، شيء ما من أجل شيخوخته يستند إلى شعور من الإرادة الطيبة والقيمة، شيء ما للناس الذين يستطيع أن يراهم من نافذته هناك في الحقل.

احتار السير إدموند لعدة شهور. ثم في يوم أحد، وهو يتنزه في وقت فراغه في أواخر الأصيل في كينجستون، سمع صوتًا مألوفًا لكن وقعه كان مختلفًا. كان غناء ربانيًا، وتصفيقًا بالأيدي وبكاء وعويلًا. كان ضجيجًا وحرارة وحركة انتشائية وكل هذا خرج من كنيسة إثر أخرى وتعالى في الجو الكثيف لجامايكا كخورس لامرئي. فكّر السير إدموند: الآن وجدتها! ذلك أنه على عكس كثيرين من أنداده الوطنيين السابقين، الذين وسموا الغناء بأنه مواء واتهموه بأنه وثني، فقد تأثر السير إدموند دومًا بورع المسيحيين الجامايكيين. وأحب فكرة كنيسة مرحة، يستطيع المرء فيها أن يشم أو يسعل أو يقوم بحركة مفاجئة دون أن يرمقه الكاهن بشكل غريب. وتيقّن السير إدموند من أن الرّب، بكل حكمته، لم يرد أن تكون الكنيسة أبدًا مسألة بائسة بياقة صلبة كما كانت في تنبريدج ويلز، بل مليئة بالمرح والغناء والرقص، فيها خبطٌ بالأقدام وتصفيق بالأيدي. فهم الجامايكيون هذا. وبدا أحيانًا كأنه الشيء الوحيد الذي فهموه. وحين توقف السير إدموند للحظة خارج كنيسة مليئة بالحيوية، انتهز الفرصة كي يفكر بهذا اللغز: الفرق اللافت بين الإيمان الجامايكي بإلهه وإيمانه برب عمله. وكان موضوعًا امتلك سببًا كي يفكر به مرات كثيرة في الماضي. وفي هذا الشهر، حين جلس في مكتبه محاولًا التركيز على المشكلة التي طرحها هو نفسه، جاء إليه حراسه بأخبار ثلاثة إضرابات، إذ عُثر على عدد من الرجال نائمين أو مخدرين أثناء العمل، ومجموعة كاملة من الأمهات (بينهن نساء بودن) يشكين من الأجر المنخفض، ويرفضن العمل. الآن،

ترون، ما هو السبب هناك. بوسعك أن تجعل الجامايكي يصلي في أية ساعة من النهار أو الليل، وسيذهب إلى الكنيسة من أجل أي موعد له أهمية دينية، حتى الأكثر غموضًا، لكن إذا حرفتَ عينك عنه للحظة واحدة في حقول التبغ، يتوقف العمل. وحين يتعبّد الجامايكيون يكونون مليئين بالطاقة، ويتحركون كحبات الفاصوليا النطاطة المكسيكية، ويصيحون في الممرات... لكن حين يعملون يكونون خامدين وغير متعاونين. حيّرتْه المسألة فكتب رسالة حول الموضوع إلى صحيفة جلينر [117] في أوائل العام داعيًا إلى المراسلة لكنه لم يتلق ردودًا مقنعة. وكلما فكر إدموند بالأمر توضح له أن الموقف هو العكس تمامًا في إنكلترة. إن المرء يعجب بإيمان الجامايكي لكنه يشعر باليأس من أخلاق العمل لديه ومن تعليمه، لكنه على العكس من ذلك، يعجب بأخلاق عمل الإنكليزي وتعليمه لكنه ييأس من إيمانه الخفيف. والآن بعد أن حان وقت عودة السير إدموند إلى عقاراته أدرك أنه في موقع يستطيع من خلاله أن يؤثر بالموقف، بل أكثر من ذلك، أن يحوله. السير إدموند، الذي كان رجلًا بدينًا، والذي بدا كما لو أنه يخفي رجلًا آخر داخله، قطع الطريق كله مشيًا إلى البيت.

في اليوم التالي كتب رسالة حماسية جدًا إلى صحيفة التايمز وتبرع بأربعين ألف جنيه لمجموعة تبشيرية بشرط أن يُخصص المبلغ لشراء بناء كبير في لندن يستطيع الجامايكيون أن يعملوا فيه جنبًا إلى جنب مع رجال إنكليز ويعلّبوا سجائر السير إدموند ويتلقوا تعليمات عامة من الرجال الإنكليز في المساء، وسيبُنى مصلى صغير كملحق للمصنع الرئيسي. وواصل السير إدموند قائلًا إنه في أيام الأحد سيأخذ الجامايكيون الرجال الإنكليز إلى الكنيسة كي يبينوا لهم كيف يكون التعبّد.

بُني البناء وبعد أن وعدهم باستعجال بشوارع من الذهب، شحن السير إدموند ثلاثمائة جامايكي إلى شمال لندن. وبعد أسبوعين أرسل الجامايكيون من الجانب الآخر من العالم برقية إلى جليناردز مؤكدين وصولهم الآمن فردَّ ببرقية مقترحًا وضع شعار لاتيني تحت اللوحة التي تحمل اسمه وهو: العمل

صلاة. سارت الأمور جيدًا وبشكل معقول لبعض الوقت. وكان الجامايكيون متفائلين حيال إنكلترة. نسوا المناخ القارس وأدفأهم من الداخل حماس السير إدموند المفاجئ واهتمامه برفاههم. لكن السير إدموند كان دومًا يواجه صعوبات في الاحتفاظ بالحماس والاهتمام. وكان عقله شيئًا صغيرًا بثقوب واسعة تنز منها العواطف بشكل منتظم، وبسرعة حلت مكان إيمان الجامايكيين في الغربال المقلوب لوعيه اهتمامات أخرى مثل إثارة العسكريين الهندوس، وافتقار العذراء الإنكليزية للبعد العملي، وتأثير الحرارة المفرطة في الميول الجنسية لسكان ترينيداد. وفي الخمس عشرة سنة التالية، وبصرف النظر عن شيكات منتظمة كان يرسلها موظف السير إدموند، لم يسمع مصنع جلينارد أوك منه أي شيء. ثم مات جلينارد في زلزال كينجستون في 1907 مسحوقًا تحت تمثال مادونا رخامي سقط عليه بينما كانت جدة آيري تنظر إليه. (هذه أسرار قديمة ستخرج كأضراس العقل حين يحين الوقت) وكان الموعد سيئًا. وفي ذلك الشهر نفسه خطط أن يعود إلى الشواطئ البريطانية كي يرى كيف كانت تعمل تجربته التي أهملها طويلًا. وكتب رسالة ذكر فيها تفاصيل خطط أسفاره وصلت إلى جلينارد أوك في حوالي الوقت نفسه الذي عبرت فيه دودة لمدة يومين دماغه، وبزغت من أذن المسكين اليسرى. لكن على الرغم من تحوله إلى وجبة للديدان أُنقذ جلينارد من كارثة كريهة، وكانت تجربته تسير بشكل سيّئ لأن نفقات شحن تبغ مبلل وثقيل إلى إنكلترة لم تكن عملية منذ البداية، وحين جفت معونات السير إدموند منذ ستة أشهر تدهور العمل واختفت المجموعة التبشيرية دون إعلان مسبق، وغادر الإنكليز كي يبحثوا عن وظائف أخرى. أما الجامايكيون، غير القادرين على تأمين وظائف في أمكنة أخرى، فقد بقوا وعدّوا الأيام إلى أن نفدت مؤونة الطعام. وصاروا الآن يعرفون جيدًا الصيغ الشرطية وجدول الضرب وحياة وأزمنة وليم الفاتح وطبيعة مثلث متساوي الأضلاع، لكنهم كانوا جائعين. ومات البعض من الجوع، وسُجن البعض الآخر من أجل جرائم تافهة حث عليها الجوع، وزحف البعض بارتباك إلى شرق لندن

والطبقة العمالية الإنكليزية. ووجد البعض أنفسهم بعد سبعة عشر عامًا في معرض الإمبراطورية البريطانية لعام 1924 مرتدين ملابس جامايكية في المعرض الجامايكي ويمثلون صورة مريعة زائفة عن وجودهم السابق (طبول صفيح، عقود مرجانية)، ذلك أنهم كانوا إنكليزًا الآن، أكثر إنكليزية من الإنكليز بفضل خيبات أملهم. وفي المجمل، كان المدير مخطئًا: لا يمكن القول إن جلينارد شيّد أية منارة فكرية وأخلاقية لأجيال المستقبل. إن الإرث ليس شيئًا تمنحه وتحصل عليه باختيارك، ولا يوجد حقائق في العمل المزعج للميراث. وربما أفزعه عمله، وتبين أن تأثير جلينارد شخصي، وليس مهنيًا ولا تعليميًا: سرى في دم الناس ودم عائلاتهم، سرى عبر ثلاثة أجيال من المهاجرين الذين شعروا بأنهم جائعون وتم التخلي عنهم حين كانوا في كنف عائلاتهم أمام وليمة كبيرة، وقد مر حتى عبر عائلة بودن الجامايكية التي تنحدر منها آيري جونز، على الرغم من أنها لم تعرف هذا، لكن لا بد أن أحدًا ما أخبرها أن تنظر إلى الخلف إلى جلينارد، وجامايكا المكان الصغير الذي تستطيع أن تجتازه سيرًا على الأقدام في يوم واحد، وكل من عاش هناك احتك بالجميع في وقت أو آخر.

*****

سألت آيري: "هل حقًا لدينا خيار؟"

قال المدير عاضًا شفته التي لا لون لها: "كنت صادقة معي وسأكون صادقًا معك".

"ليس لدينا خيار".

"بصدق، كلا. إما هذا أو شهران من الدراسة والمتابعة بعد الصف بسبب الانحراف. أخشى أنه يجب علينا أن نرضي الناس يا آيري. وإذا كنا لا نستطيع أن نرضي الناس جميعًا طيلة الوقت، نستطيع على الأقل أن نرضي بعض..."

"نعم، عظيم".

"إن والديْ جوشوا رائعان يا آيري. أعتقد أن هذه التجربة ستكون تعليمية لك. ألا تظن هذا يا جوشوا؟"

توهج جوشوا: "نعم، أعتقد هذا في الحقيقة".

قال المدير، مفكرًا بصوت مرتفع: "ثم إن الشيء المثير هو أن هذا يمكن أن يكون مشروع حقل تجارب لسلسلة كاملة من البرامج، إحضار أطفال المحرومين أو الأقليات للاتصال مع أطفال ربما لديهم شيء يقدمونه لهم. ويمكن أن يحدث تبادل خبرات: أطفال يعلمون أطفالًا كرة السلة، وكرة القدم، إلخ. يمكن أن نحصل على تمويل". عند لفظ الكلمة السحرية تمويل، بدأت عينا المدير الغائصتان تختفيان خلف جفنين مهتاجين.

قال ميلات، هازًا رأسه غير مصدق: "شيء مزعج، يا رجل. أحتاج إلى سيجارة".

قالت آيري وهي تتبعه: "سنتقاسمها".

قال جوشوا: "إلى اللقاء الثلاثاء".

12

أنياب: الأسنان المُمزِّقة

إذا لم تكن المقارنة بعيدة، فإن الثورة الجنسية والثقافية التي عشناها في العقدين السابقين لا تبعد مليون ميل عن ثورة البسْتنة التي حدثت في حدودنا العشبية وأحواضنا المغمورة. كنا في السابق راضين بأزهارنا التي تنمو في المناسبات، مرة كل سنتين، والتي كانت ألوانها فقيرة وتبزغ بوهن من التربة وتتفتح عدة مرات في السنة (إذا كنا محظوظين)، لكننا الآن نطلب كلًا من التنوع والاستمرارية في أزهارنا، والألوان العاطفية للتفتحات الغرائبية 365 يومًا في السنة. وحيث كان العاملون في البستنة يُقْسمون بأن النبتة الملقحة لنفسها والتي فيها يُنْقل غبار الطلع من سداة إلى ميسم الزهرة نفسها (إخصاب ذاتي) موثوقة، صرنا أكثر حبًا للمغامرة الآن، ونسعى بشكل إيجابي إلى مدح التلقيح المتقاطع حيث يُنْقل غبار الطلع من زهرة إلى أخرى في النبتة نفسها (التلاقح المتبادل) أو إلى زهرة نبتة أخرى من النوع نفسه. وفي هذه الحالة يجب الاهتمام بالطيور والنحل والضباب الكثيف لغبار الطلع. نعم، إن التلقيح الذاتي هو

الأبسط والأدق في عمليتيْ التخصيب، وخاصة للأنواع الكثيرة التي تُسْتعمر من خلال التكرار النسخي للسلالة الأبوية نفسها. لكن الأنواع التي تستنسخ سلالة متشابهة كهذه تجازف بالقضاء على مجموعة كاملة بحادث نشوئي واحد. وفي الحديقة، كما في الساحة الاجتماعية والسياسية، يجب أن يكون التغير هو الثابت الوحيد. وقد تعلم آباؤنا وأزهار البتونيا الخاصة بهم هذا الدرس بطريقة صعبة: إن تقدم التاريخ يخلو من العاطفة، ويسحق تحت قدميه جيلًا وحولياته بتصميم لا يرحم.

إن الحقيقة هي أن التلاقح ينتج سلالة أكثر تنوعًا وأكثر قدرة على التكيف مع بيئة متغيرة. لقد قيل إن النباتات المتلاقحة تميل أيضًا إلى إنتاج بذور من نوعية أفضل. وإذا أخذنا ابني الذي بعمر سنة كمثال (تلاقح بين نسوية مختصة بالبستنة وكاثوليكية مهملة لدينها ويهودي مفكر!) حينها يمكنني أن أجزم بحقيقة هذا. يا شقيقاتي، إن الجوهر هو هذا: إذا أردنا أن نواصل وضع أزهار في شعرنا في العقد التالي، يجب أن تكون قادرة على الاحتمال ومتوفرة دومًا، وهذا شيء لا يمكن أن يضمنه إلا البستانيّ الذي يعتني كالأم. وإذا رغبنا بتوفير ملاعب سعيدة لأولادنا وزوايا تأمل لأزواجنا، يجب أن ننشئ حدائق متنوعة وممتعة. إن الأم الأرض عظيمة ووفيرة الخيرات، لكنها تحتاج إلى المساعدة بين فينة وأخرى!

جويس تشالفن، من "قوة الزهرة الجديدة"،
نُشر في 1976، كاتربيلار برس

ألفت جويس تشالفن كتابها "قوة الزهرة الجديدة" في علية مطلة على حديقتها الخاصة المليئة بالنباتات المتسلقة في صيف 1976 القائظ. كانت بداية رائعة لكتاب صغير غريب يتحدث عن العلاقات أكثر مما يتحدث عن الأزهار، وقد باع جيدًا وباستمرار في أواخر السبعينيات (لم يكن ضروريًا لطاولة القهوة، لكن إذا ألقيتَ نظرة متفحصة على رفوف كتب المولودين بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ستراه متوضعًا يعلوه الغبار ومهملًا قرب تلك الكتب المألوفة مثل الدكتور سبوك [118] وشيرلي كونران [119] ونسخة تالفة من كتاب الحياة الثالثة لجرانج كوبلاند من تأليف أليس ووكر [120] وإصدار وومنز برس. لم تفاجئ شعبية كتاب قوة الزهرة الجديدة أحدًا أكثر من جويس. فقد ألّف هذا الكتاب نفسه بشكل خاص، واستغرق ثلاثة أشهر فقط أمضت معظمها لابسة قميصًا قصيرًا وزوجًا من السراويل الداخلية كي تهزم الحرارة، وكانت تُرْضع جوشوا في أوقات متقطعة، شاردة الذهن في معظم الأحيان، وتفكر بين فقرات تتدفق بسهولة أن هذه هي الحياة التي حلمت بها، وهذا هو المستقبل الذي تجرأت على تصوره حين شاهدت لأول مرة عينيْ ماركوس الصغيرتين الذكيتين تخصان ساقيها الكبيرتين البيضاوين بنظرة خاطفة وهي تعبر ساحة كليته أوكسبريدج، بتنورة قصيرة منذ سبع سنوات. كانت من الأشخاص الذين يعرفون الأمر على الفور، وعرفت من النظرة الأولى، حتى حين فتح زوجها المستقبلي فمه ليقول مرحبًا أولى متوترة.

كان زواجًا سعيد جدًا. وقد حدث في صيف 1976 الذي اتسم بالحرارة والذباب والصيحات التي لا تنتهي لشاحنات البوظة، وحدثت الأشياء في جو ضبابي، وقد اضطرت جويس أحيانًا إلى قرص نفسها كي تتأكد إن كان هذا حقيقيًا. وكان مكتب ماركوس في أسفل الصالون إلى اليمين، وكانت تسير عبر الردهة مرتين في اليوم، جوشوا على أحد ردفيها وتدفع بالردف الآخر الباب كي تتأكد فقط أنه لا يزال هناك، أنه موجود في الحقيقة، وتتكئ بشبق على المقعد، وتحصل على قبلة من عبقريها المفضل، المنكب على العمل على لوالبه وحروفه وأرقامه. وأحبت أن تسحبه من كل هذا وتريه آخر شيء لافت فعله

جوشوا أو تعلمه، كالأصوات والتعرف على الحرف والحركة المتناسقة والمحاكاة وتقول لماركوس: تمامًا مثلك، فيقول لها: جينات جيدة، رابتًا على مؤخرتها وفخذيها المترفين، وازنًا كل ثدي في يده، رابتًا على بطنها الصغير، معجبًا بإجاصته الإنكليزية، إلهة أرضه. ثم ترضى وتعود إلى مكتبها كقطة كبيرة وصغيرها بين فكيها، مغطاة بطبقة خفيفة من العرق السعيد. وبفرح عفوي وبلا هدف، يمكن أن تسمع نفسها تتمتم، نسخة شفهية من خربشات المراحيض التي يكتبها المراهقون: جويس وماركوس، ماركوس وجويس.

كان ماركوس يؤلف كتابًا أيضًا في صيف 1976 ذاك، ليس كتابًا بالمعنى الحرفي (كما فهمت جويس) بقدر ما هو دراسة بعنوان **فئران خيالية: تقييم واستقصاء عملي لعمل برنستر** (1974) تتناول الاندماج الجنيني لسلالات الفأر في مرحلة الخلية الثامنة من التطور. كانت جويس قد قرأت علم الأحياء في الجامعة، لكنها لم تحاول أن تلمس المخطوط ذا الصفحات الكثيرة الذي كان ينمو ككومة الخلد عند قدميْ زوجها. كانت جويس تعرف حدودها. لم تكن لديها رغبة كبيرة بقراءة كتب ماركوس. كان يكفي فقط معرفة الرجل الذي أعجبت به والذي يؤلفها. ولم يكن زوجها يكسب النقود ويصنع الأشياء أو يبيع الأشياء التي صنعها أشخاص آخرون فحسب، بل كان يخلق الكائنات. ذهب إلى حواف خيال إلهه وصنع فئرانًا لم يستطع يهوه أن يتصورها، فئرانًا بجينات أرانب، وفئرانًا بأقدام مكففة (أو كما تخيلت جويس، لم تسأل)، فئرانًا تعبّر سنة بعد أخرى عن تصميمات ماركوس بشكل أكثر وضوحًا: من سيرورة للتهجين الانتخابي التي يمكن أن تخطئ أو تصيب، إلى الدمج التلاقحي للأجنة، ثم التطورات السريعة التي تقع خارج نطاق معرفة جويس وفي مستقبل ماركوس: الحقن المصغر للحمض النووي، تجاوز المنشأ بواسطة فيروس ارتجاعي (والذي من أجله كان على بعد إنش من جائزة نوبل، 1987)، والنقل الجنيني للجين بواسطة الخلايا الجذعية، كل هذه العمليات التي تلاعب من خلالها ماركوس بالبويضات، ونظم التعبير الأعلى أو الأدنى لجين، زارعًا التعليمات والأوامر في خط الخلايا الجرثومية

كي تتحقق في خصائص جسدية، خالقًا فئرانًا أجسادها تفعل تمامًا ما يأمرها به ماركوس، ودومًا واضعًا خير الإنسانية في الذهن، وعلاج السرطان والشلل الدماغي وباركنسون، ودومًا بالإيمان الثابت بكمال الحياة كلها، وإمكانية جعلها أكثر فعالية وأكثر منطقية (ذلك أن المرض بالنسبة لماركوس لم يكن إلا خطأ منطقيًا في الجينوم، كما كانت الرأسمالية خطأ منطقيًا للحيوان الاجتماعي)، وأكثر تشالفينية في الطريقة التي تنشأ بها وتتواصل. وعبّر عن مقته لمهووسي حقوق الحيوان، الأشخاص المرعبين الذين اضطرت جويس إلى طردهم عن الباب بعمود ستارة حين عرف بعض المتطرفين بتجارب ماركوس على الفئران، أو الهِبيّين أو المدافعين عن الشجرة أو أي شخص فشل في فهم الحقيقة البسيطة بأن التقدم الاجتماعي والعلمي رفيقان في السلاح. وكانت طريقة عائلة تشالفن متوارثة عبر الأسرة لأجيال، وكانوا غير قادرين بالفطرة على تحمل الغباء بسعادة أو بطريقة أخرى. وإذا كنتَ تجادل شخصًا من آل تشالفن محاولًا أن توضح قضية لأولئك الرجال الفرنسيين الغريبين الذين يظنون أن الحقيقة وظيفة اللغة، أو أن التاريخ تأويلي والعلم استعاري، فإن أفراد عائلة تشالفن المعنيين سيصغون إليك بهدوء، ثم يلوحون بأيديهم رافضين، شاعرين بعدم الحاجة إلى تعظيم هذا الكلام غير الدقيق برد حاسم. وكانت الحقيقة حقيقة لشخص من آل تشالفن. وكانت العبقرية عبقريتهم. ماركوس يخلق الكائنات، وجويس زوجته، مجتهدة في خلق نسخ صغيرة من ماركوس.

*****

مرت خمس عشرة سنة وبقيت جويس تتحدى أي شخص يريها زواجًا أكثر سعادة من زواجها. أنجبت ثلاثة أطفال آخرين بعد جوشوا: بنجامين (في الرابعة عشرة)، جاك (الثانية عشرة) وأوسكار (السادسة)، وكانوا أولادًا كثيري الحركة ومجعدي الشعر وكلهم مربون جيدًا وظرفاء. أصدرت كتاب الحياة الداخلية للنباتات المنزلية (1984) وحصل ماركوس على كرسي كلية في ازدهار الثمانينيات

الذي تبعه تدهور فوري، وهذا موّل حمّامًا إضافيًا ومستنبتًا زجاجيًا ومتع الحياة: الجبنة المعتقة والنبيذ الجيد وشتاءات في فلورنسة. الآن هناك عملان قيد الإنجاز: العواطف السرية للوردة المتسلقة والفئران المعدلة وراثيًا: دراسة في الحدود المتضمنة للحقن المجهري للدي إن إي. جوردون ورودل، 1981) بالمقارنة مع استنساخ الأجنة من الخلايا الجذعية (جوسلر وآخرون، 1986). وكان ماركوس يشتغل أيضًا على كتاب "علمي موجه للجماهير"، ضد قناعاته، بالتعاون مع روائي، وكان يأمل أن يموّل هذا الكتاب على الأقل الطفلين الأولين في السنوات الجامعية جيدًا. وكان جوشوا طفلًا نابغة في الرياضيات، وأراد بنجامين أن يكون عالم جينات مثل والده، وكان هوى جاك الطب النفسي، وأوسكار يستطيع أن يقضي على مَلك أبيه في الشطرنج بخمس عشرة حركة. حدث كل هذا على الرغم من حقيقة أن عائلة تشالفن أرسلت أولادها إلى جليناردا أوك، متجاسرة على القيام بالمقامرة الإيديولوجية التي تجنبها أندادهم بشعور بالذنب، أولئك الليبراليون العصبيون الذين يهزون أكتافهم ويسعلون النقود من أجل التعليم الخاص. ولم يكونوا أطفالًا متألقين فحسب، بل كانوا سعيدين أيضًا، ولم يكونوا متعلمين في المنزل إلى مستوى أعلى باكرًا. وكان نشاطهم الوحيد بعد المدرسة (كانوا يحتقرون الرياضة) هو العلاج الفردي خمس مرات في الأسبوع على يد طبيبة نفسية فرويدية من المدرسة القديمة تدعى مارجوري كانت تعالج جويس وماركوس بشكل منفصل كل نهاية أسبوع. يمكن أن يبدو هذا متطرفًا للذين ليسوا من عائلة تشالفن، لكن ماركوس رُبي باحترام قوي للعلاج (ففي عائلته كان العلاج دومًا يحل مكان الديانة اليهودية) ولم يكن هناك جدل مع النتيجة. فقد أعلن كل واحد من عائلة تشالفن نفسه صحيح الذهن ومستقرًا عاطفيًا. مر الأطفال في عقدة أوديب الخاصة بهم باكرًا وفي الترتيب الصحيح، وكانوا جميعًا ميالين إلى المغاير جنسيًا، ومحبين لأمهم ومعجبين بوالدهم، وازداد هذا الشعور حين وصلوا إلى سن المراهقة على نحو غير عادي. وكانت المشاجرات نادرة، والموضوعات المرحة هي دومًا سياسية أو فكرية

(أهمية الفوضى، الحاجة لضرائب أعلى، مشكلة جنوب أفريقيا، وثنائية الروح والجسد)، والتي يتفقون عليها جميعهم بأية حال.

لم يكن لعائلة تشالفن أصدقاء. وكانوا يتفاعلون بشكل رئيسي مع عائلة تشالفن الموسعة (الجينات الجيدة التي غالبًا ما كان يُشار إليها: عالمان، واحد رياضي وثلاثة أطباء نفسيين وابن عم شاب عضو في حزب العمال). وفي العطل العامة كانوا يتحملون معاناة زيارة أقرباء جويس المرفوضين منذ وقت طويل، عائلة كونور، وهم كتاب رسائل بريدية في جريدة الديلي ميل الذين حتى الآن يستطيعون أن يموهوا عدم محبتهم لحبيب جويس الإسرائيلي. بالمختصر المفيد لم يكن أفراد عائلة تشالفن بحاجة إلى أشخاص آخرين. وكانوا يشيرون لأنفسهم كأسماء وأفعال وأحيانًا كصفات: إنها الطريقة التشالفينية، ثم خرج بتشالفينية حقيقية، إنه يصبح تشالفينيًا ثانية، نحتاج إلى أن نكون أكثر تشالفينية قليلًا حيال هذا. وتحدت جويس أي شخص يستطيع أن يريها عائلة أكثر سعادة، عائلة أكثر تشالفينية منهم.

ولكن ولكن... جويس تتألم من شوقها إلى العصر الذهبي الذي كانت فيه دعامة عائلة تشالفن. حين لم يستطع أفراد العائلة أن يأكلوا من دونها، وحين لم يستطيعوا أن يلبسوا بدون مساعدتها. أما الآن فحتى أوسكار يستطيع أن يعد لنفسه وجبة، وأحيانًا لا يكون هناك شيء للتحسين، أو شيء للصقل، ومؤخرًا وجدت نفسها تقص الأقسام الميتة من وردتها المتسلقة، راغبة لو أنها تستطيع العثور على خطأ ما في انتباه جوشوا المهم، ورضة سرية ما لجاك أو بينجامين، وانحراف في أوسكار. لكنهم كانوا جميعًا تامين. وأحيانًا، حين كان أفراد عائلة تشالفن يجلسون لتناول عشاء الأحد مقطعين فروجًا إلى أن لا يبقى منه شيء سوى القفص الصدري الممزق، كانوا يبلعون بصمت، ويتحدثون فقط طالبين الملح أو الفلفل وكان الضجر ملموسًا. كان القرن يقترب من نهايته وكان أفراد عائلة تشالفين ضجرين. كنسخ عن بعضهم بعضًا، كانت مائدة عشائهم تمرينًا في الكمال المعكوس، التشالفينية وكل مبادئها تعكس نفسها بشكل لانهائي، قافزة من أوسكار

إلى جويس، ومن جويس إلى جوشوا، ومن جوشوا إلى ماركوس، ومن ماركوس إلى بنجامين ومن بنجامين إلى جاك إلى حد التقزز عبر اللحوم والخضار. كانوا لا يزالون العائلة اللافتة نفسها التي كانوا عليها. لكن بعد أن قطعوا كل الروابط مع أقرانهم في أوكسبريدج، القضاة والمديرين التنفيذيين للتلفزيون والمعلنين والمحامين والممثلين ومهن أخرى تافهة سخرت منها عائلة كالفن، لم يتبق أحد كي يعجب بالتشالفينية نفسها وبمنطقها الرائع وعاطفتها وفكرها. كانوا كمثل مسافرين بأعين مفتحة في سفينة الماي فلاور ولم يشاهدوا صخرة في مدى البصر. كانوا كحجاج وأنبياء دون أرض غريبة. وكانوا ضجرين، وجويس أكثرهم ضجرًا.

كي تشغل نفسها في الأيام الطويلة التي تبقى فيها وحيدة في المنزل (كان ماركوس يذهب إلى كليته)، كان الضجر يدفع جويس إلى تصفح الكمية الضخمة من المجلات المرسلة لآل تشالفن (الماركسية الجديدة، الماركسية الحية، نيو ساينتيست، تقرير أوكسفام، ثيرد وورلد آكشن، مجلة الفوضوي) وتشعر بتوق للرومان الصلع أو الأثيوبيين الجميلين كبيري البطن، نعم، تعرف أن هذا كريه، لكنه موجود، وإلى أطفال يصيحون من صفحات مجلات مصقولة، يحتاجون إليها. كانت بحاجة إلى أن يتم الاحتياج لها. ستكون أول من يقر بهذا. كرهت مثلًا حين رفس أطفالها المدمنون ذوو الأعين الناتئة لحليب الصدر العادة واحدًا واحدًا في النهاية، وكانت تمدد الفترة عادة لسنتين أو ثلاث، وفي حالة جوشوا لأربع، ولكن على الرغم من أن العرض لم ينفذ أبدًا، كان الطلب ينتهي. وعاشت في خوف من اللحظة المحتمة التي ينتقلون فيها من المخدرات الخفيفة إلى الثقيلة، الانتقال من الكالسيوم إلى المتع المحلاة لشراب ريبينا المركز. وحين فطمت أوسكار صرفت نفسها إلى البستنة، وعادت إلى الأرض المغطاة بالأوراق والبقايا حيث كانت الأشياء الصغيرة تعتمد عليها.

ثم في أحد الأيام الرائعة دخل ميلات إقبال وإري جونز مترددين إلى حياتها. كانت في الحديقة الخلفية في ذلك الوقت تفحص بعينين دامعتين نباتات العايق ذات اللون الأرجواني الخفيف والأزرق الداكن والأسود اللميع في الوسط، كثقب

رصاصة في السماء، بحثًا عن علامات على وجود حشرات ماصة للنسغ، وهي حشرات كريهة قضت على نبتة البوكونيا الخاصة بها سابقًا. رن جرس الباب. أدارت جويس رأسها إلى الخلف، وانتظرت إلى أن سمعت أقدام ماركوس المرتدية للشبشب تهبط الدرج ركضًا من مكتبه ثم، مطمئنة أنه سيفتحه، غاصت عائدة إلى بحثها. بجبين مرتفع فتشت البراعم المزدوجة ذات الأفواه والتي تظهر منتصبة على طول العمود الفقري لنبتة العايق التي يبلغ طولها ثمانية أقدام. قالت لنفسها بصوت مرتفع "حشرة التربس"، ملاحظة التحول الذي على شكل أذن كلب في كل زهرة، "التربس"، كرّرت، بمتعة، والتي يجب أن تدرسها الآن، ويمكن أن يؤدي الأمر إلى تأليف كتاب أو فصل على الأقل. "التربس (الذباب الرعدي)". كانت جويس تعرف شيئًا أو شيئين عن التربس:

التربس أو الذباب الرعدي، اسم عام لحشرات صغيرة تتغذى على سلسلة واسعة من النباتات، وتستمتع بشكل خاص بالجو الدافئ الملائم لنبتة داخلية أو غرائبية. لا يتجاوز طول معظم أنواعها 1 سم ونصف بعد أن تكبر، بعضها بلا أجنحة، لكن لبعضها الآخر جناحان قصيران مشعران. تمتلك كل من البالغات منها والصغيرات أجزاء فموية ثاقبة وماصة. وعلى الرغم من أن حشرات التربس تلقح بعض النباتات وتأكل بعض الآفات الحشرية إلا أنها مؤذية جدًا للبستاني الحديث وتعتبر عادة حشرات مؤذية يجب مكافحتها بالمبيدات الحشرية، مثل اللنديكس.

التصنيف العلمي: تنتمي حشرات التربس إلى هدبيات الأجنحة.

جويس تشالفن، الحياة الداخلية لنباتات المنزل، من ملحق حول الآفات والطفيليات.

نعم، تمتلك حشرات التربس غرائز جيدة: فهي في الحقيقة كائنات منتجة تحب عمل الخير وتساعد النبتة في تطورها، نية هذه الحشرات حسنة لكنها تذهب بعيدًا، تذهب إلى ما وراء التلقيح والتهام الآفات الضارة، تبدأ بأكل النبتة نفسها، تأكلها من الداخل. وتصيب التربس جيلًا بعد آخر من نباتات العايق إذا تركتها. وما يستطيع المرء فعله مع التربس، إذا لم يعمل اللنديكس هو أن يشذّب بقوة، ويقصّ بدون رحمة ويبدأ من البداية. أخذت جويس نفسًا عميقًا، وكانت تفعل هذا من أجل نباتات العايق، تفعل هذا لأنه بدونها لا تملك هذه النباتات فرصة. أخرجت جويس المقص الضخم من جيب مئزرها، وأمسكت المقبضين البرتقاليين الصارخين بشدة ووضعت العنق المعرض لبرعم العايق الأزرق بين شفرتين فضيتين. وكان هذا حبًا فظًا.

"جويس! جويس! جوشوا وصديقاه مُدخّنا الماريجوانا هنا!"

الجمال الجسدي، الكلمة المشتقة من اللاتينية، كانت هذه هي الكلمة الأولى التي أذهلت جويس حين خطا ميلات إقبال إلى الداخل على الدرجات إلى مستنبتها الزجاجي، ساخرًا من نكات ماركوس السيئة، مظللًا عينيه البنفسجيتين من شمس شتوية متلاشية. الجمال الجسدي: ليس فقط المفهوم بل الكلمة المادية كلها ظهرت أمامها كما لو أن شخصًا طبعها على شبكة عينها: الجمال الجسدي [121]، الجمال حيث المكان الأقل توقعًا له، مخبأ في كلمة بدت كأنها ستشير إلى تقيؤ أو التهاب جلدي، الجمال في شاب أسمر طويل كان يجب أن يكون غير قابل للتمييز بالنسبة لجويس عن أولئك الذين تشتري منهم بانتظام الحليب والخبز، وتقدم حساباتها لهم للتدقيق، أو تمرر دفتر شيكاتها إليهم خلف الزجاج السميك لكوة مصرف.

قال ماركوس، مؤديًا المقاطع الأجنبية: "ميل-يات إك-بال وآيري جونز، وهما على ما يبدو صديقان لجوش. كنت أقول لجوش لتوي إنهما أجمل صديقين له سبق أن رأيناهما! إنهم عادة صغار ونحيلون جدًا، وحسيرو البصر وأقدامهم مشوهة. وليسوا إناثًا أبدًا، حسنًا!" وتابع ماركوس بفرح رافضًا نظرة الرعب على

وجه جوشوا: "شيء جيد أنكما أتيتما. نحن نبحث عن امرأة كي نزوجها للعجوز جوشوا..."

كان ماركوس يقف على درجات الحديقة وعبّر عن إعجابه علنًا بصدر آيري (كانت بشكل واضح جميلة وأطول منه). "وهو نوع جيد أيضًا، ذكي، ضعيف قليلًا في الهندسة الكسيرية [122] لكننا نحبه بأية حال. حسنًا..."

توقف ماركوس منتظرًا أن تخرج جويس من الحديقة، وتنزع قفازها، وتصافح ميلات وتتبع الجميع إلى المطبخ: "أنت فتاة كبيرة".

"شكرًا".

"نحب هنا الأكل الصحي. كل أفراد عائلة تشالفن يأكلون طعامًا صحيًا، لا أزيد رطلا واحدًا، لكن جويس تزيد، في كل الأمكنة الصحيحة، بشكل طبيعي. هل ستبقيان للعشاء؟"

وقفت آيري بكماء في منتصف المطبخ، متأثرة جدًا بحيث لم تستطع التحدث. لم يكونا من نوع الآباء الذين تعرفهم.

قال جوشوا بغمزة مرحة: "آه، لا تتضايقي من ماركوس. إنه عجوز فاسق قليلًا. هذه نكتة تشالفينية. يحبون أن يقصفوك في اللحظة التي تدخلي فيها من الباب كي يكتشفوا كم أنت ذكية. إن آل تشالفن لا يعتقدون أن هناك أي هدف في الدعابات. جويس، هذان آيري وميلات. إنهما الاثنان اللذان من خلف بناء العلوم".

جويس، التي صحت جزئيًا من رؤية ميلات إقبال، تماسكت بما يكفي كي تلعب دورها المصمم كأم تشالفن.

"إذًا أنتما الاثنان اللذان يفسدان ولدي الأكبر. أنا جويس. هل تريدان بعض الشاي؟ إذًا أنتما مجموعة جوش السيئة. كنت أشذب نباتات العايق لتوي. هذا بنجامين، جاك، وهذا أوسكار في الردهة. الفراولة أم المانغو أم العادي؟"

قال جوشوا: "شاي عادي بالنسبة لي، شكرًا يا جويس".

"الشيء نفسه"، قالت آيري.

"نعم"، قال ميلات.

"ثلاثة أكواب شاي عادي وواحد مانغو من فضلك يا عزيزي ماركوس".

ماركوس الذي كان يخرج من الباب بغليون تبغ معبأ حديثًا، عاد من حيث أتى بابتسامة كئيبة. "أنا عبد لهذه المرأة"، قال وهو يمسكها حول خصرها، كمقامر يجمع قطعه بذراعين مدورتين، "لكن إذا لم أعبدها، يمكن أن تهرب مع أي شاب جميل يدخل إلى المنزل. لا أتخيل السقوط ضحية للداروينية هذا الأسبوع".

كان هذا العناق الواضح كأي عناق موجهًا بشكل مباشر على ما يبدو كي يفهمه ميلات. فقد كانت عينا جويس الكبيرتان والحليبيتان الزرقاوان عليه طيلة الوقت.

قالت جويس في همسة مسرحية أسرية، كما لو أنهما تعرفان بعضهما منذ خمس سنوات وليس منذ خمس دقائق: "هذا ما تحتاجين إليه يا آيري، رجل مثل ماركوس على المدى الطويل. إن هؤلاء الذين يهربون في الليل جيدون للتسلية، لكن أي نوع من الآباء يصنعون؟"

احمرَّ جوشوا: "جويس، لقد دخلت المنزل لتوها. دعها تشرب الشاي".

تظاهرت جويس بالدهشة: "لم أحرجك، هل فعلت؟ يجب أن تسامحي الأم تشالفن، إنني من النوع الذي يتفوه بأمور محرجة [123]".

لم تكن آيري محرجة بل مسحورة، وصارت متيّمة بعد خمس دقائق. لم ينكت أحد في منزل جونز عن داروين، أو قال "أنا من النوع الذي يتفوه بأمور محرجة"، أو قدموا خيارات شاي، أو تركوا الكلام يتدفق بحرية من البالغ إلى الطفل ومن الطفل إلى البالغ، كما لو أن قناة التواصل بين هاتين القبيلتين كانت غير مقيدة، لا يسدها التاريخ وحرة.

قالت جويس بعد أن أفلتها ماركوس وجلست إلى الطاولة المستديرة، ودعتهم للجلوس: "حسنًا، تبدوان غريبين جدًا. من أين أنتما إن كنتما لا تمانعان السؤال؟"

قالت إري وميلات على نحو متزامن: "ولسدن".

"نعم، نعم، بالطبع. أعني من أين أصلكما؟"

قال ميلات، مستخدمًا ما دعاه بلكنة باذ-باذ- دنغ-دنغ [124]: "هل تعنين من أين أنا بالأصل؟"

بدت جويس مرتبكة: "نعم بالأصل".

قال ميلات، ساحبًا سيجارة: "وايت تشابل، طريق مستشفى لندن الملكي والحافلة رقم 207".

انفجر كل أفراد عائلة تشالفن الذين يدورون في المطبخ ضاحكين وحذت جويس حذوهم.

قال ميلات مشتبهًا: "اهدأوا. ليس هذا مضحكًا".

لكن آل تشالفن واصلوا. نادرًا ما يروون النكات إلا إذا كانت بليدة وفيها أرقام: ما الذي قاله الصفر للثمانية؟ حزام جميل.

سألته جويس فجأة حين انطفأت الولاعة وثمة نبرة ذعر في صوتها: "هل ستدخن هذه هنا؟ نكره الرائحة، لا نحب إلا رائحة التبغ الألماني. وإذا دخناه ندخنه في غرفة ماركوس، لأن هذا يزعج أوسكار، أليس كذلك يا أوسكار؟"

قال أوسكار الأصغر والأكثر جاذبية بين الأولاد والمشغول ببناء إمبراطورية من قطع لعبة ليغو: "كلا، لا يهمني".

كررت جويس بذلك الهمس المسرحي ثانية: "هذا يزعج أوسكار، يكرهه".

قال ميلات ببطء بنوع الصوت الذي تستخدمه للمجنون أو الأجنبي: "سآخذها إلى الحديقة، سأعود بعد لحظة".

حالما صار ميلات بعيدًا عن السمع، وحين أحضر ماركوس الشاي، بدت الأعوام تسقط كجلد ميت عن جويس وانحنت عبر الطاولة كفتاة مدرسة: "يا إلهي، إنه جميل، أليس كذلك؟ مثل عمر الشريف من ثلاثين عامًا. أنف روماني مضحك. هل أنت وهو...؟"

حذّرها ماركوس: "دعي الفتاة وشأنها يا جويس، لن تخبرك عن هذا، أليس صحيحًا؟"

قالت آيري شاعرة أنها تحب أن تخبر هؤلاء الناس كل شيء: "كلا، لسنا".

"جيد. ربما رتب له والداه شيئًا ما. أخبرني المدير أنه فتى مسلم. أفترض أنه يجب أن يكون ممتنًا أنه ليس فتاة. إن ما يفعلونه بالفتيات لا يُصدق. أتَذْكُر مقالة التايمز يا ماركوس؟"

كان ماركوس يبحث في البراد عن طبق بارد من بطاطا الأمس: "لا يُصدق..."

"لكن وكما تعلمين، من القليل الذي شاهدته لا يبدو مطلقًا مثل معظم الأطفال المسلمين. أعني، أنا أتحدث انطلاقًا من تجربة شخصية، أذهب إلى كثير من المدارس من أجل البستنة، أعمل مع أطفال من جميع الأعمار. هم عادة صامتون ووديعون بشكل مريع، لكنه جريء! إن فتيانًا مثله يريدون الشقراوات الطويلات. أعني هذا هو لب الموضوع، إذا كانوا أنيقين إلى هذا الحد. أعني كيف تشعرين... اعتدت أن أحب أصحاب المشاكل حين كنت في سنك، لكن تتعلمين فيما بعد، حقًا. إن الخطر ليس في الحقيقة جنسيًا، ثقي بما أقوله، ستكونين في وضع أفضل بكثير مع شخص مثل جوشوا".

"أمي".

"كان يتحدث عنك دون توقف طيلة الأسبوع".

"أمي!"

واجهت جويس تقريعها بابتسامة صغيرة: "حسنًا، ربما أنا صريحة جدًا بالنسبة لكم أنتم الصغار. لا أعرف... في زمني كان المرء مباشرًا أكثر، يجب أن تكوني مباشرة إذا أردت أن تصطادي الرجل الملائم. كان هناك مئتا فتاة في الجامعة وألفا رجل يتقاتلون على فتاة، لكن إذا كنت أكثر ذكاء تختارين".

قال ماركوس متحركًا من خلفها ومقبلًا أذنها: "تختارين، وبذوق جيد".

تلقت جويس القبل كفتاة تستسلم للأخ الأصغر لأفضل صديقاتها.

"لكن أمك لم تكن متأكدة، هل كانت؟ اعتقدتْ أنني مثقفة أكثر من اللزوم، وأنني لا أريد أولادًا".

"لكنك أقنعتها. إن هذين الردفين سيقنعان أي شخص".

"نعم، في النهاية... لكنها قللت من احترامي، أليس كذلك؟ لم تعتقد أنني أنتمي إلى عائلة تشالفن".

"لم تكن تعرفك آنذاك فحسب".

"حسنًا، لقد فاجأناها، أليس كذلك؟"

"تم الكثير من الجماع الصعب لجعل تلك المرأة مسرورة".

"أربعة أحفاد فيما بعد".

حاولت آيري أثناء المحادثة أن تركز على أوسكار الذي كان يركّب شكلًا دائريًا يشبه تنينًا يبتلع ذيله من فيل قرنفلي كبير من خلال وضع الجذع في المؤخرة. لم تكن أبدًا قريبة هكذا لهذا الشيء الغريب والجميل، الطبقة الوسطى، وجربت نوع الارتباك الذي هو في الحقيقة انسحار. كان غريبًا وعجيبًا في آن. شعرت مثل امرأة مفرطة الاحتشام تسير على شاطئ للعراة، وتنظر إلى الرمل. شعرت أنها مثل كولومبس الذي قابل الأراواك [125] العراة غير عارف أين ينظر.

قال جوشوا: "اعذري والديَّ، لا يستطيعان إنزال أيديهما عن بعضهما".

قيل هذا بكبرياء لأن أطفال عائلة تشالفن يعرفون أن والديهم كائنان نادران ومن الأزواج السعداء الذين لا يتجاوز عددهم الاثني عشر في جليناردأوك. وفكرت آيري بوالديها اللذين كانت لمساتهما افتراضية الآن، لا توجد إلا في الفراغات التي وُجدت فيها الأصابع من قبل: جهاز التحكم، وغطاء علبة البسكويت القصديري، وأزرار الإضاءة.

قالت: "يجب أن يكون عظيمًا الشعور بهذه الطريقة بعد عشرين سنة من الزواج".

استدارت جويس كما لو أن أحدًا ما أفلت صيدًا ثمينًا: "مدهش! لا يُصدق! تستيقظين فقط في صباح أحد الأيام وتدركين أن الزواج الأحادي ليس قيدًا، إنه يحررك. ويجب أن يُربَّى الأطفال في هذا الجو. لا أعرف إن سبق وجربت هذا، تقرئين كثيرًا عن كيف يجد الكاريبيون من أصل أفريقي كم من الصعب تأسيس علاقات طويلة الأمد. هذا محزن جدًا، أليس كذلك؟ كتبتُ عن امرأة من

الدومنيكان في كتابي "الحياة الداخلية لنباتات المنزل" والتي نقلتُ نبتتها، الأزلية المزروعة في وعاء، إلى منازل ستة رجال، ووضعتها مرة على إفريز النافذة، ثم في زاوية مظلمة، ثم في غرفة النوم المطلة على الجنوب، إلخ. لا تستطيعين فعل هذا لنبتة".

كان هذا انحرافًا كلاسيكيًا مفاجئًا لجويس، وأدار ماركوس وجوشوا أعينهما بعطف.

عاد ميلات من جديد بعد أن أنهى سيجارته.

"هل سندرس قليلًا؟ هذا ظريف جدًا، لكنني سأخرج في المساء. في وقت ما".

وبينما ضاعت آيري في أحلام يقظتها مقيّمةً عائلة تشالفن كأنثروبولوجية رومانسية، خرج ميلات إلى الحديقة ناظرًا عبر النوافذ وفاحصًا التفاصيل. وحيث شاهدت آيري ثقافة وانصقالًا وطبقة وفكرًا شاهد ميلات النقود، النقود الكسولة، النقود المتوفرة لتلك الأسرة والتي لا تفعل أي شيء بشكل خاص، النقود التي تحتاج إلى قضية جيدة تكون هو أيضًا.

قالت جويس مصفقة بيديها محاولة أن تبقيهم جميعًا في الغرفة فترة أطول، وأن تؤجل طويلًا قدر الإمكان إعادة تأكيد صمت عائلة تشالفن: "وهكذا، ستقرؤون معًا. حسنًا، أهلًا بك أنت وآيري. قلت لمديركما (أليس كذلك يا ماركوس؟) إن هذا يجب ألا تشعرا به كعقوبة. ليست بالضبط جريمة كريهة. بيننا، كنتُ زارعة جيدة للماريجوانا في وقت ما..."

قال ميلات: "الطريق إلى الخارج".

فكرت جويس: غذّي، كوني صبورة، اسْقي بشكل منتظم ولا تفقدي مزاجك وأنت تشذّبين.

"... ومديركما شرح لنا كيف أن بيئتكما المنزلية ليست بالضبط... حسنًا... أنا متأكدة أنكما ستجدان أن الدراسة هنا أسهل، خاصة أنكما تمران في عام مهم، وهناك امتحان الشهادة الثانوية. ومن الواضح أن كلاكما ذكي، أي شخص يستطيع أن يحزر هذا فقط من النظر في أعينكما. أليس كذلك يا ماركوس؟"

"جوش، إن أمك تسألني إن كان معدل الذكاء يعبّر عن نفسه في السمات الجسدية الثانوية للون العين، وحجم العين، إلخ. هل يوجد جواب معقول على هذا السؤال؟"

ألحت جويس. كانت الفئران والرجال والجينات والجراثيم مجال ماركوس، أما الشتلات والمصادر الخفيفة والنمو والتغذية والجانب الخفي للأشياء فكانوا مجالها. وكما في أي مركب تبشيري كانت المهمات تُوزع: ماركوس في المقدمة، كي يراقب العواصف، وجويس تحت ظهر المركب تفحص إن كان يوجد بق فراش في الكتان.

"يعرف مديركم كم أكره رؤية الإمكانيات المهدورة، لهذا أرسلكما إلينا".

"ولأنه يعرف أن معظم أفراد عائلة تشالفن أذكى منه بأربعمائة مرة"، قال جاك قائمًا بتمرين قفزة النجمة [126]. كان لا يزال صغيرًا ولم يتعلم بعد كيف يعبر عن افتخاره بعائلته بطريقة مقبولة اجتماعيًا أكثر. "حتى أوسكار هو أذكى".

قال أوسكار رافسًا مرآبًا صنعه مؤخرًا من لعبة الليغو: "كلا لستُ هكذا، أنا أغبى شخص في العالم".

همست جويس: "حصل أوسكار على معدل ذكاء 178. هذا متعب قليلًا، حتى حين تكونين أمه.

قالت آيري، مستديرة مع بقية من في الغرفة كي تعبر عن تقديرها لأوسكار الذي حاول أن يأكل رأس زرافة بلاستيكية: "أوه! هذا لافت".

"نعم، لكن كان لديه كل شيء، وهكذا فإن الكثير منه هو تغذية، أليس كذلك؟ أنا في الحقيقة أؤمن بهذا. كنا محظوظين بما يكفي كي نمنحه الكثير وبوجود أب مثل ماركوس. إن الأمر كمثل أن لديه شعاع شمس قويًا يشع عليه 24 ساعة في اليوم، أليس كذلك يا عزيزي؟ إنه محظوظ أن لديه هذا، حسنًا، كلهم محظوظون، الآن، يمكن أن تظني هذا غريبًا، لكن كان دومًا هدفي هو أن أتزوج رجلًا أذكى مني". وضعت جويس يديها على ردفيها وانتظرت آيري أن تعتقد أن هذا بدا غريبًا. "كلا، فعلتُ في الحقيقة. وأنا نسوية متطرفة، سيخبرك ماركوس".

"إنها نسوية متطرفة"، قال ماركوس من داخل البراد.

"لا أفترض أنه بوسعك فهم هذا، جيلك يمتلك فكرة مختلفة، لكن أعرف أنه سيكون متحررًا. وعرفت أي نوع من الآباء أردت لأطفالي. الآن، أدهشك هذا، أليس كذلك؟ أنا آسفة، لا نقوم بأحاديث صغيرة هنا. بما أنك ستأتين إلى هنا كل أسبوع اعتقدت أنه من الأفضل أن تحصلي على جرعة ملائمة من عائلة تشالفن الآن".

ابتسم جميع أفراد عائلة تشالفن الذين سمعوا هذا التعليق الأخير وهزوا رؤوسهم.

توقفت جويس ونظرت إلى آيري وميلات بالطريقة التي تنظر بها إلى نبتة العايق الخاصة بها. كانت مكتشفة سريعة ومجربة للمرض، وكان هناك أذى هنا، ألم صامت في الأولى آيريناثوس نجريسيوم ماركوسيليا [127]، ربما الافتقار لشخصية الأب، وذكاء غير مستغل، وتقدير للذات منخفض، وكان لدى الثاني ملاتوريا براندوليديا جويكولاتوس [128] حزن أعمق، وفقدان رهيب، وجرح فاغر، وثقب يحتاج إلى ما هو أكثر من التعليم أو النقود. كانا بحاجة للحب. وتاقت جويس إلى لمس الموقع برأس سبابتها التشالفينية، كي تغلق الفجوة وتخيط الجلد.

"هل يمكن أن أسأل؟ أبوك؟ ما الذي..."

(تساءلت جويس ما الذي يفعله الوالدان، ما الذي فعلاه. حين تعثر على برعم أول متحول كانت تريد أن تعرف من أين أتت الغرسة. سؤال خاطئ، لم يكن هذا من الوالدين، لم يكن من جيل واحد فحسب، كان القرن كله. ليس البرعم بل الشجيرة).

قال ميلات: "ناقل كري، منظف طاولات. نادل".

بدأت آيري: "ورق. طوي ورق... ويعمل على أشياء مثل الثقوب... نوع من الإعلان البريدي المباشر لكن ليس في الحقيقة إعلانات، على الأقل ليس مجال الأفكار... نوع من الطي..."

"آه نعم. نعم. حين يكون هناك افتقار لنموذج يُحتذى به ترين...هذا

حين تصبح الأشياء في الحقيقة منحرفة، في تجربتي. كتبتُ مقالة لمجلة ومنز إيرث مؤخرًا وصفتُ فيها مدرسة عملتُ فيها حيث أعطيت كل طفل نبتة بلسم موضوعة في إناء وطلبت منهم أن يعتنوا بها لمدة أسبوع كما يعتني الأب والأم بالطفل. اختار كل طفل أي والدين سيقلدهما. اختار الولد الجامايكي الجميل ونستون أباه. وفي الأسبوع التالي اتصلت أمه وسألتني لماذا طلبت من ونستون أن يغذي نبتته بالبيبسي ويضعها أمام التلفزيون. أعني، هذا مريع، أليس كذلك. لكنني أفكر كثيرًا بأولياء الأمور الذين لا يقدّرون أبناءهم بما يكفي. تلعب الثقافة دورًا في هذا، كما تعرفين؟ تجعلني غاضبًا فحسب. إن الشيء الوحيد الذي أسمح لأوسكار بمشاهدته هو برنامج "الجولة الإخبارية" لنصف ساعة في اليوم. هذا أكثر من كاف.

قال ميلات: "أنت محظوظ يا أوسكار".

"على أي حال، أنا في الحقيقة سعيدة حيال لأنكما هنا لأن عائلة تشالفن... أعني، يمكن أن يبدو هذا خاصًا، لكنني أردت في الحقيقة أن أقنع مديركما أن هذه أفضل فكرة، والآن بعد أن التقيت بكما كليكما أنا أكثر تأكدًا لأن عائلة تشالفن..."

ختم جوشوا: "يعرفون كيف يخرجون الأشياء الصحيحة في الناس. انتهوا مني".

قالت جويس مرتاحة من أن بحثها عن الكلمات انتهى شاعرة بالفخر: "نعم، نعم".

دفع جوشوا كرسيه إلى الخلف عن الطاولة ونهض.

"حسنًا، يجب أن نقوم ببعض الدراسة. هل تستطيع القدوم يا ماركوس وتساعدنا بعد قليل في علم الأحياء؟ أنا في الحقيقة سيّئ في اختزال الأمور التناسلية إلى قطع بحجم اللقمة".

"أكيد. أنا أعمل على فأري المستقبلي". كان هذا الاسم العائلي الساخر لمشروع ماركوس وأنشد صغار عائلة تشالفن "الفأر المستقبلي" وراءه متخيلين

قارضًا مجسمًا يرتدي شورتًا أحمر. وقال وهو يلعب بشعر جاك: "ويجب أن أعزف قليلًا على البيانو مع جاك أولًا. سكوت جوبلن [129]. جاك هو اليد اليسرى، وأنا اليمنى. ليس تمامًا مثل آرت تاتوم [130]. لكننا ننجح".

بذلت آيري كل ما بوسعها كي تتخيل السيد إقبال يعزف باليد اليمنى لسكوت جوبلن بأصابعه الرمادية المعطلة، أو السيد جونز يحول أي شيء إلى قطع بحجم اللقمة. وشعرت بخديها يتوردان من الحرارة الدافئة للكشف التشالفيني. وهكذا كان يوجد آباء يتعاملون في الحاضر، لا يجرّون التاريخ القديم معهم كسلسلة ربطت بها كرة حديدية. وهكذا كان هناك رجال لم يكونوا طويلي العنق ولا يغوصون في مستنقع الماضي.

توسلت جويس: "ستبقيان لتناول العشاء، أليس كذلك؟ في الحقيقة يريدكما أوسكار أن تبقيا. يحب أوسكار وجود غرباء في المنزل، يجد هذا محفزًا. خاصة الغرباء السمر! أليس كذلك يا أوسكار؟"

قال أوسكار باصقًا في أذن آيري: "كلا، لا أحبهم، أكره الغرباء السمر".

همست جويس: "يجد الغرباء السمر محفّزين حقًا".

*****

كان هذا قرن الغرباء السمر والصفر والبيض، قرن تجربة الهجرة الأعظم. وفي وقت متأخر جدًا من اليوم فقط تستطيع الدخول إلى مجمع رياضي وتجد إسحق ليونج قرب بركة الأسماك، وداني رحمان في ملعب كرة القدم، وكوانغ أوروركي يناور بكرة السلة، وآيري جونز تدندن لحنًا. ستشاهد أطفالًا باسم أول وأخير في حالة خصام، بأسماء تخفي في داخلها النزوح الجماعي والزوارق والطائرات الضيقة، الوصول البارد، والفحوصات الطبية. وفي هذا الوقت المتأخر من اليوم فقط، وفي ولسدن فقط على الأرجح، تستطيع العثور على أفضل صديقتين وهما سيتا وشارون، وكثيرًا ما كان الناس يخطئون في التمييز بينهما دومًا لأن سيتا بيضاء (أحبت أمها الاسم) وشارون باكستانية (ظنت أمها أن اسمها هو الأفضل

ولا يسبب المشاكل). لكن، على الرغم من كل هذا الخلط، وحقيقة أننا انزلقنا في النهاية في حياة بعضنا البعض براحة معقولة (كمثل رجل يعود إلى سرير حبيبته بعد نزهة في منتصف الليل)، على الرغم من كل هذا، لا يزال من الصعب الإقرار أنه لا يوجد أحد أكثر إنكليزية من الهندي، ولا أحد أكثر هندية من الإنكليزي. وما زال هناك شبان بيض غاضبون حيال هذا، يخرجون وقت الإغلاق إلى الشوارع المضاءة بشكل سيّئ بسكين مطبخ ممسوكة بقبضة محكمة.

لكن المهاجر يضحك حين يسمع مخاوف القومي الخائف من العدوى والاختراق واختلاط الأجناس، وهذه وجبة صغيرة، فول سوداني، بالمقارنة مع ما يخاف منه المهاجر: الذوبان والتلاشي. حتى ألسانا إقبال القوية ستستيقظ بانتظام في بركة من عرقها بعد ليلة تزورها فيها رؤى ميلات (الذي هو وراثيًا ب ب، تعبر ب عن هويته البنغالية) ويتزوج امرأة تدعى سارة (حرف الألف يعبر عن آري)، وينتج عن هذا ولد يدعى مايكل (بي إي)، الذي بدوره يتزوج واحدة اسمها لوسي (إي إي) تاركًا إلسانا بإرث أحفاد غير قابلين للمعرفة (IIIIII)، بنغاليتهم مخففة بشكل كامل، فيما الطراز الوراثي مخفي تحت المظهر الخارجي. إنه الشعور الأكثر افتقارًا للعقلانية والأكثر طبيعية في العالم في آن واحد معًا. ففي جامايكا يوجد هذا حتى في قواعد اللغة: لا يوجد خيار للضمير الشخصي، لا فرق بين أنا وأنت وهم، يوجد فقط ضمير أنا النقي والمتجانس. حين سمعتْ هورتينس بودن، والتي هي نفسها نصف بيضاء، عن زواج كلارا، جاءت إلى المنزل، ووقفت على العتبة، وقالت: "أفهم: أنا وأنا لن نتحدث بدءًا من هذه اللحظة"، دارت على أعقابها وظلت مخلصة لكلمتها. لم تبذل هورتينس كل ذلك الجهد من أجل الزواج من أسود، وإبعاد جيناتها عن الحافة، فقط كي تقوم ابنتها بإنجاب المزيد من الأطفال الملونين في العالم.

وعلى نحو مشابه، كانت خطوط المعركة في منزل إقبال مرسومة بشكل واضح. فحين كان ميلات يحضر إميلي أو لوسي إلى المنزل، كانت ألسانا تبكي بهدوء في المطبخ، ويخرج صمد إلى الحديقة كي يهاجم نباتات الكزبرة. وكان الصباح التالي

لعبة انتظار، عضات غاضبة للألسنة إلى أن تغادر إميلي أو لوسي المنزل ويمكن أن تبدأ حرب الكلمات. لكن مع آيري وكلارا كانت المسألة غير معبَّر عنها في معظم الأحيان، ذلك أن كلارا تعرف أنها ليست في موقع كي تبشّر. ولم تقم بأية محاولة كي تموّه خيبة أملها أو الحزن المؤلم. ومن معبد غرفة نوم آيري المليء بمشاهير هوليود الساحرين ذوي العيون الخضر إلى ثرثرة الأصدقاء البيض الذين كانوا يدخلون في مجموعات إلى غرفة نومها ويخرجون منها، شاهدت كلارا محيطًا من البشرات القرنفلية تحيط بابنتها وخافت من أن يأخذها المد بعيدًا.

كان هذا أحد الأسباب التي منعت آيري من ذكر عائلة تشالفن لوالديها. ولم يكن الأمر أنها نوت أن تتزاوج مع آل تشالفين... لكن الغريزة كانت نفسها. كانت تمتلك هيامًا غامضًا بهم ينتمي إلى سن الخامسة عشرة، وطاغيًا، لكن لم تكن له وجهة حقيقية أو موضوع. أرادت فقط أن تختلط بهم. أرادت إنكليزيتهم، تشالفينيتهم، ونقاءها. ولم يخطر في بالها أن عائلة تشالفن هي إلى حد ما، عائلة مهاجرة أيضًا (الجيل الثالث، عن طريق ألمانيا أو بولونيا، يُدعون بالأصل تشالفنوفسكي)، أو ربما كانوا محتاجين لها كما هي محتاجة إليهم. وبالنسبة لآيري، كانت عائلة تشالفن أكثر إنكليزية من الإنكليز. وحين كانت آيري تخطو فوق عتبة منزل تشالفن، كانت تشعر بحماس غير شرعي، كمثل يهودي يقضم قطعة سجق أو هندوسي يمسك سندويشة همبرغر. وكانت تعبر حدودًا، وتتسلّل إلى داخل إنكلترة، وشعرت أن هذا فعلًا تمرديًا مريعًا كمثل ارتداء ثياب شخص آخر أو جلد شخص آخر.

كانت تقول فقط إن لديها موعدًا للعب كرة الشبكة يوم الثلاثاء وتركت الأمر هكذا.

*****

تدفقت المحادثة في منزل آل تشالفن. وتبين لآيري أنه لا أحد يصلي هنا أو يخفي مشاعره في صندوق أدوات أو يمسد بصمت صورًا باهتة متسائلًا عن

طبيعتها. كانت المحادثة مادة الحياة.

"مرحبًا آيري. تفضلي. جوشوا في المطبخ مع جويس، تبدين جيدة. ميلات ليس معك؟"

"سيأتي فيما بعد، لديه موعد".

"آه، نعم. حسنًا. إذا كان هناك أسئلة في امتحانكما حول التواصل الشفهي، فإنه سيحلق في الإجابة عنها، آيري هنا يا جويس! كيف تجري الدراسة إذًا؟ كم مر من الوقت؟ أربعة أشهر الآن؟ هل يتم نقل عبقرية عائلة تشالفن؟"

"نعم، ليست سيئة. لم أفكر أبدًا أن لدي توجهًا علميًا لكن... يبدو أنه يعمل. لا أعرف. أحيانًا يؤلمني دماغي".

"هذا ناجم عن أن الجانب الصحيح من دماغك يستيقظ بعد نوم طويل، ويعود إلى نشاطه. أنا سعيد فعلًا، قلت لك يمكن تحويل طالب فنون واهن العزم إلى طالب علوم في وقت سريع، آه، لدي صور فأر المستقبل. ذكريني فيما بعد، ألم تطلبي مشاهدته؟ جويس، لقد وصلت الإلهة السمراء الكبيرة".

"ماركوس، اسكت يا رجل... مرحبًا، جويس. مرحبًا، جوش. مرحبًا جاك. آه، مرحبًا أوسكار، أيها الجميل".

"مرحبًا يا آيري! تعال هنا وأعطني قبلة. أوسكار، انظر، جاءت آيري لزيارتنا ثانية! آه، انظري إلى وجهه... يتساءل أين ميلات، أليس كذلك يا أوسكار؟"

"كلا، ليس كذلك".

"آه، يا عزيزي، نعم يتساءل... انظري إلى وجهه الصغير... يتضايق جدًا حين لا يأتي ميلات. قل لآيري اسم القرد الجديد يا أوسكار، الذي أهداه لك والدك".

"جورج".

"كلا، ليس جورج، سميته ميلات القرد، أتذكر؟ لأن القرود ماكرة وميلات سيئ مثلها، أليس كذلك يا أوسكار؟"

"لا أعرف. لا آبه".

"يتضايق أوسكار كثيرًا حين لا يأتي ميلات".

"سيتأخر، مرتبط بموعد غرامي".

"متى ليس لديه موعد غرامي؟ كل تلك الفتيات ذوات الأثداء الكبيرة! يمكن أن نغار، أليس كذلك يا أوسكار؟ يمضي وقتًا معهن أكثر مما يمضيه معنا. لكن يجب ألا نمزح. أفترض أنها هذا صعب عليك قليلًا".

"كلا، لا يهمني، يا جويس، في الحقيقة. أنا معتادة على هذا".

"لكن الجميع يحبون ميلات، أليس كذلك يا أوسكار. من الصعب ألا نحبه، أليس كذلك يا أوسكار؟ نحبه، أليس كذلك، يا أوسكار؟"

"أكرهه".

"آه يا أوسكار، لا تتفوه بكلمات سخيفة".

"هل نستطيع التوقف عن الحديث عن ميلات من فضلكم".

"نعم يا جوشوا، حسنًا. إنه يصبح غيورًا. أحاول أن أشرح له أن ميلات يحتاج إلى القليل من الرعاية الإضافية. هو من خلفية صعبة. الأمر هو مثل حين أكرس وقتًا لأزهار الفاوانيا أطول من الذي أخصصه لأزهار الخزامى. إن أزهار الخزامى تنمو في جميع الأمكنة... أحيانًا أنت أناني جدًا يا جوشوا".

"حسنًا يا أمي. ماذا عن العشاء، قبل الدراسة أم بعدها؟"

"قبلها، كما أظن يا جويس، أليس كذلك؟ يجب أن أعمل على الفأر المستقبلي طول الليل".

"الفأر المستقبلي".

"اسكت يا أوسكار، أحاول الإصغاء لوالدك".

"لأنني سألقي محاضرة غدًا ولذلك من الأفضل أن أتعشى باكرًا. إذا كنت لا تمانعين يا آيري، أعرف كيف تحبين طعامك".

"لا مانع عندي".

"لا تتفوه بأمور كهذه يا ماركوس، عزيزي، هي حساسة جدًا حيال وزنها".

"كلا، لست في الحقيقة..."

"حساسة؟ حيال وزنها؟ لكن الجميع يحبون الفتاة الكبيرة، أليس كذلك؟ أعرف أنني أفعل".

"مساء الخير جميعًا. كان الباب مفتوحًا فدخلت. في أحد الأيام سيدخل أحد ما إلى هنا ويقتل الجميع".

"ميلات، أوسكار، انظر إنه ميلات! أوسكار، أنت سعيد جدًا لرؤية ميلات، أليس كذلك يا عزيزي؟"

عصر أوسكار أنفه، وتظاهر بأنه يتقيأ ورمى مطرقة خشبية على قصبة ساق ميلات.

"يفرح أوسكار حين يراك. حسنًا. وصلتَ في الوقت المناسب لتناول العشاء، الفروج مع القرنبيط المطبوخ مع الجبنة. اجلس. جوش، ضع معطف ميلات في مكان ما. وهكذا، كيف هي الأمور؟"

جلس ميلات إلى الطاولة بحركة عنيفة وبدت عيناه كما لو أنه بكى مؤخرًا. سحب علبة تبغه وكيسًا صغيرًا من الماريجوانا.

"سيئة جدًا".

سأل ماركوس بانتباه قليل، منشغلًا بقطع قطعة لنفسه من قالب كبير من جبنة الستلتون: "بأي معنى سيئة؟ لم تستطع أن تمارس الجنس مع الفتيات؟ لم يستطعن النوم معك؟ الفتيات لا يلبسن بنطلونات؟ يهمني أن أعرف أي نوع من البنطلونات كانت ..."

صاح جوشوا: "توقف يا أبي".

قال ماركوس ناظرًا بشكل محدد إلى آيري: "حسنًا، إذا ضاجعت أحدًا ما سأقدر أن أشعر بالإثارة من خلالك، لكن حتى الآن..."

قالت جويس: "اسكتا أنتما الاثنان، أحاول الإصغاء لميلات".

منذ أربعة أشهر بدا لجوش أن الحصول على زميل لطيف كميلات أمر جيد له. ذلك أن وجوده كل ثلاثاء في المنزل رفع رصيد جوش في جلينارد أوك أكثر مما استطاع أن يتصور. والآن بعد أن صار ميلات يأتي بنفسه متشجعًا من آيري

في زيارات اجتماعية، كان يجب أن يشعر جوشوا تشالفن، لا جوشوا البدين، بأن نجمه يرتفع. لكنه لم يشعر. شعر بأنه مستاء جدًا. ذلك أن جوشوا لم يضع في حسابه قوة جاذبية ميلات وصفاته التي كالمغناطيس. رأى أن آيري لا تزال في العمق عالقة به كمثل مشبك ورق وحتى أمه بدت أحيانًا أنها تركز على ميلات فقط، ذلك أن كل طاقتها للبستنة ولأطفالها وزوجها تدفقت وعلقت بهذا الشيء الوحيد ككثير من برادات الحديد. وقد أغضبه هذا جدًا.

"لا أستطيع التحدث الآن؟ لا أستطيع التحدث في منزلي؟"

"لا تكن سخيفًا يا جوشوا. ميلات على ما يبدو متضايق... أحاول فقط التعامل مع هذا في هذه اللحظة".

قال ميلات في نبرة منخفضة وماكرة: "المسكين الصغير جوشوا. لا يحصل على انتباه كاف من أمه؟ يريد من أمه أن تمسح له مؤخرته؟"

قال جوشوا: "اللعنة عليك يا ميلات".

"أووووه!"

توسل جوشوا، باحثًا عن حكم خارجي: "جويس، ماركوس، قولا له".

وضع ماركوس قطعة كبيرة من الجبنة في فمه وهز كتفيه: "أخشى أن ميلات تحت سلطة أمك القضائية".

بدأت جويس: "دعوني أبدأ بهذا أولًا يا جوشي، ثم فيما بعد..." جعلت جويس بقية جملتها تضيع في صوت باب المطبخ حين أغلقه ابنها الأكبر.

سأل بنجامين: "هل أذهب بعد...".

هزت جويس رأسها وقبلت بنجامين على خده: "كلا يا بنجي، من الأفضل تركه".

استدارت إلى ميلات، لامسة وجهه متعقبة ممر دمعة مالحة قديمة بإصبعها. "الآن. ما الذي يجري؟"

بدأ ميلات بلف سيجارة الماريجوانا ببطء. كان يحب أن يجعلهم ينتظرون. تستطيع أن تحصل على المزيد من آل تشالفن إذا تركتهم ينتظرون.

"آه يا ميلات، لا تدخن تلك المادة. لا نراك إلا وأنت تدخن هذه الأيام. هذا يزعج أوسكار كثيرًا. ليس صغيرًا ويفهم أكثر مما تعتقد. يفهم عن الماريجوانا؟"

سأل أوسكار: "ما الماري وانا؟"

"تعرف ما هي يا أوسكار. هي ما يجعل ميلات مريعًا، كما كنا نتحدث عنه اليوم، إنها ما يقتل خلايا الدماغ الصغيرة التي لديه".

"انزلي عن ظهري اللعين يا جويس".

تنهدت جويس بشكل ميلودرامي ووضعت أصابعها في شعرها: "أحاول فقط أن...، ميلات، ما المشكلة؟ هل تحتاج إلى نقود؟"

"نعم، أحتاج، بسبب ما حدث".

"لماذا؟ ما الذي حدث؟ ميلات. تحدث معي. الأسرة ثانية؟"

أغلق ميلات العلبة الكرتونية البرتقالية ووضع السيجارة بين شفتيه: "طردني والدي".

قالت جويس التي انهمرت دموعها على الفور وقربت كرسيها وأمسكت يده: "آه يا إلهي!، لو كنت أمك سأفعل... بأية حال، لست أمك... لكنها غير كفء... يجعلني هذا... أعني، تخيل جعل زوجك يأخذ أحد أبنائك ويفعل ما لا يعرف إلا الله بالآخر. فقط..."

"لا تتحدثي عن أمي. لم تلتق بها أبدًا. لم أكن حتى أتحدث عنها".

"حسنًا، هي ترفض اللقاء بي، أليس كذلك؟ كما لو أننا كنا نتنافس".

"اخرسي يا جويس".

"حسنًا، لا يوجد هدف، أليس كذلك؟ الدخول في... يزعجك أن... أستطيع رؤية هذا، بوضوح، إنه قريب جدًا ل... ماركوس، أحضر بعض الشاي، يحتاج إلى الشاي".

"اللعنة! لا أريد أي شاي لعين. كل ما تفعلينه هو شرب الشاي. يجب أن تشخي شايًا نقيًا".

"ميلات، أنا أحاول فقط..."

"إذًا لا تحاولي".

سقطت بذرة ماريجوانا صغيرة من سيجارة ميلات والتصقت بشفتيه فالتقطها وبلعها في فمه. "ينفعني بعض البراندي، إذا كان يوجد لديكم".

نظرت جويس إلى آيري وعلى وجهها نظرة ماذا تستطيعين أن تفعلي وطلبت منها إحضار جرعة صغيرة من براندي نابليون التي لديها المعتق ثلاثين سنة بعد أن قاستها بين السبابة والإبهام. وقفت آيري على دلو مقلوب كي تنزل زجاجة البراندي عن الرف.

"حسنًا، لنهدأ. حسنًا؟ حسنًا. ما الذي حدث هذه المرة؟"

"دعوته فرجًا. إنه فرج". ضرب ميلات أصابع أوسكار الزاحفة التي كانت تبحث عن شيء تلعب به ووصلت نظريًا إلى علبة كبريته. "أحتاج إلى مكان ما أبقى فيه قليلًا".

"حسنًا، هذه ليست مشكلة. تستطيع أن تبقى في بيتنا بشكل طبيعي".

دخلت آيري بين جويس وميلات كي تضع كأس البراندي ذا القاعدة الكبيرة على الطاولة.

"حسنًا يا آيري، أعطه مجالًا".

"كنت فقط..."

"نعم، حسنًا يا آيري هو فقط لا يحتاج إلى الحشد في هذه اللحظة".

قاطع ميلات بصيحة، ناظرًا في المسافة الوسطى ومتحدثًا مع المستنبت كما لو مع الجميع: "إنه منافق لعين. يصلي خمس مرات في اليوم لكنه يشرب وليس لديه أي أصدقاء مسلمين، ثم هاجمني بعنف لأنني ضاجعت فتاة بيضاء، وهو مستاء جدًا حيال ماجد. ويحملني مسؤولية كل أخطائه. ويريدني أن أقطع علاقتي بمنظمة كيفن. أنا مسلم أكثر منه. اللعنة عليه!"

قالت جويس ناظرة بشكل هادف في الغرفة: "هل تريد أن تتحدث عن الأمر والكل هنا. أم فقط نحن؟"

قال ميلات، متجرعًا كأس البراندي في جرعة واحدة: "جويس، لا يهمني".

فهمت جويس هذا بأنه يعني هي وهو فقط وأخرجت البقية من الغرفة بعينيها.

كانت آيري سعيدة لأنها غادرت. وفي الأشهر الأربعة التي كانت تأتي فيها هي وميلات إلى عائلة تشالفن، وتدرس العلوم المزدوجة [131] وآلات النفخ، وتأكل ما يختارونه من الطعام المسلوق، تطور نموذج غريب. كلما حققت آيري المزيد من التقدم، سواء في دراساتها ومحاولاتها للقيام بمحادثة لبقة أو في محاكاتها المدروسة للتشالفينية، قلَّ اهتمام جويس بها. لكن كلما ازداد انحراف ميلات عن السكة، وأتى دون دعوة ليلة الأحد، وأحضر معه الفتيات ودخن الماريجوانا في كل المنزل، وشرب مشروبهم دوم بريجنون من عام 1964 بشكل سري، وتبول في حديقة الزهور، وعقد اجتماعًا لكيفن في الغرفة الأمامية، وسبّب فاتورة كلفت 300 جنيه بعد أن اتصل بينغلادش، وقال لماركوس إنه لواطي، وهدد بخصي جوشوا، ودعا أوسكار الخرية الصغيرة المدللة، واتهم جويس نفسها بأنها مهووسة، ازداد هيام جويس به. وبعد ثلاثة أشهر صار مدينًا لها بثلاثمائة جنيه، وفرشة جديدة، وعجلة دراجة هوائية.

سأل ماركوس وهو يغلق باب المطبخ على الاثنين، وانحنى بهذه الطريقة أو تلك كقصبة حين كان أولاده يعبرونه: "هل ستصعدين إلى الطابق العلوي؟ لدي تلك الصور التي تريدين رؤيتها".

خصت آيري ماركوس بنظرة شكر. بدا أن ماركوس هو الذي يضع عينه عليها. وكان ماركوس هو الذي ساعدها في تلك الأشهر الأربعة حين تغير دماغها من شيء ما لين إلى شيء صلب ومعرف، وهي تكسب ببطء معرفة بطريقة تفكير آل تشالفن. فكرت بهذا كتضحية كبيرة من قبل رجل مشغول، ولكن في وقت متأخر جدًا تساءلت إن كان هناك بعض المتعة في ذلك ربما كمثل مراقبة رجل أعمى يستشعر محيط شيء جديد أو فأر مخبر يفهم متاهة. ومقابل انتباهه بدأت آيري تهتم، في البداية استراتيجيًا، والآن بشكل حقيقي، بفأر المستقبل. بالتالي صارت الدعوات إلى مكتب ماركوس في قمة المنزل حتى الآن أكثر تكررًا وكانت هذه غرفتها المفضلة.

"حسنًا، لا تقفي هناك مبتسمة كأبله القرية، هيا اصعدي".

كانت غرفة ماركوس مختلفة عن أي مكان سبق وشاهدته آيري. ولم يكن فيها شيء مشترك، ولا هدف آخر لها إلا أنها غرفة ماركوس. لم يكن فيها لعب أو خردوات أو أشياء مكسورة أو ألواح كوي احتياطية، ولا أحد يأكل فيها، أو ينام أو يمارس الجنس. ولم تكن كمكان كلارا في العلية، زانادو[132] من الأشياء التافهة الموضبة بعناية في علب وعليها لصقات بأسماء الأشياء في حال اضطرت للهرب من هذه الأرض إلى أرض أخرى. ولم تكن مثل الغرف الاحتياطية للمهاجرين المكتظة إلى الدعامات بكل ما يملكونه، مهما كان سيئًا وتالفًا، بجبال من الأشياء المتنوعة، التي تقف شاهدة على حقيقة أن لديهم أشياء الآن، بينما لم يكن لديهم من قبل. وكانت غرفة ماركوس مخصصة بشكل خاص لماركوس وعمل ماركوس. كانت مكتبًا كما في "أوستن [133]" أو في "سكان الطابق العلوي وسكان الطابق السفلي [134]"، أو "شرلوك هولمز". وكان هذا المكتب الأول الذي سبق أن شاهدته آيري في الحياة الواقعية.

كانت الغرفة نفسها صغيرة وشاذة وأرضيتها منحدرة. وعنت الأفاريز الخشبية أنه من الممكن الوقوف في بعض الأمكنة لكن ليس في أخرى وهناك كوة بدلًا من نافذة تسمح للضوء بالدخول في قطع، في بقع ضوئية للغبار الراقص. وكان فيها أربعة خزانات للملفات، كوحوش بأفواه مفتوحة تبصق الأوراق، وكانت الأوراق في أكوام على الأرض وعلى الرفوف وفي دوائر حول الكراسي. وكانت رائحة تبغ ألماني عذبة وغنية تقف في سحابة على مستوى الرأس فحسب، صابغة أوراق الكتب العلوية بالأصفر، وكان هناك عدة تدخين متقنة على الطاولة الجانبية: مشارب احتياطية وغلايين تتسلسل من الأويند العادية إلى أشكال مثيرة للفضول أكثر، وعلب سعوط ونخبة من مناديل التعقيم، وكلها موضوعة في علبة جلدية مخططة بالمخمل كعدة طبيب. وكانت تتناثر على الحيطان وتخطط الموقد صور عائلة تشالفن، بما فيه صور لجويس تبدو فيها وسيمة في شبابها الهيبّي ذي الصدر الصغير، وبأنف أفطس ينتأ بين غمدي شعر كبيرين. وكانت هناك بضع صور

محورية أكبر مؤطرة وخريطة لشجرة أنساب عائلة تشالفن وصورة وجهية لميندل يبدو مسرورًا من نفسه فيها[135] وبوستر كبير لآينشتاين في مرحلة شهرته الأميركية، بشعر أستاذ مجنون، ونظرة "مندهشة" وغليون ضخم، بعنوان مقتطف: "الله لا يلعب النرد مع العالم". أخيرًا، كرسي الذراعين الضخم الذي من خشب البلوط الخاص بماركوس والمستند على صورة لكريك وواتسون[136] يبدوان متعبين لكنهما يشعران بالنشوة أمام نموذجهما من الحمض النووي الريبي منقوص الأوكسجين، وهناك درج لولبي من المشابك المعدنية، يمتد من أرض مختبرهما في كامبردج إلى ما وراء عدسات المصور.

سأل ماركوس، منحنيًا حيث ينخفض السقف ورابتًا على صورة بقلم رصاص: "لكن أين ويلكينز؟[137] في 1962 فاز ويلكينز بجائزة نوبل في الطب مع كريك وواطسون. لكن لا إشارة إلى ويلكينز في الصور، فقط كريك وواطسون، واطسون وكريك. إن التاريخ يحب العباقرة المتوحدين أو الأفعال المزدوجة. لكن ليس لديه وقت للثلاثي". فكر ماركوس ثانية: "إلا إذا كانوا كوميديين أو عازفي جاز".

قالت آيري بابتهاج، مستديرة عن الصورة وجالسة على الكرسي السويدي الذي لا ظهر له: "أفترض أنك ستكون عبقريًا متوحدًا، إذًا".

"آه، لكن لدي مُرشد، كما ترين". أشار إلى صورة بالأبيض والأسود بحجم بوستر على الحائط الآخر: "والمرشدون نوع مختلف من البشر".

كانت صورة مكبرة جدًا لرجل بالغ الكهولة، محيط وجهه معرف بوضوح بخط وظل، خطوط متوازية على خريطة طوبوغرافية.

"عجوز فرنسي عظيم، سيد وباحث. عمليًا علمني كل ما أعرفه. في حوالي السبعين وحاد كالسوط. لكن كما ترين، لا تحتاجين إلى أن تمنحي المرشد الاستحقاق بشكل مباشر. هناك شيء عظيم حيالهم. والآن أين الصورة اللعينة..."

وبينما كان ماركوس يبحث في خزانة ملفات، درست آيري قطعة صغيرة من شجرة عائلة تشالفن، شجرة بلوط مرسومة بشكل واضح تعود إلى القرن السابع عشر وتتواصل إلى اليوم الحالي. وتوضحت الفروق بين آل تشالفن وجونز\

بودن على الفور. بالنسبة للمبتدئين، في عائلة تشالفن لكل واحد عدد سوي من الأطفال. وكان كل واحد منهم يعرف من هم أبناؤه والرجال يعيشون أكثر من النساء والزيجات فردية وتستمر طويلًا وتواريخ الولادة ملموسة. وكان آل تشالفين يعرفون بالفعل من كانوا في 1675. ولم يكن آرشي جونز قادرًا أن يقدم سجلًا أطول لعائلته أكثر من ظهور أبيه الخطر على الكوكب في الغرفة الخلفية في بار بروملي حوالي 1895 أو 1896 أو ربما 1897، وهذا يعتمد على أي ساقية بين سن التسعين والتسع وتسعين تتحدث معها. وكانت كلارا بودن تعرف القليل عن جدتها، ولم تصدق بشكل كامل أن عمها المشهور وغزير الأولاد بي كان له 34 ولدًا، لكنها تستطيع أن تعلن بشكل محدد أنها أمها ولدت في الثالثة إلا ربعًا في 14 كانون الثاني\يناير في 1907 في كنيسة كاثوليكية أثناء زلزال كنجستون. ما تبقى كان إشاعة، حكاية فولكلورية وأسطورة:

جامع رجل آخر الجدة الثالثة (السيدة تي) التي جامعت الجد الثالث في وقت مجهول وجاء رجل آخر ربته الجدة في وقت لا يعرفه أحد ثم نتج عن مجامعة الجدة الثالثة للجد الثالث كل من:

أم الجدة أمبروسيا بودن

(1950-1890)

جامعت الكابتن تشارلي ويتني دورهام

(1880 - الله يعلم متى)

الجدة

هورتينس بودن

(-1907)

1947

داركوس بودن

(1985-1910)

كلارا بودن + آرشي جونز

(-1955) (-1927)

إري أمبروسيا جونز

(-1975)

ثم كان هناك خالة الأم بي (1960-1890) ويعلم الله كم من النساء وجاء من هذا الخط 34 ولدًا بينهم الخالة سوسي وبوبو وجي مان ودلروي وبيكفيس والسيدة بينلوبي. ثم خالة الأم مي شيل التي لا يعرف عن سلالتها شيء وبعد ذلك خالة الأم لافينا مجهولة النسل وخالة الأم باتريسيا التي أنجبت ثلاثة أولاد ربتهم الجدة.

قالت آيري حين جاء ماركوس من خلفها ليشاهد ما الذي كانت تنظر إليه: "أنتم تعودون كثيرًا إلى الخلف. هذا لا يُصدق. لا أستطيع أن أتخيل كيفية الشعور بهذا الأمر".

قال ماركوس وهو يفكر، حاشيًا غليونه بتبغ طازج: "هذه عبارة لا معنى لها. كلنا نعود إلى الخلف بنفس القدر. فقط آل تشالفن كتبوا الأمور ووثقوها. هذا يساعد إذا كنت تريدين أن يتم تذكرك".

عقبت آيري هازة كتفيها: "أعتقد أن عائلتي تنتمي أكثر إلى تراث شفهي، لكن يجب أن تسأل ميلات عن هذا. إنه منحدر من..."

"متمرد كبير، سمعت هذا. لن آخذ هذا الكلام على محمل الجد لو كنت مكانك. هناك جزء من الحقيقة وثلاثة أجزاء من الخيال في تلك العائلة، كما أظن، هل توجد أي شخصية تاريخية مهمة في عائلتك؟" سألها ماركوس، ثم على الفور غير مهتم بسؤاله، عاد كي يبحث في الخزانة رقم 2.

"كلا... لا يوجد... لكن جدتي ولدت في كانون الثاني 1907 أثناء زلزال...".

"وجدتها".

صاح ماركوس منتصرًا أمام درج فولاذي، أخرج ملفًا بلاستيكيًا رقيقًا فيه بعض الأوراق.

"صور. خاصة لك، لو شاهدها المدافعون عن حقوق الحيوان لقتلوني. واحدة بعد أخرى الآن. لا تمسكي بها".

مرر ماركوس الصورة الأولى لآيري، كانت لفأر مقلوب على ظهره، معدته منقطة بأشياء صغيرة نامية كالفطور، بنية ومنتفخة، فمه موسّع بشكل غير طبيعي بوضعية السجود، إلى صيحة ألم، اعتقدت آيري أنها تشبه أكثر ألمًا مسرحيًا، كان كفأر يقوم بعرض كبير لشيء ما، فأر مهرج، فأر للتمثيل. كان هناك شيء ساخر فيه.

"كما ترين، خلايا الجنين كلها جيدة جدًا، تساعدنا في فهم العناصر الوراثية التي يمكن أن تؤدي إلى السرطان، لكن ما تريدين في الحقيقة معرفته هو كيف يتقدم الورم في النسيج الحي، أعني، لا تستطيعين أن تقاربي هذا في ثقافة، كلا في الحقيقة. وهكذا تنتقلين إلى إدخال مواد مسرطنة كيماوية في العضو الهدف لكن..."

لم تكن آيري تستمع بشكل كامل، كان نصف ذهنها منشغلًا بالصور التي أراها لها. وكانت الصورة الثانية للفأر نفسه، حيث شاهدت الآن أن الأورام في مقدمته أكبر. وكان هناك ورم في عنقه يعادل أذنه في الحجم. لكن الفأر بدا مسرورًا تمامًا حياله، كما لو أنه طور بشكل مقصود جهازًا جديدًا كي يسمع ما يقوله ماركوس عنه. وكانت آيري واعية أنه من الغباء التفكير بفأر تجارب. لكنها شاهدت مرة ثانية في وجه الفأر مكر فأر. وكانت هناك سخرية فأر في عينيه الفأريتين. ولعبت ابتسامة فأر على شفتيه الفأريتين. مرض خبيث؟ (قال الفأر لآيري) ما هو المرض الخبيث؟

"... بطيء وغير دقيق. لكن إذا أعيدت هندسة الجينوم الحقيقي، فإن

الأورام السرطانية المحددة تظهر في أنسجة معينة في أوقات محددة مسبقًا في تطور الفأر، عندها تتوقفين عن التعامل مع العشوائي. أنت تزيلين الأفعال العشوائية للموتاجين (مولّد الطفرة). أنت تتحدثين هنا عن البرنامج الجيني للفأر، عن قوة تنشّط الجينات المسرطنة داخل الخلية. والآن ترين أن هذا الفأر الخاص ذكر وشاب..."

حُمل فأر المستقبل من قدميه الأماميتين بأصابع وردية عملاقة وأُوقف عموديًا كفأر أفلام كرتون، وأجبر نفسه على رفع رأسه للأعلى. وبدا كأنه يخرج لسانه الفأري على المصور في البداية ثم على آيري الآن. وعلى ذقنه كانت الأورام كمثل قطرات كبيرة من المطر المتسخ.

"...ويعبر عن جين راس الورمي في بعض خلاياه الجلدية، وهكذا يطور أورامًا جلدية خبيثة. الآن ما هو مهم، بالطبع، هو أن الإناث الصغيرات لا يطورنه، وهذا..." كانت إحدى العينين مغمضة، والأخرى مفتوحة كغمزة. غمزة فأرية متقنة.

..."ولماذا؟ بسبب خصام ذكوري داخلي قادت المعارك إلى تآكل، وهذا ليس أمرًا بيولوجيًا ملحًا بل هو اجتماعي وتكون النتيجة الوراثية نفسها. أتفهمين؟ وفي الفئران المعدلة وراثيًا، فقط إذا قمت بإضافات تجريبية إلى الجينوم، تستطيعين فهم هذا النوع من الاختلافات. وهذا الفأر، الذي تنظرين إليه، هو فريد يا آيري. أزرع السرطان، والسرطان يظهر حيث أتوقعه. يحتاج إلى 15 أسبوعًا للتطور. شفرته الوراثية جديدة. سلالة جديدة. لا حجة أفضل لبراءة اختراع، إذا سألتيني. أو على الأقل، صفقة عائدات مالية ما: 80% لله، 20% لي. أو بالعكس، وهذا يعتمد على ذكاء المحامي الذي سأوكله. ولا يزال أولئك الأوغاد في هارفارد يحاربون المسألة. أنا غير مهتم ببراءة الاختراع، شخصيًا. أنا مهتم بالعلم".

قالت آيري معيدة الصور بتردد: "رائع! من الصعب الفهم. فهمت نصف الكلام والنصف الآخر لم أفهمه مطلقًا. لكنه مذهل".

قال ماركوس في تواضع مزيف: "هذا يملأ الوقت".

"أنت تكون قادرًا على استئصال العشوائي..."

قال ماركوس ببساطة: "تستأصلين العشوائي، تحكمين العالم، لماذا التقيد بالجينات المسرطنة؟ يستطيع المرء أن يبرمج كل خطوة في الكائن: التناسل وعادات الطعام ومتوسط الحياة"، الذراعان منشوران مثل زومبي، مقل أعين دوارة كمثل لعبة "الهيمنة على العالم".

قالت إري: "أستطيع أن أرى عناوين الصحيفة الشعبية".

قال ماركوس وهو يعيد ترتيب صوره في الملف ويتحرك نحو الخزانة كي يصنفها من جديد: "الحقيقة إن دراسة سلالات معزولة من الحيوانات المعدلة وراثيًا تلقي ضوءًا حاسمًا على العشوائي. هل تصغين إلي؟ فأر يضحي من أجل 5,3 بليون بشري. هذه ليست كارثة فأرية. لا نطلب الكثير".

"كلا، بالطبع كلا".

"اللعنة، هذه الخزانة فوضى كاملة".

حاول ماركوس ثلاث مرات أن يغلق الدرج السفلي لخزانته، ثم بعد أن عيل صبره وجه رفسة إلى الجوانب الفولاذية.

"شيء لعين!"

حدقت إري فوق الدرج المفتوح وقالت بتصميم: "تحتاج إلى المزيد من الفواصل، وكثير من الورق الذي تستخدمه هو قياس إي 3 وإي 2 أو ورق شاذ. تحتاج إلى نوع من سياسة الطي، في هذه اللحظة أنت تقحمها فحسب".

أدار ماركوس رأسه إلى الخلف وضحك: "سياسة طي! حسنًا، أفترض أنك يجب أن تعرفي، أنت طالعة لأبيك".

انحنى فوق الدرج وحاول دفعه عدة مرات.

"أنا جدية. لا أعرف كيف تعمل هكذا. إن براز مدرستي مرتب بشكل أفضل من هذا، وأنا لست في عمل الهيمنة على العالم".

نظر ماركوس إلى الأعلى إليها من حيث كان يركع. كانت كمثل سلسلة جبلية من تلك الزاوية. نسخة ناعمة ومخففة عن جبال الآنديز.

"استمعي، سأدفع لك خمسة عشر جنيهًا في الأسبوع إذا جئت مرتين في الأسبوع وحللت كارثة التصنيف هذه، فما رأيك؟ ستتعلمين المزيد، وستقومين بعمل أحتاج إلى إنجازه، ما رأيك؟"

ما رأيك؟ كانت جويس تدفع لميلات 35 جنيهًا في الأسبوع من أجل أنشطة مثل الجلوس مع أوسكار وغسل السيارة والتعشيب وتنظيف النوافذ وإعادة تدوير كل الورق الملون. ما كانت تدفع مقابله في الحقيقة هو حضور ميلات. تلك الطاقة حولها، وتلك الحاجة.

عرفت آيري أن الصفقة التي ستعقدها لم تكن مع سكير أو مخدَّر أو يائس أو مشوش، كما فعل ميلات. فضلًا عن ذلك، أرادت هذا، أرادت الاندماج مع عائلة تشالفن، أن تكون مولودة من ضلعهم، وأن تنفصل عن الضلع العشوائي والفوضوي لعائلتها وتنصهر بتعديل جيني مع آخر، مع حيوان فريد، مع سلالة جديدة.

تجهم ماركوس: "لماذا كل هذا التفكير؟ أحب جوابًا في هذه الألفية، إذا كان هذا لا يضايقك. هل هي فكرة جيدة أم لا؟

هزت آيري رأسها وابتسمت: "أكيد. متى أبدأ؟"

*****

لم تكن ألسانا وكلارا مسرورتين كثيرًا، لكن استغرق الأمر فترة كي تقارنا الملاحظات وتدعما عدم سرورهن. كانت كلارا تذهب إلى المدرسة الليلية ثلاثة أيام في الأسبوع (المناهج: الإمبريالية البريطانية من 1765 إلى اليوم الحالي، والأدب الويلزي القروسطي، والنسوية السوداء)، وكانت ألسانا تعمل على آلة الخياطة كل ساعات النهار التي منحها الله لها بينما كانت الحرب العائلية تدور حولها. كانتا تتبادلان محادثة هاتفية أحيانًا وتلتقيان بشكل أقل. لكن الاثنتين شعرتا بقلق منفصل حيال عائلة تشالفن، بعد أن صارتا تسمعان عنها المزيد. وبعد عدة أشهر من التجسس السري تأكدت ألسانا من أن ميلات يذهب إلى بيت عائلة تشالفن أثناء غيابه المنتظم من منزل العائلة. وبالنسبة لكلارا، كانت محظوظة

برؤية آيري ليلة في الأسبوع، ومنذ وقت طويل تذمرت من أعذارها بخصوص كرة الشبكة. وكانت تسمع طيلة أشهر أن عائلة تشالفن كذا وعائلة تشالفن كذا، وقالت جويس هذا الشيء الرائع، وماركوس ذكي جدًا. لكن كلارا لم تكن شخصًا يعترض علنًا، فقد كانت تريد بلهفة ما هو الأفضل لآيري، واقتنعت دومًا بأن التضحية هي تسعة أعشار التربية العائلية، حتى أنها اقترحت لقاء بينها وبين عائلة تشالفن، لكن إما أن كلارا كانت مصابة بجنون العظمة أو أن آيري بذلت ما بوسعها لتجنبه. ولم تكن هناك جدوى من التطلع إلى أرشيبالد من أجل الدعم. كان يلمح آيري فقط، حين تأتي إلى المنزل كي تستحم، وتلبس أو تأكل، ولم يبد أنه يتضايق إن تحدثت بلا نهاية حول أطفال تشالفن (يبدون جيدين يا حبي)، أو عن شيء فعلته جويس (هل فعلت؟ هذا ذكي جيدًا، أليس كذلك يا حبي؟)، أو شيء ما قاله ماركوس (يبدو كآينشتاين العظيم يا حبي. حسنًا، جيد لك. يجب أن أذهب. سألتقي مع صمد في أوكونيل في الثامنة). كان لآرشي جلد سميك كجلد التمساح. كونه أبًا كان موقعًا وراثيًا قويًا في ذهنه (الحقيقة الأقوى في حياة آرشي). ولم يخطر في باله أنه قد يكون هناك أي متحد لتاجه. وتُرك الأمر لكلارا كي تواجه الأمر لوحدها، وتأمل أنها لا تفقد ابنتها الوحيدة، وتدفع الثمن.

واستنتجت ألسانا أخيرًا أنها حرب شاملة وأنها بحاجة إلى حليف. وفي أواخر كانون الثاني\يناير 1991، بعد أن خرج عيد الميلاد ورمضان بشكل آمن من الطريق، التقطت السماعة.

"هل تعرفين عن الحساسين الظالمة [138]؟"

قالت كلارا بمكر، لأنها تريد أن تعرف ما تعرفه ألسانا أولًا: "تشالفن. أعتقد أن الاسم تشالفن. نعم، إنهما والدا صديق لآيري، كما أعتقد، جوشوا تشالفن. يبدو أنهم عائلة ظريفة".

نفخت ألسانا الهواء من أنفها. "سأدعوهم الحساسين الظالمة، وهي طيور إنكليزية صغيرة تنقب في القمامة وتنقر أفضل البذور. هذه الطيور تفعل الشيء

نفسه لبذوري كما يفعل هؤلاء الأشخاص لابني. لكنهم أسوأ، إنهم كطيور لها أسنان، بأنياب حادة صغيرة، لا تسرق فقط، بل تمزق! ما الذي تعرفينه عنهم؟"

"الحقيقة لا شيء. كانوا يساعدون آيري وميلات في العلوم، هذا ما قالته لي. لا يوجد أذى يا ألسي وآيري تتقدم جيدًا في المدرسة الآن، وهي خارج البيت طيلة الوقت، لكنني لا أستطيع في الحقيقة أن أجزم."

سمعت كلارا ألسانا تخبط على درابزين إقبال بغضب: "هل التقيت بهم؟ لأنني لم ألتق بهم، ومع ذلك يشعرون بالحرية لمنح ابني النقود والمأوى إذا لم يكن لديه أي منهما، ويتحدثون عني بشكل سيّئ دون شك. من هم؟ لا أعرفهم أبدًا! يمضي ميلات كل دقيقة لديه عندهم ولا أجد تحسنًا معينًا في علاماته ولا يزال يدخن الماريجوانا وينام مع الفتيات. أحاول أن أخبر صمد، لكنه في عالمه، لن يصغي فحسب. يصرخ فقط على ميلات ولا يتحدث معي. نحاول أن نجمع النقود كي نعيد ماجد، وإلى مدرسة جيدة. أحاول أن أبقي هذه العائلة مع بعضها بينما عائلة الحساسين الظالمة تحاول تفكيكها".

عضت كلارا شفتها وهزت رأسها بصمت فوق السماعة.

"هل أنت على الخط يا سيدة؟"

قالت كلارا: "نعم. نعم، كما ترين، آيري... تبدو كأنها تعبدهم. تضايقتُ في البداية ثم ظننتُ أنني سخيفة فقط. يقول آرشي إنني سخيفة".

قالت ألسانا، وضج نَفَسُها الثقيل في السماعة، بدا صوتها منهكًا: "إذا قلتِ لرأس البطاطا ذاك أنه لا يوجد جاذبية على القمر سيظن أنك سخيفة. واصلنا حياتنا دون رأيه لخمس عشرة سنة، وسنتدبر أمرنا من دونه. كلارا، دومًا ندعم بعضنا وأنا بحاجة إليك الآن".

"نعم... أفكر فحسب..."

"من فضلك لا تفكري. حجزت لحضور فيلم قديم وفرنسي كما تحبين، الثانية والنصف اليوم. قابليني أمام مسرح ترايسكل. ابنة أخي المسببة للعار قادمة أيضًا. سنتناول الشاي ونتحدث".

كان الفيلم هو "مقطوع النفس"، وهو فيلم شعبي بالأبيض والأسود: سيارات فورد قديمة وجادات، مصادفات ومناديل وقبلات وسجائر، وقد أحبته كلارا (الجميل بيلموندو! الجميل سبيرغ! الجميلة باريس). وجدت نينا الفيلم فرنسيًا جدًا، ولم تستطع ألسانا أن تفهم عم يتحدث. "شابتان تتجولان في أنحاء فرنسا وتتحدثان الهراء وتقتلان رجال الشرطة وتسرقان السيارات، ولا تلبسان حمالات صدر أبدًا. إذا كانت هذه هي السينما سأفضل حضور أفلام بوليوود كل يوم من الأسبوع. الآن يا سيدات هل ندخل في العمل؟"

ذهبت نينا وأحضرت الشاي ووضعتها على الطاولة الصغيرة.

"وماذا عن مؤامرة طيور الحساسين الظالمة هذه؟ تبدو كأحد أفلام هيتشكوك".

شرحت ألسانا الموقف باختزال.

مدت نينا يدها إلى علبة تبغها الكونسوليتز، أشعلت سيجارة واستنشقت دخانًا منكهًا بالنعناع. "خالتي، يبدون عائلة ظريفة من الطبقة الوسطى يساعدون ميلات في دراسته. ألهذا تركتُ عملي كي ألتقي بكما؟ أعني، هذه ليست بلدة جونز، أليس كذلك؟"

قال كلارا بحذر: "كلا. كلا، بالطبع، لكن كل ما تقوله خالتك هو أن ميلات وآيري يمضيان الكثير من الوقت هناك، وهكذا نود فقط أن نعرف قليلًا أكثر عنهم. هذا طبيعي، أليس كذلك؟"

اعترضت ألسانا: "ليس هذا كل ما قلته. قلت إن هؤلاء يأخذون ابني مني. طيور بأسنان! إنهم يحولونه إلى إنكليزي بشكل كامل! يقودونه بتعمد بعيدًا عن ثقافته وعائلته ودينه".

"ومنذ متى اكترثت بدينه".

"أنت يا ابنة الأخ الجالبة للعار، لا تعرفين كيف أتعرق دمًا من أجل ذلك الفتى، لا تعرفين عن..."

"حسنًا، إذا كنت لا أعرف أي شيء عن أي شيء فلماذا إذًا أحضرتيني إلى

هنا؟ لدي أمور أخرى كي أفعلها". انتشلت نينا حقيبتها واستعدت للرحيل. "آسفة يا كلارا. لا أعرف لماذا يجب أن يحدث هذا دومًا. سأراك قريبًا جدًا..."

نفخت ألسانا بعد أن أمسكتها من ذراعها: "اجلسي. اجلسي، فهمنا، أيتها الآنسة السحاقية الذكية. انظري، نحتاج إليك، حسنًا؟ اجلسي، أعتذر، أعتذر".

قالت نينا مطفئة سيجارتها بمكر على منديل: "حسنًا. لكنني سأقول ما أفكر به ولمرة واحدة: أغلقي هوة فمك وأنا أتحدث. هل ستفعلين؟ الآن قلت لتوك إن آيري تتقدم بشكل ممتاز في المدرسة، وإذا كان ميلات لا يفعل هذا، فهذا ليس لغزًا كبيرًا، لأنه لا يبذل أي جهد. على الأقل هناك من يحاول مساعدته. وإذا كان يزورهم كثيرًا فأنا متأكدة من أن هذا خياره، وليس خيارهم. ليست الأرض سعيدة في منزلك في هذه اللحظة، أليس كذلك؟ إنه يهرب من نفسه ويبحث عن شيء ما بعيدًا عن عائلة إقبال قدر الإمكان".

صاحت ألسانا بانتصار: "آه ها! لكنهم يعيشون في الجوار".

"كلا، يا خالتي. إنهم يعيشون من الناحية النظرية بعيدًا عنكم. أن يكون المرء من عائلة إقبال يؤدي هذا إلى الاختناق أحيانًا. إنه يستخدم تلك الأسرة الأخرى كملاذ. ربما كانوا يحدثون تأثيرًا جيدًا، أو شيئًا ما".

قالت ألسانا بشكل مشؤوم: "أو شيء ما".

"مم أنت خائفة يا ألسي؟ إنه من الجيل الثاني، دومًا تقولينها بنفسك، يجب أن تتركيهما يشقان طريقهما بأنفسهما. نعم، وانظري ماذا حدث لي، قد أكون ابنة الأخ الجالبة للعار بالنسبة لك، يا ألسي، لكنني أكسب رزقًا جيدًا من أحذيتي"- نظرت ألسانا بالتباس إلى البوط الأسود الذي يصل طوله إلى الركبة الذي صممته نينا وصنعته وكانت تلبسه - "وأعيش حياة جيدة، أعيش وفق مبادئ، أقول فقط إنه يخوض حربًا مع العم صمد. ولا يحتاج إلى واحدة معك أيضًا".

احتجت ألسانا وهي تشرب شايها الذي بطعم الفراولة.

"إذا كنت تريدين أن تقلقي حيال أي شيء يا عمتي فاقلقي من أعضاء منظمة كيفن الذين يتجول معهم، كل الذين لن تتوقعيهم، مو اللحام الذي تعرفينه

وحسين إسماعيل، من عائلة أردشير. حسنًا، هذا واحد. وشيفا الدموي، من المطعم، انضم إليهم أيضًا!".

قالت ألسانا بحدة: "جيد له".

"لكن هذا لا علاقة له بالإسلام الصحيح يا ألسي. إنهم مجموعة سياسية. قال لي أحد الأوغاد الصغار إنني أنا وماكسين سنُشوى في حفر جهنم. على ما يبدو نحن أدنى أشكال الحياة، أدنى من الحلازين، لقد لويت كيس خصيتيه 360 درجة. هؤلاء هم الأشخاص الذين يجب أن تقلقي منهم".

هزت ألسانا رأسها ولوحت لنينا بيدها: "ألا تفهمين؟ أقلق من أن يؤخذ ابني مني. لقد أخذوا واحدًا من قبل. لم أر ماجد لست سنوات، ست سنوات، وها أنذا أرى هؤلاء الأشخاص، الحساسين الظالمة، يمضون وقتًا مع ميلات أكثر مني. أتفهمين هذا، على الأقل؟"

تنهدت نينا، لعبت بزر في صدرها، وصمتت حين رأت عيني خالتها تدمعان واستسلمت بهزة رأس صامتة.

قالت كلارا بهدوء: "غالبًا ما يذهب ميلات وإري إلى هناك حوالي وقت العشاء. وألسانا، حسنًا، كنا نتساءل أنا وخالتك... إذا كان بوسعك أن تذهبي معهما مرة. تبدين شابة. وتستطيعين الذهاب..."

ختمت نينا الكلام وهي تدور عينيها: "وتقديم تقرير، أخترق العدو. العائلة المسكينة، لا يمتلكون فكرة مع من يخطئون، أليس كذلك؟ هم تحت المراقبة ولا يعرفون ذلك حتى. إن هذا مثل الخطوات التسع وثلاثون (139)".

"يا ابنة الأخ الجالبة للعار: نعم أم لا؟"

أنّت نينا: "نعم يا خالتي. نعم، إذا كان يجب".

"أقدر هذا كثيرًا"، قالت ألسانا منهية شايها.

*****

لم تكن جويس مصابة برهاب المثليين. كانت تحبهم ويحبونها. وقد أسست

في الجامعة دون تخطيط منها نادي هواة مثليين صغيرًا تألف من مجموعة من الرجال الذين نظروا إليها كنوع مهجن من باربرا سترايسند وبيت ديفيز وجوان بايز، وكانوا يجتمعون مرة في الشهر كي يطبخوا لها العشاء ويعجبون بذوقها في الملابس. وهكذا لم يكن بوسع جويس أن تكون مصابة برهاب المثليين. لكن بالنسبة للنساء السحاقيات كان هناك شيء ما يربك جويس حيالهن. لم يكن الأمر أنها تكرههن بل لم يكن بوسعها أن تفهمهن. فهمت جويس لماذا يحب الرجالُ الرجالَ، وكرست حياتها لحب الرجال، وهكذا كانت تعرف هذا الشعور. لكن فكرة أن تحب النساءُ نساءً كان أمرًا بعيدًا عن فهم جويس ومعرفتها للعالم بحيث لم تستطع هضمه وفهم الفكرة الكامنة وراءه. ويشهد الله أنها بذلت جهدًا. فأثناء السبعينيات قرأت برغبة **بئر العزلة** (140) و**أجسادنا أنفسنا** (141)، والذي كان فيه فصل صغير عن الموضوع، ومؤخرًا قرأت وشاهدت **والبرتقال ليس الفاكهة الوحيدة** (142)، لكن لم ينفعها ذلك. لم تشعر أن الموضوع أساء إليها إلا أنها لم تفهمه فحسب. وهكذا حين جاءت نينا في وقت العشاء متأبطة ذراع ماكسين، جلست جويس فقط محدقة إلى الاثنتين فوق المقبلات (حبوب على خبز الشعير) مركزة بشكل كامل. كانت مذهولة في الدقائق العشرين الأولى، وتركت بقية الأسرة تدخل في روتين آل تشالفن بدون دورها الصغير الحيوي كما لو أنها منومة مغناطيسيًا أو جالسة في سحابة كثيفة، وسمعت عبر الضباب نتفًا صغيرة من حديث العشاء تتواصل من دونها.

"وهكذا دومًا سؤال آل تشالفن الأول، ماذا تعملين؟"

"أحذية. أصنع أحذية".

"آه، أخشى أن هذه ليس مادة محادثة متألقة. ماذا عن السيدة الجميلة؟"

"أنا سيدة وقت فراغ جميلة. ألبس الأحذية التي تصنعها".

"آه، ليس في الجامعة إذًا".

"كلا. لم أزعج نفسي بالكلية. هل هذا جواب كاف؟"

كانت نينا مدافعة بشكل مساو: "وقبل أن تسألي، ولا أنا".

"حسنًا، لم أقصد إحراجك".

"لم تحرجيني".

"لأن هذه ليست مفاجأة حقيقية... أعرف أنكم لستم العائلة الأكثر أكاديمية في العالم".

عرفت جويس أن الأمور تأخذ منحى سيئًا لكنها لم تستطع أن تعثر على الكلام لتهدئة الوضع. مليون كلمة بمعنى مزدوج كانت تجلس في مؤخرة حنجرتها، إذا فتحت فمها، حتى ولو قليلًا، خشيت أن تخرج واحدة منها. ماركوس، الغافل دومًا عن تسبيب الإهانات قال بسعادة: "أنتما إغراء مريع للرجال".

"هل نحن؟"

"نعم، المثليّات دومًا هكذا. وأنا واثق أن السادة سيحصلون على نصف فرصة، على الرغم من أنكما ستفضلان الجمال على الفكر، وهكذا ستضيع فرصي".

"تبدو متأكدًا من فكرك بشكل مريع يا سيد تشالفن".

"ألا يجب أن أفعل؟ أنا في غاية الذكاء، كما تعرفان".

واصلت جويس النظر إليهما فحسب، مفكرة: من يعتمد على من؟ من يعلم من؟ من يحسّن من؟ من يلقح ومن يغذي؟

"حسنًا، عظيم أن يكون لدينا إقبال آخر على الطاولة أليس كذلك يا جوش؟"

قالت نينا: "أنا من عائلة بيجوم وليس إقبال".

قال ماركوس دون اكتراث: "لا أستطيع الامتناع عن التفكير بأن اختلاط رجل من آل تشالفن مع امرأة من آل إقبال سيكون جحيمًا. مثل فريد وجينجر[143]، تقدمين لنا الجنس ونقدم لك العقلانية أو شيئًا ما. ستبقين شخصًا من عائلة تشالفن مثارًا ومستعدًا، أنت نارية مثل شخص من عائلة إقبال. إنه هيام هندي. ثمة شيء ممتع في أسرتك، إن الجيل الأول كله مجانين، والجيل الثاني مجنون أيضًا".

"انظر، لا أسمح لأحد أن ينعت أسرتي بالجنون، فهمت؟ حتى ولو كانوا هكذا. سأدعو كل من يقول هذا غبيًا".

"الآن، أترين؟ حاولي أن تستخدمي اللغة بشكل ملائم. بوسعك القول: لا أحد يستطيع أن ينعت أسرتي بالجنون، لكن هذه ليست مقولة صحيحة. لأن الناس يفعلون وسيفعلون. بكل الوسائل يقولون: لا أريد الناس أن... إلخ. إنه شيء صغير، لكن نستطيع جميعًا أن نفهم بعضنا بعضًا بشكل أفضل حين لا نسيّئ استخدام المصطلحات والعبارات".

ثم، تمامًا حين مد ماركوس يده كي يخرج الوجبة الرئيسية والتي هي مزيج من لحم الدجاج والخضار، انفتح فم جويس ولسبب بسيط غير قابل للشرح جاء هذا: "هل تستخدمان أثداء بعضكما كمخدات؟"

شوكة نينا، التي كانت تتجه إلى فمها، توقفت حين وصلت إلى رأس أنفها، اختنق ميلات من قطعة الخيار. هزت آيري كتفيها كي تضع فكها السفلي في تحالف مع العلوي. بدأت ماكسين تقهقه.

لكن جويس لم تخجل أو تحمر. تنحدر جويس من نوع من النساء ذوات الذهن العنيف اللواتي واصلن السير عبر المستنقعات الأفريقية حتى بعد أن رمى المحليون الحاملون للحقائب حمولتهم وعادوا، وحتى حين كان الرجال البيض يتكئون على بنادقهم ويهزون رؤوسهم. كانت مفصلة من القماشة نفسها كسيدات الجبهة اللواتي، مسلحات فقط بالكتاب المقدس وببندقية صيد وستارة، قتلن الرجال السود الذين كانوا يتقدمون إلى الأمام من الأفق نحو السهول. ولم تكن جويس تعرف معنى التراجع، كانت ستظل في مكانها.

"في الشِعر الهندي يتحدثون عن استخدام الأثداء كمخدات، مخدات من الأثداء. تساءلت لتوي، إن نام أبيض فوق أسمر، أو كما يمكن أن يتوقع المرء، إذا نام أسمر فوق أبيض، موسعين استعارة المخدة، أتساءل فقط بأية ... طريقة..."

كان الصمت طويلًا ومبالغًا فيه. هزت نينا رأسها قرفًا وأوقعت شوكتها وسكينها في الصحن بقعقعة. ربتت ماكسين بأصابعها على غطاء الطاولة، مظهرة

شكلًا عصبيًا مثل "ويليم تيل [144]". بدا جوش كأنه على وشك البكاء.

أخيرًا، أرجع ماركوس رأسه إلى الخلف، صفق بيديه وأطلق ضحكة تشالفينية قوية: "كنت أود أن أسأل عن هذا طيلة الليل. فعلت حسنًا، يا أم تشالفن!"

*****

وهكذا للمرة الأولى في حياتها اضطرت نينا للاعتراف بأن خالتها على حق: "أردت تقريرًا، إليك بواحد مليء: إنهم مجانين ومعتوهون وفاقدون للعقل بشكل كامل، جدران مطاطية، غير مستقرين عاطفيًا وفاقدون للسيطرة على أنفسهم. الجميع".

هزت ألسانا رأسها فاغرة الفم وطلبت من نينا أن تكرر للمرة الثالثة ما حدث أثناء تناول الحلويات حين كانت جويس تقدم شيئًا تافهًا وسألت إن كان بوسع النساء المسلمات أن يخبزن وهن يلبسن تلك العباءات السوداء الطويلة، ألا تتغطى أجزاء الذراع بمزيج الكاتو؟ ألا يوجد خطر من إشعال نفسك من موقد الغاز؟

اختتمت نينا: "إنهم مفرطو النشاط".

لكن، كما هي الطريقة مع هذه الأمور، حالما وصل التأكيد لم يعرف أحد ما الذي يفعله بالمعلومات. كانت آيري وميلات في السادسة عشرة ولا يتعبان من القول لأميهما إنهما الآن في السن القانوني من أجل أنشطة مختلفة ويستطيعان أن يفعلا ما يريدانه وفي أي مكان. وباستثناء وضع الأقفال على الأبواب والقضبان على النوافذ كانت كلارا وألسانا بلا قوة. وقد ساءت الأمور وصارت آيري تمضي وقتًا أطول من قبل منغمسة في التشالفينية. وشاهدتها كلارا وهي تجفل من محادثة والدها، وتتجهم من النشرة الشعبية ذات المستوى العادي التي تقرأها أمها في السرير. وكان ميلات يختفي من المنزل لأسابيع أحيانًا، عائدًا بنقود ليست له ولكنة معدلة بشكل وحشي بتأثير نبرة آل تشالفن الصادرة عن شفتين

مزمومتين وحديث الشارع الخاص بعصبة كيفن. وقد أثار غضب صمد بشكل تجاوز العقل. كلا، هذا خطأ. كان هناك سبب. ولم يكن ميلات شيئًا أو آخر، هذا أو ذاك، مسلمًا أو مسيحيًا أو بنغاليًا، بل عاش من أجل ما هو في الوسط، مجسّدًا اسمه المتوسط (ذو الفقار) اصطدام سيفين.

صاح صمد مراقبًا ابنه يشتري السيرة الذاتية لمالكولم إكس: "كم مرة من الضروري القول شكرًا في عملية تجارية فردية؟ شكرًا حين تسلم الكتاب، شكرًا حين تتلقاه، شكرًا حين تقول لك السعر، شكرًا حين توقع الشيك، شكرًا حين تأخذه! يسمون هذا لباقة إنكليزية بينما هو ببساطة غرور. إن الكائن الوحيد الذي يستحق هذا النوع من الشكر هو الله نفسه!"

وعلقت ألسانا ثانية بين الاثنين، محاولة بيأس أن تعثر على حل وسط: "لو كان ماجد هنا لأصلحك. إنه يمتلك عقل محام، سيصحح الأمور". لكن ماجد لم يكن هنا، كان هناك، ولا يوجد حتى الآن نقود كافية لتغيير الموقف.

ثم جاء الصيف ومعه الامتحانات. وجاءت نتائج آيري بعد تشالفن السمين في الترتيب، وفعل ميلات أفضل مما توقعه أي شخص حتى هو نفسه. ولا يمكن أن يكون هذا إلا بسبب تأثير آل تشالفن وشعرت كلارا بالعار من نفسها قليلًا. وقالت ألسانا فقط: "إن أدمغة آل إقبال تنتصر في النهاية"، وقررت أن تحتفي بالمناسبة بحفلة شواء مشتركة لعائلة إقبال وعائلة جونز في مرج صمد.

جاءت نينا وماكسين وأردشير وجوشوا والخالات وأبناء العم وأصدقاء آيري وأصدقاء ميلات وأصدقاء كيفن والمدير، واستمتع الجميع (عدا أعضاء منظمة كيفن الذين شكلوا دائرة في إحدى الزوايا) وملئت الأكواب الورقية بشامبانيا أسبانية رخيصة.

وتواصلت الأمور بشكل جيد بما يكفي إلى أن شاهد صمد حلقة الأذرع المطوية والياقات.

"ماذا يفعلون هنا؟ من هؤلاء الكفار؟"

قالت ألسانا ناظرة إلى علب بيرة الغنيس الثلاث التي شربها صمد، وعصير

الهوت دوغ يسيل على ذقنه: "حسنًا، أنت لست هنا، هل أنت موجود؟ من المفسد الأول لحفلة الشواء؟"

حدق صمد وابتعد مع آرشي كي يعبرا عن إعجابهما بعملهما اليدوي في الكوخ الذي أعيد بناؤه فاستغلت كلارا الفرصة كي تسحب ألسانا جانبًا وتسألها سؤالًا.

وضعت ألسانا قدمًا في الكزبرة الخاصة بها: "كلا! لا يوجد مجال مطلقًا. من أجل ماذا سأشكرها؟ إذا فعل جيدًا فهذا بسبب دماغه. دماغ إقبال. لم تقم طائر الحسون الظالم ذات الأسنان الطويلة بالاتصال بي مرة واحدة. سيكون على الأحصنة البرية أن تجر جثتي يا سيدة؟"

"لكن... أعتقد فقط أنها ستكون فكرة جيدة الذهاب وأن نشكرها على كل الوقت الذي أمضته مع الأطفال... أعتقد أننا ربما أسأنا الحكم عليها..."

قالت ألسانا بازدراء: "اذهبي أنت يا سيدة جونز إذا أحببت. لكن بالنسبة لي، حتى الأحصنة البرية لا تستطيع أن تأخذني".

*****

"وهذا هو الدكتور سولومون تشالفن والد ماركوس. كان أحد الرجال القلائل الذي يصغون إلى فرويد حين اعتقد الجميع في فيينا أنه منحرف جنسيًا. إن الوجه الذي يمتلكه لا يُصدق، ألا تعتقدين ذلك؟ هناك الكثير من الحكمة فيه. في المرة الأولى التي أراني فيها ماركوس تلك الصورة عرفتُ أنني أردت الزواج منه. فكرت: إذا كان ماركوسي سيبدو هكذا في الثمانين سأكون فتاة محظوظة جدًا".

ابتسمت كلارا وأعجبت بصورة الألواح الفضية. وأعجبت حتى الآن بثماني صور فوق رف الموقد وكانت آيري تتابعها بتجهم، وكان هناك على الأقل صور كثيرة متبقية.

"إنها أسرة قديمة عظيمة، وإذا لم تجدي في الأمر عجرفة يا كلارا، هل تمانعين مناداتك هكذا بكلارا؟"

"لا بأس بكلارا يا سيدة تشالفن".

انتظرت آيري من جويس أن تطلب من كلارا أن تناديها جويس.

"حسنًا، كما كنت أقول، إنها أسرة عريقة عظيمة وإذا لم تجدي هذا عجرفة أعتقد أن آيري نوع من الإضافة إليها، بطريقة ما. إنها فتاة لافتة. استمتعنا كثيرًا بوجودها معنا".

"وهي استمتعت بكونها هنا، على ما أظن. وهي تدين لك بالكثير في الحقيقة. كلنا ندين".

"آه كلا كلا كلا، أنا أؤمن بمسؤولية المفكرين... بالإضافة إلى ذلك، كانت هذه متعة. في الحقيقة، آمل أن نواصل رؤيتها، على الرغم من أن الامتحانات انتهت. لا يزال هناك مستويات ... أعني إذا لم يكن هناك شيء آخر يشغلها".

"آه، أنا متأكدة من أنها ستأتي. تتحدث عنكم طيلة الوقت. عائلة تشالفن كذا وعائلة تشالفن كذا".

شابكت جويس يدي كلارا بيديها: "آه، كلارا، أنا مسرورة. أنا مسرورة أننا التقينا أخيرًا. آه، الآن، لم أنته. أين كنا، آه نعم، هنا تشارلز وآنا، عم وعمة الأب، دُفنا منذ وقت طويل، شيء محزن. كان طبيبًا نفسيًا، نعم، واحدًا آخر، وكانت هي عالمة أحياء ونباتات، وهذا ما يميل إليه قلبي".

تراجعت جويس إلى الخلف للحظة كمثل ناقد فني في صالة فنون ووضعت يديها على ردفيها. "أعني، بعد وهلة يجب أن تشكّي أنها الجينات، أليس كذلك؟ كل هذا الذكاء. أعني، التغذية لن تشرح ذلك فحسب. أعني، هل ستفعل؟"

وافقت كلارا: "لا أظن ذلك".

"والآن، بدافع من الفضول، أنا فعلًا لدي فضول، من أي جانب تظنين أن آيري حصلت على الذكاء: الجامايكي أم الإنكليزي؟"

نظرت كلارا إلى أعلى وأسفل خط الرجال البيض الموتى في ياقات منشاة، بعضهم بنظارة أحادية، وبعضهم ببذلات، والبعض يجلس في حضن عائلته، وكل عضو مقيد في وضعية بحيث تستطيع الكامير أن تؤدي عملها البطيء. وقد

ذكروها جميعًا بشخص ما، بجدها، النقيب الأنيق تشارلي دورهام، في صورته الوحيدة الموجودة: متوتر وشاحب، ينظر بتحدي إلى الكاميرا، وليس كثيرًا كي تلتقط صورته بقدر ما من أجل أن يفرض صورته على الأسيتات. ما اعتادوا أن يدعونه المسيحي المنضبط ذا العضلات. دعته عائلة بودن وايتي، ذلك الفتى المغفل الذي ظن أنه يملك كل ما يلبسه.

قالت كلارا بتردد: "من ناحيتي، أعتقد من الجانب الإنكليزي. كان جدي إنكليزيًا رفيع السلوك كما قيل لي. ابنته، أمي، ولدت أثناء زلزال كنجستون في 1907 . واعتدت أن أفكر أنه ربما أعاد صوت الهزة خلايا دماغ بودن إلى مكانها لأن أمورنا تحسنت منذ ذلك الوقت".

شاهدت جويس أن كلارا كانت تتوقع ضحكة وقدمت واحدة بسرعة.

"لكن في الحقيقة، ربما على الأرجح كان النقيب تشارلي دورهام. علّم جدتي كل ما كانت تعرفه. ثقافة إنكليزية جيدة. لا أعرف شخصًا آخر يمكن أن يفعل هذا"

"حسنا، كم هذا رائع. هذا ما أقوله لماركوس، إنها الجينات، مهما كان ما يقوله. يقول إنني أبسّط الأمور، لكنه نظريّ جدًا. ويأتي البرهان أنني على حق دومًا".

حين انغلق الباب الأمامي خلفها، عضت كلارا شفتها مرة أخرى، وهذه المرة من الإحباط والغضب. لماذا قالت النقيب تشارلي دورهام؟ كانت تلك كذبة محضة، مزيفة كأسنانها البيضاء. كانت كلارا أكثر ذكاء من النقيب دورهام. وربما كانت جدتها أمبروسيا أكثر ذكاء منه. لم يكن النقيب تشارلي دورهام ذكيًا. اعتقد أنه هكذا، لكنه لم يكن. ضحى بألف شخص لأنه أراد أن ينقذ امرأة واحدة لم يعرفها أبدًا في الحقيقة. كان النقيب تشارلي دورهام مغفلًا وسيئًا.

13

القنوات الجذرية لأسنان هورتينس بودن

ربما كان بعض التعليم الإنكليزي شيئًا خطيرًا، وكان مثال ألسانا المفضل على هذا هو الحكاية القديمة للورد إلينورو، الذي بعد احتلال إقليم السند من الهند أرسل برقية بكلمة واحدة: "أذنبت". قالت بمقت: "إن الإنكليز هم الشعب الوحيد الذي يعلمك ويسرقك في الوقت نفسه". إن عدم ثقة ألسانا بآل تشالفن لم يكن أكثر من هذا تقريبًا.

وافقت كلارا لكن لأسباب كانت أقرب إلى الوطن: ذاكرة أسرة، أثر لا يُنسى من الدم السيّئ في آل بودن، في أمها، وحين كانت داخل أمها (ذلك أنه إذا رُويت القصة يجب أن نضعهن جميعًا داخل بعضهن كمثل الدمى الروسية، تعود آيري إلى كلارا، وكلارا إلى هورتينس وهورتينس إلى أمبروسيا)، كانت شاهدة صامتة على ما حدث حين قرر إنكليزي فجأة أنها بحاجة للتعليم. ذلك أنه لم يكن كافيًا للنقيب تشارلي دورهام، الذي عُيِّن مؤخرًا في جامايكا، أن يحبل ابنة صاحبة المكان المراهقة في ليلة سكر في غرفة حفظ الطعام التي لآل بودن، في أيار 1906. لم يرض بمجرد فض بكارتها، قرر أن يعلمها شيئًا آخر أيضًا.

وضعت أمبروسيا بودن يدها على الانتفاخ الصغير الذي كان هورتينس وحاولت أن تبدو بريئة قدر الإمكان: "أنا؟ يريد أن يعلمني؟ لماذا يريد أن يعلمني؟"

أجابت أمها: "ثلاث مرات في اليوم، ولا تسأليني لماذا، لكن ربما سينفعك هذا. كوني ممتنة للكرم. ممنوع طرح أسئلة عن الأسباب حين يكون سيد إنكليزي مستقيم وأنيق كالسيد دورهام كريمًا".

حتى أمبروسيا بودن، طفلة القرية غريبة الأطوار، ذات الساقين الطويلتين والنحيلة جدًا والتي لم تر المدرسة أبدًا طول عمرها الذي يبلغ الأربعة عشر، كانت تعرف أن هذه النصيحة خاطئة. فحين يريد إنكليزي أن يكون كريمًا، فإن أول سؤال ستطرحه هو لماذا، لأنه يوجد سبب دومًا.

"لا تزالين هنا يا طفلة؟ لا تجعليني أبصق على الأرض وأجعلك تنهضين قبل أن تجف البصقة".

وهكذا أسرعت أمبروسيا بودن، وهورتينس في داخلها، إلى غرفة النقيب وصارت تذهب إلى هناك بعد ذلك ثلاث مرات في الأسبوع من أجل التعليم. تعلمت الحروف والأرقام والكتاب المقدس والتاريخ الإنكليزي وعلم المثلثات. وحين انتهى هذا، حين خرجت أم أمبروسيا بأمان من المنزل، تعلمت علم التشريح، والذي كان درسًا أطول، والذي شُرح فوق الطالبة وهي تستلقي على ظهرها مقهقهة. قال لها النقيب دورهام ألا تقلق على الطفلة، لن يؤذيها. وقال لها القبطان دورهام إن طفلتهما السرية ستكون أذكى فتاة زنجية في جامايكا.

ومع مرور الأشهر، تعلمت أمبروسيا الكثير من الأشياء الرائعة من النقيب الأنيق. علمها قراءة اختبارات الرب لأيوب ودراسة تحذيرات سفر الرؤيا، وأن تؤرجح مضرب كريكيت، وأن تنشد ترنيمة "القدس"، وعلّمها كيف تجمع صفًا من الأرقام وتصرّف اسمًا باللاتينية، وتقبل أذن رجل إلى أن يبكي كطفل. لكنه علمها أكثر أنها لم تعد خادمة، وأن تعليمها رفعها، وأنها سيدة في قلبها على الرغم من أن أعمالها اليومية الروتينية بقيت دون تغيير. هنا، أحب أن يقول مشيرًا إلى مكان ما تحت عظم صدرها، الموقع الدقيق، في الحقيقة، حيث تسند روتينيًا مكنستها، أمبروسيا لم تعد خادمة، لم تعد خادمة، كان يقول مستمتعًا بالتورية.

ثم في بعد ظهر أحد الأيام، حين كانت هورتينس في شهرها الخامس، اندفعت أمبروسيا على الدرج بسرعة في ثوب فضفاض قطني مغشوش، قرعت الباب بيد واحدة، وخبأت خلف ظهرها باقة من الآذريون بالأخرى. أرادت أن تفاجئ حبيبها بأزهار تعرف أنها ستذكّره بالوطن. قرعت وواصلت القرع ونادت وكررت النداء لكنه كان قد رحل.

قالت أم أمبروسيا ناظرة إلى ابنتها بشك: "لا تسأليني لماذا، لقد نهض وذهب فجأة. لكنه ترك رسالة قال فيها إنه يريد أن تتواصل العناية بك. ويريدك أن تذهبي إلى المزرعة بسرعة وتقدمي نفسك للسيد جلينارد، وهو سيد مسيحي جيد. الله أعلم، يمكن أن تتحسني أكثر. لا تزالين هنا، يا طفلة؟ لا تدعيني أبصق على الأرض و..."

لكن أمبروسيا كانت قد خرجت من الباب قبل أن تضرب الكلمات الأرض.

تبين أن دورهام ذهب كي يسيطر على الوضع في شركة الطباعة في كنجستون، حيث كان شاب يدعى جارفي يقود إضراب عمال الطباعة من أجل تحسين الأجور. ثم كان ينوي أن يسافر لأربعة أشهر كي يدرب جنود صاحب الجلالة الذين من ترينيداد، ويعلمهم ما هو مطلوب. إن الإنكليز خبراء في التخلي عن مسؤولية وتولي أخرى. لكنهم يحبون أيضًا أن يفكروا بأنفسهم كرجال يتمتعون بضمير جيد، وهكذا في الوقت الفاصل أوصى صديقه الجيد السير إدموند فليكر جلينارد بالتعليم المتواصل لأمبروسيا بودن، والذي كان مثل دورهام، يمتلك رأيًا بأن المحليين يحتاجون إلى التعليم، والإيمان المسيحي والتوجيه الأخلاقي. سُحر جلينارد بالحصول عليها)من لن ينسحر؟(وهي فتاة جميلة ومطيعة وراغبة وقادرة في أنحاء المنزل. ولكن بعد أسبوعين من مكوثها، وصار الحمل واضحًا، وبدأ الناس يتحدثون لم يعمل الأمر.

قالت أم أمبروسيا، ممسكة رسالة جلينارد المتأسفة من ابنتها الباكية: "لا تسأليني لماذا. ربما يمكن أن تتحسني. ربما هو لا يريد الخطيئة في المنزل. تعودين إلى هنا الآن! لا شيء يمكن فعله الآن!" لكن تبين أنه كان هناك اقتراح في الرسالة

يمنح العزاء: "تقول هنا أريدك أن تذهبي وتقابلي سيدة مسيحية تدعى السيدة برينتون. أقول يمكنك أن تسكني معها".

كان دورهام قد ترك توجيهات بأن يتم تعريف أمبروسيا على الكنيسة الأنجليكانية الإنكليزية، واقترح جليناردالكنيسة الميثودية الجامايكية، لكن السيدة برينتون، وهي عانس أسكتلندية عنيفة وقاسية متخصصة بالأرواح الضائعة، كان لها أفكارها الخاصة: "سنذهب إلى "الحقيقة"، قالت مصممة حين جاء يوم الأحد لأنها لم تكترث بكلمة "كنيسة". قالت وهي تربت على بطن أمبروسيا على بعد إنشات فقط من رأس هورتينس: "أنت وأنا والبريئة سنذهب لنسمع كلمات يهوه".

(كانت السيدة برينتون هي من عرّف آل بودن على شهود يهوه، من كانوا يُدْعون أتباع روسل وعلى جمعية برج المراقبة للكتاب المقدس والكراريس. وكان لها أسماء كثيرة في تلك الأيام. قابلت السيدة برينتون تشارلز تازي روسل في بطرسبرغ في نهاية القرن الأخير، وذُهلت من معرفة الرجل وإخلاصه ولحيته الطويلة. وكان تأثيره هو الذي جعلها ترتد عن البروتستانتية، وكمثل أي مرتد استمتعت السيدة برينتون كثيرًا في تحويل الآخرين. ووجدت تابعين سهلين راغبين في أمبروسيا والفتاة التي في بطنها، لأنه لم يكن لديهما شيء تتخليان عنه).

دخلت الحقيقة إلى آل بودن في شتاء 1906 وتدفقت في تيار الدم مباشرة من أمبروسيا إلى هورتينس. وكان إيمان هورتينس أنه في اللحظة التي تعرفت فيها أمها على يهوه، صارت هورتينس نفسها واعية، وهي لا تزال داخل الرحم. وفي السنوات التالية، ستقسم على أي كتاب مقدس تضعه أمامها أنه حتى في بطن أمها مرت جميع الكلمات من كتاب السيد روسل "فجر الألفية"، إلى روح هورتينس كما قُرئت لأمبروسيا ليلة بعد ليلة، كما لو عبر التناضح. سيفسر هذا لماذا شعرت "أنها تتذكر" الكتاب وهي تقرأ المجلدات الستة فيما بعد في سن الرشد، ولماذا تستطيع أن تغطي الصفحات بيدها وتقتبسها من الذاكرة، على الرغم من أنها لم تقرأها أبدًا من قبل. لهذا السبب أي قناة جذرية لهورتينس يجب أن تعود مباشرة إلى

البداية لأنها كانت هناك، وتتذكر حوادث 14 كانون الثاني 1907، وذلك الزلزال الجامايكي المريع، تتذكر الحوادث بوضوح، متألقة وواضحة كجرس.

"يا الله، إلهي أنت. إليك أبكّر. عطشتْ إليك نفسي، اشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلا ماء...[145]"

هذا ما أنشدته أمبروسيا حين وصل حملها إلى نهايته، وقفزت ببطنها المنتفخ الضخم في شارع كينج، مصلية لعودة المسيح أو عودة تشارلي دورهام، الرجلين اللذين سينقذانها، المتشابهين في ذهنها وبالتالي اعتادت على الخلط بينهما. وكانت في منتصف طريقها إلى الآية الثالثة، أو هكذا قالت هورتينس، حين اعترض طريقها العجوز الكحولي الهائج المحمر من كؤوس كثيرة في النادي الجامايكي فليكر جلينارد. خادمة النقيب دورهام! تذكرته هورتينس كيف كان يقول هذا، عن طريق التحية، ولا يتلقى من أمبروسيا إلا نظرة غاضبة. يوم رائع لهذا، أليس كذلك؟ حاولت أمبروسيا أن تتجاوزه لكنه سد طريقها بجرمه مرة أخرى.

وهكذا هل أنت فتاة جيدة هذه الأيام يا عزيزتي؟ وصلتني الثرثرة بأن السيدة برينتون عرفتك على كنيستها. ممتعون جدًا، أولئك الشهود. لكن أتساءل إن كانوا مستعدين للعضو الخلاسي الجديد في مجموعتهم؟

تذكرت هورتينس جيدًا ملمس تلك اليد السمينة التي هبطت حارة على أمها وتذكرت أنها رفستها بكل قوتها.

آه، لا بأس يا فتاة. لقد أفشى لي النقيب سرك الصغير. لكن للأسرار ثمنًا يا أمبروسيا. كما تكلف البطاطا والفليفلة الحلو وتبغي شيئًا ما. هل شاهدت الكنيسة الأسبانية القديمة، سانتا أنطونيا؟ هل كنت فيها؟ إنها هنا فحسب. إنها أعجوبة من الداخل. من وجهة النظر الجمالية وليس الدينية. سيستغرق الأمر لحظة فقط، يا عزيزتي. يجب ألا يفوّت المرء أبدًا فرصة كهذه للحصول على بعض الثقافة، في النهاية.

كل لحظة تحدث مرتين: في الداخل والخارج، وهما تاريخان منفصلان. خارج أمبروسيا كان هناك الكثير من الأحجار البيضاء، ولم يكن هناك بشر، بل

الذهب المتقشر لمذبح والقليل من الضوء وشموع مدخنة وأسماء أسبانية منقوشة على الأرضية ومادونا رخامية ضخمة رأسها منحن وتنتصبُ عاليًا على عارضة. وكان كل شيء هادئًا بشكل استثنائي حين بدأ جلينارد يلمسها. لكن في الداخل كان هناك نبض قلب يعدو، وشَدُّ مليون عضلة أرادت صد محاولات جلينارد في التعليم، الأصابع الرطبة اللاصقة التي كانت الآن على حلمتيها، تنزلق بين القطن الرقيق وتعصر الحلمتين المثقلتين بالحليب، الحليب الذي لم يكن أبدًا من أجل ذلك الفم الخشن. في الداخل، كانت تهرب عبر شارع كينج، لكن في الخارج كانت أمبروسيا مجمدة، متأصلة في البقعة، حجرًا أنثويًا كآية مادونا.

ثم اهتزّ العالم. داخل أمبروسيا، تحطمت المياه. خارج أمبروسيا تشققتْ الأرض. تفتت الجدار البعيد، وانفجر الزجاج الملطخ، وسقط تمثال المادونا من الأعلى كملاك دائخ. واندفعت أمبروسيا من المشهد متقدمة فقط إلى أماكن الاعتراف قبل أن تنشق الأرض مرة أخرى شقًا جبارًا وسقطت في مرأى من جلينارد، الذي كان يستلقي مسحوقًا تحت ملاكه، أسنانه مبعثرة على الأرض، البنطلون حول كاحليه. وواصلت الأرض اهتزازها. حدث شق ثان وثالث. سقطت الأعمدة واختفى نصف السقف. في أي بعد ظهر آخر في جامايكا، صرخات أمبروسيا، الصرخات التي تلت جميع تقلصات رحمها فيما كانت هورتينس تدفع إلى الخارج، ستلفت نظر أحد ما، وتحضره لمساعدتها. لكن العالم كان ينتهي في بعد الظهر ذاك في كنجستون. وكان الجميع يصرخون.

لو كانت هذه حكاية خرافية لحان الوقت الآن كي يلعب النقيب دورهام دور البطل. ولم يكن يفتقر إلى المواصفات الضرورية. ولم تكن المسألة أنه ليس أنيقًا أو طويلًا أو قويًا أو أنه لا يريد مساعدتها، أو أنه لا يحبها (آه، إنه يحبها، كما أحب الإنكليز الهند وأفريقيا وإيرلندة، إن الحب هو المشكلة، الناس يعاملون من يحبونهم بشكل سيّئ)، كل تلك الأمور صحيحة. لكن ربما كان المشهد هو الخطأ فقط، ربما لا شيء يحدث على أرض مسروقة يمكن أن يتوقع نهاية سعيدة.

ذلك أنه حين عاد دورهام، في اليوم الذي تلا الهزات الأولى، فوجئ بجزيرة

مدمرة، وألفي قتيل، وبنار تشتعل على الهضاب، وسقوط أجزاء من كنجستون في البحر، وبالمجاعة والرعب وشوارع كاملة ابتلعتها الأرض، ولم يروّعه أي من هذا بقدر ما أخافه إدراك أنه يمكن ألا يشاهدها ثانية. فهم الآن ما الذي يعنيه الحب. ووقف على أرض العرض وحيدًا ومذهولًا ومحاطًا بألف وجه أسود لم يتعرف عليهم، وكان الشكل الأبيض الوحيد هو تمثال فكتوريا، وقد دورتها قليلًا كل مرة خمس هزات ارتدادية إلى أن بدت مديرة ظهرها للناس. ليس هذا بعيدًا عن الحقيقة. كان الأميركيون هم الذين يمتلكون الموارد وليس البريطانيين، ولهذا تعهدوا بمساعدة جدية، ووصلت ثلاث سفن حربية مليئة بالمؤن ودخلت إلى الساحل من كوبا. وكانت هذه نقلة دعائية أميركية لم تستسغها الحكومة البريطانية، وكمثل زملائه الإنكليز لم يستطع دورهام أن يقاوم الشعور بكبرياء مجروحة. وكان لا يزال يفكر بهذه الأرض كأنها له، له كي يساعدها أو له كي يؤلمها، وحتى الآن، حين برهنت أن لها عقلًا خاصًا بها. ولا يزال يحتفظ بما يكفي من تعليمه الإنكليزي كي يشعر بأنه أُهين حين شاهد جنديين أميركيين نزلا إلى المرفأ دون إذن (كل عمليات النزول يجب أن تتم من خلال دورهام أو رؤسائه) وجلسا خارج بناء قنصليتهما يمضغان التبغ بوقاحة. كان شعورًا غريبًا، ذلك الافتقار للقوة، ومعرفة أن هناك بلادًا أخرى مجهزة أكثر من الإنكليز كي تنقذ جزيرة. انتابه شعور غريب وهو ينظر إلى محيط من البشرات الأبنوسية، غير قادر على العثور على المرأة التي يحبها، تلك التي يعتقد أنه يملكها. ذلك أن دورهام أصدر أوامر للوقوف هنا ومناداة أسماء حفنة من الخدم والخادمات والخدم الشخصيين، القلة المختارة التي سيأخذها الإنكليز معهم إلى كوبا إلى أن تنطفئ الحرائق. لو عرف كنيتها لناداها، لكن أثناء كل ذلك التعليم لم يتعلمه أو يسألها عنه أبدًا.

لكن ليس من أجل هذا الخطأ تم تذكّر النقيب دورهام، المربي الكبير، كفتى غبي في حوليات عشيرة بودن. فقد اكتشف في الحال أين كانت، وعثر على ابنة العم مارلين بين الحشد، وأرسلها مع رسالة إلى قاعة الكنيسة حيث شاهدت أمبروسيا لآخر مرة، تنشد مع الشهود، مقدمة الشكر ليوم القيامة. وحين ركضت

مارلين بقدر ما تساعدها ساقاها السوداوان على حملها، سار دورهام بهدوء، معتقدًا أن الفعل الأخير قد تم، إلى منزل الملك، مقر السير جيمس سويتنهام، حاكم جامايكا وطلب منه أن يوقع استثناء لأمبروسيا، "الزنجية المتعلمة" التي يرغب بأن يتزوجها، والتي لم تكن مثل الآخرين، ولهذا يجب أن يكون لها مكان معه في السفينة الثانية المنطلقة.

ولكن حين تحكم أرضًا ليست لك، تعتاد على تجاهل الاستثناءات. قال له سويتنهام بصراحة إنه لا توجد أمكنة شاغرة على قاربه للعاهرات السود أو الماشية. شعر دورهام بالألم ورغب بالانتقام لكنه استنتج أن سويتنهام لا يمتلك سلطة وأن وصول السفينتين الأميركيتين دليل على ذلك، ثم كطلقة فراق ذكر الجنديين الأميركيين اللذين شاهدهما على تربة بريطانية دون إذن، مغرورين ووقحين على أرض لا يمتلكانها. "هل نتخلص من شيء جيد ونحن نتخلص من شيء سيّئ؟" سأل دورهام، وجهه أحمر كصندوق بريدي مخروطي الشكل مدهون بالأحمر، لاجئًا إلى دين الامتلاك الذي كان حقه في الولادة: "ألا تزال هذه بلادنا؟ هل أطاحت بسلطتنا بسهولة إلى الأرض بعض الهزات؟"

كانت البقية هي هذا الشيء المريع: التاريخ. حين أمر سويتنهام السفن الأميركية بالعودة إلى كوبا، جاءت مارلين راكضة مع جواب أمبروسيا، وهي جملة واحدة من سفر أيوب: "أحمل معرفتي من بعيد". (حافظت هورتينس على الكتاب المقدس الذي مزقت الجملة منه وأحبت أن تقول إنه بدءًا من ذلك اليوم لن تأخذ نساء بودن دروسًا من أي أحد آخر غير الله). سلمت مارلين الجملة إلى دورهام، وركضت إلى أرض العرض سعيدة كسمكة بطلينوس بحثًا عن أمها وأبيها اللذين كانا مصابين وضعيفين، في قوتهما الأخيرة، وينتظران القوارب مثل آلاف الآخرين. أرادت أن تنقل لهما الأنباء الطيبة، ما قالته لها أمبروسيا: سيأتي في الحال، سيأتي في الحال. الزوارق؟ سألت مارلين، وهزت أمبروسيا رأسها، على الرغم من أنها كانت مشغولة جدًا بالصلاة، منتشية جدًا بحيث لم تسمع السؤال. سيأتي في الحال، سيأتي في الحال، قالت مكررة ما تعلمته

من رؤيا يوحنا، ما علمها إياه دورهام ثم جليناردثم السيدة برينتون بطرقهم المختلفة، ما شهدت عليه النار وشقوق الأرض. سيأتي في الحال، قالت لميرلين، التي اعتبرت كلمتها إنجيلًا. إن القليل من التعليم الإنكليزي يمكن أن يكون شيئًا خطيرًا.

14

أكثر إنكليزية من الإنكليز

في التراث العظيم للتعليم الإنجليزي صار ماركوس وماجد صديقين في تبادل الرسائل. لكن حدث جدل عنيف حول كيف صارا صديقين. فقد لامت ألسانا ميلات، وزعم ميلات أن آيري مررت العنوان لماركوس، وقالت آيري إن جويس استرقت النظر إلى دفتر عناوينها. وكان الشرح حول جويس صحيحًا لكن مهما كانت كيفية حدوث الأمر فقد تبادلا الرسائل بدءًا من آذار\مارس 1991 فصاعدًا بتواتر لم تخففه إلا الأخطاء المزمنة للنظام البريدي البنغالي. وكان مردودهما المشترك لا يُصدق، ففي غضون شهرين ملآ مجلدًا بسماكة ديوان كيتس [146]، وفي أربعة أشهر اقتربا بسرعة من طول وكمية الرسائل الحقيقية للمهووسين بكتابة الرسائل كالقديس بولس وكلاريسا [147] والمحافظين الذين يكتبون رسائل أخلاقية للصحف والإذاعات. ولأن ماركوس أعد نسخًا من جميع رسائله، كان على آيري أن تعاود ترتيب نظام تصنيف ملفاتها كي تقدم درجًا مخصصًا فقط لمراسلاتهما. قسمت نظام التصنيف إلى اثنين، مختارة أن تصنف وفق المؤلف بشكل رئيسي، ثم بحسب التسلسل الزمني، بدلًا من أن تترك التواريخ البسيطة تهيمن. ولأن كل هذا كان عن الناس، الناس الذين يقومون باتصال عبر القارات والبحار صنعت ورقتين لاصقتين كي تفصل رزم المواد كتبت على الأولى: من

ماركوس إلى ماجد، وعلى الثانية: من ماجد إلى ماركوس.

وقاد مزيجٌ غير مريح من الغيرة والعداء آيري إلى استغلال وظيفتها كسكرتيرة واختارت مجموعات صغيرة من الرسائل التي لن تُفتقد، وأخذتها إلى المنزل، وأخرجتها من ظروفها، ثم بعد قراءة متمعنة ستشعر ف. ر. لويس [148] بالخجل أعادتها بعناية إلى الملف. ما عثرت عليه في ظروف البريد الجوي ذات الأختام البراقة لم يسبب لها المتعة. كان لمعلمها الخاص الآن تلميذ. ماركوس وماجد. ماجد وماركوس. وكان لهذا وقع أجمل كما كان وقع واطسون وكلارك أجمل من واطسون وكريك وويلكينز.

قال جون دون إن الرسائل تآلف بين الأرواح أكثر من القبل، وهذا ما تفعله، وشعرت آيري بالذعر من العثور على اختلاط كهذا، الدمج الناجح لشخصين من الحبر والورق على الرغم من المسافة التي بينهما. لا يوجد رسائل حب يمكن أن تكون أكثر حماسًا، ولا عاطفة أعيدت بشكل أكثر امتلاء، تمامًا منذ البداية. وكانت الرسائل القليلة الأولى مليئة بمتعة لا حدود لها من التعرف المتبادل، كانت مملة لفتيان غرفة البريد المتلصصين في داكا، ومحيرة لآيري، وساحرة للكاتبين:

كما لو أنني كنت أعرفك دومًا، لو كنت هندوسيًا لشككت بأننا التقينا في حياة سابقة - ماجد.

تفكر مثلي. أنت دقيق. أحب هذا. - ماركوس.

عبرت عن أفكاري جيدًا وبشكل أفضل مما أفعل. في رغبتي لدراسة القانون، وفي توقي لتحسين وضع بلادي الفقيرة، التي تعيش قدرها الأسود من الله، وجميع الأعاصير والطوفانات. في هذه الأهداف أية غريزة هي جوهرية؟ ما هو الجذر، الحلم، الذي يربط هذه الطموحات معًا؟ لفهم العالم، لإزالة العشوائي. - ماجد.

ثم كان هناك الإعجاب المتبادل الذي استمر لبضعة أشهر:

ما تعمل عليه يا ماركوس، تلك الفئران اللافتة، إنها ثورية. حين تغوص في ألغاز الخصائص الموروثة، أكيد أنك تذهب مباشرة إلى روح الوضع الإنساني دراميًا وجوهريًا كأي شاعر، باستثناء أنك مسلح بشيء جوهري لا يمتلكه الشاعر: الحقيقة. أنا أحترم الأفكار الرؤيوية والرائين. أنا معجب بالرجل الذي يُدعى ماركوس تشالفن. وإنه لشرف كبير أنني قادر على أن أدعوه صديقي. أشكره من كل قلبي على اهتمامه غير القابل للتفسير والعظيم برفاه عائلتي.
- ماجد.

أستغرب الضجيج اللعين الذي يحدثه الناس حيال فكرة كالاستنساخ. إن الاستنساخ (وأقول لك إنه سيحدث عاجلًا لا آجلًا) هو مجرد توأمة مؤجلة، ولم أعثر في حياتي على توأمين يبرهنان على الحجة ضد الحتمية الوراثية أكثر منك ومن ميلات، ذلك أنك متفوق في جميع المجالات التي لا يُفلح فيها. وأتمنى لو أستطيع قلب هذه الجملة من أجل التأثير المعاكس، لكن الحقيقة القاسية هي أنه لا يتفوق عليك في أي شيء باستثناء إنزال الحزام المرن لكلسون زوجتي. - ماركوس.

وأخيرًا، كان هناك خطط المستقبل، خطط رُتبت دون انتباه وبسرعة غرامية، كمثل الأحمق الإنكليزي الذي تزوج المورمونية التي في التاسعة عشرة من عمرها، من مينيسوتا لأنها بدت مثيرة جنسيًا على خط الدردشة:

يجب أن تأتي إلى إنكلترة بأسرع ما يمكن، في أوائل 1993 كحد أقصى. سأوفر بعض النقود بنفسي إذا اضطر الأمر. ثم نستطيع أن نسجلك في الكلية المحلية، وتجري بعض الامتحانات وتنتهي منها ونرسلك على وجه السرعة إلى أي من الأبراج الحالمة التي تدغدغ خيالك (على الرغم من أنه من الواضح لا يوجد إلا خيار واحد حقيقي) وبينما أنت فيه وتتقدم في السن تذهب إلى النقابة وتصبح المحامي الذي أحتاج إليه كي يقاتل من أجلي. إن حقوق ملكية فأري المستقبلي تحتاج إلى محام ممتاز. أسرغ أيها الشاب. لا أمتلك الألفية كلها. - ماركوس.

الرسالة الأخيرة، ليس آخر رسالة كتباها بل آخر واحدة استطاعت آيري تحمل قراءتها تضمنت هذه الفقرة الأخيرة من ماركوس:

حسنًا، ما من شيء جديد هنا سوى أن ملفاتي مصنفة بشكل ممتاز، بفضل آيري. ستحبها. إنها فتاة متألقة وتملك الثديين الأكثر ضخامة... والمحزن أنني لا أعقد الكثير من الآمال على طموحاتها في ميدان "العلم الصعب"، وبشكل أكثر تحديدًا في التكنولوجيا الأحيائية الخاصة بي، والتي يبدو أنها تحبها... إنها ذكية بطريقة ما، لكنها جيدة في العمل الوضيع وجمع النقود من خلال الغش، يمكن أن تصبح مساعدة في مخبر لكنها لا تمتلك أي ذكاء للمفهومات، وليس لديها مخ لذلك. ستحاول دراسة الطب، كما أفترض، لكن حتى في هذا تحتاج إلى إمكانيات أكثر مما لديها، بالتالي يمكن أن يناسبها طب الأسنان (تستطيع أن

تصلح أسنانها على الأقل)، لا شك أنها مهنة شريفة، لكنها واحدة آمل أن تتجنبها...

في النهاية، لم تشعر آيري بالإهانة، انهمرت دموعها لكن هذا مرّ بسرعة. كانت مثل أمها وأبيها، عظيمة في إعادة ابتكار نفسها، وفاعلة نشيطة جدًا: إذا كنت لا تستطيعين أن تكوني مراسلة حربية كوني راكبة دراجة. إذا كنت لا تستطيعين أن تكوني راكبة دراجة اطْوي الورق. إذا كنت لا تستطيعين الجلوس إلى جانب يسوع في الفردوس مع ال 144000 المختارين انضمّي إلى الحشد العظيم. إذا كنت لا تستطيعين تحمّل الحشد العظيم تزوجي من آرشي. لم تكن آيري مزعوجة. فكرت فقط، حسنًا. طب الأسنان. سأكون طبيبة أسنان. حسنًا.

*****

في هذه الأثناء كانت جويس في الداخل تحاول حل مشاكل ميلات مع النساء البيضاوات، والتي كانت كثيرة. فقد كانت جميع النساء، من الأنواع كلها، من السوداوات كمنتصف الليل إلى الأبنوسيات، متيمات بميلات، وكنّ يعطينه أرقام هواتفهن ويمارسن معه الجنس الفموي في أمكنة عامة، ويعبرن البارات المكتظة كي يشترين له كأسًا من الشراب، ويسحبْنه إلى مراكب الأجرة، ويتبعنه إلى المنزل. وسواء كان الأمر أنفه الروماني أو عينيه الداكنتين كالبحر أو جلده الذي بلون الشوكولاتة أو شعره الذي يشبه جداول من الحرير الأسود أو رائحته الكريهة فحسب، فقد كان كل هذا يعمل. ويجب ألا تكون الفتاة غيورة لأنه لا فائدة من ذلك، فقد كان هناك دومًا وسيكون أشخاص ينضحون جنسًا (يتنفسونه، يتعرقونه). إن بعض الأسماء التي تخطر في الذهن فجأة هي الشاب براندو [149] ومادونا وكليوباترة وبام جرير [150] وفالنتينو [151] وفتاة تُدعى تامارا تعيش مقابل مضمار الخيل في لندن مباشرة في وسط المدينة، وعمران خان [152] وتمثال داود لمايكل أنجلو [153]. لا تستطيع مقاتلة هذا النوع من القوة المدهشة

غير المقيدة، ذلك أنه ليس دائمًا التناسق أو الجمال نفسه هما اللذان يفعلان ذلك (أنف تمارا دائمًا منحرف قليلًا)، ولا توجد وسيلة تستطيع الحصول عليها من خلالها. وأكيد أن الجملة الأميركية الأقدم وثيقة الصلة هنا، وتتعلق بالمسائل الاقتصادية والسياسية والرومانسية هي: إما أنك تمتلكه أو لا. وكان ميلات يمتلكه إلى درجة عالية جدًا، وكان لديه خيار العالم المعروف، جميع الإناث الفاتنات واللواتي قياسهن من 8 إلى 28، سواء كن تايلنديات أو من تونغا، من زنجبار أو من زوريخ، كانت فسحته من الفروج الراغبة والمتاحة تمتد في جميع الاتجاهات بقدر ما تستطيع العين أن ترى. ومن العقلاني أن يتوقع المرء احتمال أن يعاشر رجل بموهبة طبيعية كهذه عددًا متنوعًا جدًا من النساء، وأن يجرب على نطاق واسع، لكن مكاسب ميلات إقبال الرئيسية كانت كلها حصريًا 10 نساء بروتستانتيات بيض، عمرهن بين الخامسة عشرة والثامنة والعشرين ويعشن في جوار ويست هامبستيد.

في البداية لم يزعج هذا ميلات ولم يشعر بأنه غير عادي. وكانت مدرسته مليئة بالفتيات اللواتي ينطبق عليهن الوصف العام. وبحسب قانون المعدلات المتوسطة (بما أنه كان الشخص الوحيد الذي يستحق المطاردة في جلينارد أوك) كان الأمر سينتهي به إلى أن يصبح مُطاردًا لنسبة كبيرة منهن. ومع كارينا كين، الحب الحالي، كانت الأمور في الحقيقة ممتعة. كان يخونها فقط مع ثلاث نساء أخريات (أليكسندرا أندروسيير، بولي هوفتون وروزي دو)، وكان هذا سجلًا شخصيًا. فضلًا عن ذلك كانت كارينا كين مختلفة. ولم يكن يمارس الجنس فقط معها. أحبها وأحبته، وكان لديها حس فكاهة عظيم، وشعر أن هذا كمعجزة، واعتنت به حين كان وضعه متدهورًا وفعل هو هذا، بطريقته الخاصة، محضرًا لها الأزهار والهدايا. وقد جعله قانون المعدلات المتوسطة وحظ عشوائي ما، أكثر سعادة مما كان عليه عادة. وهكذا كان الأمر.

لكن منظمة كيفن لم تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة. ففي مساء أحد الأيام، وبعد أن أوصلته كارينا إلى اجتماع لكيفن في سيارة أمها الرينو، عبر الأخ هيفان

والأخ تايرون قاعة بلدة كلبرن كرجلين طويلين جدًا وضخمي البنية، مصممين على أن يكرسا نفسيهما لخدمة النبي محمد. وكانا يقتربان قلقين ومهددين.

"أهلًا هيفان، رجلي المطّلع، أهلًا صديقي تايرون، لماذا هذان الوجهان المكفهران ؟"

لكن الأخ هيفان والأخ تايرون لم يقولا له ما سبب تجهم وجهيهما. وبدلًا من ذلك قدما له نشرة بعنوان: "من هم الأحرار الحقيقيون؟ أخوات كيفن أم أخوات سوهو؟" شكرهما ميلات عليها، ثم حشرها في قاع حقيبته.

سألاه في الأسبوع التالي: "كيف كانت النشرة؟ هل كانت مادة جيدة للقراءة يا أخ ميلات؟" وكانت الحقيقة أن الأخ ميلات لم يقرأها في الوقت المناسب (وكي نكون صادقين كان يفضل النشرات التي تحمل عناوين مثل **الشيطان الأميركي الكبير: كيف تحكم مافيا الولايات المتحدة العالم أو العلم إزاء الخالق: لا جدال**، لكنه استطاع أن يرى أنها مهمة للأخ تايرون والأخ هيفان، وهكذا قال إنه قرأها. كانت هذه تدعى: **تحرّر ملابس الليكرا؟ الاغتصاب والعالم الغربي**.

سأل الأخ تايرون بلهفة، في اجتماع الأربعاء التالي: "هل أنار الضوء ظلامك يا أخ ميلات؟ هل أصبحت الأمور أكثر وضوحًا؟"

لم تكن كلمة أوضح الصفة الصحيحة والدقيقة لميلات. ففي أوائل الأسبوع خصص بعض الوقت، وقرأ النشرتين وشعر بشيء غريب. وبعد ثلاثة أيام مرت بسرعة، بدأت تضايقه كارينا كين، الفتاة التي يحبها، النوع الجيد الحقيقي، التي لم تضايقه أبدًا من قبل (على العكس أسعدته وأمتعته!)، صارت تزعجه أكثر مما فعلت في العام كله الذي كانا يمارسان الجنس فيه. ولم يكن إزعاجًا عاديًا، كان عميقًا وغير قابل للحل، كمثل الشعور الذي يتولد لدى شخص بُترت أحد أطرافه. ولم يكن واضحًا له لماذا.

قال ميلات هازًا رأسه وبابتسامة عريضة: "نعم يا رجل، واضح كالكريستال، يا صديقي، كالكريستال".

هز الأخ تايرون رأسه رادًا. وكان ميلات مسرورًا لرؤية أنه كان مسرورًا. كان

كمثل كونك في المافيا الحقيقية أو في فيلم لبوند، شيئًا من هذا القبيل. كلاهما يرتدي بذلته السوداء والبيضاء، يهزان رأسيهما لبعضهما. أفهم. نفهم بعضنا بعضًا.

قال الأخ تايرون مسويًا ربطة عنق ميلات الخضراء ودافعًا به نحو فتاة سوداء صغيرة القامة وجميلة بعينين لوزيتين وعظام خد عالية: "هذه هي الأخت عائشة، إنها إلهة أفريقية".

قال ميلات: "حقًا؟ من أين أنت؟"

قالت الأخت عائشة بابتسامة خجولة: "من كلاپهام نورث".

صفق ميلات بيديه كلتيهما وداس بقدمه: "آه، هل تعرفين مقهى ريدباك؟"

توهجت الأخت عائشة، الإلهة الأفريقية، وقالت: "نعم، يا رجل، كان هذا مكاني منذ وقت طويل. هل تذهب إلى هناك؟"

"طوال الوقت. مكان شرير. ربما سأشاهدك في أحد الأيام عند تلك البوابات. سرني اللقاء معك، يا أخت. أخ تايرون، يجب أن أذهب، فتاتي بانتظاري".

بدا الأخ تايرون خائب الأمل. وتمامًا قبل أن يغادر ميلات ضغط نشرة أخرى في يده وواصل إمساك يده إلى أن تبللت الورقة بين راحتي كفيهما.

"يمكنك أن تكون قائدًا أعظم للرجال يا ميلات" - قال الأخ تايرون (لماذا يواصل الجميع قول هذا له؟)، ناظرًا أولًا إليه، ثم إلى كارين كين، التي كان منحنى ثدييها ينتأ فوق باب السيارة، وتستخدم بوق سيارتها في الشارع - "لكن في هذه اللحظة أنت نصف رجل. نحتاج إلى الرجل الكامل".

قال ميلات، ناظرًا بشكل وجيز إلى النشرة وفاتحًا الباب: "نعم أيها الشرير، شكرًا، أنت أيضًا يا أخ، فيما بعد".

"ما هذا؟"- سألت كارينا كين، مادة يدها كي تفتح باب الراكب ومشاهدة الورقة الرطبة قليلًا في يده.

وضع الورقة غريزيًا في جيبه. وكان هذا غريبًا. كان يُري كارينا عادة كل شيء. وشعر الآن أن لسؤالها وقعًا غريبًا. وما الذي كانت تلبسه؟ نصف قميص يُظْهر

بطنها والذي ترتديه دومًا. لكن، ألم يكن أقصر؟ ألم تكن الحلمتان أكثر وضوحًا، ألم يكن إظهارهما أكثر تعمدًا؟"

قال بجفاف: "لا شيء". لكن لم يكن هذا لا شيئًا، كانت النشرة الأخيرة في سلسلة كيفن حول النساء الغربيات، **حق التعري: الحقيقة العارية عن الجنسانية الغربية.**

وبمناسبة حديثنا عن موضوع التعري كانت كارينا كين تملك جسدًا جميلًا وصغيرًا. كان ناعمًا وممتلئًا وطويلًا ونحيلًا. وبما أن هذه هي نهاية الأسبوع فقد أحبت أن تلبس شيئًا كي تظهره. شاهدها ميلات أول مرة في حفلة محلية حين لمح لمعان بنطلون فضي، وقميصًا فضيًا يغطي جزءًا من الجسم فحسب، وكومة عارية من بطن ناتئ قليلًا يرتفع بين الاثنين مع قطعة أخرى من الفضة في السرة. وكان هناك شيء مرحّب في بطن كارينا كين الصغير. كرهته، لكن ميلات أحبه. أحبه حين كانت تلبس ثيابًا تكشفه. لكن المناشير جعلت الأشياء الآن أكثر وضوحًا. وبدأ ينتبه إلى ما ترتديه والطريقة التي ينظر إليها بها رجال آخرون. وحين ذكر الأمر قالت: "آه أكره كل أولئك الرجال العجائز المثيرين للشبهة". لكن بدا لميلات أنها تشجع على ذلك، أنها تريد الرجال أن ينظروا إليها، أنها كما قالت نشرة الحق بالتعري: **تمارس العهر أمام التحديقة الذكرية،** وخاصة الذكور البيض. ولأن الأمر يعمل بهذه الطريقة بين الرجال الغربيين والنساء الغربيات، أليس كذلك؟ يحبون أن يفعلوا هذا علنًا. وكلما فكر بالأمر ضايقه أكثر. لماذا لا تتغطى؟ من تحاول أن تثير؟ إن الإلاهات الأفريقيات من كلابهام نورث يحترمن أنفسهن، لماذا لا تحترم كارينا كين نفسها؟ قال ميلات بحذر، متأكدًا من أنه يكرر الكلمات كما سمعها: "لا أستطيع أن أحترمك إلى أن تحترمي نفسك". قالت كارينا كين إنها تحترم نفسها، لكن ميلات لم يستطع تصديقها. وهذا كان غريبًا لأنه يعرف أن كارينا كين لا تكذب أبدًا، ولم تكن من النمط الذي يكذب.

حين استعدا للخروج إلى مكان ما قال: "أنت لا تلبسين لي بل للجميع!" فردت كارينا بأنها لا تلبس له ولا لأي شخص بل لنفسها. وحين غنت أغنية "علاج

جنسي" في البار قال إن "الجنس شيء خاص، بينك وبيني، وليس للجميع". قالت كارينا إنها كانت تغني ولم تكن تمارس الجنس أمام زبائن البار. وحين مارسا الجنس قال: "لا تفعلي هذا... لا تقدميه لي كعاهرة. ألم تسمعي بالأفعال غير الطبيعية؟ فضلًا عن ذلك، سآخذه إذا أردته. ولماذا لا تستطيعين أن تكوني سيدة، وتتوقفين عن إصدار كل تلك الأصوات!" صفعته كارينا كين وبكت كثيرًا. قالت إنها لا تعرف ما الذي يجري له. وقال ميلات وهو يصفق الباب نازعًا له من مفاصله إن المشكلة هي أنه هو أيضًا لا يعرف. وبعد المشاجرة لم يتحدثا لفترة.

بعد أسبوعين، كان يقوم بنوبة عمل في مطعم البالاس من أجل المزيد من النقود، وناقش الأمر مع شيفا، والذي كان منتميًا جديدًا إلى كيفن ونجمًا صاعدًا في التنظيم. قال شيفا متذمرًا ومتسائلًا إلى كم جيل من آل إقبال سيقدم النصيحة نفسها: "لا تحدثني عن النساء البيضاوات، لقد وصلت المسألة إلى نقطة في الغرب أصبحت فيها النساء رجالًا! أعني لهن نفس الرغبات والإلحاحات كالرجال ويُردن الأمر طيلة الوقت. ويلبسن بطريقة كي يجعلن الجميع يعرفون أنهن يردن ذلك. هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟"

لكن قبل أن يتقدم الجدل، دخل صمد من الباب المزدوج باحثًا عن بعض صلصة المانغو وعاد ميلات إلى تقطيعه.

في ذلك المساء بعد العمل شاهد ميلات امرأة هندية لها وجه كالقمر ورزينة من نافذة مقهى بيكاديللي تشبه صور أمه في شبابها. كانت تلبس كنزة لها قبة بولو وبنطلونًا أسود طويلًا، وكانت عيناها محجوبتين جزئيًا بشعر أسود طويل، وزينتها الوحيدة نماذج تصميمات حمراء من المهندي [154] على راحتيْ كفيها وتجلس لوحدها.

بالجرأة نفسها المفتقرة للتفكير التي يستخدمها حين يتحدث مع الفتيات الجذابات والسطحيات ومرتادات الديسكو الذكيات، بجرأة رجل لا يهمه التحدث مع الغرباء دخل ميلات وبدأ يقدم لها الصفحة الخلفية من "الحق بالتغري" الأكثر حرفية آملًا أنها ستفهم، وهي عن رفاق الروح واحترام الذات والنساء اللواتي يسعين

إلى منح "المتعة البصرية" فقط للرجال الذين يحبونهن. قال: إنه تحرر الحجاب، أليس كذلك؟ انظري، مثل هنا: حرة من أغلال الفحص الذكري ومعايير الجاذبية، المرأة حرة كي تكون من هي في الداخل، محصنة من أن تُصوَّر كرمز جنسي يُشْتهى كما لو أنها لحم على الرف كي تُلْمس وتُضايق ويُنظر إليها. هذا ما نفكر به. وقال غير متأكد إن كان هذا ما يفكر به: هذا رأينا، وقال غير متأكد إن كان هذا رأيه: وكما ترين أنا من هذه المجموعة.

تجهمت المرأة متضايقة ووضعت سبابتها برقة فوق شفتها. تمتمت بحزن، معجبة بجماله: "آه يا عزيزي، إذا أعطيتكَ نقودًا هل تذهب؟"

ثم ظهر عشيقها، وكان شخصًا صينيًا طويلًا يرتدي سترة جلدية.

في حالة عميقة من التشوش والذهول صمم ميلات أن يجتاز الأميال الثمانية إلى المنزل سيرًا على الأقدام، مبتدئًا في سوهو، محدقًا إلى العاهرات ذوات السيقان الطويلة الجذابة وإلى الكلاسين ذات الفتحات التي تظهر الأعضاء واللفحات الريشية. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى ماربل آرش دخل بغضب واتصل بكارينا كين من كشك هاتف مغطى بحلمتين ومؤخرة (عاهرات، عاهرات، عاهرات) وأنهى علاقته معها بشكل فظ. لم يكترث بفتيات أخريات كان يمارس معهن الجنس (أليكساندرا أندروسيير، بولي هوفتون، روزي دو) لأنهن كن شبقات ولا يكترثن بما هو أبعد من الجنس. لكن كانت تهمه كارينا كين، لأنه يحبها، وحبه يجب أن يكون حبه وليس حب أي شخص آخر. يجب أن تكون محمية مثل زوجة لويتا في فيلم "أشخاص جيدون" وأخت باتشيون في فيلم "ندبة على الوجه"، وتُعامل كأميرة، وتتصرف كأميرة في برج لكن محجبة.

سار ببطء وبصعوبة، لا يوجد أحد كي يذهب إلى منزله، تم إيقافه في إيدجوير رود، ناداه العجائز السمينون (انظروا، إنه ميلات، ميلات الصغير، زير النساء! ميلات أمير مهيّجي الفروج! كبير الآن كي يدخن، أليس كذلك؟") واستسلم بابتسامة حزينة. أنابيب النراجيل، فراريج حلال مشوية وشراب أفسنتين مستورد بشكل غير قانوني يُستهلك حول طاولات خارجية متقلقلة، يراقب

النساء في البردة مسرعات كأشباح سوداء مشغولة تسكن الشوارع، يتسوقن في وقت متأخر من الليل باحثات عن أزواجهن الضائعين. وكان ميلات يحب مراقبتهن وهن يسرن، والحديث الحيوي والألوان الرائعة للعينين الصريحتين، وانفجارات الضحك من شفاه لامرئية. وتذكر شيئًا ما قاله له والده يومًا ما حين كانا يتحدثان معًا: لن تعرف معنى الإيروس يا ميلات، لن تعرف معنى الرغبة الجنسية يا ولدي الثاني إلى أن تجلس في إدجار رود مع نرجيلة مستخدمًا كل قوى خيالك كي تتصور ماذا وراء البوصات الأربعة من الحجاب وما يكشفه وما يوجد تحت تلك الأقمشة السوداء.

بعد ست ساعات جلس ميلات إلى طاولة مطبخ تشالفن ثملًا جدًا، وبكى وتصرف بعنف. دمر مركز إطفاء أوسكار البلاستيكي ورمى آلة القهوة على أرض الغرفة ثم فعل ما كانت تنتظره جويس في الأشهر الاثني عشر هذه: طلب النصيحة منها.

بدا كأن أشهرًا انقضت إلى طاولة المطبخ تلك منذ ذلك الوقت، فقد أخرجت جويس الآخرين من الغرفة، وعملت على مادة قراءتها، وعصرت يديها، واختلطت رائحة المخدرات بالبخار الذي صعد من أكواب لا تنتهي من شاي الفراولة. وكانت جويس تحبه فعلًا وتريد أن تساعده، لكن نصيحتها طويلة ومعقدة. كانت قد قرأت عن الموضوع. وبدا كأن ميلات مليء بمقت الذات وكراهية نوعه، ومن المحتمل أنه يمتلك ذهنية عبد، أو ربما عقدة لون متركزة على أمه (كان أكثر سوادًا منها)، أو رغبة بتدمير ذاته من خلال الامتزاج في مجموعة من الجينات البيضاء، أو عدم القدرة على مصالحة ثقافتين متعارضتين... وتبين أن 60% من الرجال الآسيويين فعلوا هذا... و90% من المسلمين شعروا بهذا... وكانت حقيقة معروفة أن العائلات الآسيوية كانت غالبًا... وهرمونيًا كان الأولاد من المحتمل أكثر أن ... وكانت المُعالِجة النفسية التي عثرت له عليها ظريفة جدًا، ستأتي ثلاثة أيام في الأسبوع ولا تقلق على النقود... ولا تقلق من جوشوا، هو فقط يحرد... و، و، و.

في السابق، حين مرّ ميلات في تشوش الكحول والماريجوانا والحديث تذكّر فتاة تُدعى كارينا نسي كنيتها كان يحبها وهي أحبته. كانت تمتلك حس فكاهة عظيمًا كالمعجزة، واعتنت به حين مرّ في وضع سيّئ واعتنى بها أيضًا، بطريقته الخاصة، محضرًا لها الأزهار والهدايا. بدت بعيدة الآن كمعارك لعبة الكونكرز[155] والطفولة. وهذا ما كان عليه الأمر.

*****

حدثت مشاكل في منزل عائلة جونز. كانت آيري على وشك أن تصبح أول شخص يدخل الجامعة في عائلة بودن أو جونز (ما يشاؤه الله يفعله، عسى أن يكتب لك النجاح). حصلت على العلامات الأعلى في الكيمياء وعلم الأحياء والدراسات الدينية. وأرادت أن تدرس طب الأسنان، وكان الجميع مسرورين حيال هذا، لكنها أرادت أيضًا أن تقضي عطلة لمدة سنة في شبه القارة وأفريقيا (الملاريا! الفقر! الدودة الشريطية) وهذا قاد إلى ثلاثة أشهر من الحرب المفتوحة بينها وبين كلارا. كان أحد الطرفين يريد التمويل والإذن، وكان الطرف الآخر مصممًا على عدم تقديم أي منهما. وكان الصراع مطولًا ومريرًا، وعاد جميع الوسطاء إلى منازلهم خالي الوفاض (قال صمد: لقد اتخذت قرارها، لا يوجد مجادلات للقيام بها مع المرأة) أو تورطوا في حرب الكلمات (ألسانا: لماذا لا تذهب إلى بنغلادش إذا أرادت؟ هل تقولون إن بلادي ليست جيدة بما يكفي لابنتكما؟).

كان المأزق واضحًا بحيث تم تقسيم الأرض وتحصيصها، التزمت آيري بغرفة نومها وبالعلية، آرشي المعارض الحريص، طلب فقط غرفة الضيوف، وتلفزيونًا وصحنًا لاقطًا (للدولة)، وأخذت كلارا كل شيء آخر، ولعب الحمّام دور الأرض المشتركة. أُغلقت الأبواب وانتهى وقت الكلام.

في الخامس والعشرين من تشرين الأول 1991 في الساعة الواحدة اتخذت آيري قرار هجوم في وقت متأخر من الليل. كانت تعرف من تجربتها أن أمها أكثر

ضعفًا حين تكون في السرير، وكانت تتحدث بنعومة كطفلة في وقت متأخر من الليل، ويمنحها تعبها لثغة واضحة، وفي هذه الوقت من المحتمل أكثر أن تحصل على أي شيء ترغب به كنقود الجيب ودراجة جديدة، وحظر تجول فيما بعد. كان تكتيكًا مبتذلًا ولم تعتبر أن الأمر يستحق مجادلة أشرس وأطول مع أمها. لكنها لم تمتلك أية أفكار أفضل.

"آيري؟ ماذا؟ في منتصف الليل... عودي إلى السرير..."

فتحت آيري الباب أكثر، تاركة المزيد من ضوء الصالة يغمر غرفة النوم.

دفن آرشي رأسه في مخدة: "اللعنة يا حبي، إنها الواحدة بعد منتصف الليل، بعضنا لديه عمل غدًا".

قالت آيري بصوت مرتفع، سائرة إلى نهاية السرير: "أريد أن أتحدث مع أمي، لن تتحدث معي أثناء النهار، وهكذا لجأت إلى هذا".

"من فضلك يا آيري... أنا منهكة... أحاول الحصول على بعض النوم".

"لا أريد العطلة لمدة عام فحسب بل أحتاج إليها أيضًا. هذا جوهري، أنا شابة. أريد بعض التجارب. عشتُ في هذه الضاحية اللعينة طيلة حياتي. إن الجميع متشابهون هنا. أريد أن أذهب وأشاهد الناس في العالم... هذا ما يفعله جوشوا ووالداه يدعمانه!"

قال آرشي، رافعًا رأسه عن وسادة الريش: "لكننا لا نستطيع توفير النقود لهذا، لا نملك كلنا وظائف جيدة في العلم".

"لا تهمني النقود، سأؤمن عملًا، نوعًا ما أو شيئًا ما، لكنني أريد أذنكما. لا أريد أن أمضي ستة أشهر بعيدًا وأمضي كل يوم مفكرة أنكما غاضبان".

"حسنًا. الأمر لا يعود لي فقط يا حبي، أليس كذلك؟ إنها أمك في الحقيقة، أنا..."

"نعم يا أبي. شكرًا للتعبير عمَّ هو واضح".

قال آرشي مستاء: "آه حسنًا، سأحتفظ بتعليقاتي لنفسي إذًا".

"آه يا أبي، لا أعني ... أمي؟ هل يمكن أن تجلسي من فضلك وتتحدثي بشكل

ملائم؟ أنا أحاول التحدث معك. يبدو أنني أتحدث مع نفسي هنا" - قالت آيري بطبقة صوت مرتفعة سخيفة، ذلك أنه في ذلك العام كانت الأوبرات الصابونية القادمة من الطرف الآخر من العالم تعلم جيلًا من الأطفال الإنكليز كل شيء كسؤال. "انظر، أحتاج إلى إذنك، أليس كذلك؟"

حتى في الظلمة، استطاعت آيري أن تشاهد كلارا متجهمة. "إذن من أجل ماذا؟ أن تذهبي وتتبادلي النظرات الشبقة مع السود؟ الدكتور ليفينجشون [156]، كما أفترض؟ هل هذا ما تعلمتيه من آل شالفنيز؟ لأنه إذا كان هذا ما تريدينه فأنت لا تستطيعين فعل هذا هنا. فقط اجلسي وانظري إلى لست دقائق".

"لا شيء يتعلق بهذا! أريد فقط أن أرى كيف يعيش الناس الآخرون!"

"وتتسببي في مقتلك في تلك العملية! لماذا لا تذهبين إلى الجيران، هناك يوجد بشر آخرون. اذهبي وشاهدي كيف يعيشون!"

غاضبةً أمسكت آيري مقبض السرير ودارت إلى جهة كلارا: "اجلسي فقط بشكل ملائم وتحدّثي معي بشكل ملائم وتخلّصي من صوت الفتاة الصغيرة السخيف..."

في الظلام رفست إري آيري وأخذت نفسًا حادًا بينما كانت المياه الباردة تتغلغل بين أصابع قدميها وفي السجادة. ثم، حين جرت آخر المياه، انتاب آيري الإحساس الغريب والمرعب بأنها عُضَّت.

"آه".

قال آرشي مادًا يده إلى المصباح الجانبي ومشعلًا له: "آه، كرمى لله، ماذا الآن؟"

نظرت آيري إلى حيث كان الألم. كانت هذه ضربة غير منصفة في أي حرب، كانت المجموعة الأمامية لطقم أسنان مزيفة، بدون فم مرتبط بها، معلقة بالقدم اليمنى.

"اللعنة! ما هذا؟"

لكن السؤال لم يكن ضروريًا، حتى حين تشكلت الكلمات في فمها، كانت آيري قد استنتجت الأمر: صوت منتصف الليل، استقامة وبياض وقت النهار التامين.

انحنت كلارا بسرعة إلى الأرض ورفعت أسنانها عن قدم آيري وبما أن الوقت كان متأخرًا للتنكر، وضعتها مباشرة على الطاولة التي إلى جانب السرير.

"هل رضيت؟" سألت كلارا بقلق. (لم يكن الأمر أنها تعمدت عدم إخبارها. لم يكن هناك أبدًا وقت جيد لهذا).

لكن آيري كانت في السادسة عشرة وكل شيء يبدو متعمدًا في تلك السن. بالنسبة لها، كان هذا بندًا آخر في قائمة طويلة من حالات نفاق وكذب الوالدين، ومثالًا آخر على موهبة آل جونز\بودن في التواريخ السرية، والقصص التي لا تُروى لك أبدًا، والتاريخ الذي لا تكشفه أبدًا بشكل كامل، والإشاعة لا تتحقق منها، وسيكون رائعًا إذا لم يكن كل يوم منقطًا بالأدلة والاقتراحات، والشظايا في ساق آرشي...صورة للجدة دورهام الغريبة البيضاء...اسم "أوفيليا" وكلمة "مشفى المجانين"... خوذة دراجة والواقية من الطين... رائحة الطعام المقلي من مطعم أوكونيل... ذكرى باهتة لرحلة في السيارة في وقت متأخر من الليل، ملوّحة لفتى في طائرة... رسائل بطوابع سويدية، هورست إبلجوفتس، إذا لم تُرسل تعاد إلى المرسل...

آه أية شبكة متداخلة ننسج. كان ميلات مصيبًا: إن أولياء الأمور أشخاص مصابون، فقدوا أيديًا وأسنانًا. كانوا مليئين بالمعلومات التي تريد أن تعرفها لكنك تخاف جدًا من سماعها. لكنها لم تعد تريدها بعد الآن، تعبت منها. مرضت من عدم تلقيها للحقيقة كلها. كانت تعيدها إلى المرسل.

قال آرشي بشكل تحببي: "لا تظهري نفسك مصدومة هكذا يا حبي. هذه فقط بعض الأسنان اللعينة. وهكذا تعرفين الآن، ليست هذه نهاية العالم".

لكنها كانت نهاية العالم، بطريقة ما. لقد طفح الكيل. سارت عائدة إلى غرفتها، حزمت كتبها المدرسية وثيابها الضرورية في حقيبة ظهر كبيرة وارتدت معطفًا ثقيلًا فوق ثوب نومها. فكرت بآل تشالفن لنصف ثانية، لكنها كانت تعرف أنه لا يوجد أجوبة هناك، فقط أمكنة أكثر للهرب. فضلًا عن ذلك، هناك غرفة ضيوف واحدة يشغلها ميلات. عرفت آيري أنه عليها أن ترحل، إلى عمق

المسألة، حيث فقط الحافلة (ن 17) سيأخذها في ذلك الوقت من الليل. جلست في الطابق الثاني، حيث المقاعد ملطخة بالتقيؤ، واندفعت الحافلة عبر 47 موقفًا قبل أن تصل إلى وجهتها. ووصلت إلى هناك في النهاية.

تمتمت هورتينس، دون أن تزيح مموِّجات الشعر، غائمة العينين على العتبة: يا يسوع، آيري أمبروسيا جونز، هل هذه أنت؟"

15

التشافلينية مقابل البودينية

كانت آيري جونز بشحمها ولحمها، وأكبر بست سنوات عم كانت عليه في المرة الأخيرة التي التقيتا فيها، وأكثر طولًا وعرضًا، وبثديين وبدون شعر وتنتعل شبشبًا مرئيًا فحسب تحت معطف واق من المطر. وكانت هورتينس بودن أكبر بست سنوات، وأقصر وأعرض، بثديين متهدلين على بطنها وبدون شعر (على الرغم من أنها قامت بالخطوة الغريبة في وضع المشابك في لمتها) وشبشب مرئي فحسب تحت روب نوم قرنفلي اللون ومبطن، لكن الفرق الحقيقي هو أن هورتينس في الرابعة والثمانين من عمرها. لم تكن عجوزًا صغيرة، بل ضخمة وقوية، ومشدودة الدهون بحيث أن الطبقة الخارجية من الجلد كانت تمر في وقت صعب من التغضّن. ذلك أن سن الرابعة والثمانين ليس مثل السابعة والسبعين أو الثلاثة وستين، ففي الرابعة والثمانين لا يوجد أي شيء سوى الموت أمامنا، وهو مملٌّ في إلحاحه. وكان هناك في وجهها كما لم تر آيري أبدًا من قبل الانتظار والخوف والراحة المباركة.

لكن هناك اختلافات، وحين نزلت الدرجات إلى داخل شقة هورتينس في القبو فاجأت آيري صدمة التشابه. ففي الماضي كانت زائرة منتظمة لبيت جدتها: زيارات سرية مع آرشي حين كانت أمها في الجامعة، ودومًا تغادر بشيء غير معتاد كرأس

سمكة مخلل وفطائر حارة وكلمات مزمور مغوية وملحة. ثم في جنازة داركوس في 1985 صرحت آيري التي كان عمرها 10سنوات عن تلك الزيارات الاجتماعية فأنهتها كلارا. وظلوا يتصلون ببعضهم بالهاتف أحيانًا، وحتى هذا اليوم كانت آيري تتلقى رسائل قصيرة على أوراق التمارين مع نسخة من مجلة برج المراقبة موضوعة في الداخل. وكانت آيري تنظر أحيانًا إلى وجه أمها وترى جدتها، عظام الخدين المهيبين، والعينين الماكرتين لكنهما لم تلتقيا وجهًا لوجه منذ ست سنوات.

وفيما يتعلق بالمنزل بدا كأن ست ثوان مرت، إذ لا يزال مظلمًا وتحت الأرض ومزينًا بمئات التماثيل الصغيرة العلمانية (سندريلا في طريقها إلى حفلة الرقص، السيدة تيدليتوم تدل السناجيب الصغيرة على طريق النزهة)، وكلها ثابتة على مفارشها المنفصلة وتضحك بمرح، مسرورة من وجود شخص سيدفع مائة وخمسين جنيهًا على 15 قسطًا من أجل قطع رخيصة كهذه من الخزف والزجاج. وكان هناك بساط حائط ثلاثي ضخم تذكرته آيري، وهو معلق الآن على الحائط فوق الموقد، يصور في قطعته الأولى المُباركين يجلسون في يوم القيامة مع يسوع في السماء. وكان المختارون المباركون شقرًا وأعينهم زرقاء وبدوا هادئين بقدر ما يسمح قطن هورتينس الرخيص، وكانوا ينظرون إلى الأسفل إلى الحشد الكبير الذي بدا سعيدًا، لكنه لم يكن سعيدًا كالمختارين المباركين الذين كانوا يتحركون مبتهجين في فردوس أبدي على الأرض. وكان الحشد الكبير بدوره ينظر بشفقة إلى الوثنيين (وهم الحشد الأكبر) وهم موتى في قبورهم، ومكدسون فوق بعضهم كأسماك السردين.

كان الشيء الوحيد المفقود هو داركوس (كانت آيري تتذكره بشكل باهت فحسب كمزيج من الرائحة والنسيج، النفتالين والقطن المبلل)، وكان هناك كرسي ضخم فارغ، لا تزال تصدر عنه رائحة كريهة وتلفزيون لا يزال شغالًا.

"آيري، انظروا إليها! طفلة وترتدي قميصًا، لا بد أنك متجمدة يا طفلة! ترتجفين كالفاصولياء المكسيكية النطاطة. دعيني أتحسسك. حمى! ستجلبين الحمى إلى منزلي؟"

كان من المهم في حضور هورتينس عدم الاعتراف بالمرض. وكان العلاج كما في معظم المنازل الجامايكية دومًا أكثر إيلامًا من الأعراض.

"أنا بخير. لا يوجد مشكلة...".

وضعت هورتينس يد آيري على جبينها: "حقًا؟ هذه حمى بقدر ما هي الحمى حمى. هل تشعرين بها؟"

تحسّستْها آيري. كانت ساخنة كالجحيم.

تناولت هورتينس قطعة قماش عن كرسي داركوس ولفتها حول كتفي آيري: "تعالي هنا، الآن ادخلي المطبخ وتوقفي واهدأي. تخرجين في ليلة كهذه. تلبسين الهراء الخفيف! ستتناولين شراب السيراس ثم تذهبين إلى الفراش بأسرع مما فعلتيه كل حياتك".

قبلتْ آيري القماش ذا الرائحة وتبعت هورتينس إلى المطبخ، حيث جلستا كلتاهما.

"دعيني أنظر إليك".

اتكأت هورتينس على الفرن بيديها على ردفيها: "تبدين مثل السيد موت، عشيقك الجديد. كيف وصلت إلى هنا؟"

مرة ثانية، يجب أن يكون المرء حريصًا في جوابه. كان احتقار هورتينس للمواصلات في لندن راحة كبيرة لها في سنها المتقدم. تستطيع أن تأخذ كلمة واحدة مثل قطار وترسم لحنًا منها (الخط الشمالي)، الذي يتوسع إلى نغم ويتبرعم في موضوع (الذي فوق الأرض) ثم ينمو أضعافًا مضاعفة إلى أوبريتا (شرور وغياب المساواة في السكك الحديدية البريطانية).

"الحافلة ن 17. كان الجو باردًا في الطابق العلوي. ربما أصبت بالرشح".

"لا أعتقد أنه يوجد أي "يمكن" حيال هذا يا شابة. وأنا متأكدة من أنني لا أعرف لماذا جئت بالحافلة، التي تستغرق ثلاث ساعات كي تصل وتتركك تنتظرين في البرد ثم حين تدخلين إليها والنوافذ مفتوحة يتجمد نصفك حتى الموت".

سكبت هورتينس سائلًا يخلو من اللون من وعاء بلاستيكي في يدها: "تعالي هنا".
سألت آيري، مشتبهة على الفور: "لماذا؟ ما هذا؟"
"لا شيء. تعالي. انزعي نظارتك".
اقتربت هورتينس بيد متكوّرة.
"ليس في عيني! لا يوجد مشكلة في عيني".
"توقفي عن الضجيج. لن أضع شيئًا في عينك".
"فقط أخبريني ما هذا" - توسلت آيري، محاولة أن تعرف لأي ثقب كانت تتجه وهي تصرخ فيما اليد المكورة تصل إلى وجهها، ناشرة السائل من الجبين إلى الذقن.
"آه، إنه يحرق".
قالت هورتينس بطريقة عملية غير متعاطفة: "إنه شراب روم من منطقة الخليج. يخلصك من الحمى. لا تغسليه، كلا. فقط اتركيه كي يقوم بعمله".
صرّت آيري بأسنانها فيما كان عذاب ألف وخزة دبوس يهبط إلى خمسمائة، ثم 25 ثم أخيرًا إلى الألم الذي من النوع الذي يمكن أن تسببه صفعة.
قالت هورتينس، مستيقظة بشكل كامل ومنتصرة نوعًا ما: "وهكذا هربتِ أخيرًا من تلك المرأة الكافرة. أفهم ذلك. وأصبتِ بالرشح وأنت تفعلين هذا. حسنًا... هناك من لن يلومك، مطلقًا... لا أحد يعرف أفضل مني كيف هي تلك المرأة. لا تتواجد في البيت أبدًا، وتعلمتْ كل ذلك الانفصال في الجامعة، تاركة زوجها وابنتها في المنزل جائعين ودون عناية. يا إلهي، أمر طبيعي أن تهربي! حسنًا!"- تنهّدت ووضعت إبريقًا نحاسيًا على الموقد- "هذا مكتوب. (وَتَهْرُبُونَ فِي جِوَاءِ جِبَالِي، لأَنَّ جِوَاءَ الْجِبَالِ يَصِلُ إِلَى آصَلَ. وَتَهْرُبُونَ كَمَا هَرَبْتُمْ مِنَ الزَّلْزَلَةِ فِي أَيَّامِ عُزِّيَّا مَلِكِ يَهُوذَا. وَيَأْتِي الرَّبُّ إِلهِي وَجَمِيعُ الْقِدِّيسِينَ مَعَكَ" (سفر زكريا 14:5). في النهاية سيهرب الجيدون من الشر. آه يا آيري أمبروسيا... عرفتُ أنك ستأتين في النهاية. كل أطفال الله يعودون في النهاية".
"جدتي، لم آت كي أعثر على الله. أريد فقط أن أقوم ببعض الدراسة الهادئة هنا وأستعيد توازني. أحتاج إلى البقاء لبضعة أشهر، على الأقل حتى يوم رأس

السنة. آه... أشعر قليلًا بالدوخة. هل أستطيع أن أتناول برتقالة؟"

واصلت هورتينس الحديث واضعة جذر سيراس مرًا في الأبريق: "نعم، كلهم يعودون إلى الرب في النهاية، هذه ليست برتقالات حقيقية يا عزيزتي. هذه فواكه بلاستيكية. لا أظن أن الرب يريدني أن أصرف النقود القليلة الخاصة بالعناية بالمنزل على بضائع معرضة للتلف. تناولي بعض التمر".

عبست آيري وهي تنظر إلى الفاكهة المتغضنة الموضوعة أمامها.

قالت هورتينس بحزن حاكة الزبد البني لكوب شاي بإصبعين صابونيين: "وهكذا تركت أرشيبالد مع تلك المرأة... المسكين. أحببتُ أرشيبالد دومًا، لم أكن معترضة عليه أبدًا. كان دومًا عاقلًا نوعًا ما. مباركون هم صانعو السلام. دومًا يفاجئني كصانع سلام. لكن الأمر يتعلق دومًا بالمبدأ، كما تعرفين؟ إن الأسود والأبيض لا ينتهيان إلى شيء بلا قيمة. لم يشأ الرب يسوع لم أن نخلط الأمور. لهذا غضب من القوم الذين بنوا برج بابل. أريد من الجميع أن يبقوا الأمور منفصلة. "لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ". (سفر التكوين 11:9). حين تخلطين الأمور لا يمكن أن يأتي أي شيء جيد. لم يكن هذا مقصودًا. عداك أنت" - أضافت كما لو بعد تفكير - "أنت أفضل شيء خرج من كل هذا... يكون الأمر أحيانًا كالنظر في المرآة" - قالت رافعة ذقن آيري بأصابعها المتغضنة - "إن بنيتك كبنيتي ونحن متشابهتان أيضًا في الردفين والعنق والثديين. كانت أمي تمتلك البنية نفسها. لقد سُمّيتِ على اسم أمي".

"آيري؟" سألتها آيري، محاولة أن تصغي بصعوبة. كانت تشعر بضغط الحمّى يضعفها.

"كلا يا عزيزتي، أمبروسيا. المادة التي تجعلك تعيشين إلى الأبد. الآن" - قالت وهي تصفق بيديها سوية، رادة على سؤال آيري التالي- "تنامين في غرفة الجلوس. سأحضر لك بطانية ومخدات ثم نتحدث صباحًا. أنهض في السادسة لأنه لدي عمل يتعلق بالشهود، وهكذا لا تظني أنك ستنامين إلى بعد الثامنة. هل تسمعينني

يا طفلة؟"

"لكن ماذا عن غرفة أمي القديمة؟ هل أستطيع النوم فيها؟"

أسندت هورتينس نصف وزن آيري على كتفها وقادتها إلى غرفة الجلوس: "كلا، هذا غير ممكن. ثمة موقف معين" - قالت هورتينس على نحو غامض- "هذا يمكن شرحه حين تشرق الشمس. "فلا تَخَافُوهُمْ! مَا مِنْ مَسْتُورٍ لَنْ يُكْشَفَ، وَمَا مِنْ خَفِيٍّ لَنْ يُعْرَفَ". رددت بهدوء، مستديرة للذهاب: "وما من خفي لن يُعرف". (متى 11:26).

*****

كان الصباح الخريفي هو الوقت الوحيد الذي يستحق أن يُقضى في تلك الشقة القبو. وبين السادسة والسابعة حين تكون الشمس منخفضة يدخل الضوء عبر النافذة الأمامية ويغمر غرفة الجلوس بالأصفر مرقطًا بقعة الأرض الطويلة وقليلة العرض الملحقة بالمنزل والتي يبلغ طولها 30 قدمًا وعرضها سبعة أقدام ويمنح الطماطم قشرة صحية. يمكنك أن تقنع نفسك تقريبًا، في السادسة صباحًا، أنك في الطابق الأرضي في كوخ قاري ما أو على الأقل على مستوى الشارع في توركوي، بدلًا من تحت الأرض في لامبيث. ويكون الوهج قويًا بحيث أنك لا تستطيع أن تميز تحويلات السكك الحديدية حيث تنتهي قطعة الخضرة، أو الأقدام اليومية المنشغلة التي تمر قرب نافذة غرفة الجلوس رافسةً الغبار عبر الحاجز الشبكي على الزجاج. كان ضوءًا أبيض وظلًا رشيقًا في السادسة صباحًا. وهي ممسكة لكوب شاي وجالسة إلى طاولة المطبخ حرفت آيري عينيها إلى الأعشاب وشاهدت كرمة، ومشاهد فلورنسية بدلًا من الفوضى غير المستوية لسطوح لامبيث، ورأت إيطاليًا مفتول العضلات مظللًا يقطف ثمار التوت ويسحقها تحت قدمه. ثم اختفى السراب الذي كان معتمدًا على الشمس كعادته، وابتلعت المشهد كله سحابة ملتهمة تاركة فقط بعض المساكن الإدواردية المتداعية وتحويلات السكك الحديدية التي سُميت على اسم طفل

مهمل. وكانت هناك قطعة طويلة وضيقة من الأرض حيث لن ينمو أي شيء تقريبًا. وشاهدت رجلًا بلا لون متقوس الساقين وبشعر أحمر بوضعية مريعة وينتعل بوط ولنغتون يدوس مبتعدًا في النشارة محاولًا أن ينفض بقايا حبة طماطم مسحوقة عن كعبه.

قالت هورتينس مسرعة عبر المطبخ في فستان كستنائي اللون علاقاته وعراه مفتوحة وتحمل قبعة في يدها عليها أزهار بلاستيكية مائلة: "هذا هو السيد توبس، كان يساعدني منذ أن توفي داركوس. ويخفف استيائي ويهدئ بالي".

لوحت له فاستقام ولوح لها. راقبته آيري يلتقط كيسين بلاستيكيين مليئين بالطماطم ويسير بطريقته الغريبة كالحمامة إلى أعلى الحديقة نحو باب المطبخ الخلفي.

"وهو الشخص الوحيد الذي جعل شيئًا واحدًا ينمو هناك. يا له من محصول طماطم كما لم تشاهدي من قبل! آيري أمبروسيا، توقفي عن التحديق وارفعي هذا الفستان. بسرعة قبل أن تسقط عيناك الناتئتان".

همست آيري باندهاش مصارعة كي تضم جانبي فستان هورتينس فوق خاصرتها الضخمة: "هل يعيش هنا؟ أعني، معك؟"

شخرت هورتينس: "ليس بالمعنى الذي تقصدينه. إنه فقط يقدم لي مساعدة كبيرة في شيخوختي. كان معي في هذه السنوات الست الأخيرة. ليباركه الله ويحفظ روحه. والآن، أعطني ذلك الدبوس".

ناولتها آيري دبوس القبعة الطويل الذي كان يتوضع في صحن زبدة. ثبتت هورتينس الأزهار التزيينية بشكل مستقيم على قبعتها بعد أن شكلتها بقوة ثم رفعت الدبوس نحو الأعلى عبر اللباد تاركة إنشين من الفضة المكشوفة تنتأ من القبعة كمثل قبعة ألمانية.

"حسنًا، لا تنصدمي. هذا ترتيب مُرْضٍ جدًا. نحتاج إلى رجل في المنزل، وإلا فإن الأمور ستسوء. أنا والسيد توبس جنديان نقاتل في معركة الرب. منذ مدة انضم إلى كنيسة الشهود، وكان صعوده سريعًا وأكيدًا. انتظرتُ خمسين سنة

كي أفعل شيئًا آخر في "قاعة المملكة" عدا التنظيف" - قالت هورتينس بحزن -"لا يريدون أن تتدخل النساء في عمل الكنيسة الحقيقي. لكن السيد توبس يقوم بالكثير من الأعمال، ويجعلني أساعده أحيانًا. إنه رجل ممتاز لكن عائلته كريهة جدًا" - تمتمت بثقة - "الأب مريع، مقامر ومعاشر مومسات... وهكذا بعد فترة طلبتُ منه أن يأتي ويعيش معي، وخاصة بعد أن بدأتُ أرى الغرفة فارغة وبعد وفاة داركوس. إنه متحضر جدًا، ولم يتزوج أبدًا. إنه متزوج من الكنيسة. ويناديني السيدة بودن في هذه السنوات الست، ولا شيء آخر" - تنهدت هورتينس قليلًا - "إنه مستقيم جدًا. إن الشيء الوحيد الذي يريده في الحياة هو أن يصبح أحد المُختارين المباركين. إنني معجبة به كثيرًا. تحسّن كثيرًا. ويتحدث بشكل لائق الآن، وهو سمكري جيد جدًا. كيف هي حرارتك؟"

"ليست مرتفعة كثيرًا. العلّاقة الأخيرة... هناك، تم الأمر".

قفزت هورتينس بعيدًا عنها وسارت إلى الصالون كي تفتح الباب الخلفي لريان.

"لكن يا جدتي، لماذا يعيش..."

"حسنًا، يجب أن تأكلي هذا الصباح، إذا تغذّيت جيدًا ستزول الحمى. هذه الطماطم مقلية مع البلانتين [157] وبعض السمك من الليلة الماضية. سأجهزها ثم أضعها في الميكرويف".

"ظننت أنه تخلص من الحمى..."

"صباح الخير يا سيد توبس".

قال توبس مغلقًا الباب خلفه نازعًا معطفًا واقيًا كي يكشف بذلة زرقاء رخيصة، بصليب ذهبي صغير معلق على الياقة: "صباح الخير يا سيدة بودن، أنا واثق أنك جاهزة؟ يجب أن نكون في القاعة في السابعة".

حتى الآن لم ير ريان آيري. كان منحنيًا ينفض الطين عن بوطه وفعل ذلك بشكل مخيف، وهو يتحدث، وبجفنيه الشفافين المرفرفين كرجل في غيبوبة. استطاعت آيري أن ترى فقط نصفه من حيث كانت تقف: شاهدت هدابًا أحمر، وركبة محنية وكم قميص أحد اليدين.

لكن الصوت كان مشهدًا بحد ذاته، يفتقر لبعض الأحرف الساكنة ويضيف أخرى حيث لم يكن يقصد وجودها أبدًا، وكلها تُنطق عبر الأنف فقط بأقل مساعدة من الفم.

"صباح جميل، يا سيدة بي، صباح جميل. شيء يجب أن نشكر الرب عليه".

بدت هورتينس متوترة بشكل رهيب من الاحتمال الوشيك بأنه سيرفع رأسه ويشاهد فتاة تقف قرب الموقد. واصلت الإشارة لآيري إلى الأمام ثم أشارت لها بأن تذهب، غير متأكدة إن كان يجب أن يلتقيا.

"نعم يا سيد توبس، إنه هكذا، أنا جاهزة. إن قبعتي تسبب لي بعض الإزعاج، كما تعرف، لكنني وضعت دبوسًا فيها لتوي".

قال ريان ببطء وبألم لافظًا كل كلمة وهو منحن بارتباك ويخلع فردة بوطه اليسرى: "لكن الرب غير مهتم بتفاهات الجسد. إن يهوه بحاجة إلى روحك".

قالت هورتينس بقلق لاعبة بأصابعها بأزهارها البلاستيكية: "آه نعم، أكيد هذه حقيقة مقدسة، لكن في الوقت نفسه إن سيدة من الشهود يجب ألا تبدو مثل شخص من طبقة سفلى في منزل الرب".

تجهم ريان: "إن ما أقصده هو أنك يجب أن تتجنبي تفسير النص المقدس بنفسك يا سيدة بودن. في المستقبل ناقشيه معي ومع زملائي. اسألينا: هل الثياب الجميلة تهم الرب؟ وأنا نفسي وزملائي بين المباركين سننظر إلى الفصل والآية المناسبين..."

تلاشت جملة ريان في صوت عام (إزهمممم) وهو صوت كان يميل إلى صنعه ويبدأ في منخريه المقوسين ويتردد صداه عبر أعضائه الضئيلة والمطولة والمشوهة كالارتجافة الأخيرة لرجل مشنوق.

قالت هورتينس هازة رأسها: "لا أعرف لماذا أفعلها يا سيد توبس، أحيانًا أعتقد أنه يمكنني أن أكون أحد العارفين على الرغم من أنني امرأة... أشعر أن الرب يتحدث معي بطريقة خاصة... إنها عادة سيئة فحسب... لكن تغير الكثير في الكنيسة مؤخرًا أحيانًا لا أستطيع أنا أنفسي أن أتابع كل تلك القواعد

والقوانين".

نظر ريان عبر الزجاج المزدوج. كان وجهه يعاني: "لا شيء يتغير حيال كلمة الرب يا سيدة ب. إن الناس مخطئون فحسب. إن أفضل ما يمكنك فعله هو الدعاء فحسب بأن ترسل لنا صالة بروكلن الموعد الأخير. إررررررهم".

"آه نعم يا سيد توبس. أفعل ذلك نهارًا وليلًا".

صفق ريان بيديه في محاكاة ضعيفة للحماس: "هل سمعتك تقولين إنك أعددت البلانتين للفطور يا سيدة ب؟"

"آه نعم يا سيد توبس، وسيكون لطفًا منك أن تسلم الطماطم للشيف".

كما كانت هورتينس تأمل، تزامن تقديم الطماطم مع مشاهدة آيري.

"الآن، هذه حفيدتي، آيري أمبروسيا جونز، وهذا هو السيد توبس. قولي مرحبًا يا عزيزتي آيري".

فعلت آيري هذا، خاطية إلى الأمام بعصبية ومادة يدها كي تصافحه. لكن ريان توبس لم يستجب، وازدادت الفجوة حين بدا فجأة كأنه يعرفها، وكان هناك نبض معرفة حين تنقلت عيناه فوقها، بينما لم تر آيري أي شيء، حتى النمط، حتى نوع وجه في وجهه، كانت وحشيته فريدة، شعره أكثر احمرارًا من أي شعر أحمر، وأكثر نمشًا من المنمشين، وشرايينه أكثر زرقة من سرطان البحر.

قالت هورتينس بحذر: "إنها ابنة كلارا، كان السيد توبس يعرف أمك، منذ وقت طويل. لكن لا بأس يا سيد توبس، جاءت كي تعيش معنا الآن".

صححت آيري بسرعة، ملاحظة نظرة الرعب الغامضة على وجه السيد توبس: "فقط لوقت قصير، فقط لبضعة أشهر ربما، في الشتاء أثناء الدراسة. لدي امتحانات في حزيران".

لم يتحرك السيد توبس. فضلًا عن ذلك لم يتحرك أي شيء فيه وكأحد الجنود الصينيين المنحوتين [158] بدا كأنه اتخذ وضعية القتال لكنه غير قادر على التحرك.

كررت هورتينس بهمس باك: "ابنة كلارا. كان يمكن أن تكون ابنتك".

لم يفاجئ أي شيء آيري في هذا الأمر الأخير المهموس جانبيًا، أضافته لتوها إلى القائمة: أنجبت أمبروسيا بودن أثناء الزلزال... كان القبطان تشارلي دورهام سيئًا... أسنان مزيفة في كأس... كان يمكن أن تكون ابنتك...

دون حماس، ودون توقع جواب، سألت آيري: "ماذا؟"

"آه لا شيء يا عزيزتي آيري. لا شيء. دعوني أبدأ بالقلي. أستطيع سماع البطون تقرقر. أنت تتذكر كلارا. أليس كذلك يا سيد توبس؟ كنتما صديقين جيدين يا سيد توبس؟"

حدج ريان آيري بنظرة ثابتة لمدة دقيقتين، جسمه مستقيم بشكل كامل، فمه مفتوح قليلًا. لدى السؤال، بدا أنه هدأ نفسه، أغلق فمه وجلس إلى الطاولة غير المعدة.

"إنها ابنة كلارا، أليس كذلك؟ إررررررهم"... أخرج ما بدا كأنه إضمامة ورق تشبه مفكرة شرطي صغيرة من جيبه الصدري ووضع قلمًا عليها وكأن هذا سينشط ذاكرته.

قال ريان توبس آخذًا أصغر نفس فحسب وأدوات المائدة من هورتينس: "كما ترين، هناك الكثير من الأشخاص والأحداث في حياتي قُطعت وفُصلت عني بالسيف الجبار الذي قطعني وفصلني عن ماضيَّ حين شاهد الرب يهوه أنه من المناسب أن ينورني بالحقيقة، وكما اختارني لدور جديد يجب أن أتخلى عن الأمور الصبيانية، كما زكى بولس بحكمة في رسالته إلى أهل كورنثوس، سامحًا لتجسدات سابقة لنفسي بأن تُغلَّف بضباب كثيف يبدو أن أمك، وأية ذكرى أحملها عنها تلاشت فيه. إررررررهم".

قالت آيري: "لم تذكرك أبدًا أيضًا".

قالت هورتينس بمرح قسري: "حسنًا، حدث هذا منذ زمن طويل، لكنك فعلتَ ما بوسعك معها يا سيد توبس. كانت طفلتي المعجزة كلارا. كنتُ في الثامنة والأربعين. ظننتُ أنها طفلة الرب. لكنها كانت ميالة للشر... لم تكن أبدًا طفلة للرب وفي النهاية لم يكن هناك ما يمكن فعله".

قال ريان بحيوية وكان أكثر ابتهاجًا من السابق: "سيرسل انتقامه يا سيدة ب. سيسلط عذابًا رهيبًا على الشريرين. اسكبي لي بعض البلانتين من فضلك".

وضعت هورتينس الصحون الثلاثة، وآيري التي أدركت أنها لم تأكل منذ صباح أمس، وضعت جبلًا من قطع البلانتين في صحنها.

"آه، إنه ساخن".

قالت هورتينس بتجهم وبارتجاف هادف: "ساخن أفضل من فاتر، دومًا، آمين".

ردد ريان، مواجهًا البلانتين الأحمر الساخن: "آمين، آمين! ما الذي تدرسينه بالضبط؟ سأل، ناظرًا بشكل هادف عبر آيري بحيث استغرق الأمر برهة كي تدرك أنها هي المقصودة.

"كيمياء، وعلم أحياء. دراسات دينية" - نفخت آيري على قطعة ساخنة من البلانتين - "أريد أن أصبح طبيبة أسنان".

ابتهج ريان أكثر: "ماذا عن الدراسات الدينية؟ وهل يعرفونك على الكنيسة الحقيقية؟"

تحركت آيري في مقعدها: "أعتقد أنهم يعرفوننا على الثلاثة الكبار، اليهود والمسيحيين والمسلمين. درسنا الكاثوليكية شهرًا".

عبس ريان: "وهل لديك أية اهتمامات؟"

فكرت آيري: "الموسيقى. أحب الموسيقى. الحفلات، الأندية، ذلك النوع من الشيء".

قال ريان بعد أن نهض ونظر إلى ساعته: "نعم، إرررررهم. كنت أرتاد كل هذه الأماكن إلى أن وصلتني الأنباء الجيدة. تجمعات كبيرة من الشباب من النوع الذي يرتاد الحفلات العامة، هم عادة يهيئون الأرضية لعبادة الشيطان. فتاة بأرصدتك الجسدية يمكن أن تُغرى وتقع بين ذراعي شخص فاحش. الآن أفكر بالأمر، في ضوء معين تبدين كثيرًا مثل أمك... عظام خدين متشابهة".

مسح ريان خيطًا لؤلؤيًا من العرق عن جبينه. خيم صمت وقفت أثناءه

هورتينس بلا حركة، متمسكة بعصبية بقماشة غسل الصحون وكان على آيري أن تخطو عبر الغرفة من أجل كأس ماء وكي تبعد نفسها عن تحديقة السيد توبس.

"حسنًا، لدينا عشرون دقيقة وبدأ العد، يا سيدة ب. سأجهز العدة، هل يجب؟"

"آه نعم يا سيد توبس"، قالت هورتينس متوهجة. لكن في اللحظة التي غادر فيها ريان الغرفة تحول التوهج إلى عبوس.

"لماذا تفوهت بأمور كهذه، هل تريدينه أن يظن أنك فتاة وثنية شيطانية؟ لماذا لا تقولين جمع الطوابع أو شيئًا ما؟ هيا، يجب أن أنظف هذه الصحون، أنهي طعامك".

نظرت آيري إلى كومة الطعام المتبقية في صحنها وربتت على بطنها بشعور بالذنب.

"آه، كما اشتبهت. إن عينك لا تشبع! أعطني هذا".

مالت هورتينس على المغسلة وبدأت تضع قطع البلانتين في فمها ثم قالت مخفضة صوتها: "الآن، لا تردي على السيد توبس وأنت هنا. لديك دراسة ولديه دراسة أيضًا. إنه يقوم باستشارة مع السادة في بروكلن في هذه اللحظة... كي يثبت الموعد الأخير، لا أخطاء هذه المرة. يجب عليك أن تفكري فحسب بالمشكلات التي تحدث في العالم كي تعرفي أننا لسنا بعيدين عن اليوم الموعود".

قالت آيري، مقتربة من مكان الجلي كإيماءة إرادة طيبة: "لن أسبب أية مشاكل، فقط يبدو غريبًا قليلًا".

"الذين اختارهم الرب دومًا يبدون غريبين للوثنيين. لقد أُسيّئ فهم السيد توبس فحسب. هو يعني الكثير لي. لم يكن لدي أحد أبدًا من قبل. لم تخبرك أمك منذ أن أصبحت مغرورة، لكن عائلة بودن مرت في صعوبات من قبل. ولدتُ أثناء الزلزال. وكدت أُقتل تقريبًا قبل الولادة. وحين أصبحتُ امرأة كاملة هربتْ ابنتي مني. ولم أر أبدًا حفيدتي الوحيدة. لم يكن لدي إلا الرب كل تلك السنين. والسيد توبس هو الرجل الأول الذي اعتنى بي وحرص علي. كانت أمك حمقاء

بحيث تركته يفلت منها، في الحقيقة".

قامت آيري بمحاولة أخيرة: "ماذا؟ ماذا يعني هذا؟"

"آه، لا شيء، لا شيء، يا إلهي... أنا وأنت نتحدث في كل أنحاء المكان هذا الصباح... آه يا سيد توبس، أنت هنا. لن نتأخر الآن، هل سنتأخر؟"

السيد توبس، الذي عاود الدخول إلى الغرفة كان مزينًا بشكل كامل بالجلد من رأسه إلى أخمص قدميه، وقبعة دراجة نارية ضخمة على رأسه. ضوء صغير أحمر مثبت بكاحله الأيسر وضوء أبيض صغير مثبت بكاحله الأيمن. أغلق غطاء الوجه.

"كلا، نحن بخير، بنعمة من الله. أين خوذتك يا سيدة ب؟"

"آه وضعتها في الفرن كي تظل دافئة ومسخنة في الصباحات الباردة. أحضريها لي من فضلك يا آيري أمبروسيا".

في الرف الأوسط المسخن مسبقًا إلى علامة الغاز 2 كانت تتوضع خوذة هورتينس بشكل واضح. أخرجتها آيري بحرص ووضعتها بشكل ملائم فوق أزهار جدتها المطاطية.

"تركبين دراجة نارية"، قالت آيري، لإكمال المحادثة.

لكن السيد توبس قال مدافعًا: "جي، إس، فيسبا. ليست شيئًا مترفًا. أفكر بمنحها لأحد ما. إنها تمثل حياة أفضّل أن أنساها، إذا فهمت قصدي. إن الدراجة النارية هي مغناطيس جنسي، وليسامحني الله، استخدمتها بتلك الطريقة. كنت سأتخلص منها لكن السيدة ب أقنعتني أنه بسبب خطاباتي العامة أحتاج إلى شيء سريع كي أصل إليها. ولا تريد السيدة ب أن تتعب نفسها بالحافلات والقطارات في سنها، هل هذا صحيح يا سيدة ب؟"

"كلا، بالفعل. لقد أحضر لي هذه العربة...".

صحح متضايقًا: "السيارة الجانبية، تُدعى سيارة جانبية. منتج مينيتو للدراجات النارية، موديل 1973".

"نعم بالطبع، سيارة جانبية، ومريحة كالسرير. نذهب إلى جميع الأمكنة بها،

السيد توبس وأنا".

أنزلت هورتينس معطفها عن علاقة على الباب وبحثت في الجيوب عن رباطيْ فيلكرو عاكسين للضوء ربطتهما حول كل ذراع.

"والآن يا آيري، لدي الكثير من العمل الذي يجب أن أقوم به اليوم، ويجب أن تطبخي لنفسك لأنني لا أستطيع أن أخبرك متى سنعود إلى البيت. لكن لا تقلقي. سأعود بسرعة".

"لا مشكلة".

مصت هورتينس أسنانها: "ما من مشكلة. هذا ما يعنيه اسمها في اللهجة العامية: آيري، ما من مشكلة. الآن، أي نوع من الأسماء يعنيه...؟"

لم يجب السيد توبس. كان سابقًا قد وصل إلى الرصيف، وشغّل محرك الفيسبا.

*****

صاحت كلارا في سماعة الهاتف، وفي صوتها رنين واهتزاز غضب وخوف.

"كان عليَّ أولًا أن أحميها من عائلة تشالفن والآن أنتم أيها الأشخاص ثانية".

في الطرف الآخر، أخرجت أمها الغسيل من الآلة وأصغت بصمت عبر الهاتف اللاسلكي الموضوع بين أذنها وكتفها المنهك وانتظرت.

"هورتينس، لا أريدك أن تملئي رأسها بالهراء. أتسمعينني؟ كانت أمك حمقاء حيال الأمر، ثم أنت كنت حمقاء، لكن المسألة توقفت معي ولن تستمر أكثر. إذا رجعتْ إلى المنزل وفمها يتدفق بهذا الهراء، بوسعك أن تنسي المجيء الثاني لأنك ستكونين ميتة في الوقت الذي يحدث به".

كلمات خطيرة. لكن كم هو هش إلحاد كلارا! كمثل واحدة من تلك الحمامات الزجاجية الصغيرة التي تحتفظ بها هورتينس في خزانة غرفة الجلوس، سيقلبها نَفَسٌ واحد. ولا تزال كلارا تتمسك به حين تعبر قرب الكنائس بالطريقة التي يفر فيها النباتيون المراهقون من اللحامين، وكانت تتجنب كلبرن يوم السبت

خوفًا من الواعظين على رصيف الشارع الواقفين على صناديقهم المقلوبة الخاصة بالتفاح. وشعرت هورتينس برعب كلارا وأدخلت ببرود حملًا آخر من الألبسة البيضاء وتفحصت السائل بعين امرأة مقتصدة، وقالت باختصار وتصميم: "لا تقلقي على آيري يا أمبروسيا. إنها في مكان جيد الآن. ستخبرك بنفسها". كما لو أنها صعدت مع حشد المباركين بدلًا من أن تدفن نفسها تحت الأرض في بلدة لامبيث مع ريان توبس.

سمعت كلارا صوت ابنتها على الهاتف الثاني، فرقعة أولى ثم صوت واضح كجلجلة الجرس. "اسمعي. لن أرجع إلى المنزل، حسنًا، لا تضايقي نفسك. سأعود حين أعود، فقط لا تقلقي علي". ولن يكون هناك شيء تقلق عليه ولا يوجد شيء للقلق عليه، عدا ربما أنه في الخارج في الشوارع كان البرد يضغط على البرد وحتى براز الكلاب يتجمد، وحين يكون هناك الإيحاء الأول بالجليد على الزجاج الأمامي للسيارة تمضي كلارا الشتاء كله في المنزل. تعرف ما يعنيه هذا. آه، الجو متألق بشكل رائع الساعة السادسة صباحًا، نعم واضح بشكل رائع لمدة ساعة. لكن كلما قصر النهار طال الليل واشتدت عتمة المنزل وصار من الأسهل بكثير عدم التمييز بين الظل والكتابة على الجدار، بين صوت وقع الخطوات فوق الأرض والهزيم البعيد للرعد، وبين صوت رنين ساعة رأس السنة في منتصف الليل وصوت جرس يرن معلنًا نهاية العالم.

*****

كان يجب ألا تخاف كلارا، لأن إلحاد آيري قوي وتشالفيني في ثقته، وقاربت سكنها مع هورتينس بتسلية منفصلة. لقد فتنها منزل آل بودن. وكان مكان نهايات أحداث وأوقات مستقبلية، ونقاط انتهاء، حيث انتظار الغد متعة، وجميع الخدمات في المنزل من بائع الحليب إلى الكهرباء يُدفع مقابلها على أساس يومي صارم بحيث لا تُنفق النقود على خدمات أو سلع ستضيع لو أن الله صبّ جام غضبه وانتقامه في اليوم التالي. ومنحت البودينية معنى جديدًا بشكل كامل لعبارة

"عيشة الكفاف". هذا يعني العيش في اللحظة الأبدية، الترنح دون توقف على حافة جرف الدمار الكلي، وهناك أشخاص يتناولون كمية كبيرة من المخدرات فقط كي يجربوا شيئًا مشابهًا لوجود هورتينس بودن اليومي. وهكذا ترى أقزامًا يشقون بطونهم ويرونك أحشاءهم، وتلفزيونًا ينطفئ دون تحذير، وتجرب العالم كله كوعي واحد كما لدى كريشنا [159]، حرًا من الأنا، يطوف عبر الكون اللانهائي للروح. هذه عملية كبيرة. كل هذا هراء مثل رحلة القديس يوحنا المعمدان حين كشف له يسوع فصول سفر الرؤيا. لا بد أنها كانت صدمة هائلة كالجحيم للحواري (بعد كل تلك الدعاية الشاملة، والعهد الجديد، وكل تلك الكلمات العذبة والعواطف السامية) كي يكتشف أن انتقام العهد القديم وشيك الحدوث. (إِنِّي كُلُّ مَنْ أُحِبُّهُ أُوَبِّخُهُ وَأُؤَدِّبُهُ. فَكُنْ غَيُورًا وَتُبْ). لا بد أن هذه كانت مفتحة للعين نوعًا ما.

إن سفر الرؤيا هو المكان الذي ينتهي إليه جميع المجانين، إنه الموقف الأخير في قطار الجنون السريع. والبودينية، التي كانت مزيجًا من شهود يهوه وسفر الرؤيا وما هو أكثر من ذلك، كانت حقلًا غريبًا مثلهم. على سبيل المثال، فسرت هورتينس بودن الآية 15 :3 من سفر رؤيا يوحنا:)أنا عارف أعمالك، أنك لست باردًا ولا حارًا. ليتك كنت باردًا أو حارًا، هكذا لأنك فاتر، ولست باردًا ولا حارًا، أنا مزمع أن أتقيأك من فمي) كتفويض حرفي. فهمت أن "فاترًا" صفة شريرة في حد ذاتها. أبقت الميكرويف في متناول يدها طيلة الوقت (تسليمها الوحيد بالتكنولوجيا الحديثة. ولوقت طويل كان هذا خيارًا بين إرضاء الرب والتعرض لبرنامج الولايات المتحدة للتحكم بالعقل عن طريق الأشعة الذي يعمل من خلال الموجات الكهرومغناطيسية عالية التردد) من أجل أن تسخن جميع الوجبات إلى درجة حرارة مستحيلة. وكانت تحتفظ بدلاء مليئة بالثلج كي تبرد جميع كؤوس الماء حتى تصبح "أبرد من البرد". وكانت ترتدي زوجًا من الألبسة الداخلية كل الأوقات كمثل ضحية حوادث سير محتمل حذر، وحين سألتها آيري لماذا تفعل ذلك أجابتها بخجل أنه لدى سماع العلامات الأولى للرب (الرعد المقترب، صوت

الزئير، والرباعية الأوبرالية لفاغنر) تتخلص من اللباس الأقرب إلى جسمها وترتدي الخارجي بحيث يجدها المسيح طاهرة وبلا رائحة وجاهزة للفردوس. واحتفظت بأنبوب من الدهان الأسود في الردهة بحيث حين يحين الوقت يمكن أن تعلّم أبواب الجيران بإشارة الوحش، وتريح الرب من عناء استئصال السيئين، فاصلة الخراف عن الجداء. ولا تقدر أن تصوغ في ذلك المنزل أية جملة تتضمن كلمات "نهاية"، "انتهى"، "أنهى" إلخ.

لأن هذه كانت مثل قوادح كثيرة تدفع هورتينس وريان إلى الاستمتاع الرهيب.

آيري: أنهيت جلي الصحون.

ريان توبس (هازًا رأسه بوقار على حقيقة الأمر): كما سننتهي يومًا ما، يا آيري، يا عزيزتي، كوني حماسية بالتالي وتوبي.

أو

آيري: كان فيلمًا جيدًا. كانت نهايته عظيمة.

هورتينس بودن (دامعة): وأولئك الذين يتوقعون نهاية كهذه للعالم سيخيب أملهم، لأن الله سيأتي ناشرًا الرعب ومثل الجيل الذي شهد أحداث 1914 سيشهدون الآن الجزء الثالث من احتراق الأشجار، الجزء الثالث لتحول البحر إلى دم، والجزء الثالث ل...

ثم كان هناك رعب هورتينس من تقارير الطقس. أيًا كانت المذيعة، ومهما كانت لطيفة وجميلة الصوت وتلبس بشكل محتشم، فقد كانت تلعنها بحدة طيلة الخمس دقائق التي تقف فيها، ثم بدافع مما بدا كانحراف حاد، تواصل معارضة أية نصيحة تُقدم (جاكيت خفيفة وبدون مظلة للمطر، معطف مطري وقبعة شمسية). مرت عدة أسابيع قبل أن تدرك آيري أن خبراء الأرصاد الجوية هم النقيض العلماني لعمل حياة هورتينس، والذي كان، من حيث الجوهر، نوعًا من المحاولة الكونية جدًا للتنبؤ بالرب من خلال تفسير توراتي قوي لتقرير حول الطقس. بخلاف ذلك، لم يكن خبراء الأرصاد الجوية إلا تافهين ومغرورين...

وغدًا، من جهة الشرق ستأتي نار عظيمة وتطوق المنطقة بألسنة اللهب ولا تمنح الضوء بل لا يصدر عنها إلا الظلمة... وأخشى أن المناطق الشمالية يجب أن تكتسي وتدفئ نفسها من الجليد السميك المنتزع. وهناك احتمال قوي بأن تضرب الساحل عواصف متواصلة من الزوابع والبرَد الرهيب الذي لا يذوب على الأرض الصلبة...

كان مايكل فيش [160] وأمثاله غدارين، يُثقِّفون بسخافات مكتب الأرصاد الجوية، ويسخرون من العلم الدقيق والعلم بالآخرة الذي أمضت هورتينس أكثر من خمسين سنة من عمرها في دراسته.

"هل من أنباء يا سيد توبس؟" (كان هذا السؤال يُطرح دومًا أثناء الفطور، وكطفلة بلا نفس، كطفل يسأل عن سانتا).

"كلا، يا سيدة ب. ما نزال نقوم بالأبحاث. يجب أن تتركي الأمر لي ولزملائي بشكل كامل. في هذه الحياة هناك معلمون وهناك طلاب. هناك ثمانية ملايين من شهود يهوه ينتظرون قرارنا، يوم القيامة. لكن يجب أن تتعلمي ترك أمور كهذه لهم لأنهم هم الذين لديهم الخط المباشر، الخط المباشر، يا سيدة ب".

*****

بعد هذا النوم في أي سرير وكيفما اتفق لبضعة أسابيع عادت آيري إلى المدرسة. لكنها بدت بعيدة جدًا، حتى الرحلة من الجنوب إلى الشمال كل صباح بدت كرحلة قطبية صعبة، والأسوأ من ذلك، لم تحقق هدفها وانتهت بدلًا من ذلك في مناطق فاترة تخلو من الأحداث بالمقارنة مع منزل بودن الذي يغلي بالغضب والاضطراب. (هكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي). تصبح معتادًا على التطرف، فجأة لا شيء آخر سينفع.

شاهدت ميلات بشكل منتظم لكن محادثاتهما كانت قصيرة. وكان يرتدي

ربطة عنق خضراء الآن ومنشغلًا، وواصلت ترتيب ملفات ماركوس مرتين في الأسبوع، لكنها تجنبت بقية العائلة. كانت تشاهد جوش بشكل عابر. وبدا كأنه يتجنب آل تشالفن بدأب مثلها. وكانت تشاهد والديها في عطل نهاية الأسبوع، وفي مناسبات باردة حين ينادي الجميع بعضهم باسمهم الأول (آيري هل يمكن أن تناولي الملح لآرشي؟ كلارا، يريد آرشي أن يعرف أين المقص؟) وشعرت في جميع الحفلات بأنها مهجورة. وأحست بأن الناس يتحدثون عنها همسًا في الحافلة إن دبليو 2، كما يفعل سكان شمال لندن حين يشتبهون بشخص يُظْهر أعراضًا دينية، هذا المرض الكريه. وهكذا أسرعت عائدة إلى رقم 28 لنداكر رود، لامبيث، مرتاحة أن تعود إلى الظلمة، لأنه مثل كونك في طور السبات أو محميًا في شرنقة، وكان لديها فضول كالجميع كي ترى أي نوع من آيري سيبزغ. ولم يكن البيت أي نوع من السجون. كان مغامرة. ففي الخزانات والأدراج المهملة وفي إطارات متسخة هناك أسرار خُزنت لوقت طويل، كما لو أن الأسرار خرجت من الموضة. عثرت على صور لأم جدتها أمبروسيا، ببشرة أبنوسية جميلة وعينين لوزيتين ضخمتين، وصورة بالأبيض والأسود لتشارلي "ويتني" دورهام يقف وسط كومة من الأنقاض للبحر خلفه. وعثرت على نسخة من الكتاب المقدس بسطر واحد منتزع منه وعلى لقطات كشك تصوير لكلارا بلباس المدرسة تبتسم بهوس والرعب الحقيقي للأسنان مكشوف. قرأت بشكل متناوب من كتاب تشريح الأسنان لجيرالد م. كاثي والكتاب المقدس للأنباء الطيبة، وبحثت بشراهة في مكتبة هورتينس الصغيرة والمنتخبة نافخة الغبار الأحمر لمدرسة جامايكية عن الأغلفة واستخدمت في غالب الأحيان مدية كي تفتح الصفحات التي لم تُقرأ أبدًا من قبل. كانت قائمة شباط\فبراير كالتالي:

وقائع مصح في الهند الغربية، تأليف جيو.جي. إتش. سوتون موكسلي. لندن. سامبسون، لو، مارتسون وكو، 1886.

(ثمة ترابط بين طول اسم المؤلف والنوعية الرديئة لكتابه).

سجل توم جرينجل، تأليف مايكل سكوت. إدنبرة: 1875.

في بلاد قصب السكر، تأليف إيدن فيلبوست، لندن، ملكليور وكو، 1893.

دومينيكا: تلميحات وملاحظات للمستوطنين المصممين، تأليف صاحب السعادة إتش. هيسكيث بيل، سي إم جي. لندن: إي آند سي، بلاك، 1906.

كلما قرأت أكثر أثارت صورة القبطان الأنيق دورهام فضولها الطبيعي: كان أنيقًا ومكتئبًا، يفحص آجرات نصف كنيسة، صاحب تجربة وخبرة على الرغم من صغر سنه، ويبدو في كل بوصة منه إنكليزيًا، وكأنه يستطيع أن يقول لشخص أو آخر شيئًا أو شيئين عن شيء ما، ربما آيري نفسها. ومن أجل هذا، أبقته تحت مخدتها. وفي الصباحات، لم تعد هناك كرمة إيطالية، كان هناك السكّر والمزيد من السكر، وفي البيت المجاور لم يكن هناك سوى التبغ وبصلف تخيلت أن رائحة البلانتين أرسلتها إلى مكان ما، مكان خيالي، ذلك أنها لم تكن هناك أبدًا، إلى مكان ما دعاه كولومبس سينت جاجو لكن الأراواك أعادوا تسميته بعناد زيماكا، الاسم الذي استمر أكثر منهم فيه أخشاب كثيرة ومياه وافرة. لا يعني هذا أن آيري قد سمعت بأولئك الضحايا لمزاجهم الرائق ذوي الأمزجة الرائقة والبطون الكبيرة، كانوا جامايكيين آخرين، خارج انتباه التاريخ. أكدت حقها بالماضي، نسختها عن الماضي، بشكل عدواني، كما لو أنها تستعيد بريدًا وصل إلى المكان الخطأ. وهكذا هذا هو المكان الذي جاءت منه. وكان هذا كله ينتمي إليها، حقها بالولادة، كخرصين لؤلؤيين أو بطاقة توفير بريدية. علامة إكس تحدد البقعة، ووضعت آيري علامة إكس على كل شيء عثرت عليه، جامعة مجموعة من القطع الصغيرة (شهادات ميلاد، خرائط، تقارير جيوش، مقالات صحفية) وخزنتها تحت الصوفا، بحيث أنه كما لو بالتناضح سيمر غناها عبر النسيج وهي نائمة ويتغلغل مباشرة إليها.

*****

حين جاءت البراعم مع الربيع، تمت زيارتها كمثل أية ناسكة. زارتها أولًا الأصوات. جاءها صاخبًا عبر راديو هورتينس الذي ينتمي إلى العصر الحجري الحديث صوت جويس تشالفن: وقت طرح الأسئلة الخاص بالحدائقيين:

فورمان: سؤال آخر من الجمهور. أظن أن السيدة سالي ويتاكر من بورنماوث لديها سؤال للندوة. سيدة ويتاكر؟

السيدة ويتاكر: شكرًا برايام. حسنًا. أنا حدائقية جديدة وهذا هو الصقيع الأول الذي تعرضت له وفي غضون شهرين طرأ على حديقتي تحول فتحولت من ازدهار لوني حقيقي إلى شيء عار جدًا... نصحني الأصدقاء بأزهار كثيفة متراصة مع بعضها لكن هذا تركني مع الكثير من نباتات الأذينية الصغيرة وأزهار الأقحوان المزدوجة التي تبدو سخيفة لأن الحديقة هي كبيرة جدًا في الواقع. الآن، أحب في الحقيقة أن أزرع شيئًا ما أكثر إدهاشًا، بارتفاع نبات العايق، لكن الريح تضربه وينظر الناس من فوق أسيجتهم مفكرين: عزيزتي، آه يا عزيزتي (ضحك متعاطف من جمهور الاستديو). إن سؤالي للندوة هو كيف نحافظ على المظاهر في منتصف الشتاء الكئيب؟

فورمان: شكرًا لك يا سيدة ويتاكر. حسنًا. هذه مشكلة عامة... وليس الأمر بالضرورة سهلًا بالنسبة للحدائقي المخضرم. شخصيًا، لا أفهم الأمر تمامًا. لننقل السؤال إلى الندوة. هل لديك يا سيدة جويس أية أجوبة أو اقتراحات من أجل منتصف الشتاء الكئيب؟

جويس تشالفن: حسنًا، أولًا يجب القول إن جيرانك يبدون متطفلين جدًا. سأطلب منهم أن ينتبهوا إلى شمع نحلهم لو كنت مكانك (ضحك الجمهور). لكن كي نكون جديين، أعتقد أن هذا التوجه إلى إزهار على مدار الساعة هو في الحقيقة غير صحي للحديقة وللحدائقي وخاصة للتربة، أعتقد أن الشتاء يجب أن يكون وقت راحة وألوان مسيطر عليها، كما تعرفون، ثم حين يصل الربيع المتأخر في النهاية سيُصدم الجيران: ازدهار.

سيحدث هذا الازدهار الرائع من النمو. أعتقد أن الشتاء العميق هو وقت لتغذية التربة وقلبها وإراحتها والتخطيط لمستقبلها بشكل أفضل لمفاجأة الناس المتطفلين في الجوار. أفكر دومًا أن تربة الحديقة هي مثل جسم امرأة، يمر في دورات خصوبة في وقت ما ولكن ليس في أوقات أخرى، وهذا طبيعي في الحقيقة. لكن إذا كنت مصممة، هناك أزهار الخربق التي تنمو جيدًا في البرد، في التربة الكلسية، حتى ولو كانت بشكل كامل معرضة ل...

أطفأت آيري صوت جويس. كان علاجيًا بشكل كامل إيقاف صوتها. ولم يكن هذا شخصيًا بشكل كامل. بدا مُتعِبًا وغير ضروري فجأة، ذلك الصراع لإخراج شيء بالقوة من التربة الإنكليزية العصية. لماذا الانزعاج بما أن هناك الآن ذلك المكان الآخر؟ (ذلك أن جامايكا بدت لآيري كما لو أنها صُنعت حديثًا. وكمثل كولومبس نفسه، فقط بمجرد اكتشافها أتت بها إلى الوجود). هذا المكان الغني بالأشجار والمياه الوافرة، حيث الأشياء تقفز من التربة بشغب وبدون رعاية، ويستطيع قبطان أبيض شاب أن يقابل فتاة سوداء شابة دون تعقيدات، وكلاهما جديد وغير ملوث وبدون ماض أو مستقبل مُملى، مكان حيث الأشياء موجودة فحسب. لا خيالات ولا أساطير ولا أكاذيب ولا بيوت عنكبوت متشابكة، هكذا تخيلت آيري الوطن، لأن الوطن إحدى الكلمات السحرية الخيالية مثل وحيد القرن وروح ولانهاية التي دخلت الآن إلى اللغة. وكان السحر الخاص للوطن، تعويذة خاصة بالنسبة إلى آيري، وكان قويًا بحيث بدا كبداية، بدايات البدايات، كمثل الصباح الأول في جنة عدن واليوم الذي يلي يوم القيامة. كان صفحة بيضاء.

ولكن كلما شعرت آيري بأنها أكثر قربًا منه، من البياض التام للماضي، رن شيء من الحاضر جرس باب آل بودن وتطفل. في عطلة أحد الأمومة [161] جاء جوشوا في زيارة مفاجئة. كان غاضبًا على العتبة، وقد خفّ وزنه، وكان أكثر

اتساخًا من قبل. وقبل أن تحظى آيري بفرصة التعبير عن الاهتمام أو الصدمة، قفز إلى غرفة الجلوس وأغلق الباب: "أنا مريض من الأمر، مريض إلى أقصى حد منه".

نزع اهتزاز الباب القبطان دورهام من مجثمه على إفريز نافذة آيري فأعادت تثبيته بعناية.

"جميل أن أراك ثانية يا رجل. لماذا لا تجلس وتهدأ. مريض من ماذا؟"

"منهم. إنهم يمرضونني، يتحدثون عن الحقوق والحريات، ويأكلون خمسين فروجًا كل أسبوع. منافقون".

لم تفهم آيري في البداية فحوى كلامه. أخرجت سيجارة استعدادًا لقصة طويلة. ولدهشتها تناول جوشوا واحدة أيضًا، وذهبا كي يجلسا على مقعد النافذة، نافخين الدخان من خلال الشبك إلى الشارع.

"هل تعرفين كيف يعيش دجاج البطاريات؟ [162]"

لم تكن آيري تعرف. شرح جوشوا أنها تُسجن معظم حياتها التعيسة كدجاجات في ظلمة تامة، موضوعة معًا كالسردين في برازها وتُغذى بأسوأ الحبوب.

وهذا بحسب جوشوا لا شيء بالمقارنة مع كيف تمضي الخنازير والأبقار أوقاتها: "إنها جريمة لعينة. لكن حاولي أن تقولي هذا لماركوس. حاولي أن تجعليه يتخلى عن وليمة التهام خنزير يوم الأحد. إنه لعين، سيّئ الثقافة. هل سبق أن لاحظت هذا؟ يعرف هذه الكمية الكبيرة عن شيء واحد، لكن هناك ذلك العالم الآخر الذي... آه، قبل أن أنسى، يجب أن تأخذي منشورًا".

لم تعتقد آيري أبدًا أنها سترى اليوم الذي يسلمها فيه جوشوا تشالفن منشورًا. لكنه وضعه في راحة يدها ويحمل عنوان: اللحوم جريمة، الحقائق والخيال. منشور من منظمة فيت.

"إنهم ضد تعذيب واستغلال الحيوانات، النواة الصلبة لحركة السلام الأخضر. اقرئيه، ليسوا غريبي الأطوار وهِبيّين فقط، بل لديهم خلفية علمية

قوية ويعملون من منظور فوضوي. أشعر كأنني عثرت على جوّي. إنهم مجموعة رائعة، مكرسة للفعل المباشر وممثل الحركة زميل في أكسفورد".

"كيف هو ميلات؟"

أجاب جوشوا: "آه، لا أعرف. مجنون. فقد عقله. وجويس تلبي كل نزواته. لا تسأليني فحسب. كلهم يمرضونني. تغير كل شيء". مرر جوشوا أصابعه بعصبية في شعره، والذي وصل إلى كتفيه الآن وهذا ما يدعوه سكان ولسدن بمودة قصة الشعر اليهودية الطويلة والملتفة: "لا أستطيع أن أخبرك كيف تغير كل شيء. إنني أحصل على لحظات الوضوح الحقيقية تلك".

هزت آيري رأسها، كانت متعاطفة مع لحظات الوضوح. كانت سنتها السابعة عشرة تبرهن أنها وثيقة الصلة بها. ولم يفاجئها تحول جوشوا، ذلك أن أربعة أشهر في حياة شخص في السابعة عشرة من عمره لها فوائدها ومضارها، يصبح مشجعو فرقة ستونز مشجعين لفرقة البيتلز، والمحافظون يتحولون إلى ديمقراطيين ليبراليين ويرجعون ثانية، ويتحول هواة جمع الأسطوانات الضخمة إلى غريبي أطوار مهووسين بالأقراص المدمجة. لا تملك ثانية أبدًا في حياتك القدرة على تصليح كلي كهذا للشخصية.

"كنت أعرف أنك ستفهمين. أتمنى لو أنني تحدثت معك من قبل لكني لا أستطيع تحمل البقاء في المنزل هذه الأيام وحين أشاهدك يبدو ميلات دومًا في الطريق. أنا مسرور جدًا في الحقيقة للقاء معك".

"أنا أيضًا. تبدو مختلفًا".

أومأ جوشوا باستخفاف إلى ثيابه التي كانت بشكل واضح أقل بعدًا عن الموضة مما كانت عليه.

"أعتقد أنك لا تستطيع أن ترتدي سروال والدك إلى الأبد".

"هذا صحيح".

صفق جوشوا بيديه معًا: "حسنًا، لقد حجزتُ بطاقتي إلى جلاستونبري ويمكن ألا أعود. التقيت بأولئك الأشخاص من فيت وسأذهب معهم".

"إنه آذار. لم يأت الصيف بعد".

"جويلي وكريسبين، هما الشخصان اللذان التقيتُ بهما، سنذهب إلى هناك باكرًا ونخيم قليلًا في الخارج".

"والمدرسة؟"

"إذا كان بوسعك النوم في أي مكان أستطيع أنا ذلك... لن يعني هذا أنني سأتأخر عن الآخرين. ما زال لدي رأس تشالفني فوق كتفي، سأعود فقط إلى الامتحانات ثم أنطلق ثانية. آيري، يجب أن تقابلي هذين الشخصين. إنهما رائعان. هو دادائي، وهي فوضوية حقيقية. ليس مثل ماركوس. أخبرتها عن ماركوس وفأره المستقبلي اللعين. تعتقد أنه شخص خطير. ربما مضطرب نفسيًا".

فكرت آيري به: "يفاجئني هذا".

دون أن يطفئ سيجارته رماها على الرصيف: "وسأتوقف عن تناول اللحوم. لكنني سأتناول الأسماك حاليًا، هذه أنصاف إجراءات فقط. أنا أصبح نباتيًا".

هزت أيري كتفيها غير متأكدة ما الذي سيكونه الرد الصحيح.

"هناك الكثير الذي يمكن أن يقال عن الشعار القديم؟"

"الشعار القديم؟"

"لا يفلّ الحديد إلا الحديد، فقط بالسلوك المتطرف يمكن أن تتعاملي مع شخص مثل ماركوس. وهو لا يعرف كم هو متطرف. لا فائدة من أن يكون المرء عقلانيًا معه لأنه يعتقد أنه عقلاني. كيف يمكن أن تتعاملي مع أشخاص كهؤلاء؟ وبالمناسبة تخليتُ أيضًا عن لبس الجلد وكل المنتجات الفرعية الحيوانية، الجيلاتين وما شابه ذلك".

بعد وهلة من مراقبة الأقدام تعبر، والجلود والأحذية الرياضية والكعوب قالت آيري: "هذا سيكون أكثر فعالية ضدهم".

في يوم كذبة نيسان ظهر صمد. كان يرتدي ثيابًا بيضاء، في طريقه إلى المطعم، متعبًا ومتغضنًا كقديس محبط. بدا على حافة البكاء. أدخلته آيري.

قال صمد منحنيًا قليلًا: "مرحبًا يا آنسة جونز، كيف والدك؟"

ابتسمت آيري بمعرفة: "أنت تراه أكثر مما نفعل. كيف هو الله معك؟"

"رائع، شكرًا. هل رأيتِ ابني الذي لا ينفع لشيء مؤخرًا؟"

قبل أن تمتلك آيري الفرصة كي تقدم سطرها الثاني، خطا صمد أمامها وكان يجب أن يُقاد إلى غرفة الجلوس، جلس على كرسي داركوس وأحضر كوب الشاي قبل أن يستطيع التحدث.

"ما المشكلة يا سيد إقبال؟"

"ما هو الشيء الذي ليس مشكلة؟"

"هل جرى شيء ما لأبي؟"

"آه، كلا، كلا، أرشيبالد على ما يرام. إنه كإعلان الغسالة. يواصل كما دومًا".

"إذًا ماذا؟"

"ميلات. إنه مفقود منذ ثلاثة أسابيع".

"يا إلهي. حسنًا، هل سألتم إن كان في بيت تشالفن؟"

"إنه ليس معهم. أعرف أين هو. إنه ينتقل من وضع إلى أسوأ. إنه في ملاذ ما مع أولئك الأشخاص المجانين ذوي الربطات الخضراء. في مركز الرياضة في تشيستر".

"يا للهول!"

جلست آيري متصالبة الساقين وأخرجت سيجارة: "لم أره في المدرسة، لكني لا أذكر منذ متى. لكن إذا كنت تعرف مكانه..."

"لم أجئ إلى هنا كي أعثر عليه، جئت أطلب نصيحتك يا آيري. ماذا بوسعي أن أفعل؟ أنت تعرفينه، كيف يستطيع المرء أن يدخل إليه؟"

عضت آيري شفتها، وهذه عادة أمها القديمة: "أعني، لا أعرف أين... لسنا وثيقي الصلة كما كنا... ظننت دومًا أن السبب هو قصة ماجد... إنه يشتاق إليه... أعني لن يعترف بهذا أبدًا... لكن ماجد توأمه وربما شاهده..."

"كلا. كلا. كلا، كلا، كلا. أتمنى لو كان هذا هو الحل. يعلم الله كم عقدت الآمال على ماجد. والآن يقول إنه عائد كي يدرس القانون الإنكليزي، وقد دفع له آل تشالفن.

يريد أن يطبق قوانين الإنسان وليس شريعة الله. لم يتعلم أيًا من دروس محمد، صلى الله عليه وسلم. بالطبع أمه مسرورة. لكن هذا ليس إلا خيبة أمل بالنسبة لي. إنه أكثر إنكليزية من الإنكليز. صدقيني، إن ماجد لن ينفع ميلات ولا ميلات سينفع ماجد. لقد ضل الاثنان طريقهما، ضلا عن سبيل الحياة الذي أردته لهما. لا شك أنهما سيتزوجان امرأتين بيضاوين تُدعيان شيلا ويسببان لي الموت باكرًا. كل ما أردته هو ولدان مسلمان جيدان. آه يا آيري..." -أمسك صمد يدها المتحررة وربتها بعطف- "فقط لا أفهم أين أخطأت. تُعلمينهما لكنهما لا يُصغيان لأنهما يصغيان إلى موسيقى فرقة ببليك إينيمي [163] والصوت في أعلاه. تدلينهما على الطريق ويسلكان الممر اللعين إلى كلية القانون إنس أوف كورت. ترشدينهما فيهربان من قبضتك إلى مركز تشيستر الرياضي. تحاولين تخطيط كل شيء ولا يحدث شيء كما تتوقعين..."

فكرت آيري: ولكن لو كان بوسعك أن تبدأ ثانية، لو كان بوسعك أن تعيدهما إلى منبع النهر، إلى بداية القصة، إلى الوطن... لكنها لم تقل هذا، لأنه شعر بالأمر كما شعرت به وعرف كلاهما أن هذا بلا فائدة كمطاردة ظلك. وبدلًا من ذلك أخرجت يدها من تحت يده ووضعتها في الأعلى، معيدة الربتة: "آه يا سيد إقبال. لا أعرف ماذا أقول..."

قال صمد بمرارة، خائنًا التغييرات الإنكليزية في مقام الصوت الناجمة عن عشرين سنة من الإقامة في البلاد: "لا توجد كلمات. الولد الذي أرسلته إلى الوطن يعود إنكليزيًا يتحدث باللكنة البنجابية ببذلة بيضاء وسيصبح محاميًا سخيفًا بلمة شعر مستعار. والولد الذي أبقيته هنا عضو في جماعة الربطات الخضراء الأصولية الإرهابية. أحيانًا أتساءل لماذا أضايق نفسي، أتساءل حقًا. في هذه الأيام أشعر كما لو أن المرء يعقد اتفاقًا مع الشيطان حين يسير في هذه البلاد. تسلمين جواز سفرك على الحاجز، يُختم، تريدين أن تكسبي بعض النقود، تبدئين من جديد... لكنك تنوين العودة! من الذي يريد أن يبقى؟ في مكان لا يُرَحَّبُ بك فيه أبدًا وإنما يتم التسامح معك، التسامح فحسب كما لو أنك حيوان تم تدجينه في النهاية. من الذي يريد البقاء؟ لكن تقومين بعقد مع الشيطان... يجرك وفجأة

تصبحين غير مهيأة للرجوع، وأولادك غير قابلين للمعرفة، ولا تنتمين إلى أي مكان".

"آه، هذا ليس صحيحًا".

"ثم تبدئين بالتخلي عن فكرة الانتماء. فجأة هذا الأمر، الانتماء، يبدو ككذبة كبيرة قذرة... وأبدأ بالاعتقاد أن أمكنة الولادة هي مصادفات، أن كل شيء مصادفة. لكن إذا آمنت بهذا، إلى أين تذهبين؟ ماذا تفعلين؟ ما نفع أي شيء؟"

وبينما كان صمد يشرح وضعه اليائس بنظرة رعب، شعرت آيري بالخجل من اكتشاف أن أرض المصادفات بدت كالفردوس لها. بدت كالحرية.

"هل تفهمين يا طفلة؟ أعرف أنك تفهمين؟"

وما عناه في الحقيقة كان: هل نتحدث اللغة نفسها؟

هل نحن من المكان نفسه؟ هل نحن متشابهان؟

عصرت آيري يده وهزت رأسها بقوة محاولة أن تصد دموعه. ما الذي تستطيع أن تقوله له عدا ما يريد سماعه؟

قالت: "نعم، نعم، نعم".

حين رجعت هورتينس وريان إلى البيت في ذلك المساء بعد اجتماع صلاة في وقت متأخر من الليل، كان الاثنان في حالة من الإثارة العالية. الليلة كانت الليلة. وبعد أن أصدر لهورتينس دفقًا من التعليمات حول نوع حرف وتصميم مقالته الأخيرة لمجلة برج المراقبة دخل ريان إلى الغرفة كي يتصل ببروكلن ويتلقى الأنباء.

"لكنني اعتقدت أنه يستشيرهم".

قالت هورتينس مقطوعة النفس: "نعم، يفعل هذا... لكن التأكيد الأخير يجب أن يأتي من السيد تشارلز وينتري نفسه في بروكلن، أي يوم هو هذا؟ ساعديني في رفع هذه الآلة الكاتبة الآن... أريدها على الطاولة".

فعلت آيري ما طُلب منها، وحملت آلة رمنغتون الضخمة إلى المطبخ ووضعتها أمام هورتينس. أعطت هورتينس آيري حزمة من الأوراق البيضاء المغطاة بكتابة ريان الصغيرة.

"الآن اقرئي لي هذا يا آيري إمبروسيا ببطء... وسأقوم بالطباعة".

قرأت آيري لمدة نصف ساعة مجفلة من نثر ريان اللولبي، ممرّرة سائل الكوريكتور حين تطلب الأمر، وصرّت بأسنانها من مقاطعات المؤلف كل عشر دقائق حين يظهر في الغرفة كي يعدل تراكيبه أو يعيد صياغة عبارة.

"هل انتهيت يا سيد توبس؟"

"لم أنته بعد يا سيدة ب، ليس بعد، السيد تشارلز وينتري مشغول جدًا. سأحاول ثانية الآن".

مرت جملة، جملة لصمد في ذهن آيري المتعب: أحيانًا أتساءل لماذا أزعج نفسي. والآن بما أن ريان غير موجود، شاهدت آيري أن فرصتها سنحت كي تطرح سؤالها الذي صاغته بعناية.

اتكأت هورتينس على كرسيها إلى الخلف ووضعت يديها على ركبتيها: "كنت أفعل هذا لوقت طويل يا آيري أمبروسيا، كنت أنتظر منذ أن كنت طفلة في جوارب طويلة".

"لكن هذا ليس سببًا..."

"ما الذي تعرفينه عن الأسباب؟ لا تعرفين أي شيء. إن جذوري هي في كنيسة الشهود. كانت جيدة لي حين لم يكن أحد جيدًا. كانت الشيء الجيد الذي أعطته لي أمي. ولن أتركه يذهب الآن فنحن مرتبطون حتى النهاية".

"لكن يا جدتي. لن يكون... لن يحدث أبدًا".

"دعيني أقول لك شيئًا. لست مثل الشهود الخائفين من الموت، هم فقط خائفون، سيموت الجميع باستثنائهم. هذا ليس سببًا كي تكرسي حياتك ليسوع المسيح. لدي أهداف مختلفة جدًا. ما زلت آمل أن أكون أحد المباركين حتى ولو كنت امرأة. أردتها طيلة حياتي. أريد أن أكون هناك مع الرب أسن القوانين وأصدر القرارات"، مصّت هورتينس أسنانها لمدة طويلة وبصوت مرتفع. "أتعب من الكنيسة التي تقول لي دائمًا إنني امرأة أو غير متعلمة بما يكفي. الجميع يحاولون تعليمك دومًا، يعلمونك عن هذا وعن ذاك... كانت هذه دومًا مشكلة

النساء في هذه العائلة... دومًا أحد ما يحاول أن يعلمهن عن شيء ما متظاهرًا أنه كله عن التعلم حين يكون كله عن صراع الإرادات. لكن لو كنت أحد المائة والأربعة وأربعين، فلن يحاول أحد أن يعلمني. سيكون هذا عملي. سأسن قوانيني الخاصة ولن أحتاج إلى رأي أي شخص آخر. كانت أمي قوية الإرادة وأنا مثلها".

قالت آيري ملاحظة شقًا في درع هورتينس يمكن أن يدخل المرء من خلاله: "أخبريني عن أمبروسيا، من فضلك".

لكن هورتينس بقيت صلبة: "تعرفين ما يكفي. انتهى الماضي. لم يتعلم أحد أي شيء منه. رأس الصفحة 5 من فضلك، أعتقد أننا كنا هنا".

في تلك اللحظة عاد ريان إلى الغرفة، وجهه أكثر احمرارًا.

"ماذا يا سيد توبس؟ هل؟ هل تعرف؟"

"ليساعد الله الوثنيين، يا سيدة ب، لأن الحقيقة ستصلنا اليوم. الأمر كما أوضح الرب في سفر الرؤيا. لم ينو أبدًا إبقاء ألفية ثالثة. أحتاج الآن إلى المقالة مطبوعة، ثم إلى أخرى سأمليها عليك دون تحضير، سيكون عليك الاتصال بكل أعضاء لامبيث، وتوزيع..."

"آه نعم يا سيد توبس، ستجهز بعد دقيقة... لا يمكن أن يكون أي موعد آخر، أليس صحيحًا يا سيد توبس؟ قلت لك إنني أشعر بهذا في عظامي".

"أنا غير متأكد ما علاقة عظامك بالأمر يا سيدة ب. أكيد أن الدراسة النصية التي قمت بها مع زملائي تحتاج إلى مزيد من الثناء".

"يا إلهي، من المفترض..."- قالت آيري مقاطعة له، ذاهبة كي تمسك بهورتينس التي كانت ترتجف من البكاء. قبلت هورتينس آيري على الخدين وابتسمت آيري من الرطوبة الحارة.

"آه يا آيري أمبروسيا، أنا سعيدة جدًا أنك هنا كي تشاطريني هذا، سعيدة أنني أعيش في هذا القرن، جئت إلى العالم في زلزال في البداية وسأشاهد الشر والتلوث والخطيئة يُمحون في زلزال قوي مرة أخرى. الحمد لله، سينفذ ما وعد به في النهاية، عرفت أنني سأشهد هذا. أمامي فقط سبع سنوات كي أنتظر. 92"-

امتصت هورتينس أسنانها باحتقار- "عاشت جدتي مائة وثلاث سنوات وقد استطاعت أن تتدبر أمورها إلى أن ماتت. وأنا سأفعل هذا. سأصل حتى تلك السن. عانت أمي لإيصالي إلى هنا لكنها عرفت الكنيسة الحقيقية وبذلت جهدًا كي تنقلني إلى الخارج في أصعب الظروف كي أستطيع أن أشهد يوم المجد".

"آمين".

"آه آمين، يا سيد توبس. البس البذلة الكاملة لدرع الله! والآن يا آيري، اشهدي عليّ وأنا أقول قولي هذا: سأكون هناك. سأكون في جامايكا كي أشهد هذا. أنا ذاهبة إلى الوطن في عام الرب ذاك. ويمكنك أن تأتي معي إذا تعلمت مني وأصغيت. هل تريدين الذهاب إلى جامايكا في عام 2000؟"

أطلقت آيري صرخة خفيفة واندفعت كي تضم جدتها مرة أخرى.

مسحت هورتينس دموعها بمئزرها: "أشكرك يا رب أنني أعيش هذا القرن بشكل جيد وصادق، أعيش هذا القرن المريع بكل مشاكله ومضايقاته، وشكرًا لك يا رب أنني سأشعر بالهزة في كلا الطرفين".

ماجد، ميلات وماركوس

1992، 1999

أساسي: يتعلق بأساس أو أرضية. يذهب إلى جذر الأمر

2- يخدم كقاعدة أو أساس، جوهري ولا يمكن الاستغناء عنه. أيضًا، رئيسي، أصلي، يستمد الآخرون منه.

3- يتعلق بالأساسات الخاصة ببناء

4- ينتمي إلى الطبقة الأعمق، يتوضع في القاع.

الأصولية: التقيد الصارم بالمعتقدات الدينية الأرثوذكسية التقليدية أو العقائد التي هي هكذا، خاصة الإيمان بأن النصوص المقدسة لا تخطئ.

قاموس أوكسفورد المختصر الجديد

يجب أن تتذكر هذا:
إن القبلة تظل قبلة
والتنهيدة هي تنهيدة فقط
الأشياء الأساسية تبقى
بينما يمر الزمن.

هرمان هوبفيلد، "بينما يمر الزمن "(أغنية 1931)

16

عودة ماجد محفوظ مرشد مبتسم إقبال

"المعذرة، لن تدخن هنا، هل ستفعل؟"

أغمض ماركوس عينيه. لم يعجبه بناء الجملة، كان دومًا يحب أن يجيب بشذوذ لغوي مكافئ: "نعم، لن أدخن هنا. كلا، سأدخن هنا".

"اعذرني، قلت إنك..."

استدار ماركوس إلى يمينه كي يشاهد المتحدث الذي تقاسم معه مسند ذراع واحد، لأن كل كرسيين لهما مسند واحد بينهما في الخط الطويل من البلاستيك المصبوب، وقال بنعومة: "لقد سمعتك من المرة الأولى. هل هناك سبب يمنعني من ذلك؟"

تلاشى الاستياء حين شاهد محدّثته وكانت فتاة آسيوية نحيلة وجميلة، بفجوة مغرية بين أسنانها الأمامية، ترتدي بنطلونًا عسكريًا وشعرها مرفوع في تسريحة كذيل الفرس وتضع على ركبتيها (من بين كل الأشياء) نسخة من كتابه العلمي الجماهيري الذي صدر الربيع الماضي والذي ألفه بالاشتراك مع الروائي سوري تي. بانكس، بعنوان قنابل زمنية وساعات جسدية: مغامرات في مستقبلنا الوراثي.

"نعم هناك سبب يا مغفّل. لا تستطيع التدخين في مطار هيثرو. ولا يمكن

أن تدخن غليونًا لعينًا، والكرسيان ملتصقان ببعضهما وأنا مصابة بالربو. هل الأسباب كافية؟"

هز ماركوس كتفيه بشكل ودي: "نعم، أكثر من كافية. هل الكتاب جيد؟"

كانت هذه تجربة جديدة لماركوس، اللقاء مع أحد قرائه في غرفة انتظار في المطار. كان مؤلف نصوص أكاديمية طيلة حياته، نصوص كان جمهورها صغيرًا ومنتخبًا، ولم يكن يعرف في معظم الأحيان أعضاءه شخصيًا. لم يرسل أبدًا عمله إلى العالم كما تُطْلق أداة نفخ خاصة بالحفلات قطعًا مختلفة من الأوراق الملونة التي لا يعرف أحد أين ستقع.

"عفوًا؟"

"لا تقلقي، لن أدخن إذا كنت لا تريدينني أن أفعل. كنت أتساءل فقط، هل هذا كتاب جيد؟"

تجهم وجه الفتاة ونظرت نحو الأعلى، لم يكن وجهها جميلًا كما ظن ماركوس في البداية، كان خط الفك حادًا قليلًا. أغلقت الكتاب (كانت في منتصفه) ونظرت إلى غلافه كما لو أنها نسيت أي كتاب كان.

"آه، لا بأس كما أفترض، لكنه غريب، ويشوش الدماغ قليلًا".

تجهم ماركوس. كان الكتاب فكرة وكيله، وفيه مستويات كثيرة، ثقافة رفيعة وأخرى بسيطة، وكتب ماركوس فيه فصلًا علميًا تخصصيًا بحتًا حول تطور معين في علم الوراثة ثم كتب الروائي فصلًا توأمًا استقصى فيه تلك الأفكار من وجهة نظر مستقبلية خيالية وسببية، وفي النهاية كتب كلٌّ منهما ثمانية فصول. كان لدى ماركوس أولاد يجب أن يدرسوا في الجامعة ويجب أن يفكر بالأمر، أضف إلى ذلك ماجد ودراسته في كلية القانون. وافق على المشروع لأسباب مالية. ومن أجل تلك الغاية، لم يحقق الكتاب النجاح المتوقع، وحين فكر ماركوس بالأمر اعتقد أنه فشل. لكن غريب؟ ويشوش الدماغ؟

"بأية طريقة غريب؟"

بدت الفتاة فجأة مشتبهة: "ما هذا؟ استجواب؟"

انكمش ماركوس إلى الخلف قليلًا. كانت ثقته التشالفينية دومًا أقل وضوحًا حين يضل في الخارج، بعيدًا عن صدر العائلة. كان رجلًا مباشرًا لم يجد هدفًا في طلب أي شيء سوى الأسئلة المباشرة، لكن في الأعوام الأخيرة صار واعيًا أن هذه المباشرة لم تضمن دومًا أجوبة مباشرة من الغرباء كما فعلت في دائرته الصغيرة. ففي العالم الخارجي، خارج جامعته ومنزله، على المرء أن يضيف أشياء للكلمات، وخصوصًا إذا كان المرء نوعًا ما غريب الشكل، كما ظن ماركوس نفسه، وكان أكبر قليلًا، بشعر مجعد غرائبي ونظارات تفتقد للحواف السفلية. يجب أن تضيف أشياء إلى كلماتك لجعلها ملموسة أكثر، التعبيرات اللبقة والعبارات التي تُرمى وكلمات مثل من فضلك وشكرًا.

"كلا، ليس استجوابًا. كنت أفكر فقط بقراءته، سمعتُ أنه جيد وتساءلتُ لماذا تعتقدين أنه غريب".

بعد أن قررت الفتاة في تلك اللحظة أن ماركوس ليس مجرمًا ولا مغتصبًا سمحت لعضلاتها بالاسترخاء وأراحت نفسها على كرسيها: "آه، لا أعرف، ليس غريبًا كثيرًا، أعتقد، أنه مخيف أكثر".

"مخيف كيف؟"

"حسنًا، أليست كل الهندسة الوراثية مخيفة؟"

"هل هي؟"

"نعم، اللعب بالجسد. يخمنون أن هناك جينًا للذكاء وآخر للجنسانية، وعمليًا لكل شيء، كما تعرف؟ تكنولوجيا الحمض النووي المعاد التركيب أو المؤتلف"، قالت الفتاة مستخدمة المصطلح بحذر كما لو أنها تريد أن ترى رد فعل ماركوس وتتبين كم يعرف. وحين لم تر معرفة في وجهه واصلت بثقة أكبر: "حالما تعرف إنزيم الاقتطاع أو التقييد [164] في حمض نووي معين أو جزء منه تستطيع أن تطفئ أو تشعل أي شيء مثل ستريو لعين. هذا ما يفعلونه لتلك الفئران المسكينة. هذا مخيف جدًا. ناهيك عن ذكر الكائنات الناقلة أو المنتجة للمرض التي جعلوها تجلس في صحائف بتري [165] في كل أنحاء المكان. أعني، أنا طالبة علوم سياسية،

وأتساءل: ما الذي يخلقونه؟ ومن يريدون أن يستأصلوا؟ ستكون ساذجًا إذا لم تفكر أن الغرب ينوي أن يستخدم هذا الخراء في الشرق، ضد العرب. ستكون هذه طريقة سريعة للقضاء على المسلمين الأصوليين، على نحو جدي يا رجل"- قالت الفتاة مستجيبة لحاجب مرفوع لدى ماركوس- "أصبحت الأمور مخيفة. أعني حين تقرأ هذا الخراء تدرك كم العلم قريب إلى الخيال العلمي".

كان ماركوس يعتقد أن العلم والخيال العلمي هما كسفينتين في الليل تجتازان بعضهما في الضباب. إن روبوت الخيال علمي، مثلًا، وحتى ما يتوقعه ابنه أوسكار من الروبوت، يسبق بألف عام أي شيء يستطيع علم الروبوت أو الذكاء الاصطناعي أن ينجزه حتى الآن. وبينما كانت الروبوتات في ذهن أوسكار تغني وترقص متعاطفة مع كل متعه ومخاوفه، فقد كان هناك في معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا وغد مسكين يحاول ببطء وبجهد اختراع آلة قادرة على القيام بحركة إبهام إنساني واحد. وعلى الوجه الآخر لقطعة النقد، كانت الحقائق البيولوجية الأبسط، كبنية الخلايا الحيوانية مثلًا، لغزًا تقريبًا لمعظم الأطفال الذين في الرابعة عشرة والعلماء الذين مثله. وكان الأطفال يمضون الوقت في رسمها في الصف، والعلماء يحقنونها بحمض نووي أجنبي. وفي الوسط، أو هكذا بدا لماركوس، تدفق محيط كبير من البلهاء والمتآمرين والمتعصبين الدينيين المجانين والروائيين الوقحين وناشطي حقوق الحيوان وطلاب السياسة، وكل سلالات الأصوليين الآخرين الذين عبروا عن رفض غريب لعمل حياته. وفي الأشهر القليلة الماضية، منذ أن حظي فأره المستقبلي ببعض الانتباه العام، أُجْبر على الاعتقاد بأن هؤلاء الأشخاص، يوجدون بشكل جماعي، وكان هذا صعبًا عليه كمثل أن يؤخذ إلى نهاية الحديقة ويقال له هنا تعيش الجنيات.

قالت الفتاة بصوت أجش وقد صارت مثارة نوعًا ما: "يتكلمون عن التقدم. يتحدثون عن الطفرة في حقل الطب وأمور مضجرة من هذا القبيل، لكن في الجوهر، إذا كان أحد ما يعرف كيف يزيل صفات "غير مرغوبة" في الناس، ألا تعتقد أن حكومة ما ستفعل هذا؟ أعني ما هو غير المرغوب؟ ثمة شيء فاشي

قليلًا في الصفقة كلها... أعتقد أنه كتاب جيد، لكن في نقاط معينة تعتقد: إلى أين نحن ذاهبون هنا؟ ملايين الشقراوات بأعين زرقاء؟ طلب الأطفال عن طريق البريد؟ أعني إذا كنت هنديًا مثلي سيكون هناك شيء يخيفك، ثم يزرعون السرطانات في الكائنات المسكينة، كمثل اللعب بتركيبة الفأر، وتخطيط كل حركاته، متى سيكون له أطفال، متى سيموت. هذا غير طبيعي".

هز ماركوس رأسه وحاول أن يموه إعياءه. كان من المتعب جدًا الإصغاء إليها. لم يتحدث ماركوس في أي موضع من الكتاب عن علم تحسين النسل، ولم يكن هذا مجاله، أو يمتلك اهتمامًا خاصًا به. لكن على الرغم من ذلك استطاعت هذه الفتاة قراءة كتاب مهتم بشكل كامل بالتطورات العادية في الحمض النووي المعاد التركيب ومعالجة الجين والبروتينات لحل خثرات الدم واستنساخ الأنسولين، وخرجت منه مليئة بخيالات الصحف الشعبية المعتادة عن الفاشية الجديدة وبشر مستنسخين بلا عقل، والضبط الجيني للخصائص الجنسية والعرقية، والأمراض الوراثية، الخ. إن الفصل الذي عن فأره فحسب يمكن أن يحث على رد فعل هستيري كهذا. فقد أشار عنوان الكتاب إلى فأره (ثانية فكرة الوكيل)، وركز الإعلام انتباهه عليه. وشاهد ماركوس بوضوح الآن ما اشتبه فيه سابقًا فحسب، إنه لولا الفأر لقل الاهتمام بالكتاب. ما من عمل آخر انخرط فيه جذب على ما يبدو انتباه الخيال العام كمثل فئرانه. إن تحديد مستقبل فأر أثار الناس. وركز الناس على الفأر بطريقة لم تتوقف عن إدهاشه. بدوا غير قادرين على التفكير بالحيوان كعيّنة، عينة بيولوجية لاختبار في الوراثة والمرض والموت. بدا أن فأرية الفأر لا منجاة منها. وظهرت صورة في صحيفة التايمز من مخبر ماركوس لأحد فئرانه المهجنة مع مقالة عن الصراع من أجل براءة الاختراع. فتلقى هو والجريدة طنًا من بريد الكراهية من فئات مختلفة كجمعية السيدات المحافظات واللوبي المضاد لتشريح الحيوانات الحية وأمة الإسلام ورئيس كنيسة القديس أجنيز. واتصلت نينا بوجوم كي تعلمه أنه سيُمْسخ إلى صرصار، وسحبَت مدرسة جليناردأوك، المتنبّهة دومًا لمدّ الإعلام، دعوتها لماركوس كي يجيء إلى المدرسة أثناء أسبوع

العلم الوطني. أما ابنه جوشوا فلا يزال يرفض التحدث إليه. صدمه كل هذا الجنون في الحقيقة، والخوف الذي أثاره دون قصد. وكان الجمهور يسبقه بثلاث خطوات مثل روبوت أوسكار، وقام بألعابه مسبقًا واستنتج ما ستكونه نتائج بحثه، وهذا شيء لم يفترض ماركوس تخيله، وكان مليئًا بالأشياء المستنسخة وبالجثث المنبعثة وأطفال الأنابيب والجينات المثلية. وبالطبع، فهِمَ أن العمل الذي قام به ينطوي على بعد أخلاقي ما كما هو الحال بالنسبة لجميع رجال العلم. ذلك أنك تعمل جزئيًا في الظلام، غير متقين من التشعبات المستقبلية، وغير متأكد أي سواد يمكن أن يسيّئ إلى اسمك، وأية أجساد ستوضع على بابك. ما من أحد يعمل في ميدان جديد، ويقوم بالفعل بعمل رؤيوي، يمكن أن يكون متأكدًا أنه سيمر في قرنه أو في القرن التالي دون دم على كفيه. لكن إذا أوقفت العلم، وسددت فم آينشتاين، وقيدت يديْ هايزنبرغ، ما الذي تأمل إنجازه؟

بدأ ماركوس، متضايقًا أكثر مما توقع أن يكون: "بالطبع، أكيد، هذه هي النقطة. إن جميع الحيوانات هي بمعنى ما مبرمجة كي تموت، وهذا طبيعي جدًا. إذا بدا عشوائيًا، هذا فقط لأننا لا نفهمه بشكل واضح. نحن لا نفهم بشكل جيد لماذا بعض الأشخاص ميالون للإصابة بالسرطان، ولا نفهم لماذا يموت بعض الأشخاص من أمراض طبيعية في الثالثة والستين وآخرون في السابعة والتسعين. أكيد سيكون ممتعًا أن نعرف القليل عن أمور كهذه، أكيد أن فكرة شيء ما مثل فأر التجارب تعني أننا مُنحنا فرصة كي نرى مرحلة حياة وموت تحت الميكرو..."

قالت الفتاة واضعة الكتاب في حقيبتها: "نعم، مهما كان. يجب أن أذهب إلى البوابة 52. سرّني التحدث معك. لكن نعم، يجب أن تقرأه. أنا معجبة كثيرًا بالكاتب سوري ت. بانكس... إنه يطرح بعض الأفكار الغرائبية".

راقب ماركوس الفتاة وتسريحة شعرها التي كذيل الفرس تتقدم في الممر العريض إلى أن اندمجت بفتيات أخريات بشعر أسود وضاعت. وعلى الفور، شعر بالارتياح وتذكر بمتعة موعده عند البوابة 32 مع ماجد إقبال، الذي كان قضية مختلفة، أو قضية أكثر سوءًا، أو مهما كانت العبارة. كان لديه 15 دقيقة،

تخلى عن قهوته التي فترت وبدأ يسير باتجاه البوابة 50 إس السفلى. كانت عبارة "التقاء ذهنين" تخطر في ذهنه. وكان يعرف أنه من السخف التفكير بفتى في السابعة عشرة من عمره، لكنه فكر بالأمر وشعر به: سمو معين، ربما مساو للشعور الذي جربه المشرف عليه حين دخل ماركوس الذي كان في السابعة عشرة من عمره لأول مرة إلى مكتبه الجامعي غير المرتب. رضا معين. كان ماركوس يعرف الصلف المفيد بشكل متبادل والذي يجري من المشرف إلى الطالب ويعود ثانية (آه أنت بالغ الذكاء وهذا من لطفك أنك ستمضي وقتك معي! آه، لكن أنا متألق وأحظى بانتباهك أكثر من الآخرين). بهدوء، انغمس في خيالاته، وكان سعيدًا أنه سيلتقي بماجد للمرة الأولى وحيدًا على الرغم من أنه كان يأمل أنه لم يكن مذنبًا بالتخطيط للأمر بهذه الطريقة. فقد حدثت سلسلة من المصادفات السعيدة، تعطلت سيارة آل إقبال، ولم تكن سيارته واسعة. وأقنع صمد وألسانا أنه لن يكون هناك متسع كاف لأمتعة ماجد إذا أتيا معه. وكان ميلات في تشيستر مع كيفن ونقل عنه (بلغة تذكر بأيام فيديوهاته المافيوية): "ليس لدي أخ". وكان لدى آيري امتحان في الصباح ورفض جوشوا أن يدخل في أية سيارة يكون ماركوس فيها، وفي الحقيقة، كان يتحاشى السيارات حاليًا، مختارًا الخيار البيئي الأخلاقي أي الدراجة. أما بالنسبة لقرار جوشوا فقد انتاب ماركوس شعور كالذي ينتابه حيال كل القرارات البشرية لنوعه. ولا يستطيع المرء أن يوافق أو لا يوافق عليها كأفكار. ولم يكن هناك معنى ولا سبب لكثير مما يفعله الناس. وفي تغربه الحالي عن جوشوا شعر بأنه أقل قوة مما كان عليه، وآلمه أنه حتى فلذة كبده لم يكن تشالفينيًا كما كان يأمل. وفي الأشهر القليلة الماضية بنى توقعات كبيرة حيال ماجد (وهذا يفسر لماذا تسارعت خطواته، البوابة 28، البوابة 29، البوابة 30) ربما بدأ يأمل ويعتقد بأن ماجد سيكون منارة للتشالفينية ذات التفكير الصحيح حتى وهي تموت هنا في البرية. سينقذان بعضهما، لا يمكن أن يكون هذا إيمانًا، أليس كذلك يا ماركوس؟ سأل نفسه بشكل مباشر حول هذه النقطة وهو يسرع. ذلك أن البوابة ونصف السؤال وتّراه. ثم مر هذا وكان السؤال مطمئنًا. ليس

الإيمان، كلا يا ماركوس، ليس النوع الذي بلا عينين، شيء ما أقوى، أكثر شدة، إيمان فكري.

وصل إلى البوابة 32. سيكونان معًا، سيلتقيان أخيرًا بعد أن ردما الفجوة بين قارتين، سيجتمع المعلم والمريد الراغب، وستحدث تلك المصافحة الأولى التاريخية. ولم يفكر ماركوس لثانية أن الأمر سيسوء أو يمكن أن يسوء. لم يدرس التاريخ (وقد علمه العلم أن الماضي هو حيث قمنا بالأعمال عبْر منظار، بشكل معتم، بينما المستقبل دومًا أكثر تألقًا، هو المكان الذي نفعل فيه الأشياء بدقة أو بشكل أكثر دقة)، ولم تكن لديه قصص تخيفه بخصوص رجل أسود يقابل رجلًا أبيض، ويمتلك كل منهما توقعات خطيرة عن الآخر، وأحدهما فقط يمتلك القوة. لم يحضر معه قطعة كرتون بيضاء أيضًا، راية كبيرة باسم مكتوب عليها، كبقية المنتظرين، وحين نظر حول البوابة 32، أقلقه الأمر. تساءل كيف سيتعرفان على بعضهما؟ ثم تذكر أنه سيقابل توأمًا، وجعلته هذه الذكرى يضحك بصوت مرتفع. كان مدهشًا وساميًا، حتى له، أن فتى سيظهر يمتلك الشفرة الوراثية نفسها لفتى يعرفه من قبل، لكنه مختلف في جميع التفاصيل. سيراه ومع ذلك لن يراه. سيتعرف عليه لكن ذلك التعرف سيكون مزيفًا. وقبل أن يحظى بفرصة كي يفكر بماذا عناه هذا، أو إن كان قد عنى أي شيء تقدم نحوه ركاب الخطوط الجوية البريطانية للرحلة رقم 261، وكانوا حشدًا ثرثارًا أسمر ومتعبًا اندفع نحوه كنهر واستدار في اللحظة الأخيرة كما لو أنه على حافة شلال. نوموسكار... السلام عليكم... كامون أتشو؟ هذا ما كانوا يقولونه لبعضهم ولأصدقائهم على الجانب الآخر من الحاجز، بعض النساء في بردة كاملة، البعض في الساري، الرجال في مزيج غريب من الأنسجة والجلد والتويد والقطن والنايلون، وقبعات صغيرة لها شكل الزورق ذكّرت ماركوس بنهرو، أطفال في سترات صنعها التايوانيون وحقائب ظهر ألوانها حمراء وصفراء متألقة، يندفعون عبر الأبواب نحو حشد البوابة 32 للقاء بالعمات والسائقين والأطفال والمسؤولين وممثلي الخطوط الجوية الذين لفحتهم الشمس وذوي الأسنان البيضاء...

"أنت السيد تشالفن".

لقاء العقلين. رفع ماركوس رأسه كي يرى الشاب الطويل واقفًا أمامه. كان وجه ميلات، لكنه كان أكثر نظافة، وأكثر شبابًا في مظهره. لم تكن العينان بنفسجيتين كثيرًا، أو على الأقل لم تكونا بنفسجيتين بشكل حاد. كان الشعر مسترسلًا وهي قصة المدارس العامة الإنكليزية وممشطًا نحو الأمام. كان شكله يوحي بالترتيب والصحة الجيدة. ولم يكن ماركوس جيدًا في وصف الثياب، لكنه استطاع القول على الأقل إنها كانت بيضاء بشكل كامل وإن الانطباع الكلي هو أنها من مواد جيدة، جيدة الصنع وناعمة. وكان أنيقًا، حتى ماركوس استطاع أن يشاهد هذا. ما افتقر إليه هو كاريزما الزعيم التي يمتلكها أخوه، بدا كأنه يكتسب النبالة، بذقن أكثر ثباتًا وفك جليل. وكانت هذه كلها دبابيس في كومة قش، على أي حال، الفروق التي تلاحظها فقط لأن التشابه مذهل جدًا. كانا توأمين من أنفيهما المكسورين إلى أقدامهما الضخمة والمرتبكة. وانتاب ماركوس شعور ضعيف جدًا بالخيبة من أن الأمر كان هكذا، واضعًا المظاهر الخارجية المصطنعة جانبًا لم يساوره أي شك من كان الفتى ماجد يشبه. ألم يتعرف ماجد على ماركوس بين حشد من الأشخاص؟ ألم يتعرفا على بعضهما، فقط الآن، على مستوى أكثر عمقًا وجوهرية؟ لم يكونا توأمين كمدينتين أو نصفي بويضة أنثوية انقسمت عشوائيًا، لكن كطرفي معادلة: منطقيًا وجوهريًا وبشكل محتم. وكما يميل العقلانيون، تخلى ماركوس عن العقلانية للحظة في وجه الأعجوبة المحضة للأمر، هذا اللقاء الغريزي عند البوابة 32 (سار ماجد نحوه مباشرة)، عثرا على بعضهما في حشد كبير، بين خمسمائة على الأقل: ماذا كانت الفرص؟ بدت غير مرجحة كالإنجاز العظيم للمني الذي يجتاز الممر الأعمى نحو البويضة. كانت سحرية كالبويضة التي تنقسم نصفين. ماجد وماركوس. ماركوس وماجد.

"نعم يا ماجد، ها نحن نلتقي أخيرًا. أشعر كأنني أعرفك من قبل، حسنًا، أعرفك لكن، لكن، لا يهم، كيف عرفتني؟"

تألق وجه ماجد بابتسامة غير متوازنة فيها الكثير من السحر الملائكي:

"حسنًا يا عزيزي ماركوس، أنت الرجل الأبيض الوحيد عند البوابة 32".

*****

هزّت عودة ماجد محفوظ مرشد مبتسم منازل عائلات إقبال وجونز وتشالفن بشكل واضح. وقالت ألسانا لكلارا بشكل سري، بعد أن أمضى عدة أيام في المنزل: "لم أعرفه. ثمة شيء خاص فيه. حين قلتُ له إن ميلات في تشيستر، لم يتفوه بكلمة. زم شفتيه فحسب. لم ير أخاه منذ ثمانية أعوام. لكن لم يصح أو يهمس. قال صمد إن هذا الشخص مُسْتَنسخ وليس من عائلة إقبال. ولا يحب أن يلمسه أحد، يفرش أسنانه ست مرات في اليوم، ويكوي ملابسه الداخلية. وكان الأمر كمثل الجلوس لتناول الفطور مع ديفد نيفن (161)".

نظرت جويس وآيري إلى وصوله بشبهة مساوية. أحبا أحد الأخوين بشكل جيد وكامل لسنوات كثيرة، والآن ظهر فجأة هذا الوجه الجديد والمألوف كما لو أنك تشغل التلفزيون كي تواصل مشاهدة الأوبرا الصابونية المفضلة فتُفاجأ أن الشخصية التي تحبها حل مكانخا بشكل مخادع ممثل آخر بقصة شعر مشابهة. وفي الأسابيع القليلة الأولى لم يعرفوا ماذا يفعلون به. أما صمد، لو كان يستطيع لأخفى الفتى إلى الأبد، وسجنه تحت الدرج أو أرسله إلى جرينلاند. مقت زيارات أقاربه التي لا يمكن تجنبها (تباهى أمامهم، أمام كل القبائل التي تتعبد على مذبح الصورة المؤطرة) الذين شاهدوا بشكل مباشر إقبال الصغير، بربطة عنقه وكتاب آدم سميث وإي إم فورستر اللعين والحاده! كان الشيء الإيجابي الوحيد هو التغير في ألسانا: "مجلة من الألف إلى الياء، نعم يا صمد مياه، إنها في الدرج العلوي اليميني. نعم، حيث هي، نعم. في المرة الأولى التي فعلت فيها ذلك قفز خارج جلده تقريبًا". رُفعت اللعنة. لم تعد تقول: ربما يا صمد مياه، ممكن يا صمد مياه. نعم، نعم، نعم. كلا، كلا، كلا. كانت راحة مباركة، لكنها لم تكن كافية. فقد خيب ولداه أمله وكان الألم رهيبًا. وكان يسير في المطعم وعيناه في الأرض، وإذا اتصلت العمات والأعمام يتجنب الأسئلة أو يكذب. ميلات؟ إنه في برمنغهام.

يعمل في الجامع، نعم، يجدد إيمانه. ماجد؟ نعم، سيتزوج حالًا، نعم شاب جيد جدًا، يريد فتاة بنغالية جميلة، نعم متمسك بالتقاليد، نعم.

حدث تبديل للمواقع في البداية كما في فرقة موسيقية، وغيّر الجميع أمكنتهم إلى اليمين أو اليسار. وعاد ميلات في بداية تشرين الأول\أكتوبر. وكان أكثر نحولًا، وبلحية كاملة ومصممًا بهدوء ألا يرى شقيقه التوأم على أرضيات سياسية ودينية وشخصية. قال ميلات (كان دي نيرو هذه المرة): "إذا بقي ماجد، سأذهب". ولأن ميلات بدا نحيلًا ومتعبًا وبعينين يائستين، قال صمد إن ميلات يستطيع المكوث وهذا لم يترك خيارًا سوى أن يمكث ماجد مع آل تشالفن (مما سبب الغم لألسانا) إلى أن يصبح من الممكن حل المشكلة. جوشوا، الذي غضب لأن ميول والديه العاطفية فضلت عليه شخصًا آخر من آل إقبال، ذهب إلى آل جونز، بينما آيري، التي على الرغم من أنها عادت إلى منزل عائلتها ظاهريًا (بعد تنازل عام)، كانت تمضي وقتها في منزل آل تشالفن، وتنظم شؤون ماركوس كي تكسب النقود لحسابها في البنك (صيف غابات الأمازون 1993 وجامايكا في عام 2000)، وكانت تعمل غالبًا في وقت متأخر من الليل وتنام على الأريكة.

قال صمد على الهاتف لآرشي، بطريقة كئيبة جعلت آرشي يشتبه بأنه يقتبس الشعر: "غادر ولدانا، إنهما خارج البلاد، إنهما غريبان في أرض غريبة".

أجاب آرشي بكآبة أكبر: "هربا إلى التلال اللعينة. أقول لك إنه لو كان لدي بنس لكل مرة رأيت فيها آيري في الأشهر القليلة الماضية..."

لديه قطعة نقدية بقيمة عشرة بنسات. لم تكن أبدًا في المنزل. كانت آيري عالقة بين صخرة ومكان خَطِر جدًا، كمثل إيرلندة، كمثل إسرائيل، كمثل الهند، موقف لا ربح فيه، إذا بقيت في البيت فهناك جوشوا الذي يوبخها من أجل تورطها مع ماركوس في موضوع الفئران. ولم يكن لديها أجوبة على حججه، ولم تستسغها: **هل يجب منح براءة اختراع على الكائنات الحية؟ هل من المقبول زراعة مسببات الأمراض في الحيوانات؟** لم تعرف آيري وهكذا، بغرائز والدها، أغلقت فمها وحافظت على مسافتها. لكن حين تكون في بيت

عائلة تشالفن كي تعمل في ما أصبح وظيفتها الصيفية الثابتة، كان عليها التعامل مع ماجد. وهنا كان الموقف مستحيلًا. إن عملها لماركوس والذي بدأ منذ تسعة أشهر كتصنيف قليل وخفيف، تزايد سبعة أضعاف، وكان الاهتمام الأخير بعمل ماركوس يعني أنه مطلوب منها أن تتعامل مع دعوات الإعلام، وأكياس مليئة بالبريد، وتنظم المواعيد، وازداد راتبها بشكل مشابه إلى راتب سكرتيرة. لكن هذه كانت المشكلة، كانت سكرتيرة بينما كان ماجد صديقًا مؤتمنًا ومعاونًا وحواريًا يرافق ماركوس في الرحلات ويراقبه في المختبر. كان الطفل الذهبي المختار. ولم يكن متألقًا فحسب، بل كان ساحرًا، ولم يكن ساحرًا فحسب، بل كان كريمًا أيضًا. وبالنسبة لماركوس كان استجابة للصلوات، فتى استطاع أن يكتب الدفاعات الأخلاقية الأكثر جمالًا بمهنية تجعلك تشك بعمره، وساعد ماركوس في بناء حجج لن يمتلك الصبر على صياغتها لوحده. وكان ماجد هو الذي شجعه على الخروج من المخبر، ممسكًا بيده كي يحدق بالعالم المضاء بالشمس حيث كان الناس يتحدثون معه علنًا. وكان الناس يريدون ماركوس وفأره، وعرف ماجد كيف يعطيهما لهم. وإذا كانت مجلة نيوستيتسمان بحاجة إلى ألفي كلمة عن الجدل حول براءة الاختراع، كان ماجد يكتب بينما ماركوس يتحدث، مترجمًا كلماته إلى إنكليزية رشيقة ومحولًا المقولات العارية لعالم غير مهتم بالمجادلات الأخلاقية إلى حجج مصقولة لفيلسوف. وإذا أرادت القناة الرابعة للأخبار مقابلة كان ماجد يشرح له كيف يجلس ويحرك يديه ويحني رأسه. جاء كل هذا من فتى أمضى القسم الأكبر من حياته في هضاب تشيتاجونغ، دون تلفزيون أو صحيفة. وعلى الرغم من أن ماركوس كره طيلة حياته الكلمة، ولم يستخدمها منذ أن شد والده أذنه من أجلها حين كان في الثالثة، أغري كي يدعو الأمر: معجزة. أو في الحد الأدنى أنه محظوظ جدًا. وكان الفتى يغير حياته وكان محظوظًا جدًا في هذا. وللمرة الأولى في حياته قبل ماركوس أن يسلم بأخطائه، بأخطاء صغيرة، لكنها، مع ذلك أخطاء. وربما كان منفصلًا جدًا وعدوانيًا تجاه الاهتمام العام بعمله، ربما، ربما. وشاهد متسعًا للتغير، وكانت عبقرية ذلك، ضربة المعلم، هي أن ماجد لم يدع

ماركوس أبدًا للحظة واحدة يشعر بأن التشالفينية استُهدفت بأية طريقة من أي نوع. عبّر عن عاطفته التي لا تموت وإعجابه بها كل يوم. وكل ما أراد ماجد فعله، كما شرح لماركوس، هو إخراج التشالفينية إلى الناس، ويجب أن تمنح الناس ما يريدونه في صيغة يقدرون على فهمها. وكان هناك شيء سام في الطريقة التي قال بها هذا، ومهدئ جدًا، وبالغ الصدق، بحيث أن ماركوس، الذي كان سيبصق على حجة كهذه قبل ستة أشهر، استسلم دون احتجاج.

قال له ماجد (كان هذا الشخص فنانًا في الإطراء): "هناك متسع لشخص آخر في هذا القرن، فرويد، آينشتاين، كريك وواطسون... ثمة كرسي فارغ لماركوس. لم تمتلئ الحافلة بعد. هناك مقعد لشخص آخر..."

لا تستطيع أن تمنع هذا العرض، لا تستطيع مقاتلته. ماركوس وماجد. ماجد وماركوس. لا يهم أي شيء آخر. كان الاثنان غير منتبهين للإزعاج الذي سبباه لآيري، أو للإقصاء الذي شمل كثيرين، وللتموجات الزلزالية التي سببتها صداقتهما للجميع. سَحب ماركوس، كمثل الأميرال ماونتباتن [166] من الهند، أو فتى مراهق متخم من صديقته الأخيرة. ألغى المسؤولية تجاه كل شيء وتجاه الجميع: عائلة تشالفن وإقبال وجونز، كل شيء وكل ما يعترض ماجد وفئرانه. كان جميع الآخرين متعصبين. وعضت آيري لسانها لأن ماجد كان جيدًا، وماجد كان لطيفًا، وماجد كان يسير في المنزل في ثيابه البيضاء. لكن مثل جميع تجليات المجيء الثاني، وكل القديسين والمعلمين، كان ماجد إقبال أيضًا كما عبّرت كلمات نينا الفصيحة، من الطبقة الراقية، وحقيقيًا مائة بالمائة، ومزعجًا جدًا. وكان ما يلي محادثة طبيعية:

"أنا مشوش يا آيري".

"ليس الآن يا ماجد، أنا على الهاتف".

"لا أريد أن آخذ من وقتك الثمين، لكنها مسألة ملحة. أنا مشوش".

"ماجد، هل تستطيع فقط..."

"كما ترين. أحضرت لي جويس بنطلون الجينز وكان هذا لطفًا منها. إنه

يدعى ليفيز".

"انظري، سأعاود الاتصال بك؟ حسنًا... مع السلامة. ماذا يا ماجد؟ كانت هذه مكالمة مهمة. ما الأمر؟"

"لدي بنطلون الجينز الأميركي الجميل هذا، جينز أبيض، أحضرته شقيقة جويس من شيكاغو حيث أمضت عطلة. يسمونها مدينة الرياح، على الرغم من أنني لا أظن أن هناك أي شيء غير عادي على نحو خاص حيال طقسها، آخذين بعين الاعتبار قربها من كندا. بنطلوني الجينز الذي من شيكاغو. يا لها من هدية. شعرت بالفرح حين تلقيتها، لكن شوشني الكلام في البطانة الداخلية الذي يقول إن الجينز على ما يبدو "ينكمش كي يناسب الجسم". سألت نفسي، ما الذي يعنيه هذا: "ينكمش كي يلائم".

"ينكمش حتى يلائم قياسك يا ماجد. هذا ما أفهمه".

"لكن جويس كانت متنبهة بشكل جيد كي تشتريه في القياس المناسب تمامًا (32\ 34).

"حسنًا يا ماجد. لا أريد أن أراه. أصدق. وهذا لا تجعله ينكمش".

"كان هذا استنتاجي الأصلي. لكن يبدو أنه لا يوجد إجراء منفصل لتقليصه. إذا غسل المرء الجينز فإنه سيتقلص تلقائيًا".

"رائع".

"وتدركين أنه عند نقطة ما يحتاج بنطلون الجينز إلى غسل؟"

"ماذا تريد أن تقول يا ماجد؟"

"حسنًا، هل ينكمش بنسبة محسوبة مسبقًا، وإذا كان كذلك، كم؟ وإذا لم تكن النسبة صحيحة فإنهم سيعرضون أنفسهم للمقاضاة، أليس كذلك؟ ليس جيدًا إذا انكمش كي يلائم، في النهاية، إذا انكمش كي يلائم مقاسي. ثمة احتمال آخر، كما اقترح جاك، إنه ينكمش إلى محيط الجسد. مع ذلك كم شيء كهذا ممكن؟"

"حسنًا، لماذا لا تدخل إلى الحمام مع هذا الجينز اللعين كي تشاهد ما

يحدث؟"

لكنك لا تستطيع إزعاج ماجد بالكلمات. كان يتجنب الرد، أحيانًا مئات المرات في اليوم، كمثل سيدة تحمل لافتة دائرية وتساعد أطفال المدرسة في عبور الشارع وهي مسرورة. كان يمتلك تلك الطريقة في الابتسام لك، غير مستاء أو غاضب، ثم يحني رأسه (إلى الزاوية الدقيقة نفسها كما يفعل والده حين يتلقى طلب القريدس بالكري) في إيماءة من الصفح الكلي. كان ماجد يمتلك تعاطفًا كليًا مع الجميع. وكان هذا مزعجًا جدًا.

"لا أعني... آه اللعنة. آسفة. انظر.. لا أعرف... أنت فقط... هل سمعت عن ميلات؟"

قال ماجد، وذلك التعبير الشامل نفسه من الهدوء والصفح دون تغيير: "إن أخي يتجنبني. يعتبرني كقابيل لأنني كافر، على الأقل ليس بإلهه أو أي إله آخر له اسم. بسبب هذا، يرفض مقابلتي، وحتى التحدث على الهاتف".

"آه ربما سيأتي. كان دومًا وغدًا عنيدًا".

واصل ماجد دون أن يمنح آيري فرصة للاحتجاج: "بالطبع. نعم، أنت تحبينه وهكذا تعرفين عاداته وسلوكه. ستفهمين إذًا كيف يتلقى تحولي بشكل وحشي. لقد تحولت إلى الحياة. أرى إلهه في كل شيء، في الموقع المليون للثابت الرياضي باي [167]، في حجج فيدروس [168]، وفي مفارقة تامة. لكن هذا غير كاف لميلات".

نظرت آيري مباشرة إلى وجهه. كان هناك شيء لم تستطع تبينه في تلك الأشهر الأربعة لأن شبابه ونظراته وثيابه النظيفة ونظافته الشخصية ألقوا عليه ظلًا من الغموض. الآن شاهدته بوضوح، وقد أثر به ذلك، كماري المجنونة الهندية ذات الوجه الأبيض والشفتين الزرقاوين، والشخص الذي حمل لمته المستعارة بخيط، مثل الأشخاص الذين يسيرون في شوارع ولسدن دون نية لشراء البيرة السوداء بلاك ليبل، أو سرقة ستيريو، يتلقون المساعدات المالية أو يتبولون في الزقاق، الأشخاص الذين لديهم عمل مختلف كليًا ألا وهو النبوءة. وكان ماجد

يمتلك هذا في وجهه. كان يريد أن يخبرك ويخبرك ويخبرك.

"يطالب ميلات باستسلام كامل".

"يبدو هذ عاديًا".

"يريدني أن أنضم إلى كيفن..."

"نعم، منظمة كيفن، أعرفهم. إذًا تحدثت معه".

"لا أحتاج للتحدث معه كي أعرف بماذا يفكر. إنه توأمي. لا أرغب برؤيته. لا أحتاج إليه. هل تفهمين طبيعة التوائم؟ هل تفهمين معنى كلمة انشقاق؟ أو المعنى المزدوج ل..."

"ماجد، لا أقصد الإهانة، لكن لدي عمل أقوم به".

قام ماجد بانحناءة خفيفة: "لا بأس. اعذريني، يجب أن أذهب وأخضع بنطلوني الذي من شيكاغو للتجربة التي اقترحتيها".

صرت آيري على أسنانها، التقطت سماعة الهاتف وعاودت الاتصال بالرقم الذي أوقفته. كان صحفيًا (كانوا دومًا صحفيين في هذه الأيام)، وكان لديها شيء كي تقرأه له. شقت طريقًا سريعًا في العلاقات الإعلامية منذ امتحاناتها، وتعلمت من تواصلها مع الإعلاميين أنه لا فائدة من التعامل مع كل شخص بشكل منفصل، وكان من المستحيل أن تمنح وجهة نظر فريدة لصحيفة الفايننشال تايمز ثم لصحيفة الميرور ثم لصحيفة الديلي ميل. كان عملهم وليس عملك تحديد وجهة النظر وتأليف سفرهم المستقل في إنجيل الإعلام الضخم، وكل يعمل بطريقته. وكان الإعلاميون خياليين ومتعصبين ويدافعون بهوس عن حلبتهم مقترحين الشيء نفسه كل يوم. وهكذا كان الأمر دومًا. من كان سيخمن أن لوقا ويوحنا سيتبنيان وجهتيْ نظر مختلفتين حول النبأ المثير للقرن، موت الإله؟ وبرهن كل هذا أنك لا تستطيع الثقة بهؤلاء الأشخاص. إن عمل آيري، إذًا، كان منح المعلومات كما هي، كل مرة، حرفيًا من قطعة ورق يكتبها ماركوس وماجد، مثبتة على الحائط.

قال الصحفي: "حسنًا، الشريط جاهز للتسجيل".

وهنا تعثرت آيري أمام العقبة الأولى للعلاقات العامة: الإيمان بما تبيعه. لم يكن الأمر أنها تفتقر للإيمان الأخلاقي. كان أكثر جوهرية من هذا. لم تؤمن به كحقيقة مادية، لم تؤمن أنه وجد. إن حقوق ملكية الفأر المستقبلي هي الآن فيلم كرتون ضخم ومشهدي لفكرة (في عمود كل صحيفة، والتي تشغل الصحفيين كثيرًا: هل يجب أن يحصل على براءة اختراع؟ مدحه الصحفيون المرتزقون: الإنجاز الأعظم للقرن)، وقد توقع أحدهم أن يقف الفأر ويتحدث بنفسه. أخذت آيري نفسًا عميقًا، وعلى الرغم من أنها كررت الكلمات مرات كثيرة، لا تزال تبدو غير واقعية وعبثية ومحلقة بجناح الفنتازيا مع نفحة قليلة من سوري تي. بانكس فيها:

نشرة صحفية: 15 تشرين الأول 1992

الموضوع: إطلاق الفأر المستقبلي

يعتزم الأستاذ ماركوس تشالفن الكاتب والعالم المشهور والقائد البارز لمجموعة من علماء الوراثة من كلية سينت جود "إطلاق" "تصميمه" الأخير في مكان عام، ويهدف إلى أن يغني فهم التعديلات الوراثية ويثير الاهتمام ويشجع على المزيد من الاستثمار في عمله. سيوضح التصميم دقة العمل المنجز في الهندسة الوراثية ويزيل الغموض عن هذا الفرع من البحث البيولوجي المفترى عليه كثيرًا. وسيترافق هذا مع معرض كامل في قاعة محاضرات فيها أمكنة مخصصة لوسائل الإعلام المتعددة وألعاب تفاعلية للأطفال. ستموّل المناسبة جزئيًا لجنة العلم الألفية التابعة للحكومة وستأتي أموال إضافية من الشركات التجارية والصناعية.

سيُعرض فأر عمره أسبوعان في مؤسسة بيريه في لندن

في 31 كانون الأول 1992. سيبقى معروضًا هناك للعامة حتى 13 كانون الأول 1999. هذا الفأر عادي وراثيًا إلا بالنسبة لمجموعة منتقاة من الجينات الجديدة المضافة إلى الجينوم. حُقن حمض نووي مستنسخ من هذه الجينات في بيضة الفأر المخصبة، مما ربطها بالحمض النووي الكروموسوماتي في البيضة الملقحة، والتي هي بالتالي موروثة من قبل خلايا الجنين الناتج. قبل الحقن في خط الخلايا الجرثومية، هذه الجينات مصممة خصيصًا بحيث يمكن أن "تُشغل" وتعمل فقط في نسيج فأر معين وبحسب جدول زمني طويل. سيكون الفأر عينة لاختبار اكتهال الخلايا، وتقدم السرطان في الخلايا، ومسائل أخرى قليلة ستخدم كمفاجآت!

ضحك الصحفي: "يا يسوع. ما الذي يعنيه هذا؟"
قالت آيري: "لا أعرف. مفاجآت كما أظن".
واصلت:

سيعيش الفأر في السنوات السبع التي يكون معروضًا فيها وهذا تقريبًا ضعف متوسط الحياة الطبيعي لفأر. وهكذا تم إيقاف تطور الفأر، بنسبة سنتين لكل واحد. وفي نهاية العام الأول سيسبب الجين الورمي لارج تي إس في 40 الذي يحمله الفأر في خلايا البنكرياس المنتجة للأنسولين سرطانات بنكرياسية تواصل التطور ببطء أثناء حياته. وفي نهاية العام الثاني سيبدأ الجين الورمي إتش راس في خلاياه الجلدية بالتعبير عن نفسه في أورام حليمية متعددة وخبيثة سيتمكن مراقب من رؤيتها بوضوح بعد ثلاثة أشهر بالعين المجردة. وبعد أربع سنوات من

التجارب سيبدأ الفأر بفقدان قدرته على إنتاج الميلانين من خلال استئصال بطيء ومبرمج لإنزيم التايرونسيناس. وعند هذه النقطة سيفقد الفأر لونه ويصبح أمهق اللون، فأرًا أبيض. وإذا لم يحصل تدخل خارجي أو غير متوقع، سيعيش الفأر حتى 31 كانون الأول 1999، ويموت خلال شهر من ذلك التاريخ، وتقدم تجربة الفأر المستقبلي للجمهور فرصة فريدة كي يشاهد الحياة والموت "في صور مكبرة". وستسنح له الفرصة كي يرى تكنولوجيا يمكن أن تبطئ تقدم المرض، وتسيطر على سيرورة الاكتهال وتستأصل الخلل الجيني. ويحمل الفأر المستقبلي الوعد المثير لطور جديد في التاريخ البشري حيث لا نكون ضحايا لما هو عشوائي لكن بدلًا من ذلك نصبح متحكمين بمصيرنا.

قال الصحفي: "اللعنة. شيء مخيف".

قالت آيري دون اهتمام (كان لديها عشر مكالمات أخرى كي تجريها في هذا الصباح): نعم، أظن ذلك، هل تريد أن تنشر بعض الصور الفوتوغرافية؟"

"نعم، سأفعل ذلك، هذا يريحني من البحث في الأرشيف. مع السلامة".

في اللحظة التي أغلقت فيها آيري السماعة، اندفعت جويس إلى الغرفة كمثل نيزك، في جدول كبير من المخمل الأسود المهدب وقفطان ولفحات حريرية متعددة.

"لا تستخدمي الهاتف! طلبت هذا منك من قبل، يجب أن نبقي الهاتف غير مشغول. ربما حاول ميلات الاتصال".

قبل أربعة أيام لم يأت ميلات إلى موعد الطبيبة النفسية الذي رتبته جويس له. ولم يُلمح منذ ذلك الوقت. عرف الجميع، باستثناء جويس، أنه كان مع أعضاء منظمة كيفن وأنه لا ينوي الاتصال بها.

"من الضروري أن أتحدث معه إذا اتصل. نحن قريبون جدًا من إنجاز

نوعي. إن مارجوري متأكدة تقريبًا من أنه مصاب باضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط".

"وكيف حدث أنك عرفت كل هذا؟ ظننتُ أن مارجوري طبيبة. ما الذي حدث للخصوصية بين الطبيب والمريض؟"

"آه يا آيري، لا تكوني سخيفة. إنها صديقة أيضًا. تحاول فقط أن تبقيني على اطلاع".

"مافيا الطبقة الوسطى، هذا هو الأمر".

"لا تكوني هستيرية. تصبحين أكثر هستيرية كل يوم. اسمعي، أريدك أن تبتعدي عن الهاتف".

"أعرف. قلتِ هذا".

"لأنه إذا كانت مارجوري مصيبة وكان مرضه هو فرط النشاط فهو في الحقيقة يحتاج إلى الذهاب إلى الطبيب وتناول بعض الميثيلفينديت(169). إنها حالة تسبب ضعفًا شديدًا".

"جويس، ليس مصابًا بهذا المرض، إنه مسلم فحسب، هناك بليون منهم. لا يمكن أن يكونوا مصابين بهذا المرض".

تنشقت جويس القليل من الهواء: "أعتقد أنك قاسية جدًا. هذا بالضبط نوع التعليق غير المساعد".

مشت إلى لوح الخبز وانتزعت قطعة كبيرة من الجبن وقالت: "انظري، إن الشيء الأكثر أهمية أنني أحضر الاثنين كي يواجها بعضهما. حان الوقت".

بدت إري مترددة: "لماذا حان الوقت؟"

وضعت جويس قطعة الجبن في فمها: "حان الوقت لأنهما يحتاجان إلى بعضهما".

"لكن إذا لم يرغبا، فإنهما لن يحتاجا".

"أحيانًا لا يعرف الناس ماذا يريدون ولا يعرفون ماذا يحتاجون. وهذان الفتيان يحتاجان إلى بعضهما..." - فكرت جويس للحظة. كانت سيئة في

استخدام الاستعارات. وفي الحديقة لم تزرع أبدًا أي شيء حيث كان القصد وجود شيء آخر - "يحتاجان إلى بعضهما مثل لوريل وهاردي. كما احتاج كريك إلى واطسون...".

"كما احتاج شرق باكستان إلى غربها".

"أنا أعتقد أن هذا مضحك يا آيري".

"أنا لا أضحك يا جويس".

قطعت جويس المزيد من الجبن من القطعة، ومزقت قطعتي خبز من رغيف، ولفت سندويشة من الثلاثة.

"إن الحقيقة هي أن الولدين لديهما مشاكل عاطفية جدية ولا يساعد رفض ميلات في رؤية ماجد. لقد فرقهما دينهما وثقافتهما. هل تستطيعين تخيل الصدمة؟"

تمنت آيري في تلك اللحظة لو أنها سمحت لماجد أن يخبرها ويخبرها ويخبرها. كان ستمتلك المعلومات على الأقل، شيئًا تستخدمه ضد جويس، لأنك إذا أصغيت للمتنبئين يعطونك الذخيرة، الموقع المليون للثابت الرياضي باي (هل للأعداد اللانهائية بدايات؟)، والأهم من ذلك المعنى المزدوج لكلمة شق. هل عرف ما الأسوأ، والأكثر صدمًا: الاجتماع معًا أو الفراق؟

"جويس، لماذا لا تهتمين بعائلتك مرة؟ فقط من أجل التغيير. ماذا عن جوش؟ متى كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها جوش؟"

تصلبت شفة جويس العليا: "جوش في جلاستونبري".

"حسنًا. جلاستونبري لأكثر من شهرين يا جويس".

"إنه يقوم بجولة. قال إنه يمكن...".

"وهو مع من؟ لا تعرفين أي شيء عن هؤلاء الأشخاص. لماذا لا تقلقين من هذا لوهلة، وتتوقفين عن التدخل في شؤون الآخرين؟"

لم تجفل جويس من هذا الكلام. من الصعب شرح كم كان مألوفًا سوء معاملة المراهقين لجويس، كانت تتلقاه بشكل منتظم في هذه الأيام من أولادها

ومن أشخاص آخرين بحيث أن شتيمة أو تعليقًا قاسيًا لا يؤثران بها وتتخلص منهما بسهولة.

قالت جويس وعلى وجهها ابتسامة عريضة وبصوتها الذي كان دليلها التشالفيني للتربية الأبوية: "إن السبب الذي يمنعني من القلق على جوش، كما تعرفين جيدًا هو لأنه يحاول الحصول على القليل من الانتباه، مثلك في هذه اللحظة. ومن الطبيعي جدًا لأطفال الطبقة الوسطى المتعلمين جيدًا أن يخطئوا في هذه السن" (بخلاف كثيرين من الموجودين في هذه الأيام، لم تشعر جويس بأي خجل من استخدام مصطلح "الطبقة الوسطى". وفي القاموس التشالفيني كانت الطبقات الوسطى هي الوريثة للتنوير، ومنشئة دولة الرفاه، والنخبة الفكرية ومصدر الثقافة كلها. ومن الصعب معرفة من أين جاؤوا بهذه الفكرة. "لكنهم يعودون حالًا إلى القطيع. أنا أثق بشكل كامل بجوشوا. إنه فقط يتصرف بشكل سيئ ضد والده وسيمر هذا. لكن ماجد يواجه بعض المشاكل الحقيقية. كنت أقوم ببحثي يا آيري وهناك الكثير من الإشارات. أستطيع قراءتها".

ردت آيري، لأنه كانت هناك معركة ستنشب، واستطاعت أن تشعر بذلك: "حسنًا، لا بد أنك تسيئين قراءتها. ماجد في حالة ممتازة. تحدثتُ معه لتوي. إنه معلم زن. إنه الشخص الأكثر هدوءًا الذي سبق أن التقيتُ به في حياتي. وهو يعمل مع ماركوس وهذا ما يريد فعله وهو سعيد. ما رأيك أن نجرب كلنا سياسة عدم تدخل مرة واحدة؟ عدم التدخل قليلًا. ماجد ممتاز".

قالت جويس مزيحة كرسي آيري الوحيد ومتخذة موقعًا إلى جانب الهاتف: "عزيزتي آيري، ما لا تستطيعين فهمه أبدًا هو أن الناس متطرفون وسيكون رائعًا لو كان الجميع كوالدك، يواصلون حياتهم بشكل عادي حتى لو كان السقف ينهار فوق رؤوسهم، لكن كثيرًا من الناس لا يستطيعون فعل هذا. إن ماجد وميلات يظهران سلوكًا متطرفًا، من الجيد جدًا أن نطرح سياسة عدم التدخل وأنت ذكية جدًا حيال ذلك لكن الجوهر هو أن ميلات سيورط نفسه في مشكلة خطيرة مع أولئك الأصوليين. مشكلة رهيبة. لا أستطيع النوم من قلقي عليه.

تقرئين عن هذه الجماعات في الأخبار... وهذا يسبب لماجد توترًا ذهنيًا كبيرًا. الآن، هل سأجلس وأراقبهما يمزقان نفسيهما بسبب والديهما؟ كلا، سأقولها، لأن هذا صحيح، فقط لأن والديهما لا يبدوان مكترثين؟ إنني مهتمة بشكل صادق برفاه الولدين وأنت من بين كل الناس يجب أن تعرفي هذا. إنهما يحتاجان إلى المساعدة". ثم قالت جويس، بهدوء وبلادة: "مررت لتوي قرب الحمام ورأيتُ ماجد يجلس في داخله مرتديًا بنطلون الجينز. نعم، تمام؟ الآن، أعتقد أنني أعرف فتى مصابًا بالصدمة حين أرى واحدًا".

17

أحاديث الأزمة وتكتيكات اللحظة الأخيرة

"سيدة إقبال؟ أنا جويس تشالفن. سيدة إقبال؟ أستطيع رؤيتك بوضوح. أعتقد أننا يجب أن نتحدث في الحقيقة. هل يمكنك... فتح الباب؟"

نعم، تستطيع. نظريًا تستطيع. ولكن في هذا الجو من التطرف، والذي فيه أبناء متحاربون وفئات منفصلة، كانت ألسانا تحتاج إلى تكتيك خاص بها. صمتت، وأضربت عن الكلام وأفرطت في تناول الطعام (نقيض الإضراب عن الطعام، يكبر المرء من أجل أن يخيف العدو)، والآن تحاول القيام باحتجاج وهي جالسة.

"سيدة إقبال... فقط خمس دقائق من وقتك. إن ماجد قلق جدًا حيال كل هذا. إنه قلق على ميلات وأنا أيضًا. لدي خمس دقائق من فضلك يا سيدة إقبال".

لم تنهض ألسانا عن مقعدها بل واصلت العمل على حاشية الثوب، مبقية عينها على الخيط الأسود وهو ينتقل من سن إلى الذي يليه وإلى الأسفل في أسطوانة القدم البلاستيكية، ضاغطة على دواسة السنجر بغضب، كما لو أنها ترفس كفل حصان رغبت أن تركبه وتنطلق كي تبدأ حياة جديدة.

"حسنًا، أدخليها"، قال صمد بقلق، بازغًا من غرفة الجلوس، حيث أزعج إلحاح جويس استمتاعه ببرنامج التحف الأثرية، الذي كان برنامج صمد المفضل

بصرف النظر برنامج المساوي، الذي يمثل فيه ذلك الوسيط الأخلاقي العظيم إدوارد وودوارد [170]. وأمضى 15 سنة يتابع البرنامج منتظرًا ربة منزل من شرق لندن أن تخرج حلية لمانغال باندي من حقيبتها. آه، يا سيدة ونتربوتوم، هذا مثير الآن... لدينا هنا سبطانة البندقية التي كانت ل... كان يجلس والهاتف تحت يده اليمنى بحيث أنه في حال حدوث سيناريو كهذا يستطيع أن يتصل بهيئة الإذاعة البريطانية ويطلب عنوان ونتربوتوم ويسأل عن السعر. ولم يُعرض حتى الآن إلا أوسمة العصيان وساعات الجيب التي تعود ملكيتها لهافلوك، لكنه مع ذلك واصل المشاهدة.

حدق عبر الردهة بالشكل الظلي لجويس من خلال الزجاج وحك خصيتيه بحزن. كان صمد في مزاجه التلفزيوني: قبعة سبعة مبهرجة الألوان، ومعدة منتفخة تحتها كمثل زجاجة مياه ساخنة محكمة، ورداء طويل أكله العث، وشورت ملاكم عليه تطريزات هندية تتأت منه ساقان كالعصا، ميراث شبابه. وفي مزاجه التلفزيوني هرب منه الفعل. وكان الجهاز في زاوية الغرفة (أحب أن يفكر به كجهاز أثري، مؤطر بالخشب وعلى أربع أرجل مثل روبوت فكتوري) يمتص كل طاقته.

"حسنًا، لماذا لا تفعل شيئًا ما يا سيد إقبال؟ اطلب منها أن ترحل بدلًا من الوقوف هناك بمعدتك المترهلة وعضوك الصغير المكشوف".

نخر صمد ودفع سبب كل مشاكله، كرتين مشعرتين ضخمتين وعضوًا مترهلًا يبدو مهزومًا، إلى داخل شورته.

تمتم: "لن تذهب. وإذا ذهبت ستعود بالتعزيزات".

قالت ألسانا بصوت مرتفع، مرتفع بما يكفي لجويس: "لكن لماذا؟ ألم تسبب ما يكفي من المشكلات؟ لديها عائلتها الخاصة، أليس كذلك؟ لماذا لا تذهب ومن أجل التغيير تسبب لهم مشاكل نفسيه؟ لديها أبناء، أربعة؟ كم تريد؟"

هز صمد كتفيه، دخل وفتح درج المطبخ وأخرج السماعتين اللتين يمكن أن توضعا في التلفزيون وهكذا انفصل عن العالم الخارجي. انفصل مثل ماركوس،

كان شعوره: اتركهم، اتركهم لمعاركهم.

قالت ألسانا بحدة حين انسحب زوجها إلى مذيعه التلفزيوني هيو سكلي وآنيته ومسدساته: "آه شكرًا لك، شكرًا لك يا صمد مياه، لإسهامك المهم. هذا ما يفعله الرجال. يرتكبون خطأً، ينتهي القرن، ويتركون النساء لتحمل العواقب. شكرًا لك يا زوجي!"

زادت من سرعة خياطتها، مندفعة في الدرز، متقدمة في أسفل الساق الداخلية، بينما واصلت جويس طرح أسئلة لا يمكن الإجابة عليها.

"سيدة إقبال... هل نستطيع أن نتحدث من فضلك؟ هل هناك سبب لماذا يجب ألا نتحدث؟ هل يجب أن نتصرف كالأطفال؟"

بدأت ألسانا تغني.

"سيدة إقبال؟ من فضلك. ما الذي يمكن أن ينجزه هذا؟"

غنت ألسانا بصوت مرتفع أكثر.

قالت جويس بوقاحة كما دومًا، حتى عبر ثلاثة ألواح من الخشب وزجاج مزدوج: "يجب أن أخبرك. أنا لست هنا من أجل صحتي. سواء كنت تريدينني أن أتورط في الأمر أم لا فإنني **متورطة**، هل فهمت؟ سأفعل".

متورطة. على الأقل كانت هذه هي الكلمة الصحيحة، فكرت ألسانا وهي ترفع قدمها عن الدواسة، وتترك العجلة تدور عدة مرات لوحدها قبل أن تصدر صريرًا وتتوقف. أحيانًا، هنا في إنكلترة، خاصة في مواقف الحافلات وأثناء المسلسلات النهارية تسمع الناس يقولون: "نحن متورطون مع بعضنا"، كما لو أن هذه كانت حالة رائعة كي يكون المرء فيها، كما لو أن المرء اختارها واستمتع بها. لم تفكر ألسانا بها أبدًا بهذه الطريقة. إن التورط يحدث خلال فترة طويلة من الوقت، يشدك كالرمال المتحركة. إن التورط هو ما حل بألسانا بيجوم ذات الوجه القمري والأنيقة وصمد مياه بعد أسبوع من دفعهما معًا داخل غرفة فطور في دلهي وإبلاغهما أنهما سيتزوجان. كان التورط هو النتيجة حين التقت كلارا بودن وآرشي جونز عند قدم درج ما. وابتلع التورط فتاة تدعى أمبروسيا وفتى

يدعى تشاربي (نعم، روث لها كلارا تلك الحكاية المؤسفة) في الثانية التي تبادلا فيها القبل في غرفة المطعم. إن التورط ليس جيدًا ولا سيئًا. إنه فقط نتيجة الحياة ونتيجة الاحتلال والهجرة والإمبراطوريات والتوسع وقضاء شخصين وقتًا طويلًا معًا... يصبح المرء متورطًا ويكون طريقًا طويلًا إلى الخلف إلى كونك غير متورط. وكانت المرأة على صواب، إن المرء لا يفعل هذا من أجل صحته. لم يُفعل شيء في هذا الوقت المتأخر من القرن لأسباب صحية. ولم تكن ألسانا غبية حين يتعلق الأمر بالأوضاع الحالية. كانت تشاهد البرامج الحوارية طيلة النهار: زوجتي نامت مع أخي، أمي لن تتوقف عن التدخل في حياة عشيقي، وحامل الميكروفون، سواء كان الرجل الأسمر ذا الأسنان البيضاء أو الزوجين المخيفين، دومًا يسألون السؤال السخيف نفسه: لكن لماذا تشعر بالحاجة؟ خطأ! كان على ألسانا أن تشرح الأمر لهم من خلال الشاشة. أيها الأغبياء، إنهم لا يرغبون بهذا، لا يريدون هذا، إنهم متورطون فحسب، أترون؟ يدخلون ويَغلقون. تمر الأعوام، ويتراكم الخطأ وها نحن هنا. شقيقك ينام مع ابنة العم الثانية لابنة أخ زوجتي السابقة. متورطون، هي حقيقة حتمية متعبة فحسب. شيء ما في طريقة لفظ جويس لكلمة متورطة، بطريقة متعبة ومرّة قليلًا، أوحى لألسانا أن الكلمة عنت الشيء نفسه لها: شبكة ضخمة تحيكها كي تصطاد نفسك.

"حسنًا، حسنًا، يا سيدة، خمس دقائق فقط، لدي ثلاث بذلات كي أنهيها هذا الصباح مهما واجهتني صعوبات".

فتحت ألسانا الباب فدخلت جويس إلى الصالون، وللحظة تفحصت كل واحدة الأخرى كي تخمن وزنها كمثل متنافسين على جائزة يشعران بالتوتر قبل الصعود إلى المنصة. كانتا بشكل محدد متطابقتين. ما افتقرت جويس إليه في الصدر عوضته في المؤخرة، والضعف الذي أظهرته ألسانا في الملامح الحساسة كأنفها النحيل والجميل وحاجبيها الخفيفين عوضته بالدهن على ذراعيها، وغمازات قوة الأمومة، ذلك أنها في النهاية كانت الأم هنا، أم الولدين المقصودين.

وكانت تحمل الورقة الرابحة، لو أُجبرت على لعبها.

قالت ألسانا عاصرة نفسها عبر باب المطبخ الضيق مومئة لجويس كي تتبعها.

"هل تريدين شايًا أم قهوة؟"

قالت جويس بحزم: "شايًا. فواكه إذا كان ممكنًا".

"إن شاي الفواكه غير ممكن، ولا حتى شاي الإيرل جراي، جئت من أرض الشاي إلى هذه البلاد الكريهة التي لا أستطيع أن أشتري فيها كوبًا من الشاي الجيد. ليس لدينا إلا بي جي. تيبس".

هزت جويس رأسها: "بي. جي. تيبس، إذًا".

"كما ترغبين".

كان كوب الشاي الذي وُضع أمام جويس بعد بضع لحظات رماديًا بحافة من الأوساخ وآلاف الميكروبات التي تدخل عبرها، وأقل صفرًا مما سيأمل المرء. قامت ألسانا بتعليق لجويس كي تفكر به.

شرحت بمرح: "فقط اتركيه لوهلة. أصاب زوجي أنبوب ماء حين حفر حفرة من أجل البصل وصار ماؤنا معكرًا قليلًا منذ ذلك الوقت. لكن امنحيه لحظة وسيصفو. أترين؟" حركت ألسانا الكوب بطريقة غير مقنعة، مبينة قطعًا أكبر غير قابلة للتحديد من مادة ما تتصاعد كالفقاعات على السطح، "أترين؟ مناسب لشاه جهان (171) نفسه!"

تناولت جويس رشفة مترددة ثم دفعته جانبا.

"سيدة إقبال، أعرف أن علاقتنا لم تكن جيدة في الماضي، لكن..."

قالت ألسانا، مادة سبابتها كي توقف جويس عن الكلام: "سيدة تشالفن، هناك قاعدتان يعرفهما الجميع، من رئيس الوزراء إلى سائق الجنركشة (العربة)، الأولى هي لا تجعلي أبدًا من بلادك موقعًا تجاريًا. هذا مهم جدًا. لو اتبع أسلافي هذه النصيحة لكان وضعي الحالي مختلفًا، لكن هكذا هي الحياة، والثانية هي، لا تتدخلي في الشؤون العائلية لأشخاص آخرين، هل تريدين الحليب؟"

"كلا، كلا شكرًا، بعض السكر".

وضعت ألسانا ملعقة كبيرة جدًا في كوب جويس.

"تعتقدين أنني أتدخل؟"

"أعتقد أنك تدخلت".

"لكن فقط أريد أن يلتقي التوأمان".

"أنت سبب انفصالهما".

"لكن ماجد يعيش معنا فقط لأن ميلات لن يعيش معه هنا. وقال لي ماجد إن زوجك لا يطيق رؤيته هنا".

ردت ألسانا التي انفجرت مثل طنجرة ضغط صغيرة: "ولماذا لا يستطيع؟ لأنك أنت وزوجك حقنتما ماجد بشيء مضاد لثقافتنا، ومعتقداتنا بحيث يصعب علينا أن نعرفه. لقد فعلتما هذا، إنه متناقض مع شقيقه الآن، وهما في صراع مستحيل. هؤلاء الأوغاد ذوو ربطات العنق الخضراء: ميلات متورط معهم جدًا الآن. متورط جدًا. لا يخبرني، أسمع فحسب، يسمون أنفسهم أتباع الإسلام، لكنهم ليسوا إلا قطاع طرق في عصابة تطوف في كلبرن كمثل المجانين الآخرين، وتوزع الورق المطوي".

"المنشورات".

"المنشورات. منشورات عن زوجك وذلك الفأر الكافر. المشاكل تتخمر، نعم. عثرت على المئات منها تحت سريره". نهضت ألسانا، أخرجت مفتاحًا من جيب ردائها وفتحت خزانة مطبخ تتكدس فيها منشورات خضراء، والتي تدفقت إلى الأرض. "لقد اختفى ثانية، ثلاثة أيام. يجب أن أعيدها قبل أن يكتشف أنها ذهبت، خذي بعضها يا سيدة، واقرئيها لماجد. أريه ماذا فعلتم. ولدان دُفعا إلى طرفين مختلفين من العالم، لقد سببتم حربًا بين ولديَّ، أنتم تفرقون بينهما".

بعد دقيقة أدار ميلات المفتاح بهدوء في الباب الخارجي، ووقف في الصالة يصغي إلى المحادثة ويدخن سيجارة. كان هذا عظيمًا كمثل الإصغاء لأمين إيطاليتين قائدتين من عصابتين متخاصمتين تتقاتلان. وكان ميلات يحب العصابات. انضم إلى كيفن لأنه يحب العصابات (واللباس وربطة العنق)، وكان

يحب العصابات المتحاربة. وقالت الطبيبة النفسية مارجوري إن هذه الرغبة في أن يكون عضوًا في عصابة ناجمة عن كونه توأمًا. وأضافت مارجوري بأن تحول ميلات الديني من المحتمل أنه ناجم عن حاجة للتشابه داخل المجموعة أكثر مما هو ناجم عن اعتقاد مكون فكريًا بوجود خالق كلي القدرة. ربما، مهما كان، وبقدر ما يهمه الأمر، تستطيع أن تحلل الأمر بلا نهاية لكن لا شيء أفضل من أن تكون لابسًا لملابس سوداء، تدخن سيجارة، وتصغي إلى أمّين تتصارعان عليك بطريقة أوبرالية:

"تزعمين أنك تريدين مساعدة ولديَّ لكنك لم تفعلي أي شيء إلا دق إسفين بينهما. الوقت متأخر جدًا الآن. لقد خسرتُ عائلتي، لماذا لا تعودين إلى عائلتك وتتركيننا وشأننا؟"

"هل تعتقدين أن هناك فردوسًا في منزلنا؟ انقسمت عائلتي إلى قسمين. جوشوا لا يتحدث مع ماركوس. هل عرفت هذا؟ وكان الاثنان قريبين..." بدت جويس قليلًا كأنها تبكي، ومررت لها ألسانا مترددة لفافة المحارم. "أحاول أن أساعد الجميع. والطريقة الأفضل لفعل هذا هي مصالحة ماجد وميلات قبل أن يتفاقم الأمر أكثر. أعتقد أننا يمكن أن نتفق على هذا. لو كان بوسعنا العثور على مكان حيادي، أرضية ما حيث لا يشعر الاثنان بالضغوط أو بالتأثير الخارجي..."

"لكن لا توجد أمكنة حيادية بعد الآن! أوافق أنهما يجب أن يلتقيا، لكن أين وكيف؟ أنت وزوجك جعلتما كل شيء مستحيلًا".

"سيدة إقبال، مع كل الاحترام المطلوب، بدأت المشاكل في عائلتك قبل وقت طويل من تدخلي أنا وزوجي".

"ربما، ربما يا سيدة تشالفن، لكنكما الملح على الجرح، أليس كذلك؟ أنتما الفلفل الحاد الإضافي في الصلصة الحارة".

سمع ميلات جويس تسحب نفسها بحدة.

"ثانية، باحترام، لا أعتقد أن هذه هي الحالة. أعتقد أن هذا كان يجري لوقت طويل جدًا. أخبرني ميلات أنك منذ سنوات أحرقت كل مقتنياته. أعني،

هذا فقط مثال، لكنني لا أعتقد أنك تفهمين الصدمة التي سببها ذلك الشيء لميلات. إنه متأذ جدًا".

"آه، سنلعب لعبة الرد بالمثل. أفهم وأنا سأكون المزعجة، أفهم. على الرغم من أنه لا علاقة لك بأمور كهذه، أحرقت هذه الأشياء كي ألقنه درسًا، كي يحترم حيوات الأشخاص الآخرين".

"هذه طريقة غريبة لإظهار الأمر، اسمحي لي بالقول".

"يهمني! يهمني الأمر! ماذا تعرفين عن هذا؟"

"فقط ما أراه. وأرى أن ميلات يعاني من كثير من المشاكل النفسية. ربما لا تعرفين ولكنني كنت أدفع من أجل جلسات لميلات مع محللة نفسية. وأستطيع أن أخبرك عن حياة ميلات الداخلية، وعن الكارما الخاصة به، كما تدعونها بالبنغالية، إن عالم لا وعيه كله يبدي مرضًا خطيرًا".

في الحقيقة، إن المشكلة مع لاوعي ميلات (ولم يكن بحاجة لمارجوري كي تخبره هذا) هو أنه منقسم: من ناحية يحاول بقوة أن يعيش كهيفان وما اقترحه الآخرون، وتضمّن هذا جعل رأسه يدور حول أربعة معايير رئيسية.

1- أن يكون المرء زاهدًا في عاداته (يخفف شرابه، الماريجوانا والنساء).

2- أن يتذكر دومًا عظمة محمد (عليه السلام) وجبروت الخالق.

3- أن يفهم بشكل فكري كامل منظمة كيفن والقرآن.

4- أن يطهر المرء نفسه من لطخة الغرب.

كان يعرف أنه تجربة كيفن الكبيرة، وأراد أن يمنحها أفضل ما لديه. وكان يتقدم في المجالات الثلاثة الأولى. وكان يدخن في مناسبات معينة ويشرب علبة بيرة غينيس أحيانًا (لا أستطيع أن أقول أعدل من هذا) لكنه واصل تدخين الأعشاب الشريرة وإغواءات الجسد. لم يعد يعاشر أليكساندرا أندروسيير وبولي هوتون أو روزي دو لكنه يزور أحيانًا فتاة تدعى تانيا تشابمان، وهي صغيرة جدًا وشعرها أحمر، وفهمت الطبيعة الحساسة لمأزقه وكانت تمارس معه الجنس الفموي دون أن يتطلب الأمر أن يلمسها ميلات إطلاقًا. وكان هذا ترتيبًا مفيدًا للطرفين: كانت

ابنة قاض وتستمتع بإرعاب العجوز، ويحدث القذف لميلات دون مشاركة فعلية منه. وفي الجانب النصيّ من الأمور، اعتقد أن النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) رجل ملائم وعظيم، وكان يخشى الخالق بالمعنى الحقيقي للكلمة، ويشعر بالرهبة والخوف الشديد والقداسة، وقال هيفان إن هذا صحيح وهو المطلوب. وفهم تلك الفكرة بأن دينه ليس مبنيًا على الإيمان فحسب، كالمسيحيين واليهود والآخرين بل دين يمكن أن تبرهن عليه فكريًا أفضل العقول. استوعب الفكرة. لكن المحزن في الأمر هو أن ميلات كان بعيدًا عن امتلاك أحد أفضل العقول، أو حتى عقل مقبول، فقد كان البرهان الفكري أو غياب البرهان خارج حدوده. لكنه فهم أن الاعتماد على الإيمان، كما يفعل والده، يستحق الاحتقار، ولا أحد يستطيع القول إنه لم يكرس نفسه للقضية مائة بالمائة. بدا هذا كافيًا لمنظمة كيفن. كانوا أكثر من سعداء من موطن قوته الحقيقي، والذي هو إيصال الشيء، المنح. مثلًا، إذا جاءت امرأة متوترة إلى كشك كيفن في مكتبة ولسدن وسألت عن الإيمان كان ميلات ينحني فوق المكتب، ويمسك يدها ويضغطها ويقول: لا يوجد إيمان يا أخت، نحن لا نتاجر بالإيمان هنا، أمْضي خمس دقائق مع أخي راكيش وسيبرهن لك فكريًا وجود الخالق. إن القرآن وثيقة علمية، وثيقة فكر عقلاني. أمْضي خمس دقائق يا أخت إذا كنت تفكرين بمستقبلك خارج هذا الكوكب الأرضي. وكي يتوج كل هذا، كان يستطيع عادة أن يبيعها بعض الأشرطة (الحرب الإيديولوجية أو فليحترس الفقهاء)، مقابل جنيهين لكل واحد. أو كان يبيعها بعض أدبياتهم، لو كان في حالة جسدية جيدة. وكان الجميع في كيفن معجبين بهذا. فالأمور جيدة حتى الآن. وبالنسبة لبرامج كيفن الأقل تشددًا في الفعل المباشر، كان ميلات في المكان المناسب، وكان رصيدهم الأعظم، وفي الخطوط الأولى، وأول من يدخل المعركة، وكان لا يُشق له غبار، رجل فعل، مثل براندو وباتشينو وليوتا. لكن حين كان ميلات يفكر بهذا بكبرياء في ردهة أمه شعر بخيبة أمل، فهناك تكمن المشكلة، في رقم 4: تطهير نفسك من لطخة الغرب.

يعرف الآن أنك إذا أردت نموذجًا عن الحالة المحتضرة والمنحطة أخلاقيًا

والفاسدة والمفرطة في غرائزها للثقافة الغربية الرأسمالية ونقطة الانتهاء المنطقية لهوسه بالحريات الشخصية (منشور: الطريق خارج الغرب)، لا تستطيع أن تجد أفضل من سينما هوليود. وكان يعرف (كم مرة حضر أفلامها هو وهيفان؟) أن فيلم "العصابة" المافيوي المثال الأسوأ على هذا. ومع ذلك... هذا أصعب شيء يمكن التخلي عنه. سيتخلى عن كل سيجارة ماريجوانا سبق أن دخنها وكل امرأة سبق أن ضاجعها كي يستعيد الأفلام التي أحرقتها أمه، أو حتى القلة التي اشتراها مؤخرًا والتي صادرها هيفان. مزق عضويته في روكي فيديو وتخلص من مسجل فيديو إقبال كي يبعد نفسه عن الإغواء المباشر، لكن هل كان هذا خطأه إذا عرضت القناة الرابعة موسم أفلام لدي نيرو؟ هل يستطيع مقاومة الأمر إذا طارت أغنية توني بينيت [172] "من الأسمال إلى الغنى" من محل للألبسة ودخلت روحه؟ وكان السر المخزي أكثر هو أنه كلما فتح بابًا سواء باب سيارة أو صندوق سيارة أو باب صالة اجتماع كيفن أو باب بيته مرت افتتاحية "الأشخاص الطيبون" عبر رأسه وعثر على الجملة التي تدور فيما افترض أنه لا شعوره:

بقدر ما أستطيع التذكر، أردت دومًا أن أكون رجل عصابة.

حتى أنه نظر إلى الأمر هكذا، في ذلك الخط، كما في إعلان الفيلم. وحين وجد نفسه يقوم بالأمر، حاول بيأس ألا يفعل، حاول أن يعالج الأمر، لكن ذهن ميلات كان مشوشًا وينتهي به الأمر في غالب الأحيان إلى دفع الباب، رأسه إلى الخلف وكتفاه إلى الأمام، على طريقة ليوتا، مفكرًا:

بقدر ما أستطيع التذكر، أردتُ دومًا أن أكون مسلمًا.

عرف بطريقة ما أن هذا أسوأ لكنه لم يستطع أن يقاوم الأمر. واحتفظ بمنديل أبيض في جيبه العلوي وحمل دومًا النرد على الرغم من أنه لم يكن يعرف أية لعبة سخيفة كانته بالفعل. وكان يحب سترات "كامل" الطويلة ويستطيع أن يطبخ معكرونة مأكولات بحرية صعبة جدًا، على الرغم من أنه لا يستطيع أن يطبخ لحم الخروف بالكري. وكان يعرف أن هذا كله غير حلال.

والأسوأ من ذلك، كان هناك غضب في داخله، ليس الغضب الفاضل لرجل يعرف ربه، بل الغضب العاصف والعنيف لرجل عصابة، لجانح منحرف مصمم على أن يثبت نفسه، مصمم على أن يدير العائلة، وعلى أن يهزم البقية. وإذا كانت اللعبة هي الإيمان بالله، إذا كانت اللعبة قتالًا ضد الغرب، ضد فرضيات العلم الغربي، وضد أخيه أو ماركوس تشالفن، فقد كان مصممًا على أن ينتصر فيها. أطفأ ميلات سيجارته على الدرابزين. ضايقه كثيرًا أن هذه لم تكن أفكارًا ورعة. لكنها كانت في المكان الملائم، أليس كذلك؟ كان يمتلك الأساسيات، أليس كذلك؟ حياة نظيفة، الصلاة (خمس مرات في اليوم دون تقاعس)، الصيام، العمل من أجل قضية، نشر رسالة؟ وكان هذا كافيًا، أليس كذلك؟ ربما. مهما كان الأمر. بأية طريقة، لم تكن هناك عودة. نعم، سيقابل ماجد، سيقابله... ستحدث بينهما مواجهة جيدة، سيخرج منها منتصرًا، وسيدعو أخاه صرصارًا صغيرًا، ويسير خارجًا من هذه المحادثة الخاصة أكثر تصميمًا على تحقيق قدره. قوّم ميلات ربطة عنقه الخضراء قوسية الشكل وتقدم إلى الأمام مثل ليوتا[173] مهددًا وساحرًا ودفع باب المطبخ (بقدر ما أتذكر...)، منتظرًا لزوجين من الأعين، كمثل كاميرتين لسكورسيسي، تُوجَّهان إلى وجهه وتركزان.

"ميلات!"

"أمي".

"جويس"

(عظيم، رائع، وهكذا كلنا نعرف بعضنا، تواصل مونولوج ميلات الداخلي بصوت بول سورفينو[174]: الآن لندخل في العمل).

*****

"حسنًا يا سادة. لا يوجد سبب للذعر، إنه ابني فحسب، ماجد، ميكي، ميكي، ماجد".

أوكونيل مرة أخرى، لأن ألسانا قبلت أخيرًا فكرة جويس، لكنها لم تكترث

بتلويث يديها. بدلًا من ذلك، طلبت من صمد أن يأخذ ماجد إلى مكان ما في الخارج ويمضي المساء كي يقنعه باللقاء مع ميلات. وكان المكان الوحيد الخارجي الذي يفهمه صمد هو أوكونيل وكان احتمال أن يأخذ ابنه إلى هناك مقيتًا. تصارع هو وزوجته بشكل كامل في الحديقة كي يحلا المشكلة، وكان واثقًا من النجاح إلى أن خدعته ألسانا وأسقطته أرضًا بحركة وهمية مقلدة وثبتته. وهكذا ذهب إلى أوكونيل، وكان خيارًا سيئًا كما اشتبه. وحين دخل هو وآرشي وماجد محاولًا القيام بدخول هادئ سادت حالة فزع واسعة الانتشار بين العمال والزبائن. فقد كان آخر غريب تذكره أي شخص سبق أن جاء مع آرشي وصمد هو محاسب صمد، وهو رجل بوجه كالفأر حاول أن يتحدث مع الناس عن مدخراتهم (كما لو أن الناس في أوكونيل لديهم مدخرات) وطلب ليس مرة بل مرتين سجق الدم، على الرغم من أنه شُرِحَ له أن لحم الخنزير غير متوفر. كان هذا في حوالي 1987 ولم يرق لأحد. والآن ماذا كان هذا؟ بعد مرور خمس سنوات فقط يأتي شخص ثان الآن، هذه المرة يلبس ثيابًا بيضاء جميلة ونظيفة بشكل مهين لمساء يوم جمعة في أوكونيل، وتحت الحد الأدنى لمتطلب العمر غير المعلن. ما الذي كان يحاول صمد فعله؟

سأله جوني، وهو رجل كئيب المنظر ونحيل كان عضوًا سابقًا في جمعية الرجال البرتقاليين [175] وهو منحن فوق صحنه الساخن كي يلتقط بعض السائل: "ما الذي تحاول فعله لنا يا صمد؟ تجتاحنا، أو تفكر بشيء ما؟"

"آه منه"، قال دينزل، الذي لم يمت بعد.

سأل كلارينس، الذي كان أيضًا موجودًا هناك: "هل هذا ابنك المعتوه؟"

"حسنًا يا سادة. لا داعي للذعر. إنه ابني فحسب. ماجد، ميكي. ميكي، ماجد".

بدا ميكي مذهولًا قليلًا من تعريفه، ووقف صامتًا لدقيقة وبيضة مقلية لزجة تتدلى من ملعقته المسطحة.

قال ماجد بهدوء: "ماجد محفوظ مرشد مبتسم إقبال، شرف كبير أن ألتقي

بك يا مايكل. لقد سمعت الكثير عنك".

ما كان غريبًا هو أن صمد لم يخبره عنه أبدًا.

واصل ميكي النظر فوق كتف ماجد إلى صمد من أجل التأكيد: "قلت ماذا؟ تعني الذي أرسلته إلى الوطن؟ هذا ماجد؟"

أجاب صمد بسرعة متضايقًا من كل الانتباه الذي يحصل عليه الفتى: "نعم، نعم هذا ماجد، الآن، أنا وأرشيبالد نريد طبقينا المعتادين و..."

كرر ميكي ببطء: "ماجد إقبال، حسنًا، أنا لم أسمع أبدًا. هل تعرف أن المرء لن يحزر أنك من عائلة إقبال. لديك وجه يوحي كثيرًا بالثقة، وجه متعاطف، إذا فهمتني".

قال ماجد، واضعًا تلك النظرة من الشفقة الكاملة على ميكي وعلى تلك الثمالة البشرية الأخرى المتكورة حول الطاولة الساخنة: "ومع ذلك أنا من عائلة إقبال يا مايكل ولو أنني رحلت لفترة طويلة جدًا".

"قل هذا ثانية. حسنًا، هذا تقليب للكتب. لقد حصلت على... انتظر لحظة، دعني أعبر عن هذا بشكل صحيح... إن جد جدّ جدك هناك، أترى؟"

قال ماجد متوهجًا كملاك: "لاحظت هذا في اللحظة التي دخلتُ فيها، وأؤكد لك يا مايكل أن روحي ممتنة جدًا لك من أجل هذا. ويجعلني هذا أشعر أنني في الوطن، وبما أن هذا المكان عزيز على والدي وصديقه أرشيبالد جونز أشعر أنه سيكون عزيزًا عليَّ. أحضراني إلى هنا، على ما أعتقد، كي نناقش مسائل مهمة، ولا أستطيع أن أفكر بمكان أفضل لهما، على الرغم من حالة جلدك المريعة".

تأثر ميكي على نحو مفاجئ بهذا، ولم يستطع أن يخفي متعته، مقدمًا جوابه لكل من ماجد وبقية الحاضرين في أوكونيل.

"إنه يتحدث بشكل جميل، أليس كذلك؟ يبدو كأوليفييه [176]. إنكليزية الملكة وبدون أي خطأ. إنه شخص ظريف جدًا. إنك من الزبائن الذي يريحني وجودهم هنا، دعني أخبرك يا ماجد. أنت متحضر. ولا تقلق من جلدي، فهو لا يقترب من الطعام ولا يسبب مشكلات كثيرة. يا له من سيد. تشعر أنك يجب أن

تراقب ما تقوله وأنت معه، أليس كذلك؟"

قال صمد: "أحضر لنا طبقينا المعتادين أنا وأرشيبالد يا ميكي من فضلك. سأترك ابني يقرر. سنكون قرب آلة البنبول".

قال ميكي: "نعم، نعم"، غير متضايق أو قادر أن يزحزح عينيه عن عيني ماجد السوداوين.

قال دينزل مدلكًا الكتان الأبيض بحزن: "ترتدي بذلة جميلة، هذا ما كان الرجال الإنكليز يلبسونه في الوطن في جامايكا، أتذكر ذلك يا كلارينس؟"

قال ميكي مبعدًا لهما: "هيا، غيّرا هذا الموضوع. سأحضر الطلب، حسنًا. أريد أن أتحدث مع ماجد هنا. فتى ناضج. يجب أن يأكل. ماذ أحضر لك يا ماجد؟" انحنى ميكي فوق الكاونتر، قلقًا، كمثل فتاة حانوت مفرطة الانتباه. "بيض؟ فطر؟ فاصولياء؟ شريحة مقلية؟"

أجاب ماجد، فاحصًا بهدوء قائمة اللوح الحواري المغبر على الحائط ثم استدار إلى ميكي بوجه مشرق: "أعتقد أنني أريد سندويشة لحم خنزير. نعم هذه. أريده غضًا، ومطهيًا جيدًا، وعليه كتشب، في خبز أسمر".

آه، يا للضيق الذي يمكن أن يشاهد على فم ميكي في تلك اللحظة! يا للتشوهات الغريبة! كانت معركة بين ما يفضله الزبون الأكثر انصقالًا الذي سبق أن حصل عليه والقاعدة المقدسة التي تُضفى عليها هالة لمطعم أوكونيل: لا نقدم لحم الخنزير.

رمشت عين ميكي اليسرى.

"ألا تريد صحنًا ظريفًا من البيض المقلي؟ أعدُّ بيضًا طيبًا، أليس كذلك يا جوني؟"

قال جوني بإخلاص من طاولته ولو أن بيض ميكي كان مشهورًا عنه أنه رمادي وصلب: "سأكون كاذبًا لو قلتُ إنك لا تفعل، سأكون كاذبًا مريعًا، أحلفُ بحياة أمي أنني سأكون هكذا".

غضّن ماجد أنفه وهز رأسه.

توسل يائسًا: "حسنًا، ماذا عن الفطور والفاصولياء؟ الأومليت ورقائق البطاطا؟ لا يوجد رقائق بطاطا أفضل منها في فنشلي رود. هيا، يا ولد، أنت مسلم، أليس كذلك؟ لا تريد أن تحطم قلب والدك بسندويشة لحم خنزير".

قال ماجد ببرود: "لن يتحطم قلب والدي من سندويشة لحم خنزير. من المرجح أكثر أن قلب والدي سيتحطم من تراكم دهن مشبع ناجم عن الأكل في مطعمك لمدة خمس عشرة سنة. يتساءل المرء لو كان يمكن رفع دعوى، دعوى قانونية، أتفهم، ضد الأفراد في صناعة الطعام الذين يخفقون في تسمية وجباتهم التي تحتوي دهونًا واضحة أو وضع تحذير صحي عام. يتساءل المرء".

طرح كل هذا بالصوت الأعذب الأكثر إيقاعية وبدون تلميح بالتهديد. المسكين ميكي لم يعرف ماذا يفعل بعد سماع هذا.

قال ميكي بعصبية: "حسنًا، بالطبع، فرضيًا هذا سؤال مهم. مهم جدًا".

"أظن ذلك"

"نعم بشكل غير محدد".

صمت ميكي وأمضى لحظة يلمع بشكل متقن قمة الصحن الساخن، وهذا نشاط ينغمس فيه مرة كل عشر سنوات.

"انظر. إنك ترى وجهك في هذا. الآن. أين كنا؟"

قال ماجد: "سندويشة لحم الخنزير".

لدى صوت كلمة لحم خنزير، بدأت عدة آذان ترتعش حول الطاولات الأمامية.

"لو بوسعك أن تخفض صوتك قليلًا..."

همس ماجد: "سندويشة لحم خنزير".

"لحم الخنزير. حسنًا. يجب أن أذهب وأحضره من الجيران، لأنه ليس عندي أي منه الآن... اجلس مع والدك وسأحضره. سيكلف أكثر بقليل. ماذا عن الجهد الإضافي، كما تعرف. لكن لا تقلق، سأحضره، وأخبر آرشي ألا يقلق إذا لم يكن معه نقود. إن قسيمة غداء ستعمل".

مد ماجد يده إلى جيبه وسحب قطعة من الورق المطوي: "أنت لطيف جدًا يا مايكل. خذ واحدة". "آه، اللعنة، منشور آخر؟ لا تستطيع أن تتحرك، المعذرة، لكنك لا تستطيع الهرب من المنشورات هذه الأيام في شمال لندن. دائمًا يحمّلني بها أخي عبدل كولن. لكن بما أنه أنت هاتها".

قال ماجد، آخذًا شوكته وسكينه من الصينية: "هذا ليس منشورًا، إنها دعوة إلى حفلة إطلاق مُنتج".

"أنت ماذا؟ حقًا؟"، قال ميكي مثارًا. بحسب جريدته اليومية الشعبية عنت كلمة حفل إطلاق منتج الكثير من الكاميرات وشابات مكلفات بأثداء ضخمة، وسجادات حمراء.

قدم له ميلات الدعوة: "أشياء لا تصدق ستُرى وتُسمع هناك".

قال ميكي مصابًا بخيبة أمل وناظرًا إلى بطاقة غالية الثمن: "آه، سمعت عن ذلك الرجل وفأره". سمع عن الرجل وفأره في تلك الصحيفة الشعبية نفسها، كان كلامًا محشوًا بين الأثداء والمزيد من الأثداء وكان تحت عنوان: رجل وفأره.

"يبدو هذا غير موثوق قليلًا بالنسبة لي، العبث مع الله وكل هذه الأمور. بالإضافة إلى ذلك ليس ذهني علميًا، اذهب إلى من هم أفهم مني".

"آه، لا أظن هذا. يجب على المرء أن ينظر فحسب إلى الشيء من منظور يمتعه شخصيًا. خذ جلدك، مثلًا".

مزح ميكي بشكل ودي: "أتمنى أن يأخذه أحد ما فقد اكتفيت من هذا اللعين".

لم يبتسم ماجد.

"أنت تعاني من خلل في الغدد الصماء، وأعني أن هذا ليس حب شباب ناجمًا عن الإفراط في فرز المادة الدهنية، بل حالة ناجمة عن خلل هرموني. أفترض أن عائلتك مصابة بهذا".

"نعم هذا ما يحدث. كل أخوتي. وابني عبدل جيمي. كلهم أوغاد منقطون".

"لكن لن يسعدك أن ينقل ولدك هذا إلى أبنائه".

"بالطبع. عانيتُ من مشكلة رهيبة في المدرسة. أحمل سكينًا حتى هذا اليوم. لكن لا أعرف كيف يمكن تجنب هذا، أصدقك القول. لقد استمر لعقود".

قال ماجد (وكان خبيرًا في مسألة الاهتمام الشخصي): "لكن كما ترى، يمكن تجنبه. سيكون هذا بسيطًا وسينقذك من كثير من البؤس. هذا هو نوع الشيء الذي سنناقشه في حفل إطلاق المنتج".

"آه حسنًا، إذا كانت هذه هي الحالة، اعتبرني قادمًا. اعتقدت أنه فقط فأر لعين وراثي أو شيء ما. لكن إذا كانت هذه هي الحالة..."

قال ماجد، قبل أن يسير إلى والده: "في 31 كانون الأول\ديسمبر، ستسعدني رؤيتك هناك".

قال آرشي، حين اقترب ماجد من الطاولة: "تأخرت".

سأل صمد متضايقًا، وتحرك كي يفسح له مجالًا: "هل أتيت عن طريق نهر الغانج؟"

"اعذراني من فضلكما. كنت أتحدث مع صديقكما مايكل. شاب ظريف جدًا. آه، قبل أن أنسى، يا أرشيبالد، قال إنه سيكون مقبولًا بشكل كامل الدفع بقسائم الغداء هذا المساء".

اختنق آرشي تقريبًا من عود أسنان كان يمضغه: "ماذا قال؟ هل أنت متأكد؟"

"متأكد تمامًا. الآن يا أبي، هل نبدأ؟"

قال صمد رافضًا أن ينظر في عينيه: "لا شيء هناك كي نبدأ به. أنا خائف أننا أوغلنا بعيدًا في أية حبكة شيطانية تنتظرني. وأريدك أن تعرف أنني لست هنا بطوع إرادتي بل لأن أمك توسلت إليّ أن أفعل هذا ولأني أكن احترامًا لتلك المرأة المسكينة أكثر مما سبق وفعلت أنت وأخوك".

أطلق ماجد ابتسامة ساخرة لطيفة: "ظننت أنك هنا لأن أمي هزمتك في المصارعة".

تجهّم صمد: "آه نعم، اسخر مني يا ولدي. ألم تقرأ القرآن أبدًا؟ ألا تعرف

واجبات الابن نحو أبيه؟ أنت تمرضني يا ماجد مبتسم".

قال آرشي لاعبًا بالكتشب، محاولًا أن يبقي الأمور خفيفة: "آه أيها العجوز صمد، اهدأ".

"كلا، لن أهدأ. إن هذا الفتى شوكة في قدمي".

"في أية قدم؟"

"لا تتدخل في الأمر يا أرشيبالد".

أعاد آرشي انتباهه إلى علبتي الملح والفلفل، محاولًا أن يصب إحداهما في الأخرى.

"أنت مصيب يا سام".

"لدي رسالة أنقلها وسأنقلها لا أكثر. ماجد، إن أمك تريدك أن تلتقي بميلات. المرأة تشالفن سترتب الأمر. إن رأيهما هو أنكما يجب أن تتحدثا".

"وما رأيك يا أبي؟"

"لا تريد أن تسمع رأيي".

"بالعكس يا أبي، أحب كثيرًا أن أسمعه".

"أعتقد أن هذا خطأ. أعتقد أنكما لا تنفعان بعضكما في شيء. يجب أن تذهبا إلى جهتين متعاكستين في الأرض. أعتقد أنني لُعنْتُ بولدين أكثر سوءًا من قابيل وهابيل".

"أنا أرغب بشكل كامل باللقاء به يا أبي إذا كان يرغب بذلك".

"يبدو أنه يرغب، هذا ما قِيل لي. لا أعرف. لم أعد أتحدث معه أكثر مما أتحدث معك. أنا مشغول جدًا حاليًا أحاول أن أتصالح مع الله".

قال أرشيبالد طاحنًا بين أسنانه عود أسنان بسبب الجوع والتوتر ولأن ماجد وتّره: "سأذهب وأتبين إن كان الطعام جاهزًا. سأفعل هذا. ماذا أحضر لك يا ماجد؟"

"لحم...؟ أ... حسنًا. حسنًا أنت مصيب".

انفجر وجه صمد كأحد حبات طماطم ميكي: "وهكذا تريد أن تسخر مني،

هل هذا هو الأمر؟ أمام وجهي تريد أن تبين لي الكافر الذي هو أنت؟ هيا إذًا! اقضم لحم الخنزير أمامي! أنت ذكي جدًا، أليس كذلك؟ السيد العارف لكل شيء. أيها الإنكليزي ذو القميص الأبيض بشفته العليا المتصلبة وأسنانه البيضاء الكبيرة. تعرف كل شيء، حتى بما يكفي كي تهرب من يوم قيامتك".

"لستُ ذكيًا إلى هذا الحد يا أبي".

"كلا، لستَ، لست بنصف ذكاء ما تظن نفسك. لا أعرف لماذا أزعج نفسي بتحذيرك، لكنني أفعل. أنت في مسار اصطدام مباشر مع أخيك يا ماجد. سأبقى مصغيًا لأي مؤشر، أسمع شيفا يتحدث في المطعم. وهناك آخرون: مو محسن اسماعيل وشقيق ميكي، عبدل كولن، وابنه عبدل جيمي، وهؤلاء قلة فحسب، هناك كثيرون آخرون، وهم يتنظمون ضدك. ميلات معهم. أثار معلمك ماركوس تشالفن غضبًا كبيرًا وهناك بعض ذوي ربطات العنق الخضراء يرغبون بالفعل، وهم مجانين بما يكفي كي يفعلوا ما يعتقدون أنه صحيح، مجانين بما يكفي كي يبدؤوا حربًا. ليس هناك كثير من الأشخاص هكذا، معظمنا نتبع فحسب حالما تُعلن الحرب. لكن بعض الأشخاص يتمنون توتير الأوضاع، والبعض يسيرون إلى أرض استعراض ويطلقون الطلقة الأولى. أخوك أحدهم".

في غضون كل ذلك، وبينما كان وجه صمد يتلوى من الغضب، إلى اليأس، إلى ابتسامات مقاربة للهستيريا، بقي ماجد دون تعابير، وجهه صفحة لم يُكتب عليها.

"ليس لديك ما تقوله؟ هذه الأنباء لا تفاجئك؟"

قال ماجد بعد وقفة: "لماذا لا تقنعهم يا أبي؟ كثيرون منهم يحترمونك. أنت محترم في الجماعة. أقنعهم".

"لأنني لا أوافق على ما يفعلونه، على الرغم من كل جنونهم. لا يمتلك تشالفن ماركوس حقًا... لا حق كي يعمل ما يعمله. هذا ليس عمله، هذا عمل الله. إذا تدخلت في الكائن، في طبيعة الكائن ذاتها، حتى ولو كان فأرًا، فأنت تدخل في الحقل الذي هو حقل الله، أي الخلق. تريد أن تستنتج أن أعجوبة خلق الله يمكن أن تُحسَّن، هذا مستحيل. إن ماركوس تشالفن يفترض، يتوقع أن

تتم عبادته في حين أي شيء في الكون يستحق العبادة هو الله. وأنت مخطئ في مساعدته. حتى ابنه تخلى عنه. وهكذا" - قال صمد، غير قادر على كبح ملكة الدراما عميقًا داخل روحه - "يجب أن أتخلى عنك".

قال أرشيبالد، مقتربًا من الطاولة وممررًا الصحن: "آه، الآن، واحد رقاقات بطاطا وفاصولياء وبيض وفطر لك، يا رجلي الجيد سامي، وأومليت واحدة وفطر لي..."

قال ميكي، الذي ألح على تحطيم 15 سنة من التقاليد في إحضار صحن بنفسه: "وسندويشة لحم خنزير واحدة للأستاذ الشاب".

"لن يأكل هذا على طاولتي".

بدأ آرشي: "آه، هيا يا صمد. امنح الشاب فرصة".

حك ميكي جبهته: "ما هذا، هل صرنا أصوليين في آخر عمرنا؟"

"قلت..."

"كما تريد يا أبي"، قال ماجد، بالابتسامة نفسها التي تثير الغضب والتي هي من الصفح التام. أخذ صحنه من ميكي وجلس على الطاولة المجاورة مع كلارينس ودينزل.

رحب به دينزل بابتسامة: "كلارينس، انظر. إنه الأمير الشاب الذي يرتدي الملابس البيضاء. سألعب الدومينو، فقط أنظر في عينيه وأعرف أنه يلعب الدومينو. أنا خبير".

قال ماجد: "هل يمكن أن أطرح عليك سؤالًا؟"

"أكيد، هيا".

"هل تعتقد أنني يجب أن ألتقي مع أخي؟"

"لا أظن أنني أستطيع أن أقول لك"، أجاب دينزل بعد برهة تفكير وضع بعدها مجموعة من خمس قطع من الدومينو.

قال كلارينس بحذر: "سأقول إنك تبدو كشاب يستطيع أن يتخذ قراره".

"هل أبدو؟"

استدار ماجد إلى طاولته السابقة، حيث كان والده يحاول جاهدًا تجاهله، وآرشي كان يلعب بالأومليت الخاصة به.

"أرشيبالد! هل يجب أن ألتقي مع أخي أم لا؟"

نظر آرشي بشعور بالذنب إلى صمد ثم إلى صحنه.

"أرشيبالد، هذا سؤال مهم جدًا. هل يجب أم لا؟"

قال صمد بحدة: "هيا، أجبه. هذا إذا كان يريد النصيحة من الحمقى العجائز ومن رجل يعرفه من خلال والده، دعه يحصل عليها إذًا. حسنًا؟ هل يجب؟"

تشنج آرشي: "حسنًا... لا أستطيع... أعني، لست أنا من يقرر، أفترض أنه إن كان يريد... لكن ثانية، إن كنت لا تعتقد..."

ضرب صمد صحن آرشي بقبضته بقوة فتناثر البيض على الأرض.

"اتخذ قرارًا يا أرشيبالد لمرة واحدة في حياتك المثيرة للشفقة، اتخذ قرارًا".

قال آرشي مادًا يده إلى جيبه كي يخرج قطعة عشرين بنسًا: "إذا أتت نقشًا نعم وإذا جاءت طرة لا، مستعدون؟" ارتفعت قطعة النقد وسقطت كما ستفعل قطعة النقد كل مرة في عالم تام، متلألئة بضوئها ثم كاشفة ظلامها مرات كافية كي تجعل الرجل مسمّرًا، ثم في نقطة ما من صعودها المنتصر بدأت تتقوس، وحدث خطأ في التقوس، وأدرك أرشيبالد أنها غير آتية إليه مطلقًا بل ذاهبة خلفه، بعيدًا خلفه، واستدار مع الآخرين كي يراقبها تكمل دورانًا رشيقًا نحو آلة البنبول وتدخل في شقها وعلى الفور أضيء الوحش العجوز الضخم وانطلقت الكرة وبدأت مسارها الفوضوي الصاخب حول متاهة من الأبواب المتأرجحة والمضارب الآلية والأنابيب والأجراس ذات الرنين إلى أن اختفت ساقطة في الثقب البالع دون تدخّل من أحد.

قال أرشيبالد، وقد بدا مسرورًا: "اللعنة! ما هي فرص هذا؟"

*****

مكان حيادي. إن الفرص في العثور على مكان حيادي هذه الأيام محدودة جدًا، وربما أكثر محدودية من خدعة آرشي مع آلة البنبول. إن كمية البراز التي

يجب أن تُمسح من اللائحة إذا كنا سنبدأ من جديد كبيرة: السلالة والأرض والملكية والإيمان والسرقة والدم والمزيد من الدم، والمزيد. ويجب ألا يكون المكان حياديًا فقط، بل الرسول الذي يأخذك إلى المكان، والرسول الذي يرسل الرسول. لكن لم يعد هناك أشخاص أو أمكنة كهذه في شمال لندن. وفعلت جويس ما بوسعها بما كان لديها. أولًا ذهبت إلى كلارا، وفي مكان تعليم كلارا الحالي، وهي جامعة من الآجر الأحمر في الجنوب الغربي، قرب نهر التيمز، كانت هناك غرفة تستخدمها للدراسة في بعد ظهر أيام الجمعة، وقد أعارها أستاذ جيد مفتاحها، وكانت الغرفة دومًا شاغرة بين الثالثة والسادسة وتحتوي على لوح أسود وعدة طاولات وبعض الكراسي ومصباحين وبروجكتور فوق الرأس وخزانة ملفات وكمبيوتر. لا شيء أقدم من 12 سنة. وكان بوسع كلارا أن تؤكد ذلك. تأسست الجامعة منذ 12 سنة، وبنيت على أرض خراب، لا في أراضي دفن هندية، ولا على جسور رومانية، ولا سفينة فضاء مدفونة لسكان الكواكب الأخرى، ولا أساسات لكنيسة اندثرت منذ وقت طويل، بقدر ما يمكن أن يكون المكان الحيادي حياديًا. أعطت كلارا المفتاح لجويس وجويس أعطته لآيري.

"لكن لماذا أنا؟ أنا لست متورطة".

"بالضبط يا عزيزتي. أنا متورطة جدًا. لكنك تامة. لأنك تعرفينه ولكنه لا يعرفك" - قالت جويس بغموض وأعطت آيري معطفها الشتوي الطويل، وقفازًا وقبعة من قبعات ماركوس عليها زركشة مضحكة في الأعلى- "ولأنك تحبينه، على الرغم من أنه لا يحبك".

"نعم، شكرًا يا جويس. شكرًا لتذكيري".

"الحب هو السبب يا آيري".

كانت آيري تقف على عتبة باب تشالفن تراقب نَفَسَها القوي في هواء الليل القارس: "كلا يا جويس، إن الحب ليس سببًا، إنه كلمة من أربعة أحرف (بالإنكليزية) تبيع تأمين الحياة وملطّف الشعر. إن البرد رهيب في الخارج، تدينين لي بواحدة".

"الجميع مدين للجميع"، وافقت جويس وأغلقت الباب.

خرجت آيري إلى الشوارع التي كانت تعرفها طيلة حياتها، وسارت على طريق سلكته مليون مرة. لو سألها أحد ما آنذاك: ما الذاكرة؟ ما هو التعريف الدقيق لها؟ لأجابته: الشارع الذي كنت فيه حين قفزت لأول مرة على كومة من الأوراق الذابلة. كانت تسير فيه الآن. ومع كل دوسة بالقدم تأتي ذكرى دوسات سابقة تتخللها روائح مألوفة: نشارة الخشب المبللة والحصى حول قاعدة الشجرة. أثارتها هذه الإحساسات. وعلى الرغم من اختيارها لحياتها كطبيبة أسنان، لم تفقد بعد كل الشِّعر داخل روحها، لا تزال تمتلك اللحظة البروستية (177) الغريبة، تسجل طبقات فوق طبقات، على الرغم من أنها غالبًا ما جربتها مع مصطلحات أمراض اللثة. انتابها ألم، كما يحدث في سن حساس أو "وجع في الوجه" حيث يكون العصب مكشوفًا، شعرت بألم وهي تسير عابرة المرآب، حيث كانت تمر هي وميلات في سن الثالثة عشرة، مررا مائة وخمسين بنسًا على الكاونتر مسروقين من طامورة إقبال في محاولة يائسة لشراء علبة سجائر. شعرت بألم (كمثل سوء الإطباق، ضغط سن على آخر) حين مرت في الحديقة حيث ركبا الدراجات حين كانا طفلين، وحيث دخنا سيجارة الماريجوانا الأولى، وحيث قبلها مرة في وسط العاصفة. وتمنت آيري لو أنها تستطيع منح نفسها لتلك الخيالات الماضية الحاضرة: تخوض فيها، تجعلها أكثر عذوبة وأطول وخاصة القبلة. لكن كان في يدها مفتاح بارد ويحيط بحيواتها ما هو أغرب من الخيال وأكثر إضحاكًا من الخيال وأقسى من الخيال وعواقب لا يمكن أن يحتوي عليها الخيال. ولم ترد أن تتورط في القصة الطويلة لتلك الحيوات، لكنها كانت متورطة، ووجدت نفسها مجرورة إلى الأمام من شعرها إلى حل عقدتها على الطريق السريع: مالي للكباب، محل تشيونجز، راجز، مخبز مالكوفيتش، تستطيع أن تردد أسماء هذه المحلات وهي معصوبة العينين، ثم سارت تحت جسر روث الحمام وعلى ذلك الطريق الواسع الذي يؤدي إلى حديقة جلادستون كما لو أنه يصب في محيط أخضر. كان بوسعها أن تغرق في ذكريات كهذه لكنها حاولت أن تسبح خارجها.

قفزت فوق الحائط الصغير الذي يحف بمنزل عائلة إقبال، كما فعلت مليون مرة، ورنت جرس الباب. الماضي البسيط، المستقبل غير التام.

في الطابق العلوي، في غرفته، أمضى ميلات الخمس عشرة دقيقة الأخيرة محاولًا أن يفهم تعليمات الأخ هيفان حول عملية السجود (منشور: العبادة الصحيحة).

السجدة: السجود. في السجود يجب أن تكون الأصابع مضمومة، تشير نحو القبلة في تواز مع الأذنين، ويجب أن يكون الرأس بين اليدين. ومن الصعب وضع الجبهة على شيء نظيف كالحجر وبعض التراب والخشب والقماش. وقال الفقهاء إنه من الواجب وضع الأنف في الأسفل أيضًا. ولا يجوز وضع الأنف فقط على الأرض دون عذر جيد. ومن المكروه وضع الجبين فقط على الأرض، يجب أن تقول في السجود: سبحان ربي الأعلى على الأقل ثلاث مرات. ويقول الشيعة إنه من الأفضل القيام بالسجدة على آجر مصنوع من طين كربلاء، وإنه فرض أو واجب وضع القدمين أو على الأقل الإصبع الكبير لكل قدم على الأرض. وهناك أيضًا بعض الفقهاء الذين يقولون إن هذه سنّة، أي إذا لم توضع القدمان على الأرض، فإن الصلاة إما لن تقبل أو ستصبح مكروهًا. وإذا حصل أثناء السجود ورفع الجبين أو الأنف أو القدمين عن الأرض لبرهة قصيرة، فإنه لا ضرر في هذا، ففي السجود تقتضي السنّة أن تحني أصابع القدمين وتديرها نحو القبلة، وهذا مكتوب في كتاب "رد المحتار" إن أولئك الذين يقولون...

وصل إلى هنا، وبقيت ثلاث صفحات. وكان عرقه باردًا من محاولة تذكر كل ما كان حلالًا وحرامًا، فرضًا أو سنة، محرمًا كثيرًا ومحرمًا بدرجة أقل. محتارًا، مزق قميصه، وربط سلسلة من الأحزمة في زوايا حول الجزء العلوي المكشوف من جسمه، ووقف أمام المرآة ومارس روتينًا أكثر سهولة، واحدًا كان يعرف تفاصيله الحميمة:

هل تنظر إلي؟ تنظر إلي؟
حسنًا، إلى من تنظر أيضًا؟
لا أرى أحدًا هنا
أنت تنظر إلي.

كان في وسط الأمر، كاشفًا مسدساته المائلة اللامرئية وسكاكينه عند باب الخزانة، حين دخلت آيري.

قالت آيري وهي واقفة هناك بخجل: "أبحث عنك".

بسرعة وهدوء شرحت له عن المكان الحيادي وعن الموعد وعن الوقت وقامت بتوسلها الشخصي من أجل التسوية والسلام والحذر (كان الجميع يفعلون هذا) ثم اقتربت ووضعت المفتاح البارد في يده الدافئة، وتقريبًا دون أن تقصد هذا لمست صدره، تمامًا في النقطة بين حزامين حيث قلبه، المحصور بالجلد، يخفق بشدة كما شعرت به في أذنها. مفتقرة إلى التجربة في هذا المجال، كان من الطبيعي أن تظن آيري أن الخفقات التي تأتي مع حصر الدم عاطفة مشتعلة. بالنسبة لميلات، مر وقت طويل منذ أن لمسه أحد أولمس هو أحدًا ما. أضف إلى ذلك لمسة الذاكرة، لمسة عشر سنوات من الحب غير المتبادل، لمسة تاريخ طويل طويل: كانت النتيجة حتمية.

وقبل أن يمر وقت طويل تورطت أذرعهما، وتورطت سيقانهما، وتقلبا على الأرض، وتورطت أعضاؤهما (كان منتصبًا كي يتورط أكثر من هذا) ومارسا الحب

على سجادة الصلاة. ولكن كما بدأت الأمور فجأة وبشكل محموم انتهت، أفلتا بعضهما في رعب لأسباب مختلفة، قفزت آيري إلى الخلف في كومة عري عند الباب مرتبكة وشاعرة بالخجل لأنها استطاعت أن ترى كم ندمت على ذلك كثيرًا، وميلات أمسك بسجادة صلاته وأشار بها نحو الكعبة، متأكدًا أنها ليست أعلى من مستوى الأرض وغير متوضعة على كتب أو أحذية، أصابعه مطبقة ويشير إلى القبلة في تواز مع أذنيه، متأكدًا أن كلًا من جبينه وأنفه يلمسان الأرض، وبقدمين على الأرض بشكل ثابت لكنه تأكد أن أصابع القدمين غير محنية، وكان ساجدًا باتجاه الكعبة، لكن ليس من أجل الكعبة، بل من أجل الله تعالى لوحده. تأكد أنه فعل كل هذه الأشياء بشكل متقن، بينما بكت آيري، لبست ثيابها ورحلت. تأكد من أنه فعل كل تلك الأمور بشكل متقن لأنه كان يعتقد أنها كانت فرضًا وأن "من يريد تغيير العبادات يصبح كافرًا (منشور: الصراط المستقيم).

*****

لا غضب في الجحيم أشد من غضب[178]... إلخ إلخ. غادرت آيري بوجه حام منزل إقبال وتوجهت مباشرة إلى منزل آل تشالفن والانتقام في ذهنها. لكن ليس من ميلات، بل بالأحرى دفاعًا عن ميلات، ذلك أنها كانت المدافعة عنه دومًا، فارسته السوداء كالليل. وكما ترون، لم يكن ميلات يحبها. واعتقدت أن ميلات لم يحبها لأنه لا يستطيع. اعتقدت أنه معطوب، لا يستطيع أن يحب أحدًا بعد الآن. أرادت أن تعثر على من آذاه هكذا، بشكل مريع، أرادت العثور على من جعله غير قادر على أن يحبها.

هذا شيء مضحك عن العالم الحديث. تسمع فتيات في مراحيض الأندية يقلن: نعم رحل وتركني. لم يكن يحبني، فقط لا يستطيع التعامل مع الحب، كان فاقدًا للعقل بحيث لا يستطيع أن يحبني. الآن، كيف حدث هذا؟ هل كان يتعلق بهذا القرن الذي لا يُحب الذي أقنعنا على الرغم من كل شيء أننا نُحب بشكل واضح كبشر، كنوع؟ ما الذي جعلنا نفكر بأن أي شخص يفشل في

الحب معطوب وتنقصه أمور، ومعطل بطريقة ما؟ وخاصة إذا استبدلونا برب أو مادونا باكية أو جه المسيح على لفافة سياباتا (خبز إيطالي)، حينها نلقبهم بالمجانين أو المخدوعين أو المنكفئين. نحن مقتنعون جدًا بأننا جيدون، وبأن حبنا جيد، ولا نستطيع تحمل الاعتقاد بوجود شيء ما يستحق الحب أكثر منا، ويستحق العبادة أكثر. إن بطاقات البريد تخبرنا بشكل روتيني بأن الجميع يستحقون الحب. كلا. الجميع يستحقون مياهًا نظيفة، لا يستحقون الحب طيلة الوقت.

لم يحب ميلات آيري، وكانت آيري متأكدة أنه يجب أن يكون هناك أحد ما تستطيع لومه على هذا. بدأ دماغها يتكتك. ما السبب الأصلي لمشاعر ميلات غير السوية؟ ماجد. كان الثاني في الولادة بسبب ماجد. كان الولد الأقل بسبب ماجد.

فتحت جويس الباب لها وتقدمت آيري مباشرة نحو الطابق العلوي، مصممة بشكل ماكر على جعل ماجد الولد الثاني لمرّة واحدة، هذه المرة لخمس وعشرين دقيقة. أمسكته، قبلته ومارست الجنس معه بغضب وعنف، دون محادثة أو عاطفة. دحرجته ولعبت بشعره وحفرت بأظافرها في ظهره وحين قذف، استمتعت بإشباع من أن هذا حدث بتنهيدة خفيفة كما لو أن شيئًا أُخذ منه. لكنها أخطأت في أنها ظنت بأن هذا نصر، لأنه عرف على الفور أين كانت، ولماذا هي هنا، وهذا أحزنه. استلقيا لوقت طويل معًا صامتين وعاريين واختفى ضوء الخريف من الغرفة مع كل دقيقة مرت.

قال ماجد أخيرًا حين صار القمر أكثر وضوحًا في السماء: "يبدو لي أنك حاولت أن تحبي رجلًا كما لو كان جزيرة وقد تحطمت سفينتك ويمكنك أن تعلمي اليابسة بإشارة إكس. يبدو لي أن الوقت متأخر جدًا في النهار لكل هذا".

ثم قبلها على جبينها قبلة جعلتها تشعر بأن هذا تعميد وبكت كطفلة.

*****

الثالثة بعد الظهر، 5 تشرين الثاني\نوفمبر 1992. التقى الشقيقان (أخيرًا) في غرفة فارغة بعد فراق ثماني سنوات واكتشفا أن جيناتهما، أنبياء المستقبل،

وصلت إلى نتيجتين مختلفتين. ذهل ميلات من الفروق: الأنف وخط الفك والعينان والشعر. أخوه غريب عنه وقال له هذا.

قال ماجد بنظرة ماكرة: "فقط لأنك تريدني هكذا".

لكن ميلات فظ، غير مهتم بالألغاز، ويطرح سؤاله ويجيب عليه دفعة واحدة: "وهكذا أنت تقوم بالأمر، أليس كذلك؟"

هز ماجد كتفيه: "ليس الوقت للتوقف أو البداية يا أخي، لكن نعم، أنوي المساعدة حيث أستطيع. هذا مشروع عظيم".

"هذا رجس". (منشور: قداسة الخلق).

سحب ميلات كرسيًا من إحدى الطاولات وجلس عليها مستندًا إلى الخلف كسرطان في مصيدة، مباعدًا ما بين ساقيه وذراعيه.

"أرى الأمر كتصحيح لأخطاء الخالق".

"الخالق لا يرتكب أخطاء".

"وهكذا تقصد المواصلة؟"

"أنت مصيب".

"وهكذا أنا".

"حسنًا، هذا هو الأمر إذًا، أليس كذلك؟ قُرر الأمر مسبقًا. ستفعل كيفن كل ما هو ضروري لإيقافك أنت ونوعك. وهذه نهاية الأمر".

لكن بعكس فهم ميلات، لم يكن هذا فيلمًا وليست له نهاية، كما ليست له بداية. وبدأ الشقيقان بالجدل الذي تفاقم للحظات وسخرا من تلك الفكرة، المكان المحايد، وبدلًا من ذلك غطيا الغرفة بالتاريخ: الماضي والحاضر والمستقبل (ذلك أنه يوجد شيء كهذا): أخذا ما هو فارغ ولطخاه بالبراز المنتن للماضي كطفلين مهتاجين ومتبرزين، غطيا هذه الغرفة الحيادية بنفسيهما، بجميع الأوجاع والذكريات الأولى والمبادئ التي نوقشت والمعتقدات التي جرى جدل حولها.

رتب ميلات الكراسي كي يجسد رؤية النظام الشمسي الموصوفة بوضوح

وبشكل لافت في القرآن، قبل قرون من العلم الغربي. (منشور: القرآن والكون) ورسم ماجد أرض التمرد الخاصة ببالندي على لوح وأعاد بشكل تفصيلي بناء العبور الممكن للرصاص، وعلى اللوح الآخر رسم خطًا بيانيًا جسّدَ إنزيمًا مقيدًا يمر بأناقة عبر تتابع من النكليوتيدات، واستخدم ميلات الكمبيوتر كتلفزيون، والطباشير المطاطي كصورة لماجد والعنزة، ثم فرديًا جسّد كل العجائز المرتّلين، وجميع عمات وخالات الأب والأم وأبنائهم المحاسبين الذين جاؤوا ذلك العام من أجل العمل التجديفي ألا وهو عبادة أيقونة، واستفاد ماجد من البروجكتور العلوي كي يضيء مقالة كتبها هو متناولًا أخاه نقطة نقطة خلال هذه المجادلة، مدافعًا عن براءات اختراع الكائنات المعدلة وراثيًا، واستخدم ميلات خزانة الملفات كبديل لأخرى احتقرها، وملأها بالرسائل المتخيلة بين عالم يهودي ومسلم غير مؤمن، ووضع ماجد ثلاثة كراسي معًا وأشعل المصباحين والآن هناك شقيقان في سيارة يرتجفان وبعد أن اجتمعا معًا بضع دقائق انفصلا إلى الأبد وانطلقت طائرة ورقية محلقة.

واصلت التحليق.

وذهبت كي تبرهن ما قيل عن المهاجرين مرات كثيرة قبل الآن: إنهم واسعو الحيلة، وقادرون على الاستمرار بما لديهم. ويستخدمون ما يقدرون عليه حين يقدرون.

*****

نتصور في معظم الأحيان أن المهاجرين يتحركون باستمرار وقادرون على تغيير المسار في أية لحظة، ويستطيعون توظيف حذقهم الأسطوري عند كل منعطف. وقيل لنا عن حذق السيد شمترز، أو حرية التنقل لدى السيد بانآجي، اللذين أبحرا إلى جزيرة إليس أو دوفر أو كاليس ودخلا إلى أراضيها الأجنبية كشخصين ليس لديهما شيء، متحررين من أي نوع من المتاع، سعيدين وراغبين بأن ينسيا الخلاف فيما بينهما على رصيف المرفأ ويستغلا فرصهما في هذا المكان

الجديد، مختلطين في وحدة أرض الأحرار الخضراء والظريفة والمتحررة هذه.

سلكا أي طريق قدم نفسه، وإذا حدث وكان مسدودًا فإن السيد شمترز والسيد بانآجي كانا يسلكان طريقًا آخر عبر الأرض السعيدة ذات الثقافات المتعددة. حسنًا، هذا جيد لهما. لكن ماجد وميلات لم يستطيعا القيام بهذا. غادرا الغرفة المحايدة كما دخلاها، مثقلين ومحملين بالأعباء وغير قادرين على التزحزح عن مسارهما أو أن يغيرا بأية طريقة مساريهما المنفصلين والخطيرين. بدا كأنهما لم يحرزا أي تقدم. إن النزّاع إلى الشك يمكن أن يقول إنهما لم يتحركا مطلقًا، أن ماجد وميلات هما اثنان من سهام زينون اللعينة، يحتلان الفراغ موازيين لبعضهما، والأمر الأكثر إخافة أنهما موازيان لسهم مانغال باندي وموازيان لسهم صمد إقبال. إنهما شقيقان عالقان في مصيدة اللحظة الزمنية الفورية، شقيقان يجهضان جميع المحاولات لوضع تواريخ لهذه القصة، ولرصد الأشخاص وتقديم الأوقات والأيام، لأنه لا يوجد، ولم يكن ولن يكون هناك أبدًا أية فترة. وفي الحقيقة لا شيء يتحرك ولا شيء يتغير. إنهما ثابتان. مفارقة زينون [179].

لكن ما دور صفقة زينون هنا. (الجميع لديهم صفقات)، ماذا كانت وجهة نظره؟ ثمة الكثير من الآراء التي تقول إن مفارقاته هي جزء من برنامج روحي أكثر عمومية. من أجل:

1- أولًا تأسيس التعدد، الكثرة، كوهم، و...

2- ...هكذا يبرهن أن الواقع كل متواصل ومتدفق، واحد غير قابل للفصل.

لأنك إذا استطعتَ تقسيم الواقع بلا كلل إلى أجزاء، كما فعل الشقيقان في ذلك اليوم وفي تلك الغرفة، فإن النتيجة هي مفارقة غير قابلة للدعم. أنت دومًا ثابت، لا تتحرك إلى أي مكان، لا يوجد تقدم.

لكن التعددية ليست وهمًا، ولا السرعة التي يندفع بها أولئك الذين في المصهر الذي يجيش نحوها، هذا إذا وضعنا المفارقات جانبًا. إنهم يركضون، كما كان أخيل يجري. وسيسبقون الذين ينكرونها كما سيسبق أخيل تلك السلحفاة [180].

نعم، يمتلك زينون وجهة نظر، أراد الواحد لكن العالم كثرة، وعلى الرغم من ذلك إن تلك المفارقة مغرية. وكلما حاول أخيل أن يلحق بالسلحفاة باذلًا جهدًا أكبر، عبّرت السلحفاة بشكل أوضح عن تفوقها. وعلى نحو مشابه، سيندفع الشقيقان نحو المستقبل كي يكتشفا فقط أنهما يعبران بشكل أكثر وضوحًا عن ماضيهما، المكان الذي كانا فيه لتوهما، لأن هذا هو الأمر الآخر عن المهاجرين (اللاجئون والمهاجرون والمسافرون)، إنهم لا يستطيعون الهرب من تاريخهم مثلما لا تستطيع أن تفقد ظلك.

18

نهاية التاريخ والإنسان الأخير

"انظروا حولكم! ماذا ترون؟ ما نتيجة هذه التي تُدعى ديمقراطية والتي تُدعى حرية؟ الظلم والاضطهاد والذبح. أيها الأخوة، تستطيعون أن تشاهدوا ذلك على التلفزيون القومي كل يوم، كل مساء، كل ليلة. الفوضى، اللانظام، التشوش. لا يشعرون بالخجل ولا بالحرج ولا يعون ذاتهم. ولا يحاولون أن يخفوا أو يخبئوا أو يموّهوا. ويعرفون كما نعرف: إن العالم كله مضطرب. وفي كل مكان ينغمس البشر في الشهوانية والعهر والفجور والرذيلة والفساد والتمتع. إن العالم كله متأثر بمرض اسمه الكفر: رفض وحدانية الخالق، رفض الاعتراف بالبركات اللانهائية للخالق. وفي هذا اليوم، الأول من كانون الأول\ديسمبر 1992، أشهد أنه ليس هناك شيء يستحق العبادة إلا الخالق الذي لا شريك له. في هذا اليوم يجب أن نعرف أن كل من هداه الله لا يضل وكل من ينحرف عن الصراط المستقيم لن يعود إلى الصراط المستقيم حتى يهديه الله بنوره. سأبدأ الآن محاضرتي الثالثة والتي سأسميها "الحرب الإيديولوجية"، وهذا يعني، كما سأوضح للذين لا يفهمونها، حرب هذه الأشياء... هذه الإيديولوجيات، ضد أخوة كيفن... الإيديولوجيا تعني نوعًا من غسل الدماغ... ويتم تلقيننا والضحك علينا وغسل أدمغتنا. يا أخوتي! وهذا ما سأحاول أن أوضحه وأشرحه وأبيّنه..."

على الرغم من أنه لن يعترف أحد في الغرفة بالأمر لم يكن الأخ إبراهيم الدين شكرالله خطيبًا عظيمًا، حين تفكر بالأمر، حتى لو أغْفلت عادة استخدام ثلاث كلمات حيث تكفي واحدة، والتشديد على الكلمة الأخيرة لثلاثيات كهذه بتصريفاته الكاريبية، حتى لو تجاهلت هذا كما فعل الجميع، فقد كان أيضًا مخيبًا للأمل جسديًا. كانت له لحية صغيرة هزيلة، ومظهر محدب ومخزون من الإيماءات المتوترة السخيفة ونظرة غامضة كنظرة سيدني بواتييه لم تنجز الشبه تمامًا للحصول على أي احترام جدي. وكان قصيرًا. وفي هذه النقطة شعر ميلات بأنه خُذل. وكان هناك سخط ملموس في الصالة حين أنهى الأخ هيفان خطابه التعريفي الطويل وعَبَرَ الأخ إبراهيم الدين شكرالله الذائع الصيت والقصير جدًا الغرفة إلى المنبر. لا يعني هذا أن أي شخص يريد أن يكون الفقيه طويلًا كالبرج، أو أن يوحي للحظة أن الخالق لم يجعل الأخ إبراهيم الدين شكرالله بالطول الذي اختاره هو بكل حضوره المقدس. وحين يقوم الأخ هيفان بخفض مكبر الصوت بارتباك ويمط الأخ ابراهيم نفسه مرتبكًا كي يصل إليه، لا يستطيع المرء الامتناع عن التشديد بأسلوب الأخ نفسه على الكلمة الثالثة: خمسة أقدام وخمس بوصات.

كانت مشكلة الأخ إبراهيم الدين شكرالله، وربما مشكلته الأكبر، هي حبه الكبير للحشو. وعلى الرغم من أنه يعد بالشرح والتوضيح والتبيين، فإنه لغويًا يضع المرء في حالة عطالة ذهنية: "الآن هناك أنماط كثيرة من الحرب... سأسمي بعضها. إن الحرب الكيماوية هي الحرب التي يقتل فيها البشر بعضهم كيماويًا، الحرب بأسلحة مادية والتي يقتل فيها البشر بعضهم جسديًا، ثم هناك الحرب الجرثومية والتي فيها شخص يعرف أنه مصاب بالإيدز ويذهب إلى البلاد وينشر منيه في نسائها الفاسقات ويسبب حربًا جرثومية. أما الحرب النفسية، الأكثر شرًا، فهي الحرب التي يحاولون فيها أن يهزموك نفسيًا، وتدعى هذه الحرب النفسية. لكن الحرب الإيديولوجية، وهي الحرب السادسة، فهي أسوأ حرب...

على الرغم من كل ذلك لم يكن الأخ إبراهيم الدين شكرالله أقل من مؤسس

كيفن، وهو رجل يتمتع بنفوذ ذائع الصيت. ولد في مونتي كلايد في باربادوس سنة 1960 لوالدين فقيرين حافيي القدمين وكحوليين من أتباع الكنيسة المشيخية، لكنه اعتنق الإسلام بعد أن أتته "رؤيا" في سن الرابعة عشرة. وفي سن الثامنة عشرة هرب من الخضرة الغنية لوطنه إلى الصحراء المحيطة بالرياض والكتب المصفوفة على جدران مكتبة جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية. وهناك درّس اللغة العربية لمدة خمس سنوات، وتحرر من أوهام كثيرة للمؤسسة الفقهية الإسلامية، وعبّر عن احتقاره أول مرة لما دعاه "بالعلمانيين الدينيين" أولئك الفقهاء الحمقى الذين يحاولون فصل السياسة عن الدين. وآمن أن كثيرًا من الحركات السياسية الراديكالية الحديثة ذاتَ صلة بالإسلام، وفضلًا عن ذلك يمكن أن توجد في القرآن إذا تمعّن المرء بما يكفي. وألّف عدة نشرات حول هذه المسألة، واكتشف أن آراءه الراديكالية غير مرحّب بها في الرياض. واعتُبر مُسبّبًا للمشاكل وهُدد بالقتل مرات كثيرة، لا تُحصى ولا تعد. وهكذا في 1984، راغبًا بمواصلة دراسته، جاء الأخ إبراهيم إلى إنكلترة، حبس نفسه في مرآب عمته في برمنغهام وأمضى خمس سنوات هناك وليس معه إلا القرآن ومَلازم كتاب "النعيم الأبدي". وكان يتلقّف طعامه من خلال فتحة القطة ويضع برازه وبوله في علبة بسكويت ويمررها بالطريقة نفسها، وقام بتمارين رياضية روتينية ليحمي نفسه من الضمور العضلي. وكتب الصحفي سيلي أوك عناوين عنه أثناء تلك الفترة، مثل "المعلّم في المرآب" (ومن وجهة نظر السكان المسلمين ذوي العدد الضخم في برمنغهام كانت هذه فكرة مفضلة على الاقتراح المفضل للصحافة، "المعتوه في السجن") واستمتعوا بمقابلة عمته كارلين بنجامين، العضو المكرس لكنيسة يسوع المسيح للقديسين الحديثين.

كتب تلك المقالات القاسية والساخرة والمسيئة نورمان هنشال وصارت كلاسيكية، ووُزّعت بين أعضاء كيفن في كل أنحاء إنكلترة كمثال (إذا كانت هناك حاجة للأمثلة) على العنصر الخبيث المضاد لكيفن في الصحافة حتى في هذه المرحلة الجنينية لحركتهم. "انتبهوا (نُصح أعضاء كيفن) انتبهوا كيف تنتهي مقالات

هنشال حتى أيار 1987، الشهر نفسه الذي نجح فيه الأخ إبراهيم الدين شكرالله في تحويل عمته كارلين إلى الإسلام من خلال فتحة القطة دون أن يستخدم أي شيء سوى الحقيقة المحضة كما نقلها خاتم الأنبياء محمد (عليه الصلاة والسلام). انتبهوا كيف يغفل هنشال ذكر صفوف الناس الذين جاؤوا كي يتحدثوا مع الأخ إبراهيم الدين شكرالله، وكانوا كثيرين بحيث وقفوا في صفوف طويلة حول مركز سيلي أوك، من فتحة القطة إلى قاعة لعبة البنجو. انتبهوا إلى امتناع هينشال نفسه عن نشر 637 قاعدة وقانونًا منفصلًا والتي أمضى الأخ خمس سنوات وهو يجمعها من القرآن (مرتبًا لها بحسب شدتها ثم في مجموعات فرعية بحسب طبيعتها، أي حول النظافة والعضو المحدد والنظافة الفموية). لاحظوا كل هذا يا أخوة وأخوات، ثم تعجبوا من قوة كلمة الفم. تعجبوا من الإخلاص والالتزام لدى شبان برمنغهام".

كانت لهفتهم وحماستهم لافتتين وفائقتين للعادة ومميزتين ولا سابق لهما بحيث تقريبًا قبل أن يخرج الأخ من مختلاه ويعلنها بنفسه، ولدت فكرة كيفن داخل الجماعة السوداء والآسيوية. وكانت حركة راديكالية جديدة، السياسة والدين وجهان لعملة واحدة فيها. وقد أخذت الحركة بحرية من الجارفية [181]، حركة ماركوس جارفي، وحركة الحقوق المدنية الأميركية وفكرة إليجا محمد [182]، لكنها بقيت متقيدة بالتفسير الحرفي للقرآن، تحت اسم المحافظين على الأمة الإسلامية الأبدية والمنتصرة. وفي 1992 كانوا مجموعة صغيرة لكنها واسعة الانتشار، أعضاؤها في إدنبرة ولاندز إند وقلبها في سيلي أوك وروحها في منطقة الطريق السريع في كلبرن. وكانت كيفن فصيلًا متطرفًا مكرسًا للفعل المباشر والعنيف، جماعة متناثرة لا ترضى عليها بقية الجماعة الإسلامية، ومشهورة بفئتها العمرية بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين، ويُخشى منها ويُسخر في الصحافة، وقد اجتمع أعضاؤها الليلة في قاعة كلبرن واقفين على الكراسي ومحتشدين على الروافد، مصغين لخطاب مؤسس الجماعة.

واصل الأخ إبراهيم وهو ينظر لمدة وجيزة إلى ملاحظاته: "هناك ثلاثة أشياء

تريد القوى الاستعمارية منكم أن تفعلوها يا أخوة كيفن. أولًا، يرغبون بقتلكم روحيًا...آه نعم، إن أهم شيء بالنسبة لهم هو أن يستعبدوكم ذهنيًا. هناك الكثير منكم كي يقاتل بالأيدي! لكن إذا حصلوا على أذهانكم، فإذًا..."

حاول رجل سمين أن يهمس: "هيْ، أخ ميلات".

كان محمد حسين إسماعيل اللحام. كان يتعرق بغزارة وشق طريقه بالقوة عبر الصف الطويل من الناس كي يجلس إلى جانب ميلات، بينهما علاقة قربى بعيدة، وفي هذه الأشهر القليلة الماضية اقترب محمد بسرعة من الدائرة الداخلية لكيفن (هيفان، ميلات، تايرون، شيفا، عبدل كولن وآخرون) بفضل النقود التي تبرع بها ورغبته المعلنة في الجوانب الأكثر "عملية" للجماعة. وكان ميلات لا يزال مشتبهًا به واعترض على وجهه الكبير الملطخ باللعاب وخصلة الشعر الكبيرة التي تخرج من قبعته، ومن نَفَسه الذي تفوح منه رائحة الفروج.

"تأخرت. كان يجب أن أغلق الحانوت. لكنني كنت أقف في الخلف لمدة وأنا أصغي، إن الأخ إبراهيم رجل مثير للإعجاب. أليس كذلك؟"

"نعم".

كرر محمد رابتًا على ركبة ميلات بشكل تآمري: "مثير للإعجاب جدًا، أخ مثير للإعجاب جدًا". ساهم محمد حسين في تمويل جولة الأخ إبراهيم في أنحاء إنكلترة وكان من مصلحته أن يجد الأخ مثيرًا للإعجاب، أو على الأقل جعله هذا يشعر بشكل أفضل حيال التبرع بحوالي ألفي جنيه. انضم مو مؤخرًا إلى كيفن (كان مسلمًا جيدًا لمدة عشرين عامًا)، وحماسه للجماعة كان ذا حدين: أولًا شعر بالإطراء فحسب، بكل ما في الكلمة من معنى، بعد أن اعتُبر رجل أعمال مسلمًا ناجحًا بسبب دفعه للنقود. وفي الظروف العادية كان يقودهم إلى الباب وإلى حيث يستطيعون أن يأخذوا فروجًا ذُبح حديثًا، لكن الحقيقة هي أن محمد شعر بأنه معرض للخطر قليلًا في ذلك الوقت، ذلك أن زوجته الإيرلندية ذات الساقين الطويلتين والنحيلتين شيلا هجرته مؤخرًا من أجل صاحب حانة، وشعر بأنه مخصي قليلًا وهكذا حين طلبت كيفن من أردشير خمسة آلاف جنيه وحصلت عليهم، ودفع نادر من حانوت

الحلال ثلاثة آلاف، بزّ مو (محمد) الجميع ودفع مبلغه.

كان السبب الثاني لانضمام محمد شخصيًا أكثر، وهو العنف، العنف والسرقة. فطيلة ثماني عشرة سنة كان مو يمتلك محلات اللحوم الأكثر حلالًا في شمال لندن، وكان مشهورًا بحيث أنه استطاع شراء المحل المجاور والتوسع إلى حانوت حلويات ولحوم. وفي هذه الفترة التي أدار فيها المؤسستين، كان ضحية هجمات جسدية وسرقات خطيرة، منتظمة ثلاث مرات في السنة. لا يشمل هذا الرقم الضربات العديدة على الرأس وضربات القضيب الحديدي السريعة والرفسات السريعة على الخصية أو أي شيء آخر يفشل في إخراج الدم. مو لم يتصل حتى بزوجته ولا بالشرطة كي يبلّغ عن هذه الأمور. كان العنف خطيرًا. فقد طُعن مو بالسكين خمس مرات. وفقد رؤوس ثلاثة أصابع، وكُسرت ساقاه وذراعاه، ووُضعت قدمه على النار وخُلعت أسنانه وانطمرت طلقة مسدس هوائي في مؤخرته السمينة لحسن الحظ. وكان مو رجلًا لافتًا للنظر. ولم تذله الضربات بأية طريقة، أو تجعله يراقب فمه أو يسير بسرعة. منح بقدر ما حصل عليه. لكنه كان رجلًا واحدًا ضد جيش. ولم يكن هناك أحد يستطيع المساعدة. وفي المرة الأولى حين تلقى ضربة مطرقة على أضلاعه في كانون الثاني 1970 أبلغ عن ذلك بسذاجة للشرطة المحلية وكوفئ بزيارة ليلية متأخرة من خمسة رجال شرطة أشبعوه رفسًا. ومنذ ذلك الوقت صار العنف والسرقة جزءًا منتظمًا من وجوده، رياضة حزينة مسلية يراقبها العجائز المسلمون والأمهات المسلمات الشابات اللواتي يأتين لشراء الفراريج، ويسرعن خارجات بعد وقت قصير، خائفات أن يكن التاليات. وكان العنف والسرقة في أوجهما، وكان المجرمون فتيانًا من المدرسة الثانوية يأتون إلى حانوت الزاوية لشراء الحلويات (لهذا كان مو يسمح بدخول واحد من جلينارد أوك بشكل منفصل كل مرة، وبالطبع هذا لم يحدث فرقًا، فقط أخذوا أدوارًا في ضربه بعنف بشكل مفرد)، وكانوا سكارى مترنحين، وقطاع طرق مراهقين، وآباء قطاع الطرق المراهقين، وفاشيين معروفين، ونازيين جددًا محددين، وفريق السنوكر المحلي، وفريق الرشق بالسهام، وفريق كرة القدم،

ومجموعات كبيرة من السكرتيرات اللواتي يرتدين التنورات البيضاء والثرثارات المنتعلات لكعوب مهلكة. وكان لأولئك الأشخاص المختلفون اعتراضات مختلفة عليه: كان باكستانيًا (حاولْ أن تخبر المحاسب السكير من مكتب شركة سوبروورلد أنك بنغلاديشي)، وخصص نصف حانوته على الزاوية لبيع اللحوم الباكستانية الغريبة، وله خصلة شعر، ويحب إلفيس (تحب إلفيس إذًا؟ هل تحبه؟ إيه، يا باكستاني؟ هل تحبه؟")، وثمن سجائره، وبعده عن الوطن ("لماذا لا ترجع إلى بلادك؟" "لكن حينئذ كيف سأقدم لك السجائر؟")، أو فقط النظرة على وجهه. لكن هؤلاء الأشخاص كانوا يشتركون جميعًا في شيء واحد: كانوا كلهم بيضًا. وهذه الحقيقة البسيطة شحنت مو مع مرور الأعوام سياسيًا أكثر من كل النشرات الحزبية والتجمعات والعرائض التي يمكن أن يقدمها العالم. أدخلته بشكل آمن إلى بطانة إيمانه حتى أكثر مما يمكن أن تنجزه زيارة للملاك جبريل. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، إذا كان يمكن أن تُدعى هكذا، قبل شهر من الانضمام لكيفن، حين قيده ثلاثة شبان بيض ورفسوه على درجات القبو وسرقوا نقوده وأشعلوا النار في المحل. وخرج من الحادثة مصابًا بفرط حركة المفاصل نتيجة كسور كثيرة في الرسغين. وكان متعبًا وعلى شفا الموت. وحين قدمت كيفن لمو منشورًا يقول إن هناك حربًا مستعرة اكتشف أخيرًا من يتحدث لغته. كان مو في الخطوط الأولى لتلك الحرب لثمانية عشرة عامًا. وبدا كأن كيفن لم تعتبر هذا كافيًا، فأولاده ميسورو الحال، ويدرسون في مدرسة جيدة، ويتلقون دروس التنس، وبشراتهم بيضاء بحيث لا يمكن أن تُمدَّ إليهم يد طيلة حياتهم. وهم جيدون، ولكن ليس بما يكفي. أراد أن يسترد شيئًا ما، لنفسه. أراد أن يقف الأخ إبراهيم على المنبر ويشرّح الثقافة المسيحية والأخلاق الغربية إلى أن تتحول إلى غبار بين يديه. أراد أن تُشرَّح له الطبيعة المنحطة لأولئك البشر وأن يعرف تاريخهم وسياستهم والسبب الأصلي وأن يشاهد فنهم مُفنّدًا وعلمهم مفندًا، وأذواقهم مفندة وما يكرهونه ونفورهم. لكن الكلمات لن تكون كافية أبدًا، فقد سمع الكثير منها (لو تستطيع فقط أن ترفع تقريرًا... إذا كنت لا تمانع أن تخبرنا

بالضبط كيف يبدو المهاجم)، ولم يكونوا أبدًا جيدين في الفعل. أراد أن يعرف لماذا واصلوا ضربه. وهكذا أراد أن يذهب ويضرب بعض هؤلاء الأشخاص.

"رائع جدًا يا ميلات، كل ما نأمله".

قال ميلات بجزع: "نعم، أفترض. نحتاج إلى كلام قليل وفعل كثير لأن الكفار في جميع الأمكنة".

هز مو رأسه بقوة: "آه أكيد، يا أخي. نحن متفقان حول هذه المسألة. سمعتُ أن هناك بعض الآخرين" - قال مو خافضًا صوته وواضعًا شفتيه السمينتين المتعرقتين عند أذن ميلات - "الذين هم عازمون جدًا على الفعل، الفعل الفوري. تحدث معي الأخ هيفان، في حوالي 31 كانون الأول\ديسمبر. والأخ شيفا والأخ تايرون..."

"نعم، نعم. أعرف من هم. هم القلب النابض لكيفن".

"ويقولون إنك تعرف الرجل نفسه، العالِم. أنت في موقع جيد. سمعت أنك صديقه".

"كنت. كنت".

"قال الأخ هيفان إن لديك بطاقات الدخول، إنك تنظم...".

قال ميلات: "اسكت. يجب ألا يعرف الجميع، إذا أردت الاقتراب من المركز، يجب أن تبقى صامتًا".

تفحص ميلات مو من الأعلى إلى الأسفل. بيجاما الكورتا التي نجح نوعًا ما في جعلها تبدو كبذلة قفز، البطن الضخم الذي أراحه على ركبته كصديق.

سأل بحدة: "أنت عجوز قليلًا، أليس كذلك؟"

"أيها الصغير الوقح. أنا قوي كثور دموي".

قال ميلات رابتًا على صدغه: "لا نحتاج إلى القوة، نحتاج إلى القليل من المادة التي في الأعلى. ويجب أن ندخلها إلى المكان أولًا بحرص، أليس كذلك؟ في المساء الأول. ستزحف".

مخط مو أنفه بيده: "أستطيع أن أكون حذرًا".

"نعم ولكن هذا يعني أن تبقى ساكتًا".

قاطعهما الأخ إبراهيم الدين شكرالله فجأة بصوت أعلى وأصدر مكبر الصوت طنينًا: "والشيء الثالث الذي سيحاولون فعله هو أن يقنعوكم أن الفكر البشري لا الله هو ذو القوة الكلية واللامحدودة، سيحاولون أن يقنعوكم أن عقولكم يجب ألا تُستخدم للتعبير عن عظمة الخالق التي لا تُضاهى بل لرفع أنفسكم كي تعادلوا الخالق أو تتجاوزوه! والآن نقترب من العمل الأكثر جدية هذا المساء. إن الشر الأعظم للكافر هو هنا في بلدة برينت. سأخبركم ولن تصدقوا ذلك، يا أخوة، هناك رجل في هذه الجماعة نفسها يعتقد أنه يستطيع تحسين عمل الخالق. هناك رجل يتجرأ على أن يغير ويعدل ما سُنَّ. سيأخذ حيوانًا، حيوانًا خلقه الله، ويتجرأ على تغيير ذلك الخلق، ويخلق حيوانًا جديدًا لا اسم له، وهذا رجس. وحين ينتهي من ذلك الحيوان الصغير، والذي هو فأر، يا أخوة، حين ينتهي سينتقل إلى الخراف والقطط والكلاب، ومن الذي في هذا المجتمع المخالف للشريعة سيوقفه يومًا ما عن خلق إنسان؟ إنسان يولد لا من امرأة بل من العقل وحده، وسيقول: هذا طب... لكن منظمة كيفن لا تشكو من الطب، فنحن جماعة متعلمة وبوسعكم أن تحصوا الكثير من الأطباء بيننا، يا أخوتي. لا تنخدعوا، ولا تنغشوا ولا تجعلوا أحدًا يضحك عليكم. هذا ليس طبًا، وسؤالي لكم يا أخوة كيفن هو: من الذي سيضحي ويوقف هذا الرجل؟ من سيقف لوحده باسم الخالق، ويظهر للحداثيين أن قوانين الله لا تزال موجودة وأبدية؟ لأنهم سيحاولون القول لكم، وأعني الحداثيين الشكاكين والمستشرقين، إنه لم يعد هناك معتقدات، وإن تاريخنا وثقافتنا وعالمنا انتهوا. هكذا يفكر العالم، ولهذا يتجرأ بكل ثقة. لكنه سيفهم في الحال ما الذي عُني حقًا بالأيام الأخيرة. وهكذا من سيريه..."

"نعم يجب أن أسكت، أفهم"، قال مو متحدثًا إلى ميلات لكنه نظر إلى الأمام مباشرة كما لو في فيلم تجسس.

نظر ميلات حواليه في الغرفة ورأى أن هيفان يحدق به، وهكذا نظر إلى

شيفا، الذي نظر إلى عبدل جيمي وعبدل كولن، وإلى تايرون وبقية طاقم كلبرن الذين يقفون عند الحائط كمضيفين في نقاط معينة من الغرفة. نظر هيفان إلى ميلات مرة أخرى، ثم نظر إلى مؤخرة الغرفة. بدأت حركة حذرة.

"هل يحدث شيء ما؟" همس مو، ناظرًا إلى الرجال الذين يرتدون أوشحة المضيفين، شاقين طريقهم عبر الحشد.

قال ميلات: "هيا إلى المكتب".

*****

"حسنًا، أعتقد أن الشيء الجوهري هنا هو معالجة المسألة من جانبين، لأنها مسألة تعذيب مباشر في المختبر، ونستطيع أن نقوم بالأمر بحيث يُعجب بنا الناس، لكن التركيز المحوري يجب أن يكون على الحجة المضادة لبراءة الاختراع، لأن هذه في الحقيقة زاوية نستطيع العمل عليها. وإذا شدّدنا على هذا الأمر هناك عدد من المجموعات الأخرى التي نستطيع اختيارها، الإن سي جي إي والأوهنو، إلخ، وكان كريسبين على اتصال معهم، لأنه كما تعرف لم نتعامل في هذا المجال بشكل موسع من قبل، لكن من الواضح أنه مسألة جوهرية. أعتقد أن كريسبين سيحدثنا عن هذا الدعم العام الذي لدينا هنا. وأعني بشكل خاص ما كُتب مؤخرًا في الصحافة، وحتى عنصر الصحف الشعبية حقق النجاح في هذا... ثمة استياء واسع من تسجيل براءة اختراع الكائنات الحية... وأعتقد أن الناس لا يشعرون بالارتياح حيال هذا المفهوم، وفي الحقيقة سيكون من شأن القدر أن يلعب على هذا والقيام بحملة شاملة، وهكذا إذًا..."

آه، جويلي، جويلي، جويلي، جويلي. كان جوشوا يعرف أنه يجب أن يصغي، لكن النظر كان جيدًا. وكان النظر إلى جويلي عظيمًا، إلى الطريقة التي تجلس بها إلى الطاولة، الركبتان مرفوعتان إلى الصدر، الطريقة التي ترفع بها بصرها إلى الأعلى عن مسوداتها بمرح، الطريقة التي يصفر بها الهواء بين أسنانها الأمامية التي بينها فجوات، الطريقة التي ترفع فيها باستمرار شعرها الأشقر المبعثر خلف

أذنها بيدها وتربت إيقاعًا على بوطها الثقيل بالأخرى. بصرف النظر عن الشعر الأشقر، كانت تشبه أمه كثيرًا في شبابها، والتي كان لها شفتان إنكليزيتان كبيرتان وأنف كلاسيكي جميل وعينان عسليتان كبيرتان، لكن الوجه الرائع كما هو مجرد تزيين يتوج الجسد الأكثر ترفًا في العالم. كانت طويلة في كل خطوطها، لها عضلات فخذية وبطنها ناعم، ثدياها لم يعرفا أبدًا حمالة صدر لكن منظرهما شكل متعة هائلة، وكانت مؤخرتها المثال الأفلاطوني للمؤخرات الإنكليزية، مسطحة لكنها تشبه الخوخة، عريضة لكنها مرحبة. وكانت أيضًا ذكية ومخلصة لقضيتها، وتحتقر والده، وأكبر منه بعشر سنوات (مما أوحى لجوشوا بكل أنواع الخبرة الجنسية التي كلما تخيلها حصل له انتصاب أثناء الاجتماع)، فضلًا عن أنها المرأة الأكثر روعة التي سبق أن شاهدها جوشوا. آه، جولي.

"أعتقد أن ما يجب أن نؤثر بالناس من خلاله هو فكرة القيام بعمل لا سابق له. أنتم تعرفون حجة "ما التالي؟". وأفهم وجهة نظر كيني الخاصة بأن هذه فكرة بسيطة لا تستحق الاختلاف عليها، لكن يجب أن أقول إنني أعتقد أنها ضرورية، وسنصوت عليها بعد دقيقة، هل أنت موافق يا كيني؟ إن كنت أستطيع فقط أن ... حسنًا؟ حسنًا. أين كنت... القيام بعمل لا سابق له. لأنه، إذا كان بوسعنا القول إن الحيوان الذي هو تحت الاختبار تملكه أية جماعة من الناس، أي أنه ليس قطة بل هو بالفعل ابتكار بصفات تشبه القطة، حينئذ فإن هذا سيعرقل حينئذ بشكل ذكي وخطير جدًا عمل مجموعات حقوق الحيوان وسيقود إلى رؤية مخيفة للمستقبل. أريد أن أحضر كريسبين هنا، كي يتحدث أكثر عن هذا".

كانت جولي متزوجة من كريسبين، والنقطة المهمة في الأمر هي أن زواجهما ثمرة حب حقيقي، ورابط روحي كلي وتوحّد سياسي مخلص ورائع. والأسوأ من ذلك أن زواج جويلي وكريسبين خدم بين أعضاء فيت كنشأة الكون، كأسطورة ناشئة شرحت باقتضاب ما يستطيع الناس أن يحققوه ويجب أن يحققوه، وكيف بدأت المجموعة وكيف يجب أن تستمر في المستقبل. وعلى الرغم من أن

جويلي وكريسبين لم يشجعا أفكار القيادة أو أي نوع من عبادة الأيقونات، فقد حدث هذا بأي حال، لقد عُبدا، وكانا غير قابلين للفصل. وحين انضم جوشوا في البداية إلى الجماعة وحاول جمع بعض المعلومات حول الزوجين، فهم ما الذي ينتظره. هل علاقتهما ضعيفة؟ هل فصلتهما الطبيعة القاسية لعملهما؟ فرصة ثمينة. رويت له الحكاية المسببة للكآبة كلها من قبل ناشطَيْن مخضرمين في فيت وهم يتناولون البيرة في حانة الكليب المرقط وهما عامل بريد سابق مضطرب عقليًا يدعى كيني شاهد حين كان طفلًا أباه يقتل جروه، وبادي وهو جامع صدقات وحساس ومربي حمام.

قال كيني، بتعاطف: "يبدأ الجميع بالرغبة بمجامعة جويلي، لكنك تتخطى الأمر، تدرك أن الشيء الأفضل الذي تستطيع فعله هو أن تكرس نفسك للصراع، ثم الشيء الثاني الذي تدركه، هو أن كريسبين هو ذلك الشخص الهائل".

"نعم، تتعود على الأمر".

تعوّد كيني على الأمر.

تبيّن أن جويلي وكريسبين التقيا وأحبا بعضهما في جامعة ليدز في شتاء 1982، وكانا تلميذين شابين راديكاليين يعلقان صور تشي غيفارا على جدران غرفهما، وتعيش المثالية في قلبيهما وولع متبادل بالمخلوقات التي تطير وتخب وتزحف ويسيل لعابها على الأرض، وفي ذلك الوقت، كان كل منهما عضوًا فعالًا في عدد كبير متنوع من المجموعات اليسارية المتطرفة ولكن الاقتتال السياسي الداخلي والطعن في الظهر والانقسام اللانهائي إلى فصائل حررهما من الوهم حالًا بقدر ما كان يهم مصير الإنسان المنتصب. وتعبا في بعض النقاط من التحدث مع أنواعنا الذين سينظمون على الفور انقلابًا، ويغدرون بك، ويختارون ممثلًا آخر ويرمون كل هذا في وجهك. وبدلًا من ذلك ركزا انتباههما على أصدقائنا من الحيوانات الصامتة. وطور جويلي وكريسبين حميتهما الغذائية إلى تناول الخضار فقط، وتركا الجامعة، وتزوجا وأسسا جمعية محاربة تعذيب واستغلال الحيوانات في 1985. وجذبت شخصية كريسبين المغناطيسية وسحر جويلي الطبيعي

أشخاصًا آخرين غير مستقرين، وشكلا في الحال جماعة من 25 عضوًا (بالإضافة إلى عشر قطط وأربعة عشر كلبًا وحديقة مليئة بالأرانب البرية وخروف وخنزير وعدد من الثعالب) وكانوا يعيشون ويعملون في شقة بغرفة واحدة في بريكستون تحف بها من الخلف قطعة أرض كبيرة مهجورة. وكانوا روادًا على صعد شتى، فقد بدؤوا بإعادة التدوير قبل أن تصبح موضة، وصناعة محيط حيوي استوائي من حمامهم المتعرق، وكرسوا أنفسهم لإنتاج الطعام العضوي. أما سياسيًا فقد كانوا حذرين بشكل مساو، ومنذ البداية كانت مؤهلاتهم تخلو من العيوب، فقد كانت فيت بالنسبة للجمعية الملكية لمنع ممارسة القسوة ضد الحيوانات ما كانته الستالينية للديمقراطيين الليبراليين. ولثلاث سنوات قامت فيت بحملة إرهابية ضد مختبري الحيوانات ومعذبيها ومستغليها، وأرسلت تهديدات بالقتل إلى موظفين في شركات الماكياج واقتحمت المخابر واختطفت التقنيين وقيدتهم على بوابات المستشفيات. ومنعت أيضًا اصطياد الثعالب وصورت دجاج الأقفاص وأشعلت النار في منافذ بيع الطعام وحطمت خيم السيرك. وبما أن مخططهم كان كبيرًا ومتعصبًا (أي حيوان في أي مستوى من عدم الراحة) ظلوا منشغلين على نحو جدي، وكانت الحياة لأعضاء فيت صعبة وخطيرة وتخللتها فترات سجن متكررة. وفي خضم كل هذا قويت العلاقة بين جويلي وكريسبين وخدمت كمثال لهم جميعًا، كمنارة في العاصفة، المثال النموذجي للحب بين الناشطين (تعوّدْ على الأمر). ثم في 1987 سُجن كريسبين بسبب دوره في إحراق مختبر ويلزي وتحرير 40 قطة و350 أرنبًا وألف جرذ من سجنهم. وقبل أن يتم نقله إلى ورموود سكرابس منح كريسبين جويلي بسخاء الأذن باللجوء إلى أعضاء آخرين في فيت إن كانت بحاجة إلى الجنس في غيابه. ("وهل فعلت؟" سأل جوشوا. "مارست الجنس"، أجاب كيني بحزن).

أثناء سجن كريسبين، كرست جويلي نفسها لتحويل فيت من عصابة صغيرة من الأصدقاء المتوترين جدًا إلى قوة سياسية سرية قابلة للنمو. وبدت تخفف من التشديد على التكتيكات الإرهابية وبعد قراءة جاي ديبور[183] صارت

مهتمة بتأثير الأوضاع والظروف كتكتيك سياسي، وفهمت أن هذا يعني الاستخدام المتزايد للافتات الكبيرة والأزياء والفيديوهات وإعادة الترتيب المزعجة للمناسبات نفسها. وفي الوقت الذي خرج فيه كريسبين من السجن كانت فيت قد كبرت أربعة أضعاف، وصار كريسبين أسطورة (العاشق والمقاتل والمتمرد والبطل) وكبر معها وقد قدم له الوقود تأويل جويلي العاطفي لحياته وأعماله وصورة مختارة بعناية له حوالي 1980 بدا فيها يشبه نيك دريك [184] قليلًا. ولكن على الرغم من أن صورته رُسمت بالفرشاة، لم يبد أن كريسبين فقد أيًا من جذريته. وكان فعله الأول كمواطن حر هو أنه أصبح العقل المدبر لإطلاق سراح عدة مئات من فئران الحقول، الحدث الذي حظي بتغطية إعلامية واسعة على الرغم من أن كريسبين ادعى أن المسؤولية عن العمل الحقيقي هي لكيني الذي زُج به في السجن لمدة أربعة أشهر تحت حراسة أمنية عالية. ("اللحظة الأعظم في حياتي"). ثم في الصيف الأخير، 1991، أقنعت جويلي كريسبين بالذهاب إلى كاليفورنيا معها كي ينضم إلى مجموعات أخرى تقاتل براءات الاختراع على الحيوانات المعدلة وراثيًا. وعلى الرغم من أن قاعات المحكمة لم تكن المكان المفضل لكريسبين (لأن كريسبين رجل خطوط أولى) نجح في تأمين الموافقة على محاكمة اعتبرت غير صالحة. وطار الزوجان عائدين إلى إنكلترة، مبتهجين ولكن بتمويل سيّئ جدًا، كي يكتشفا أنهما طُردا من قبل حاشيتهما و...

وهنا يستطيع جوشوا أن يكمل القصة. قابلهما بعد أسبوع وهو يتجول ذهابًا وإيابًا في منطقة الطريق السريع في ولسدن باحثًا عن مسكن مناسب. كانا يائسين، فتشجع جوشوا من طاقة الصيف وجمال جويلي، وذهب للتحدث معهما، انتهى الأمر بالذهاب لتناول البيرة. شربا كمثل أي شخص في بار الكلب المرقط الذي ذكرناه سابقًا، وهو بار مشهور في ولسدن وُصِفَ سنة 1792 بأنه "ذائع الصيت" (ماضي ولسدن، للين سنو)، وصار ملاذًا مفضلًا للندنيين في منتصف العهد الفكتوري الذين كان يرغبون بيوم "في الريف"، ثم أصبح نقطة لقاء للعربات التي تجرها الأحصنة، وفيما بعد صار مصدرًا مائيًا للبنائين الإيرلنديين المحليين.

وفي 1992 تحول ثانية إلى بؤرة رئيسية لسكان ولسدن الكثيرين من الأستراليين المهاجرين الذين كانوا في السنوات الخمس الماضية يغادرون شواطئهم الحريرية وبحارهم الزمردية ويصلون بشكل غير قابل للشرح في الحافلة (إن دبليو 2). وفي بعد الظهر الذي سار فيه جوشوا مع جويلي وكريسبين، كانت تلك الجماعة في حالة إثارة عالية. فبعد شكوى من رائحة مريعة فوق محل الأخت ماري لقراءة الكف في منطقة الطريق السريع، أغار مسؤولو الصحة على الشقة واكتشفوا أنها تأوي 16 أستراليًا حفروا حفرة كبيرة في الأرض وشووا فيها خنزيرًا، وكانت هذه على ما يبدو محاولة لإعادة خلق تأثير موقد تحت أرضي من البحار الجنوبية. ألقي بهم في الشارع، وندبوا مصيرهم أما مدير الحانة، وهو رجل أسكتلندي بلحية ضخمة غير متعاطف كثيرًا زبائنه من الجانب الآخر من العالم ("هل هناك علامة لافتة ما في سيدني اللعينة تقول تعالوا إلى ولسدن اللعينة؟". وحين سمع جوشوا القصة حدس أن الشقة فارغة فأخذ جويلي وكريسبين كي يلقيا نظرة عليها، وكان ذهنه يتكتك مسبقًا... إذا كان بوسعي أن أجعلها تعيش في مكان قريب...

كان بناء فكتوريًا جميلًا متداعيًا بشرفة صغيرة وحديقة سقفية وثقب واسع في الأرض. نصحهما أن يبقيا هادئين لمدة شهر ويتحركا بعد ذلك. فعلا هذا، وصار جوشوا يلتقي بهما بشكل متواصل. وطرأ عليه "تحول" لعدة أشهر بعد ساعات من الحديث مع جويلي (ساعات من تفحص ثدييها تحت ذلك القميص الرث) والذي جعله يشعر في ذلك الوقت كأن أحدًا أخذ رأسه التشالفيني الصغير المغلق، ووضع إصبعي ديناميت في كل أذن وفجرهما فاتحًا ثقبًا لعينًا في وعيه. وتوضح له في ومضة مبهرة أنه أحب جويلي وأن والديه غبيان وأنه هو نفسه غبي، وأن أكبر جماعة على الأرض، المملكة الحيوانية، مضطهدة ومسجونة وتُقتل على أساس يومي بمعرفة كاملة ودعم كامل من كل حكومات العالم. وكان من الصعب معرفة كم من الإدراك الأخير يستند إلى الأول، لكنه تخلى عن التشالفينية ولم يكن مهتمًا بتفكيك الأشياء كي يرى كيف تتلاءم مع بعضها. وبدلًا من ذلك تخلى عن أكل اللحوم وركض إلى جلاستونبري، وضع وشمًا، وصار نوع الشخص الذي

يستطيع أن يحدد سعر ثُمْنٍ من الماريجوانا وعيناه مطبقتان (اللعنة عليك إذًا يا ميلات) وكان يمتع نفسه كثيرًا... إلى أن وخزه ضميره أخيرًا. كشف أنه ابن ماركوس تشالفن، أرعب هذا جويلي (واعتقد جوشوا أن هذا أثارها قليلًا، النوم مع العدو وكل هذا). طُلب من جوشوا الذهاب، وعقدت فيت اجتماعًا لمدة يومين تحت عنوان: **إنه ينتمي إلينا، آه لكن نستطيع أن نستخدمه...**

كانت عملية مطولة من التصويت وأشباه الجمل الفرعية والاعتراضات والفقرات الشرطية لكن في النهاية لم يؤد الأمر في الحقيقة إلى أي شيء أكثر ذكاء من: مع من أنت؟ قال جوشوا: معكم، ورحبت به جويلي بذراعين مفتوحتين، وضغط رأسه على صدرها الرائع. عُرضَ في الاجتماعات، ومُنح دور السكرتير وكان عادة الجوهرة في تاجهم: **المرتد من الطرف الآخر.**

منذ ذلك الوقت ولمدة ستة أشهر، استمتع جوشوا باحتقاره المتنامي لوالده، وصار يرى المرأة التي يحبها كثيرًا ووضع خطة طويلة الأمد كي يدس نفسه بين الزوجين المشهورين (وكان بحاجة إلى مكان ما كي يمكث فيه، ذلك أن كرم آل جونز بدأ يفتر). تملق كريسبين، متجاهلًا بشكل متعمد اشتباه كريسبين به. وتصرف جوشوا كزميله الأفضل، وأراحه من كل الأعمال المتعبة له (تصوير النسخ، لصق البوسترات، وتوزيع المنشورات) ونام على الأرض، واحتفل بذكرى زواجه السابعة وقدم له هدية هي ريشة غيتار مصنوعة يدويًا في عيد ميلاده، بينما كان يكن له الكراهية الشديدة طيلة الوقت، ويشتهي زوجته كما لم يفعل أي رجل من قبل، ويحلم بالمؤامرات من أجل سقوطه بعين حاسدة ستجعل إياجو[185] يحمر من الخجل.

كل هذا حرف انتباه جوشوا عن حقيقة أن فيت مشغولة بالتخطيط لإفشال والده. ووافق على ذلك من حيث المبدأ حين عاد ماجد، حين كان غضبه أكثر توقدًا والفكرة نفسها بدت ضبابية، مجرد حديث مضخم للتأثير بأعضاء جدد. والآن 31 الشهر على بعد ثلاثة أسابيع، وجوشوا فشل حتى الآن في أن يسأل نفسه بأية طريقة متماسكة، وبأية طريقة تشالفينية عن عواقب

ما سيحدث، ولم يكن واضحًا له ما الذي سيحدث بالضبط، ولم يُتخذ قرار نهائي، وفيما كان الأعضاء الأساسيون يناقشون الأمر واضعين قدمًا فوق أخرى ويجلسون متباعدين حول الثقب الكبير في الأرض، لم يكن جوشوا يصغي لتلك القرارات الجوهرية، بل ركز انتباهه على أسفل قميص جويلي، وأسفل منحدر ومنحنى جذعها، على سروالها الملون، إلى الأسفل...

"جوش، يا صديقي، هل يمكن أن تقرأ لي ما قلناه منذ دقيقتين، إذا فهمت قصدي".

"ماذا؟"

تنهد كريسبين وعبّر عن استهجانه. نزلت جويلي عن الطاولة وقبلت كريسبين على أذنه. كان جوشوا يفكر بفرجها.

"المَحَاضِر يا جوشوا، بعد حديث جويلي عن استراتيجية الاحتجاج. انتقلنا إلى الجزء الصعب. أريد أن أسمع ما كان يقوله بادي منذ بضع دقائق عن العقوبة إزاء إطلاق السراح".

نظر جوشوا إلى حافظته الفارغة ووضعها فوق الانتصاب المتراخي.

"إم... أعتقد أنني لم أدوّن هذا".

"حسنًا، كان هذا مهمًا يا جوش. يجب أن تواكبنا. أعني، هذا هو المطلوب. ما الهدف من القيام بكل هذا الحديث..."

فرج، فرج، فرج.

تدخلت جويلي، نازلة عن طاولتها مرة أخرى، وهذا المرة كي تربت على تسريحته اليهودية: "إنه يفعل ما بوسعه، ربما هذا صعب على جوشي، كما تعرف؟ أعني هذا شخصي جدًا بالنسبة له". دعته دومًا جوشي. جوشي وجويلي. جويلي وجوشي.

تجهم كريسبين: "حسنًا، قلتُ مرات كثيرة إذا كان جوشوا لا يريد أن ينخرط شخصيًا في هذا العمل، بسبب عواطفه الشخصية، إذا كان يريد أن يخرج، إذًا..."

صاح جوشوا، جاهدًا أن يكبح عدوانيته: "أنا معكم، لا نية لي بالخروج".

قالت جويلي، بابتسامة كبيرة داعمة: "لهذا جوشي هو بطلنا، ثق بكلامي، سيصمد إلى النهاية".

آه يا جولي.

"حسنًا، لنواصل. حاول أن تدوّن كل التفاصيل في المحاضر من الآن فصاعدًا، حسنًا؟ اتفقنا. بادي، هل تستطيع أن تكرر ما قلته، كي يسمع الجميع، لأنني أعتقد أن ما قلته يلخص بشكل كامل قرارًا مهمًا يجب أن نتخذه الآن".

تحرك رأس بادي بسرعة وفقد السيطرة وهو يبحث في ملاحظاته وقال وهو ينظر متوترًا إلى جوشوا: "حسنًا، بالأساس هي مسألة ما هي أهدافنا الحقيقية، إذا كانت معاقبة المعتدين وتثقيف الجمهور... فإن هذا يتضمن مقاربة من نوع واحد وهي الهجوم مباشرة على الشخص المعني، لكن إذا كانت مصلحتنا هي الحيوان نفسه، كما أعتقد أن الأمر يجب أن يكون، حينها تكون المسألة مسألة حملة مضادة، وإذا لم ينجح هذا، حينها نلجأ إلى إطلاق الحيوان بالقوة".

قال كريسبين مترددًا وغير متأكد أين سيكون دور عظمة كريسبين في تحرير فأر واحد: "حسنًا، ولكن الفأر في هذه الحالة رمز، أي أن الشخص لديه الكثير من الفئران في مختبره، وهكذا علينا أن نتعامل مع الصورة الأكبر. نريد شخصًا يقتحم المكان..."

"حسنًا، من حيث الجوهر... من حيث الجوهر... أعتقد أن هذا هو الخطأ الذي ترتكبه جمعية أوهنو مثلًا. لأنهم يعتبرون الحيوان رمزًا... وبالنسبة لي هذا يتعارض بشكل مطلق مع فيت وما تمثله. لو كان هذا رجلًا محجوزًا في صندوق زجاجي لست سنوات، لن يكون رمزًا، كما تعرفون؟ ولا أعرف عنكم، لكن لا يوجد فرق بين الفئران والرجال، برأيي".

تمتم أعضاء فيت المجتمعون معبرين عن موافقتهم، لأن هذا كان نوع العاطفة التي يتمتمون عادة للموافقة لها.

كان كريسبين مستاء: "حسنًا، من الواضح أنني لم أعن هذا يا بادي. أعني

فقط أنه يوجد هنا صورة أكبر، تمامًا كالاختيار بين حياة شخص واحد وحيوات أشخاص كثيرين".

"نقطة نظام!"، قال جوش، رافعًا يده في الجو من أجل فرصة كي يجعل كريسبين يبدو غبيًا. حدق كريسبين بغضب.

قالت جويلي بعذوبة: "نعم يا جوشي، تحدث".

"المسألة هي أنه لا يوجد المزيد من الفئران، أعني، هناك الكثير من الفئران، لكن ليس لديه أي واحد كهذا بالضبط، لأن هذه عملية مكلفة جدًا، ولا يستطيع توفير الكثير. فضلًا عن ذلك، شجّعه الإعلام بحيث أنه إذا مات فأر المستقبل أثناء العرض يستطيع أن يستبدله سريًا بآخر، وهكذا فإنه أصيب بالغرور. يريد أن يبرهن أن حساباته صحيحة أمام العالم. سيعمل فقط على واحد ويعلّمه بباركود. لا يوجد فأر آخر".

توهجت جويلي ومدت يدها كي تدلك كتف جوش.

"حسنًا، نعم، أعتقد أن هذا توضيح جيد. وهكذا يا بادي، أفهم ما تقوله، إن السؤال هو: هل سنركز انتباهنا على ماركوس تشالفن أم نحرر الفأر الحقيقي من أسره أمام الصحافة العالمية؟"

"نقطة نظام".

"نعم، تفضل يا بادي".

"حسنًا، ألن تساعدوا سجينًا سياسيًا على الهرب من السجن فقط لأنه مصاب بمرض عضال؟"

هُزت الرؤوس المتعددة لفيت بقوة.

"نعم يا بادي، هذا صحيح. أعتقد أن جوشوا مخطئ هنا وأعتقد أن بادي قدم لنا الخيار الذي يجب أن نقوم به، عارضنا هذا الخيار مرات كثيرة من قبل وتبنينا خيارات مختلفة في ظروف مختلفة. وقد ذهبنا في الماضي، كما تعرفون، إلى المعتدين، ووُضعت قوائم ونُفِّذت عقوبات. الآن، أعرف أنه في الأعوام الأخيرة كنا نبتعد عن بعض التكتيكات السابقة، لكنني أعتقد أنه حتى جويلي ستوافق

بأن هذا في الحقيقة اختبارنا الأكبر والأهم. فنحن نتعامل مع أفراد مختلين وخطيرين. ومن ناحية أخرى، نظمنا أيضًا احتجاجات سلمية كبيرة وأشرفنا على تحرير آلاف الحيوانات التي سجنتها الدولة. وفي هذه الحالة، لن نمتلك الوقت أو الفرصة لتنفيذ الاستراتيجيتين. هذا مكان عام جدًا، حسنًا تحدثنا عن هذا. وكما قال بادي، أعتقد أن الخيار الذي لدينا في الواحد والثلاثين من الشهر بسيط جدًا. إنه الاختيار بين الفأر والرجل. هل يمانع أي منكم التصويت على هذا؟ جوشوا؟"

جلس جوشوا على يديه كي يرفع نفسه ويمنح جويلي فرصة أكبر لتدليك ظهره العلوي وقال: "لا أمانع مطلقًا".

*****

في العشرين من كانون الأول وفي ساعة متأخرة من الليل رن الهاتف في بيت عائلة جونز. نزلت آيري إلى الطابق الأرضي في رداء نومها ورفعت السماعة.

"إرْررهم. أريد منك أن تنتبهي إلى الموعد والوقت الذي أختاره كي أتصل بك".

"ماذا؟ إر... ماذا؟ هل هذا ريان؟ اسمعْ يا ريان، لا أقصد أن أكون وقحة، هذا منتصف الليل؟ هل تريد شيئًا أو..."

"آيري؟ يا فتاة؟ هل أنت هناك؟"

"جدتك على السماعة التالية. تريد أن تتحدث معك أيضًا".

قالت هورتينس بإثارة: "آيري، هل تقولين شيئًا، لا أسمع أي شيء"

"آيري، أكرر: هل دونت التاريخ والوقت لهذه المكالمة؟"

"ماذا؟ انظر، لا أستطيع... أنا حقًا متعبة... هل يمكن الانتظار حتى..."

"إنه العشرون يا آيري. منتصف الليل. اثنان وأصفار..."

"هل تصغين يا فتاة؟ يحاول السيد توبس أن يشرح شيئًا مهمًا جدًا".

"جدتي، يجب أن تتحدثا كل واحد في دوره... لقد قاطعتما نومي... أنا منهكة".

"إن الاثنين والأصفار يا آنسة جونز يشيرون إلى عام 2000. وهل تعرفين شهر اتصالي؟"

"ريان، إنه كانون الأول\ديسمبر. هل هذا حقًا..."

"إن الشهر الثاني عشر يا آيري يتواشج مع أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، والتي خُتم على جباه 12 ألفًا من كل منها، فمن سبط يهوذا اثنا عشر ألف مختوم ومن سبط رأوبين اثنا عشر ألف مختوم ومن سبط جاد اثنا عشر ألف مختوم.

"ريان، ريان... وصلتني الفكرة".

"هناك أيام معينة يريدنا الله أن نعمل فيها، أيام تحذير مسبق معينة، أيام مصممة..."

"حيث يجب أن ننقذ أرواح المفقودين، ونحذرهم قبل أن يحين الوقت".

"نحن نحذرك يا آيري".

بدأت هورتينس تبكي بهدوء: "نحاول أن نحذرك فقط يا عزيزتي".

"آه، عظيم. لقد تم تحذيري. تصبحون على خير".

قال ريان بوقار: "ليست هذه نهاية التحذير، هذا هو التحذير الأول. هناك المزيد".

"لا تقل لي هناك 11 تحذيرًا آخر".

"آه!"، بكت هورتينس، مسقطة سماعة الهاتف، لكنها لا تزال مسموعة عن بعد: "لقد زارها الرب، تعرف قبل أن يُقال لها".

"انظر يا ريان. هل يمكن أن تكثف نوعًا ما الأحد عشر الأخرى في واحد، أو على الأقل تقول لي الأكثر أهمية؟ لأنني يجب أن أعود إلى الفراش".

خيم الصمت لدقيقة. ثم: "إزررهم. حسنًا. لا تتورطي مع ذلك الرجل".

"آه يا آيري. أصغي من فضلك للسيد توبس، من فضلك أصْغِ إليه".

"مع أي رجل؟"

"آه يا آنسة جونز. لا تتظاهري من فضلك أنك لا تعرفين عن خطيئتك العظيمة. افتحي روحك. دعي الله يجعل نفسي تصل إلى نفسك، وتغسل

قدميك من..."

"انظر، أنا حقًا متعبة. أي رجل؟"

"العالم تشالفن. الرجل الذي تعتبرينه صديقًا، وهو في الحقيقة عدو البشرية كلها".

"ماركوس؟ أنا لست متورطة معه. فقط أجيب على مكالماته وأقوم بأعماله الورقية".

قال ريان حاثًا هورتينس على المزيد من البكاء بصوت أعلى: "وهكذا صرت سكرتيرة الشيطان، وهذا ما جعلك وضيعة".

"ريان، أصْغ إلي، لا وقت لدي لهذا، ماركوس تشالفن يحاول أن يجيب على أسئلة حول هذا البراز الذي يُدعى السرطان. حسنًا؟ لا أعرف من أين حصلتَ على معلوماتك، لكنني أؤكد لك أنه ليس الشيطان مجسدًا".

احتجت هورتينس: "فقط أحد أتباعه، أحد جنوده على الخطوط الأمامية".

"اهدأي يا سيدة ب. أخشى أن حفيدتك قد ذهبت بعيدًا جدًا بالنسبة لنا. كما توقعت، منذ أن تركتنا انضمت إلى الجانب المظلم".

"اللعنة عليك يا ريان، أنا لست دارث فادر[187]، جد..."

"لا تتحدثي معي يا فتاة، لا تتحدثي معي. أشعر بخيبة أمل".

"يبدو أننا سنشاهدك في الواحد والثلاثين إذًا يا آنسة جونز".

"توقف عن مناداتي بآنسة جونز، يا ريان. في... ماذا؟"

"الواحد والثلاثون. سيقدم الحدث منبرًا لرسالة الشهود. ستكون الصحافة العالمية هناك. ونحن أيضًا. ننوي..."

انفجرت هورتينس: "سنحذرهم جميعًا، وقد خططنا لهذا بشكل جيد. سنغني ترانيم مع السيدة دوبسون على الأكورديون لأنك لا تستطيعين نقل البيانو كل تلك المسافة. وسنعلن إضرابًا عن الطعام إلى أن يتوقف ذلك الشرير عن العبث بخلق الله الجميل و..."

"إضراب عن الطعام؟ جدتي، حين تخرجين ولا تتناولين ما تتناولينه الساعة الحادية عشرة ستصابين بالغثيان، لم تخرجي دون طعام لأكثر من ثلاث ساعات طيلة حياتك. أنت في الخامسة والثمانين".

قالت هورتينس بفظاظة تثير البرودة: "لقد نسيتِ أنني ولدتُ في الجوع، وبقيتُ على قيد الحياة، القليل بدون طعام لا يخيفني".

"وستجعلها تفعل ذلك يا ريان، أليس كذلك؟ إنها في الخامسة والثمانين. لا تستطيع أن تُضْرب عن الطعام".

قالت هورتينس متحدثة بصوت واضح ومرتفع من خلال السماعة: "أنا أقول لك يا آيري، أريد أن أفعل هذا، لا يزعجني عدم تناول الطعام قليلًا. إن الرب يمنح بيده اليمنى ويأخذ باليسرى".

أصغت آيري إلى ريان يغلق السماعة ويسير إلى غرفة هورتينس ويأخذ السماعة منها ببطء، مقنعًا لها أن تأوي إلى السرير. استطاعت أن تسمع جدتها تغني وهي تُقاد في الردهة مكررة عبارة ليست لأحد وليس لها لحن معروف: الرب يمنح باليمنى ويأخذ باليسرى!

ولكن آيري اعتقدت معظم الوقت أنه مجرد لص ليلي يسرق الأشياء فحسب.

*****

شعر ماجد بالفخر حين قال إنه شهد جميع المراحل. شهد التفاصيل الفريدة للجينات وحقن الجين والتخصيب الاصطناعي والولادة المختلفة عن ولادته. وكان هناك فأر واحد فقط، ولم تحدث معركة عبر قناة الولادة، ولم يكن هناك أول ولا ثان، لا مُنْقَذ ولا غير مُنقَذ، ولا حفل تهنئة ولا عوامل عشوائية. لم يكن هناك كلام مثل: لك خطم والدك وحب أمك للجبنة. ولم يكن هناك ألغاز تكمن منتظرة أو شك في متى سيحدث الموت أو اختباء من المرض أو هرب من الألم أو سؤال عمن يسيطر في الخفاء أو قدرة كلية مشكوك بها أو مصير مهدد أو

سؤال عن رحلة أو سؤال عن عشب أكثر اخضرارًا، ذلك أنه أينما ذهب هذا الفأر فإن حياته ستكون نفسها. لن يسافر عبر الزمن (إن الزمن سيّئ، ويعرف ماجد الكثير الآن) لأن مستقبله مساو لحاضره الذي كان مساويًا لماضيه. فأر في صندوق صيني، ما من طرق أخرى وفرص مفقودة واحتمالات موازية وتنبّؤ واحتمالات. ثمة يقين فحسب، اليقين في شكله الأنقى. وفكر ماجد: حين تنتهي رؤية هذا، حين ينزع القناع والقفازات، وحين يعاد المعطف الأبيض إلى علاقته، أليس هو ربّ الفأر؟

19

المكان الأخير

الخميس، 31 كانون الأول\ديسمبر 1992

هذا ما قاله الإعلان في أعلى الصحيفة وأعلنه المستمتعون بالاحتفال الذين رقصوا حتى أوائل المساء في الشوارع بصفاراتهم الفضية ذات الصوت الحاد وأعلام المملكة الوطنية محاولين تصعيد الشعور الذي يرافق التاريخ، وتسريع وصول الليل (كانت الساعة هي الخامسة فقط) كي تستطيع إنكلترة أن تحيي حفلتها التي تحدث مرة كل سنة، وكي يستطيع المرء أن يسكر ويتقيأ ويقبّل ويداعب ويتحسّس ويولج ويقف في مداخل القطارات ويفتح الباب للأصدقاء، ويتجادل مع تكتيكات رفع الأسعار التي يقوم بها سائقو عربات الأجرة الصوماليون، ويقفز في الماء أو يلعب بالنار، وكل هذا يحدث في الضوء الباهت والمموه لمصابيح الشوارع. كانت تلك هي الليلة التي تتوقف فيها إنكلترة عن قول: شكرًا من فضلك، أنا آسف، هل فعلت؟ وتبدأ بالقول: اللعنة عليك، أيها اللعين ابن اللعينة! (ولا نقول هذا أبدًا، اللكنة خاطئة، تبدو سخيفة). كانت هذه هي الليلة التي تفعل بها إنكلترة الأمور الأساسية. وكان الوقت مساء رأس السنة، وجوشوا يجاهد كي يصدق الأمر. أين ذهب الوقت؟ لقد مرَّ من الشق الذي بين ساقيْ جويلي، ودخل في الجيوب السرية لأذنيها، وخبّأ نفسه في الشعر الدافئ

والملتفّ لإبطيها، وفكّر بنتائج ما سيفعله في هذا اليوم الأهم في حياته، بموقفه الحرج الذي كان منذ ثلاث سنوات سيشرحه ويحلله ويزنه بقوة تشالفينية هريث عبر شقوق جويلي أيضًا. لم يتخذ قرارات حقيقية في مساء رأس السنة. شعر بأنه يخلو من أية أفكار وفيما كان الشبان يندفعون خارج البارات باحثين عن المشاكل، شعر بأنه خفيف كطفل يجلس مفرشخًا على كتفي والده متوجهًا إلى حفلة عائلية. لكنه لم يكن معهم، هناك في الشوارع يستمتع بل هنا وسط البلدة منطلقًا في خط مستقيم نحو مؤسسة بيريه كصاروخ حراري. كان هنا، يشعر بالضيق في حافلة صغير مع عشرة أعضاء متوترين من فيت، مندفعين من ولسدن نحو ساحة ترافالجار، نصف مصغين لكيني وهو يقرأ اسم أبيه بصوت مرتفع كي يُسمع كريسبين الذي كان في المقدمة، ويسوق.

"حين يعرض الدكتور ماركوس تشالفن فأره هذا المساء يبدأ فصل جديد في مستقبلنا الوراثي".

أرجع كريسبين رأسه إلى الخلف مصدرًا صوتًا مرتفعًا: "ها!"

واصل كيني، محاولًا بشكل غير ناجح أن يهزأ ويقرأ في الوقت نفسه: "نعم، بالضبط، بفضل التغطية الموضوعية، أين كنت... حسنًا: ما هو أكثر أهمية هو أنه يعلن عن هذا الفرع العلمي الذي هو تقليديًا سري وبعيد ومعقد أمام جمهور غير مسبوق، وبينما تستعد مؤسسة بيريه كي تفتح أبوابها على مدار الساعة لسبع سنوات، يعد الدكتور تشالفن بحدث قومي سيكون مختلفًا جوهريًا عن مهرجان بريطانيا في 1952 أو معرض الإمبراطورية البريطانية في 1924 لأنه ليس له أجندة سياسية".

"ها!"، نخر كريسبين مرة أخرى، مستديرًا هذه المرة إلى اليمين في مقعده بحيث أن حافلة فيت الصغيرة (التي لم تكن رسميًا لهم، بل كُتب عليها بأحرف صفراء بقياس 10 إنشات على كل جانب: خدمات عائلة كنسال رايس يونيت، وقد قدمها لهم عامل اجتماعي يمتلك تعاطفًا مع الحيوانات) تجنب بفارق بسيط جدًا حشدًا من الفتيات المتضايقات ذوات الكعب العالي كن يسرن متمايلات على

الطريق. "لا أجندة سياسية؟ هل يمزح؟"

قالت جويلي، نافخة له قبلة: "أبْق عينيك على الطريق يا عزيزي، نريد أن نصل إلى هناك قطعة واحدة... خذ يسارك هنا... اسلك طريق إدجوير".

قال كريسبين، ناظرًا بغضب إلى جوشوا ثم مستديرًا إلى الخلف: "اللعنة، يا له من لعين!"

قرأ كيني، متّبعًا سهمًا من المقدمة إلى الصفحة الخامسة: "1999، العام الذي يتنبأ الخبراء بأنه سيُعْترف فيه بعملية حمض نووي معاد التركيب، وسيشاهد 15 مليون شخص تقريبًا معرض الفأر المستقبلي، وسيتابع عدد أكبر من هذا بكثير في أنحاء العالم تقدم الفأر المستقبلي في الصحافة العالمية، وفي ذلك الوقت سيكون الدكتور تشالفن قد نجح في هدفه في تثقيف الأمة، ورمي الكرة الأخلاقية في ملعب الناس".

قال كريسبين كما لو أن الكلمات نفسها قيء: "أعطني الدلو اللعين. إن هذا يسبب لي الغثيان. ماذا تقول الصحف الأخرى؟"

رفع بادي الصحيفة كي يتمكن كريسبين من رؤيتها في المرآة الخلفية. عنوان: "هوس بالفأر".

قال بادي، هازًا كتفيه ومثبتًا اللاصق على قبعته: "يأتي مع الصحيفة لاصق مجاني عليه صورة فأر المستقبل. جميل بالفعل".

قالت ميني: "إن الصحف الشعبية رابح غير متوقع". كانت ميني عضوًا جديدًا من النوع النكد، بخصلات شعر مجعدة شقراء وحلمتين مقدوحتين، وفكر جوشوا لوقت قصير بأن يصبح مهووسًا بها، وحاول ذلك لوهلة، لكنه اكتشف أنه لا يقدر على القيام بذلك، ولا يستطيع أن يتخلى عن هوسه المرضي بعالم جويلي ويخرج ناشدًا حياة على كوكب جديد. وقد اكتشفت ميني هذا فورًا، وعمل لصالحها، وانجذبت لكريسبين. وكانت تلبس أقل ما يسمح به الطقس الشتوي وتستغل جميع الفرص كي تدفع حلمتيها المتوهجتين والمقدوحتين في فضاء كريسبين الشخصي، وكانت تنحني فوق مقعد السائق كي تريه الصفحة

الأمامية للصحيفة المعنية وفي الوقت نفسه حاول كريسبين دون نجاح أن يدور في ماربل آرش، ويتجنب أن يلمس بكوعه حلمتي ميني، وينظر إلى الصحيفة.

"لا أستطيع رؤيتها جيدًا. ما هي؟"

"إنه رأس تشالفن بأذني الفأر مثبت إلى جذع عنزة مثبتة إلى مؤخرة خنزير. وهو يأكل من حوض كتب عليه "الهندسة الوراثية" في طرف و"مال عام" في الآخر. ترويسة: تشالفن يجترّ الطعام".

"جيدة كل هذه المساعدات القليلة".

دار كريسبين في الدوار مرة ثانية، وفي هذه المرة انعطف في المفرق الذي أراده، ومالت ميني نحوه ووضعت الصحيفة على لوح القيادة.

"يا إلهي، يبدو أكثر تشالفينية من السابق!"

ندم جوشوا بمرارة أنه أخبر كريسبين عن هذه الميّزة في عائلته، وعادتهم في الإشارة إلى أنفسهم كأفعال وأسماء وصفات. بدت فكرة جيدة في ذلك الوقت أن يجعل الجميع يضحكون، ليحارب أية شكوك حول مع من يقف هو. لكنه لم يشعر أبدًا بأنه خان والده (وَزَنَ ما كان يفعله ولم يؤثر به فعلًا) إلى أن سمع السخرية من التشالفينية تخرج من فم كريسبين.

"انظر إليه يتصرف تشالفينيًا في ذلك الحوض. يستغل كل شيء والجميع، وهذه هي الطريقة التشالفينية، أليس كذلك يا جوشوا؟"

صاح جوشوا مديرًا ظهره لكريسبين، كي يحدق من نافذة مطلة على الصقيع فوق هايد بارك.

"هذه صورة كلاسيكية، هناك، أترى؟ تلك التي استخدموها للرأس، أتذكرها، هذا كان اليوم الذي قدم فيه الدليل في محاكمة كاليفورنيا. تلك النظرة من التفوق الكلي اللعين. تشالفينية جدًا".

عض جوشوا على لسانه. لا تتحداه. إذا لم تتحداه تكسب تعاطفها.

قالت جويلي بحزم، لامسة شعر جوشوا: "لا تفعل يا كريسبين، حاول أن تتذكر فقط ما الذي سنفعله. لا يحتاج إلى هذا، اليوم".

"حسنًا".

"نعم، جيد..."

وضع كريسبين قدمه على دواسة السرعة: "ميني، هل تأكدت أنت وبادي من أن الجميع لديهم ما يحتاجون إليه؟ الأقنعة وكل شيء؟"

"نعم، كل شيء جاهز".

"جيد"، أخرج كريسبين علبة فضية صغيرة فيها كل ما يلزم كي يلف سيجارة ماريجوانا ثخينة ورماها في جهة كويلي مصيبًا جوشوا على عظمة الساق مسببًا له الألم.

"لفي لنا واحدة يا حبي".

كان جوشوا يفكر بالفرج.

التقطت جويلي الصندوق عن الأرض، انحنت والصندوق مستقر على ركبة جوشوا، عنقها الطويل مكشوف، ثدياها اندفعا إلى الأمام إلى أن صارا عمليًا بين يديه.

سألته، مرجعة رأسها إلى الخلف حالما لفت السيجارة: "هل أنت متوتر؟"

"ما الذي تعنيه بمتوتر؟"

"حيال الليلة. أعني حيال الولائين المتصارعين".

"صراع؟" تمتم جوش بغموض، متمنيًا لو أنه هناك مع الأشخاص السعيدين، المتحررين من الصراع، الذين يحتفلون برأس السنة.

"يا إلهي، حقًا أنا معجبة بك، أعني أن فيت مكرسة للأفعال المتطرفة... وأنت تعرف، حتى الآن، أجد أن بعض الأمور التي نقوم بها... صعبة، وأنا أتحدث عن المبدأ الذي نحن أكثر تمسكًا به. أعني كريسبين وفيت... هذه حياتي كلها".

فكّر جوشوا: آه عظيم، رائع.

"وما زلت خائفة جدًا حيال الليلة".

أشعلت جويلي السيجارة واستنشقت. مرّرتها مباشرة إلى جوشوا، حين كانت حافلة صغير تتجاوز البرلمان: "إن المسألة كما يعبّر عنها هذا المقتطف: إذا

كان عليَّ الاختيار بين خيانة صديقي وخيانة وطني، آمل أن أمتلك الجرأة على خيانة وطني". الخيار بين واجب ومبدأ، تعرف؟ لا أشعر أنني ممزقة هكذا. لا أعرف إن كان بوسعي أن أفعل ما فعلته، أعني لو كان والدي، إن التزامي الأول هو للحيوانات وهذا التزام كريسبين الأول أيضًا، وهكذا لا يوجد صراع. وهذا سهل بالنسبة لنا. لكنك يا جوش اتخذت القرار الأكثر تطرفًا بيننا كلنا... وتبدو هادئًا، أعني، هذا مثير للإعجاب... وأعتقد أنك في الحقيقة أثرْتَ إعجاب كريسبين، لأنه لم يكن متأكدًا إن كنت..."

واصلت جويلي الحديث، وواصل جوش هز رأسه في المواضع المناسبة، لكن العشبة التايلندية القوية التي كان يدخنها التقطت كلمة واحدة منها هي هادئ وكبحتها في سؤال. لماذا أنت هادئ هكذا يا جوشي؟ ستدخل في شيء كريه جدًا في الحال، لماذا أنت هادئ؟

لأنه تخيل أنه بدا هادئًا من الخارج، هادئًا بشكل خارق للمألوف، ويتمتع الأدرنالين لديه بعلاقة معكوسة مع نسغ رأس السنة المتصاعد، ومع الأعصاب المتوترة لمجموعة فيت، وتأثير الفشل قبل كل شيء. كان كمثل السير تحت الماء، عميقًا تحت الماء، بينما الأطفال يلعبون في الأعلى. ولكن لم يكن هذا هدوء عطالة، ولم يستطع أن يقرر، وسيارة الفان تتقدم في وايتهول، إن كان رد الفعل الصحيح هو أن يترك العالم يغمره، وأن يترك الأحداث تأخذ مجراها، أو إذا كان يجب أن يكون مثل أولئك الأشخاص، الأشخاص الذين هناك، يصيحون ويرقصون ويتشاجرون ويمارسون الجنس... وفيما إذا كان يجب أن يكون (ماذا كان ذلك الحشو المريع من القرن العشرين؟) استباقيًا أكثر، استباقيًا أكثر في وجه المستقبل.

أخذ سحبة أخرى عميقة من السيجارة أعادته إلى سن الثانية عشرة، في الثانية عشرة حين كان فتى غاليًا، يستيقظ كل صباح، متوقعًا بشكل كامل 12 ساعة قبل إعلان الجائحة النووية، تلك النهاية القديمة غير السارة لسيناريو العالم. وفي ذلك الوقت فكر كثيرًا بالقرارات المتطرفة، وبالمستقبل ومواعيده

النهائية. وحتى آنذاك أذهله أنه كان من غير المرجح أن يمضي تلك الساعات الاثنتي عشرة الأخيرة يمارس الجنس مع أليس، حاضنة الأطفال التي في سن الخامسة عشرة في البيت المجاور، مخبرًا الناس أنه يحبهم، متحولًا إلى اليهودية الأرثوذكسية، أو أن يفعل كل الأشياء التي كان يريدها وكل التي لم يتجاسر على فعلها. وبدا هذا دومًا مرجحًا أكثر له، مرجحًا أكثر بكثير، أن يعود إلى غرفته فحسب وينهي بهدوء بناء قلعة الليغو القروسطية. ما الشيء الآخر الذي يستطيع فعله؟ ما الخيار الآخر الذي يمكن أن تكون متيقنًا حياله؟ لأن الخيارات تحتاج إلى وقت، إلى اكتمال للوقت، لأن الوقت هو المحور الأفقي للأخلاق، وأنت تتخذ قرارًا ثم تنتظر النتائج، وهذا خيال جميل، خيال اللاوقت (بقي اثنتا عشرة ساعة، اثنتا عشرة ساعة)، النقطة التي تختفي فيها العواقب ويصبح كل فعل مسموحًا (أنا أتوق، أتوق جدًا إلى ذلك! جاءت الصيحة من الشارع). لكن جوشوا الذي في الثانية عشرة كان عصابيًا جدًا، في المرحلة الشرجية، وتشالفينيًا جدًا بحيث لم يستطع الاستمتاع بها، أو حتى التفكير بها. وبدلًا من ذلك، كان هناك يفكر، ولكن ماذا إذا لم ينته العالم؟ وماذا لو نمت مع أليس رودويل وحملت وماذا لو...

كان الأمر سيان الآن. ثمة دومًا خوف من العواقب، تلك العطالة المريعة دومًا. ما سيفعله لوالده خطير جدًا، وضخم جدًا، والعواقب غير قابلة للتصور. ولم يستطع تصوّر أي شيء يحدث بعد الفعل، تخيَّل البياض، العدم، وشيئًا كمثل نهاية العالم فقط. ومواجهًا نهاية العالم، أو فقط نهاية العام، منح هذا جوشوا دومًا شعورًا منفصلًا على نحو غريب.

كل مساء رأس سنة جائحة وشيكة الحدوث مصغرة. تمارس الجنس أينما رغبت، تتقيأ أينما أردت، ترمي الزجاجة على من شئت، وهناك التجمعات الضخمة في الشارع، والتقارير التلفزيونية عن البضائع والأشرار الذين ينتمون للزمن الماضي، والقبل الأخيرة المسعورة، والعد التنازلي!

حدق جوشوا في وايتهول، بالناس السعداء الذين يقومون بتجريب ملابسهم. كانوا جميعًا واثقين أنه لن يحدث أو متأكدين أنهم يستطيعون التعامل معه

إن حدث. ولكن جوشوا يعتقد بأن العالم يحدث لك، وليس أنت من يحدث للعالم، ولا تستطيع أن تفعل شيئًا حيال ذلك وللمرة الأولى في حياته صدق ذلك. وكان ماركوس تشالفن يؤمن بنقيض ذلك. وفي داخل هذا المكان الضيق أدرك كيف وصل إلى هنا، خارجًا من ويستمنستر، مراقبًا بيغ بين تقارب الساعة التي سيخرب فيها بيت أبيه. هكذا نصل كلنا إلى هنا: بين الصخور والأمكنة الصعبة جدًا، بين المقلاة والنار.

*****

لثلاثاء، 31 كانون الأول\ديسمبر، ليلة رأس السنة
إشارة إلى مشاكل في شارع بيكر
لا قطارات نحو الجنوب من شارع بيكر

ينصح الزبائن بالتغيير إلى خطوط ميتروبوليتان في فنشلي رود.
أو التغيير في شارع بيكر إلى بيكرلو

لا توجد خدمة حافلة بديلة.
القطار الأخير في الساعة الثانية.
يتمنى جميع موظفو الأنفاق في لندن لكم ليلة رأس سنة سعيدة!

مدير محطة ولسدين للقطارات رتشارد دالي.

وقف الأخوة ميلات وهيفان وتايرون ومو حسين اسماعيل وشيفا وعبدل كولن وعبدل جيمي ثابتين كالأعمدة وسط المحطة بينما تواصل رقص ليلة رأس السنة حولهم.

قال ميلات: "عظيم. ما الذي سنفعله الآن؟"

سأل عبدل جيمي: "ألا تستطيع القراءة؟"

قال عبدل كولن قاطعًا الطريق على أي مجادلة بصوته الجهير المهدئ والعميق: "نغير في فنشلي رود إن شاء الله".

كان سبب أن ميلات لم يستطع قراءة الكتابة على الحائط بسيطًا. كان مخدرًا. كان اليوم الثاني من رمضان وكان مخدرًا جدًا. وكانت جميع الخلايا العصبية في جسمه تدعوه لإنهاء عمل المساء والذهاب إلى البيت، لكن لا يزال هناك عامل مجتهد يدور على الدواسة في دماغه، متأكدًا من أن فكرة واحدة تدور في جمجمته: لماذا؟ لماذا أنت مخدر يا ميلات؟ لماذا؟ سؤال جيد.

في منتصف النهار عثر على بعض الماريجوانا القديمة في درج في صرة صغيرة من السيلوفان لم يتجرأ على رميها منذ ستة أشهر ودخنها كلها. دخن بعضها في غرفة نومه ثم سار إلى جلادستون بارك ودخن المزيد. دخن معظمها في موقف السيارات التابع لمكتبة ولسدن. أنهاها في مطبخ الطلاب، عند وارن تشابمان، وهو متزلج على الألواح أفريقي جنوبي يمضي الوقت معه أثناء النهار. وبالنتيجة، كان مخدرًا الآن، يقف على الرصيف مع البقية، مخدرًا بحيث لم يستطع أن يسمع الأصوات داخل الأصوات فقط بل الأصوات داخل الأصوات داخل الأصوات، واستطاع أن يسمع الفأر يندفع عبر المسارات، خالقًا مستوى أعلى من الإيقاع المنسجم، والفرقعة في مكبرات الصوت، والشخير النشاز لامرأة عجوز على بعد عشرين قدمًا. وحتى حين توقف القطار كان لا يزال يستطيع سماع هذه الأصوات تحت السطح. الآن، هناك مستوى من التخدير يمكنك تحمله، وكان ميلات يعرف هذا، أي أنك تكون مخدرًا جدًا بحيث تستطيع الوصول إلى اتزان الزن وتخرج من الجانب الآخر شاعرًا بأنك في حالة ممتازة كما لو أنك لم تدخن الماريجوانا أبدًا. آه، كان ميلات يتوق إلى هذا. تمنى فقط لو أنه وصل إلى هذا الحد. لكن هذا لم يكن كافيًا.

سأله عبدل كولن بقلق حين انفتحت أبواب القطار: "هل أنت على ما يرام يا أخ ميلات؟ لونك كريه".

"بخير، بخير"، قال ميلات، وقدم انطباعًا لا يُصدق بأنه بخير لأن الماريجوانا ليست كالكحول، مهما كانت سيئة، تستطيع دومًا، على مستوى ما، أن تتمالك نفسك. وكي يبرهن هذه النظرية لنفسه سار بطريقة بطيئة وواثقة عبر المقصورة وجلس في نهاية خط الأخوة، بين شيفا وبعض الأستراليين المثارين المتجهين إلى هيبودروم.

شيفا، على عكس عبدل جيمي، كانت له حصته من الأوقات الوحشية واستطاع أن يرى العين الحمراء الواشية من مسافة خمسين ياردة.

قال بصوت منخفض، واثقًا أنه لن يسمعه بقية الأخوة بسبب ضجة القطار: "ميلات، يا رجل، ما الذي كنت تفعله بنفسك؟"

نظر ميلات مباشرة أمامه وتحدث مع انعكاسه في نافذة القطار: "أنا أحضّر نفسي".

همس شيفا: "من خلال إفساد نفسك؟" نظر إلى نسخة سورة الطور المصورة التي لم يحفظها تمامًا. "هل أنت مجنون؟ من الصعب بما يكفي تذكر هذه الأشياء دون أن تكون على كوكب المريخ وأنت تفعل ذلك".

تمايل ميلات قليلًا، واستدار إلى شيفا في اندفاعة سيئة التوقيت: "أنا لا أحضر نفسي لهذا، أنا أحضر نفسي للفعل. لأنه لا أحد آخر سيفعل ذلك. نخسر رجلًا واحدًا فتخونون جميعكم القضية، وتهربون. لكنني أقف ثابتًا".

صمت شيفا. كان ميلات يشير إلى الاعتقال الذي حدث مؤخرًا للأخ إبراهيم الدين شكرالله بسبب تهم ملفقة بالتهرب من دفع الضرائب والعصيان المدني. لم يأخذ أحد التهم على محمل الجد، لكن الجميع عرفوا أنها تحذير غير لطيف من الشرطة بأن أعينهم على أنشطة كيفن. وفي ضوء هذا، كان شيفا أول من انسحب من الخطة ألف المتفق عليها، وتبعه بسرعة عبدل جيمي وحسين إسماعيل، الذي على الرغم من رغبته بممارسة العنف ضد أحد ما، أو أي شخص، كان لديه حانوته كي يفكر به. واستعر الجدل لمدة أسبوع (ودافع ميلات بشدة عن الخطة ألف)، ولكن في السادس والعشرين من الشهر سلّم كل من عبد الكولن

وتايرون وأخيرًا هيفان بأن الخطة ألف يمكن ألا تخدم مصلحة كيفن على المدى البعيد. ولم يستطيعوا في النهاية أن يتخيلوا أنفسهم مسجونين إلا إذا كانوا آمنين من خلال معرفة أن كيفن لديها قادة لاستبدالهم. وهكذا ألغيت الخطة ألف وارتُجلت الخطة باء بسرعة وتضمنت باء وقوف ممثلي كيفن السبعة في منتصف المؤتمر الصحفي لماركوس تشالفن وتلاوة سورة "الطور" أولًا بالعربية (عبدل كولن وحده سيفعل هذا) ثم بالإنكليزية، لكن الخطة باء أمرضت ميلات.

"وهل هذه هي؟ فقط ستقرؤون له؟ أهذا عقابه؟"

ما الذي حدث للانتقام؟ ما الذي حدث للجزاء الذي يستحقه، للحساب وللجهاد؟

استفسر عبدل كولن: "هل تقول إن كلام الله كما أُوحي للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ليس كافيًا؟"

حسنًا، كلا. ولكن على الرغم من أن الأمر أمرضه كان على ميلات أن يتنحى جانبًا، وبدلًا من مسائل الشرف والتضحية والواجب والحياة وأسئلة الموت التي جاءت مع التخطيط الحذر لحرب العصابات، الأسباب التي جعلت ميلات ينضم إلى كيفن، طُرحت مسألة الترجمة، واتفق الجميع أنه لا ترجمة للقرآن يمكن أن تُعتبر كلمة لله ولكن في الوقت نفسه سلّم الجميع أن الخطة باء ستفقد شيئًا ما في الإلقاء إذا لم يستطع أحد أن يفهم ما قيل. ولهذا كانت المسألة أية ترجمة تُستخدم ولماذا، وهل ستكون واحدة للمستشرقين الذين لا يوثق بهم ولكن الواضحة: بالمر (1880) بيل (1937-9)، آربري (1955)، داوود (1956)؟ الترجمة الغرائبية لكن الشعرية لجي. إم. رودويل (1861)؟ الترجمة القديمة المفضلة العاطفية والمخلصة التي قام بها المرتد الأنجليكاني الأفضل من الجميع محمد مارمادوك بكتال (1930)؟ أو أحد الأخوة العرب، الركيك شاكر أو المتكلف يوسف علي؟ تجادلوا خمسة أيام حول الموضوع. وحين كان ميلات يدخل إلى قاعة كلبرن في معظم المساءات كان عليه فقط أن يغمض عينيه نصف إغماضة كي يظن تلك الدائرة المتحدثة من الكراسي، أولئك المتعصبين الأصوليين

المفترضين، مجتمعين لمناقشة افتتاحية في صحيفة "لندن ريفيو أوف بوكس".

قال الأخ هيفان بصوت مرتفع: "ولكن داوود ممل. أحيلكم إلى 52: 44: "لو شاهدوا جزءًا من السماء يتساقط، سيواصلون القول: ليس هذا إلا كتلًا من السحاب!" كتل من السحاب؟ هذه ليست حفلة روك. في ترجمة رودويل ثمة محاولة للإمساك بالشعر على الأقل، الانتباه إلى شعرية اللغة العربية: ولو شاهدوا جزءًا من السماء متساقطًا لقالوا: إنها سحابة كثيفة فحسب". جزء، كثيفة، التأثير أقوى، أتوافقون؟"

ثم بتردد قال مو إسماعيل: "أنا فقط مالك ملحمة. لا أزعم أنني أعرف الكثير عن هذا، لكنني أحببت كثيرًا هذا السطر الأخير، في ترجمة رودويل... أعتقد، نعم، رودويل. 52: 49: "وفي آناء الليل سبّح بحمده حين تغرب النجوم. آناء الليل، أعتقد أنها عبارة جميلة، تبدو كأنشودة رعوية لإلفيس. أفضل بكثير من الأخرى، التي في ترجمة بيكتهول: "وفي وقت الليل أنشد مديحًا له أيضًا، وحين تغرب النجوم. آناء الليل أجمل بكثير".

صاح ميلات بهم جميعًا: "وهل نحن هنا من أجل هذا؟ هل هذا هو السبب الذي جعلنا ننضم إلى كيفن؟ ألا نقوم بأي فعل؟ أن نجلس على مؤخراتنا ونلعب بالكلمات؟"

لكن الخطة عُلِّقت، وهنا كانوا يعبرون فنشلي رود، متجهين إلى ساحة ترافلجار كي ينفذوها. ولهذا كان ميلات مخدرًا، كي يحصل على الشجاعة الكافية كي يفعل شيئًا آخر.

تمتم ميلات في أذن شيفا، مبتلعًا كلماته: "أقف ثابتًا، هذا ما نحن هنا من أجله. أن نقف ثابتين، لهذا انضممت، لماذا انضممتَ؟"

في الحقيقة انضم شيفا إلى كيفن لثلاثة أسباب، الأول لأنه كان متضايقًا من المعاملة السيئة الناجمة عن كونه الهندوسي الوحيد في مطعم بنغالي إسلامي. ثانيًا، لأنه رئيس الأمن الداخلي لكيفن فإن هذا يغطي على كونه النادل الثاني في مطعم القصر. وثالثًا، من أجل النساء، (ليس نساء كيفن، الجميلات والطاهرات

بشكل متطرف، بل كل النساء في الخارج اللواتي مللن من طرقه الوحشية وهن معجبات الآن بزهده الجديد، وأحببن لحيته، وكن يرفعن القبعة ويقلن لشيفا إنه في الثامنة والثلاثين توقف أخيرًا عن كونه ولدًا. وكن منجذبات بشكل هائل لحقيقة أنه هجر النساء وكلما ازداد هجره لهن صار أكثر نجاحًا، واستطاعت هذه المعادلة أن تعمل طويلًا، وصار شيفا يضاجع أكثر مما كان يفعله ككافر). وعلى أي حال، أحس شيفا أن الحقيقة ليست ما هو مطلوب هنا، وهكذا قال: "كي أؤدي واجبي".

قال ميلات وهو يحاول الربت على ركبة شيفا لكنه أخطأها: "إذًا نحن على الموجة نفسها يا أخ شيفا. السؤال الوحيد هو: هل ستفعل ذلك؟"

قال شيفا وهو يبعد يد ميلات من المكان الذي نزلت فيه بين ساقيه: "اعذرني يا زميل، لكن إذا أخذنا في الاعتبار وضعك الحالي، فإن المسألة، هل ستفعل؟"

الآن هناك سؤال. وكان ميلات نصف متأكد أنه ربما سيفعل شيئًا ما أو لا وهذا سيكون صحيحًا وسخيفًا وغير جيد.

ألح شيفا مراقبًا سحب الشك على وجه ميلات: "ميل، لدينا الخطة باء، لننفذ فقط الخطة باء. لا فائدة من أن نسبب مشاكل. يا رجل أنت مثل أبيك، إقبال التقليدي. ألا يمكن ترك الأمور تجري؟ ألا يمكنك ترك القطط النائمة تنام أو مهما كانت العبارة اللعينة؟"

استدار ميلات عن شيفا ونظر إلى قدميه. كان أكثر تأكدًا حين بدأ، متخيلًا الرحلة كصاروخ صغير بارد منطلق على خط جيوبيلي. ولسدن جرين، تشارنج كروس، لا تغيير للقطارات، ليس تلك الرحلة الفوضوية، فقط خط مستقيم إلى ساحة ترافالجار، ثم يصعد الدرج إلى الحي، ويرى وجهًا لوجه عدو جد جد جده، هنري هافلوك على قاعدة حجرية مغطاة بزرق الحمام. يشجعه هذا، ويدخل إلى مؤسسة بيريه بانتقام وبنزعة تعديلية في ذهنه ومجد مفقود في قلبه وسوف وسوف و...

قال ميلات بعد وقفة: "أعتقد أنني سأتقيأ".

"شارع بيكر"، صاح عبدل جيمي. وبمساعدة رزينة من شيفا، عبر ميلات المنصة إلى قطار الربط.

بعد عشرين دقيقة أوصلهم خط بيكرلو إلى البر الصقيعي لساحة ترافالجار. وفي المسافة، بيغ بين. وفي الحي هناك نلسون وهافلوك [188] ونابيير وجورج الرابع. ثم الصالة الوطنية، هناك قرب سينت مارتن. وكانت التماثيل كلها تواجه الساعة.

"إنهم يحبون أيقوناتهم في هذه البلاد"، قال عبدل كولن، بمزيج غريب من الجدية والسخرية، غير متأثر بحشد العام الجديد الكبير الذي كان يبصق ويرقص ويزحف حول الكتل الكثيرة من الأحجار الرمادية.

"الآن، هل يخبرني أحد من فضلكم ما الذي يجعل الإنكليز يبنون تماثيلهم بحيث تكون ظهورها مدارة للثقافة وأعينها موجهة نحو الوقت؟" توقف كي يترك أعضاء كيفن المرتجفين من البرد يفكرون بالسؤال الخطابي.

"لأنهم ينظرون إلى مستقبلهم كي ينسوا ماضيهم. أحيانًا أشعر بالأسف عليهم". واصل، دائرًا دائرة كاملة كي ينظر إلى الحشد الثمل.

"يفتقر الإنكليز للإيمان، لا يؤمنون إلا بما يصنعه الرجال، وما يصنعه الرجال يتفتت. انظروا إلى إمبراطوريتهم، إنها كل ما لديهم، شارع تشارلز الثاني ومنزل جنوب أفريقيا وكثير من الرجال الحجريين الذين يبدون أغبياء على أحصنة حجرية. إن الشمس تشرق وتغرب فيها في اثنتي عشرة ساعة، لا مشكلة. هذا ما بقي".

تذمر عبدل جيمي وصفق بيديه اللتين ترتديان قفازين (وجد خطابات عمه مزعجة جدًا) وقال حين اصطدم به رجل إنكليزي ضخم حامل بالبيرة، مبلل من النوافير: "أشعر ببرد شديد، هيا بنا خارج هذا الجنون اللعين. إنه في شارع تشاندوز".

قال عبدل كولن لميلات الذي كان يقف على مسافة من بقية الجماعة: "هل أنت مستعد يا أخ؟"

طلب منهم الذهاب بصوت ضعيف قائلًا: "سألحق بكم بعد قليل. لا تقلقوا، سألحق بكم".

كان هناك شيئان أراد أن يراهما أولًا: الأول مقعد معين، المقعد الذي هناك، عند الحائط البعيد. سار إليه، في رحلة طويلة متعثرة، محاولًا تجنب خط رقصة كونغا فوضوي (الكثير من الماريجوانا في رأسه، أثقال رصاصية على كل قدم)، لكنه فعلها، جلس وشاهد اسم:

إقبال

أحرف بطول خمس بوصات، بين أحد ساقي المقعد والساق الأخرى. إقبال. لم يكن واضحًا، وكان اللون معتمًا وصدئًا، لكنه كان هناك. كانت قصته قديمة.

بعد عدة أشهر من وصول والده إلى إنكلترة جلس على هذا المقعد كي يضمد إبهامًا نازفًا انقطع رأسه بضربة خفيفة من أحد النندل الأقدم. حين حدث هذا أولًا في المطعم لم يشعر صمد به لأنه كان في يده الميتة، وهكذا لفه بمنديل كي يوقف النزيف وواصل عمله. لكن المنديل تبلل بالدم، وجعل الزبائن ينفرون من طعامهم فاضطر أزدشير إلى إرساله إلى المنزل. غادر صمد بإبهامه المفتوح المطعم، عابرًا أرض المسرح ونازلًا في سينت مارتن لين. حين وصل إلى الساحة غمسه في النافورة وراقب دمه الأحمر ينحل في الماء الأزرق، لكنه ارتكب خطًا وكان الناس يراقبون فقرر بدلًا من ذلك الجلوس على المقعد، ماسكًا إبهامه من الجذر

إلى أن يتوقف النزيف. واصل الدم النزف. وبعد وهلة، توقف عن حمل إبهامه منتصبًا وتركه يتدلى نحو الأرض كاللحم الحلال، آملًا أنه سيسرّع عملية النزف. ثم، ورأسه بين ساقيه، وإبهامه يسرب الدم إلى الأرض، انتابه دافع بدائي، وببطء، وبالدم النازف كتب كلمة إقبال من ساق المقعد إلى الأخرى. ثم في محاولة لجعله يبدو أبديًا، مر فوقه ثانية بالمدية، وخدشه على الحجر.

قال لولديه بعد سنوات: "شعرتُ بعار شديد في اللحظة التي انتهيتُ فيها من ذلك. هربت منه سائرًا في الليل، محاولًا الهرب من نفسي، عرفت أنني مكتئب في هذه البلاد... لكن هذا كان مختلفًا. انتهى بي الأمر إلى التمسك بالدرابزين في سيرك البيكاديلي راكعًا ومصليًا، باكيًا ومصليًا ومقاطعًا الموسيقيين الجوالين. لأنني عرفت ما عناه هذا، هذا الفعل. أردت أن أكتب اسمي على العالم، عنى أنني تجرأت كمثل الرجال الإنكليز الذين سمّوا الشوارع في كيرالا بأسماء زوجاتهم، وكالأميركيين الذين نصبوا رايتهم على القمر. وكان هذا تحذيرًا من الله، مفاده: إقبال، أنت تصير مثلهم. هذا ما عناه الأمر".

فكر ميلات في المرة الأولى التي سمع بها هذا: كلا، ليس هذا ما عناه، بل عنى أنك لا شيء. وهو يفكر بالمسألة الآن لم يشعر ميلات إلا بالاحتقار، فقد أراد طيلة حياته عرابًا، وكل ما حصل عليه هو صمد، خادم مختل ومحطم وغبي وبيد واحدة، رجل أمضى ثمانية عشرة عامًا في أرض غريبة ولم يُحدث أثرًا أكبر من هذا. كرر ميلات: هذا يعني أنك لا شيء فحسب، شاقًا طريقه عبر القيء المبكر لفتيات يشربن علبًا مزدوجة منذ الثالثة كي ينظر إلى العينين الحجريتين لهافلوك. هذا يعني أنك لاشيء وهو شيء ما، وهذه هي المسألة. لهذا شُنق باندي من شجرة بينما جلس الجلاد هافلوك على كرسي استرخاء في دلهي. باندي لم يكن أحدًا وهافلوك كان أحدًا ما. لا حاجة لكتب المكتبة والمجادلات وإعادات البناء. ألا ترى يا أبي؟ همس ميلات، هذه هي المسألة، هذا هو التاريخ الطويل لنا ولهم، هكذا كان، ولكن ليس بعد الآن، لأن ميلات جاء كي ينهي المسألة، ولينتقم ويغير ذلك التاريخ، لأنه يريد

أن يتبنى موقفًا مختلفًا. وإذا كان ماركوس تشالفن سيكتب اسمه على العالم كله، فإن ميلات سيكتبه بشكل أكبر. ولن يكون هناك سوء تهجية لاسمه في كتب التاريخ، ولن تُنسى التواريخ والأوقات. وحيث زلت قدم باندي، سيقف هو بشكل ثابت، وحيث اختار باندي الخطة ألف، سيختار ميلات الخطة باء.

نعم، كان ميلات مخدرًا، وقد يكون من السذاجة بالنسبة لنا أن نصدق أن شخصًا من عائلة إقبال يمكن أن يصدق أن فتات خبزٍ وضعه شخص من عائلة إقبال، قبل أجيال منه، لم يتطاير بعد في النسيم. لكن لا يهم في الحقيقة ماذا نصدق لأن هذا على ما يبدو لن يوقف الرجل الذي يعتقد أن الحياة تقودها الحياة التي عاشها من قبل، أو الغجرية التي تقسم بالملكات اللواتي في حزمة التارو التي لديها، ولأنه من الصعب تغيير رأي المرأة العصبية التي تلقي مسؤولية كل أفعالها على أمها، أو الشخص الوحيد الجالس على كرسي قابل للطي على هضبة في حلكة الليل منتظرًا الرجل الأخضر الصغير. وفي وسط المشاهد الغريبة التي حلت مكان إيماننا بفعالية النجوم، ليس ميلات أرضًا غريبة كهذه، فهو يؤمن بأن القرارات التي اتُخذت تعود، وأننا نعيش في دوائر، وبالنسبة له كل الأمور مقدرة وما يذهب يعود.

"دينغ، دينغ"، قال ميلات، ضاربًا قدم هافلوك قبل أن يستدير على كعبيه كي يشق طريقه في الضباب إلى شارع تشاندوس. "الجولة الثانية".

*****

الواحد والثلاثون من كانون الأول\ديسمبر

وَالَّذِي يَزِيدُ عِلْمًا يَزِيدُ حُزْنًا

(سفر الجامعة)

حين طُلبَ من ريان توبس أن يُعدَّ تقويم المكتب الخاص بقاعة مملكة لامبيث لعام 1992 والذي يحمل عنوان "فكرة اليوم" حرص على تجنب أخطاء أسلافه. فقد لاحظ ريان أنه حين كان الجامعُ يختار المقتطفات سابقًا من أجل الأيام الدنيوية التافهة كانت تسيطر عليه العاطفة، بحيث أننا نجد في عيد الحب في 1991: "لَا خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ" (يوحنا 1، 4: 18)، كما لو أن يوحنا كان يفكر بالشعور التافه الذي يحث الناس على أن يرسلوا لبعضهم علب شوكولاتة ودببة رخيصة بدلًا من حب يسوع المسيح، الذي لا يعادله شيء. وتبنى ريان المقاربة المضادة، ففي يوم رأس السنة، مثلًا، حين كان الجميع يتراكضون متخذين قراراتهم حول رأس السنة، مقيّمين عامهم الماضي ومخططين لنجاحهم في التالي، شعر أنه من الضروري أن يوقظهم بصدمة. وأراد أن يذكّرهم قليلًا أن العالم قاس وبلا هدف، وكل المسعى الإنساني في النهاية قبْض ريح، ولا شيء في هذا العالم يستحق القيام به باستثناء كسب رضا الرب وبطاقة الدخول إلى النصف الأفضل من الآخرة. وبعد أن أكمل تقويم العام الماضي ونسي الكثير مما فعله، شعر بالدهشة حين مزق يوم الثلاثين ونظر إلى الورقة البيضاء الهشة لصفحة اليوم الواحد والثلاثين، إلى كم هو فعال ما تبقى منها فحسب. لا فكرة يمكن أن تكون أكثر ملاءمة لليوم القادم، لا تحذير أكثر ملاءمة. فقام بنزعها من التقويم وحشرها في الجلد الضيق لبنطلونه وطلب من السيدة ب أن تصعد إلى العربة الجانبية.

أنشدت السيدة ب وهما ينطلقان عبر جسر لامبيث، متوجهين إلى ساحة ترافالجار: "هذا الذي سيواجه الكوارث كلها بيسالة! ليتبع المعلم على الدوام".

تأكد ريان من أن يعطي إشارة قبل أن ينعطف يسارًا كي لا ترتبك سيدات المملكة الجالسات خلفه في الفان. وقام بجرد ذهني سريع للأشياء التي سيضعها في الفان: كتب الأناشيد والأدوات والرايات ومنشورات برج المراقبة وكلها موجودة وصحيحة. ولم يكن لديهما بطاقات دعوة، ولهذا قررا أن يقوما باحتجاجهما في الخارج، في البرد، كي يعانيا كمسيحيين حقيقيين. الحمد لله! يا له من يوم عظيم!

كل النذر جيدة. حتى أنه شاهد في منامه ليلة أمس أن ماركوس تشالفن هو الشيطان بعينه وكانا يقفان وجهًا لوجه. قال ريان: أنا وأنت في حرب، ولا يمكن أن يكون هناك إلا منتصر واحد. ثم ردد النص نفسه من الكتاب المقدس (لم يستطع تذكره بدقة، لكنه كان من سفر الرؤيا) مرة بعد أخرى، إلى أن صار الشيطان ماركوس أصغر وأصغر، ونمت له أذنان وذيل طويل متشعب، ثم جرى أخيرًا كفأر شيطاني صغير. وما حدث في هذه الرؤيا، سيتحقق في الحياة. ريان سيبقى غير منحن وثابتًا بشكل مطلق، وفي النهاية سيتوب المذنب.

هكذا قارب ريان الصراعات اللاهوتية والعملية والشخصية. ولم يتزحزح بوصة واحدة، وتجلت موهبته هنا دومًا، وكان لديه ذكاء أحادي البعد، وقدرة على التمسك بفكرة واحدة بعناد رهيب، ولم يجد أبدًا شيئًا يناسبه جيدًا مثل كنيسة شهود يهوه. وكان فكر ريان قائمًا على الخير والشر، والمشكلة مع أهوائه السابقة كركوب الدراجة وموسيقا البوب هو أن هناك دومًا ظلالًا رمادية (ولو أنه من المحتمل أن أقرب شيئين في العالم الدنيوي لواعظ من الشهود هما الفتيان الذين يرسلون رسائل إلى مجلة نيو ميوزيكال إكسبرس والمتحمسون الذين يكتبون المقالات لمجلة سكوترز توداي). وهناك دومًا الأسئلة الصعبة مثل: هل سيقلل المرء من تقديره لفرقة الكينكس من خلال الإصغاء قليلًا لفرقة سمول فيسيس، أو إن كانت إيطاليا أو ألمانيا أفضل صانعي قطع غيار محركات في العالم. وبدت تلك الحياة غريبة له الآن بحيث نادرًا ما تذكرها. وشعر بالشفقة على الذين يعانون تحت ثقل شكوك ومعضلات كهذه. وشعر بالشفقة أيضًا على البرلمان حين كان هو والسيدة ب يعبرانه على الدراجة لأن القوانين التي تُسن فيه مؤقته بينما قوانينه أبدية.

أنشدت السيدة ب: "لا ملمة تجعله يلين، أول ما نواه هو أن يصير حاجًا. ومن يضايقونه بقصص تافهة... يربكون أنفسهم فحسب، قوته كلما..."

استمتع بالأمر، أمتعه أن يقف وجهًا لوجه مع الشر ويقول له: برهن ذلك

لـي، هيـا برهـنْ. شـعـر أنـه لا يحتـاج مثـل المسـلمين واليهود إلى الحجـج والبراهين المعقدة أو الدفاعات، بل يحتاج إلى إيمانه فحسب. وليس هناك شيء عقلاني يمكن أن يقاتل الإيمان. وإذا كان "حرب النجوم" (الفيلم الذي يفضله ريان في السر ويتحدث عن الأخيار والأشرار والقوة بهذه البساطة وبهذا الصدق) ملخّص كل الأساطير القديمة المهجورة والاستعارة الأنقى للحياة (كما اعتقد ريان) فإن الإيمان غير الملوث إذًا، الإيمان الجاهل، هو سيف الضوء الأكبر في العالم. هيا، برهنْ ذلك. وكان يفعل هذا كل يوم أحد على العتبات وسيفعل الأمر نفسه بدقة مع ماركوس تشالفن. برهنْ لي أنك مصيب، برهنْ لي أنك أكثر صحة من الله. لا شيء على الأرض سيفعلها. لأن ريان لم يؤمن ولم يكترث بأي شيء آخر على الأرض.

"أوشكنا على الوصول".

ضغط ريان على يد السيدة ب الضعيفة وأسرع عبر السترانـد، ثم انعطف خلف الصالة الوطنية.

"لا يستطيع عدو أن يواجه جبروته ورغم أنه يصارع العمالقة سيجعل الخير يده اليمنى، كي يصير حاجًا!"

تعبير جيد يا سيدة ب! كي يصير حاجًا! الذي لا يتجرأ ومع ذلك يرث الأرض! له الحق في أن يكون على صواب، ويعلّم الآخرين، ويكون عادلًا في الأوقات كلها لأن الله أمر أنه سيكون، أن يذهب إلى أراض غريبة وأمكنة غرائبية ويتحدث مع الجهلة واثقًا أنه لا يتحدث إلا الحقيقة، أن يكون دومًا على حق، وهذا أفضل بكثير من الحقوق التي اعتبرها مرة عزيزة عليه: الحق بالحرية والحق بالتعبير والحرية الجنسية وحرية تدخين الماريجوانا وحرية الاحتفال وحرية ركوب دراجة 65 ميلًا في الساعة على الطريق السريع دون خوذة. اعتقد أن يمتلك أكثر بكثير من كل هذه، ومارس حقًا غريبًا في هذا القرن الذي وصل إلى نهاية كسيجارة وصلت إلى عقبها، الحق بأن يكون عمليًا مهجورًا وعتيق الطراز، الحق الأكثر أهمية، الحق بأن تكون شخصًا جيدًا.

*****

في: 1992\12\31

حافلات النقل في لندن

الطريق 98

من خط ولسدن

إلى: ساحة ترافالجار

في 17: 35

الأجرة: للراشد 0.70

احتفظ بالبطاقة للتفتيش

فكر آرشي متعجبًا من أنهم لا يصنعونها كما في السابق، وهذا لا يعني القول إنهم جعلوها أكثر سوءًا، بل جعلوها مختلفة جدًا، وحشوها بالكثير من المعلومات. وفي اللحظة التي تُخْرج فيها واحدة من الشق تشعر بأن مُحَنِّطًا كليّ الرؤية يحاصرك ويثبتك، وأنك مجمد ومؤطر في الزمن، وبأنك عالق. وتذكر آرشي أنها لم تكن هكذا. ومنذ سنوات كثيرة كان له ابن عم يُدْعى بيل، يعمل على الطريق القديم 32 في شارع أكسفورد. نوع جيد، يا بيل. كانت هناك ابتسامة وكلمة جميلة للجميع. اعتاد أن يخرج بطاقة من تلك الآلات الميكانيكية ذات المقابض الكبيرة التي تتحرك ببطء (أين ذهبت؟ أين الحبر الملطخ؟). وحين يحدث خطأ في إدخال النقود يأتي صوت بيل الموجود دومًا كي يساعدك: أنا هنا يا آرشي. على أي حال، لا تقول لك تلك البطاقات القديمة إلى أين أنت ذاهب أو من أين أتيت، ولا يتذكر أنه شاهد أية تواريخ عليها أيضًا، ولم يكن هناك ذكر للتوقيت. إن الأمر مختلف الآن بوجود كل تلك المعلومات. وتساءل آرشي لماذا هذا. وربت على كتف صمد الذي يجلس أمامه مباشرة فاستدار ونظر إلى البطاقة التي أراها له، وأصغى إلى السؤال وخص آرشي بنظرة مضحكة.

"ما الذي تريد أن تعرفه بالضبط؟"

بدا مستاء قليلًا، وكان الجميع مستائين. حدثت مشاحنة في أوائل الأصيل. طلبت نينا أن يذهب الجميع إلى مناسبة الفأر ورؤية كيف أن آيري منخرطة وماجد منخرط وكان أقل ما يمكنهم فعله هو الذهاب ودعم العائلة لأنه بصرف النظر عن آرائهم فقد خُصص الكثير من العمل للأمر ويحتاج الشبان إلى التشجيع من آبائهم وستذهب هي حتى إذا لم يذهبوا هم وسيكون عرضًا بائسًا إذا لم تستطع العائلة الحضور في يومها الكبير و... حسنًا، وتواصل الكلام، ثم المجادلة. انفجرت آيري باكية (ما المشكلة مع آيري؟ إنها تقوم ببعض البكاء دومًا هذه الأيام)، اتهمت كلارا نينا بالابتزاز العاطفي، وقالت ألسانا إنها ستذهب إذا ذهب صمد، وقال صمد إنه كان يمضي ليلة رأس السنة في أوكونيل طيلة ثمانية عشر عامًا ولن يقاطع هذا الآن. أما آرشي فقال إنه سيزعجه الذهاب والإصغاء إلى تلك الجلبة طيلة المساء، ويفضل أن يجلس على هضبة هادئة لوحده. نظر الجميع إليه باستغراب حين قال هذا. لم يعرفوا أنه ينفذ نصيحة نبوئية تلقاها من إبلجوفتس البارحة:

28 كانون الأول 1992

عزيزي الغالي أرشيبالد

إنه الفصل الذي يجب أن تكون فيه مرحًا...
هكذا قيل، ولكنني لا أرى من نافذتي إلا الاضطراب. حاليًا هناك ست قطط جائعة للمساحة تتقاتل في حديقتي، غير راضية بهوايتها الخريفية في تبليل بقعها بالبول، وقد ولّد الشتاء فيها إلحاحًا قويًا جدًا تجلى حتى في المخالب والفرو المتطاير... إن صوت الخدش يبقيني مستيقظًا كل الليل. لا أستطيع التوقف عن التفكير بأن قطي غابرييل توصل إلى الحل الصحيح، كان يجلس على سطح كوخي متخليًا عن بقعته من الأرض مقابل حياة هادئة.

لكن في النهاية، اتخذت ألسانا القرار، سيذهب آرشي والجميع سواء أحبوا ذلك أم لا. لكنهم لم يحبوا ذلك. والآن يحتلون نصف الحافلة في محاولاتهم للجلوس لوحدهم: جلست كلارا خلف ألسانا التي جلست خلف آرشي الذي كان خلف صمد الذي جلس مقابل نينا. وجلست آيري قرب آرشي لأنه لم يتبق مكان فارغ.

قال آرشي محاولًا القيام بالمحادثة الأولى كي يكسر الصمت الجليدي منذ أن غادروا ولسدن: "كنت أقول فحسب... إن كمية المعلومات التي يضعونها على بطاقات الحافلة في هذه الأيام مثيرة للانتباه بالمقارنة مع الأيام القديمة. كنت أتساءل فقط لماذا".

قال صمد عابسًا: "أصدقك القول يا أرشيبالد، أظن أن هذا غير مهم. إنه بليد جدًا".

قال آرشي: "آه حسنًا، أنت على حق".

قامت الحافلة بإحدى تلك الانعطافات القوسية بحيث تشعر أن مجرد نفس سيقلبها.

"إم... إذًا لن تعرف لماذا..."

"كلا يا جونز، ليس لدي أصدقاء حميمون في مرآب كل حافلة، ولا أية معرفة داخلية بالقرارات التقدمية التي لا شك أنها تُتخذ يوميًا داخل دائرة لندن للنقل، لكن إذا كنت تريد تخميني غير المثقف أعتقد أن هذا جزء من عملية مراقبة حكومية ضخمة لتعقب جميع حركات أرشيبالد جونز، لمعرفة أين كان وماذا يفعل في جميع الأيام واللحظات".

تدخلت نينا مستاءة: "يا يسوع! لماذا يجب أن تكون مستبدًا هكذا؟"

"عفوًا؟ لست متأكدًا إن كنت أتبادل محادثة معك يا نينا؟"

"لقد طرح سؤالًا فحسب وأجبت بكل ذلك السوء. أعني كنت تضايقه لنصف قرن، ألم تكتف؟ لماذا لا تتركه لوحده فحسب؟"

"نينا بيجوم، أقسم أنك إذا قدمت لي توجيهًا واحدًا اليوم سأقطع لسانك

شخصيًا من الجذر وألبسه كعقد".

قال آرشي، مرتبكًا من المشكلة التي سببها دون قصد منه: "اهدأ يا صمد، كنت فقط..."

صاحت ألسانا من آخر الحافلة: "لا تهدد ابنة أختي. لا تصرّف غضبك عليها لأنك تفضل أن تأكل الفاصولياء ورقائق البطاطا (آه! فكر آرشي بحزن، فاصولياء ورقائق بطاطا!) على الذهاب كي تشاهد ابنك ينجز شيئًا فعليًا و...".

قالت كلارا مضيفة كلماتها القليلة: "لا أذكر أنك كنت بهذا الذكاء. إنك تمتلكين طريقة ملائمة جدًا يا آلسي، وهي نسيان ما حدث منذ دقيقتين".

قال صمد: "هذا من المرأة التي تعيش مع أرشيبالد جونز! يمكن أن أذكرك أن الناس في البيوت الزجاجية..."

احتجت كلارا: "كلا يا صمد، لا تبدأ معي. أنت الوحيد الذي اعترض على المجيء... لكنك لا تتقيد بقرار أبدًا. دومًا، تتصرف مثل باندي. على الأقل. إن آرشي..." تلعثمت كلارا، غير معتادة على الدفاع عن زوجها وغير متأكدة من الصفة الضرورية، "على الأقل يتّخذ قرارًا ويتقيد به. على الأقل هو متماسك".

قالت ألسانا بسخرية: "آه، أكيد، بالطريقة نفسها التي يكون فيها حجر متماسكًا، بالطريقة نفسها التي كانت بها جدتي العزيزة متماسكة لسبب بسيط وهي أنها مدفونة تحت الأرض ل..."

قالت آيري: "آه، اخرسي!".

صمتت ألسانا للحظة، ثم تلاشت الصدمة وعثرت على لسانها: "آيري جونز، لا تقولي لي..."

قالت آيري، وقد احمر وجهها: "كلا، سأقول لك، فعلًا. نعم، سأفعل، اخرسي. اخرسي يا ألسانا، واخرسوا كلكم. حسنًا؟ فقط اخرسوا. هناك أشخاص غيركم في الحافلة، وصدقوا هذا أم لا تصدقوه، لا يرغب جميع من في الكون بالإصغاء إليكم. ولهذا اخرسوا! هيا. حاولوا ذلك. التزموا الصمت. آه". مدت يدها في الجو كما لو أنها تحاول أن تلمس الهدوء الذي خلقته. "أليس هذا

شيئًا ما؟ هل عرفتم أن العائلات الأخرى هي هكذا؟ إنهم هادئون. اسألوا أحد الأشخاص الجالسين هنا. سيخبرونكم. لديهم عائلات. هكذا هي بعض العائلات طيلة الوقت. وبعض الناس يحبون تسمية هذه العائلات مكبوتة، أو معاقة عاطفيًا، أو أي شيء، لكن هل فهمتم ما قلته؟"

كان آل إقبال وآل جونز مندهشين وصامتين مع البقية في الحافلة (حتى فتيات الراجا الثرثارات في طريقهن إلى قاعة بركيستون للرقص لليلة رأس السنة)، لم يجبن.

"أغبياء محظوظون. أغبياء محظوظون".

صاحت كلارا: "آيري جونز، راقبي فمك!" لكن كان من المستحيل إيقاف آيري.

"يا له من وجود مسالم. أية متعة ستكون حياتهم. يفتحون بابًا وكل ما لديهم خلفه هو حمام أو غرفة جلوس، أمكنة حيادية فقط، وليس تلك المتاهة اللانهائية من الغرف الحالية والغرف الماضية والأمور التي قيلت فيها منذ سنوات والبراز التاريخي للجميع في كل أنحاء المكان. إنهم لا يرتكبون الأخطاء نفسها باستمرار، ولا يُصغون دومًا للبراز القديم نفسه، ولا يقومون بأداءات عامة تعبر عن خوفهم وقلقهم في النقل العام. حقًا، يوجد هؤلاء الناس. أقول لكم إن الرضات الأكبر في حياتهم هي شيء مثل إعادة فرش السجاد ودفع الفاتورة وإصلاح البوابة. لا يهمهم ماذا يفعل أولادهم في الحياة طالما هم متعقلون وبصحة جيدة وسعداء، ولا تحدث في كل يوم لعين تلك المعركة الهائلة بين من هم ومن يجب أن يكونوا. هيا، اسألوهم. وسيخبرونكم. لا يوجد جامع، ربما هناك كنيسة صغيرة. ونادرًا ما يوجد ذنوب. وهناك الكثير من الصفح. لا توجد عليات، ولا براز في العليات، ولا هياكل عظمية في الخزانات، ولا آباء أجداد. سأراهن الآن بعشرين جنيهًا أن صمد هو الشخص الوحيد هنا الذي يعرف قياس بنطلون والد جده. وهل تعرفون لماذا لا يعرفون؟ لأن هذا لا يهمهم، إنه الماضي بالنسبة إليهم. هكذا هو الأمر في العائلات أخرى. إنهم لا ينغمسون في الأوهام، ولا يركضون مستمتعين

بحقيقة أنهم لا ينفعون في شيء، ولا يمضون وقتهم محاولين العثور على طرق لجعل حياتهم أكثر تعقيدًا. يتصالحون مع الأمر فقط. الأوغاد المحظوظون! الحقيرون المحظوظون!"

اندفع الأدرينالين الذي ارتفع من هذا الانفجار الخاص عبر جسد آيري وزاد من خفق قلبها إلى عَدْو ودغدغ نهايات أعصاب طفلها الذي لم يولد، ذلك أن آيري كانت حاملًا في أسبوعها الثامن وتعرف ذلك. لكن ما لا تعرفه، وما أدركت أنها يمكن ألا تعرفه أبدًا هو هوية والده في اللحظة التي شاهدت فيها اللون الأزرق الباستيلي الشبحي يتجسد في الاختبار المنزلي، كمثل وجه المادونا المتجسد في ثمرة قرع ربة منزل إيطالية. ولن يخبرها أي اختبار على الأرض عن ذلك. الشعر الكثيف الأسود نفسه، العينان المتوهجتان نفسهما، العادة نفسها في مضغ رؤوس الأقلام وقياس الحذاء ذاته، ونفس الحمض النووي الريبي منقوص الأوكسجين. ولم تستطع معرفة قرار جسمها، ما الخيار الذي قام به، في السباق إلى المشيج، بين المُنقذ واللامُنقذ. ولم تستطع أن تعرف إن كان الخيار سيُحدث أي فرق، لأنه إذا كان أي أخ منهما هو الأب سيكون الآخر أيضًا ولن تعرف أبدًا.

بدت هذه الحقيقة محزنة بشكل لا يُوصف لآيري في البداية، وغريزيًا أضفت طابعًا عاطفيًا على الحقائق البيولوجية، مضيفة قياسها المنطقي غير الصالح: إذا لم يكن ابن أحد ما، هل يمكن أن يكون ابن لا أحد؟ فكرت بتلك الخرائط الإحصائية المتقنة التي تُفتح وتُطوى في كتب جوشوا القديمة الخاصة بالخيال العلمي، ومغامراته الخيالية. وهكذا بدا طفلها، بدا شيئًا مخططًا بشكل تام دون إحداثيات حقيقية، خريطة لأرض آباء خيالية. ولكن بعد البكاء وتقليب الأمر كثيرًا في ذهنها، فكرت: لا يهم، أيا كان. سيجري الأمر دومًا هكذا، ليس هكذا بالضبط، لكن بتورط كهذا. هؤلاء هم آل إقبال الذين نتحدث عنهم، هنا. وهؤلاء هم آل جونز. كيف يمكن أن تتوقع أي شيء أقل من هذا؟

وهكذا هدأت نفسها، واضعة يدها على الصدر الخافق ومتنفسة بعمق فيما كانت الحافلة تقترب من الساحة والحمامات تدور محلقةً. ستقول لأحدهما

وليس للآخر، ستقرر أيًا منهما، ستفعل هذا الليلة.

سألها آرشي، بعد فترة طويلة من الصمت، واضعًا يده القرنفلية الكبيرة على ركبتها المنقطة ببقع بنية كمثل بقع القهوة: "هل أنت على ما يرام يا حبي؟ ثمة الكثير الذي يثقل صدرك إذًا".

"بخير، أنا بخير يا أبي".

ابتسم لها آرشي، ووضع شعرة ضالة خلف أذنها.

"أبي".

"نعم؟"

"بخصوص بطاقات الحافلة".

"نعم؟"

"تقول إحدى النظريات إن السبب هو أن كثيرًا من الناس يدفعون أقل مما ينبغي لرحلتهم. وفي السنوات القليلة الماضية عانت شركات الحافلات من حالات عجز متزايدة. أترى حيث كتب عليها "احتفظ بها للتفتيش"؟ هذا كي يستطيعوا أن يفتشوا فيما بعد. التفاصيل كلها هنا، وهكذا لا تستطيع الهرب".

تساءل آرشي إن كان عدد قليل فحسب يغش في الماضي؟ هل كان الناس أكثر صدقًا، وهل كانوا يتركون الأبواب الأمامية مفتوحة، ويتركون أطفالهم مع الجيران، ويقومون بزيارات اجتماعية، ويستدينون من اللحام؟ إن الشيء الممتع حيال التقدم في السن في بلاد هو أن الناس يريدون دومًا أن يسمعوا هذا منك، يريدون أن يسمعوا إن كانت فعلًا أرضًا خضراء وظريفة، فهم يحتاجون إلى هذا. وتساءل آرشي إن كانت ابنته بحاجة إلى هذا. كانت تنظر إليه بطريقة غريبة، فمها مدار إلى الأسفل، وعيناها تتوسلان تقريبًا، لكن ماذا يمكن أن يقول لها؟ أيام رأس السنة تأتي وتذهب، لكن لن تغير كمية من القرارات حقيقة أن هناك أشخاصًا سيئين. وكان هناك دومًا الكثير من الأشخاص السيئين.

قالت آيري بنعومة رنة الجرس من أجل موقفهم: "حين كنت طفلة ظننتُ أن بطاقات الحافلة أدلة. انظر: إنها تسجل الوقت والتاريخ والمكان. ولو كنت

في المحكمة وكان عليّ أن أدافع عن نفسي، وأبرهن أنني لم أكن حيث قالوا إنني كنت، وفعلت ما قالوا إنني فعلته، في الوقت الذي يقولون إنني فعلته فيه سأخرج لهم واحدة من هذه".

كان آرشي صامتًا، وآيري التي افترضت أن المحادثة انتهت اندهشت حين بعد عدة دقائق، وبعد أن شقوا طريقهم عبر حشد السنة الجديدة السعيد والسياح الواقفين بدون هدف، وفيما كانوا يصعدون درج مؤسسة بيريه، قال لها والدها: "لم أفكر أبدًا بهذا لأنه لا يعرف المرء أبدًا، أليس كذلك؟ أعني، هل تعرفين؟ حسنًا. إليك بهذه الفكرة: أظن أنه يجب أن تجمعيها من الشارع، وتضعيها في جرة، كي يكون عندك أدلة لجميع المناسبات".

*****

كان الجميع متجهين إلى الغرفة نفسها، إلى المكان الأخير. وكانت غرفة كبيرة، واحدة من كثيرات في مؤسسة بيريه، منفصلة عن المعرض لكنها تُدعى غرفة عرض، وهي مقر شركة حيث لا يوجد قيود ولا التزامات، وهي بيضاء ملبّسة بالكروم ولامعة ونظيفة (كانت مصممة هكذا باختصار) وتُستخدم لاجتماعات الأشخاص الذين يريدون الاجتماع في مكان ما حيادي في نهاية القرن العشرين، مكان افتراضي حيث يمكن أن يُنجز عملهم، سواء كان إعادة التسويق باسم تجاري جديد، أو استخدام ماركة جديدة للثياب الداخلية النسائية، في فراغ، في تجويف غير ملوث، في نقطة نهاية منطقية لألف سنة من الأمكنة المكتظة جدًا والدموية. وهذا المكان البسيط والمعقم كانت تنظفه وتجدده كل يوم عاملة تنظيف نيجيرية بآلة هوفر ويحرسه في الليل السيد دي وينتر، وهو حارس أندية ليلية بولندي (يسمي عمله منسق أمن ملكيات)، ويمكن رؤيته يحمي المكان، ويسير على حدوه بجهاز استماع يصدر ألحانًا فولكلورية بولونية، وتستطيع مشاهدته من خلال واجهة زجاجية ضخمة إذا سرتَ قرب فدانات الفراغ المحروس وترى يافطة عليها أسعار كل قدم مربع من هذه الأقدام المربعة من "المكان المكان المكان" الذي طوله

أكبر من عرضه والطويل بما يكفي كي يتسع لثلاثة أشخاص بطول آرشي من أصابع القدم إلى الرأس وعلى الأقل لنصف ألسانا والليلة يوجد (لن يكونا هناك غدًا) ملصقان ضخمان متطابقان موضوعان على جانبي الغرفة كورق الجدران كتب عليهما "لجنة العلم الألفية" بأنواع مختلفة من الخطوط التي تتسلسل من نوع خط الفايكنغ القديم والمهجور إلى حداثة خط إمباكت من أجل الحصول على شعور ألف سنة من الترقين (كان هذا هو الموجز) وكل هذا باللون الرمادي المتكرر، والأزرق الفاتح والأخضر الغامق لأن هذه هي الألوان التي كشفت الأبحاث أن الناس يربطونها ب "العلم والتكنولوجيا (اللون الأرجواني والأحمر يشيران إلى الفنون، والأزرق الملكي إلى "الجودة و\أو السلعة المصادق عليها)، لأنه لحسن الحظ بعد سنوات من خلق الشركات للإحساس المرافق (الأكياس الزرقاء المملحة والمنكهة بالخل، أكياس الجبنة والبصل الخضراء) يستطيع الناس في النهاية أن يقدموا الأجوبة المطلوبة حين يُصمّم المكان، أو حين تُعاد تسمية شيء: غرفة، أثاث، بريطانيا (هذا هو الموجز: غرفة بريطانية جديدة، النزعة البريطانية، مكان لبريطانيا، مكان صناعي بريطاني، مكان ثقافي، مكان... مكان...)، يعرفون ماذا يُقصد حين يُسْألون كيف تجعلهم طبقة الكروم يشعرون، ويعرفون ما يُعنى بالهوية القومية؟ الرموز؟ اللوحات؟ الخرائط؟ الموسيقى؟ التكييف؟ أطفال سود مبتسمون أو أطفال صينيون مبتسمون أو (ضع علامة في المربع)؟ الموسيقى العالمية؟ سجاد سميك؟ آجر أو ألواح أرضية؟ نباتات؟ مياه جارية؟

يعرفون ماذا يريدون، خاصة أولئك الذين يعيشون في هذا القرن. لقد أُجْبروا على الانتقال من مكان إلى آخر مثل السيد دي وينتر، وأعيدت تسميتهم، وغُيِّرت صورتهم، الجواب على كل استطلاع هو لا شيء، اترك فراغًا من فضلك، لا شيء، فقط اترك فراغًا من فضلك، اترك فراغًا.

20

عن الفئران والذاكرة

تمامًا كما يحدث على شاشة التلفزيون. كان هذا هو المديح الأفضل الذي استطاع أن يفكر به آرشي من أجل أي حدث حقيقي، عدا أن هذا الحدث بدا تمامًا كما لو أنه يجري على شاشة التلفزيون لكنه أفضل، إنه حديث جدًا، ومصمم جيدًا بحيث أنك لن تتنفس أثناءه أو تضرط. وهناك تلك الكراسي البلاستيكية التي بلا أرجل، المحنية كحرف السين باللغة الإنكليزية، ويبدو أنها تعمل من خلال الطي، وتتلاءم مع بعضها، وكان هناك حوالي مائتين منها في عشرة صفوف، وتلتف حولك كالأفعى حين تجلس عليها، ناعمة لكنها داعمة، ومريحة وحديثة وستعجب بأنها تُطوى هكذا، كما اعتقد آرشي، جالسًا على واحدة، وكان هذا مستوى أعلى من الطي سبق أن انخرط فيه، وكان ظريفًا جدًا.

كان الأمر الآخر الذي جعل الحدث أفضل مما يحدث على شاشة التلفزيون هو أنه مليء بالناس الذين يعرفهم آرشي. فهناك ملبويد (النذل) في الخلف، مع عبدل جيمي وعبدل كولن وجوش تشالفن أقرب إلى الوسط وماجد يقف في المقدمة مع زوجة تشالفن (ألسانا لن تنظر إليها لكن آرشي يلوح بأية حال لأنه من الوقاحة ألا يفعل ذلك) ومقابلهم كلهم (قرب آرشي، حصل آرشي على أفضل مقعد في المكان) جلس ماركوس إلى طاولة طويلة جدًا، تمامًا كما على

شاشة التلفزيون، الميكروفونات موزعة في كل مكان عليها، كحشد لعين، بطونها السوداء الكبيرة تشبه بطون النحل الأفريقي (النحل القاتل). جلس ماركوس إلى جانب أربعة أشخاص آخرين، ثلاثة من عمره وواحد كبير جدًا في السن، بارد الملامح، كمُشرِّح، إذا صحَّ التعبير، وكلهم يرتدون النظارات كما يفعل العلماء على التلفزيون. لا معاطف بيضاء، الكل في ثياب عادية: قبات سباعية، ربطات عنق، أحذية جلدية. وكان هذا مخيبًا للآمال قليلًا.

كان آرشي قد شاهد كثيرًا من هذه المناسبات المسلية الخاصة بالمؤتمرات الصحفية (آباء يبكون، طفل مفقود، أو بالعكس، سيناريو يتيم أجنبي، طفل باك، آباء مفقودون)، لكن هذه المناسبة أفضل بكثير لأنه يوجد على الطاولة شيء مثير جدًا هو الفأر الذي لا تراه عادة على شاشة التلفزيون، حيث لا ترى إلا الناس الباكين. وكان الفأر واضحًا جدًا وبني اللون وليس مع أي فئران أخرى، لكنه نشيط جدًا، يتحرك في صندوق زجاجي كبير كالتلفزيون وفيه ثقوب للتهوية. تضايق آرشي قليلًا حين رآه لأول مرة (سبع سنوات في صندوق زجاجي)، لكن تبين أن هذا مؤقت، فقط من أجل التصوير. قالت آيري إن هناك مكانًا كبيرًا له في المؤسسة، مليئًا بالأنابيب والأمكنة السرية، أمكنة فوق بعضها، وهكذا لن يضجر كثيرًا، وسيُنقل إلى هناك فيما بعد، وهذا جيد. يبدو ماكرًا، ومؤديًا بارعًا أيضًا، ويقوم بتعبيرات وجهية معظم الوقت. ينسى المرء كيف تبدو الفئران متيقظة، والاعتناء بها مشكلة مريعة، بالطبع. لهذا لم يُحضر واحدًا لآيري حين كانت صغيرة. إن الأسماك الذهبية أنظف، ولا يتذكرها المرء طويلا. وفي تجربة آرشي إن أي شيء يجعلك تتذكره لفترة طويلة سيتذكر الظلم ويشتكي، ولن تريد حيوانًا أليفًا كثير الشكوى (في ذلك الوقت أحضرْتَ الطعام الخطأ، وفي ذلك الوقت حمّمْتَني).

وافق عبدل ميكي، راميًا نفسه على الكرسي إلى جانب آرشي، دون أن يبدي احترامًا للكرسي الذي بلا أرجل: "آه، أنت مصيب في هذا، لست بحاجة إلى امتلاك فأر لعين مستاء".

ابتسم آرشي. ميكي من النوع الذي تريد أن تشاهد معه مباريات كرة قدم أو كريكيت، أو إذا شاهدت معركة في الشارع تريده أن يكون هناك، لأنه من النوع المعلق على الحياة، فيلسوف من نوع ما. وهو محبط تمامًا في حياته اليومية لأنه لا يحصل على كثير من الفرص كي يظهر ذلك الجانب من نفسه. لكن انزعْ عنه رداءه وأبعدْهُ عن الفرن، وأعطه مجالًا كي يناور، فإنه يصبح فعالًا. وكان آرشي يمتلك الكثير من الوقت لميكي، الكثير من الوقت.

قال لآرشي: "متى سيبدؤون؟ لقد تأخروا. لا أستطيع النظر إلى فأر طيلة الليل، هل تستطيع؟ أعني كل هؤلاء الأشخاص هنا في ليلة رأس السنة، تحتاج إلى شيء يشبه التسلية".

قال آرشي، موافقًا وغير موافق في آن واحد معًا: "أعتقد أنهم سيراجعون ملاحظاتهم وذلك...لن يبدؤوا فورًا ويتفوهوا ببعض الأخطاء، أليس كذلك؟ أعني، لا يتعلق الأمر فقط بجعل كل الناس مسرورين طيلة الوقت، الآن، أليس كذلك؟ إنه العلم". يلفظ آرشي كلمة علم بالطريقة نفسها التي يلفظ بها كلمة حديث، كما لو أن أحدًا ما أعاره الكلمات وجعله يقسم ألا يحطمها. كرر آرشي، معالجًا الكلمة بشدة أكبر: "العلم، إنه موضوع من نوع مختلف".

هز ميكي رأسه، مفكرًا بالفرضية بجدية، محاولًا أن يقرر كم من الوزن يجب أن يمنح لهذه الفرضية المضادة التي تدعى العلم بكل دلالات الخبرة الخاصة بها وخططها الأعلى، ومجالاتها الفكرية التي لا ميكي ولا آرشي خاضا فيها من قبل (الجواب: لا شيء)، كم من الاحترام يجب أن يمنحها في ضوء هذه الدلالات (الجواب: اللعنة على الجميع. جامعة الحياة. أليس كذلك؟)، وكم من الثواني يجب أن يترك قبل أن يمزقها (الجواب: ثلاث ثوان).

"على العكس يا أرشيبالد، على العكس. هذه حجة بلا كلام. خطأ شائع، إن العلم لا يختلف عن أي شيء. أعني حين تنظر فيه. في النهاية سيمتع البشر، تعرف ما أعنيه؟"

هز آرشي رأسه. عرف ما عناه ميكي. (بعض الناس، صمد مثلًا، سيطلب

منك ألا تثق بالناس الذين يفرطون في استخدام عبارة "في نهاية اليوم" كمديري فِرَق كرة القدم والوكلاء العقاريين، والبائعين من كل الأنواع، لكن آرشي لم يشعر أبدًا بتلك الطريقة حيال الأمر. إن الاستخدام الحكيم للعبارة المذكورة لم يفشل أبدًا في إقناعه بأن محاوره يصل إلى جوهر الأمور، إلى الأساسيات).

واصل ميكي بحنجرة مليئة نوعًا ما ومع ذلك لم يرتفع أبدًا فوق الهمس من ناحية درجة الصوت: "وإذا ظننت أن هناك أي فرق بين مكان كهذا ومطعمي ستكون مغفلًا. إن الأمر كله متشابه في النهاية، وكله يتعلق بالزبون، مثلًا: ليس جيدًا مني أن أضع لحم البط بالبرتقال على قائمة الطعام إذا كان لا يريده أحد. بالمقابل، لا معنى لأن يصرف هؤلاء الأشخاص الكثير من النقود على بعض الأفكار الجيدة إذا كانت لن تقدم فائدة لشخص ما. فكر بالأمر"، قال ميكي، رابتًا على صدغه، وكان آرشي يتبع التعليمات قدر الإمكان.

واصل ميكي، متحمسًا لموضوعه: "لكن هذا لا يعني ألا تمنحها فرصة، يجب أن تمنح هذه الأفكار الجديدة فرصة وإلا ستكون شخصًا معاديًا للأفكار الأخرى يا آرشي. والآن في نهاية اليوم تعرف أنني كنت دومًا النوع الأكثر تقدمًا من الرجال بالنسبة إليك. ولهذا أدخلت الملفوف المقلي مع اللحم منذ عامين".

هز آرشي رأسه بحكمة. كان الملفوف المقلي مع اللحم اكتشافًا ضروريًا.

"إن الأمر نفسه يجري هنا. يجب أن تمنح هذه الأمور فرصة. هذا ما قلته لعبدل كولن وابني جيمي. قلت: قبل أن تتهورا في التصرف امنحا الأمر فرصة... وها هما هنا". هز عبدل ميكي رأسه هزة اعتراف ماكرة باتجاه أخيه وولده، اللذين استجابا بالطريقة نفسها. "يمكن ألا يحبا ما يسمعانه لكنك لا تستطيع الاعتماد على هذا، هل تستطيع؟ لكن على الأقل أتيا بذهن منفتح. وأنا شخصيًا هنا بسبب نصيحة جيدة من ماجد إقبال، وأنا أثق به، وأثق بحكمه. لكن كما قلتُ، يجب أن ننتظر النتائج. نعيش بشكل لعين ونتعلم يا أرشيبالد"، قال ميكي، ليس كي يكون مسيئًا، لكن لأن كلمة لعين كانت كالحشو بالنسبة له، ولم يستطع المقاومة، إنها تُشبع كالفاصولياء أو البازلاء، "نعيش ونتعلم بشكل لعين.

وأستطيع أن أخبرك، إذا قيل أي شيء هنا الليلة يقنعني أن ابني جيمي لن يعاني من مشاكل جلدية كسطح القمر اللعين، فإنني سأرتد يا آرشي. أقولها الآن. لا أمتلك أدنى فكرة عما سيفعله فأر حيال ذلك بجلد العجوز يوسف، لكنني أقول لك، سأضع حياتي بين يدي الفتى إقبال. ينتابني شعور جيد فحسب حيال الفتى. إنه يعادل دزينة من أخيه"، أضاف ميكي بمكر، خافضًا صوته لأن صمد خلفهما. "دزينة بسهولة. أعني بماذا كان يفكر؟ أعرف أي شخص يجب أن أرسله بعيدًا. لا خوف".

هز آرشي كتفيه: "كان قرارًا صعبًا".

صالب ميكي ذراعيه وأصدر صوت استهزاء: "لا شيء من هذا يا صديقي. أنت إما مصيب أو لا، وحالما تدرك ذلك، يا آرشي، تصبح حياتك أكثر سهولة بكثير، صدق كلامي حول هذا".

قبل آرشي كلمات ميكي بامتنان وأضافها إلى قطع الحكمة الأخرى التي منحها القرن له: أنت إما مصيب وإما غير مصيب. انتهى العصر الذهبي لقسائم الغداء. لا أستطيع قول ما هو أعدل من هذا. طرة أم نقش؟

قال ميكي مبتسمًا: "آه ما هذا؟ ها قد بدوا. ثمة حركة. مكبّر الصوت يعمل. واحدا-اثنان، واحد - اثنان. يبدو كأن الرجل يبدأ".

*****

"... هذا عمل رائد، يستحق المال العام والانتباه العام، عملٌ تتخطّى أهميته في ذهن أي شخص عقلاني الاعتراضات التي وُجِّهت ضده. ما نحتاج إليه..."

فكر جوشوا أن ما يحتاجون إليه هو مقاعد قريبة من المقدمة. وكان كريسبين قد قام بتخطيط سيّئ تحت تأثير المخدرات طالبًا مقاعد في الوسط كي يستطيع أعضاء منظمة فيت أن يختلطوا بالحشد ويلبسوا الأقنعة في اللحظة الأخيرة، لكنها كانت فكرة تافهة بشكل واضح وتعتمد على نوع من ممر وسطي في عملية الجلوس، والذي ليس هنا. وسيضطرون الآن إلى القيام بمسير غير رابح إلى

المرين الجانبيين كإرهابيين يبحثون عن مقاعدهم في السينما، مبطئين العملية كلها، حين تكون تكتيكات السرعة والصدمة هي أهم شيء. ما هذا الأداء؟ استاء جوش من الخطة كلها. كانت واضحة وسخيفة، مصممة من أجل العظمة الأكبر لكريسبين. سيقوم كريسبين ببعض الصياح، ويلوّح بالمسدس، ويقوم ببعض الارتعاشات التي تشبه ارتعاشات جاك نيكلسون المرضية النفسية فقط من أجل التعبير عن الدراما. رائع. كل ما على جوش قوله هو: **أبي، من فضلك، أعطهم ما يريدون**. واعتقد أنه سيكون لديه مجال للارتجال: **من فضلك يا أبي، أنا ما أزال صغيرًا. أريد أن أعيش. أعطهم ما يريدونه من أجل المسيح. إنه فأر فحسب... أنا ابنك**، ثم إغماء مصطنع ربما استجابة لضربة مسدس مصطنعة إذا تردد والده. كانت الخطة سيئة عمليًا، لكنها ستعمل (قال كرسيبين)، إن الأمر دومًا يعمل. لكن بعد أن أمضى الكثير من الوقت في مملكة الحيوان صار كريسبين مثل ماوكلي(190): لا يعرف عن بواعث الناس، ويعرف عن سيكولوجية الغرير أكثر مما يعرف عم يعمل داخل شخص من عائلة تشالفن. وهكذا وهو ينظر إلى ماركوس هناك في الأعلى مع فأره الرائع محتفلًا بالإنجاز العظيم لحياته وربما لجيله، لم يستطع جوشوا إيقاف دماغه المنحرف عن التساؤل إن كان من المحتمل أنه أساء هو وكريسبين وفيت الحكم بشكل كامل، وأنهم أخطؤوا جميعًا، وأساؤوا تقدير قوة التشالفينية والتزامها اللافت بالعقلاني ذلك أنه من المحتمل أن والده بكل بساطة ودون تفكير لن ينقذ الشيء الذي يحبه كما يفعل بقية الأشخاص العاديين، ومن المحتمل جدًا أن الحب لا علاقة له بالأمر. وجعل التفكير بهذا الأمر جوشوا يبتسم فحسب.

*****

"...أشكر الجميع، وخاصة أفراد العائلة والأصدقاء الذين ضحوا بسهرة رأس السنة...أشكركم على وجودكم هنا في بداية ما أنا متأكد أن الجميع يوافقون أنه مشروع مثير جدًا، ليس فقط لي وللباحثين الآخرين بل لأوسع..."

بدأ ماركوس وراقب ميلات أعضاء منظمة كيفن يتبادلون النظرات، ويفكرون بالبدء بعد عشر دقائق، وربما خمس عشرة دقيقة، وسيتلقون إشارتهم من عبدل كولن ويتبعون التعليمات. لكن ميلات لن يتبع التعليمات، على الأقل ليس نوع التعليمات الذي يُنقل من فم إلى فم أو يُكتب على قطع ورق. إن تعليماته ملحة ومشفرة في الجينات والفولاذ البارد الذي في جيبه الداخلي هو أداة المهمة الموكلة له منذ وقت طويل. إنه بانديٌّ عميقًا في الداخل، وهناك عصيان في دمه.

أما بالنسبة للتفاصيل العملية فهي لم تكن كبيرة: اتصالان هاتفيان مع شخص من الطاقم القديم، اتفاقية سرية، بعض نقود كيفن، رحلة إلى بريكستون ونجحت المسألة، ووصل الشيء إلى يده وكان أثقل مما ظن. لكن بصرف النظر عن هذا، لم يكن شيئًا يشوش الدماغ. كان يعرفه تقريبًا. وذكره تأثيره بقنبلة شاهدها تنفجر في سيارة صغيرة منذ سنوات كثيرة في القسم الإيرلندي من كلبرن. كان في التاسعة من عمره، ويسير مع صمد. ارتجف صمد بشكل حقيقي، لكن عين ميلات لم ترمش. كان هذا شيئًا مألوفًا بالنسبة لميلات. وكان هادئًا جدًا حياله، لأنه لم يعد هناك أي أشياء أو أحداث غريبة، ولم يعد هناك أي أشياء مقدسة. كان كل شيء مألوفًا. شاهد كل شيء على التلفزيون. وهكذا حين شعر بملمس المعدن البارد على جلده في تلك المرة الأولى كان الأمر سهلًا. وحين تأتي إليك الأمور بسهولة، حين تحتل الأمور أمكنتها دون جهد، من المغري استخدام الكلمة اللعينة: القدر، والتي هي بالنسبة لميلات تشبه من ناحية الكم التلفزيون كثيرًا: سرد لا يتوقف، يكتبه وينتجه ويُخرجه شخص آخر.

إنه مخدر الآن ويشعر بالقداسة وبأن الأمر سهل. أشعرتهُ جهةُ اليد اليمنى من سترته كأن شخصًا وضع سندانًا لعينًا هناك مثل الذي في أفلام الكرتون، وهو الآن يشاهد الفرق الكبير بين التلفزيون والحياة، وقد آلمه هذا. ماذا عن العواقب؟ إن التفكير بهذا يعني مشاهدة الأفلام من أجل المرجعية (لأنه ليس مثل صمد أو مانغال باندي، لم يشارك في الحرب، لم ير الفعل أبدًا، لم يحصل على أي تماثلات أو حكايات)، يعني أن يتذكر باتشينو في الجزء الأول من فيلم العراب،

متكورًا في مرحاض المطعم (كما تكور باندي في غرفة الثكنة)، يفكر للحظة ما الذي يعنيه أن تخرج مندفعًا من المرحاض وتقتل شخصين على الطاولة ذات المربعات. وتذكر ميلات أنه كان يرجع الفيلم ويجمده ويبطئ ذلك المشهد مرات لا تُحصى مع مرور الأعوام. تذكر أنه مهما أوقفتَ لحظة تفكير باتشينو، ومهما أعدتَ تشغيل الشك الذي يبدو أنه عبر وجهه، فإنه لا يفعل أبدًا أي شيء آخر إلا ما سيفعله دومًا.

*****

"... وحين نفكر بالمغزى الإنساني لهذه التكنولوجيا... التي ستبرهن، كما أعتقد، أنها مساوية لمكتشفات هذا القرن في حقل الفيزياء: كالنسبية والميكانيكا الكميّة... حين نفكر بالخيارات التي تقدمها لنا... ليس بين عين زرقاء وعين بنية، لكن بين أعين ستكون عمياء وتلك التي يمكن أن ترى..."

لكن آيري تعتقد أن هناك أشياء لا تستطيع العين البشرية رؤيتها، حتى بأية عدسة مكبرة، أو نظارات أو مجهر. يجب أن تعرف، إنها متعبة. نقّلت بصرها بين الاثنين، من واحد إلى آخر، وفي كثير من المرات لم تر وجهًا، بل تشكّلات قماشيّة بنية بنتوءات غريبة، كمثل قول كلمة في غالب الأحيان لا يكون لها معنى. ماجد وميلات. ميلات وماجد. ماجلات. ميلجيد[191].

سألت طفلها الذي لم يولد أن يقدم إشارة ما، لكنه لم يقدم شيئًا. حفظت نشيدًا في منزل هورتينس مر في رأسها، من المزمور 63 (عَطِشَتْ إِلَيْكَ نَفْسِي، يَشْتَاقُ إِلَيْكَ جَسَدِي فِي أَرْضٍ نَاشِفَةٍ وَيَابِسَةٍ بِلاَ مَاءٍ). لكنه يطلب منها الكثير، يتطلب منها هذا العودة إلى الجذر، إلى اللحظة الجوهرية التي التقى فيها الحيوان المنوي بالبويضة، والتقت البويضة بالحيوان المنوي، بحيث أنه باكرًا في هذا التاريخ لا يمكن تعقب الأمر. إن طفل آيري لا يمكن أن توضع له خريطة بالضبط أو التحدث عنه بأي يقين. إن بعض الأسرار أبدية. وفي رؤيا شاهدت آيري وقتًا، وقتًا ليس بعيدًا من الآن، حين لن تهم الجذور بعد الآن لأنها لا تستطيع

لأنها يجب ألا تهم لأنها طويلة جدًا ومعذبة جدًا وهي فقط مدفونة عميقًا. وكانت تتطلع إلى ذلك الوقت.

*****

"هذا الذي سيكون أكثر جسارة في وجه كل الكوارث...".

لبضع لحظات، وسط حديث ماركوس وطقطقات الكاميرات، أتى صوت آخر (ميلات على نحو خاص كان متناغمًا معه)، صوت ضعيف منشد، سُمع. فعل ماركوس ما بوسعه كي يتجاهله وواصل، لكنه صار أكثر قوة. بدأ يتوقف بين كلماته وينظر حوله، على الرغم من أن الأنشودة لم تكن في الغرفة كما هو واضح.

"ليتبع معلمه بثبات..."

تمتمت كلارا، مائلة كي تتحدث في أذن زوجها: "آه يا إلهي. إنها هورتينس. هورتينس. آرشي، يجب أن تذهب وتحل المسألة. من فضلك. من الأسهل لك أن تخرج من مقعدك".

لكن آرشي كان في غاية الاستمتاع. فبين حديث ماركوس وتعليق ميكي، كان الأمر مفيدًا جدًا كمشاهدة التلفزيون.

"اطلبي من آيري".

"لا أستطيع. إنها بعيدة جدًا لا تستطيع الخروج. آرشي"- قالت، بنبرة مهددة - "لا تستطيع جعلهم ينشدون طيلة الوقت".

قال آرشي محاولًا جعل همسته تسافر: "صمد، صمد، اذهب أنت. لا تريد حتى أن تكون هنا. هيا. أنت تعرف هورتينس. اطلب منها أن تخفض صوتها فحسب. أحب أن أصغي لبقية الحديث. إنه مفيد جدًا".

قال صمد، خارجًا من مقعده فجأة، ولم يزعج نفسه بأن يعتذر وهو يدعس على أصابع قدم نينا: "بكل سرور، ولا حاجة للحفاظ على مقعدي".

ماركوس، الذي اجتاز حتى الآن ربع الطريق في وصف تفصيلي لسنوات الفأر

السبع، نظر نحو الأعلى من أوراقه إلى الإزعاج، وتوقف كي يراقب الشكل المختفي من بين بقية الجمهور.

"أعتقد أن أحدًا ما أدرك أن القصة ليست لها نهاية سعيدة".

حين ضحك الجمهور بخفة وعاد إلى الصمت نكز ميكي أرشيبالد من أضلاعه: "أترى الآن، إن الأمر كوميدي نوعًا ما، لقد رطّب الجو قليلًا. مصطلحات العامة، أليس كذلك؟ لم يذهب الجميع إلى جامعة أوكسبريدج اللعينة. بعضنا ذهب إلى..."

وافق آرشي، هازًا رأسه، لأنهما كلاهما كانا هناك، ولو في وقتين مختلفين: "جامعة الحياة، لا أستطيع أن أفنّد هذا".

*****

في الخارج شعر صمد بأن عزمه قوي حين صفق الباب خلفه لكنه ضعف حين اقترب من سيدات شهود يهوه اللواتي لا يُغلبن، وكان هناك عشر منهن، وكلهن يرتدين اللمات المستعارة، ويقفن على الدرجات الأمامية، ويخبطن على آلات نقرهن وكأنهن يردن إخراج شيء آخر أكثر أهمية من الإيقاع. كن يؤدين بصوت كامل. واعترف خمسة حراس أمنيين سابقًا بالهزيمة، وحتى ريان توبس بدا مرعوبًا قليلًا من وحشه الكورالي الفرانكشتيني [192]، مفضلًا أن يقف بعيدًا على الرصيف، موزعًا نسخًا من مجلة "برج المراقبة" للحشد الكبير المتجه إلى سوهو.

سألت فتاة ثملة، بعد أن فحصت لوحة السماء على الغلاف، وأضافت المجلة إلى بعض نشرات نادي رأس السنة التي معها: "هل أحصل على تنزيلات؟ هل فيها تعليمات خاصة باللباس؟"

مرتابًا، ربت صمد على كتفي عازفة آلة المثلث المنحنيين للأمام كلاعب الركبي. حاول استخدام كمية المفردات المتاحة لرجل هندي يخاطب نساء جامايكيات من المحتمل أنهن خطيرات (من فضلك، هل من الممكن، أنا آسف، التي تتعلمها

في الحافلة)، لكن قرع الطبول تواصل، وأصدرت آلة الكازو طنينها والصنوج ضجيجها. وواصلت النسوة سحق أحذيتهن الحساسة في الصقيع. وهورتينس بودن، العجوز جدًا بحيث لا تستطيع السير، واصلت الجلوس على كرسي قابل للطي، ونظرت بتصميم إلى كتلة من الأشخاص الراقصين في ميدان ترافالجار. كان هناك يافطة بين ركبتيها كتب عليها:

لأن الوقت قريب (سفر الرؤيا 1 : 3)

قال صمد، وهو يخطو إلى الأمام متوقفًا بين الآيات: "سيدة بودن؟ أنا صمد إقبال، صديق أرشيبالد جونز".

ولأن هورتينس لم تنظر إليه أو تظهر أية إشارة معرفة شعر صمد بأنه ملزم بأن يغوص إلى أعمق في النسيج المعقد لعلاقاتهما: "زوجتي صديقة ممتازة لابنتك. وابنة أختها غير الشقيقة أيضًا، ولداي صديقان لـ..."

مصت هورتينس أسنانها: "أعرف من أنت يا رجل. تعرفني، أعرفك. ولكن في هذه النقطة، هناك فقط نوعان من البشر في العالم".

قاطعها صمد، متعرفًا على موعظة وراغبًا بأن يقطعها من الجذر: "نتساءل فحسب، لو كان يمكن خفض الضجيج نوعًا ما... لو فقط..."

لكن هورتينس كانت قد سبقته، شاهدة على الحقيقة بالطريقة الجامايكية القديمة: "نوعان من البشر: الذين يغنون للرب والذين يرفضون مسببين هلاك أرواحهم".

استدارت إلى الخلف. نهضت. هزت يافطتها بغضب في جهة الحشود الثملة التي تتحرك إلى أعلى وأسفل في نوافير ساحة ترافالجار، ثم طلب منها أن تفعل هذا ثانية صحفي لديه فراغ يحتاج أن يملأه في الصفحة السادسة.

قال رافعًا الكاميرا وركبته في الثلج: "أعلى بقليل مع الراية يا حبي. هيا، اغضبي، هذا هو. جميل".

رفعت نسوة الشهود أصواتهن مطلقات الأنشودة في القبة الزرقاء. أنشدت هورتينس: "عَطِشَتْ إِلَيْكَ نَفْسِي، يَشْتَاقُ إِلَيْكَ جَسَدِي فِي أَرْضٍ نَاشِفَةٍ وَيَابِسَةٍ بِلَا مَاءٍ". راقب صمد كل هذا ووجد نفسه، مندهشًا، غير راغب بأن يسكتها لأنه متعب ولأنه عجوز. لكن السبب الرئيسي هو أنه سيفعل الشيء نفسه، ولو باسم مختلف. وعرف ما يجب أن يسعى إليه. عرف الجفاف. شعر بالعطش الذي يشعر به المرء في أرض غريبة، المريع والملحّ، الظمأ الذي يستمر طيلة حياة المرء.

فكّر: ألا تستطيع قول ما هو أعدل من ذلك؟ ألا تستطيع قول ما هو أعدل من ذلك؟

*****

في الداخل: "لكن ما أزال أنتظر أن يصل إلى الفكرة حول جلدي. لم أسمع أي شيء بعد. هل سمعت يا آرشي؟"

"كلا، لا شيء بعد. أعتقد أن هناك الكثير الذي سيمر عليه، هذا كلام ثوري".

"نعم بشكل طبيعي... لكنك تدفع نقودك، وتحصل على خيارك"؟

"لم تدفع مقابل بطاقتك، هل فعلت؟"

"كلا. لم أفعل. لكن لا يزال لدي توقعات. إن المبدأ هو نفسه، أليس كذلك؟ آه، انتظر لحظة... أظن أنني سمعت كلمة جلد..."

سمع ميكي كلمات جلد وأورام حليمية على الجلد، على ما يبدو. استمر الكلام خمس دقائق. لم يفهم آرشي كلمة واحدة منه. لكن في النهاية بدا ميكي راضيًا، كما لو أنه حصل على كل المعلومات التي يريدها.

"لهذا جئت يا آرشي. هذا مهم جدًا. إنه فتح طبي عظيم. إنهم مجترحو معجزات، هؤلاء الأطباء".

قال ماركوس: "... وفي هذا كان أساسيًا وجوهريًا. ولم يكن ملهمًا شخصيًا فحسب بل وضع أيضًا الأسس لجزء كبير من هذا العمل، وخاصة في دراسته،

التي سمعتُ بها أولًا في..."

آه، هذا ظريف. منحَ العجوز بعض الثناء. وتستطيع أن ترى أنه سعيد جدًا أنه سمع ذلك. يبدو هذا قليلًا مسببًا للبكاء. لم يسمع اسمه. جميل ألا تحتكر العظمة كلها لنفسك. لكن ثانية لا تريد أن تتجاوز الحد. إن الطريقة التي واصل بها ماركوس بيّنت أن العجوز فعل كل شيء.

قال ميكي، ظانًا الشيء نفسه: مديح مفرط، إيه؟ اعتقدت أنك قلت إن تشالفن هو الذي كان السيد الكبير".

قال آرشي: "ربما هما شريكان في الجريمة".

"... وسّع الحدود، حين كان تمويل هذا العمل سيئًا جدًا وبدا أنه كان سيبقى في حقول الخيال العلمي. لهذا السبب وحده كان الروح الموجهة، إذا أحببتم، خلف جماعة البحث، وهو، كما دومًا، معلمي، وهذا منصب شغله لمدة عشرين سنة الآن..."

قال ميكي: "تعرف من هو معلمي؟ إنه محمد علي. لا جدال. إنه متكامل الذهن، ومتكامل الروح، ومتكامل الجسد. إنه شخص قمة. مقاتل شرير. وحين قال إنه الأعظم، لم يقل فقط "الأعظم"؟

قال آرشي: "كلا؟"

قال ميكي بوقار: "كلا يا صديقي. قال إنه الأعظم في الأزمنة كلها، الماضي والحاضر والمستقبل. كان وغدًا مغرورًا، علي. معلمي بكل تأكيد".

معلم... فكر آرشي. بالنسبة له كان صمد دومًا المعلم. لكنه لا يستطيع قول هذا لميكي. بدا هذا غريبًا. لكن هذه هي الحقيقة. دومًا صمد. وفي جميع الظروف، حتى ولو كان العالم ينتهي. ولم يتخذ أبدًا قرارًا بدونه طيلة أربعين عامًا. العجوز الجيد صمد. الرجل صمد.

"... وهكذا إذا كان هناك شخص يستحق حصة الأسد من الاعتراف من أجل الأعجوبة التي ترونها أمامكم، فهو الدكتور مارك بيير بيريه. إنه رجل لافت و...عظيم جدًا..."

إن كل لحظة تحدث مرتين: في الداخل والخارج، وهما تاريخان مختلفان. تعرف آرشي على الاسم بشكل ضعيف في مكان ما في الداخل لكنه تلوى مسبقًا في مقعده محاولًا أن يرى إن كان صمد عائدًا. لا يستطيع مشاهدة صمد. بدلًا من ذلك شاهد ميلات، الذي بدا مضحكًا، الذي بدا مضحكًا بشكل مصمم. وبدا مميزًا. وكان يتأرجح قليلًا في مقعده، وآرشي لا يستطيع أن يرى عينيه كي يتأكد أنه على ما يرام لأن عينيه كانتا مثبتتين على شيء ما وحين تبع آرشي الممر إلى تلك التحديقة شاهد نفسه ينظر إلى الشيء الخاص نفسه: رجل عجوز يبكي وتسقط من عينيه دموع كبرياء صغيرة، دموع حمراء، دموع تعرّف عليها آرشي.

ولكن ليس قبل أن يتعرف عليها صمد، النقيب صمد مياه، الذي دخل لتوه دون أن يصدر صوتًا عبر الباب الحديث بآليته الصامتة، النقيب صمد مياه، الذي توقف للحظة على العتبة، حدق عبر نظارته الخاصة بالقراءة، وأدرك أنه كُذب عليه من قِبل صديقه الوحيد في العالم لمدة خمسين سنة، أن حجر زاوية صداقتهما لم يكن مصنوعًا من أي شيء أقوى من حلوى خدود البنات وفقاعات الصابون، وأن هناك أرشيبالد جونز لكنه بعيد، أكثر بعدًا مما سبق وتخيل. وأدرك كل شيء في الحال كذروة حفلة موسيقية هندية سيئة. ثم، بابتهاج مريع وصل إلى الحقيقة الجوهرية للأمر، اكتشف الحقيقة: **هذه الحادثة لوحدها ستبقينا ولدين عجوزين يستمران في الأربعين سنة القادمة. إنها القصة التي تنهي القصص كلها. إنها الهبة التي تواصل المنح.**

"أرشيبالد!" استدار من الطبيب إلى الملازم وأطلق ضحكة هستيرية قصيرة حادة، شعر بأنه عريس جديد ينظر إلى عروسه باعتراف تام في اللحظة التي يتغير فيها كل شيء بينهما. "أيها المخادع الرديء المنافق ذو الوجهين!" استخدم صمد عامية بنغالية قائلًا أيها الكاذب يا ناكح أخته يا ابن الخنازير، يا ماص عضو أمه...).

لكن حتى قبل هذا، أو على الأقل بشكل متزامن معه، بينما كان الجمهور ينظر متسليًا إلى الرجل الأسمر الذي يصيح على هذا العجوز الأبيض بلغة

أجنبية، أحس آرشي بشيء آخر يجري، بعض الحركة في هذا المكان، حركة محتملة في كل أنحاء الغرفة، (الأشخاص الهنود في الخلف، الأطفال الذين يجلسون قرب جوش، آيري تنقل بصرها بين ميلات وماجد، ماجد وميلات مثل حكَم) ورأى أن ميلات سيصل إلى هناك أولًا، وكان ميلات يتقدم مثل باندي، وآرشي شاهد التلفزيون وشاهد الحياة الحقيقية ويعرف ما يعنيه تقدّم كهذا، فنهض وتحرك مسرعًا.

وهكذا حين شاهد المسدس يخرج إلى الضوء، اندفع إلى هناك دون قطعة نقد كي تساعده، ووصل قبل أن يستطيع صمد إيقافه، ودون عذر، وانتصب هناك بين قرار ميلات إقبال وهدفه، كاللحظة بين الفكرة والكلام، كالتدخل السريع للذكرى أو الندم.

*****

في نقطة ما في الظلام، توقفا عن السير في الأراضي المنبسطة ودفع آرشي الدكتور إلى الأمام، وجعله يقف في المقدمة، حيث يستطيع أن يراه.

قال حين خطا الدكتور دون قصد إلى شعاع القمر: "ابق هنا، قف مكانك تماما".

لأنه أراد أن يرى الشر، الشر المحض، لحظة المعرفة الكبيرة، احتاج إلى رؤيتها، ثم استطاع التقدم كما رُتب من قبل، لكن الدكتور كان ينحني بشكل سيّئ وبدا ضعيفًا، ووجهه مغطى بدم أحمر شاحب كما لو أن الفعل قد تم من قبل. لم ير آرشي أبدًا رجلًا منهارًا هكذا، مهزومًا بشكل كامل، ونوعًا ما أضعف هذا إرادته وأغري بالقول: "تبدو كما أشعر"، ذلك لو أنه كان هناك تجسيد لصداعه الذي يزداد شدة، للغثيان الكحولي المتصاعد من بطنه، فقد كان يقف مقابله الآن. لكن لم يتحدث أي من الرجلين، وقفا هناك فحسب لوهلة، ناظرين إلى بعضهما عبر المسدس المذخر. انتاب آرشي الإحساس المضحك بأنه يستطيع أن يطوي هذا الرجل بدلًا من قتله، أن يطويه ويضعه في جيبه.

قال آرشي بيأس، بعد ثلاثين ثانية طويلة من الصمت: "انظر، أنا آسف حيال هذا، انتهت الحرب. ليس لدي أي شيء شخصي ضدك... لكن صديقي، سام... حسنًا، أنا في موقف، وهكذا هذا هو الأمر".

رمشت عين الدكتور عدة مرات وبدا كأنه يصارع كي يسيطر على تنفسه، وعبر شفتين حمراوين من دمه قال: "حين كنا نسير قلت إنه يمكنني التوسل...؟"

واضعًا يديه خلف رأسه، قام الطبيب بحركة كي ينهض على ركبتيه، لكن آرشي هز رأسه وأنّ. "أعرف ما قلته... لكن لا يوجد... فقط من الأفضل لو... "- قال آرشي بحزن، مقلدًا الضغط على الزناد واندفاع المسدس إلى الخلف - "ألا تظن؟ أعني، أسهل... كل جولة؟"

فتح الطبيب فمه كما لو أنه يريد أن يقول شيئًا، لكن آرشي هز رأسه ثانية: "لم أفعل هذا أبدًا من قبل وأنا... متضايق بصراحة... شربتُ كثيرًا... ولن يساعد هذا... ستكون هناك تتحدث وربما لن أفهم الأمر، تعرف، هكذا..."

رفع آرشي ذراعيه إلى أن صارا في تواز مع جبين الطبيب، أغمض عينيه، وسدّد المسدس.

قفز صوت الطبيب في جواب موسيقي: "سيجارة؟"

وفي تلك اللحظة بدأ الأمر يتخذ مسارًا خاطئًا، كمثل الخطأ الذي حدث مع باندي. ربما كان يجب أن يطلق النار على الشخص على الفور لكنه بدلًا من ذلك فتح عينيه كي يشاهد ضحيته يصارع كي يسحب علبة سجائر محطمة وعلبة ثقاب من جيبه العلوي ككائن بشري.

"هل أستطيع، من فضلك؟ قبل..."

هز الطبيب رأسه، أشعل آرشي عود ثقاب، بعد لحظة، لم يستطع أن يقاوم أبدًا جدلًا بلا هدف، "إذا كان لديك شيء كي تقوله، قُلْه. لا أمتلك الليل كله".

"أستطيع التحدث؟ هل نتبادل محادثة؟"

"لم أقل إننا سنتبادل محادثة"، قال آرشي بحدة، لأن هذا كان تكتيك النازيين في الأفلام (وكان آرشي يعرفه فقد أمضى السنوات الأربع الأولى من الحرب

يشاهد أفلامًا رجراجة ومشوشة في سينما برايتون أوديون عن نازيين حاولوا أن يخرجوا من المشاكل بالإقناع، "بعد أن تتحدث سأقتلك".

"بالطبع، نعم".

استخدم الدكتور كمه لمسح وجهه، ونظر إلى الشاب بشكل مثير للفضول، متفحصًا مرتين إذا كان جديًا. بدا الشاب جديًا.

"حسنًا، إذًا... إذا كان يمكنني قول هذا..."، انفتح فم الطبيب، منتظرًا آرشي أن يذكر اسمًا لكن لم يأت شيء.

"أيها الملازم... إذا كان يمكنني قول هذا... يبدو لي أنك تمر في مأزق أخلاقي".

لم يعرف آرشي ما تعنيه كلمة مأزق. ذكرته بالفحم والمعدن وويلز، بشيء ما بين قلع الأحجار وسبك المعادن. ضائعًا، قال ما يقوله دومًا في مواقف كهذه: "يجب أن أقول هكذا".

قال الدكتور سيك، كاسبًا بعض الثقة لأنه لم تُطلق عليه النار بعد ومرت دقيقة كاملة حتى الآن: "نعم، نعم، يبدو لي أنه لديك مأزق. من ناحية لا أصدق أنك ستقتلني..."

رفع آرشي كتفيه: "الآن اسمع، أيها الجبان...".

"ومن ناحية أخرى، وعدتَ صديقك ذا الحماس المفرط أنك ستفعل. لكن الأمر أكثر من هذا".

يدا الطبيب المرتجفتان ضربتا سيجارته دون قصد، وراقب آرشي الرماد يتساقط كثلج رمادي على بوطه.

"من ناحية لديك التزام ببلادك وما تعتقد أنه الصواب، ومن ناحية أخرى، أنا إنسان. أنا أتحدث معك. أتنفس وأنزف مثلك، ولا تعرف بشكل أكيد أي نمط من الرجال أنا. لديك إشاعة فحسب. وهكذا أفهم الصعوبة التي تواجهها".

"لا أواجه صعوبة. أنت الذي تواجه صعوبة أيها الجبان".

"ومع ذلك، على الرغم من أنني لست صديقك، لديك واجب تجاهي لأنني إنسان، أعتقد أنك عالق بين الواجبات وتجد نفسك في موقف مثير جدًا".

تقدم آرشي إلى الأمام، ووضع فوهة المسدس على بعد إنشين من جبين الطبيب: "لقد انتهيت؟"

حاول الطبيب أن يقول نعم لكن لا شيء خرج إلا لعثمة.

"جيد".

"انتظر! من فضلك. هل تعرف سارتر؟"

تنهد آرشي، غاضبًا: "كلا. كلا، كلا، ليس لدينا أي أصدقاء مشتركين. أعرف هذا، لأنه لدي صديق واحد فحسب ويدعى إقبال. انظر، سأقتلك، أنا آسف لكن...".

"ليس صديقًا. إنه فيلسوف. سارتر. السيد ج. ب".

قال آرشي، مهتاجًا ومرتابًا: "من؟ يبدو فرنسيا".

"إنه فرنسي. فرنسي عظيم. التقيت به لوقت قصير في 1941 حين كان في السجن. لكن حين التقيت به طرح مشكلة، أعتقد أنها مشابهة لمشكلتك".

قال آرشي ببطء، وكانت الحقيقة أنه يحتاج بعض المساعدة: "تابع".

واصل الدكتور مريض(187) محاولًا السيطرة على فرط التنفس لديه، متعرقًا كثيرًا بحيث كانت هناك بركتان في التجاويف في قاعدة عنقه: "وهي مشكلة طالب فرنسي شاب واجه خيارًا صعبًا بين البقاء والاعتناء بأمه المريضة في باريس أو الذهاب إلى إنكلترة كي يساعد الفرنسيين الأحرار في مقاتلة الاشتراكيين القوميين. ثم بعد أن تذكر أن هناك الكثير من الأشياء التي ينبغي أن تُفعل: مثلًا يجب على المرء أن يمنح للأعمال الخيرية، ولكن المرء لا يفعل هذا دومًا، وهذا مثالي لكنه غير مطلوب، بعد أن تذكر هذا ما الذي يجب أن يفعله؟"

قال آرشي ساخرًا: "هذا سؤال غبي. فكّر به" - أومأ بالمسدس، ناقلًا له من وجه الطبيب ورابتًا على صدغه به - "في نهاية اليوم، سيفعل الشيء الذي يهتم به أكثر. إما أن يحب بلاده أو أمه العجوز".

"لكن ماذا لو حرص على الخيارين بشكل مساو؟ أعني البلاد والأم العجوز. ماذا لو كان ملزمًا بالاثنين؟"

لم يتأثر آرشي: "حسنًا، من الأفضل أن يفعل شيئًا واحدًا ويتصالح مع الأمر".

قال الدكتور محاولًا أن يبتسم: "سيوافق الرجال الفرنسيون معك، إذا كان لا يمكن تحقيق الخيارين، اختر واحدًا إذًا كما تقول، وتصالح مع الأمر. إن الإنسان يصنع نفسه في النهاية. وهو مسؤول عمَّ يصنعه".

"ها أنت هناك، إذًا. نهاية المحادثة".

فتح آرشي ساقيه، نشر وزنه، مستعدًا للتلقيم وسدد المسدس مرة أخرى.

"لكن فكِّر من فضلك يا صديقي، حاول أن تُفكِّر". ركع الطبيب على ركبتيه رافعًا سحابة من الغبار ارتفعت وهبطت كتنهيدة.

قال آرشي، مرعوبًا من جداول دم عينه، ويده على ساقه، وفمه على حذائه: "انهض، من فضلك، لا حاجة ل..."

لكن الطبيب أمسك قفا ركبتي آرشي: "فكِّر، من فضلك، أي شيء يمكن أن يحدث... يمكن حتى أن أخلّص نفسي من وجهة نظرك... أو يمكن أن تكون مخطئًا، ويمكن أن يعود إليك قرارك كما عادَ إلى أوديب، الذي كان مفقوء العينين وفي حالة مريعة. لا تستطيع أن تحذر".

أمسك آرشي الطبيب من ذراعه النحيلة، رفعه إلى الأعلى وبدأ يصرخ: "انظر يا صديقي. لقد أزعجتني الآن. لستُ عرّافًا لعينًا. يمكن أن ينتهي العالم غدًا لكل من أعرفهم، لكن يجب أن أفعل هذا الآن. صمد ينتظرني. من فضلك" - قال آرشي، لأن يده كانت ترتجف وتصميمه كان يخف بسرعة - "من فضلك توقّف عن الحديث، لست عرّافًا".

لكن الدكتور انهار مرة أخرى كمثل لعبة صندوق لولبية: "كلا، كلا... لسنا عرافين. لم يكن بوسعي أبدًا أن أتنبأ أن حياتي ستنتهي على يد طفل... تقول رسالة كورنثوس 1، الإصحاح الثالث عشر، 8: (المحبة لا تسقط أبدًا وأما النبوات فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذٍ يبطل ما هو بعض). لكن

متى سيأتي؟ بالنسبة لي، صرت متعبًا من الانتظار. إنه شيء مريع، أن تعرف جزئيًا فحسب، شيء مريع ألا تحصل على الكمال، الكمال الإنساني، حين يكون متاحًا بشكل جاهز هكذا." رفع الدكتور نفسه، وحاول أن يصل إلى آرشي في اللحظة التي خطا فيها آرشي إلى الخلف: "لو كنا فقط شجعانًا بما يكفي لاتخاذ القرارات التي يجب أن تُتخذ... بين الذين يستحقون الإنقاذ والبقية... إنها جريمة أن ترغب..."

قال آرشي، شاعرًا بالخجل من أنه اكتشف أنه يبكي، ليس دموعًا حمراء كالطبيب، لكن دموعًا سميكة شفافة ومالحة: "من فضلك، من فضلك، ابق مكانك. من فضلك توقف عن الحديث. من فضلك".

"ثم أفكر بالمنحرف الألماني فريدريك(188)، تخيل العالم بدون بداية أو نهاية يا فتى". بصق كلمته الأخيرة "فتى" وكانت لصًا غيّر توازن القوة بينهما، سارقة أية قوة بقيت في آرشي وتناثرت في الريح. "تخيل. إن كنت تستطيع، إن الحوادث في العالم تحدث بشكل متكرر، بلا نهاية، بالطريقة التي فعلتَ هذا بها دومًا..."

"ابق حيث أنت".

"تخيل هذه الحرب مليون مرة..."

قال آرشي مختنقًا من المخاط: "كلا شكرًا، سيئة بما يكفي في المرة الأولى".

"ليست فرضية جدية. إنها اختبار، فقط الذين هم أقوياء بما يكفي وميالون إلى الحياة كي يؤكدوها، حتى ولو واصلت التكرار، لديهم ما يحتاجه الأمر لتحمل السواد الأسوأ، أستطيع أن أرى الأشياء التي فعلتها تتكرر بلا نهاية. أنا أحد الواثقين. لكنك لست أحدهم..."

"من فضلك، توقف عن الحديث، من فضلك، كي أستطيع..."

قال الدكتور مريض كاشفًا عن معرفة امتلكها من البداية، اسم الفتى الذين كان ينتظر توظيفه حين يمتلك القوة الأكبر: "بالنسبة للقرار الذي تتخذه يا آرشي، هل تستطيع أن تراه يتكرر مرة بعد أخرى، خلال الأبدية؟ هل تستطيع؟"

صاح آرشي، بمتعة، لأنه تذكر لتوه: "لدي قطعة نقدية! لدي قطعة نقدية".

بدا الدكتور مريض مشوشًا، وأوقف خطاه المتعثرة إلى الأمام.

"ها! لدي قطعة نقدية، أيها الوغد. ها! تهانينا!"

قام بخطوة أخرى، امتدت يداه، راحتا كفيه إلى الأعلى... بريء.

"ارجع إلى الخلف. ابق حيث أنت. حسنًا. هذا ما سنفعله. انتهى الكلام. سأضع مسدسي هنا... ببطء... هنا".

انحنى آرشي ووضعه على الأرض، تقريبًا بينهما: "وهكذا تستطيع أن تثق بي. سأتقيد بكلمتي. وسأرمي هذه القطعة النقدية الآن. إذا جاءت نقشًا سأقتلك".

"ولكن..."، قال الدكتور مريض. وللمرة الأولى شاهد آرشي شيئًا مثل الخوف الحقيقي في عينيه، الخوف نفسه الذي شعر به آرشي بشكل كامل بحيث لم يستطع التحدث.

"وإذا جاءت طرة لن أفعل، كلا، لا أريد أن أتحدث عن هذا. لست مفكرًا، ولا أفقه في أمور كهذه. هذا أفضل ما أستطيع تقديمه. حسنًا، هيا".

ارتفعت القطعة النقدية ودارت كما ترتفع قطعة نقدية وتدور كل مرة في عالم تام، تشع بضوئها ثم تكشف جانبها المظلم مرات كافية كي تسمّر رجلًا، ثم في نقطة ما من الصعود المنتصر بدأت تتقوس، وأخطأ القوس، وأدرك أرشيبالد أنها لن تعود إليه مطلقًا بل ستذهب خلفه، مسافة بعيدة خلفه، والتفت كي يراقبها تسقط في التراب. كان ينحني كي يلتقطها حين دوت طلقة وشعر بألم رهيب في يده اليمنى. نظر إلى الأسفل، فشاهد الدم. مرت الطلقة عبر يده، أخطأت العظم، لكنها تركت شظية من غلافها مطمورًا عميقًا في اللحم. وكان الألم مبرحًا وبعيدًا بشكل غريب في الوقت نفسه. والتفت آرشي كي يرى الدكتور مريض نصف منحن والمسدس يتدلى من يده اليمنى الضعيفة.

قال آرشي بغضب، نازعًا المسدس من يد الدكتور بسهولة وقوة: "اللعنة، لماذا فعلت هذا؟ إنها طرة. أترى؟ طرة. انظر. كانت طرة".

*****

وهكذا وقف آرشي هناك، في مسار الطلقة، على وشك أن يفعل شيئًا غير

معتاد، حتى للتلفزيون: أن ينقذ الرجل مرتين دون سبب منطقي كما في المرة الأولى. وكان هذا عملًا مشوشًا، عمل إنقاذ الناس. راقبه جميع من في الغرفة برعب وهو يتلقاها في الفخذ، تمامًا في عظم الفخذ، ويدور ببعض الميلودراما ويسقط على الصندوق الزجاجي للفأر. تناثرت شظايا الزجاج في كل مكان، يا له من أداء، لو كان على شاشة التلفزيون لسمعت الساكسفون الآن، والمدائح تتدفق.

هناك أولًا المراحل الأخيرة للعبة: مهما كان تفكيرك بها يجب أن تلعبها، حتى ولو كانت كمثل استقلال الهند وجامايكا، وكمثل توقيع اتفاقيات السلام أو رسوّ زوارق المسافرين وربطها. إن النهاية هي بداية قصة أطول، وفريق الدراسة نفسه الذي اختار لون هذه الغرفة والسجادة وخط الملصقات، وارتفاع الطاولة، سيعلّم دون شك المربع الذي يطلب رؤية كل تلك الأشياء ملعوبة إلى نهايتها... وأكيد هناك نموذج ديمغرافي لكل أولئك الذين يرغبون بأن يروا شهادات شاهد العيان التي حددت ماجد مرات كثيرة كميلات، والنسخ طبق الأصل المشوشة، وشريط الفيديو للضحية غير المتعاونة والعائلات، وقضية محكمة مستحيلة بحيث أن القاضي استسلم وأصدر حكمًا على التوأمين بخدمة الجماعة أربعمائة ساعة، وخدما كحدائقيين في مشروع جويس الجديد، وهو حديقة ألفية ضخمة على ضفاف نهر التيمز...

هل كن نساء شابات موظّفات بين الثامنة عشرة والثلاثين اللواتي أحببن التقاط صورة سريعة بعد سبع سنوات من الآن لآيري وجوشوا وهورتينس وهم جالسون على شاطئ البحر الكاريبي (ذلك أن آيري وجوشوا صارا حبيبين، تستطيع أن تتجنب مصيرك لوقت طويل فحسب) بينما ابنة آيري التي لا أب لها تكتب بطاقات تعبّر فيها عن حبها، إلى العم السيّئ ميلات والعم الجيد ماجد، وتشعر أنها حرة كشخصية بينوكيو [194] القصصية، الدمية المصنوعة من خيوط أبوية؟ وهل طبقة المجرمين والكبار فقط هي التي ترغب بالقيام برهانات على الرابح في لعبة البلاك جاك، تلك التي لعبتها ألسانا وصمد آرشي وكلار في أوكونيل في 31 كانون الأول 1999، الليلة التاريخية التي فتح فيها عبدل ميكي في

النهاية الباب للنساء؟

أكيد أن رواية هذه الحكايات التي لا تُصدق وأخرى مشابهة لها تتطلب تسريع الأسطورة، الكذبة الشريرة بأن الماضي مضطرب دومًا والمستقبل مكتمل. وكما يعرف آرشي، ليس الأمر هكذا. ولم يكن أبدًا هكذا.

سيشكل هذا استطلاعًا مثيرًا للآراء (ماذا سيكون رأيك؟) لاختبار الحاضر وتقسيم المشاهدين إلى مجموعتين: أولئك الذين ثبتوا أعينهم على رجل نازف، ممدد على الطاولة، والذين راقبوا فتحة فأر صغير بني متمرد. راقب آرشي الفأر، راقبه وهو يقف هادئًا جدًا لثانية بنظرة اعتداد بالنفس كما لو أنه لا يتوقع أي شيء أقل من هذا. راقبه يندفع بعيدًا مارًا فوق يده. راقبه وهو يركض فوق الطاولة وعبْر أيدي الذين حاولوا الإمساك به، راقبه يقفز عن طرف الطاولة ويختفي في فتحة تهوية. واصل طريقك يا ولدي! قال له آرشي بينه وبين نفسه.

المؤلف

ولدت زادي سميث في لندن عام 1975 . لعائلتها جذور تنحدّر من جامايكا. كتبت خمس روايات: «في الجمال» و«أسنان بيضاء» و«شمال وغرب لندن» و«رجل الأوتوغراف» وأخيرًا «سوينغ تايم» التي وصلت القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر عام 2017. اختيرت زادي عضوًا في جمعية الأدب الملكيّة عام 2002. تهتم في رواياتها بمسألة العودة إلى الجذور، وكيف أن الناس قد يعيشون في مكان واحد لكن ثقافاتهم الآتية من جذورهم قد ترسم لكُلّ منهم مستقبلًا مختلفًا. تعمل زادي مُحاضرة في جامعة نيويورك.

المترجم

أسامة إسبر شاعر وصحفي ومترجم سوري وُلد عام 1963 . يعمل محرراً في مجلة «جدلية» وموقع «تدوين للنشر». صدرت له مجاميع شعريّة وقصصيّة من بينها «شاشات التاريخ» و«مقهى المنتحرين». ترجم من الإنكليزية إلى العربية كتبًا من بينها «الفناء الإسمنتي» للآيان مكيوان، و«الكتب في حياتي» لهنري ميلر، و«نشأة النظام الأبوي» لغيردا ليرنر، و«توقيعه على الأشياء كلّها» لإليزابيث جلبرت، وأخرى كثيرة. يُقيم حاليًّا في أمريكا.

هوامش المترجم

1 - مو: اختصار لاسم محمد.

2 - الغانيشي: نسبة إلى الإله غانيش وهو إله هندوسي له رأس فيل.

3 - كوشر كلمة عبرية تعني ملائمًا أو صحيحًا. هو الطعام المحلل أكله حسب الأحكام اليهودية، مثل الحلال في الإسلام.

4 - إلفيس: المقصود هنا إلفيس بريسلي، وهو مطرب أميركي مشهور.

5 - عيد تبادل الهدايا والذي يصادف 26 كانون الأول وهو عطلة رسمية في بريطانية ويدعى أيضًا يوم الصناديق، حيث تغلف الهدايا أو تجمع النقود للفقراء.

6 - زجاجة بيلي، ويسكي إيرلندية.

7 - استخدمت المؤلفة كلمة كابيش بالإيطالبة وهي تعني: هل تفهمون؟

8 - تستخدم المؤلفة كلمة عامية قديمة للشلنغ وهي bob.

9 - كوزيمو دي مديتشي (1389-1464): سياسي ومصرفي إيطالي وأول حكام فلورنسا من أسرة مديتشي في عصر النهضة الإيطالي؛ يعرف باسم "كوزيمو الأقدم".

10 - قماش مخروطي الشكل مثبّت على عمود ليدل على اتّجاه الرّيح.

11 - تقول المؤلفة هنا إن آرشي كان في نوع من المزاج في الفعل الماضي أو فعل

المستقبل التام، وهي أزمنة في قواعد اللغة الإنجليزية.

12 - collect two hundred تعني في المونوبلي اجمع مائتين، وهي تعبير بالمحكية الإنجليزية ويعني سرْ في طريق منحرف وهي عبارة تعاكس العبارة الأخرى do-not-pass-go-do-not-collect-200 والتي تقول للشخص أن يسلك طريقًا مستقيمًا دون انحراف.

13 - الممثل الأول في العالم: Thespis. ولد "ثيسبيس" في قرية "أكاريا" بمنطقة "أرثون" في بداية القرن السادس ق.م، حيث أمضى شبابه هناك، وكان أهم تعديل أدخله هو إيجاد الممثل الأول لأول مره في مقابل المغني والراقص.

14 - To send you to Coventry يعني حرفيًا إرسالك إلي كوفنتري وهي مدينة بريطانية، لكن العبارة اصطلاحية وتعني "أنهم سينبذونك" أو "يحجرون عليك".

15 - ينبغي التنويه أن جود ويعرف اسمه يهوذا تداوس هو أحد الحواريين الاثني عشر للمسيح، وهو غير يهوذا الاسخريوطي.

16 - Hmph: صوت يصدر عادة والفم مغلق ويشير إلى الانزعاج ويعني: "لا تلوموني. هذا خطأكم".

17 - ترد كلمة هرمجدون في الكتاب المقدس مرة واحدة في سفر الرؤيا، 16:16. حيث يُنبئ أن "ملوك المسكونة بأسرها" سيُجمعون إلى "حرب اليوم العظيم، يوم الله القادر على كل شيء" في "الموضع الذي يُدعى بالعبرانية هرمجدون".

18 - أغنية لفرقة الروك البريطانية "الكينكس".

19 - دوني أوسموند مغني وراقص وممثل أميركي وكان معبودًا بين المراهقين الأميركيين. ولد في 9 كانون الأول، 1957.

20 - البي سيتي رولرز فرقة بوب وروك اسكتلندية اشتهرت بين المراهقين في السبعينيات.

21 - an eighth في اللغة وزن الماريجوانا ثلاثة غرامات ونصف.

22 - روجر دالتري، مغني ومؤلف أغاني وممثل بريطاني ولد في 1 آذار 1944.

23 - Mmm صوت يطلق للتعبير عن الاستمتاع والرضا.

24- يعتبر الآكي والسمك المملح الطبق الوطني التقليدي في جامايكا والآكي نوع من الثمار.

25 - يعتبر سفر التثنية من الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى ويشكل جزءا من التوراة، تشير الموسوعة اليهودية إلى أن النص عثر عليه عزرا عند عودة اليهود من سبي بابل ضمن خرائب هيكل سليمان ، فأطلقوا عليه اسم التوراة .

26 -Sod 's Law. قانون سود، وهو مصطلح يستعمل في المملكة المتحدة ويقابل "قانون مورفي" في أمريكا الشمالية، ويتضمن استخدامُ هذه العبارة التنبؤ عشوائيا بنتائج سلبية في المستقبل، وهو لا يرقى إلى مستوى القانون.

27 - Go Bye Ello Sag وتعني دجاج بالكري.

28 - Chicken Jail Fret see wiv chips فتعني صحنًا من الدجاج بالبصل والكزبرة والتوابل الهندية الأخرى كالتوميريك، أما كلمة fanks فتعني شكرًا.

29 - وتدعى واقعية حوض المطبخ أو (دراما حوض المطبخ) وهي حركة ثقافية بريطانية تطورت في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات في المسرح والفن والرواية والفيلم والمسرحيات التلفزيونية ووصف الذين قاموا بها بأنهم "شبان غاضبون" خائبو الأمل من المجتمع الحديث.

30 - رواية للروائي البريطاني الشهير إدوارد مورجان فورستر.

31 - الدال طبق من العدس الأصفر مع الكاري.

32 - مايكل باركنسون مذيع ومؤلف وصحفي بريطاني من مواليد 1935 .

33 - Uriah Heep فرقة روك بريطانية تشكلت في لندن في 1969 .

34 - كما في قصيدة الملاح القديم للشاعر البريطاني كولردج.

35 - حزب الجبهة الوطنية وهو حزب فاشي بريطاني معاد للمهاجرين.

36 - جون إينوك باول (1912-1998) سياسي إنجليزي، وأديب كلاسيكي، وعالم لغوي، وشاعر. شغل منصب عضو المحافظين في البرلمان عن حزب ألستر. حقق أبرز مكانة له في عام 1968، عندما ألقى خطابا مثيرا للجدل حول الهجرة.

37- لأدفنتست أو السبتيون (السبتية) هم طائفة بروتستانتية ألفيَّة ظهرت

في الولايات المتحدة الأميركية في القرن التاسع عشر، تؤمن بقرب المجيء الثاني للمسيح حيث أن كلمة أدفنست Adventist تعني مجيئيون، وقد عرفوا سابقا بالميليريون نسبة لوليم ميلر مؤسس هذه الطائفة وهو واعظ معمداني (1849-1782) عمل سابقا كضابط في الجيش الأمريكي.

38 - مغنية بلوز وروك أميركية (1943-1970).

39 - جيسي أوينز أحد الرياضيين الأمريكيين في سباقات المضمار والميدان، وحائز على أربع ميداليات ذهبية أولمبية في دورة ألعاب 1936.

40 - موريس شيفالييه (1972-1888). ممثل فرنسي ومطرب عالمي محبوب، اشتهر بقبعته المصنوعة من القش وبأسلوبه المرح الجذاب.

41 - جوان ريفرز(1933-2014) هي كوميدية وكاتبة وممثلة أميركية، عرفت بحسها الفكاهي اللاذع وانتقادها للمشاهير.

42 - في الأصل Moleskin وهي ثياب قطنية ثقيلة وسميكة.

43 - نسبة إلى بيافرا، والتي أطلق عليها رسميًا اسم جمهورية بيافرا وهي دولة انفصالية في غرب أفريقيا وجدت من 30 أيار 1967 إلى كانون الثاني 1970. وأدت محاولتها الانفصالية عن نيجيريا إلى نشوب حرب أهلية.

-44 موسيقا السكا نشأت في جامايكا في أواخر الخمسينيات وتأثرت بموسيقا الجاز والبلوز الأميركية.

45 - جون إريك بارثولوميو المعروف باسمه المسرحي إريك موركامب، وهو ممثل كوميدي بريطاني شكل مع إرني وايس الثنائي الشهير موركامب ووايس، استمرت الشراكة من 1941 حتى وفاة موركامب في 1984.

46 - كتاب خصاء الأنثى لجيرمين جرير صدر في 1970 وحقق أفضل المبيعات على الصعيد العالمي وهو من النصوص المهمة في الحركة النسوية وأطروحة جرير هي أن العائلة التقليدية الاستهلاكية تكبت نساء جنسيًا مما يعطل حيويتهن ويخصيهن.

47- الخوف من الطيران رواية للشاعرة والروائية الأميركية إريكا جونز صادرة في

سنة 1973 وكانت رواية مثيرة للجدل بسبب تصويرها للجنسانية الأنثوية ودورها في تطور الموجة الثانية من الحركة النسوية.

48 - كتاب الجنس الثاني من تأليف المفكرة الوجودية سيمون دي بوفوار وهو صادر سنة 1949 ويناقش معاملة النساء عبر التاريخ.

49- إشارة إلى كتاب العالم ستيفن هوكنج الكون في قشرة جوز والذي ترجمة إلى العربية الدكتور مصطفى إبراهيم فهمي.

50 - Foxtrot F's and Zebra Z's من أبجدية صوتية كان يستخدمها حلف شمال الأطلسي في اتصالاته.

51 - الهوني، نسبة إلى الهون و هم مجموعة من الرعاة الرحل، الذين ظهروا من وراء نهر الفولجا في روسيا حاليًا وهاجروا إلى أوربا الشرقية حوالي370 ميلادية، و قاموا ببناء إمبراطورية في أوروبا.

52 - كلمة كافر إهانة عنصرية استخدمت للإشارة إلى السود. وتطورت من كلمة Cafri أثناء الفترة السابقة للاستعمار كمعادل لكلمة زنجي. وفي أفريقيا الجنوبية استخدم المصطلح للإشارة إلى شعوب البانتو السوداء.

53- Risaldar-Major وتعني ضابط الخيالة في الجيش البريطاني الهندي، ولقد أنشئت هذه الرتبة في 1886، وهي رتبة تعادل رتبة نقيب.

54 - Daffadar كما وردت في الأصل وهي رتبة تعادل رتبة رقيب في الجيش الباكستاني أو الهندي حاليًا، وتكتب باللغة الأردية دفعدار.

55 - الخط القوطي كان خطًا دفاعيًا ألمانيًا في الحملة الإيطالية في الحرب العالمية الثانية وكان خط الدفاع الآخير للمارشال الألماني ألبرت كيسيلرنغ على طول جبال أبنين أثناء انسحاب القوات الألمانية في إيطاليا أمام قوات الحلفاء.

56 - ثغرة أرجنتا حيث حصلت معركة بين القوات البريطانية والقوات الألمانية في الحرب العالمية الثانية في إيطاليا.

57 - Colonel-general كما وردت في الأصل وهي معادلة لرتبة لواء في بعض الجيوش، وقد استخدمت هذه الرتبة كل من كوريا الشمالية وروسيا.

58 - فرانك سيناترا (1915-1998) مغني وممثل ومنتج أميركي كان من الفنانين الموسيقيين الأكثر شعبية في القرن العشرين.

59 - بينج كروسبي (1903-1977) مطرب وممثل أميركي.

60 - ممثل كوميدي أميركي (1880-1946)/

61 - تنص مبرهنة فيرما الأخيرة (Fermat's Last Theorem) على أنه من المستحيل فصل مكعب إلى مكعبين، ولا عدد مرفوع للقوة الرابعة إلى عددين مرفوعين للقوة الرابعة. وعمومًا لا يمكن لأي عدد مرفوع لقوة أعلى من القوة الثانية أن يكون مجموع عددين لهما نفس القوة و لا توجد أعداد صحيحة طبيعية x , y , z حيث x^n + y^n = z^n لكلّ n أكبر أو تساوي 3 (وتُعتبر أيضًا معادلة ديفونتية).

62 - when the fat lady sings، الترجمة الحرفية هي: حين تغني السيدة البدينة، وهذا تعبير اصطلاحي يعني أنه يجب ألا يفترض المرء أنه يعرف النتيجة بينما الحدث لا يزال يجري.

63 - Chinese burn، إمساك ساعد الضحية باليدين وشد الجلد باتجاهين متعاكسين مما يسبب ألمًا كالحرق.

64 - Diwali وهو مهرجان الأضواء الهندوسي ويرمز إلى الانتصار الروحي للضوء على الظلام، وللخير على الشر وللمعرفة على الجهل.

65 - عيد الغفران أو يوم الغفران، والذي يُطلق عليه يوم هاكيبوريم باللغة العبريّة، هو اليوم العاشر من شهر تشرين في التقويم العبري أو اليهودي. عيد الغفران هو يومٌ مقدّس عند اليهود، وهو مخصصٌ للصلاة والصيام فقط.

66 - حانوكا أو "عيد الأنوار"، مناسبة يحتفل بها اليهود لمدة ثمانية أيام. يتراوح موعده حسب التقويم الميلادي بين الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر والأسبوع الأخير من شهر كانون الأول/ ديسمبر.

67 -يحدث عندما تكون أقطار الجسيمات التي في الجو أصغر من أطوال موجات الإشعاعات. ولهذا يكون تبعثر الموجات القصيرة أكثر من تبعثر الموجات التي هي

أطول. ولهذا تبدو السماء من الأرض زرقاء، ولولا التبعثر لظهرت السماء سوداء، ذلك لأن الأشعة الزرقاء القصيرة الموجة تتبعثر اكثر من غيرها من موجات الطيف الشمسي وترى السماء زرقاء.

68 - هو لابن عباس وليس لابن عمر، كما ورد في كتاب : المحلى لمؤلفه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى : 456هـ). أما "إنما هو عصب تدلكه "فهذا القول هو لابن عمر كما ورد في كتاب إعلاء السنن، ج 11، عن قتادة عن رجل عن ابن عمر، أنه قال: "إنما هو عصب تدلكه".

69 - ذكره الإمام النسائي في سننه الصغرى.

70 - الميثودية أو المنهاجية هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا ولاحقا من خلال الأنشطة التبشيرية في المستعمرات البريطانية وحتى في الولايات المتحدة الأميركية.

70 - عرض تلفزيوني بريطاني يحتوي على الألعاب والأسئلة كان يعده بيل رايت، واستمد إلهامه من تجاربه حين حقق معه الجستابو في الحرب العالمية الثانية.

71 - وهي نقطة معينة في الجهاز التناسلي للمرأة تساعد على سرعة الوصول إلى النشوة الجنسية اكتشفها العالم الدكتور الألماني أرنست جرافنبرج في الخمسينات وهي نقطة معينة بأعلى الجدار الأمامي في المهبل بالثلث الأول وتوجد في أعلى جدار المهبل على بعد 5 إلى 7 سم من فتحة المهبل.

72- إهانتان يستخدمهما الأطفال. اللورد ماجو وتعني المترفع والحسير النظر الذي يظن أنه أفضل من الناس لكنه ليس كذلك وأجلي بو تعني الدميمة ذات الرائحة.

73- الكلمة في الأصل هي Pros-testing، هكذا لفظت آيري كلمة نحتج بالإنجليزية مضيفة حرف s الذي ليس في أصل الكلمة.

74- Amma تعني الأم في اللغة التاميلية.

75 - Lungi لباس يشبه السارونغ يلف حول الخصر ويمتد إلى الكاحلين، يلبس في جنوب شرق آسيا.

76 - Freddie Mercury مطرب ومؤلف أغاني بريطاني.

77 - Bruce Springteen مغني ومؤلف أغاني أميركي وقائد فرقة إي ستريت، مشهور بأغانيه الشعرية.

78 - وهي رقصة هندية كلاسيكية وتدعى أيضًا السدير.

79 - Chippendale نجار ومصمم أثاث بريطاني (1718-1779).

80 - في الأصل Krauts وتعني بالمحكية الألمان.

81 - فريق إي: مسلسل مغامرات أميركي عرض على الإن بي سي من 1983-1987.

82 - حديث نبوي رواه البخاري ويعني: لا تجد في مائة من الناس من يصلح للصحبة.

83 - الانقسام الفتيلي أو الانقسام المغزلي أو الانقسام الخيطي أو التفتل Mitosis هو العملية الحيوية التي يتم بها تضاعف المعلومات الوراثية الجينية ضمن الخلية الحية لتشكيل خليتين حيتين متطابقتين ندعوهما الخليتين الابنتين.

84 - همفري دي فوريست بوجارت (1899-1957) ممثل سينمائي ومسرحي أميركي مشهور صار أيقونة ثقافية بسبب أدواره في حقبة هوليود الكلاسيكية.

85 - أغنية للمطرب بوب مارلي وهو مغن ومؤلف أغاني جامايكي (1945-1981).

86 - مغني أميركي مشهور.

87 - وتعني تافهة ومنحطة بلغة الشوارع في شرق لندن.

88 - شخص من أصل آسيوي بلهجة جامايكية تخلى عن هويته الثقافية وتبنى ثقافة أفريقية سوداء. ويوجد أشخاص كهؤلاء في لندن.

89 - إشارة إلى الوحش الذي صوره الشاعر الإيرلندي وليم بتلر ييتس في قصيدته المجيء الثاني، وتميزت حركته بالبطء وشكله بالشراسة.

90 - صيف الحب إشارة إلى صيفي 1987-89 واللذين تميزا بثورة الشباب المرتبطة بالموسيقا وانتشار حبوب الهلوسة.

91 - الخوف من كوكب أسود هو ثالث ألبوم لفرقة الهيب هوب الأميركية ببليك إنيمي.

92 - التشاكما سلالة إثنية هندية يوجد بعضها في البنغال.

93 - الماغ Magh أو الموغ Mog هي المصطلح المستخدم في تاريخ الشعب البنغالي والشعوب الأخرى في جنوب آسيا لشعب آراكان أو الآراكانيين.

94 - Mongoloid هم مجموعة من شعوب مختلفة من سكان آسيا الأصليين وشمال أميركا وجنوب أميركا وجزر المحيط الهادي. وهم أحد السلالات القديمة الثلاث التي ذكرها جورج كوفييه في القرن الثامن عشر.

95 - Santal مجموعة إثنية موجودة في النيبال وبعض الولايات الهندية الأخرى.

96 - مجلة بريطانية كوميدية تهتم بالخيال العلمي.

97 - مغني راب أميركي.

98 - مغني راب أميركي من أصل بريطاني.

99- الفارس في حقل الشوفان رواية مشهورة للكاتب الأميركي جي. دي.سالنجر (1919-2010)، ترجمها إلى العربية الروائي المعروف غالب هلسا وصدرت في 2007.

100- فيلم شوارع قذرة من أفلام المافيا، ومن إخراج مارتن سكورسيسي.

101- السمك الرعاد فيلم من إخراج المخرج الأميركي فرانسيس كوبولا.

102- فيلم بعد ظهر قائظ، بطولة آل باتشينو ومن إخراج سيدني لوميت.

103- شافت في أفريقيا، فيلم من إخراج جون جوليرمان ويتناول موضوع خطف الأفارقة وبيعهم كعبيد في أوربا.

104- برنامج كوميدي بريطاني.

105- عرض تلفزيوني بريطاني يحتوي على الألعاب.

106- فورتدا اسم أطلقه سيجموند فرويد على لعبة كان يلعبها حفيده في سن الثمانية عشرة شهرًا، وهي عبارة عن بكرة صوفية كان الطفل يرميها بشكل متكرر خارج سريره مصدرًا صوتين هما فورت ويعني "ضاع" ودا وتعني "هناك". تظهر هذه اللعبة بحسب فرويد الطفل يحول موقفًا غير سعيد لا يمتلك فيه سيطرة على حضور والديه إلى موقف سعيد يكون فيه الوالدان تحت إمرة وطاعة الطفل. فسر فرويد هذه اللعبة في كتابة ما فوق مبدأ اللذة كطريقة للانتقام من

الوالدين، للقول للوالدين أنهما غير مهمين.

107- كلمة Hearsay وهي اسم الضابط تعني الشائعة باللغة الإنجليزية.

108- لعبة الهمس الصينية وتدعى في أميركا الشمالية لعبة الهاتف، وفيها يشكل اللاعبون صفًا ويأتي اللاعب الأول برسالة ويهمسها لأذن الثاني في الصف. يكرر الثاني الرسالة للذي يليه وهلمجرا.

109- مؤرخ باكستاني.

110- نوم حركة العين السريعة هو مرحلة من مراحل النوم تتميز بحركة العين السريعة فيها. يصنف نوم حركة العين السريعة إلى صنفين: التوتري والطوري. تعرف ناتانيال كليتمان وطالبه إيجين أسيرينسكي على هذه المرحلة من النوم في عام 1953.

111- مغني وموسيقي بريطاني، كان طبالًا في فرقة البيتلز.

112- البيتلز فرقة روك بريطانية تشكلت في ليفربول في سنة 1960.

113- الأربعاء الأسود يشير إلى 16 أيلول 1992 حين حدث انهيار في سعر الجنيه الإسترليني مما دفع بريطانيا إلى الانسحاب من آلية سعر الصرف البريطانية.

114 - مغنية أميركية.

115 - مغنيان وموسيقيان أميركيان.

116 - رواه الترمذي وليس التبريزي كما تورد الروائية.

117 - صحيفة جامايكية.

118 - بينجامين مكلين سبوك طبيب أطفال أميركي حقق كتابه الطفل والعناية بالأطفال أفضل المبيعات في التاريخ.

119 - صحفية وروائية بريطانية.

120 - روائية أميركية.

121 - استخدمت المؤلفة كلمة pulchritude، وتعني الجمال الجسدي، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية Pulcher.

122 - تدرس الهندسة الكسيرية (Fractal Geometry أو Fractals) البنى

الهندسية المؤلفة من كسيريات وهي جمع كسيرية (Fractals) التي يمكن تعريفها بأنها جزء هندسي صغير جدا غير منتظم ذو أبعاد لامتناهية الصغر، يمكن أن يتألف من أجزاء متشابهة مؤلفة بدورها من أجزاء متشابهة مشابهة للجزء الأم.

123 - الترجمة الحرفية هنا: قدمي وفمي في علاقة جيدة، وهذا يشير إلى تعبير اصطلاحي في اللغة الإنجليزية حول شخص مهذار ويحرج الآخرين بكلامه.

124 - وهي طريقة في التلفظ عنصرية وتستخدم للسخرية من المهاُجرين من جنوب آسيا.

125 - هم الهنود الأوائل الذين قابلهم كريستوفر كولمبوس في الأمريكيتين في عام 1492 م وعاشوا في معظم جزر الهند الغربية.

126 - في هذا التمرين يتم الوقوف بحيث تكون هناك مسافة بين القدمين، وتبدأ ممارسته بخفض الجسم للأسفل مع ثني الركبتين والفخذين، ثمّ القفز نحو الأعلى بكل قوة مع فتح الساقين والذراعين إلى الخارج، ثمّ العودة للأسفل إلى نقطة البداية.

127 - Irieanthus negressium marcusila تنظر جويس هنا إلى آيري كأنها زهرة الأغابانثوس (زهرة الحب) وتشير إلى أصلها كزنجية وأن ماركوس يجب أن يربيها ويعتني بها.

128 - Millaturea brandolidia joyculatus تشير إلى ميلات وأنه مثل مارلين براندو نجم فيلم على الواجهة المائية وأنه من اختصاص جويس التي يجب أن تعتني به.

129 - سكوت جوبلن (1868-1917) موسيقي وعازف بيانو أميركي من أصل أفريقي.

130 - آرت تاتوم (1909-1956) عازف موسيقى جاز أميركي. ويعتبر من أعظم العازفين على البيانو في هذا المجال.

131 -Double Science ، أو العلوم المزدوجة. وهي دراسة البيولوجيا والكيمياء والفيزياء في المرحلة الثانوية.

132 - زانادو يوتوبيا ذكرها الشاعر البريطاني صامويل تيلور كولردج في قصيدة له بعنوان "قبلاي خان".

133 - ستيف أوستن، أو الرجل الآلي، بطل مسلسل تلفزيوني أميركي.

134 - مسلسل تلفزيوني بريطاني.

135 - غريغور يوهان مندل (-1822 1884) هو أبو علم الوراثة، وعالم نباتات وراهب نمساوي أجرى الكثير من التجارب واكتشف القوانين الأساسية للوراثة.

136 - كريك وواتسون عالمان بريطانيان.

137 - عالم بيولوجيا وفيزيائي بريطاني مولود في نيوزلندة.

138 - تستخدم الكاتب هنا كلمة Chaffinches وتعني طيور الشرشور أو الحساسين الظالمة، بدلًا من تشالفن.

139 - رواية للكاتب الاسكتنلدي باكان وهي رواية مغامرات.

140 - بئر العزلة رواية للكاتب البريطاني رادكليف هول نشرت في 1928 وتتناول موضوع العلاقات السحاقية.

141 - كتاب عن صحة النساء وجنسانيتهن.

142 - رواية للكاتبة البريطانية جيانيت ونترسون نشرت في 1985وهي عن فتاة سحاقية تترعرع في جو ديني حُولت إلى فيلم.

143 - فريد أستير وجينجر روجرز كانا شريكين مشهورين في الرقص وصنعا أفلامًا متحركة من 1933 إلى 1949.

144 - بطل فولكلوري سويسري.

145 - سفر المزامير (1 : 63).

146 - جون كيتس وهو شاعر رومانطيقي بريطاني.

147 - رواية كلاريسا أو تاريخ فتاة شابة رواية للكاتب البريطاني صمويل رتشاردسون ومكتوبة في صيغة رسائل.

148 - ناقد أدبي بريطاني (1895-1978).

149 - مارلين براندو (1924-2004) ممثل ومخرج سينمائي أميركي.

150 - باميلا سوزيت جرير، ممثلة أميركية كانت مشهورة في السبعينات.

151 - مصمم أزياء إيطالي.

152 - عمران خان سياسي باكستاني ولاعب كريكيت مشهور سابقًا.

153 - تمثال داود يعتبر من روائع المنحوتات في عصر النهضة الإيطالية وقد نحته من الرخام الفنان مايكل أنجلو.

154 - المهندي حنّة هندية.

155 - لعبة الكونكرز لعبة بريطانية تقليدية تلعب باستخدام حبتي كستناء برية تربطان بخيوط ويلعب اللعبة لاعبان يقومان بضرب حبة اللاعب الآخر إلى أن تنكسر.

156 - ديفد ليفينجستون (1813-1873) طبيب ومبشر مسيحي ومستكتشف في أفريقيا، وقد لفظ الاسم خطأ ليفينجشون بسبب اللثغة لدى الأم.

157 - نوع كبير من الموز قليل الحلاوة يؤكل مطبوخًا.

158 - جيش التيراكوتا هو مجموعة من المنحوتات من الطين النضيج تصور جيش كين شي هوانغ، أول إمبراطور للصين، ودفنت المنحوتات مع الإمبراطور لغرض حمايته في حياته بعد الموت.

159 - كريشنا أحد تجسدات فيشنو في الهندوسية وهو أيضًا إله الحب والرقة والعاطفة.

160 - خبير أرصاد جوية بريطاني.

161 - أحد الأمومة عطلة يحتفل بها الكاثوليك والبروتستانت في المملكة المتحدة وأجزاء أخرى من العالم.

162 - أقفاص البطاريات هو نظام إسكان لعدد من الحيوانات المختلفة وبشكل أساسي لإنتاج البيض من الدجاج. نشأ الاسم من شكل ترتيب الصفوف والأعمدة للأقفاص الموصولة ببعضها البعض، والمشتركة بنفس حاجز الجدران بشكل يشبه خلايا البطارية.

163 - فرقة موسيقا هيب هوب أميركية.

164 - أنزيمات الاقتطاع restiction enzymes هي الأنزيمات التي تقطع تتاليات الدي إن أي عند مواضع محددة تعرف بمقرات الاقتطاع، وتوجد إنزيمات الاقتطاع لدى الجراثيم الذي يعتقد بأنه يقيها من غزو العاثيات وتستخدم تلك الإنزيمات كأدوات في الدراسات الوراثية والتشخيص الوراثي.

165 - علبة بتري أو طبق بتري (Petri dish) هي وعاء مسطح دائري الشكل وشفاف مع غطاء، يصنع من الزجاج أو من اللدائن، ويستعمل من قبل علماء الأحياء لزراعة الخلايا، ويستعمله علماء الكيمياء لحفظ بعض المركبات ووزنها. يأتي أصل التسمية من عالم البكتيريا الألماني يوليوس رتشارد بتري الذي قام باختراعها عام 1887.

166 - لويس ماونتابتن كان ضابطًا في البحرية البريطانية.

167- يعتبر الثابت الرياضي "Pi" أحد أشهر الثوابت الرياضية وأكثرها استخدامًا وفي مجالاتٍ عديدة. بشكلٍ أساسي، فإن الثابت "باي" هو النسبة التي يتم الحصول عليها عند تقسيم محيط الدائرة على قطرها، وهي نسبة ثابتة لأي دائرة. في المسائل الرياضية والهندسية، تقبل قيمة الثابت على أنها 14 ,3، وذلك من أجل سهولة الحل. ولكن فعليًا، فإن قيمة الثابت بايَ هي عدد غير منتهٍ من الأرقام بعد الفاصلة العشرية، والأهم من ذلك، أن الأعداد تكرر نفسها بدون أي ترتيبٍ منتظم.

168 - حوار كتبه الفيلسوف اليوناني أفلاطون.

169 - الميثيلفينديت دواء لعلاج نقص الانتباه الناجم عن فرط النشاط.

170 - إدوارد ألبرت آرثر وودوارد (1930-2009) ممثل ومطرب بريطاني.

171 - غياث الدين خُرّم بن جهانكير، واشتهر بشهاب الدين محمد شاه جهان أي: ملك الدنيا (1000-1666) أحد حكام الهند في القرن الحادى عشر الهجري. أشهر ما ترك تاج محل ضريح زوجته ممتاز محل.

172 - مغني بوب وجاز أميركي.

173 - ري ليوتا، ممثل أميركي مشهور.

174 - ممثل ومغني أوبرا ورجل أعمال أميركي.

175 - عضو في النظام البرتقالي وهو جمعية سياسية بروتستانتية في إيرلندة.

176 - لورنس أوليفييه ممثل ومخرج بريطاني.

177 - نسبة إلى الروائي الفرنسي مارسيل بروست.

178 - سطر مأخوذ من مسرحية لوليم كونجريف بعنوان العروس النادبة: لا غضب في الجحيم أشد من غضب امرأة مزدراة.

179 - عاش زينون الإيلي في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو من إيليا وهي مدينة يونانية على الساحل الجنوبي لإيطاليا. وهو من أنصار بارمنيدس في أن عالم الحس وهم باطل.

180 - حجة زينون: إذا كانت المسافة بين أخيل والسلحفاة هي 1 متر في البداية، فكم من الوقت يحتاج أخيل حتى يصل الى موضع السلحفاة الذي يراها فيه في بداية السباق؟ الإجابة سهلة: إذا كان أخيل يعدو بسرعة 1 متر في الثانية فهو يحتاج إلى ثانية كاملة. لكن خلال هذه الثانية لن تبقى السلحفاة ثابتة ولكنها ستكون قد تحركت مسافة نصف متر إلى الأمام. إذن الآن وبعد ثانية من بداية السباق سيجد أخيل أن السلحفاة مازالت تسبقه بمسافة نصف متر.

181 - Garveyism. يشير المصطلح إلى أفكار وأنشطة تنظيمية لماركوس موسياه جارفي من جامايكا. في 1914 أسس جارفي رابطة تحسين السود الكونية ورابطة الجماعات لتشكيل حكومة في المنفى للأفارقة الذين يعيشون في الشتات بعيدًا عن أوطانهم.

182 - إليجا محمد (-1897 1975). كان قائدًا دينيًا قاد حركة أمة الإسلام في أميركا من 1934 حتى وفاته في 1975.

183 - جاي لويس ديبور (-1931 1994). منظر ماركسي وفيلسوف ومخرج سينمائي فرنسي.

184 - نيك دريك (1948-1974) موسيقي بريطاني.

185 - شخصية خيالية في مسرحية شكسبير عطيل.

187 - شخصية خيالية في فيلم حرب النجوم.

188 - السير هنري هافلوك (1795-1857) كان جنرالًا بريطانيًا عمل في الهند.

189 - جون جوزف نيكلسون ممثل ومخرج سينمائي أميركي.

190 - ماوكلي شخصية قصصية وبطل كتاب الروائي البريطاني رديارد كبلنج كتاب الأدغال.

191 - تقوم الكاتبة هنا بالمزج بين الاسمين كما أن الجنين هو نتاج الاثنين في وعي آيري.

192 - فرانكشتاين أو برومثيوس الحديث رواية ألفتها الكاتبة البريطانية ماري شيللي (1797-1851) والتي تروي قصة فيكتور فرانكشتاين وهو عالم شاب يخلق كائنًا كريهًا وحكيمًا في تجربة علمية مخالفة للأصول.

192 - تستخدم الكاتبة اسم Sick للطبيب وتعني المريض.

193 - فريدريك نيتشه، الفيلسوف الألماني.

194 - بينوكيو هي شخصية خيالية مُستمدة من رواية كتبها الروائي الإيطالي كارلو كولودي سنة 1880، وترجمت لأكثر لغات العالم، وتحولت لعشرات الأفلام، منها ما أنتجته ديزني بالرسوم المتحركة في عام 1940، والتلفزيون الإيطالي في خمس حلقات كل حلقة بمدة ساعة وذلك في عام 1972.

أسنان بيضاء

«لو كان الدين أفيون الشعوب، فإن التقاليد مخدّر أكثر شرًا، لأنها نادرًا ما تبدو شريرة. وإذا كان الدين عِصابة محكمة، شريانًا نابضًا وإبرة، فإن التقاليد طهو أكثر عائلية: بذور خشخاش مطحونة في الشاي، شراب كاكاو حلو مخلوط بالكوكايين، نوع الشيء الذي يمكن أن تصنعه جدتك.»

«أسنان بيضاء» حكاية البريطاني آرشي جونز وصداقته العميقه مع صمد إقبال، المسلم البنغالي، منذ أن التقيا كجنود في الحرب العالمية الثانية. وعبر تتبع عائلتي الصديقين، تأخذنا زادي سميث عميقًا في تشكّلات المجتمع البريطاني المتعدّد الأعراق. فزواج آرشي الثاني من فتاة جامايكية تصغره كثيرًا ينتج عنه آيري، الفتاة الألمعية ذات الشخصية الغريبة. فيما كان على صمد إقبال أن يتزوّج في سنّ متأخّرة، فقد كان في انتظار زوجته أن تولَد! فينجب منها توأم أولاد يأخذ كلّ منهما طريقًا في الحياة: أحدهما طريق العلم، والآخر التطرّف.
اعتُبر أسلوب الكاتبة تذكيرًا للقرّاء بجين أوستن، وقد قال سلمان رشدي عن «أسنان بيضاء» في مقال مطوّل عنها: «[إنها] عالم هجين لا يهدأ من الأصوات والأفعال والحكايا.»

«زيدي سميث هي تشارلز ديكنز ما بعد الحداثة الأدبية»
واشنطن بوست

فازت بثمان جوائز أهمها جائزة صحيفة غارديان، ورُشحت لنيل ثلاث أخرى.

Photograph: Shutterstock
Cover design: Diana Chamma

ISBN 978-9948-37-976-8
9 789948 379768

روايات
REWAYAT